سيرة

سو بريدو

أنا عبوة ديناميت!

حياة فريدريك نيتشه

ترجمة:

أحمد عزيز سامي

سارة أزهر الجوهر



أنا عبوة ديناميت!

حياة فريدريك نيتشه



أنا عبوة ديناميت!، سو بريدو
ت: أحمد عزيز سامي سارة أزهر الجوهر

الطبعة الأولى ٢٠٢٠

Nabu Publishers
تلفون: ٩٦٤٧٨٠٤٤٢٣٦٢٩+
ص.ب: ٥٠٤٧ مكتب بريد الرشيد، بغداد، العراق
E-mail: info@nabupub.com
التوزيع في العالم العربي: دار التنوير

التصميم والإخراج الفني: وليد غالب

الترقيم الدولي: 2 - 103 - 472 - 614 - 978

سو بريدو

أنا عبوة ديناميت!

حياة فريدريك نيتشه

ترجمة

أحمد عزيز سامي سارة أزهر الجوهر



إهداء الكاتبة

إلى جورجيا وآليس وماري

وسام وجورج

اغدوا ما أنتم عليه، ما إن تفقهوا ماهيته

إهداء المترجمَين

إلى ناجي عبد الزهرة...

وإلى النيتشويين العرب...

شكر وتقدير

ساعدني الكثير من الأشخاص خلال رحلتي في تأليف هذا الكتاب، والتي استمرت أربع سنوات، وأنا ممتنةٌ جدًا لكل من قابلته ولم أقابله منهم، وأنا ممتنةٌ أيضًا للباحثين في الشأن النيتشوي، أحياءً كانوا أم أموات، الذين وضحوا وترجموا نصوصه، وفي بعض الأحيان أزالوا كل التفسيرات المُبتدعة لإعادة النصوص إلى أصولها النيتشوية وغربلة الحقيقي عن المزيف في هذه الملكية الأدبية.

أود شكر محرريَّ في المملكة المتحدة والولايات المتحدة، ميتز أينجل وتيم دوغان لإطلاق العنان لقوافل أفكارهما الجديدة، ونايجل واربرتون الذي أظهر كرمًا غزيرًا ولوّح بمطرقته كثيرًا خلال مراقبته الأوضاع الفلسفية.

في سويسرا وألمانيا، أود شكر إيردمان فون ويلامويتز-موليندروف الذي يعمل في مكتبة الدوقة آنا آماليا في فايمار، وتانجا فيهلنغ التي تعمل في مؤسسة كلاسيك شتفتنغ الثقافية، والبروفيسور بيتر آندريه بلوك والدكتور بيتر فيلووك الذين يعملان في مؤسسة نيتشه في سيلس ماريا، وكاتيا فليتشر التي تعمل في متحف رتشارد فاغنر في تربشن.

في المملكة المتحدة، أود شكر فيليسيتي براين وميشيل توفام وكل موظفي مؤسسة فيليسيتي براين. شكري الخاص لموظفي فابر، وبالأخص لورا حسن وإيمي فرانسيس ودونا باين وآن أوين وآنا ديفيدسون وجون

غريندرود وصوفي بورتاس. شكري لإيلانور ريس محررة الكتاب وراشيل ثورنز لتحصيل التراخيص. شكري للويز دافيت (قريبة هاري كيسلر) وقسم الكلاسيكيات في مدرسة غودلفين في لندن. أود شكر روجر لوماكس لتركيزه على تعقيدات حوادث القرن التاسع عشر، ولورا ساندرسون للجلسة المرحة التي أقامتها حول الشذرات. أنا ممتنة للعاملين في مؤسسة أندرو نورنبرغ، وكما هو الحال دائمًا، لطاقم العمل كليّ المعرفة في مكتبة لندن.

في الولايات المتحدة الأمريكية، بالإضافة إلى تيم دوغان أود شكر جورج لوكاس وويليام وولفسلاو وهيلاري مكليلين على عملهم في التحقق من الوقائع.

شكري الخاص إلى جيليان مالباس وكريستوفر سنكلير-ستيفنسون والراحل توم روزنتال، على تشجيعهم لي ودعمهم إياي منذ بداية تأليف هذا الكتاب. شكري لأنتوني بييفور وأرتميس كوبر ولوسي هيوز-هاليت وسارة بكويل لكل محادثاتهم المفيدة. شكري الجزيل لعائلتي للباقتهم ونقدهم وبحثهم لمساعدتي، ولتسامحهم مع شبحي الذي يطوف في المنزل طيلة فترة تأليف الكتاب.

مقدمة المُترجمَين

فيلسوف لا يعرف «حياته» قرّاء اللغة العربية!

تعّرف القارئ العربي على فلسفة نيتشه منذ بداية القرن العشرين، ولم يكن قد مضى على وفاته سوى أربع سنوات، فقد تأثر به وكتب عنه كثير من المفكرين والباحثين العرب مثل مرقص فرج بشارة وسلامة موسى وفرح انطون الذي كتب مقالًا بعنوان «فيلسوف لا يعرف اسمه قرّاء اللغة العربية»، تناول فلسفة نيتشه وأولاها جُلّ عنايته. توالتِ بعدها دراساتٌ قدمها كبار المفكرين من بينهم عبد الرحمن بدوي وعباس محمود العقاد، الأخير الذي جمع بين نيتشه والمتنبي؛ فضلًا عن تأثر جبران خليل جبران البالغ بوالد زرادشت. في ضوء هذا الاهتمام البالغ، ترجم فليكس فارس «هكذا تكلّم زرادشت» في ثلاثينيات العقد المنصرم ليقدم إنجيل نيتشه للقراء العرب.

لكن رغم هذا التركيز على فلسفة نيتشه وأفكاره ومقولاته الأساسية، لم تُسلط أضواءٌ مكثفةٌ على حياته وتفاصيلها وحوادثها ومصائبها، تلك الحياة التي شكلت فلسفة المطرقة النيتشوية. باستثناء بعض المقتطفات من حياته، لم تُترجم أية سيرة كاملة لنيتشه إلى اللغة العربية، وعلى الرغم من هذا، كان نيتشه اسمًا يحيطه سوء الفهم، وفيلسوفًا أثار ويثير الكثير من النقاشات

والجدالات حول أفكاره الأساسية وكلمات فلسفته المفتاحية. يربطه البعض بالنازية وبمعاداة السامية، ويصفه آخرون بكاره النساء والمتحامل على المرأة، بينما يراه أتباعه من العرب- مع أن نيتشه لا يحبذ الأتباع- مفكرًا كثّ الشاربَين يحمل مطرقته ويجوب عالم الأصنام الفكري مطيحًا بهذا الوثن الفلسفي تارة ومقوّضًا حصونًا فكرية منيعة تارةً أخرى، يرونه رمزًا تنويريًا تصلح فلسفته أن تكون نهج حياة.

هنا نقدم الترجمة العربية لكتاب «أنا عبوة ديناميت! حياة فريدريك نيتشه»، سيرة كاملة رائعة ومميزة باسلوبها وسردها، والتي رُشحت لأكثر من جائزة وتُرجمت إلى أكثر من لغة مع أنها صدرت منذ عام واحدٍ فقط، عام ٢٠١٨، كما قدمت الصحف العالمية المعروفة الكثير من المراجعات حولها أُنجزت هذه السيرة على يد الروائية الإنجليزية سو بـريدو المتخصصة بكتابة السير الذاتية والتي كتبت سيرة حياة الرسام النرويجي الشهير «ادوارد مونش» مبدع لوحة الصرخة وغيرها، وسيرة حياة المسرحي السويدي المعروف «أوغست ستريندبرغ».

تكمن أهمية هذه السيرة في أنها تزيل الضبابية التي تحيط باسم نيتشه في الوطن العربي والعالم، وتقدم لنا نيتشه جديد لم نتعرف عليه من قبل. بطريقة استثنائية، تبددُ بـريدو غيوم سوء الفهم والالتباس التي تكتنف فلسفة وحياة هذا الفيلسوف المثير للجدل وتوضح ما يجدر توضيحه فيما يخص مسألة علاقته بالنساء ومنظوره للعنصرية العرقية، وحتى مسألتي جنونه وموته اللتان يلفّهما الغموض، إضافةً إلى قضايا نيتشوية أخرى. كما تقدم هذه السيرة عرضًا تفصيليًا سَلسًا للحوادث والمصاعب التي رافقت تأليفه لمعظم كتبه وتستعرض أفكاره الرئيسية كالإنسان الأعلى والعَوْد الأبدي وتقبّل المصير وغيرها.

نكتفي عند هذا الحد، لنفسح المجال لك عزيزي القارئ العربي حتى تسبر أغوار حياة هذا الفيلسوف المتجول والمغامر ذو الروح الحرة. لتبدأ الرحلة...

١

أمسية موسيقية

أنت بحاجةٍ للحشيش للتخلص من ضغطٍ عصبيٍّ لا يُحتمل. حسنًا، عندها أنا بحاجةٍ إلى فاغنر، إنه الترياقُ لكلِ شيءٍ ألماني.

هذا هو الإنسان، «لمَ أنا بهذا الذكاء»

في التاسع من تشرين الثاني ١٨٦٨، تحدث نيتشه ذو الأربعة والعشرين ربيعًا عن حوادثٍ كوميديةٍ مرَّ بها إلى صديقه وزميله إروين رود في جامعة لايبزيغ.

حيث قال «ويأتي على رأس هذه الحوادث:

١ . إجتماعٌ مسائي للجمعية او الأساتذة المساعدين.

٢ . خيّاط مطرود من عمله.

٣ . لقاء مع «سين»(*).

وستشهدُ بضعُ نساءٍ مسنات على بعضٍ من هذه الحوادث.

(*) تدل «سين» هنا على ريتشارد فاغنر. (المترجم)

«في مساء الخميس، أخذني رومونت إلى المسرح، وهنا بدأت أعصابي تهدأ... جلسنا وكأننا آلهة الأولمب العظماء اجتمعنا لنحكم على عملٍ رديء تحت عنوان «إيرل إسكس»، وأنا بطبيعة الحال بدأت بالتذمر...

«أقيمت أول محاضرة للجمعية الكلاسيكية للفصل الدراسي في مساء اليوم التالي، وقد سُئلت بلطف شديد عما إذا كنت سأشارك فيها. كنت بحاجة إلى التزود بالأسلحة الأكاديمية الضرورية ولكني لم أستغرق وقتًا طويلًا للاستعداد، وسعدت عند رؤيتي حشدًا مجتمعًا مكونًا من أربعين مستمعًا عند دخولي الغرفة... تحدثتُ بحرية تامة... مستعينًا ببضع ملاحظات على قصاصة ورق... أعتقد أن هذه المهنة الاكاديمية ستلائمني. عندما وصلت الى المنزل، وجدت ملاحظة على ورقة معنونة إليّ تحمل هذه الكلمات: «إن كنت ترغب في مقابلة ريتشارد فاغنر، عليك الحضور الى مقهى المسرح في تمام الساعة ٣:٤٥ مساءً. ويندش.» رمتني هذه المفاجأة بما يشبه الدوامة... هرعت إلى الخارج لأقابل هذا الصديق المحترم ويندش، وعندما وجدته زوَّدني بمعلومات أكثر. كان فاغنر يتستر على هويته بصرامة في جامعة لايبزيغ، فلم يعرف الصحفيون مكانه بتاتًا، أما موظفو الجامعة فقد أُمروا بالصمت المطبق. الآن، السيدة بروكهاوس[1]، شقيقة فاغنر الذكية التي كنا نعرفها، عرفت صديقتها زوجة الأستاذ ريتشل على أخيها، الذي عزف مقطع «Meisterlied» من أوبراه «Die Meistersinger الأساتذة الموسيقيون»، والتي عزفها لأول مرة منذ عدة أشهر مضت، فأخبرته المرأة الفاضلة أنها تعرف هذه المقطوعة الموسيقية حق المعرفة (فقد سمعت نيتشه يعزفها رغم أنها لم تُعزَف على الملأ إلا مؤخرًا).

يالحظي السعيد، فقد أعلن فاغنر عن رغبته التي تعلو كل شيء بأن يقابلني في الخفاء، ومن المُفترض أن ألقاه في أمسية يوم الأحد.

خلال الأيام التي تفصلني عن الموعد، كان مزاجي أشبه بمزاج بطلٍ في رواية. صدقني، فالتمهيدات لهذا اللقاء، مع الأخذ في الاعتبار مدى صعوبة التقرب من هذا الرجل غريب الأطوار، أقرب ما يكون الى حدث

من عالم القصص الخيالية. قررتُ أن أرتدي ملابس أنيقة جدًا بما أن الكثير من الشخصيات سيحضر هذه الامسية، وكنت سعيدًا بأن خياطي وعدني بإكمال بدلتي الجديدة لأرتديها يوم الأحد.

وأتى اليوم الموعود، فكان فظيعًا ممطرًا ومثلجًا لدرجة أني ارتعشتُ من مجرد فكرة الخروج. وبهذا كنتُ راضيًا عندما زارني روشر[٢] بعد الظهر ليخبرني بعض الأمور حول المدرسة الإيلية (مدرسة إغريقية فلسفية قديمة، تأسست قبل الميلاد بستة قرون على الأرجح) وعن الإله في الفلسفة. بعد حين بدأ ستار الليل ينسدل ولم يأتِ الخياط بعد، وحان موعد رحيل روشر، فرافقته الى الخارج وكملتُ طريقي الى الخياط لأزوره بنفسي. وهناك وجدت كلتا يديه مشغولتين في خياطة بدلتي، فوعدني أن يرسلها إلي خلال ثلاثة أرباع الساعة. غادرته يغمرني الرضا ومررتُ بمطعم كينجز (مُلحق بجامعة لايبزيغ حيث اعتاد الطلاب الجلوس) وبدأت بقراءة Kladderadatsch (مجلة ساخرة مصورة) فوجدتُ لَعمري ملاحظة تُفيد بأن فاغنر في سويسرا، لكني كنت أعلم أنني سأراه ذلك المساء، وعلمتُ أيضًا أنه استلم بالأمس رسالة من ملك بافاريا اليافع لودفيغ الثاني معنونة «إلى المؤلف الموسيقي الألماني العظيم ريتشارد فاغنر».

«عندما عدتُ إلى البيت لم أجد الخياط، فشرعتُ بقراءة قصائد يودوسيا على مهل[٣]، ولم يعكر صفو مزاجي إلا صوت طرقٍ عالٍ قادمٍ من بعيد. بعد قليل أيقنت أن ثمة أحد ينتظر خلف البوابة المصنوعة من الحديد المطوّع التي كانت مقفلة كحال الباب الأمامي. صحتُ عبر الحديقة على الرجل وأخبرته أن يدخل من الباب الخلفي، إلا أن هزيم المطر حال بيني وبينه فلم يفهمني، وزد على ذلك البيت الذي يعج بالضوضاء. أخيرًا، فُتحت البوابة ودخل رجلٌ مسنٌ قصيرٌ يحمل صندوقًا وصعدنا الى غرفتي. كانت الساعة السادسة والنصف وهو الوقت المناسب لأن أستعد وأرتدي ملابسي لأن مكان الحفل كان بعيدًا عن منزلي الى حدٍ ما. سلمني الرجل أغراضي فجربت ارتدائها

وكانت مناسبةً تمامًا، بعدها أحسستُ بنذير شؤم عندما سلمني الرجل الفاتورة وأخذتها بأدب، فأراد أن يستلم المبلغ عند تسليم البضاعة. استغربت ذلك وشرحت له أني لن أتعامل معه لأنه مجرد موظف، لكنني سأتعامل مع الخياط نفسه. أصرَّ الرجل وضاق الوقت فأخذت الملابس وبدأتُ ارتدائها بيد أنه انتزعها مني. بدفعة مني ودفعة منه بدأ مشهد مسرحي كوميدي، أتعارك فيه بأذيال قميصي محاولًا ارتداء بنطالي الجديد.

خدشٌ للكرامة وتهديد جلل، لعنتُ خياطي ومساعده وأقسمت على الانتقام. في تلك الاثناء كان يغادر الغرفة حاملًا أغراضي، وتلك كانت نهاية الفصل الثاني. ارتميتُ مكتئبًا على أريكتي بأذيال قميصي وفكرتُ فيما إذا كان ارتدائي المخمل الأسود يليق بشخصٍ مثل ريتشارد.

الساعة الثامنة إلا ربعًا والمطر ينهمر في الخارج، كان يُفترض بنا مقابلة بعضنا في مقهى المسرح في تمام الساعة السابعة والنصف. أسرعتُ الخطى مخترقًا الليل العاصف الرطب، رجلٌ صغيرٌ لا يرتدي بدلة رسمية.

دخلنا الى الصالة وكانت فارغة عدا دائرة العائلة التي شكلها ريتشارد ونحن الاثنان، وهذا ما جعلنا مرتاحين. قُدِّمتُ الى ريتشارد ووجهتُ إليه بضع عبارات تقدير، فأراد أن يعرف كيف أصبحت على هذا القدر من المعرفة بموسيقاه، لاعنًا أداء أوبراه وساخرًا من قادة الأوركسترا الذين ينبهون العازفين للانتباه الى عزفهم البارد، « أيها السادة اجعلوا عزفكم ملتهبًا، يا أصدقائي الأعزاء اجعلوه ملتهبًا أكثر!...

قبل وبعد العشاء عزف فاغنر كل الأجزاء المهمة من أوبرا «Meistersinger»، مقلدًا كل نغمة بحماس عظيم، إنه رجلٌ متقدٌ يفيضُ حماسًا بحق ويتحدث بشكل سريع، شخصيةٌ ألمعية يمكنه أن يحوّل حفلة خاصة كهذه الى ما يشبه حدثًا مرحًا بشكل متطرف. خلال جلوسنا معًا، خضتُ معه حديثًا طويلًا عن شوبنهاور، ويمكن لك أن تتخيل كم استمتعت بإصغائي لهذه النبرة الدافئة التي تفوق الوصف التي تحدث بها

عنه، وعن كمية الامتنان التي يشعر بها نحوه وكيف أنه الفيلسوف الوحيد الذي فهم جوهر الموسيقى»(*).

لم تنل كتاباتُ شوبنهاور التقدير الذي تستحقه ولم تكن معروفة على نطاق واسع في ذلك الوقت، وكانت الجامعات ترفض رفضًا قاطعًا الاعتراف به فيلسوفًا من الأساس، بيد أن نيتشه يتخبط في زوبعة من الحماس عند سماعه اسم شوبنهاور كونه اكتشف مؤخرًا وعن طريق الصدفة كتاب العالم كإرادة وتمثل، نفس الصدفة أو نفس سلسلة المصادفات المصيرية، كما يحب أن يسميها(٤)، التي دبرتها يد الطبيعة المعصومة والتي أدت الى هذا الاجتماع مع فاغنر في صالون بروكهاوس الأدبي.

تشكلت أول حلقة في سلسلة المصادفات قبل شهر من الاجتماع عندما سمع نيتشه المقدمات الموسيقية لاثنين من أوبرا فاغنر الأخيرتين «تريستان وإيزوولده» و«الأساتذة الموسيقيون لنورمبرغ»، فكتب في اليوم ذاته «ارتعش كل عرقٍ من عروقي وكل عصب في جسمي»، ثم بدأ يتعلم شغوفًا عزفها على البيانو. كانت الحلقة الثانية هي سماع أوتيلي بروكهاوس عزفه، فأخبرت أخاها فاغنر بهذا. أما الحلقة الثالثة فهو تعلق فاغنر العميق بالفيلسوف الغامض (شوبنهاور) الذي اعتادت كتابته أن تكون عزاءً لنيتشه منذ أن وصل إلى لايبزيغ أول مرة، تعيسًا ووحيدًا قبل ثلاث سنوات.

«أنا (نيتشه) كنتُ أعيش في حالة تردد بائسة آنذاك، وحيدًا مع بضع خيبات وتجارب أليمة بلا أي مبادئ جوهرية، بلا أمل وبلا أي ذكرى سعيدة... يومًا ما وجدتُ هذا الكتاب في متجر للكتب المستعملة فحملته باعتباره كتابًا غير معروف بالنسبة لي، بعد أن قلبتُ أوراقه لا أعرف أي شيطانٍ همس لي «خذ هذا الكتاب معك إلى المنزل»، وكان هذا نقيضًا لعادتي بالتردد عندما أرغب بشراء الكتب. عندما وصلت الى المنزل اضطجعت على الأريكة مع كنزي الذي ربحته منذ قليل وبدأت هذه العبقرية المتقدة

(*) كل ما تقدم هو جزءٌ مما حكاه نيتشه لرود. (المترجم)

التشاؤمية تتسلل الى أعماقي... رأيتُ هنا مرآةً أبصرتُ خلالها العالم والحياة وطبيعتي بجلال مرعب... وهناك رأيت السقم والعافية والمنفى والملجأ والجنة والجحيم»[٥].

في مساء ذلك اليوم في صالة بروكهاوس، لم يكن هناك وقت للتحدث أكثر عن شوبنهاور بسبب لغة فاغنر الحلزونية كما وصف نيتشه، عبقريته في تشكيل قطع الغيوم وربطها ببعض، التفافه واندفاعه ودورانه السريع في الهواء، شموليته وتقهقره[٦]، كل هذا كان يفرقع من حوله.

يتابع نيتشه بسرد التفاصيل في رسالته:

«بعد العشاء، تلى (فاغنر) مقطعًا مختصرًا من سيرته الذاتية التي كان يعمل عليها آنذاك، مقطعًا مبهجًا حقًا من أيامه عندما كان طالبًا في لايبزيغ، ذكريات لا يمكنه التحدث عنها من دون أن يضحك، فهو يكتب أيضا بمهارةٍ وذكاءٍ استثنائيين. أخيرًا، عندما هممنا بالخروج، صافح يدي بحرارة داعيًا إياي بروحِ أخوية أن آتي لزيارته مجددًا لتأليف الموسيقى والتحدث عن الفلسفة. علاوة على ذلك، إئتمنني بمهمة تعريف أخته وأقاربه بموسيقاه، والتي قبلتُ بها بكل جدية. سأرسلُ مجددًا عندما أنظر لهذه الأمسية بموضوعية أكثر ومن مسافة أبعد. أما الآن، فوداعٌ دافئٌ وأمنيات بالسلامة. ف.ن».

عندما غادر نيتشه قصر بروكهاوس البديع الكبير المنزوي، حيّته عند كل زاوية ريحٌ عاصفةٌ وخليط من الثلج والمطر ينقضّ على مشيته المتجمدة إلى حي ٢٢ Lessingstrasse، حيث استأجر غرفة كبيرة خالية من الأثاث من البروفيسور كارل بيدرمان، محرر الجريدة الليبرالية Deutsche Allgemeine Zeitung، واصفًا مزاجه في تلك اللحظة على أنه ابتهاج لا يُمكن وصفه. لقد اكتشف نيتشه فاغنر أول مرة عندما كان في المدرسة، فقد كتب «بأخذ كل شيء في نظر الاعتبار، كان يمكن لمرحلة شبابي أن تكون كريهة جدًا لولا موسيقى فاغنر»[٧]. وبهذا فإن التعويذة التي ألقاها عليه

المؤلف الموسيقي لم تُفَك أبدًا. إن ملامح فاغنر بائنةٌ في كتابات نيتشه أكثر من أي أحد آخر، بمن فيهم يسوع وسقراط وغوته [٨]، فقد أهدى كتابه الأول إلى فاغنر واثنين من كتبه البالغ عددها أربعة عشر كتابًا، يحملان اسم فاغنر في عنوانيهما. كتب نيتشه في كتابه الأخير هذا هو الإنسان أنه ما يزال يبحث عبثًا في كل مجالات الفن عن عمل «أخّاذ على نحو خطير، ولا حدود لفتنته وفرادته كموسيقى "تريستان"» [٩].

منذ أن كان صغيرًا، طمح نيتشه أن يُصبح عازفًا، بيد أن كونه تلميذًا ذكيًا استثنائيًا في مدرسة أكاديمية استثنائية حيث للكلمات وزنٌ أكثر من الموسيقى، دفعه إلى أن يتخلى مكرهًا عن هذه الفكرة تمامًا عندما بلغ الثامنة عشر من العمر تقريبًا. حين التقى فاغنر لم يكن قد أصبح فيلسوفًا بعد، بل كان مجرد طالبٍ جامعيٍ في جامعة لايبزيغ يدرس الفيلولوجيا الكلاسيكية، علم اللغات واللغوياتِ الكلاسيكية.

شابٌ طلقُ المحيا، مثقفٌ ورصين وعنيد، ممتلئُ الجسم وليس سمينًا. من الصور يُخيَل لنا أن ملابسهُ مُستعارة، فعند النظر إلى ملابسه يبدو المرفقين والركبتين في غير مكانهم والسترة مشدودة عند الأزرار. بقُصره ومظهره الاعتيادي، أنقذته عيناه الجذابتان الاستثنائيتان من أن يتم تصنيفه في خانة التافهين، فأحد بؤبؤيه يبدو أكبر من الآخر، ويقول البعض إن قزحيتيه كانتا بنيتان والبعض الآخر يقول إنهما باللون الرمادي المزرَقّ. تحدّق عيناه في العالم بشكٍ ضبابيٍ جرّاء قصر النظر الحاد، لكن ما إن يركز نظره على شيء توصف نظرته بالثاقبة المخترقة المقلقة، نظرةٌ تخنقُ الكذب في الحنجرة.

في أيامنا هذه نعرف نيتشه من الصور والتماثيل النصفية والصور الشخصية التي التُقطت في سنينه المتقدمة حيث اندثر فمه وجزء كبيرٌ من ذقنه تحت شاربَيه اللذين يشبهان قرنا كبش كبير، إلا أن الصور المُلتقطة له مع زملائه الطلاب في جامعة لايبزيغ تُظهر لنا أنه عندما كان في العمر المناسب لظهور الشعر على وجه الشبان، فإن شعر وجهه لم يكن لافتًا للنظر مقارنة معهم. يمكننا رؤية شفتيه ممتلئتان ونظرتان، وهذه حقيقة أكدتها فيما

بعد لو سالومي، إحدى النساء القليلات اللواتي قبّلنه، أما ذقنه فنلاحظ أنه ركينٌ ومدوَّر. في الوقت الذي تحولت فيه التقليعة الثقافية الى خصلات شعرٍ منسدلة على الجبهة، وربطة عنق على شكل بابيون تعلن عن أهلية الرجل لإقامة العلاقات الرومانسية، أعلن نيتشه عن ما بعد العقلانية الرومانسية بالتشديد على إظهار جبهته المدهشة وعرش دماغه الخلّاب رافعًا شعره إلى الأعلى، ثم إخفاء شفتيه الجذّابتين وذقنه الجاد بشارب كبير.

كان نيتشه يغرق تدريجيًا في بحر التعاسة لكونه فيلولوجيًا، ففي رسالة كتبها بعد لقائه مع فاغنر بأحد عشر يومًا وصف نفسه وزملاءه الفيلولوجيين أنهم أشبه «بالفراخ الغاضبة لفيلولوجيي عصرنا هذا، وأنا مضطرٌ كل يوم لمشاهدة تكاثرهم السريع الشبيه بتكاثر الشامات، خدودهم المتدلية وعيونهم العمياء، غبطتهم عند إمساكهم ديدانًا ولا مبالاتهم للمشكلات الحقيقية، مشكلات الحياة المُلحة». [(١٠)] ما ساهم في تفاقم تشاؤمه هو أنه كان جيدًا بشكل استثنائي فيما وصفه «بتكاثر الشامات» المقيت، إلى درجة أنه بعد فترة قصيرة سيُعرض عليه كرسي قسم الفيلولوجيا التدريسي في جامعة بازل، ليُصبح بهذا أصغر الأساتذة سنًا على الإطلاق، إلا أن هذا المجد لم يكن قد تحقق بعد في أمسية لقائه بفاغنر الذي عامله بصفته نظيره وأبدى سرورًا بالتعرف عليه أكثر في المستقبل، فكان هذا شرفًا جبارًا.

مُلقبًا بـ«السيد» (The Master)، كان المؤلف الموسيقي فاغنر في منتصف الخَمسينيات من عمره ويتمتع بشهرةٍ واسعةٍ في أرجاء أوروبا. كانت كل تحركاته تُذكر في الصُحف كما اكتشف نيتشه في وقتٍ سابقٍ من ذلك المساء عندما قرأ Kladderadatsch في المقهى، فلو زار فاغنر إنجلترا، كانت الملكة فيكتوريا والأمير ألبرت ليطمئنا عليه بكل كرم، وفي باريس تُنسق الأميرة باولين ميتيرنك بعض أموره، أما الملك لودفيغ من بافاريا فيخاطب فاغنر باسم «صديقي المحبوب الملائكي» وكان يخطط فعليًا لإعادة هندسة مدينة ميونخ على شرف موسيقاه.

توفّي لودفيغ قبل وضع أسس هذا المخطط الباهظ (على الأرجح أنه قُتل

لإيقاف مشاريعه العمرانية المتهوّرة التي أفلست بلاده) لكن ما زال بإمكاننا رؤية الخطط المعمارية؛ شارع جديد يخترق المدينة من منتصفها عابرًا نهر إيسار بجسرٍ مشيّدٍ من الطابوق الفاخر تذكيرًا بجسر وبتان القوس قزحي، والذي يؤدي الى الفالهالا في حلقة فاغنر، منتهيًا بدار أوبرا فخم يرمز إلى الكوليسيوم مقسومًا عموديًا إلى نصفين بجناحين في كل نصف. كانت موسيقى فاغنر بالنسبة للملك لودفيغ «عزائي الوحيد الذي يشع جمالًا وسموًا»، وهو شعورٌ لطالما أحسّ به نيتشه.

منذ صغره، كانت حساسية نيتشه مفرطة تجاه الموسيقى، فقد أجمع أفراد عائلته على أنها كانت أحب إليه من الكلام. لقد كان طفلًا هادئًا إلى درجة أن والده، القس كارل لودفيغ نيتشه[١١]، لم يكن يسمح لغيره بالتواجد في مكتبه أثناء انهماكه في أعمال الأبرشية أو إعداد خطبه، فكان الأب وابنه يمضيان ساعات يؤنسان بعضهما في تناغم سلس. لكن كحال الاطفال في سنواتهم الثانية والثالثة، كانت تنتاب فريدريك الصغير نوبات غضب عنيفة فيصرخ ويضرب بيديه وقدميه بشراسة، عندها لا يمكن لشيء أن يهدئه، لا أمه ولا ألعابه، لا الطعام ولا الشراب، إلا برفع والده غطاء البيانو ويبدأ بالعزف.

في أمّةٍ تهوى الموسيقى، كان القس كارل لودفيغ نيتشه بارعًا بشكل استثنائي في العزف، فكان الناس يقطعون أميالًا لسماع عزفه. كان قسًا لوثريًا في أبرشية روكن، جنوب لايبزيغ، حيثُ تولّى يوهان كريستيان باخ منصب المخرج الموسيقي لمدة ٢٧ عامًا حتى مماته. كان كارل لودفيغ معروفًا بعزفه المنفرد لموسيقى باخ، وما يدعو للإعجاب أكثر أنه كان محل إحتفاء لموهبته الاستثنائية على الارتجال، موهبةٌ ورثها نيتشه عنه.

كان أسلاف نيتشه سكسونيين متواضعين، جزّارين يسكنون في أكواخ ويعملون في محيط كاتدرائية مدينة ناومبورغ. والد كارل لودفيغ، فريدريك أوغست نيتشه، نقل العائلة إلى أعلى السلم الاجتماعي بدخوله في السلك الكنسي ورفع مكانته أكثر عندما تزوج إيردمث كراوس ابنة رئيس الشمامسة، امرأة متعاطفة مع نابليون بونابرت كليًا، فأنجبت له كارل لودفيغ

والد نيتشه في العاشر من تشرين الأول عام ١٨١٣، قبل عدة أيام من حرب الأمم التي سُميت أيضا بحرب لايبزيغ، في منطقة متاخمة لأرض المعركة التي هُزم فيها نابليون. أحب نيتشه كثيرًا أن يحكي هذه القصة، فقد اعتبر نابليونًا آخر لا أخلاقيًّا عظيمًا، وآخر لاعب في السلطة من دون ضمير، تركيبة تجمع بين الإنسان الأعلى والوحش، وهذا الآصرة الهشة أعطته، كما اعتقد، سببًا فيزيو-سيكولوجي ما قبل الولادة لافتتانه بهذا البطل، فكانت إحدى أمنيات حياته غير المحققة زيارة كورسيكا، مكان ولادة نابليون.

بطبيعة الحال، كان مقدّرًا لكارل لودفيغ السير على خطى والده في الكنيسة فالتحق بجامعة هاله المجاورة التي اشتهرت منذ فترة طويلة بتعليمها اللاهوت، وفيها تعلم اللاهوت واللغات اللاتينية واليونانية والفرنسية والتاريخ اليوناني والعبري والفيلولوجيا الكلاسيكية والتفسيرات الكتابية. لم يكن طالبًا استثنائيًا لكنه لم يكن غبيًّا، فقد عُرف ببذل جهودٍ عظيمة أثمرت بفوزه بجائزة البلاغة. عندما حان وقت تخرّجه من الجامعة في عمر الواحد والعشرين عامًا، عمل في مهنة التدريس في مدينة ألتينبورغ الكبيرة، حوالى ثلاثين ميلًا جنوب لايبزيغ.

كان كارل لودفيغ مُحافظًا ومؤيدًا للحكم الملكي، فجذبت هذه الصفات الرصينة انتباه الدوق جوزيف من مقاطعة ساكس ألتينبورغ الذي عيّنه للإشراف على تعليم بناته الثلاث، تيريز وإليزابيث والكسندرا. كان لودفيغ لا يزالُ في العشرينات من عمره آنذاك، إلا أنه تدبّر عمله على نحو مذهل وبلا أي ميل لإقامة علاقة عاطفية مع إحدى الفتيات.

بعد سبع سنوات من التدريس، تقدّم بطلب للحصول على منصب راعي أبرشية روكن على السهل الخصب الخالي من الأشجار، على بعد حوالى ١٥ ميلًا جنوب غربي لايبزيغ. في عام ١٨٤٢ انتقل إلى بيت القسيس مع والدته إيردمث التي أصبحت أرملة في ذلك الوقت. انتصب بيت القسيس جنبًا إلى جنب مع إحدى أقدم الكنائس في مقاطعة ساكسونيا، كنيسة أثرية على شكل حصن تعود إلى النصف الأول من القرن الثاني عشر. تحت حكم فريدريك بارباروسا، تضاعفت الأبراج الطويلة المستطيلة لتُشرف على

السهل الوارف الذي دافع عنه فرسان كراتش. في داخل غرفة المقدسات انتصب تمثال حجري عظيم لأحد الفرسان حيث كان نيتشه يرتعد منه لمّا كان طفلًا، فعندما يلمس شعاع الشمس عيني التمثال المرصعتين بالياقوت تظهران وكأنهما تشعان وتتوهجان.

في إحدى زياراته إلى أبرشية بوبليس، جذبت ابنة القس المحلي البالغة من العمر سبعة عشر عامًا انتباه القس كارل لودفيغ البالغ من العمر تسعة وعشرين عامًا. لم تتلقَ فرانشيسكا أولر الكثير من التعليم لكنها كانت تتحلى بإيمانٍ مسيحي بسيط وعميق ولم تكن ترغب في مصير أعظم من دعم زوجها في هذا العالم الأشبه بوادي دموع زائل.

تزوجا في عيد ميلاده الثلاثين، في ١٠ تشرين الأول ١٨٤٣، وانتقلت زوجته للعيش معه في بيت القس في روكن حيث كانت إيردمث، والدة كارل، تسيطر على البيت كله بعد أن تحولت إلى ربة منزل صارمة في عامها الرابع والستين، تعتمر قلنسوتها المنيعة مع تسريحة الضفائر المتعاكسة التي اعتادت نساء الجيل السابق التزين بها. كانت متعلقة جدًا بابنها، متحكمة بميزانية البيت والأسرة كلها بما امتلكته من موهبة سماع أخفت الأصوات، مما تتطلب إبقاء الأصوات هامسة على الدوام.

أما أعضاء العائلة الباقون فهما عمتا نيتشه: أوغستا وروزاليا، أختا القس غير الشقيقتين الأكبر منه سنًا العصبيتان والمعتلتان. نذرت العمة أوغستا نفسها للحياة المنزلية فلم تكن تسمح للعروس الجديدة فرانشيسكا بمساعدتها في المطبخ لئلا تُزيل الحواجز بينهما. «اتركي لي هذا العزاء الوحيد»، هذا ما كانت تقوله العمة أوغستا عندما كانت تعرض فرانشيسكا عليها المساعدة. أما العمة روزاليا فكانت ذات ميول ثقافية، فقد نذرت نفسها للأعمال الخيرية. عانت كلتا العمتان من مرض شائعٍ في الأعصاب، وكانتا دائمًا على بُعد خمس خطواتٍ من خزانة الأدوية التي لم تساعد في شفائهما أبدًا. ثالوث السلطةِ هذا المتكون من ثلاث مُسنات حوّل العروس فرانشيسكا إلى فردٍ لا طائل منه في منزلها، ولحُسن الحظ وجدت نفسها بعد أشهر قليلة من الزواج حبلى بفريدريك.

وُلد فريدريك فيلهلم نيتشه في ١٥ تشرين الأول عام ١٨٤٤، وعمّده والدهُ في كنيسة روكن، وسماه تيمنًا بالملك الحاكم فريدريك فيلهلم الرابع من بروسيا. بعد ذلك بعامين، في ١٠ تموز ١٨٤٦، أنجبت فرانشيسكا فتاة سُميت تيريز إليزابيث ألكسندرا، تيمنًا بأميرات ألتينبورغ الثلاث اللواتي درسهُنَ والدهن، لكنهم كانوا ينادونها باسم إليزابيث. بعد ذلك بعامين وُلد طفلٌ آخر في تشرين الأول، وسُمّي جوزيف تيمنًا بدوق ألتينبورغ.

كان القس ورعًا ووطنيًا على حد سواء، لكنه لم يخلُ من الاضطرابات العصبية التي أصابت والدته وأختيه غير الشقيقتين، فكان يقفل عليه باب مكتبه لساعات رافضًا تناول الطعام أو الشراب أو التحدّث، والأكثر إثارة للقلق من ذلك، كان يتعرّض لنوبات غامضة حيث يصمت فجأة في منتصف الجملة عند إلقاء خطبهِ ويحدّقُ في الفراغ، فتركض فرانشيسكا نحوه لتهزه، لكنه عندما يعودُ إلى وعيه يتّضح أن ما حدث غائبٌ عن إدراكه.

استشارت فرانشيسكا طبيب العائلة الدكتور كوتجار، فشخّصه مصابًا بمرض «الأعصاب» وأوصاه بالراحة، ولكن الأعراض ازدادت سوءًا حتى أُعفي القس من واجباته في الأبرشية. تم تشخيص نوباته الغامضة على أنها «تليُّن في الدماغ» ولأشهرٍ كان فريسة الرقود والصداع المعذِب ونوبات التقيؤ، وأخيرًا ضعف بصره بشدة حتى أصبح شبه أعمى. في خريف عام ١٨٤٨، كارل نيتشه ذو الخامسة والثلاثين ربيعًا، والمتزوج منذ خمس سنوات، توجه إلى سريره فتوقف نشاط جسمه كليًا.

كانت فرانشيسكا تُسحقُ تحت وطأة إيردمث والعمتين المصابتين بمرض عُصابي ووهن زوجها المُتزايد. وسط تجهم قاتم وإشاراتٍ سرّية يتبادلها البالغون في البيت، تدبّرت فرانشيسكا حماية أطفالها من الجو الكئيب بطريقة ما، ففي مذكراتها عن أيام طفولتهما يكتبُ فريدريك وإليزابيث عن الحرية والخفة التي وجدها الأخ وأخته في ساحة لعبهما التي لا حدود لها على ما يبدو، بما في ذلك برج الكنيسة الكبير والفناء والبستان وحديقة الزهور. كانا يتسللان إلى بركٍ يتدلى فوقها الصفصاف ليستمعا إلى زقزقة الطيور

ويشاهدا الأسماك السريعة تسبح تحت سطح الماء المصقول. كانا يعتبران المقبرة المكسوة بالأعشاب في الجزء الخلفي من المنزل «لطيفة»، لكنهما لم يلعبا بين أحجارها القديمة بسبب النوافذ الناتئة المكوّنة من ثلاثة شقوق والتي نُصّبت على سطح البناء المطلّ على المقبرة، حيث بدت وكأنها تتوهج مثل عيون الرب التي ترى كل شيء.

عظُمت معاناة كارل لودفيغ، ففقد بصرهُ وقدرته على الكلام، وفي ٣٠ تموز ١٨٤٩، توفّي عن عمرٍ يناهز الخامسة والثلاثين.

«جهزت الأبرشية سردابًا من الحجر خصيصًا له... آهٌ، لن يبرح صوت الأجراس الجهورة أذنيّ، لن أنسى النغمات الكئيبة لأنشودة «يا سيدي المسيح يا سلواي»! عبر الفضاءات الفارغة في الكنيسة هدر صوت الأرغن». كتب نيتشه ذو الثلاثة عشر عامًا هذه الكلمات في مذكّرات طفولته[١٢].

«في تلك الفترة، راودني حلمٌ سمعتُ خلاله موسيقى أرغن في الكنيسة، نفس الموسيقى التي سمعتها خلال جنازة أبي، وعندما حاولت أن أعرف سبب عزفها انفتح قبرٌ فجأة ونهض أبي منه ملتفًّا بكفنه، دخل مسرعًا الى الكنيسة وعاد بعد لحظة حاملًا طفلًا بيده، تثاءب التابوت مرة أخرى فدخل والدي وأُغلقت فتحته، فتوقفت أصوات الأرغن في الحال واستيقظتُ من نومي. في اليوم التالي مرضَ جوزيف الصغير ثم أصيب بتشنجاتٍ شديدة وتوفّي بعد ساعات، فلم يكن لحزننا حدود. تحقق حلمي بحذافيره عندما استلقت جثته الصغيرة بين ذراعي والده»[١٣].

تمّ التحقيق على نطاق واسع في سبب تدهور حالة القس كارل لودفيغ نيتشه حتى الموت. فاحتمالية موت القس مجنونًا هي مسألة ذات أهمية كبيرة للأجيال القادمة لأن نيتشه نفسه عانى من أعراض مشابهة لأعراض والده قبل أن يُجنّ فجأة وبشكل دراماتيكي في عام ١٨٨٨، عندما كان في الرابعة والأربعين من عمره، وبقي على حاله هذا حتى وفاته في عام ١٩٠٠. استمرت المطبوعات بتناول هذا الموضوع لكن الكتاب الأول حول نيتشه

«الباثولوجيا عند نيتشه» نُشر بعد سنتين من وفاته ١٩٠٢ لمؤلفه بول يوليوس موبيوس[١٤]، العالم المتخصِّص في علم الأعصاب والمتخصِّص في الأمراض العصبية الوراثية منذ سبعينيات القرن التاسع عشر فصاعدًا. كان فرويد يعتبر موبيوس أحد الآباء المؤسسين للعلاج النفسي، والأهم من ذلك تمثلت نقطة انطلاقه بتقرير ما بعد الوفاة الذي يخصّ القس نيتشه، والذي كشف عن «تليُّن الدماغ»، وهو مصطلح شاع استخدامه في القرن التاسع عشر لمجموعة متنوعة من أمراض الدماغ التنكسية.

يشتمل التفسير الحديث لـ«تليُّن الدماغ» على الانتكاس العام أو الورم في المخ أو الورم السُلّي أو حتى النزيف البطيء في الدماغ الناجم عن إصابات في الرأس. بعكس والده، لم يتم كتابة تقرير ما بعد الوفاة لنيتشه، وبالتالي كان من المستحيل على موبيوس، أو على أي محقق لاحق عمل أي شيء كمقارنة تقريريّ ما بعد الوفاة بين دماغي الأب وابنه، لكن موبيوس، الذي كان ينظر على نطاق أوسع، كشف عن ميل إلى مشكلات عقلية في جانب الأم من العائلة، فأحد أخواله انتحر مُفضلًا الموت على أن يُحتجز في مصح عقلي. أما من جهة الأب، فقد وُصف عدد من أشقاء وشقيقات إيردمث، جدة نيتشه، بأنهم «غير طبيعين عقليًا»، فأحدهم انتحر واثنان آخران أصيبا بنوع من الأمراض العقلية التي تتطلب رعاية نفسية[١٥].

قبل قلب الصفحة على مجال التكهنات هذا نهائيًا، يجب التطرّق إلى وفاة شقيق نيتشه الصغير. فقد عانى جوزيف من نوبات قبل وفاته بجلطة دماغية. لا يمكن للمرء أن يخلص إلى نتيجة محددة، لكن لا شك في أن في عائلة نيتشه ميلًا قويًا إلى عدم الاستقرار العقلي أو العصبي.

كان كارل لودفيغ نيتشه في الخامسة والثلاثين من عمره عندما توفّي، أما فرانشيسكا فكانت في الثالثة والعشرين، نيتشه في الرابعة وإليزابيث في الثالثة من عمرها. طُلب من العائلة الخروج من بيت القس لفسح المجال للقس الجديد. قررت الجدّة إيردمث العودة إلى ناومبورغ حيث معارفها وصِلاتها الممتازة، فقد كان شقيقها واعظًا في الكاتدرائية. استأجرت شقة في الطابق

الأرضي في نيوكاس، وهو شارع متواضع ولكنه جيد بمنازل شبه منفصلة. أخذت إيردمث الغرفة الأمامية لنفسها، ووضعت العمتان روزاليا وأوغستا في الغرفة التي بجانبها.

كانت فرانشيسكا تتلقّى معاشًا للأرامل قدرهُ تسعون تالر سنويًا، بالإضافة إلى ثمانية تالر لكل طفل، وقد زاد هذا المبلغ معاشًا تقاعديًا صغيرًا من محكمة ألتينبورغ، لكن حتى مع هذين الراتبين كان من الصعب عليها أن تستقل بنفسها، فلم يكن أمامها سوى الخضوع والانتقال إلى الخلف وأخذ أسوأ غرفتين في المنزل كله، حيث تشارك نيتشه وأخته غرفة نوم واحدة.

كتب نيتشه: «لقد كان أمرًا فظيعًا بالنسبة لنا أن نعيش في المدينة بعد أن كنا نعيش في الريف لفترة طويلة، فكنا نتجنّب الشوارع الكئيبة ونسعى بحثًا عن المساحات المفتوحة، مثل الطيور نحاول الهرب من القفص... الكنائس ومباني الأسواق الضخمة، مبنى البلدية والنافورة، حشود من الناس لم أكن معتادًا عليها... لقد دُهشت من حقيقة أن هؤلاء الناس لا يعرفون بعضهم بعضًا في الأغلب... من الأشياء التي أزعجتني كثيرًا هي الشوارع الطويلة المعبدة.»[١٦].

إن مدينة، يسكنها ١٥٠٠٠ نسمة مثل ناومبورغ، مخيفةً بالنسبة لأطفال خرجوا من رحم قرية صغيرة في روكن. في أيامنا هذه نعرف ناومبورغ مدينةً رومانسية تشهد لها الكتبُ المصورة، سراجُ نورٍ تسلل من «كتاب الساعات» من القرون الوسطى، مجموعة أبراج شاحبة تعلو تعرجات نهر زاله، لكن في الوقت الذي انتقلت فيه عائلة نيتشه لتسكن فيها، لم يكن نهر زاله يصلح للعب بل كان عبارة عن أداة دفاعية تنتصب بكافة تحصيناتها اللازمة.

قبل عامين من قدوم العائلة للعيش في ناومبورغ، هزت ثورات ١٨٤٨-١٨٤٩ أوروبا كلها في نوباتٍ من الانتفاضات التحررية التي مقتها والد نيتشه المناصر للملكية. ريتشارد فاغنر، من ناحية أخرى، أيّد بكلِّ إخلاص هذه الحقبة الثورية، متوقعًا أن تتمخّض عن ولادة جديدة

للفن والمجتمع والدين. حارب فاغنر إلى جانب الأناركي الروسي ميخائيل باكونين على المتاريس في انتفاضة درسدن في أيار ١٨٤٩، فموّل المتمردين بالقنابل اليدوية ونُفي بعدها عندما عُرف عنه ذلك، وهذا ما يُفسر سبب عيشه في سويسرا عندما اجتمع مع نيتشه.

كانت ألمانيا في خمسينيات القرن التاسع عشر هي اتحاد ألمانيا (١٨١٥-١٨٦٦)، وهو اتحاد ولايات تشكل عندما أعيد رسم خريطة أوروبا في اجتماع فيينا بعد هزيمة نابليون. تألف الاتحاد من تسع وثلاثين ولاية ألمانية مستقلة يحكمها الأمراء والدوقات والأساقفة والناخبون وما إلى ذلك. عنى هذا التشظي إلى دول صغيرة ذات عقلية محدودة أن لا وجود لجيش وطني ولا هيكل ضريبي مشترك ولا سياسة اقتصادية شاملة ولا سلطة سياسية حقيقية. تنافس الطغاة ضد بعضهم غير مدركين مزايا توحيد ولاياتهم، وما زاد الطين بِلّة وجود التشيكيين في بوهيميا والدنماركيين في هولشتاين والإيطاليين في التيرول. كانت مدينة هانوفر تحت حكم ملك إنجلترا حتى عام ١٨٣٧، وهولشتاين تحت حكم ملك الدنمارك ولوكسمبورغ تحت حكم الملك الهولندي. في عام ١٨١٥، عندما تشكّل الاتحاد الألماني، كانت النمسا هي العضو المهيمن في الاتحاد، لكن مع تقدم القرن وتراجع قوة المستشار النمساوي مترنيخ، ازدهرت ولاية بروسيا الغنية بالمعادن وأصبحت عدوانية على نحو متزايد في عهد المستشار أوتو فون بسمارك.

كانت مدينة ناومبورغ، في مقاطعة ساكسونيا، تحت حكم ملك بروسيا. إن ميزة المدينة التي يتذكرها نيتشه لا تقتصر فقط على خلافاتها داخل الاتحاد، بل تعود الى الأيام التي كانت تحت التهديد الفرنسي، فهناك خمس بوابات ثقيلة تُحكم إغلاق المدينة ليلًا، ولا يمكن لمواطنيها الدخول بعد إغلاق الأبواب إلا بِطَرْقِها بقوة وتقديم رشوة للحراس الليليين. لطالما استمتع نيتشه وأخته برحلاتهما الاستكشافية في «الجبال الخلابة ووديان الأنهار والطرق الملتوية للبيوت الريفية والقلاع»، لكنهما كانا يضطران في كل مرة للانتباه إلى جرس الحرّاس الليليين خشية أن يعيشا رعب هانسل وغريتيل المتمثّل في قضاء

الليل خلف أبواب المدينة المغلقة. كتب نيتشه في زرادشت «الجرس الذي أبصر ما لم يُبصره رجل، والذي أحصى دقّات قلوب آبائنا المؤلمة»(١٧)

بالقرب من ناومبورغ تقع غابة تورينغن السوداء التي تحتضن مقابر الأبطال القدامى، وكهوف التنانين والدولمينات(*) والهاويات المظلمة التي زرعت البذرة الأولى للأساطير الألمانية التي ترمز إلى لا عقلانية اللاوعي الألماني وعدم إمكانية التحكّم فيه. كان فاغنر ليُقدّر رحلة ووتان العقلية نحو اعتناق الفوضى، التي تؤدي إلى تدمير النظام القديم من خلال موت الآلهة وأبطال جميع العهود القديمة، فكان نيتشه يصفها في البداية بأنها شيطانية ولاحقًا ديونيسيوسية.

لا شيء يمكن أن يكون أكثر أبولونيّة، وأكثر حتمية ومنطقية من مدينة ناومبورغ نفسها، فمن نهر زاله تتدفق العقلانية والرفاهية مع دافع يصبو للمحافَظة الرومانسية. لقد نشأت المدينة مركزًا تجاريًا ومكانًا حيويًا للسلام بين القبائل المتحاربة القديمة، وعلى مر السنين تطورت إلى مركز للحرف اليدوية الألمانية والنقابات التجارية في العصور الوسطى. منذ تأسيس الكاتدرائية في عام ١٠٢٨، ازدهرت الكنيسة والدولة معًا على نحو متناغم ومعقول على مر القرون، خاصة خلال القرون البروتستانتية، حتى عندما جاء نيتشه ليعيش في ناومبورغ كانت مدينة كبيرة تتميز بصلابتها البورجوازية ومكانًا للحياة النقية. لقد أثبتت الأعجوبتان المعماريتان المتماثلتان بالشكل والمتمثلتان بمبنى الكاتدرائية ومبنى البلدية المهيب كيف يمكن أن تزدهر الكنيسة والدولة معًا برخاءٍ، إذا ما تماثلت الفضيلة الدينية والمدنية من خلال تعاونٍ متناغمٍ داخل مجتمع هانئٍ ماديًا ومتخلفٍ ظاهريًا.

خلال الفترة التي ترعرعت فيها الجدّة إيردمث في ناومبورغ، كانت دائرتها الدينية محكومةً بالمثل العليا اللوثرية المتمثلة في الواجب والتواضع والبساطة وضبط النفس، لكن عودتها إلى المدينة تزامنت مع حركة الصحوة

(*) نصوب حجرية مسطحة بعضها فوق بعضها عموديًا ترمز إلى العصور الأولى.

التي كانت تفضّل تجلّي الحماسة والرفعة على الاعتقاد العقلاني، فأعلن الناس أنهم ولدوا من جديد، وقد أتهموا أنفسهم علانيةً بأنهم خطّاؤون يائسون. لم يناسب هذا السلوك الجديد نساء عائلة نيتشه، وبينما لم يكن هناك أيّ شكّ في نية فريدريك في اتباع والده وجدِّه في السلك الكنسي، فلم يكن هناك أي شكّ في أن العائلة أصبحت جزءًا من هذه الدائرة الكنسية غير المنضبطة. بدلًا من ذلك، وجدت نساء عائلة نيتشه أن صديقاتهن من بين زوجات موظفي المحكمة وزوجات قضاة المحكمة العليا، وهي طبقة ثرية وقوية من مجتمع المقاطعة، لا ينزعجن من الأفكار الجديدة.

ضمن الزخم البطيء لمجتمع محافظ يتحرّك بوتيرة بطيئة، تكيّفت أرملتا رجلا الدين إيردمث وفرانشيسكا بظروفهما المستقرة غير المرفهة، بشكل مقبول مع مكانتهن بصفتهن من نسبٍ محترم من الممكن أن يكون ذا فائدة في تشكيل مُكوّن محافظ مقابل رعاية حصيفة. كأن نيتشه أبعد ما يكون عن شخص يمكن أن يتصرف بغضب في اجتماعات يحكمها التزمت، وهي حقيقة يعترف بها بأسى عندما يتحدث عن أيام صباه في ناومبورغ بأن تصرفاته كانت تنضح بكرامة يمتلكها شخص من العوام. لكن إن كان النص الذي كتبه واصفًا زيارة الملك لناومبورغ عندما كان في العاشرة من عمره لا يُظهر أي ميلٍ سياسي، فإنه يظهر بالتأكيد موهبة أدبية مبكرة:

«شرّفنا ملكنا العزيز بزيارة ناومبورغ، وقد أقيمت استعدادات كبيرة لهذه المناسبة. تزين جميع تلاميذ المدارس بالأبيض والأسود ووقفوا في السوق منذ الساعة الحادية عشرة صباحًا في انتظار وصول والد الشعب. بدأت السماء تتلبد بالغيوم شيئًا فشيئًا وهطلت الأمطار علينا، لكن الملك لم يأتِ!، دقت الساعة الثانية عشرة ولم يأت الملك. بدأ العديد من الأطفال يشعر بالجوع. هطلت أمطار جديدة، وتغطت جميع الشوارع بالطين، دقت الساعة الواحدة وازداد نفاد الصبر. فجأة، حوالى الساعة الثانية، بدأت الأجراس تدق وابتسمت السماء من خلال دموعها على الحشد المتمايل، ثم سمعنا حشرجة المركبات، فعصف الهتاف بالمدينة ولوّحنا بقبعاتنا ببهجة وهتفنا بأعلى أصواتنا. نسيم منعش

يرفرف بأعلام لا تعد ولا تحصى معلقة من الأسطح، رنّت جميع أجراس المدينة وصاحت الحشود الهائلة، واهتزت ودفعت حرفيًا العربة باتجاه الكاتدرائية. في فناء الصرح المقدس، وقفت مجموعة من الفتيات الصغيرات في شكل هرمي يرتدين فساتين بيضاء وأكاليل زهور على رؤوسهن، وهنا ترجل الملك...»(١٨)

في نفس العام ١٨٥٤، أصبح نيتشه مهتمًا بشدة بحرب القرم، ولقرون عديدة كانت شبه جزيرة القرم ذات الأهمية الاستراتيجية المتمركزة في البحر الأسود تمثل موضوع خلاف بين روسيا وتركيا. كانت شبه الجزيرة مُلكًا لروسيا في ذلك الوقت وقوات القيصر نيكولاس الأول تحارب قوات الإمبراطورية العثمانية وحليفيها إنجلترا وفرنسا. كانت هذه هي الحرب الأولى التي يغطيها المصورون وبفضل التلغراف الكهربائي، وصلت تقارير عاجلة من الجبهة فور وقوع الحوادث. تابع نيتشه وصديقاه في المدرسة فيلهلم بيندر وغوستاف كروغ الحملات العسكرية بشغف، فصرفوا نقودهم لشراء ألعاب صغيرة على شكل جنود وانكبوا على خرائط مناطق المعارك وصنعوا نماذج لساحات القتال وغيروا في شكل حوض السباحة ليبدو مثل ميناء سيباستوبول وصنعوا أساطيل من القوارب الورقية. لمحاكاة القصف، لفوا الكريات من الشمع والملح الصخري وأضرموا النار فيها وألقوها على نماذجهم. لقد كان مثيرًا للغاية رؤية الكرات النارية تنطلق في الهواء وتضرب هدفًا ما وتنفجر، ولكن في أحد الأيام، أتى غوستاف متجهمًا الى ساحة معركتهم حيث يلعبون وأخبرهم بسقوط سيباستوبول وانتهاء الحرب، فغضب الأولاد وما كان أمامهم من وسيلة للتنفيس عن غضبهم سوى نموذج شبه جزيرة القرم. تركوا هذه اللعبة، لكن لم يمض وقت طويل قبل أن يبدأوا لعبة أخرى تتمحور حول حروب طروادة.

كانت الغريسوفيليا(*) متأجّجة في عروق ألمانيا في تلك الحقبة، فكان العديد من المدن الصغيرة يتخيل لنفسه مستقبلًا وعظمة شبيهين بعظمة المدن

(*) مصطلح يشير إلى حب اليونان والتاريخ الإغريقي. (المترجم)

اليونانية القديمة. كتبت إليزابيث: «لقد أصبحنا في ذلك الوقت يونانيين صغارًا متحمّسين، حيث كنا نُلقي رماحًا وأقراصًا (لوحات خشبية)، وقفزنا عاليًا وركضنا في سباقات». كتب نيتشه مسرحيتين بعنوان «آلهة الأولمب» و«احتلال طروادة»، وأداهما أمام أسرته مقنعًا صديقيه فيلهلم بيندر وغوستاف كروغ وأخته إليزابيث بتمثيل الأدوار الأخرى.

علَّمته والدته القراءة والكتابة عندما كان في الخامسة من عمره، وكان تعليم الأولاد آنذاك يبدأ في سن السادسة. في عام ١٨٥٠ التحق بمدرسة البلدية التي لا يحضرها إلا الفقراء. شقيقته إليزابيث، التي كانت كبيرة كفاية لتتذكّر هذه الحوادث، كتبت في سيرة أخيها الذاتية أن ذهابه إلى هذه المدرسة يرجع إلى نظرية لدى الجدّة إيردمث مفادها أنه «يجب تعليم جميع الأطفال الذين ينتمون الى طبقات اجتماعية مختلفة معًا حتى سن الثامنة أو العاشرة، وبذلك يكتسب الأطفال الذين ينتمون إلى الطبقات العليا فهمًا أفضل لذهنية أصحاب الطبقات الدنيا»[١٩]، ولكن هذا هراءٌ وفقًا لفرانشيسكا، فنيتشه ارتاد هذه المدرسة لأنهم كانوا فقراء.

إن نضوج نيتشه المبكر ووقاره ودقّة تفكيره وكلامه، إلى جانب عينيه المصابتين بقصر نظر حاد، واللتين تجهدان للتركيز على الأجسام المادية، كل هذا وضعه خارج السرب، فكان الأطفال الآخرون يلقبونه بـ«القس الصغير» لإغاظته.

في عيد الفصح عام ١٨٥٤، عندما كان في التاسعة من عمره نُقل إلى مدرسة تحمل عنوانًا طويلًا «المعهد الهادف للتحضير الشامل للألعاب الرياضية وغيرها من مؤسسات التعليم العالي»، مدرسة خاصة لحشو المعلومات يرتادها صغار طبقته الاجتماعية الطموحة. لقد شعر براحة أكبر من الناحية الاجتماعية، لكن المدرسة كانت تبالغ بشكل واضح في وعودها الأكاديمية المستفيضة. في سن العاشرة، انتقل مع فيلهلم بيندر وغوستاف كروغ إلى المدرسة الكاتدرائية. كان عليه هناك أن يعمل بجد لتعويض ما فاته، حتى أنه لم يكن ينام أكثر من خمس أو ست ساعات في الليلة. إن صفاته

التي امتاز بها في هذه المرحلة ترجع كما يشير العديد من تحليلاته الذاتية إلى تجربة وفاة والده. مرارًا وتكرارًا في قصصه عن سيرته الذاتية، سواء في طفولته أو في السنة الأخيرة من حياته قبل أن يجُن، يعود نيتشه دومًا إلى وفاة والده.

«عندما انتقلنا إلى ناومبورغ، بدأت شخصيتي تتشكل. كنتُ قد عانيت من حزن وأسى كبيرين سابقًا، وبالتالي لم أكن مبتهجًا وجامحًا مثلما هم الأطفال بالعادة. اعتاد زملائي في المدرسة على إغاظتي بسبب جديتي، حدث هذا في المدرستين العامة والخاصة أيضًا، وبعدها في مدرستي الثانوية. منذ طفولتي وحتى الآن كنت أبحث عن العزلة، وكنت أشعر بالارتياح عندما أرتمي في أحضان نفسي من دون إزعاج، مستلقيًا في معبد الطبيعة في الهواء الطلق، وهنا تكمن بهجتي الحقيقية. لطالما تركت العواصف الرعدية انطباعًا قويًا عندي؛ فتمرغ الرعد في كبد السماء ووميض صاعقة البرق عزّز خوفي من الرب»[٢٠].

خلال السنوات الأربع التي قضاها في المدرسة الكاتدرائية، تميّز في الموضوعات التي كانت تهمّه؛ كنظم الشعر الألماني، وتعلّم اللغات العبرية واللاتينية واليونانية التي وجدها صعبة للغاية في بداية الأمر، أما درس الرياضيات فقد كان يشعره بالملل. في وقت فراغه بدأ بكتابة رواية بعنوان «**الموت والدمار**» تحوي العديد من المقطوعات الموسيقية، وكتب ما لا يقل عن ستٍ وأربعين قصيدة وأخذ دروسًا في فن المبارزة النبيل الذي لم يكن مناسبًا لبنيته الجسدية ولكنه ضروري في هذه الطبقة من المجتمع.

«لقد كتبتُ قصائد وأعمالًا تراجيدية مروعة ومملة بشكل لا يصدق، وعذّبتُ نفسي بتأليف نوتات موسيقية وأصبحت مهووسًا بفكرة الاستيلاء على المعرفة والقدرة الكونية إلى درجة أنني كنت على وشك أن أصبح مشوش الذهن وحالمًا». [٢١]

بيد أن الصبي اليافع البالغ من العمر أربعة عشر عامًا، وفي هذه المرحلة،

كان يقلل من قدر نفسه لأنه أوجز حياته حتى تلك اللحظة، ولذلك واصل الكتابة بالقدر نفسه من التحليل النقدي الحاد لما يكتبه من شعر، والذي بدأ في كتابته منذ التاسعة من عمره. باستمراريته على نقد أعماله المبكرة كشف نيتشه بطريقة تنبّوئية، وعلى نحو مثير، عن الشعر الرمزي، ولم يكن على معرفة بأيّ حال من الأحوال أن هذا النمط من الشعر قد بدأ بالانتشار في باريس على يد بودلير.

«حاولتُ التعبير عن نفسي بلغةٍ مزخرفةٍ وأخّاذةٍ، لكن لسوء الحظ تحول هذا الاجتهاد إلى تصنّع واضح، وتحوّلت اللغةُ المتلوّنة إلى غموضٍ جافٍّ بينما افتقرت كل قصائدي إلى جوهر كل شيء وهو الأفكار... فقصيدة خاوية من أفكار وتغصُّ بالعبارات والاستعارات تشبه تفاحة وردية تختبئ في قلبها يرقة... عند الشروع بكتابة أي عمل، يجب على المرء أن يولي أكبر قدر من الاهتمام للأفكار نفسها. يمكن للمرء أن يغفر أي خطأ في الأسلوب، بيد أن أخطاء الأفكار لا تُغتفر، فالشباب الذي يفتقر إلى الأفكار الأصيلة، يسعى بشكل طبيعي إلى إخفاء هذا الخواء تحت أسلوب لامع ومتلوِّن؛ ولكن ألا يُشابه الشعر الموسيقى الحديثة في هذا الصدد؟ على هذه السطور سيرتقي شعر المستقبل قريبًا، وسيعبّر الشعراء عن أنفسهم في أغرب صور، وستُطرح الأفكار بغموض فخم وجدالات متناغمة. باختصار، ستُكتب الأعمال التي تشبه الجزء الثاني من فاوست، باستثناء أن الأفكار التي تتمحور حولها هذه النتاجات ستكون ناقصة تمامًا. أنا»(*) (٢٢).

لا شكّ أن أعمالًا مثل «فاوست» كانت مصدر إلهام في سعيه للمعرفة والقدرة العالمية، إضافة الى مبدعين ذوي جوانب ثقافية متعددة مثل غوته وألكساندر فون همبولت، فقد درس التاريخ الطبيعي مثلهما.

قال ذات يوم وهو في عامه التاسع محدثًا أخته: «ليزي، لا تتحدّثي بهذا الهراء عن اللقْلق، فالإنسان ثديِّيٌّ وهو الذي يلد أطفاله أحياءً إلى هذا العالم»(٢٣).

(*) استخدم هنا الكلمة اللاتينية (Dixi)، ومعناها «أنا»، إشارة إلى توقيعه. (المترجم)

علّمتهُ قراءته للتاريخ الطبيعي أيضًا أن «اللاما حيوان رائع؛ فهي تحمل أثقل الأحمال طوعًا، ولكنها عندما تأبى الاستمرار تدير رأسها وتبصُق لُعابًا كريه الرائحة في وجه راكبها، وإذا ما أُكرهت على فعل شيءٍ ما أو أُسيء معاملتها ترفض تناول الطعام وترتمي على الأرض لتموت». شعر بأن هذا الوصف ينطبق على أخته إليزابيث تمامًا، فكان يلقبها باللاما أو اللاما الوفيّة طوال حياته، سواء في الرسائل أو في المحادثات. من جانبها عشقت إليزابيث هذا اللقب الحميمي وكانت تحكي قصته في كل فرصة تُتاح لها، متجنبةً موضوع بصق اللعاب كريه الرائحة.

كان والد غوستاف كروغ يمتلك «بيانو كبيرًا رائعًا» سحرَ نيتشه، فذهبت فرانشيسكا واشترت له بيانو وعلّمت نفسها العزف حتى تعلّمه. كان كروغ والد غوستاف صديقًا حميمًا للملّحن فيليكس مندلسون، فكان يدعوه مع موسيقيين معروفين آخرين إلى بيته للعزف، فتطفو الموسيقى عبر النوافذ وإلى الشارع حيث يقف نيتشه ويستمع قدر ما يشاء. وهكذا أصبح في صباه ملمًّا بالموسيقى الرومانسية، الموسيقى التي ثار فاغنر ضدها. تسبّبت هذه النغمات الموسيقية المتسلّلة عبر النافذة بأن يكون بيتهوفن أول بطل موسيقي لنيتشه، بيد أن هاندل كان مصدر الإلهام الذي وضعه نصب عينيه عند تأليف أولى مقطوعاته الموسيقية، فعندما كان في التاسعة من عمره، ألف موشحًا دينيًا مستوحى من جوقة «هللويا» لهاندل «ظننتُ أنها أغنية ملائكية تفيضُ بهجةً، وكأنما عرّج يسوع على السماء بعد سماعه هذا الغناء، فقررتُ على الفور تأليف شيءٍ مماثل».

نجا جزء كبير من موسيقاه التي ألفها في طفولته بفضل والدته وشقيقته اللتين احتفظتا بكل خربشة قلمٍ لطفلهما المعبود. كان الغرض من مؤلفاته الموسيقية التعبير عن حب الربّ المتّقد الذي تغلغل في الأسرة ذات العاطفة الفياضة، الحبّ الذي لا يمكن فصله عن ذكرى والده الكئيبة، حيث اعتقدوا أن روحه كانت تراقبهم وترعاهم. لم تنفصل هذه الفكرة عن ترقب

أن يصبح نيتشه نفسه «مجرد نسخة من والدي مرة أخرى واستمرارًا لحياته بعد وفاته المبكرة جدًا»[٢٤].

شُغفت امرأتاه حبًّا به، فقد كان يمثّل كل شيء بالنسبة لهما. كانت إليزابيث ذكية للغاية، لكن كونها فتاة جعل تعليمها يقتصر على تأهيلها ثقافيًا من دون أن تتلقى تعليمًا مدرسيًا، فقد تعلمت القراءة والكتابة وقليلًا من الحساب وقليلًا من الفرنسية، ما يكفي لتعلّم أصول التهذيب والكياسة، وتعلّمت الرقص أيضًا والرسم والكثير من قواعد حسن السلوك. كان كل إخضاع إنثوي يمارسه الجنس المتفوّق (الرجل) يدفعها وأمها الى الاستمتاع بالدونية، أما نيتشه فقد كافأهما بأن أصبح الرجل الصغير المتفوّق الذي تمنتا أن يكونه، ففي المنزل، إن لم يكن في المدرسة، كان يتعزز لديه شعور كبير بالأهمية، فقبل أن تُلقب إليزابيث بـ«اللاما» أو بـ«اللاما الوفية»، كانت «الفتاة الصغيرة» ومن واجبه الدفاع عنها وحمايتها، أما عندما كان يخرج مع والدته أو أخته فكان يسبقها دائمًا بخمس خطوات لحمايتها من «الأخطار» مثل الطين أو برك الماء المتجمّعة من الأمطار، ومن «الوحوش» مثل الخيول والكلاب التي زعمتا أنها تخيفهما.

أظهرت التقارير الصادرة من المدرسة الكاتدرائية أنه كان طالبًا مجتهدًا، ولم يكن لدى والدته أدنى شك في قدرته على تحقيق أحلامها وطموحاتها بمتابعة مسيرة والده في الكنيسة، وما أكّد ذلك تفانيه في دراسة علم اللاهوت. كان متدينًا إلى حدّ النخاع عندما كان في سنه الثانية عشرة، فقد رأى الربّ في تمام مجده متجليًا في رؤيا، فتحدّد مصيره في أن يكّرس حياته لربه.

كتب نيتشه: «قادني الرب بسلامٍ في كل سُبل الحياة كما يقودُ أبٌ طفله الصغير الضعيف... لقد قررتُ بحزم في داخلي أن أفني نفسي في خدمته إلى الأبد. ليعطني الربّ الكريم القوّة والقدرة على تحقيق نيتي، وليحمني في حياتي، فأنا أثق بعطائه مثل طفل؛ سيحفظنا جميعًا من كل مكروه، وستتحقّق قداسته، وسأقبل بكل ما يأتيني منه بسرور، سعادة أم حزن، فقر أم غنى

ولن أخاف الموت، وسأنظر في عينه بكل ما أوتيت من جرأة، فهو سيجمعنا بكل أحبائنا يومًا ما في فرح ونعيم أبديّ. يا إلهي الحبيب، ظُلَّ علينا بوجهك الكريم إلى الأبد. آمين»[٢٥].

لكن حتى في خضم هذا الحماسة الدينية التقليدية، كان يخفي بدعة - هرطقة استثنائية في قلب أفكاره الخاصة، فالعقيدة الأساسية للدين المسيحي تبيّن أن الثالوث المقدس يتكون من الآب والابن (يسوع المسيح) والروح القدس، لكن نيتشه ذا الاثني عشر عامًا لم يستطع تحمل لا عقلانية هذه الهيكلية، فدفعه عقله إلى اتخاذ ثالوث مقدس آخر:

«عندما كنتُ في السنة الثانية عشرة من عمري استحضرت لنفسي ثالوثًا رائعًا: الرب الأب والرب الابن والرب الشيطان. كان استنتاجي هو أن الرب، ذاتيّ التفكير، خلق الشخص الثاني في الألوهية، لكن لكي يتمكّن من التفكير بذاته، كان عليه أن يفكر في نقيضه، وبالتالي كان عليه أن يخلق الرب الشيطان، وهكذا بدأتُ السير في درب الفلسفة»[٢٦].

(١) أمسية موسيقية:

١. أوتيلي بروكهاوس (١٨١١-١٨٨٣)، أخت ريتشارد فاغنر وزوجة هيرمان بروكهاوس، أستاذة وعالمة في علوم الحضارة الهندية.
٢. فيلهيلم روشيه (١٨٤٥-١٩٢٣)، طالب زميل.
٣. قصائد يودوسيا، ابنة الفيلسوف الأثيني ليونتيوس. تخلّت عن ديانتها الوثنية لتتزوج من الإمبراطور البيزنطي ثيودوسيوس في العام ٤١٢ ميلادي.
٤. نبذة من السيرة الذاتية، ٩/ ١٨٦٨
٥. تعليق نيتشه حول سنتين قضاهما في لايبزيغ، اقتبسها أر.جي. هولندايل في كتابه «نيتشه الإنسان وفلسفته»، صفحة ٣٦.
٦. قضية فاغنر، القسم ١٠.
٧. «هذا هو الإنسان»، ترجمة آر.جي. هولندايل ومقدمة مايكل تانر، عن دار بنغوين عام ٢٠٠٤ «لمَ أنا بهذا الذكاء»، القسم ٦.
٨. مايكل تانر في كتابه «نيتشه، مقدّمة قصيرة للغاية»، مجلة جامعة أكسفورد، عام ٢٠٠٠، صفحة ٢٣.
٩. «هذا هو الإنسان»، فصل «لمَ أنا بهذا الذكاء»، القسم ٦.
١٠. نيتشه إلى إروين رود، ٢٠ تشرين الثاني ١٨٦٨.
١١. كارل لودفيغ نيتشه (١٨١٣-١٨٤٩)، تزوج من فرانشيسكا أولر (١٨٢٦-١٨٩٧).
١٢. من كتاب نيتشه «Jugendschriften»، تحرير هانز يواكم ميت، في خمسة مجلدات. والتر دي جروتر ودويتشر تاشنبوخ فيرلاج ١٩٩٤، المجلد الأول، الصفحة ٤-٥، ترجمة دافيد كريل ودون بايتس في كتاب «The Good European»، الصفحة ١٤.
١٣. «Jugendschriften »، المجلد. الأول، ص ٦-٧.ترجمة دافيد كريل ودون بايتس كما ذُكر أعلاه. تحيط التكهنات بروايتي نيتشه المختلفتين اختلافًا طفيفًا في هذا الحلم التنبؤي (راجع ترجمة كريل وبايتس في «The Good European» ص ١٦-١٧، الهامش ٢). يصف نيتشه التجربة على أنها حدثت في نهاية عام ١٨٥٠، لكن لا بد أنها حدثت في آذار ١٨٥٠. ويتفاقم الإرباك مع التاريخ المكتوب على شاهد قبر جوزيف الصغير الذي انضم فيه إلى والده؛ فقد كتب عليه «من مواليد ٢٧ شباط ١٨٤٨، توفّي ٤ كانون الأول ١٨٥٠»، لكن وفقًا لسجل الرعية، توفّي جوزيف بعد عدة أيام من عيد ميلاده الثاني، فمن المفترض أن يكون توفّي في آذار، وهذا من شأنه أن يتفق مع الوقت الذي رأى فيه نيتشه رؤياه.

١٤. بول يوليوس موبيوس (١٨٥٣-١٩٠٧)، طبيب أعصاب عمل في لايبزيغ وعُرف على نطاق واسع. تم إطلاق اسمه على متلازمة موبيوس، وهو نوع نادر من الشلل المرتبط بشلل الأعصاب القحفية، ومتلازمة ليدن موبيوس، الضمور العضلي لمنطقة الحوض.

١٥. من كتاب «أسطورة سفلس نيتشه» لمؤلفه ريتشارد شاين، نُشر عن جريدة غرينوود، ٢٠٠١، ص ٢-٤.

١٦. «Jugendschriften»، المجلد الأول، ص ٧.

١٧. من كتاب «حياة نيتشه»، كتبته إليزابيث تحت اسم إليزابيث فورستر نيتشه، وترجمه أنتوني م. لودوفيتشي، ستورجيس ووالتون، ١٩١٢، المجلد الأول، ص ٢٧.

١٨. من كتاب «حياة نيتشه»، المجلد الأول، ص ٢٢-٢٣.

١٩. المصدر السابق نفسه، ص ٢٤.

٢٠. «Jugendschriften»، المجلد الأول، ص ٨، ترجمة كريل وبايتس، وكتاب «The Good European»، ص ١٩.

٢١. «Aus meinem Leben»، سيرة موجزة للسنوات ١٨٤٤-١٨٦٣. كيث أنسيل بيرسون ودنكان لارج «قارئ نيتشه»، بلاكويل، ٢٠٠٦. ص ١٨-٢١.

٢٢. المصدر السابق نفسه.

٢٣. من كتاب «حياة نيتشه» المجلد الأول، ص ٤٠.

٢٤. «هذا هو الإنسان»، فصل «لِمَ أنا بهذه الحكمة؟»، القسم ٥.

٢٥. «Aus meinem Leben».

٢٦. «Sämtliche Werke Kritische Studienausgabe»، المجلد الحادي عشر، ص ٢٥٣. يشير نيتشه إلى هذا العمل مرة أخرى باقترابه من نهاية حياته العملية عام ١٨٨٧، في الجزء الثالث من «مقدمة في جينالوجيا الأخلاق».

٢
أثينا الألمانية

إنها لطريقة بائسة تلك التي يرد بها المرء فضل معلمه اذا ما بقي مجرد تلميذ

هذا هو الإنسان

توفيت جدّة نيتشه عندما كان في الحادية عشرة من عمره، وهذا ما أتاح أخيرًا لوالدته الحرية في تأسيس أسرتها الخاصة. في عام ١٨٥٨، استقرت فرانشيسكا مع الطفلين في منزل يقع على الزاوية في قرية فاينغارتن، في شارع ناومبورغ المحترم والتقليدي، حيث حظي نيتشه بغرفة نومه الخاصة. لكن سرعان ما وقع ضحية لروتين العمل حتى منتصف الليل، ومن ثم الاستيقاظ في الخامسة صباحًا لاستئناف عمله. لقد كانت تلك الفترة بداية اشتغاله على ما أطلق عليه فيما بعد selbstüberwindung، أو «التغلّب على الذات»، وهو مبدأ أساسي سيطوره فيما بعد ميتافيزيقيًا، ولكن ما كان يتغلّب عليه في تلك اللحظة الراهنة هو صحته السيئة بشكل مدمّر. كانت نوبات الصداع والقيء وألم العين الشديد تستمر لأسبوع كامل، مما يضطره للرقود في غرفة معتمة بستائر مغلقة، فقد يؤذي عينيه أوهن ضوء، وكانت القراءة والكتابة وحتى التفكير السليم أنشطة مُتعذّرة عليه. بين عيد الفصح عام ١٨٥٤

وعيد الفصح لعام ١٨٥٥، على سبيل المثال، كان نيتشه غائبًا عن المدرسة لمدة ستة أسابيع وخمسة أيام. عندما يكون في صحة جيدة، كان يضغط على ما أسماه «جلالة الإرادة السامية» التي في داخله ليدفع نفسه إلى مقدمة زملائه.

لم يعانِ النظام التعليمي لثانوية كاتدرائية ناومبورغ من أي خطبٍ أو حالة ركودٍ أو ما شابه، ولكن نيتشه بيّت طموحه الجارف للالتحاق بشولبفورتا، المدرسة الكلاسيكية في الإقليم الألماني. «بفورتا، بفورتا، كل ما أحلم به هو بفورتا»، هذا ما كتبه عندما كان في العاشرة من عمره. كانت بفورتا هي الاختصار العامي لاسم مدرسة شولبفورتا، واستخدامه الجريء لهذا اللقب المختصر يكشف عن تلهفّه الشديد للالتحاق بالمدرسة.

يدرس في بفورتا مائتا صبي بين أعمار الرابعة عشرة والعشرين، وتفضّل المدرسة الصبيان الذين توفّى آباؤهم في خدمة الكنيسة أو الولاية البروسية، مثل نيتشه. لم تكن عملية اختيار من سيدرس في ثانوية شولبفورتا تختلف عن رحلة مبعوثي الأمير في قصة سندريلا، أولئك الذين يجولون الأرض طولًا وعرضًا ويتطلّعون لرؤية قدم تَناسب قياس حذاء سندريلا. وصل مبعوثو المدرسة إلى ناومبورغ عندما كان نيتشه في الثالثة عشرة، فخلّف أثرًا في قلوبهم بما فيه الكفاية، رغم ضعفه في مادة الرياضيات، ليعرضوا عليه مقعدًا دراسيًا في الخريف التالي.

كتبت إليزابيث بطريقتها الدرامية المألوفة: «أنا، اللاما المسكينة شعرت بأن القدر قد عاملني بطريقة بائسة لأبعد حد. رفضت تناول أي طعام واضطجعت على الأرضية المغبرّة منتظرة الموت». لم يكن سبب تدهور حالتها إلى هذه الدرجة هو حسدها لأخيها على آفاقه التعليمية المستقبلية المبشرة جدًا، وإنما نحيبها عليه لأنه سيكون بعيدًا عن المنزل لفترة طويلة. كان نيتشه نفسه فزعًا، فمع اقتراب يوم رحيله، لاحظت والدته غطاء وسادته مُبللًا بدموعه، ولكنه حافظ على تبجّحه الرجولي الشجاع خلال النهار.

«كانت صبيحة الثلاثاء عندما عبرت بوابات مدينة ناومبورغ مُبتعدًا...

ذعر الليلة القلقة ما زال يراودني، والمستقبل مستتر أمامي في حجاب رمادي مشؤوم. للمرة الأولى في حياتي، كنت راحلًا عن منزل عائلتي لفترة طويلة، طويلة جدًا... قد تركني وداعي يائسًا؛ ارتعدت بسبب فكرة راودتني عن مستقبلي... فكرة أنني من هذه اللحظة فصاعدًا لن يكون بمقدوري أبدًا أن أرمي نفسي في حضن أفكاري الخاصة، وأن زملائي في المدرسة سوف يجرونني بعيدًا عن أكثر انشغالاتي المحببة، ترهقني هذه الفكرة بشدة... كل لحظة غدت أكثر ترويعًا بالنسبة لي. في الواقع، عندما رأيت بفورتا تتلألأ في الأفق، بدت وكأنها مُعتقلٌ أكثر منها مدرسة. يا رب، بارك دخولي واحرسني أيضًا، جسدًا وروحًا، في حضانة الروح القدس هذه. أرسل ملاكك، الذي قد يقودني ظافرًا في غمار المعارك التي أذهب للقتال فيها... هذا ما أتضرع به اليك، يا رب! آمين»[١].

يعود السبب في مظهر بفورتا الذي يبدو وكأنه معتقل إلى انها أنشئت في الأصل ديرًا لطائفة السسترسن(*) الدينية، حيث يحتل واديًا منعزلاً على أحد فروع نهر زاله حوالى أربعة أميال جنوب مدينة ناومبورع. تحيط بالمدرسة جدران يبلغ ارتفاعها اثنتا عشرة قدمًا وسمكها قدمان ونصف، مطوقة سبعين فدانًا مثمرًا تُسقى بآلات ري الرهبان الاعتيادية، وتشمل بحيرة للشبوط ومنزلا لحفظ الخمور ومزرعة كروم العنب ومروج التبن والحقول الصالحة للزراعة وللرعي والحظائر وملبنة واسطبلات وورشة حدادة، مع أديرة حجرية وعدد من الأبنية القوطية البديعة. مثل نسخة معدلة أوسع من بيته في روكن، كانت بفورتا حصنًا كنسيًا صُمم ليصمد في وجه الصراعات السياسية، وأهمها، بالنسبة لبفورتا، تلك التي جرت خلال الحروب الدينية في القرنين السادس عشر والسابع عشر. عندما انتهى الصراع وتنحت الكاثولكية الرومانية، أعلن أمير ساكسونيا المُنتخب، والذي دعم مارتن لوثر، أن تكون بفورتا مدرسة ملكية. لقد كانت إحدى أهم المدارس اللاتينية التي تأسست في عام ١٥٢٨ على يد شوارززرد[٢]، وهو من ساعد

(*) طائفة دينية كاثوليكية. (المترجم)

لوثر في ترجمة العهد القديم إلى الألمانية. أضاف شوارزرد مادة تعليم اللغة العبرية إلى اللغات الأخرى مثل اللاتينية واليونانية، واللتين كانتا أساسًا للتعليم العالي سلفًا، مما مكن الباحثين من قراءة النصوص العبرية العظمى مباشرة وبصورة أفضل مما لو قرأوها مترجمة، لأن الترجمات عادة ما تُحرف لأسباب سياسية ولاهوتية، وقد كانت خطوة جريئة ضد قرون من الرقابة الكنسية، مانحة كل باحث وسائل التحليل المستقل.

بحلول الوقت الذي دخل فيه نيتشه النظام التعليمي، كان التعليم قد عُدل بشكل طفيف على يد فيلهلم فون همبولت[٣]، شقيق المستكشف والجغرافي والعالم الشهير ألكسندر. كان فون همبولت، صديقًا لِشيلر وغوته، تأثر سياسيًا بأجواء باريس التي طرأت بعد وقت قصير من اقتحام الباستيل، والذي تزامن مع وصوله إلى فرنسا. كتب بطريقة تنم عن نضوج مدهش نظرًا لشابٍ يبلغ من العمر ٢٢ عامًا: «في هذه اللحظة، أنا مرهق إلى حد ما من باريس وفرنسا»، وخلص إلى أنه كان يشهد آلام المخاض الضرورية التي تفضي إلى عقلانية جديدة، وكتب أيضًا: «عانت البشرية من التطرف، والبشر مجبرون على البحث عن الخلاص في شكل تطرف آخر».

كان فون همبولت هو المسؤول عن إعادة تنظيم التعليم الألماني بين عامي ١٨٠٩ و١٨١٢، حيث جمع بين العقلانية المثالية فيما يتعلق الحوادث المعاصرة مع خبرته المباشرة عن الإرث الكلاسيكي المستقاة من عمله كسفير بروسيا لدى الكرسي البابوي. تصوّر مستقبلًا للإقليم الألماني على غرار بُنية اليونان القديمة: نظام من الولايات الصغيرة تنشط بشكل مختلف وخلّاق ضمن إطار الوحدة الفنية والفكرية. ضمّنَ مجمل نظريته في كتاب «**أفكار لمحاولة رسم حدود الدولة**»، وهو كتاب أثر على كتاب جون ستيوارت مِل «**عن الحرية**». إن المعتقد التوجيهي الرئيس عند فون همبولت هو منح الحرية القصوى للتعليم وحصر الدين في حدوده الدنيا في الدولة. في هذه الدولة، الفرد كان كل شيء، وعليه فإن التعليم هو كل شيء. كان الهدف النهائي من التعليم هو «ترويض تام للشخصية الإنسانية... إنه التطور الأعلى والأكثر تناسبًا للقوى

الفردية ليكون كيانًا متكاملًا ومتسقًا»[٤]، إن هذا الكيان المتكامل والمتسق هو نتيجة لاتحاد مفهومين ألمانيين مثاليين بطريقة مميزة، هما: Wissenschaft/ وسنشافت، ومعناه منهج تعليمي لتحصيل المعرفة، وBildung/ بيلدانغ، ومعناه التعليم أو التكوين والتثقيف. كان الوسنشافت هو فكرة التعلم كعملية ديناميكية تتجدّد وتثرى باستمرار من خلال البحث العلمي والبحث المستقل، وهكذا يساهم كل طالب في دفع مجموع المعرفة اللانهائي، وهذا ما كان النقيض كليًا لطريقة التعليم بواسطة الحفظ عن ظهر قلب. كانت المعرفة تطورية، ومعها جاء مفهوم البيلدانغ، الذي طوره فون همبولت نفسه، وهي عملية إنماء روحية تجري عن طريق اكتساب المعرفة التي وصفها فون همبولت بأنها تفاعل تناغمي بين شخصية الطالب وطبيعته، مما يقود الطالب إلى حالة التحرر الداخلي والاكتمال ضمن السياق الأكبر.

كان سؤال الاكتمال والأخلاق الاجتماعية يعالج مشكلة الإيمان الديني المعاصرة والمُلحة، بما أن التقدم العلمي زعزع اليقينيات القديمة. مهما كانت المرحلة التي وصل إليها تلميذ المدرسة أو طالب الجامعة في رحلته بين داروين والشك، فليس هناك إنكار للمرسوم شبه المقدس لآثار المعرفة الغربية التي منحتها للحياة، ومن هذا المرسوم انبثقت صيغة ثابتة للحقيقة والجمال والوضوح الفكري والغاية عبر القرون، بغض النظر عن أي إله تعبد في ذلك الوقت.

كانت اللغة هي القوة الصائنة لأسس الحضارة، والتي من دونها ربما لا نستطيع التفكير، ومؤكدًا لا يمكننا نقل الأفكار المعقدة. كان فون همبولت نفسه فيلولوجيًا وفيلسوفًا في علم اللغة. كانت أعلى التخصصات في بفورتا، كما هو الحال في المدارس الأخرى والجامعات الخاضعة للنظام الإصلاحي لفون همبولت، هي اللغات الكلاسيكية وفقه اللغة الكلاسيكي وفن التدقيق وتدقيق النصوص القديمة. لقد كان علماء اللغة آلهة الأشياء البالغة الصغر، «محدودي التفكير، علماء الأشياء المجهرية في دماء الضفادع» كما أطلق عليهم نيتشه ذات مرة[٥]، وكان علماء اللغة الكلاسيكيين آلهة النظام التعليمي الذين ينقِّبون في علم اللغات اليونانية والعبرية واللاتينية.

وصف مدير مدرسة نيتشه نهار بفورتا، كما لو أنها دولة- مدرسة، فهي: أثينا في الصباح، وإسبارطه بعد الظهيرة. لقد كانت المدرسة أشبه بدير للرهبان يلتزم نظامًا شبه عسكري قاسٍ على الصعيدين النفسي والجسدي. نيتشه، الذي كان يعز غرفته الخاصة في المنزل حيث باستطاعته العمل وفق جدوله الزمني، ينام الآن في عنبر مكون من ثلاثين صبيًّا. يبدأ نهار بفورتا في الساعة الرابعة صباحًا، مع القرقعة المتزامنة التي تصدرها عملية فتح أقفال العنابر والتي أغلقت في الليلة السابقة عند تمام الساعة التاسعة، (بإمكان المرء التفكير في أن شبيه بفورتا اليوم هو بيت بايرويت للأوبرا، حيث تُنقر الأبواب وتقفل بشكل متزامن لحبس الجمهور عند بداية العرض وإطلاق سراحه عند النهاية). أُطلق سراح مائة وثمانين صبيًا، هرعوا نحو خمسة عشر حوضًا وطشتًا مشتركًا ليبصقوا بعد تنظيف أسنانهم. يستمر اليوم كما ثبت نيتشه أدناه:

٥:٢٥ صلوات صباحية. حليب دافئ ولفائف الخبز.

٦:٠٠ درس.

٧-٨ دراسة.

٨-١٠ درس.

١٠-١١ دراسة.

١١-١٢ درس.

١٢ جمع مناديل الطاولة والذهاب إلى قاعة الطعام. نداء اسماء التلاميذ. ترديد أدعية باللاتينية قبل وبعد وجبة منتصف النهار. وقت للراحة بين الدروس لأربعين دقيقة.

١:٤٥-٣:٥٠ درس.

٣:٥٠ لفيفة خبز وزبدة، اللحم المشوي أو مربى البرقوق.

٤:٠٠-٥:٠٠ يختبر التلاميذ الأكبر سنًا التلاميذ الأصغر إملاء اللغة اليونانية أو حل مسألة رياضية.

٥:٠٠-٧:٠٠ دراسة.

- ٧:٠٠ السير إلى قاعة الطعام لتناول العشاء.
- ٧:٣٠-٨:٣٠ اللعب في الحديقة.
- ٨:٣٠ الصلوات المسائية.
- ٩:٠٠ وقت النوم.
- ٤:٠٠ فتح أقفال الأبواب. يوم جديد.

كان هذا اليوم المدرسي هو الأكثر صرامة في أوروبا، كما لاحظت السيدة دي ستاول باستحسان؛ «ما يسمى دراسة في ألمانيا هو أمر مثير للإعجاب فعلًا، إن خمس عشرة ساعة من العزلة في اليوم والعمل لسنوات يبدو بالنسبة لهم نمط حياة طبيعي»[٦].

في البدء، كان نيتشه مسحوقًا تحت وطأة حنينه لبيته، «عصفت ريح بين إقبالٍ وإدبارٍ بالأشجار العالية، كانت فروع الأشجار تأنّ وتترنّح، وكان قلبي في وضع مشابه»[٧]. وثق بمعلمه الأستاذ بودينزغ، والذي نصحه بأن يهب نفسه للدراسة، وإن لم يُجِدِ ذلك نفعًا، فعليه ببساطة أن يرمي نفسه تحت رحمة الرب.

كان بإمكانه رؤية والدته وشقيقته مرة واحدة أسبوعيًا، لمدة وجيزة مُعذبة، في أيام الآحاد بعد مسير طلاب المدرسة من وإلى الكنيسة. بعدها يُعجِّل الخطى باتجاه الشمال، سالكًا طريقًا متعرّجًا يخترق غابات التنوب العالية والمظلمة مؤديًا إلى قرية آلمرتش. في هذه الأثناء، كانت فرانشيسكا وإليزابيث تهرولان باتجاه الجنوب متجهتين إليه على الطريق المنحدر من ناومبورغ، لتحظى العائلة بساعة سوية تتناول خلالها شرابًا في نزل آلمرتش، قبل أن يعود نيتشه مسرعًا. عدا هذا، تتمثّل فسحة الحرّية التي تمنحها بفورتا للأولاد بساعة واحدةٍ محصورةٍ بين السابعة والنصف والثامنة والنصف مساءً، تتخلّلها مناظرات تعليمية باللغة اليونانية واللاتينية تُقام في الحديقة عن طريق لعبة لطيفة مثل الكرات الخشبية، التي قد تتحول إلى مبارزات شفوية بسداسيات لاتينية موزونة ومرتجلة.

شُجع الصبيان على الحديث مع بعضهم بعضًا باللغة اللاتينية واليونانية كل الوقت. أخذ نيتشه الأمر بشكل عام إلى أبعد من ذلك، فقد هيأ نفسه للتفكير باللاتينية، ويُعزى سبب نجاحه على الأرجح إلى عدم تذمّره من الفشل. لم يكن مسموحًا للتلاميذ باقتناء الصحف، فأُقصيت السياسة والعالم الخارجي وحاضره قدر الإمكان عن عالم بفورتا الداخلي. يتألف الجزء الرئيسي للمنهاج المدرسي من الأدب والتأريخ والفلسفة الأغريقية والرومانية والأعمال الكلاسيكية الألمانية مثل أعمال غوته وشيلر. تفوَّق نيتشه في كل هذه المواد، بينما واجه صعوبة في تعلم اللغة العبرية التي يحتاجها لتلاوة الأوامر المقدسة؛ فقد وجد قواعدها اللغوية صعبة بطريقة غريبة. لن يُتقن الإنجليزية أيضًا رغم أنه شُغف بشكسبير وبايرون، وخاصّة قصيدته «مانفريد»، وهذا حتم عليه قراءة الكاتبين مترجمين إلى اللغة الألمانية. كان لدى الصبيان إحدى عشرة ساعة من دروس اللغة اللاتينية أسبوعيًا وست ساعات من اللغة اليونانية. كان نيتشه تلميذًا متفوقًا؛ وفي بعض الأحيان، يكون الأول على صفه في نهاية السنة الدراسية. دائمًا ما كان معدّله يتدنّى بسبب درجاته السيئة في الرياضيات، الدرس الذي بقي اهتمامه به باهتًا بصرف النظر عن فترة وجيزة فُتن فيها بخصائص الدائرة.

في بعض الأحيان، تأخذ إدارة المدرسة الصبيان في نزهات إلى الريف يرتدون خلالها أطقمًا رياضية صممت على يد فريدريك لودفيغ جان، القومي المتزمّت والأب المؤسِّس لحركة الجمناستك التي كانت تعنى بتعزيز روح الجماعة بين الشبان ممن قد تكون بنيتهم الجسدية المتناسقة خير أساس لهذه الأمة الناشئة. صاغ جان مفرداته الأربع الشهيرة، والتي تبدأ بحرف الفاء باللغة الألمانية (Frisch form frohlic frei) وتعني بالعربية (الخفة، الورع، المرح، الحرية)، ومن خلالها شرعت الحملات الروحية تأخذ منحًى عسكريًا. اصطف الصبيان لغزو الجبال برفقة جوقة غنائية، يغنون ويهتفون ويلوّحون بعلم المدرسة، ومن ثم هتفوا للملك ثلاث مرات (والذي أصبح مجنونًا الآن بعد سكتة دماغية) ولأمير بروسيا والمدرسة، قبل أن يسيروا عائدين لأرض مدرستهم الأم. إضافة إلى ذلك، نظمت المدرسة جولات سباحة.

«حلت رحلة السباحة أخيرًا بالأمس، لقد كانت استثنائية. اصطففنا في طوابير وعزفنا موسيقى بهيجة عند مرورنا من خلال البوابات. اعتمرنا جميعنا قبعات السباحة الحمراء خالقين منظرًا غاية في الروعة. لكننا نحن السباحين اليافعين دُهشنا كثيرًا عندما أخذونا لامتداد طويل أسفل نهر زاله لبدء سباحتنا، وكنا جميعنا خائفين. على أي حال، عندما رأينا السباحين الأكبر سنًا يقتربون من بعيد وسمعنا صوت الموسيقى، قفزنا كلنا في النهر. سبحنا بنفس الترتيب الذي تدربنا عليه في المدرسة. بشكل عام، سار كل شيء على ما يرام، حاولت بذل أفضل ما لدي ولكنني كنت دائمًا أعاني من صعوبة بالغة. سبحت كذلك على ظهري. عندما وصلنا أخيرًا، حصلنا على ثيابنا التي جلبوها لنا من مسافة طويلة على متن قارب. ارتديناها على عجالة من أمرنا وسرنا بنفس الترتيب تمامًا عائدين إلى بفورتا. لقد كانت رحلة استثنائية حقًا»[٨].

على نحو رائع، وفي ضوء هذه البداية، كانت السباحة في طريقها لتصبح متعته المبهجة مدى الحياة. لكن هذا لا ينطبق على الألعاب البهلوانية التي مارسها بروح الفكاهة اليائسة. وصف زميله بول ديوسن حركته البهلوانية الوحيدة، والتي نسب لها مازحًا أهمية كبيرة بأنها تتلخّص في إقحام قدميه ثم جسده، بين قضبان متوازية والنزول من الجانب الآخر. ما فعله زملاؤه الآخرون في دقائق، وأحيانًا حتى دون لمس القضبان، كان عملًا شاقًا على نيتشه، غيَّر لون وجهه إلى أحمر غامق ليبدأ باللهاث والتعرق[٩].

متعرّق وأخرق وشديد الذكاء، لم يكن نيتشه شخصًا محبوبًا جدًا بين العامة. اقتطع أحد زملائه صورة له ووضعها على دمية ماريونيت[*] وحرّكها لتفعل وتتفوه بأشياء سخيفة، ولكن ضعف نيتشه كان مزية شخصية لطالما استقطبت أصدقاء مخلصين أخذوا على عاتقهم حمايته من الضربات واللطمات التي يوجهها له العالم الفظ. حرصت دائرة أصدقائه في بفورتا على إخفاء الدمية دون دراية من صنعها.

(*) دمية يتم التحكم بها عن طريق خيوط. (المترجم)

استمر شغفه بالموسيقى، حيث انضم إلى جوقة المدرسة، التي منحته فرصًا لا محدودة من المرح الجماعي والمسير العسكري، ولكن عن طريق هذا الانضباط الموسيقي - وليس بقية المواد الدراسية التي تعتمد على فكرة تحقيق الذات بالخضوع لأخلاقيات الجماعة - يمكننا وبسهولة تتبع إصراره على عدم التخلي عن حرية الفكر التي كان قلقًا من فقدانها عندما كان مُقدمًا على الانضمام لبفورتا. أُعجب معلموه وأصدقاؤه بموهبته الموسيقية التقليدية وقراءته الصامتة للنوتات الموسيقية المتزامنة مع عزفه، لكن ما أبهرهم حقًا هو ارتجالاته على لوح مفاتيح البيانو. عندما كان والده حيًّا، أتى الناس من كل صوب وحدب لسماعه يعزف، والآن أُعجب زملاء نيتشه بنفس هبة والده التي تحلّى بها، وعندما يستغرق في أحد تدفقاته الموسيقية المرتجلة الطويلة والمشوبة بالعاطفة، يتجمعون حول الصبي الممتلئ الجسم بنظارته السميكة وشعره الطويل المُمشط إلى الخلف، ذاك الصبي ذو الجسم المكتنز غير المتناسق الذي يجلس على كرسي البيانو. حتى أولئك الذين لم يطيقوه سُحروا ببراعته الفنية كما لو كان ساحرًا على المسرح. ساهم طقس عاصف في إخراج أعتى إلهام في داخله، وعندما كان الاعصار يدور ويتحرّك، فكّر صديقه كارل فون غيرسدورف أنه حتى بيتهوفن كان سيخفق في بلوغ مثل هذه الارتفاعات اللحنية الارتجالية.

بقي إخلاصه الديني متّقدًا ولم يحد عن فكرة اتباعه لوالده في الدخول إلى الكنيسة، وقع يوم تثبيت العماد خاصته أبان فترة مضطربة من الحماسة الدينية.

كان يوم تثبيت العماد، الذي صادف يوم الأحد الرابع من الصوم الكبير عام١٨٦١، لبنة الأساس لرابطة جديدة جمعت ما بينه وبين بول ديوسن، صديق المدرسة الذي وصف تجربة نيتشه البهلوانية. مشى أولئك الذين سيخضعون لتثبيت عمادهم نحو المذبح في أزواج لتلقي رسامة الكاهن على ركبهم. ركع ديوسن ونيتشه جنبًا إلى جنب، تغمرهم القداسة والنشوة، معلنين استعدادهما الكامل للموت فورًا فداءً للمسيح.

عندما خمدت شعلة النشوة الدينية، أتيح المجال للفحص الموضوعي للنصوص الانجيلية بنفس الطريقة التي طبقها نيتشه على دراسته اليونانية والرومانية. لقد عبر نيتشه عن أفكاره في مقالين طويلين بعنوان المصير والتأريخ، وحرية الإرادة والمصير، يوضح كلا المقالين اهتمامه بالمفكّر الأمريكي المعاصر رالف والدو إيمرسون، الذي كتب بشكل مستفيض عن مشكلة الإرادة الحرّة والمصير. اختتم نيتشه مقاله حرية الإرادة والمصير بشكل دقيق بواحدة من شذراته الأولى «حرية الإرادة المطلقة ستصنع من الإنسان إلهًا؛ أما المبدأ الجبري فسيصنع منه إنسانًا مُسيرًا». كما عبر عن ذات الفكرة في مقاله المضير والتأريخ:

«إن الإرادة الحرّة دون مضير شيء لا يمكن تصوره كأنها روح دون تجسيد، أو خير دون شر... وحدها الثنائيات المتضادة من تشكل الطبيعة... ستكون هناك ثورات كبرى بمجرد أن تدرك الجماهير أخيرًا أن مجمل الديانة المسيحية قائمة على الافتراضات المسبقة: وجود الإله والخلود والسلطة الانجيلية والوحي والعقائد التي ستكون إشكالية دائمًا... بالكاد نعرف ما إذا كانت الإنسانية نفسها ليست سوى مرحلة أو حقبة في التأريخ الكوني، أو... هل إن الإنسان نفسه ليس أكثر من حجر تطور ما بين النبات والحيوان؟... هل أصبحت هذه الأبدية بلا نهاية؟».

تثبُ النظرية الداروينية المُهرطقة إلى البال مباشرة عند التفكير بهذا النوع من التأمّل، ولكن نيتشه استقى هذه الأفكار من قراءته لثلاثة مفكرين استحوذوا على تفكيره لسنوات عديدة؛ إيمرسون والفيلسوف والشاعر الاغريقي إيمبيدوكليس والفيلسوف والشاعر الألماني فريدريك هولدرلين.

في عام ١٨٦١، كتب مقالًا مدرسيًا وعنونه «رسالة إلى صديقي، وفيها أوصيته بقراءة ما يكتب شاعري المفضل». كان فريدريك هولدرلين شاعره المفضل، شاعرًا مهملًا ولم يكن معروفًا على نطاق واسع آنذاك، رغم أنه يعتلي الآن بانثيون الأدب الألماني. حصل نيتشه على درجة متدنية على هذا المقال، ونصحه معلمه في أن «يلتزم بالشعراء الأكثر مقبولية ووضوحًا

وتشبثًا بهويتهم الألمانية»[١٠]. في الحقيقة، صحيحٌ أن هولدرلين كان ألمانيًا، ولكنه كان يمقت القومية الألمانية المتعالية. تبنى نيتشه البالغ من العمر سبعة عشر عامًا ذات الموقف، وأشار مقاله إلى أن هولدرلين «يضع الألمان أمام الحقائق المُرة التي، لسوء الحظ، ترتكز على أسس عميقة جدًا في النهاية... ينتقد هولدرلين البربرية الألمانية قاذفًا إياها بالكلمات الحادة والقاطعة. ومع ذلك، فإن هذا الاشمئزاز من الواقع ينسجم مع حبه الكبير لبلده، لكن ما كرهه في الألمان هو شريحة المتخصّصين السطحيين والعوام»[١١].

لقد وجّه معلمو نيتشه سهام الكراهية إلى هولدرلين لأنهم اعتبروه انحطاطًا صحيًا سيئ التأثير على نيتشه على الصعيدين العقلي والأخلاقي. فقد هولدرلين عقله في نهاية حياته وهذا ما جعله خيارًا غير صحي لأن يكون موضوع مقال. جاءت لذة نيتشه في التشكيك بسلطة العقل متحدة مع اشتباه المعلمين بأن الصبي يحمل روحًا تشاؤمية خطيرة تتعارض كليًا مع المبادئ الإرشادية لبفورتا وهي الويسنشافت والبيلدانغ واللوثرية. من الواجب أن توفّر هذه المبادئ الثلاثة المقدسة خطًا دفاعيًّا مناسبًا أمام أي طالب يافع مثل نيتشه ينجذب للأرض المزعزعة للروح البائسة التي يستكشفها هولدرلين:

«آهًا، تحتقرون من يعي كل هذا، والذي - كما أنا - لا يستطيع أن يمنحكم حرية الحديث عن جدوى وجود الإنسان، والذي - كما أنا - يقبع في قبضة العدم الذي يحكم وجودنا، ولذلك ندرك بعمق أننا ولدنا عدمًا، وأننا نحب عدمًا، ونؤمن بالعدم، ونجهد أنفسنا حتى الموت من أجل العدم، وفي النهاية نمضي رويدًا رويدًا نحو العدم - كيف باستطاعتي تقديم المساعدة إذا ما انهارت ركبكم تحت ثقل التفكير بهذا الأمر جديًا؟ لقد غرقتُ كثيرًا في لجج هذه الأفكار التي لا قعر لها، وصرخت؛ لماذا تصوبين فأسكِ على جذوري، يا أيتها الروح عديمة الرحمة؟ - وما زلتُ هنا»[١٢].

كان هولدرلين في سنوات حياته الأخيرة، بين الفينة والأخرى، قادرًا على إنتاج نصوص ذات بصيرة مدهشة، أو التماعة نبوئية أو عبارة مثيرة للقلق بشكل غريب. أقام في برج في توبنغن، حيث أصبح محطة جذب

سياحية، فقرة في جدول جولة العصر الرومانسي الكبرى، وأفضل ما فيها رؤية برج متهالك مليء بالبوم ومسكون بالرجل الشبيه بالشاري (مانع الصواعق) التي تشتت الإلهام السماوي.

كتب نيتشه، إن «قبر الجنون طويل الأمد» الذي سكنه هولدرلين وتصارع فيه عقله مع ليل الجنون الذي خيّم عليه متسارعًا، قبل أن يفضي في النهاية إلى أغانٍ جنائزية كئيبة وغامضة، تتغذّى على وعيه مثل أمواج تتلاطم في بحرٍ مضطرب. تُقرأ كتابات نيتشه عن هولدرلين على أنها تلميحات، وكأنه يوشك أن يقع في حب فكرة هجر عقله فعلًا، إذا ما كان عاقبة هذا الهجر هو فتح مصاريع الإلهام.

من المؤكد، أن هولدرلين لم يكن الموضوع المفضل في بفورتا، ولكن نيتشه لم يتخل عن اهتمامه بالشاعر على الرغم من انتقادات أساتذته واستنكارهم له.

كان هولدرلين قد كتب مسرحية عن إمبيدوكليس، الذي عاش من ٤٩٢ إلى ٤٣٢ قبل الميلاد، وكتب نيتشه عن الموضوع ذاته. وفقًا للأسطورة، فإن إمبيدوكليس قد وضع حدا لحياته بالقفز في فوهة بركان جبل إتنا متوقعًا على نحو يقيني ومؤكَّد أنه سيتسامى ليصبح إلهًا، وهذا التوقّع يذكرنا بكُلٍ من زرادشت ورحلة انطلاقه من الكهف، وبنيتشه الذي فقد عقله مؤمنًا بأنه يتسامى ليصبح الإله ديونيسيوس. إن موضوع الإلوهية المُكتسبة والجنون الناتج من مس إلهي على أنهما تأشيرتا دخول إلى عالم الإلوهية كان مغروسًا في حياة وتفكير نيتشه وهولدرلين وإمبيدوكليس. ببلوغه سن السابعة عشرة، كان نيتشه تلميذ المدرسة الألمانية الأولى المكرسة للعبادة المتحضرة للعقل والوضوح الاوليمبيين الإغريقيين يستكشف فكرة الجنون التحرري ومشروعية الموقف اللاعقلاني.

«أن نكون وحدنا، وبدون آلهة، فهذا ما يعنيه الموت»، هكذا وضع هولدرلين هذه العبارة في فم إمبيدوكليس في المسرحية، ومن هذه العبارة

يمكننا تعقب الهمسة الأولى من المأساة العظيمة التي سيفصح عنها نيتشه في موت الإله.

نجا القليل من كتابات إمبيدوكليس، إن الشذرات التي تبقت من كتاباته هي كسرات فخارية من قصيدتيه الفلسفيتين الملحميتين، في الطبيعة والتطهيرات. في الطبيعة، هي قصيدة جميلة وخلابة تذكرنا بشعر أوفيد الرعوي والفردوس المفقود لميلتون، ولكن إمبيدوكليس لم يكن مجرد مشعوذ يذكرنا بأوفيد وميلتون، بل إن أهميته تكمن في كونه أول كاتب يسمي العناصر الأربعة:

هلم! سأسمي لك الأربعة الأولية،
من أين أنبثقت كل الأشياء التي نراها الآن-
الأرض والبحر متلاطمُ الأمواج والهواء الرطب،
وسماء الجبار، التي تربط العالم مع بعض.
لكن تعال الآن، اسمع كيف كانت النار منفصلة
لتقود الحياة إلى الأصل... [١٣].

يطرح إمبيدوكليس دائرة كونية من الأشياء التي لا يوجد فيها خلق أو فناء. هناك شكل واحد فقط للمادة، تكون أبدية وغير قابلة للتغيير في مجموعها، وذلك بسبب الخلط والفصل بين القوتين الأبديتين والمتعارضتين إلى الأبد: الحب والكراهية. خلق التوتر الناشئ عن تعارض القوتين طاقة الدوامة الأولية، والتي يصورها إمبيدوكليس، كما يسميها هيرونيموس بوش، كزوبعة مروعة من أجزاء الجسد البشري «الرؤوس والأذرع والعيون، هائمة بصورة مُفزعة في الفضاء» تبحث عن بعضها البعض، وتسعى لتصبح «متشابكة بكل الأشكال وبديعة المنظر». تُفسر هذه الخطوط الأولى اليوم على أنها البداية الأولى اللامعة لنظرية التطور.

تعلم نيتشه الإيجاز من طبيعة الأعمال الأدبية المتشظية المتبقية من كتابات إمبيدوكليس الناجية، كما تعلم كيف تحرر الشذرات العقل لينطلق في رحلة

تأملية لا نهائية. كانت الشذرات في طريقها لتصبح طاقة ذات قيمة متزايدة، وهذا ينطبق على الفترات الزمنية الخلاقة التي تفصل بين نوبات مرضه، والتي أصبحت أقصر بمرور الوقت، تاركة إياه بمواجهة إشكالية كيفية توصيل أفكاره بسرعة وبأقصى قدر من التأثير قبل الهجوم التالي للمرض.

أنجز نيتشه في هذه السنة عملًا آخر، جزءًا من رواية أسماها يوفوريان أطلق عليها بمرح «**الرواية القصيرة السمجة**»، وهي قطعة أدبية ذات طابع عدائي كتبت بأسلوب متكلف على يد مراهق، تتطرقُ إلى الجنس والخطيئة. «عندما كتبتها انفجر ضحك شيطاني داخلي»، هكذا كتب متباهيًا في رسالة بعثها لصديق، ووقعها باسم مستعار، وهو «Muck. صديقك بلا حروف»(١٤).

في أسطورة فاوست، كان يوفوريان هو اسم الطفل الذي ولد لفاوست وهيلين الطروادية. في ألمانيا موطن نيتشه، كان بايرون يُعرفُ شعبيًا على أنه يوفوريان العصر الحديث، لذلك ينتقد نيتشه على لسان يوفوريان في روايته القصيرة الحالة الفاوستية والبايرونية الزائفة.

ما تبقّى من الرواية هو الصفحة الأولى فقط. تفتتح الرواية مع يوفوريان في مكتبه:

«فجرٌ قرمزي متدرج الألوان على صفحة السماء، كأنها ألعاب نارية بائسة، يا للملل... ترقد محبَرةٌ أمامي أُغرقُ فيها قلبي الأسود؛ وزوج مقصات ربما تعودتُ على قطع حنجرتي بهما، ومخطوطات أمسح بها فضلاتي ومبولة.

إذا كان المُعذب فقط هو من سيصوب بوله على قبري لتزهر الورود... بدا لي أنه من الأفضل أن تتحلل جثتي في الأرض الرطبة على أن تنبت مخضرة تحت السماء الزرقاء، أن أخربش الأرض كدودة مكتنزة أكثر جمالًا من أن أكون كائنًا بشريًا - كعلامة استفهام متحركة...

على الجانب الآخر أمامي تقطنُ راهبة أزورها من حين لآخر للتمتع ببعض

المرح الكامن في سلوكها الرائع... فيما مضى كانت راهبة نحيلة وضعيفة؛ كنت طبيبها ورأيت من الأفضل لها أن تكتسب بعض الوزن. يسكن معها في مكان إقامتها زوج أختها؛ والذي بدا لي سمينًا للغاية ومتوردًا - أنقصتُ من وزنه وحولته إلى جثة...

مال يوفوريان إلى الخلف قليلًا عند هذه النقطة وتنهد بسبب معاناته من حالة تركت أثرها على نخاع عموده الفقري»[١٥].

هنا، ولحسن الحظ، تنتهي الصفحة الوحيدة المتبقية من الرواية.

هناك شذرة أخرى متبقية من كتاباته لا ينبغي حذفها من آثاره في عمر الصبا، جرت العادة على اعتبار هذا النص المكتوب بمثابة تقرير ناتجٍ عن خبرة حقيقية ما، كأن تكون رؤيا أو مسًّا شبحيًّا شيطانيًّا، أو حتى عرضًا مسبقًا لجنونه. على هذا النحو، تم التعامل مع هذا النص بالطريقة المناسبة باعتباره مهمًا، لكن بالنظر إلى يوفوريان، قد يكون الأمر مجرد محاولةٍ أخرى في الكتابة الكابوسية التجريبية.

كتب: «ما أخشاه ليس الشيء المفزع خلف كرسيّ بل صوته؛ وليس الكلمات بل النبرة المتشظية المروعة واللاإنسانية التي تخرج منه. نعم، ليته تكلّم كما يتكلم البشر»[١٦].

في بفورتا، كانوا يعالجون سلسلة نوباته المرضية العرضية والمزمنة المروعة، وصداعه الذي قد يتسبب بالعمى وأذنه المتقيحة وحتى «نزلة المعدة»، كما التقيؤ والغثيان بعلاجاتٍ مهينة. كان يوضع على سريرٍ في غرفةٍ مظلمة والعلقات مثبتة على شحمة أذنه لتمتص الدم من رأسه، كما كانوا يضعون بعض العلقات على عنقه أيضًا. كره هذا العلاج ولم يشعر بتحسنٍ أبدًا. ما بين عامي ١٨٥٩ و١٨٦٤، كُتب اسمه في سجل المرضى عشرين مرة، ودامت فترات دخوله إلى العيادة أسبوعًا كمعدل. كتب: «يجب أن أتعلم الاعتياد على ذلك»، كان يضع نظارات معتمة ليقي عينيه الحساسة من ألم الضوء، ولم يكن هناك ما يدعو للتفاؤل بعد توقّع طبيب المدرسة بعماه التام.

متحفزًا بالقيود الجسدية والتكهّنات القاتمة، استغل كل لحظة مثمرة، فكانت شهيته للعمل هائلة. أضاف إلى عبء الواجب المدرسي تشكيل أخوية أدبية مع اثنين من أصدقاء طفولته: غوستاف كروغ وفيلهلم بيندر، واللذان درسا في ثانوية كاتدرائية ناومبورغ، ولم يتم اختيارهما ليكونا ضمن نخبة بفورتا. سمى الصبيان الثلاثة جمعيتهم الأدبية «جرمانيا»، ربما على شرف المؤرخ الروماني تاستس[١٧]. أقاموا لقاءهم الافتتاحي خلال العطلة الصيفية لعام ١٨٦٠ في برج يطل على نهر زاله. أقسموا بعدد من العهود الأخوية وسكبوا زجاجة نبيذ أحمر من النوع الرخيص على الخبز المحمص، قبل رميها في النهر أسفلهم. أقسم كل منهم على إنتاج عمل فني ما كل شهر؛ قصيدة أو مقال أو تأليف قطعة موسيقية أو تصميم عمراني؛ لينقد الآخران هذا العمل الفني «بالروح الأخوية للتقويم المشترك».

على مدى ثلاث سنوات، ساهم نيتشه بأربعة وثلاثين عملًا فنيًا تنوّعت من موشحات عيد الميلاد الدينية، «شخصية كريمهيلد وفقًا لقصيدة نيبلونغ»، إلى «فيما يتعلق بالعنصر الشيطاني في الموسيقى». واظب نيتشه على إنتاج الأعمال الفنية بعد توقف صديقيه الآخرين، فكتب يائسًا في سجل جمعيتهم لعام ١٨٦٢: «أي الوسائل يمكن أن تُحفزنا للعمل بنشاط متلهف؟».

في العام الذي تلاه، أصبح مهتمًا بإحدى الفتيات. كانت آنا ريدتل شقيقة أحد زملائه في المدرسة. لفتت أنظار نيتشه برقصها الجميل في فسحة مقطوعة الأشجار في غابة، خلال نزهة إلى الجبال حيث أتت مع أخيها. رقصا معًا، كانت فتاة صغيرة ورقيقة من برلين، ساحرة ومحبوبة وفق كل المعايير، مثقّفة ومولعة بالموسيقى. بدا نيتشه بجانبها عريض الصدر وضخمًا ومتزنًا إلى حد ما وصلبًا. عزفت على البيانو بشكل جيد، وقد ازداد إعجابهما ببعضٍ وهما يعزفان عزفًا ثنائيًا على كرسي البيانو. أرسل لها قصائد وأهداها قصيدة ملحمية موسيقية، وعندما حان موعد عودة آنا لبرلين، أعطاها محفظة تحتوي على عدد من مؤلفاته الموسيقية، فشكرته بدورها في رسالة موجزة جميلة، وبذلك انتهت تجربته الأولى الرقيقة للحب.

في عام ١٨٦٤، عامه الأخير في المدرسة، خفّ نشاطه خارج منهاج الدراسة فكان عليه أن يركز على دراسته لإنجاز عمل أساسي ومهم، ألا وهو تحصيل ورقة الطالب المتفوق لاجتياز امتحان ابيتور، وهو امتحان قبول الجامعة.

« في آخر سنواتي من حياتي التي قضيتها في شولبفورتا، كنت أعمل بشكلٍ مستقلٍّ على بحثين فيلولوجيين. في الأول، أهدف إلى كتابة تقرير عن ملاحمٍ الملك القوطي الشرقي إرماناريتش وعن مختلف تشعباتها، مُستعينًا بمصادر مثل يوردانس وإيدا(*) وغيرها. في الثاني، أفصّل نوعا خاصا من الطواغيت الإغريقيين، الميغاري... وعند شروعي بالعمل عليه، أصبح البحث لوحة عن الشاعر ثيوغنيز الميغاري»[١٨].

نجا أقل من ١٤٠٠ بيت شعري من كتابات الشاعر اليوناني ثيوغنيز الميغاري الذي عاش في القرن السادس قبل الميلاد، وهذا ما منح البحث حول ثيوغنيز شيئًا مشتركًا مع مواضيع نيتشه الأخرى، مثل إمبيدوكليس وديوجين لايرتيوس؛ منحه حرية كبيرة. كتب نيتشه عن عمله عن ثيوغنيز «لقد أشغلت نفسي بقدر كبير في الحدس والتخمين، ولكنني أخطط لإنجاز العمل بدقة فيلولوجية مناسبة وبعلميةٍ قدر ما أمكن». وقد حقق علم الفيلولوجيا والدقة نصرًا فعليًا في بحثه (عن ثيوغنيز الميغاري)، الذي كتبه في ظرف أسبوع واحد فقط في بداية عطلة الصيف. يتألف البحث من ٤٢ صفحة مكتوبًا باللغة اللاتينية بطريقة مُحكمة، وقد انبهر مدرسو الفيلولوجيا في بفورتا بألمعية بحثه. كان عليه أن يخصّص أيام العطلة الصيفية لدراسة الرياضيات ولكنه لم يحتمل تلك المادة، وعندما عاد للمدرسة أراد مدرس الرياضيات الساخط بوخبندر رفضه من امتحان ابيتور المؤهل للجامعة.

(*) يوردانس: مؤرخ قوطي عاش في القرن السادس الميلادي معروف بأعماله حول القبائل الجرمانية.

إيدا: هو مصطلح إسكندنافي نسبه باحثو العصر الحديث إلى مؤلَّفَين أدبيين آيسلنديين من العصور الوسطى: ما يعرف الآن باسم «نثر إيدا» ومجموعة من القصائد الأقدم من دون عنوان أصلي تُعرف باسم «شعر إيدا». (المترجم)

«نظرًا إلى أنه لم يظهر أي مواظبة عتيادية على دراسة الرياضيات، فقد أصبح في تراجع دائم، إن جاز التعبير، على الصعيدين التحريري والشفوي؛ بحيث لا يمكن اعتباره مقبولًا على الأقل»، هكذا كتب بوخبندر موبِّخًا نيتشه، بيد أن زملاءه التربويين قمعوا تذمّره حين سألوه «أتريدنا أن نرسل التلميذ الأكثر موهبة في بفورتا ليحرث الارض؟»[١٩].

في الرابع من أيلول، صرخ نيتشه «لقد نجحت»، «مرحى! لقد حلّت أيام الحرية المجيدة!»، وغادر بفورتا وفق تقاليد المدرسة المبهرجة المعتادة، وهو يلوح من نافذة عربة مزركشة تجرّها الخيول برفقة حوذيين أبهياء الطلعة يرتدون الزي الرسمي.

جاء في تقرير التخرّج الذي كتبه طبيب المدرسة: «إن نيتشه إنسان قوي البنية ومكتنز، يتحلّى بعين ذات نظرة ثاقبة، لكنه يعاني من قصر البصر وغالبًا ما يكون مضطربًا بسبب نوبات الصداع. توفّي والده في مقتبل العمر بعد إصابته بتليّن الدماغ، ولأنه وُلد لأبوين مسنين، فقد كان والده مريضًا سلفًا. لا توجد أي أعراض سيئة حتى هذه اللحظة، ولكن ينبغي أخذ السوابق أعلاه بعين الاعتبار».

بالكاد ما كان تعليق نيتشه الوداعي على بفورتا أكثر اطراء:

«لقد اعتنقتُ ديانة سرّية لبعض الفنون... وأنقذتُ ميولي ومساعيّ الشخصية من رتابة القانون المنتظم؛ حاولتُ كسر صرامة اللوائح والمواعيد الزمنية المنصوص عليها في القوانين عن طريق الانغماس في الشغف المفرط للمعرفة الكونية والمتعة... إن ما أردته هو بعض الثقل الموازن لميولي المتغيرة والمضطربة، أو علم يمكن تفحصه بموضوعية وبمنطق باردين وبالعمل المنتظم دون أن تؤثر نتائج هذا العلم عليّ عميقًا... كم أحسنت هذه المدرسة السخية تعليم طلابها، بيد أنها أساءت تثقيفهم»[٢٠].

(٢) أثينا الألمانية:

١. نص لـ «فيلهلم بيندر» اقتبسه كل من كيرل وبيتس في كتابهما «الأوروبي الخيّر»، صفحة ٦١.
٢. فيليب ميلانتشون شوارزيرد (١٤٩٧-١٥٦٠)، المساعد الرئيسي لمارتن لوثر في ترجمة العهد القديم إلى الألمانية، والمعروف أكثر باسمه الهيليني المستعار ميلانشتون.
٣. كارل فيلهلم فون همبولت (١٧٦٧ - ١٨٣٥).
٤. كارل فيلهلم فون همبولت؛ كتابات مختارة: طبعة أكاديمية العلوم البروسية، المجلد الثاني، صفحة ١١٧.
٥. نبذة من السيرة الذاتية، ١٨٦٨/ ٩.
٦. آن لويز جيرمان دي ستايل، ألمانيا، ١٨١٣، المجلد الأول، ساكسونيا.
٧. نيتشه إلى فيلهلم بيندر، نيسان ١٨٥٩.
٨. جورنال ١٨ آب ١٨٥٩. اقتبسه كل من كيرل وبيتس في كتابهما «الأوروبي الخيّر»، صفحة ٢٣.
٩. اندر إل. غيلمان (محرر)، محادثات مع نيتشه، مطبعة جامعة أكسفورد، ١٩٨٧، صفحة ١٥.
١٠. ربما كان المعلم البروفيسور كوبيرشتاين.
١١. نيتشه، «رسالة إلى صديقي..» ١٩ تشرين الأول ١٨٦١.
١٢. الطاووس والجاموس، ٢٠١٠، صفحة ٣٤.
١٣. إمبيدوكليس، الشذرة ٣٨ و٦٣.
١٤. نيتشه إلى رايمون غرانير، ٢٨ تموز ١٨٦٢.
١٥. كيرل وبيتش، الأوروبي الخيّر، صفحة ٢٦.
١٦. نبذة من السيرة الذاتية، ١٨٦٨/ ٩.
١٧. كتب المؤلف الروماني تاكيتوس (حوالى ٥٥-١١٦) الوصف الأول لألمانيا، جرمانيا.
١٨. نبذة من السيرة الذاتية، ١٨٦٨/ ٩.
١٩. إليزابيث فورستر نيتشه، حياة نيتشه، المجلد الأول، صفحة ١١٧.
٢٠. نبذة من السيرة الذاتية.

٣

اغدُ ما أنت عليه

هناك مئة طريقة للإصغاء إلى صوت ضميرك... ولكن إحساسك بأن شيئًا ما هو صحيح يعودُ إلى أنك لم تفكر كثيرًا ومطلقًا بنفسك، بل تقبلت بطاعةٍ عمياء ما قد تم دمغه بأنه صحيحٌ منذ طفولتك.

العلم المرح

سيُطلق نيتشه على عام ١٨٦٤ اسم السنة المهدورة. في تشرين الأول، سُجل اسمه طالبًا في جامعة بون. مؤديًا دور الابن المطيع، دخل نيتشه فرع الدراسات اللاهوتية رغم أن اهتمامه الأكبر كان في علم الفيلولوجيا الكلاسيكي. لقد اختير في جامعة بون بناءً على قرار أستاذين معروفين في قسم الفيلولوجيا الكلاسيكية، هما فريدريك ريتشل وأوتو جان. وجد نيتشه أن المنهج اللاهوتي مملٌ، وافتقد والدته وأخته. كانت بون تبعد عن ناومبورغ حوالى ٣٠٠ ميل، ولهذا فإنه ولأول مرّة في حياته يبتعد عن عائلته مسافةً كهذه، لكن رغم اشتياقه لهن كان في مقدوره تجيير هذه المسافة لمصلحته، وإن كان ذلك يعني الخداع، فلا تزال عائلته تؤمن بأنه مقبل على الانضمام للكنيسة وأنه فشل في التحرر من قبضتها.

رأى أن حياته حتى هذه اللحظة كانت ضيِّقة الأفق. كانت طريقته لتقويم جهله بالعالم هي انضمامه إلى إحدى الأخويات الطالبية، وهي حركة تلوّث اسمها فيما بعد بارتباطها بشبيبة هتلر. كان الغرض من تأسيسها عام ١٨١٥ هو بث قيم ليبرالية مشتركة لجيل الطلبة الألمان عبر اتحاد الأقاليم الألمانية، رغم أن الاتحاد فرض قيودًا صارمة على النشاط الفكري على الأخويات في حال تحوّلها إلى جمعيات سياسية وتخريبية، حيث انحصرت نشاطاتها بالذهاب في نزهات جبلية أو إنشاد الأغاني والمبارزة وكرع البيرة. انضم نيتشه إلى أخوية فرانكونيا الخاصّة، متوقّعًا أنه سيطّلع على مناقشات علمية ومناظرات برلمانية، ولكنه وجد نفسه، على عكس ما توقّع، يرفع أقداح البيرة ويهدر عاليًا مرددًا أغاني الأخوية. باذلًا كل جهده للتأقلم مع هذا الوضع، لوّث نيتشه نفسه بما وصفه وضعًا مشوشًا غريبًا من الحيرة والاهتياج المحموم.

«بعد الانحناء أمامكما بكل الاتجاهات وبأكثر الطرق كياسة، أقدم لكما نفسي كعضو في الجمعية الطالبية الألمانية المسماة فرانكونيا»، هكذا كتب لوالدته ولشقيقته اللاما العزيزتين. لا بد أن تكونا قد سئمتا من عدد الرسائل التي يصف فيها نزهات فرانكونيا، التي تبدأ بمسير أعضاء الأخوية بموكبٍ ثابتٍ معتمرين قبعات الأخوية وأوشحتها ويغنون بصوت جهوري. تنتهي مسيرتهم عادةً خلف فرقة الخيالة «التي جذبت انتباهًا كبيرًا» في إحدى الحانات وهم في حالة مرحٍ هائج، أو في زريبة ما تعود لأحد الفلاحين بعد أن يضطروا لقبول ضيافته وخمره القوي.

كانت الندبة التي تخلّفها المبارزة دلالة أساسية على الشرف، وقد سلك نيتشه طريقًا غير تقليدي للحصول على ندبة. عندما شعر بأنه جيدٌ في المبارزة، ذهب في نزهة ممتعة مع السيد د. الذي كان ينتمي لأخوية يتبارز أعضاؤها مع أعضاء فرانكونيا. لقد صُدم نيتشه من لُطف خصمه فقال له: «أنت رجل يحملُ الكثير من صفاتي، ألا يمكننا أن نتبارز ها هنا معًا؟ دعنا نتجاوز تلك الشكليات». لم يتطابق هذا الطلب مع قانون المبارزة، ولكن السيد د. وافق بأكثر الطرق كياسة. لعب بول ديوسن دور الجمهور فتحدّث عن النصلين

البرّاقين اللذين تراقصا فوق رأسيهما المكشوفين لثلاث دقائق، قبل أن يصيب نصل السيد د. العظم العلوي من أنف نيتشه. بعد سقوط بضع قطرات من الدم؛ قنع الشرف بهذا القليل. ضمّد ديوسن جرحه، ونقله إلى المنزل بعربة ووضعه في الفراش، وبعد مرور يومين تعافى نيتشه بالكامل[1].

كانت الندبة صغيرة جدًا ولا يمكنك رؤيتها في الصور، ولكنها كانت باعثة على الشعور بالرضا الكبير بالنسبة لنيتشه. لم تكن لديه أي فكرة كيف ضحك أصدقاء السيد د. عندما أخبرهم الأخير بقصة المبارزة.

يتردد أعضاء أخوية فرانكونيا على بيوت الدعارة في كولونيا. زار نيتشه المدينة في شباط من عام ١٨٦٥ مستخدمًا مرشدًا سياحيًا ليريه الكاتدرائية والمناظر الشهيرة في المدينة. طلب من الدليل أن يأخذه لأحد المطاعم وربما ظن المرشد أن نيتشه خجولٌ جدًا ولن يطلب الذهاب إلى الأماكن التي يرغب بزيارتها فعلًا، ولذلك أخذه إلى أحد بيوت الدعارة بدلًا من المطعم؛ «فجأة وجدت نفسي محاطًا بنصف دزينة من مخلوقاتٍ ترتدي ثيابًا مبهرجة وشفافة تحدق بي بطريقة تدل على انتظارهنّ إياي. للحظة، وقفت أمامهنّ والذهول بادٍ علي؛ ثم ذهبت إلى البيانو كما لو كانت غريزتي تدفعني إليه، فقد كان الشيء الوحيد الذي يمتلك روحًا في هذه المؤسسة بأكملها، فعزفت على مفتاحٍ أو مفتاحين فيه. حررت الموسيقى أطرافي وللفور كنت خارجًا في الخلاء»[2].

هذا كل ما نعرفه عن هذه الواقعة ولكنها ذات صدى مدوٍ في الأدب النيتشوي وأسطورته. يعتقد البعض أنه لم يعزف على بعض الأوتار وحسب ليترك المكان عند هذا الحد، ولكنه مكث في بيت الدعارة فترة أطول من أجل ممارسة الغرض الاعتيادي حيث أصيب هناك بمرض الزهري، وبسبب هذا المرض انبثقت مشكلاته العقلية والجسدية لاحقًا. هناك سبب آخر يؤكد هذا الشيء، هو قوله عام ١٨٨٩، بعد أن فقد عقله وكان في المصحة، أنه قد «أصيب مرتين». افترض الأطباء أنه كان يتحدّث عن مرض السفلس، لكنهم لو نظروا إلى سجلاته الطبية لكانوا اكتشفوا أنه قد أصيب بالسيلان مرتين، وهي حقيقة اعترف بها للأطباء حينما كان سليم العقل.

يُسخّرُ توماس مان حادثة بيت الدعارة كثيمة محورية في روايته الضخمة «**دكتور فاوستس**»، فيعيد مان سرد أسطورة فاوستس بطريقة مختلفة، حيث يصوّر نيتشه في دور البطولة. يتناول مان ليلة بيت الدعارة على أنها الليلة التي باع فيها نيتشه/ فاوستس روحه للشيطان من أجل المرأة التي اشتهى، لتصير هاجسه وشيطانته. في النصوص الأولى من أسطورة فاوستس، تلعب هيلين من طروادة هذا الدور ولكن مان يبدلها بحورية بحر صغيرة مستوحاة من الكاتب الدنماركي هانز كريستيان اندرسن، مخلوقة مسكينة عليها أن تخضع لعذاب فظيع لكي تفوز بالحب البشري؛ يُقطعُ لسانها ثمنًا لرغبتها بالتحول، يُشرمُ ذيلها السمكي إلى نصفين وكل خطوة تمشيها بقدميها البشريتين تجرحها كسيوف حادة الحواف. ربما يخبرنا هذا الوصف عن توماس مان أكثر منه عن نيتشه.

خلال الفصلين الدراسيين اللذين قضاهما نيتشه في بون ظلت الموسيقى والتأليف الموسيقي شغفه الكبير. كتب محاكاة ساخرة طويلة للمسرحية الهزلية التي الفها أوفنباخ «**أورفيوس في العالم السفلي**»، وهذا ما أكسبه لقب «غلوك»(*) بين أقرانه في أخوية فرانكونيا. زار قبر روبرت شومان لوضع إكليلٍ من الزهور، ثم أثقلته الديون لشرائه بيانو، لدرجة أنه لم يتمكن من تحمل تكاليف رحلة العودة إلى منزل والدته وشقيقته في عيد الميلاد. مُلاحظًا أن النقود دائمًا ما تهرب منه مسرعة، قال: «ربما يكون السبب في ذلك هو شكلها الدائري الذي يشبه العجلة»[٣]. بعث بمجلدٍ يحوي ثمانية من مؤلفاته الموسيقية (المتأثرة بشوبرت للغاية في هذه المرحلة)، حيث غلّفه بالخزامى وأرفق معه تعليمات مفصلة للغاية عن كيفية عزف لاماه عزيزة قلبه لهذه التأليفات وغنائها؛ يخبرها في التعليمات أن عليها عزفها بجدّية وبطريقة حزينة مع طاقة وإشراقٍ بسيط، أو في بعض الأحيان شغف طافح. حتى في غيابه لم يتوقف عن التحكم بامرأتيه المحبوبتين.

(*) نسبة إلى كريستوف فيليبالد غلوك؛ ملحّن أوبرا ألماني كلاسيكي. (المترجم)

في عيد الفصح الذي عقب حادثة بيت الدعارة، كان نيتشه في البيت ورفض تناول السر المقدس للطائفة في الكنيسة. إن عيد الفصح هو فريضة للمتدينين المسيحيين، وبادرته لم تكن مجرّد تصرّف باهت وإنما سببًا غرز الذعر في قلب أمه ولاماه، حيث كان تصرفه المارق بمثابة إنكار لما شعرتا أنه هدف الحياة الحقيقي الوحيد على هذه الأرض، وهو لم شملهم في نهاية حياتهم مع القس نيتشه في الجنة.

لم يعانِ نيتشه بعد من خسارته التامة للإيمان، ولكنه كان يكتم شكوكًا خطيرة، وبينما كان يجلس في غرفة دراسته الشبيهة بمزارٍ لوالده الذي عُلقت صورته فوق البيانو أسفل لوحة زيتية تصور المسيح عندما أنزلوه عن الصليب، قرأ كتابًا من تأليف ديفيد شتراوس «**حياة عيسى المسيح**: دراسة نقدية» ودوَّن في الوقت ذاته قائمة من سبعة وعشرين كتابًا علميًا اعتزم قراءتها.

كحال الغالبية العظمى من أبناء جيله، كان نيتشه يعبر الأرضية المزعزعة بين العلم والإيمان، وهذه إشكالية بحاجة إلى حل. بدا وكأن هذه الإشكالية تنتقل من الإيمان الأعمى بالرب إلى الإيمان الأعمى بالعلماء الذين ادعوا أنهم اكتشفوا الطبيعة الغامضة للمادة في شيء يسمى «القوة البيولوجية»، والتي تعلل التنوع المدهش للعالم الطبيعي.

أوضحت موسوعة معاصرة عملية تشكُّل الكون بطريقة ليست بعيدة عن طريقة إمبيدوكليس، كالتالي:

«إن الانهيار الأبدي للجسيمات المتنوعة التي تسقط بخط سير متشعب، تفني نفسها في السقوط لتشكل دوامة» تتواجد داخل الأثير، والتي كانت «وسطًا مضيئًا يملأ الفضاء مع وسط صلب مرن، ومن خلاله انتقلت الحرارة والضوء في شكل موجات». إن الضوء «لا يمكن تفسيره بأي طريقة أخرى»، على الرغم من أنه بقي لغزًا «كيف بإمكان الأرض أن تتحرّك خلال الوسط الأثيري بمعدل ما يقارب مليون ميل في اليوم. لكن إذا أخذنا بعين الاعتبار أن الشمع، الذي يستخدمه صانع الأحذية، هشٌ للغاية لدرجة أنه يتفتت تحت

وطأة ضربات المطرقة، لكنه يتحول إلى سائلٍ ليتدفق في الوعاء الذي يوضع فيه، وتغرق ببطء كرات الرصاص الصغيرة فيه بينما يطفو الفلين ببطء على سطحه، عندها لا تبدو حركة الأرض عبر الأثير عصية على الفهم إلى حدٍ كبير»(٤).

لقد فُسر الكون بالنظر إلى شمع صانع الأحذية؛ فأصبح الإيمان بالعلم لا عقلانيًا شيئًا فشيئًا تمامًا كالإيمان بالرب. يدرسُ كتاب شتراوس حياة عيسى المسيح بطريقة «علمية»، لهذا، شبّه نيتشه شتراوس بأسد فيلولوجي يسلخُ جلد الدببة اللاهوتية. إذا كانت الديانة المسيحية تعني الإيمان بحدث تأريخي أو شخصية تأريخية، فإنه يرفض أي شيء من هذه الديانة.

طالبته أخته بتوضيح موقفه فكتب لها: «في الواقع، كل إيمان حقيقي هو إيمان معصوم من الخطأ فيضع أمام الشخص المؤمن ما يأمل العثور عليه، ولكنه لا يقدم أي سند لإثبات الحقيقة الموضوعية... هذه هي طرق تقسيم البشرية؛ إذا رغبتِ في تحصيل راحة البال والسعادة، فعليكِ بالإيمان؛ أما إذا رغبتِ في أن تكوني من مريدي الحقيقة، عند ذاك عليكِ بالبحث»(٥).

لم يحقق نيتشه الكثير خلال الفصلين الدراسيين اللذين قضاهما في بون، بالإضافة إلى تراكم ديونه ونومه المتأخر، كما انضم إلى طقم أمراضه مرض جديد هو روماتيزم الذراع. كان متهكّمًا ونكديًا كما كان نادمًا على الوقت الضائع والنقود المهدورة على «النظرية المادية الفائحة برائحة الجعة» و«الصداقة الطائشة» في أخوية فرانكونيا. لحسن الحظ، نشبت مشاجرة بين أستاذي علم الفيلولوجيا جان وريتشل لتصبح حامية الوطيس، الأمر الذي دعا ريتشل لمغادرة بون والانتقال للتدريس في جامعة لايبزيغ؛ فتبعه نيتشه.

لاءمت البداية الجديدة نيتشه، كان يستيقظ كل صباح في الساعة الخامسة للذهاب إلى محاضرته، وأسس هناك الجمعية الكلاسيكية التي توافقت معه على نحو أفضل من أخوية فرانكونيا، كما أنه حوَّل مقهى محليًا إلى ضرب من ضروب البورصة الفيلولوجية، واشترى خزانة لحفظ مجلاته وأوراقه. انضم إلى «الجمعية الفيلولوجية» المزدهرة وقدم أبحاثًا باللغة اللاتينية وفقًا لكل الطرق

الكلاسيكية الغامضة المباشرة منها وغير المباشرة؛ «لقد وسعت وحدي وبشكل مستقل هذه الطرق من خلال وقوعي مؤخرًا على دليل يفسر لماذا لا يعود الفايولاريوم من الأوديسا إلى سويداس بل إلى مصدر سويداس الرئيس، وهو صورة مصغرة لهيزيشيوس مايليسيوس (المفقود، بالطبع)..»(٦). لقد حظي نيتشه بهبة بث الحياة في المواضيع الميتة والجافة، وهي موهبة نادرة في الحقل الفيلولوجي فكانت مناقشته تسجل حضورًا جيدًا، مما يعني أنه كان محبوبًا.

لقد كان نيتشه متحرِّرًا بشكل تام من أي حذلقة لا تمت بأي صلة لحقل دراسته، يستذكر أحد زملائه في الدراسة «لقد خرجت من مناقشاته مع انطباع يوحي بأنه شخص يتحلّى بنضوج مذهل وثقة شجاعة بالنفس»(٧). ناقش أعمال هوميروس بالمقارنة مع هزيود، وأثار إعجاب هيئة التدريس من خلال تحدي الفكرة القائلة بأن الأوديسه والإلياذه كانتا شعرًا شعبيًا كُتبتا على يد عدة شعراء، مجادلًا أنه من غير المعقول ألا يُكتب عملٌ أدبيٌ رائعٌ مثل هذا على يد فردٍ خلّاقٍ خارقٍ. أشاد ريتشل بعمله عن ثيوغنيز وفاز بجائزة عن مقاله الذي يتحدّث عن ديوجين لايرتيوس، حيث بدأ المقال بشذرة مأخوذة من إحدى قصائد بندار: «اغدُ ما أنت عليه، ما أن تفقه ماهيته» وسيثمِّن هذه الشذرة طوال حياته(٨).

استهل نيتشه طريقه في أن يغدو ما هو عليه عندما تدخَّل القدر في حياته متمثلًا ببسمارك وطموحاته الإقليمية الذي تسببت سياسته التوسعية بسلسلة من الحروب الصغيرة لمناورة بروسيا لغرض وضع ألمانيا في الطليعة على حساب الاتحاد، لتنتقل إلى طليعة أوروبا في النهاية. في عام ١٨٦٦، قاتلت بروسيا وانتصرت في حروب قصيرة على النمسا وبافاريا. فيما بعد، غزا الجيش البروسي ساكسونيا وهانوفر وهيس، وأُعلن أن الاتحاد الألماني قد حُلّ. في السنة اللاحقة عام ١٨٦٧، كان دوي هذه المشكلات هادرًا عندما استُدعي نيتشه ليخدم برتبة جندي في سرية الفرسان من فوج المدفعية المتمركزة في ناومبورغ. كان قد تلقى بعض الدروس عن ركوب الخيل، بيد أن تجربته مع الخيول لم تكن واسعة.

«إذا اقتادتك قوةٌ ما ورائيةٌ في وقت مبكّر من صبيحة أحد الأيام، ودعنا

نقول، بين الخامسة والسادسة إلى ناومبورغ، وكانت الروح ممتلئة باللطف برغبتها في توجيه خطواتك إلى جواري، فلا تتوقف في مساراتك وحدق في المنظر الذي يقدم نفسه إلى حواسك. فجأة، تتنفس هواء الإسطبل. على ضوء الفانوس الخافت، تلوح الأشكال في الأفق. تحيط بك أصوات الكشط والصهيل والتفريش والطَرق. في منتصف كل هذا، وفي زي السائس، يحاول جاهدًا حمل شيء لا يوصف بيديه العاريتين... إنه أنا. بعد ساعات قليلة، رأيتُ حصانين يعدوان حول الحلبة يعتليهما فارسان، أحدهما يشبه صديقك جدًا، يمتطي الحصان بالدوين المتقد والفاتن، ويأمل أن يكون قادرًا على امتطائه بسلامةٍ ذات يوم... وفي أوقات أخرى من اليوم يقفُ كدوحًا ومنتبهًا أثناء جر الخيول للمدافع ويسحب القذائف من قادمة المدافع أو ينظف الفوهة بقطعة قماش أو يقيس الهدف وفقًا للبوصات والدرجات، وأشياء أخرى مثل هذه. لكن الأهم من ذلك أن لديه الكثير لتعلّمه... مختبئًا أحيانًا تحت بطن الحصان أدمدمُ «أغثني يا شوبنهاور»!»[٩].

تعلّم فرسان المدفعية امتطاء خيولهم أثناء جريها، يرمون أجسادهم بجسارة على سروجها. كان قصر النظر الذي يعاني منه نيتشه سببًا في سوء تقديره للمسافات، وفي المسير العسكري أساء تخمين وقت الوثبة على ظهر حصانه، فتهشم صدره بحلقة السرج الحديدية القاسية. بجلادة، استمر في ممارسة التمارين، ولكنه انهار في ذلك المساء ليضعوه في الفراش متأثرًا بجرح عميق في الصدر. بعد عشره أيام من المورفين دون أي تحسن، فتح طبيب الجيش صدره؛ وبعد شهرين آخرين كان جرحه لا يزال يفرز قيحًا ويستعصي على الشفاء. مذهولًا، شاهد نيتشه عظمًا صغيرًا يخرج من صدره، وقيل له أن يغسل الجرح بمنقوع البابونج ونيترات محلول الفضة وأن يستحم ثلاث مرات في الأسبوع. لم تحقق هذه الاجراءات النتيجة المرجوة، وبدأ الحديث يدور حول عملية جراحية. بعد استشارة الدكتور فولكمان المعروف في هالي، أوصى بعلاج يتمثل في المياة المالحة في الحمامات المالحة في فيتكند. كانت قرية المنتجع الصحي الصغيرة مكانًا موحشًا ومطيرًا وكئيبًا، أما زملاؤه المرضى فلم يثيروا

اهتمامه أبدًا. ليتجنب محادثتهم التافهة، جلس في أوقات الطعام بجوار رجل أصم وأبكم. تكللت رحلته بالنجاح، فقد كان العلاج ناجعًا، وعندما التئمت جروحه مخلفة ندوبًا عميقة، أصبح مستعدًا لمغادرة المكان الكئيب.

في تشرين الأول، أُعلن أنه غير مؤهّل مؤقتًا للخدمة العسكرية الفعلية وأبعد عن الجيش حتى حلول الربيع القادم، حيث كان من المتوقّع أن يعود لممارسة التدريب الشهري على المدفعية، وهو نشاط لا يتناسب مع النجاعة التامة لتشافي جروحه. احتفل في ١٥ تشرين الأول بعيد ميلاده الرابع والعشرين وبعد ثلاثة أسابيع جاء الاجتماع المجيد الأول مع ريتشارد فاغنر، وبعد ذلك بفترة وجيزة تلقى نيتشه دعوة لتسنم كرسي الفيلولوجيا في بازل.

لقد كان عرضًا مُذهلًا، فقد كان نيتشه مجرد طالبٍ قضى فصلين دراسيين في بون ومثلهما في لايبزيغ، ولم يكن لديه أي شهادة من كلتا الجامعتين، ولكن أستاذه المُبجل ريتشل مدح وأوصى بتلميذه المتألق البارز. عُرض الكرسي عليه في الثالث عشر من شباط ١٨٦٩، ولكي يتمكّن من تسنم منصبه كان عليه الحصول على درجة الدكتوراه، والتي حصل عليها من لايبزيغ دون امتحان في الثالث والعشرين من آذار. في نيسان، تم تعيينه أستاذًا في علم الفيلولوجيا في جامعة بازل براتب قدره ثلاثة آلاف فرنك.

فخورٌ مُغتبطٌ كونه أصغر أستاذ على الإطلاق تم تعيينه هناك، أنفق بعض النقود على الملابس وبذل جهدًا كبيرًا في نبذ الموضات الشبابية مُفضلًا الطرازات التي قد تظهره أكبر عمرًا.

كان لديه بعض التحفظات على السويسريين، مشتبهًا في كونهم عرقًا من «الارستقراطيين العوام»، وأن بازل مجتمعٌ ثري محافظ بني على تجارة الأشرطة، مدينة المتاجر المثالية، مدينة الشيوخ المعصومين من الخطأ والجامعة الصغيرة التي تضم ١٢٠ طالبًا فقط، معظمهم يدرسون اللاهوت.

أصرت الجامعة على أن يتخلّى نيتشه عن جنسيته البروسية، فلم يرغبوا في أن يُستدعى مرة أخرى للخدمة العسكرية هناك. اقترحوا أن يصبح مواطنًا

سويسريًا، لكن بينما أبطل جنسيته البروسية لم يستوفِ مطلقًا متطلبات الجنسية السويسرية. نتيجة لذلك، أصبح نيتشه بلا جنسية لبقية حياته، مما أشعره بأن هذا الوضع أفضل من الانضمام إلى صفوف العوام.

هنا، في بازل، اكتشف كم يستمتع بالتدريس، فقد قال ذات مرة: «أفضِّل أن أكون أستاذًا في بازل على أن أكون إلهًا»[١٠]. تم التعاقد معه للتدريس في مدرسة بيداكوكيوم(*) الثانوية المحلية، إضافةً إلى تدريسه في الجامعة. درّسَ تأريخ الأدب اليوناني والديانة الإغريقية القديمة، والفلسفة الافلاطونية وفلاسفة ما قبل افلاطون، والخطابتين اليونانية والرومانية. جعل تلامذته يدرسون الباخوسيات ليوربيديس والكتابة عن العبادة الديونيسيوسية.

بدا أن تلامذته «قد أجمعوا بأن من يبجّلونه ليس أكثر من أيفور على قيد الحياة (أيفور؛ هو أحد القضاة الخمسة في إسبرطة القديمة الذين تقاسموا السلطة مع الملك)، نطٌ من الزمن ليحدثهم عن هوميروس وسوفكليس وأفلاطون وآلهتهم. لقد تحدّث كمن يتحدّث منطلقًا من معرفته بالأشياء التي لا تحتاج إلى برهنة تمامًا ومع ذلك لا تزال محطًا للتقدير التام، كان هذا هو الانطباع الذي أحدثه»[١١].

لكن لا شيء من هذا تحقّق من دون مشقة. يصف أحد تلامذته أيام نيتشه السيئة، حيث كان من المؤلم رؤيته يصارع لإلقاء محاضرته. على المنصة، كان دفتر ملاحظاته يلامس وجهه تقريبًا على الرغم من نظارته السميكة، كان يخرج الكلمات ببطء وبجهد جهيد، تتخللها وقفات طويلة. تصاعد التوتر الذي لا يحتمل حول ما إذا كان سيتمكن من إكمال هذه المهمة على أكمل وجه[١٢].

اهتاجت روحه بفعل طاقة نهر الراين. غالبًا ما وجده طلابه يقف عند النافذة المفتوحة عند دخولهم الصف مفتونًا بهدير النهر المستمر. صاحب صدى النهر الطاحن مسيراته عبر البلدة قبالة الأسوار العالية والشوارع التي بنيت في القرون الوسطى، فظهر شخصًا أنيقًا، بدا أقصر من الطولِ المتوسط

(*) مؤسسة تعليمية للصبيان. (المترجم)

بقليل (بنفس طول غوته كما ادعى دائمًا)، مربوع البنية، مرتديًا ثيابه بعناية وأناقة، بدا مُبجلًا بشارب كبير وعينين ذات نظرات عميقة جدًا ومتأملةً نوعًا ما. وجب أن تكون قبعته الرمادية جزءًا من إستراتيجيته ليبدو أكبر مما يبدو، كما كانت القبعة الوحيدة التي يمكن رؤيتها في بازل بصرف النظر عن تلك التي يعتمرها مستشار الدولة العجوز في بادن. في الأيام السيئة التي تنتكس بها صحته، كان نيتشه يستبدل قبعته بنظاراتٍ خضراء سميكة لحماية عينيه الحساستين من الضوء.

عندما استقر نيتشه في بازل لتولي منصبه التدريسي، كان فاغنر يعيش في لوسيرن في فيلا تريبشن المطلة على شاطئ البحيرة. كانت لوسيرن تقع على بعد رحلة قصيرة بالقطار من بازل، وكان نيتشه حريصًا على تلبية دعوته لمواصلة الحديث عن شوبنهاور ولسماع المزيد عن أوبرا فاغنر الشوبنهاورية «تريستان وإيزولده».

عُرضت فلسفة شوبنهاور بشكل أساسي في كتابه الضخم «العالم كإرادة وتمثُّل»، الذي طور فيه تفكيرًا سابقًا طرحه كانط وأفلاطون. نعيش في العالم المادي، فما نراه ونلمسه ونجربه هو التمثُّل، ولكن وراء هذا التمثُّل يكمن الجوهر الحقيقي للغاية، إنها الإرادة. نحن واعون بذواتنا، سواء بالنمط الإدراكي الذي نعرف بواسطته الأشياء الخارجية ومن الداخل، بشكل مختلف تمامًا، كإرادة. يسعى التمثّل في حالة من التوق اللانهائي والصيرورة الأبدية لتحقيق الوحدة مع إرادته، وهذه حالتها المثالية. قد يغدو التمثل والإرادة وحدة واحدة في بعض الأحيان، إلا أن هذا يسبب سخطًا وتوقًا أكبر وحسب. قد يحقق الإنسان العبقري (وهو كائن نادر) الكمال بتوحد الإرادة والتمثل، ولكن بالنسبة لبقية القطيع البشري فهذه حالة مستحيلة في الحياة، لا يمكن بلوغها إلا بالموت.

ما الحياة سوى توقٍ إلى حالة مستحيلة، وبالتالي فإن الحياة مُكابدة. كتب كانط من وجهة نظر مسيحية جعلت من الحالة اللامثالية الأبدية والتوق السرمدي في العالم التجريبي أمرًا محتملًا، لأن هناك نوعًا من النهاية السعيدة

يمكن ترقبه إذا حاولت جاهدًا بما يكفي. كان الفداء دائمًا ممكنًا من خلال المسيح.

كان شوبنهاور، من ناحية أخرى، متأثرًا بشدة بدراسته للفلسفات البوذية والهندوسية وتركيزها الانكاري على المُكابدة والقدر والمصير، وعلى حقيقة أن إشباع الرغبات لن يقود إلا لتوليد رغبات جديدة. يضمحل الإحساس بالتدفّق عند المستوى الميتافيزيقي للإرادة في التوق إلى العدم.

عُرف شوبنهاور على أنه فيلسوف متشائم، ولكن بالنسبة لشاب مثل نيتشه بدأ يفقد إيمانه بالديانة المسيحية شيئًا فشيئًا، كان شوبنهاور بديلًا لكانط يسهل تطبيق أفكاره، فكانط سيطر على المؤسسة الفلسفية الألمانية لأسباب عدة من ضمنها أن المسيحية كانت عنصرًا ضروريًا لنسيج المجتمع الألماني، وأن الدولة جندت المسيحية لخدمة المصالح السياسة المحافظة والقومية. ساهم هذا الوضع في إظهار فاغنر ونيتشه في موضع المتمردين، وهو موضعٌ لم يعارضاه على الإطلاق.

لقد قرأ نيتشه شوبنهاور بطريقة نقدية، بذات الطريقة التي درس بها كتاب ف. أ. لانغ «تأريخ المادية ونقد معناها في الحاضر» وسجل ملاحظاته:

١. إن عالم الحواس هو صنيعة تنظيمنا.

٢. إن اعضاءنا المرئية (المادية)، مثلها مثل جميع الأجزاء الأخرى من هذا العالم الظاهراتي، ليست سوى صور لشيء غير معروف.

٣. من ثم فإن تنظيمنا الحقيقي غير معروف بالنسبة لنا كما هو حال الأشياء الخارجية الواقعية بالضبط. على الدوام، لا نملك أمامنا أي شيء سوى ما هو صنيعة الاثنين معًا.

بالتالي، فإن الجوهر الحقيقي للاشياء - الشيء في ذاته - ليس مجهولًا لنا وحسب؛ إن مفهوم الجوهر ليس أكثر ولا أقل من النتاج النهائي للتناقض الذي يحدّده تنظيمنا، إنه التناقض الذي لا نعرف من خلاله ما إذا كان له أي معنى خارج حدود تجربتنا أم لا[١٣].

خلال هذا السقوط الحرّ في المجهول، لامس شوبنهاور أعمق حاجة عاطفية داخل نيتشه، واهبًا إياه السكينة. إن الافتراض القائل كل الحياة ليست إلا حالة من المعاناة، ينطبق على نيتشه أكثر مما ينطبق على الأغلبية، وخاصة مع معاناة جسده السقيم الذي يعاني من حالة مرضية مزمنة مستمرة ترافقها بعض الآلام الشديدة في بعض الأحيان. كان جسده يتوق طبيعيًا لبلوغ حالته المثالية. بالمثل، كان نيتشه في حالة توق إلى «كينونته الحقيقية» التي تجعل الوجود يبدو معقولًا ومن ثم مُبررًا. في هذه المرحلة بالتحديد، كان مشوشًا فيما يتعلّق بماهية «كينونته الحقيقية». همس شوبنهاور له بأننا لا نستطيع أن ندرك وحدانية كينونتنا الحقيقية لأن عقلنا يجزء العالم باستمرار، وكيف يمكن أن يكون الأمر خلاف ذلك عندما يكون عقلنا نفسه ليس إلا جزءًا صغيرًا، كسرة من تمثلنا؟

كان نيتشه يشعر بهذا الشيء بأكثر الطرق ذاتية، «إن الشيء الأكثر سأمًا هو أنني مضطرٌ دائمًا إلى إنتحال شخصيةٍ ما، تارة معلم وأخرى عالم لغة ومرة كائن بشري»(١٤)، هكذا كتب بعد توليه منصب بازل، إن هذا الشعور بالكاد يمكن اعتباره مفاجئًا بالنظر إلى شاب يرتدي الملابس مثل عجوز ليبدو شخصًا حصيفًا، طالبًا جامعيًا لم يتخرَّج بعد لينتحل شخصية الأستاذ، وابنًا ساخطًا ينتحل شخصية الولد الطيب أمام والدته المُزعجة، وابنًا مُحبًّا ومُطيعًا لذكرى والده القس المسيحي بالتزامن مع مروره بمرحلة فقدانه للإيمان المسيحي. كما لو أن هذه الانتحالات لم تكن كافية، تبرز مسألة عدم حصوله على جنسية، وهي الهوية الرسمية التي تنشط في إطارها كل هذه الانتحالات. كان متشظّيًا تمامًا، لقد عرف ذاته ضمن حالة الكد والمكابدة الشوبنهاورية، إنسان بعيد عن فهم إرادته الحقيقية ناهيك عن تحقيقها.

على الطرف الآخر، كان فاغنر، على الأقل من وجهة نظره، قد قطع شوطًا طويلًا من رحلته في دروب شوبنهاور الفكرية، كما أنه قد بلغ مقام الإنسان العبقري. كانت ثقته كبيرة في أن إرادته وتمثله أضحيا كيانًا واحدًا، حتى إنه وعشيقته كوزيما أطلقا على بعضهما أسماء شوبنهاور المحببة على نحو لعوب، فقد كان فاغنر Will (إرادة) وكانت كوزيما Vorstell (تمثّلًا).

بالنسبة لشوبنهاور، كانت الموسيقى الفن الوحيد القادر على كشف لثام الحقيقة فيما يخص جوهر الوجود في ذاته، ويمكن للفنون الأخرى كالرسم والنحت أن تكون تمثّلات للتمثلات وحسب. هذا ما وضعهما على مقربة من الواقع المطلق «الإرادة». على كل حال، ولكون الموسيقى لا شكلية، بمعنى أنها غير تمثيلية، كانت تتسلح بصفة الوصول المباشر إلى الإرادة، متجاوزة الفكر.

منذ اكتشافه لشوبنهاور في عام ١٨٥٤، درس فاغنر آلية لتلحين ما سماه شوبنهاور بـ«التعليق»، وهي قطعة من الموسيقى الشوبنهاورية وجب أن تكون مشابهة للحياة، التنقل من تنافر نغمي إلى تنافر آخر، ولا يحسمُ هذا التنقل حتى حلول لحظة الموت (في الموسيقى، تحل هذه اللحظة مع النوطة الختامية للقطعة).

تتوق الأذن، كالروح المرتعدة، بشكل لا نهائي، إلى النهاية الحاسمة. إن الإنسان هو نشازٌ موسيقي بهيئة بشرية؛ لذلك وجب أن يكون النشاز الموسيقي أكثر الوسائل الفنية فاعلية لتمثيل ألم الوجود الفردي.

كان الموسيقيون القدماء ملتزمين بالشكل الموسيقي ومطيعين لقواعد الأجداد، مثل الهيكل الشكلي واللحني سواء فيما يخص السيمفونية أو الكونشيرتو. يجعلك الاستماع لهم مدركًا لمساهمتهم على الصعيد الفردي في تطور واستمرارية تاريخ الموسيقى، فإذا ما كنت مضطلعًا في اللغة الموسيقية، يمكنك عندها أن تضعهم في مكانهم المناسب على الخط التأريخي للموسيقى.

لكن شوبنهاور تحدّى فكرة التأريخ ذاتها، واصفًا «الزمن» كشكل من أشكال تفكيرنا لا غير؛ وهذا ما حرر فاغنر من التمثل المتعارف. وصف نيتشه «موسيقى المستقبل» لفاغنر على أنها التتويج الظافر لكل الفنون لأنها لم تكن معنية، كالفنون الأخرى، بصور العالم الظاهراتي ولكنها بالأحرى نطقت بلغة الإرادة بطريقة مباشرة، من أعمق جذر لوجودها؛ لقد كانت الموسيقى أكثر مظاهر الإرادة مثالية. على الرغم من كل الموسيقى التي أحبّها نيتشه، كانت موسيقى فاغنر تلقي سحرها عليه، محوِّلة إياه إلى كائن أقوى لا يستطيع تهدئة أفكاره وأعصابه. لا شيء يضاهي هذا الشعور المتغلغل ودائم النشوة في داخله.

هل من المؤكد أن ما كان يختبره هو إحساس الوصول المباشر إلى الإرادة؟ كان في حالة توق لإنعاش معرفته بالسيد.

بعد مضي ثلاثة أسابيع في بازل، أَحَسَّ نيتشه بأنه يسيطر على عمله الجامعي بما فيه الكفاية لشراء تذكرة سفر لزيارة فاغنر؛ بغض النظر عن أن عمر فاغنر كان أكثر من ضعف عمر نيتشه، وعن أنه شخصية مشهورة عالميًا، وقد تستغرق الدعوة لزيارته ستة أشهر حتى يحين موعدها. في السبت المصادف الخامس عشر من أيار، استقل نيتشه القطار المؤدي إلى لوسيرن، ترجل من القطار وسلك الدرب المحاذي لحافة بحيرة لوسيرن، الذي يقود إلى منزل فاغنر.

بُنيت فيلا تريبشن عام ١٦٢٧، قصرٌ قديم يشبه برج مراقبة بجدران سميكة وعالية. برزت النوافذ المتناسقة من تحت سقف أحمر هرمي منحدر متربعة في الأعلى وباسطةً نفوذها على محور الصخور الثلاثي الذي ينغرز في البحيرة كالعظام. كما قلعة اللص، تهيمن قلعة فاغنر على كل شيء حولها. لم يستطع نيتشه أن يتخفّى عن الأنظار بل تحتّم عليه الوقوف تحت النافذة ليتم التأكد من هويته كحال جميع زوار فاغنر. من مكانه خارجًا، تسلل إلى سمعه صوت وترٍ موجعٍ للروح يردد ألحانه مرةً بعد مرة، إنه لحن سيغفريد، فرفع كفه ورن الجرس.

ظهر الخادم، فقدّم نيتشه بطاقة زيارته وانتظر، وكان شعور بالحرج يعتريه بشكل متزايد. كان يهم بالمغادرة عندما عاد الخادم خلفه مسرعًا؛ هل حضرتكم السيد نيتشه الذي قابله السيد في لايبزيغ؟ في الحقيقة، نعم. اختفى الخادم بعدها ثم ظهر من جديد. كان السيد داخلًا في طور التأليف ولا يجب على أحدٍ ازعاجه، فهل باستطاعة الأستاذ الرجوع عند وقت الغداء؟ لسوء الحظ، لم يكن نيتشه متفرغًا عند وقت الغداء. إختفى الخادم ثم ظهر من جديد. هل يمكن للسيد نيتشه العودة في اليوم التالي؟

لم يكن لدى نيتشه أي دروسٍ يوم عيد العنصرة(*)، وهذه المرة، وأثناء سيره على الدرب المرعب، خرج السيد لتحيته بنفسه.

(*) عيد مسيحي يُحتفل به بعد عيد القيامة بخمسين يومًا. (المترجم)

عشق فاغنر الشهرة والثياب، لقد استوعب جيدًا قيمة الصورة بوصفها عربة لتوصيل الأفكار. اليوم، بلقائهِ عالم الفيلولوجيا الذي كان واجبه فهم الآثار القديمة والحفاظ على خلودها، اكتسى بطقم رسام من عصر النهضة؛ سترة من المخمل الأسود وبنطالًا يصل إلى الركبتين مع جوارب حريرية، ومنتعلًا حذاء ذا إبزيم، مُزينًا صدره بلفاع ربطة عنق ومُعتمرًا قلنسوة رامبرانت. كان ترحيبه بنيتشه حارًا وصادقًا عند اقتياده خلال سلسلة متوالية من الغرف المبهرة والمؤثثة بذوق رفيع، حيث شارك الراعي الملكي «الملك لودفيغ» الملحن الموسيقي في اختيار الأثاث. تكلّم الكثير من زوار الفيلا عن الإفراط في استخدام اللون الزهري والمبالغة بوضع تماثيل إله الحب «كيوبد» في كل مكان، ولكن تصميمًا داخليًا مثل هذا كان شيئًا جديدًا تمامًا ومُذهبًا لعقل نيتشه، هو الذي قضى حياته في الغرف البروتستانتية التي تحتقر الذات. كانت جدران تريبشن إما موشحة بالإستبرق الأحمر والذهبي، أو بالجلد القرطبي، أو مطلية بُمسحة مميزة باللون البنفسجي المخملي الذي اختير بعناية ليكون خلفية للتماثيل النصفية المصنوعة من الرخام الأبيض التي تجسد فاغنر والملك لودفيغ. كانت هناك سجادة منسوجة من ريش طائر الفلامنغو ومؤطرة بريش الطاووس. يقف دورق من الكريستال الياقوتي البوهيمي(*) عاليًا على عمود، مُعرضًا للكسر بسهولة، كان قد أهداه الملك إلى فاغنر. كانت تذكارات التألق معلّقة مثل غنائم الصيد على الجدران، من أكاليل الغار المجففة وبرامج الحفلات الموسيقية الموقّعة بخط اليد، ولوحات سيغفريد ذي العضلات المشدودة والشعر الذهبي متغلبًا على التنين، ولوحات فالكري مرتدية حمالة صدرها الحديدية، مُقتحمة السماء وكأنها سحابة رعدية، ولوحات برونهيلد(**) (Brünnhilde) مُتفتحة مبتهجة عند استيقاظها على صخرتها. وُضعت التحف الفنية والأشياء الثمينة خلف واجهاتٍ زجاجية كفراشات محنطة. أما النوافذ

(*) بوهيمي: نسبةً إلى مدينة بوهيميا، وهي منطقة تاريخية في أوروبا الوسطى، تحتل الأجزاء الغربية ومعظم الأجزاء الغربية من جمهورية التشيك. (المترجم)
(**) شخصية (أنثوية) ميثولوجية جرمانية. (المترجم)

فمتكومة بأكوام من الشاش زهري اللون والستان المتلألئ، وعطور الورود، من مسك الروم والنرجس والليلك والسوسن، تنتشر بكثافة في الهواء. لم تكن هناك أي رائحة مخدرة، ولم تكن الأسعار الباهظة عائقًا أمام شرائهم الورود العطرة من بلاد فارس، والغاردينيا من أمريكا، وجذر الأوريس من فلورنسا.

إن عملية خلق أوبرا Gesamtkunstwerk، وهو عمل فني متكامل يجمع بين الدراما والموسيقى والمسرح، يشتمل على كل إحساس مادي لفاغنر، لأنه كما يرى: «... إذا كنت مضطرًا إلى سبر أغوار أمواج مخيلة الفنان مرة أخرى للعثور على الشعور بالرضا في عالم خيالي، سيستوجب علي، على الأقل، مؤازرة مخيلتي والعثور على وسائل لتحفيز قدراتي الخيالية. لا أستطيع حينذاك أن أعيش مثل كلب، ولا أستطيع النوم على القش وتجرع الجن الرخيص؛ إن مخيلتي نزقة جدًا، حادة وشرهة للغاية، ولكنها مع ذلك رقيقة ومرهفة شبقة، ولذلك، وبطريقة أو بأخرى، علي أن أحابي مخيلتي إذا ما أردت إتمام المهمة الصعبة والقاسية المتمثلة في خلق عالم لا وجود له في رأسي»(١٥).

كانت الغرفة التي سمع من نافذتها نيتشه وترًا من أوبرا سيغفريد هي الغرفة الخضراء، حيث يؤلف فيها فاغنر موسيقاه، صغيرة على نحو مفاجئ، مساحة يغلب عليها الطابع الرجولي والبراعة ضمن حدود الجو الاوبرالي المتثاقل في تريبشن. كان هناك جداران محجوبان بمكتبة هائلة تذكّرنا بأن فاغنر كان رجل كلمات تمامًا كما كان رجل موسيقى، حيث ألفَ عدة كتب وكتيبات وكتبًا أوبرالية بالاضافة إلى أعماله الموسيقية. صمم البيانو خصيصًا ليكون ذا أدراج للأقلام وطاولة مستوية حيث يمكن أن يرمي عليها فاغنر أوراق آخر تأليفاته الموسيقية بينما يجف حبرها. رغب الزوار بالحصول على هذه الأوراق بطريقة جنونية، عرف فاغنر قيمة توقيع هذه الأوراق ومنحها لبعض الأشخاص المفضّلين من ذوي النفوذ. علقت فوق البيانو صورة كبيرة للملك، ولسبب ما كان من غير اللائق الإشارة إلى الملك لودفيغ باسمه في تريبشن، بل تسميته «الصديق الملكي» بدلًا من ذلك.

زار الملك تريبشن وحيدًا ومتخفيًا، وبعد قضاء ليلته، رتبت غرفته

لتكون جاهزة دائمًا لعودته. لقد كانت تريبشن بالنسبة للودفيغ وكأنها لحم رامبوليه المفضّل لديه وألبان ماري انطوانيت. حظي نيتشه بنفس المكانة في تريبشن، فقد كان الشخص الوحيد، بصرف النظر عن الملك، الذي وُهب غرفته الخاصة في المنزل. خلال السنوات الثلاث المقبلة، سيزور نيتشه تريبشن ثلاثًا وعشرين مرة، وستعيش هذه الفيلا في تفكيره إلى الأبد على أنها جزيرة المباركين. الملك لودفيغ، الذي كان يدفع الفواتير، منح فاغنر تفويضًا كاملًا ليصفي مخيلته ويحررها من أي اعتبارات عملية ليكون اعتباره الوحيد هو إنهاء حلقة نيبلونغ(*) التي تولّع الملك بها. لقد استقر فاغنر على هذا الموضع التصويري المذهل مُنتفعًا من مبدأ كانط فيما يتعلق بالسمو؛ «وهو نوع من التوتر الشديد الذي يختبره العقل في إدراكه للضخامة واللامحدودية، متجاوزًا كل معيارٍ للإدراك وهذا ما يثير نوعًا من الرعب المبهج، نوعًا من الطمأنينة المشوبة بالذعر، والذي يتم بلوغه من خلال المقياس السامي للإحالات، وهي حالة من العظمة لا تُماثل سوى نفسها... إن تأثير هذا التوتر يكمن في رد العقل إلى نفسه، وبالتالي سرعان ما نتصور أنه لا ينبغي البحث عن السمو في أشياء الطبيعة وإنما في أفكارنا الخاصّة»(١٦).

على ضوء هذا المبدأ، ربما تثير المناظر السامية التي تعكسها نوافذ تريبشن إلهامًا ساميًا في نفس كل من فاغنر ونيتشه أينما نظرا. بالنظر من زجاج النوافذ الغربية من تريبشن، حيث تغرب الشمس، ترتفع الثلوج الأبدية لجبل بيلاتوس. في الأصل، كان اسم الجبل قبل ظهور المسيحية «نيبلهايم»، حيث تعيش التنانين والغيلان الأسطورية، أعيد تسمية الجبل لاحقًا في العصر المسيحي، ليصبح على اسم بونتيوس بيلات الذي نُفي من منطقة الجليل بعد صلب المسيح وهرب إلى لوسيرن. هناك، غارقًا بالندم، تسلّق بيلات قمة جبل بيلاتوس التي يبلغ ارتفاعها سبعة آلاف قدم، ليرمي بنفسه إلى بحيرةٍ تبدو وكأنها بقعة حبرية صغيرة أسفل الجبل. ها هنا يعيش شبحه، في الصمت والسكون التام. سوف

(*) رباعية أوبرالية من تأليف ريتشارد فاغنر.

يخبرك المرشدون السياحيون أن الماء نفسه قد مات، عازين سبب موته إلى ركود سطح البحيرة الدائم، فحتى أعتى الرياح لن تستطيع تعكير مزاجه الساكن. تطوق أشجار الصنوبر السوداء البقعة المشؤومة، وعلى مدى قرون، لم يجرؤ أيّ حطّاب على مجازفة ارتياد هذه المنطقة خوفًا من إثارة الروح التي نُسب إليها الكثير من المصائب، وهكذا نمت أشجار الصنوبر طويلة وبقمم عالية مطوقة البحيرة الصغيرة وحاميةً الماء من أي رياح تعكّر صفو سطح البحيرة. في القرن الرابع عشر، خاض كاهن شجاع في مياه بحيرة بيلات المظلمة لممارسة طقوس طرد الأرواح، لكن رغم ذلك بقي السكان المحلّيون حذرين، فقد ظلت العواصف الرعدية الوافرة التي ضربت وقعقعت على الجبل والعواصف المفاجئة العاتية على بحيرة لوسيرن تُعزى إلى روح بيلات. بعد ثمانينيات القرن التاسع عشر فقط، تجرأ الرومانسيون الطليعيون على التجول في الجبل المسكون، وكانوا شبيبة ذوي سحنة باهتة بأفكارهم التي تتلبسها الاستعارة الشعرية يقدرون السمو الكانطي و«إحساس القلب الشعري» قبل كل شيء، حيث أصبحت بِركة بيلات النقطة النهائية للانتحار للعديد من الشبان الفيرتريين(*) ممن تجرعوا لوعة الحب من طرف واحد.

بحلول هذا الوقت، دعا فاغنر نيتشه للانضمام اليه في نزهة على الأقدام طوال اليوم في ربوع جبل بيلاتوس. هناك، شيَّد الفلاحون المغامرون دار ضيافة وكانوا يؤجِّرون المهور لارتقاء المُرتفع. ازدرى كُلٌّ من فاغنر ونيتشه هذه الخدمات، مُتغلبيَن على المنحدرات الصخرية سيرًا على الأقدام، قاطعَيْن جُل الطريق غناءً وتفلسفًا.

لو أن نيتشه نظر من النوافذ التي تواجه بحيرة تريبشن، فإن عينيه سوف تمشطان المنطقة نزولًا حتى «حظيرة روبر»، وهي أرض صخرية معشوشبة يرعى ويتغذى منها فرس فاغنر «فرتز» ودجاجاته وطواويسه وأغنامه التي انبثت فوق الأرض المنحدرة هبوطًا حتى حافة البحيرة. كان كلٌّ من فاغنر

(*) نسبة إلى رواية «آلام فارتر»، والتي ألّفها غوته.

ونيتشه مولعين بالسباحة في بركة الاغتسال التي تقطع الانعكاسات الشاحبة للجبال الثلجية بعيدة المدى على الشاطئ القاصي من البحيرة. يبلغ ارتفاع جبل ريغي ستة آلاف قدم، أقل بقليل من ارتفاع جبل بيلاتوس، ويضاهيه شهرةً بفعل جوزيف ويليام تورنر الذي رسمه مضفيًا عليه التأثير الضوئي الغريب المعروف باسم «شبح ريغي». في ظروف معينة، يمكنك رؤية الشبح بوضوح، متجسِّدًا بهيئة إنسانية هائلة، يمكن تخيله وكأنه صورة شبحية لعملاق يظهر في سماء ضبابية تمتد من فوقك مطوقًا بهالة قوس قزح. في الحقيقة، إنه ليس الشبح بل شكلك الخاص مجسدًا فوق الضباب، ستتأكد من هذا الأمر عندما تمد ذراعك جانبًا بدهشة، حيث ترى حركاتك معكوسة في الضباب كما سطح مرآة مكبرة. اعتاد فاغنر على الرقص والقفز على صورته المعكوسة على المرآة السماوية حتى انقشاع الضباب وعندها يُسدل الستار على عرض الدمية الراقصة ذاك(١٧).

على حافة البحيرة، على يمين السلم الذي يرتقيه للسباحة في البحيرة، كان هناك شاليه صغير مُغطى بألواح خشبية، يأوي القارب. عندما يرغب فاغنر في الابحار بقاربه، فمن المرجح أنه سيطلب من خادمه المخلص جيكوب أن يجدف به عبر أسراب البجع اللونغريني الأبيض التي تعوم في البحيرة، طائفين وصولًا إلى منطقة الصدى حيث استهزأ وليام تيل(*) من غريمه الشرير لاندفوغت غيسلر من خلال إطلاق الإهانات التي بقي صداها يطوّق الجبال بسخرية أبدية. أحب فاغنر رفع عقيرته مرددًا كلمات فاحشة بلهجته الساكسونية الفظة فيخوز ضحكًا عندما يرتد صدى كلماته البذيئة عليهما بنبرة عالية.

إذا بقي المزاج عاليًا بعد أن يجدّف به جيكوب عائدًا، فقد يتسلّق شجرة صنوبر ليزأر غضبًا ببعض الكلمات الفاحشة مرة أخرى. ذات مرة، كسا

(*) بطل شعبي في سويسرا. وفقًا للأسطورة، كان تيل خبيرًا في استخدام القوس والنشاب، اغتال الحاكم غيسلر، وهو أحد الأباطرة الاستبداديين من دوقيي النمسا. (المترجم)

بالصلصال واجهة المنزل المصقولة وصرخ من الشرفة، ولكنها كانت مناسبة استثنائية لأنه لم يستشط غضبًا على عدو بل على نفسه لأنه فعل أمرًا مُخجلًا[١٨].

كان وضع فاغنر المنزلي مُبَلبلًا عند زيارة نيتشه. كان عيد ميلاده يلوح في الأفق مع حلول نهاية الأسبوع المقبلة، ورغب الملك لودفيغ في قضاء ذلك اليوم الهام بصحبته، ولكن فاغنر كان مشطورًا بين قضاء اليوم مع الملك أو بصحبة عشيقته كوزيما. على الرغم من إنها قضت من الوقت ما يكفي لتلد منه طفلتين، وهي الآن حبلى منه للمرة الثالثة، وكانت قد تركت زوجها منذ فترة قصيرة جدًا لتعيش مع فاغنر في تريبشن، إلا أن فاغنر أخفاها عن الملك لأسباب متعددة. كان الملك كاثوليكيًا رومانيًا متحمسًا، وقد استهجن العلاقات الداعرة. كان كائنًا شاحبًا هائمًا بحب فاغنر أكثر من أي شخص آخر على الأرض. من الواضح، أن علاقتهما لم تكن علاقة جسدية على الاطلاق، ما عدا مشهد ركوعهما لسكب الدموع الحارّة ثناءً على بعضهما بعضًا، ولكنها كانت علاقة رومانسية للغاية، على الأقل من جانب لودفيغ.

كان لودفيغ غيورًا ومهووسًا بفاغنر، فلم يرَ أي سبب يمنعه من أن يكون الصديق الأول والوحيد للمؤلف الموسيقي العبقري. لقد رفع الملك من منزلة فاغنر إلى درجة قد تكون ضربًا من ضروب العبادة الشهوانية، في الحين الذي كان يدعمه ماليًا إلى درجة جنونية. دفع وضع الملك وزراءه ورعاياه إلى حالة من القلق والريبة من أن موسيقى فاغنر المستقبلية، بالتزامن مع تفريغه لخزائن الدولة، كانت خدعة صدّقها ملكهم اللطيف والوسيم والساذج ليلبس **«ثياب الامبراطور الجديدة»**(*) (The Emperor's New Clothes).

كان فاغنر وعشيقته في مركز شبكة عاطفية معقدة في ذلك الحين من

(*) ثياب الإمبراطور الجديدة: قصة قصيرة كتبها المؤلف الدنماركي هانز كريستيان أندرسن، عن نساجَين يعدان الامبراطور بملابس جديدة لا يراها الأغبياء. في الواقع لم يخيطا شيئًا، وعندما لبس الامبراطور ملابسه «التي لا يراها الأغبياء»، لم يجرؤ احدٌ على القول إنه عارٍ حتى لا يُعتبر المتكلم غبيًا، وفي النهاية يصرخ طفلٌ قائلًا بأن الإمبراطور لا يرتدي شيئًا على الإطلاق. (المترجم)

العلاقات العاطفية والرغبات المكظومة المثلية والمتباينة جنسيًا ومن التوترات الاجتماعية، شبكة قد تبتلع نيتشه. كانت كوزيما الابنة الثانية من بين ثلاث بنات غير شرعيات ولدن للمؤلف الموسيقي فرانز ليزت والكونتيسة ماري ديغولت. كانت الرعاية الأبوية ضبابية في حياة فاغنر، وعندما احتاج إلى تلك الرعاية وجد أمامه ليزت الذي ملأ هذا المكان الشاغر في قلب فاغنر موسيقيًا وعمليًا. في عام ١٨٤٩، وفَّر ليزت المال لفاغنر للهرب من دريسدن، وساعده في الحصول على جواز مزور؛ ومنذ ذلك الحين وليزت يتدخّل ماليًا لنصرة موسيقى فاغنر الثورية الجديدة على مدار أمد طويل، فكان عرابه الموسيقي والمالي.

بينما كان فاغنر أفضل قائد أوركسترا، كان ليزت أفضل عازف بيانو على الاطلاق، كما أنه اختلق عمليًا وظيفة عازف الحفل الموسيقي العالمي. لقد كان معبود الجماهير من باريس حتى القسطنطينية وما بينهما من مدن، كان يجلس على البيانو بهيئة كائن نصفه إله ونصفه الآخر إنسان. صاغ هاينرش هاين مصطلح ليزتومينيا، على اسم ليزت، لدوره في خلق الهستيريا الجماعية. كانت النساء يتمايلن ويغبن عن الوعي في حضوره، وكنّ يسرقن أعقاب سجائره من المنافض ويحفظنها كلقًى أثرية مقدّسة وينشلنّ الزهور التي تزيّن منصّات حفلاته. على الرغم من استقامة فاغنر الجنسية المفعمة بالحيوية، وهذا ما يثبته غضب زوجتيه المستشيط من وجود عشيقة شابة جديدة مع كل أوبرا جديدة، إلا أنه كان ينفجر باكيًا على حين غرة وهو يركع لتقبيل يد ليزت. فيما يتعلّق بالعاطفة والمشاعر العاطفية، تكيف فاغنر مع تقليد عصره في تبجيل الرجل القدير الذي يظهر مشاعره دون وجل.

لم تكن كوزيما الابنة المفضَّلة في قلب ليزت، فقد كانت خرقاء بشخصية قوية، بوجهها الطويل الجميل والقبيح بنفس الوقت، وكأنها صورة مجسدة من والدها. ورثت من والدها شخصيته الجذابة وطوله وأنفه الروماني المميز ونظرته الذابلة التي تليق برجلٍ، ورغم ذلك أضفت عليها صفة إلهة يصعب الوصول إليها، وهذا ما جعلها شديدة الاغواء لبعض المثقفين لا سيما قصار القامة، بمن فيهم فاغنر ونيتشه.

في غداء اثنين العنصرة بصحبة نيتشه، كانت كوزيما لا تزال متزوجة من هانز فون بولو. سابقًا، كان هانز أحد تلاميذ ليزت الواعدين، والآن، هو قائد الأوركسترا الرئيسي عند فاغنر، وكان أيضًا، ضمن هذه العلاقات الحميمية الموسيقية الإيروتيكية، قائد أوركسترا الملك لودفيغ.

ألزمت كوزيما نفسها بالزواج من فون بولو عندما كانت لا تزال في سن المراهقة متأثرةً بحفل موسيقي في برلين كان قد تولّى قيادته. تضمّن برنامج الحفل العرض الأول في برلين لأوبرا فاغنر حيث عزف موسيقى فينوسبرغ من تانهاوزر. طلب فون بولو يدها للزواج في ذات الليلة. كان كلاهما واقعًا في حب فاغنر ومنتشيًا تمامًا بموسيقاه المجيدة؛ قد يتساءل المرء، من الذي كان يتودد لها ومن الذي وافقت عليه. هناك الكثير من القصص التي تثير تساؤلاتٍ عن حياة فون بولو الجنسية، ويبدو أنه أكّد هذه القصص برسالته الغريبة التي كتبها لليزت والد كوزيما بمناسبة خطوبته بابنته، حيث كتب:

«يعتريني اتجاهها شعور أكبر من الحب. إن فكرة الاقتراب منك تختصر حلمي الوحيد الذي يتغلّب على كل ما قد أمتلك من أشياء على وجه هذه الأرض. أنت الذي أعتبره المعمار الاساسي ومُشكل حاضري وحياتي المستقبلية. إن كوزيما عندي متفوقة على كل النساء، ليس لأنها تحمل اسمك وحسب بل لأنها تشبهك إلى حد كبير...»[١٩].

بعد مرور عام على زواجهما، كانت كوزيما في حالة قنوط. لقد ارتكبت خطأً فادحًا، فطلبت من أحد أصدقاء زوجها المقرّبين، كارل ريتر، أن يقتلها. عندما رفض ريتر فعل ذلك، هددت بإغراق نفسها في البحيرة، ولم تكن لتنثني لولا أنه أخبرها أنها لو انتحرت فإنه سيفعل ذات الشيء. استمر زواجها، على الرغم من محاولاتها المتكررة لإصابة نفسها بأمراض مميتة[٢٠]. كان كل من كوزيما وفون بولو معجبين كثيرًا بموسيقى فاغنر، وذات مساء، لاحظ فاغنر أن كوزيما «كانت في حالة من الإثارة الغريبة ظهرت على شكل مشاعر حميمية ثائرةٍ متشنجة تجاهي»[٢١].

في ذلك الوقت، كان لا يزال فاغنر متزوجًا بزوجته الأولى، مينا، ولكن مع موت مينا حلّ الفرج على فاغنر. خلال هذه الفترة الفاصلة، بين حبها لفاغنر وموت زوجته، أنجبت لفون بولو بنتين، ولكن هذا لم يشكّل عائقًا أمام إنجابها لبنتين أخريين من فاغنر، وبينما كانت تحافظ على زواجها الصوري أصبحت حبلى للمرة الثالثة من فاغنر.

عندما قَدِمَ نيتشه لتناول الغداء في تريبشن، كانت كوزيما حبلى في شهرها الثامن، مترقبين ولادة طفلهما الثالث. في الحقيقة، كان نيتشه الذي لا ينتمي لهذا العالم جاهلًا كليًا بهذه التفاصيل ومُستمتعًا بالروح الرياضية الاجتماعية للاسرة الكبيرة التي تتألف من بنات كوزيما الأربع والمربية وخادمة الحضانة ومدبرة المنزل والطباخ واثنين أو ثلاثة من الخدم، بالاضافة إلى الشاب هانز ريختر الذي أصبح فيما بعد سكرتير فاغنر وناسخ موسيقاه والمسؤول عن تنظيم حفلاته الموسيقية. كان هناك أيضًا روس، كلب فاغنر الأسود الضخم من نيوفاوندلاند، والذي يرقد مدفونًا الآن بجانب قبر سيده فاغنر في بايرويت، وكلب صيد كوزيما الترير الثعلبي، الذي سمته «كوز» حتى لا يتمكن أحد من اختصار اسمها إلى «كوز»، والحصان «فريتز» والأغنام والدجاج والقطط، مع زوج من الدراج الذهبي والطواويس، اسم الطاووس الأول «ووتان» على اسم والد الآلهة في الأساطير الألمانية وحبكةُ أوبرا فاغنر «حلقة نيبلونغ»، واسم الطاووس الثاني «فرِكا» على اسم زوجة ووتان النزّاعة للتملك وكثيرة الصراخ، والتي كان لها قدر معيّن من القواسم المشتركة مع كوزيما.

(٣) اغدُ ما أنت عليه:

١. إليزابيث فورستر نيتشه، حياة نيتشه، المجلد الأول، صفحة ١٤٤.
٢. المصدر السابق نفسه، صفحة ١٤٣- ١٤٤.
٣. غيلمان (محرر)، محادثات مع نيتشه، صفحة ٢٠.
٤. موسوعة تشامبرز، ١٨٩٥، المجلد الرابع، صفحة ٤٣٣.
٥. نيتشه إلى إليزابيث نيتشه، ناومبورغ، ١١ حزيران ١٨٦٥.
٦. نيتشه إلى كارل فون غيرسدورف، ناومبورغ، ٧ نيسان ١٨٦٦.
٧. هاينريش ستريندبرغ، طالب زميل في جامعة لايبزيغ، انظر غيلمان، محادثات مع نيتشه، صفحة ٢٩.
٨. أناشيد بايثيان، ٢:٧٣.
٩. نيتشه إلى إروين رود، ناومبورغ، ٣ تشرين الثاني ١٨٦٨.
١٠. نيتشه إلى بوركهارت، ٦ كانون الثاني ١٨٨٩.
١١. كارل بيرنولي اقتبسه هولينغديل في كتابه نيتشه، الإنسان وفلسفته، صفحة ٤٨.
١٢. غيلمان (محرر)، محادثات مع نيتشه، صفحة ٦٢.
١٣. نيتشه إلى كارل فون غيرسدورف، آب ١٨٦٦.
١٤. نيتشه إلى إروين رود، شباط ١٨٧٠.
١٥. ريتشارد فاغنر إلى فرانز ليزت، ١٥ يناير ١٨٥٤، اقتبسه باري ميلينغتون في كتابه، ريتشارد فاغنر، ساحر بايرويت، تايمز وهودسون، ٢٠١٣، صفحة ١٤٤.
١٦. عمانوئيل كانط، نقد ملكة الحكم، ١٧٩٠، ترجمة: جيمس كريد ميريديث، مطبعة جامعة أكسفورد، ١٩٢٨، صفحة ٢٨.
١٧. من المرجح أن شبح جبل ريغي قد ساهم بإلهام فاغنر بعض العناصر الخارقة للطبيعة ليدخلها في حلقته الأوبرالية، مثل: جسر قوس قزح الذي يؤدي إلى الفالهالا موطن الإله، وثنائي العمالقة اللذين يلوحان في الأفق ضخمي البنية ومهددان ويمكن رؤيتهما عبر ضباب نافذة الفالهالا، والمقطع المسرحي الذي أخرج تحديدًا لأوبرا الراين الذهبي، حيث نقرأ: أنقشعت السحابة على حين غرة، كاشفة عن دورنر (إله العواصف) وعن فرو (إله أشعة الشمس). من قدميهما، يمتد جسر قوس قزح ذو توهج يصيب بالعمى من جهة الوادي إلى القلعة في الجهة الأخرى، القلعة التي تتألق الآن بوهج شمس المساء.

١٨. جوديث غوتييه، «فاغنر في المنزل»، ترجمة: إيفي دونريث ماسي، جون لين، ١٩١١، صفحة ٩٧.

١٩. آلان ووكر، هانز فون بولو، حياة وتايمز، مطبعة جامعة أوكسفورد، ٢٠١٠، صفحة ٩٨.

٢٠. ريتشارد فاغنر إلى إليزا ويل، ٩ أيلول ١٨٦٤.

٢١. ريتشارد فاغنر إلى ماتيلدا ويسندونغ، ٤ أيلول ١٨٥٨، استشهد به آلان ووكر في كتابه، هانز فون بولو، صفحة ١١٠.

٤

ناكسوس(*)

إن السيدة كوزيما فاغنر أنبل مخلوقة في الوجود، وفيما يتعلّق بي، لطالما فسّرت ارتباطه بفاغنر على أنه زنا.

من مسودة «هذا هو الإنسان»

على نحو مثير للخيبة، لا يوجد أي تدوين للحديث الذي دار على الغداء بين نيتشه وفاغنر. لقد حصلنا على القليل من هذه المحادثة من مذكرات كوزيما الفاترة، حيث كتبت: «كان معنا على الغداء عالم لغة، البروفيسور نيتشه، الذي قابل فاغنر لأول مرة في منزل بروكهاوس، والذي يعرف كل أعمال فاغنر، حتى إنه يقتبس من أعماله الأوبرالية والدرامية في محاضراته. إنه زائر وديع ودمث»[1]، يبدو أن حماسة فاغنر للزائر الجديد كانت أكبر. عند توديعه لنيتشه، أهداه صورة موقّعة بخط يده وألح على عودته مرة أخرى. بعد ثلاثة أيام، أمر فاغنر كوزيما بالكتابة لنيتشه لدعوته للاحتفال بعيد ميلاد السيد في نهاية الأسبوع القادم، والمصادف في الثاني والعشرين من أيار.

(*) جزيرة في كيكلاديس في اليونان. في حكاية مينوتور، ترك ثيسيوس زوجته أريادني على هذه الجزيرة وتزوج أختها فايدرا، بينما أتى ديونيسيوس وتزوج أريادني.

رفض نيتشه الدعوة، مُجيبًا أنه مشغول للغاية في إعداد محاضرته الافتتاحية عن هوميروس، والتي كان من المقرر إلقائها في الثامن والعشرين. رد فاغنر يحثّه على المجيء في أي عطلة نهاية أسبوع، «تعال، لا تحتاج إلا إلى إرسال برقية قبل قدومك».

كان المؤلف الموسيقي ملتصقًا بنيتشه كما تلتصق الإوزّة على هيكل سفينة الهولندي الطائر(*). في حين أن اندفاع نيتشه نحو فاغنر لم يكن مفاجئًا للغاية، إلا أن تولع فاغنر بنيتشه هو الأمر المفاجئ. إن لعبقرية فاغنر قوة تدميرية، فهو إما يقرّب الأشخاص المثيرين للاهتمام ويسمح لهم بولوج دائرته السحرية، أو ينبذهم إلى الظلمة خارج حياته؛ لم تكن هناك منطقة وسطى. بَيّن أحد مساعدي فاغنر قناعته التامة في أن يكون على هامش تأريخ فاغنر الخاص، كخادم أو حتى كقطعة أثاث ليست ذات قيمة في حياته الفكرية. رأى فاغنر في البروفيسور نيتشه أهمية أكبر من أن يكون قطعة أثاث زائدة على اللزوم، رجلٌ صاعدٌ ذو تأثير فكري، وعاشقٌ مولعٌ بموسيقاه، وعالم كلاسيكيات ولغة مميز.

لطالما خوطب فاغنر بتملّق بلقب البروفيسور فاغنر، إلا أنه لم يكن كذلك. كان تعليمه مليئًا بالثغرات، ولم يقرأ اللاتينية أو اليونانية، لكن عمله الفني المستقبلي العظيم رباعية «حلقة نيبلونغ» اعتُبر إحياءً للمسرحية الرباعية الاغريقية التي كانت تُعرض في المهرجانات اليونانية في عصر إيسخيلوس ويوريبيدس. قد ينتفعُ كثيرًا من صلاحية نيتشه الفكرية ذلك الذي يريد إعادة إحياء وصياغة الدراما الكلاسيكية - مثل فاغنر - والذي لم يستطع قراءة هذه الأعمال الكلاسيكية بلغتها الأم، بل قرأها مُترجمة.

بالإضافة إلى ذلك، كان فاغنر على وشك الانتهاء من رباعية «حلقة نيبلونغ»، ويدرك أن الأمر يتطلّب نُصرة شبان صاعدين مثل الملك لودفيغ ونيتشه. كانت «حلقة نيبلونغ» تتطلّع لنصرة العقول الخبيرة. يجب على

(*) شبح سفينة اسطورية لا يمكنها ان ترسو في ميناء، ومحكومٌ عليها الإبحار في المحيطات الى الأبد، وقد ألّف فاغنر أوبرا أطلق عليها اسم الهولندي الطائر.

الشبيبة المتقدة جمع المال لهذا العمل المسرحي الثوري الذي يحتاج إلى مبالغ هائلة، كحاجته لحافز عظيم، ليرى النور على خشبة المسرح. يتضمن العمل الرباعي أربع عشرة ساعة من الموسيقى تعرض على مدار أربعة أيام، ويتطلب عرضها بناء نوع جديد من الفضاء المسرحي، دار أوبرا تصمم على شكل المدرج اليوناني، لكن يجب أن تكون مسقوفة بسبب المناخ البارد. كانت ألمانيا مليئة بالمسارح الباروكية والروكوكية، ولكن نظامها الصوتي لم يكن فعالًا وفضاءها المسرحي صغير جدًا على فرقة أوركسترا يبلغ قوامها مائة عازف، وهذا ما تتطلبه بعض أجزاء العمل الفني «حلقة نيبلونغ».

لبى نيتشه الدعوة المفتوحة التي أرسلها فاغنر لزيارة تريبشن مرة أخرى بعد أول فرصة مناسبة أتيحت له بعد محاضرته عن هوميروس. وصل يوم السبت في الخامس من آب، وعلى ما يبدو من دون أي فكرة عن المرحلة المتقدمة لحمل كوزيما. دونت في مذكراتها أنهم أمضوا أمسية «جيدة نوعًا ما»، ودعتهم في حوالى الحادية عشرة قائلة «ليلة سعيدة»، وصعدت إلى الطابق العلوي لتبدأ آلام المخاض.

في الثالثة صباحًا، وصلت القابلة، وفي تمام الساعة الرابعة كانت كوزيما «تصرخ بهياجٍ من شدة الألم»، مانحة فاغنر ولده الأول، الذي بلغت صيحاته المفعمة بالحيوية إلى الصالون البرتقالي حيث انتظر فاغنر متوترًا. قَدِم الصبي في نفس وقت بزوغ الفجر الناري الملتهب، الذي توهج فوق جبل ريغي بثراء لوني «لم يُرَ مثله سابقًا». غرق فاغنر في دموعه فرحًا، في الوقت الذي سُمعت فيه أصوات أجراس قداس الأحد في الصباح الباكر عبر البحيرة في لوسيرن. فسرت كوزيما هذه العلامات على أنها فأل خير، وفاتحة طيبة للصبي الذي سيكون ابن فاغنر ووريثه، و«ممثل الأب المستقبلي وسط أبنائه»، ويتألف جميع أبنائه من أربع فتيات فقط وهنّ، دانيلا وبلاندين، وهما ابنتا كوزيما الشرعيتان، وإيزولده وإيفا، اللتان تصوَّرِ العالم أنهما ابنتا فون بولو، زوج كوزيما الشرعي، ولكنهما في الحقيقة ابنتا فاغنر في الوقت الذي كانت لا تزال تعيش فيه مع زوجها فون بولو.

أمضى فاغنر الصباح بجانب كوزيما ممسكًا يدها، وبانَ في وقت الغداء ليخبر نيتشه، الضيف الوحيد في المنزل، بالأخبار المجيدة لولادة سيغفريد. بقي نيتشه، وعلى نحو ملحوظ، غافلًا عن حوادث الليلة. على الرغم من أن تريبشن منزل كبير إلا أنه ليس مترامي الأطراف، فغرف المنزل تتراكم بعضها فوق بعض عموديًا. كان الضجيج يتنقل صعودًا ونزولًا على السلم الذي استخدمته القابلة ذهابًا وايابًا، بالإضافة إلى أن مخاض كوزيما لم يكن - وفق حساب القابلة - أكثر صخبًا من عملية قدوم سيغفريد. لكن لا شيء أثار فضول نيتشه كونه غريبًا وغير عادي.

مهما كان الأمر، فقد رأى فاغنر في نيتشه وجودًا مباركًا أرسلته الآلهة، ولأن لا وجود لشيء اسمه الصدفة، فقد كان القدر هو من اصطفى الأستاذ الشاب متقد الذهن ليصير الروح الراعية لسيغفريد. تخيَّل فاغنر أنه عندما يحين وقت طلعة الصبي على العالم، سيكون نيتشه مرشده، بينما يراقب فاغنر وكوزيما من بعيد؛ كما أن ووتان، والد الآلهة، سيراقب عملية تثقيف سيغفريد، المحارب الشاب البطل من «حلقة نيبلونغ»، الذي سيخلص العالم.

كان نيتشه لبِقًا في مغادرته مباشرة بعد الغداء، ولكن إرادة آل تريبشن كانت لا تقهر، ففي اليوم التالي كتبت كوزيما رسالة تشكره فيها على كتاب كان قد أهداه لهم، مرفقة اياها بمقالين لفاغنر ودعوة تطلب منه فيها أن يرجع المقالتين في زيارته المقبلة. بعد ثمانية أيام كتبت إلى فون بولو طالبة الطلاق. أخيرًا، منحها موافقته على الطلاق بعد الكثير من المراسلات مع والدها، القس الشهواني ليزت(*)، الورع رغم كونه غير منتم للأورثوذوكسية الكاثوليكية، الذي شجب محاكاة ابنته لحريته الجنسية. علاوة على ذلك، ربما كان ليزت حسّاسًا بعض الشيء بسبب فارق العمر، فقد كانت كوزيما في الحادية والثلاثين من عمرها بينما كان فاغنر قد بلغ السادسة والخمسين، وهذا

(*) القس الشهواني ليزت: في عام ١٨٦٥ حلق الكاردينال هونلوا رأس ليزت كما يفعل الرهبان، وبعد ترسيمه بدأ يُلقب باسم القس ليزت. (المترجم).

يعني أنه أصغر من ليزت بسنتين فقط. أما بالنسبة لفون بولو، فقد ظهر في أساطير تريبشن المسلَّم بصحتها، والتي كانت كوزيما فيها تمثل أريادني وفون بول يمثل لثيسيوس(*) - فبعد كل شيء كان مجرد قائد أوركسترا وعازف بيانو- لكن فاغنر كان الموسيقي العبقري و«الرجل البارع الذي يجب تبجيله كإله»، والذي كانت موسيقاه «فعل الخلاص من دناءة هذا العالم»[٢]، لقد كان فاغنر يمثل ديونيسيوس، فقد جرى كل شيء وفق الترتيب الطبيعي للأشياء، حيث يتوجب على الكائن البشري الفاني أن يتنازل عن امرأته للإله فاغنر حتى يرضى.

سينضم نيتشه لاحقًا إلى هذا الترتيب الكوني، وسيزيح فاغنر جانبًا ليحتكر مكانة الإله له شخصيًا، ولكن لم يحن موعد هذا بعد، ولن يتحقق إلا بعد مضي سنواتٍ طويلةٍ. أمضى الأسابيع اللاحقة لولادة سيغفريد في إتمام مهماته التدريسية في بازل، قبل العودة إلى متاهة تريبشن التي تحتضن جلالة السيدة كوزيما وكل الأشياء الأخرى التي تحفِّزه أو تثير حماسته أو تجذبه.

وصف إنجلز مدينة بازل، على نحو جنائزي، بأنها مدينة غير جذابة ومليئة بالمعاطف الفضفاضة والقبعات ثلاثية الحواف والعوام والنبلاء والميثوديين[٣]. من المؤكّد أن بازل لم تتحلَ بأي صفاتٍ تمكنها من منافسة حداثة تريبشن الباذخة. كانت محاضرة نيتشه الافتتاحية ناجحة بدرجة مقبولة، فقد قدم بعض المحاضرات المشوقة، ولكن محاضرات من النوع الذي يناقش إيسخيلوس والشعراء الغنائيين الإغريق بالكاد ما تكون مثيرة. على الرغم من ذلك، كانت هناك بعض المحاضرات المثيرة في بازل، كالتي قدمها زميل نيتشه التدريسي ياكوب بوركهارت عن دراسة التأريخ.

كان بوركهارت بالإضافة إلى فاغنر صاحب تأثير قوي على تفكير نيتشه على مدار السنوات القليلة القادمة، حيث نظم نيتشه أفكاره في هذه الحقبة من أجل كتابه الأول مولد التراجيديا، من روح الموسيقى. كان

(*) ثيسيوس: أحد ملوك أثينا الأسطوريين. (المترجم)

بوركهارت وفاغنر في سن والده لو أنه ما زال على قيد الحياة؛ وهذا هو الشبه الوحيد بينهما وبين والده.

لم تزيّن أي من القبعات المخملية رأس بوركهارت ذا الشعر القصير، الرأس الذي لم يُضمر أي أفكار قومية في جوفه. يقال إنه لا يطيق ذكر اسم فاغنر في حضوره. كان رجلًا ذا عظامٍ بارزة، فظًا متقد الذكاء يُفضل الخصوصية ويرتدي ملابس غير متناسقةٍ ويمقت بشدة أي مظهر من مظاهر الأبهة والغرور والشهرة. عاش في غرفتين فوق دكان الخباز، وأكثر ما أعجبه في مكان سكنه هو أن يُخطئ الناس فيظنونه الخباز.

كان بوركهارت ثوريًا بثياب برجوازية، أسس أفكاره على معرفة عميقة نقلها ببساطة عملية، وهذا ما أكسبه احترام بازل المعروفة بحبها للاعتدال الرصين. كان أسلوبه الموجز بشكل دقيق يتعارض بشدّة مع فاغنر، فنان السمو العاصف الأنيق، الذي كان يُنظر له بعين الريبة عند تجوله من مكان إلى آخر في أوروبا، يعيش عالة على الملوك ويدير الثورات الثقافية العالمية من أعلى صخرة تريبشن المنعزلة الراسخة.

كان تنزه بوركهارت في مدينة بازل القديمة بأصابعه الملطخة بالحبر وبدلته السوداء وقبعته الطرية السوداء، من الأمور المطمئنة المحببة وغير الملحوظة التي تدلّ على أن كل شيء على ما يرام في المدينة ويسير وفق الروتين. فإذا كان يتأبط حقيبته الزرقاء الكبيرة، وهذا أمر مثير للاهتمام، فهذا يعني أنه في طريقة لكي يعطي درسًا. كانت محاضراته ذات شعبية هائلة، كما أنه كان يتحدث من دون دفتر ملاحظاته ومن دون تحضير مسبق، مستخدمًا اللغة العامية اليومية. يلقي كلماته كما لو أنه كان يفكر بصوت عالٍ، ولكن يقال إنه كان يتمرّن بشكل دقيق على توقفاته أثناء المحاضرة وعلى التعليقات الجانبية العفوية في غرفته فوق دكان الخباز.

نمّا كُلٌّ من بوركهارت ونيتشه عادة لطيفة في المشي إلى حانة تبعد حوالى ثلاثة أميال لتناول وجبة طعام وبعض النبيذ معًا، يتحدثان أثناء مسيرهما

عن العالم القديم والجديد، وعن «فيلسوفنا»، كما أطلقا على شوبنهاور، الذي انسجمت نزعته التشاؤمية مع نظرة بوركهارت في أن الثقافة الأوروبية كانت تنزلق نحو شكل بربري جديد يتجسد بالرأسمالية أو النزعة العلمية أو مركزية الدولة. في عصر توحّد ألمانيا وإيطاليا، أدان بوركهارت الدولة الحديثة الموحّدة لأنها «تُعبدُ مثل إله وتُحكم مثل سلطان». لقد شعر بأن كيانًا مثل هذا لن يساهم سوى في صعود من أسماهم «المغفلون الرهيبون»، وهم دهماء مسلحون بكل الأسلحة الرهيبة المحتملة التي توفرها الصناعة والعلوم والتكنولوجيا.

لم يؤمن بوركهارت بشيء، ولكنه رأى أن موقفه هذا لا يمثل عائقًا أمام السلوك الأخلاقي. كان يمقت الثورة الفرنسية والولايات المتحدة والديمقراطية الجماهيرية والتوحّد والنزعة الصناعية والرأسمالية وحتى السكك الحديدية. وُلد بوركهارت في نفس الذي العام ولد فيه كارل ماركس، كان مناهضًا للرأسمالية وثائرًا غاضبًا ضد ما أسماه «القوة الكاملة وابتزاز المال»[٤]، لكنه كان معاديًا للشعبوية أيضًا، ومتشائمًا محافظًا آمن على نحو صادق بوجوب إنقاذ الجماهير من خطر الجماهير، لا سيما من نزوعهم إلى تقديس الضحالة وبخس قيمة الذوق، مما يقود إلى انحدار كل شيء إلى درك الابتذال وفوضى الثقافة الشعبية، وهذا ما اتفق عليه مع نيتشه.

كان كل من بوركهارت ونيتشه مسكونين بشبح الحرب القادمة بين فرنسا وألمانيا. لقد كان نابليون مغفل فرنسا الرهيب، والآن انتعل بسمارك جزمة نابليون العسكرية ليصير مغفل ألمانيا الرهيب. جيّر نابليون قواته العسكرية لإخضاع أوروبا بوصفه سلاحًا للامبريالية الثقافية، وكان من الجلي لبوركهارت أن بسمارك كان يعد العدة لتكرار ذات الشيء على نحو سيئ تمامًا. يعتقد بوركهارت بأن جميع الطغاة عانوا من الدافع الهيروستري[*] على نحوٍ خطير، في إشارة إلى هيروستراتوس من مدينة أفسس الذي أشعل

(*) الدافع الهيروستري: دافع يحث المرء للتدمير لاكتساب الشهرة. (المترجم)

النيران في معبد أرتميس، مُدمّرًا هذا الرمز الأيقوني الثقافي، لا لشيء بل لرغبته في أن يحفر اسمه في التأريخ إلى نهاية الزمان.

كان فاغنر مؤمنًا بالكيانات الإيدولوجية، ومُعجبًا على نحو كبير ببسمارك والقومية الألمانية، بينما رأى بوركهارت، الذي كرّس نفسه من أجل النزعة الأوروبية، أن الصعود غير المتكافئ لأي بلد بعينه يعد خطرًا على المجموع الثقافي. نظر فاغنر إلى اليهود والثقافة اليهودية باعتبارهما عنصرين غريبين لا يمكن أن ينتميا لأي أمّة أوروبية، عنصر لا يساهم سوى في تخفيف كثافة العناصر الأصيلة الثمينة، بينما رأى بوركهارت أن الثقافة اليهودية تعد بمثابة خميرة عالمية للرغيف الأوروبي.

اعتقد نيتشه أن لا شيء يميز الإنسان عن النمط العام لعصره كما تميّزه المنفعة التي يجنيها من التأريخ والفلسفة(٥). كانت وجهة نظر بوركهارت المثيرة للاهتمام هي أن التأريخ منظم وبالتالي فهو غير فلسفي، في حين أن الفلسفة خاضعة للفلاسفة وبالتالي فهي غير تأريخية. لذلك، رأى بوركهارت أن مفهوم فلسفة التأريخ كان تناقضًا غبيًا، وكان هذا الرأي أحد أهم الاختلافات بينه وبين معاصريه، وكان الاختلاف الآخر ناتج بسبب كراهيته لفكرة إبادة الفرد ضمن حدود الدولة. بينما كان المؤرخون الكبار الآخرون، مثل ليوبولد فون رانك، مهتمين على نحو متزايد بالقوى الموضوعية للسياسة والاقتصاد، كان بوركهارت يؤمن على نحو راسخ بقوة الثقافة وبتأثير الفرد على التأريخ. كما أنه شكّك بصرعة رؤية التأريخ وكأنه عملية جمع للحقائق من الوثائق وتوصيل القيمة الموضوعية. لقد شكك بمفهوم الموضوعية نفسها «قد ترى كل عينٍ الخطوط العريضة لحضارة معينة بصورة مختلفة... من ناحية أخرى، ومن غير ريب، فإن نفس الدراسات التي قُدمت لهذا العمل قد لا تلاقي معالجة واستعمالًا مختلفًا كليًا وحسب وإنما قد تؤدي إلى استنتاجات مختلفة في الأساس»(٦).

اعتبر كُل من بوركهارت ونيتشه أن المرحلة الهيلينية هي الحدث الأكثر أهمية في العالم. لم يكن هدف العصر الحديث حل معضلة الثقافة الإغريقية

بعد النسق الذي تبناه الإسكندر، ثم ترك أطرافها المنسولة ترفرف في كل الاتجاهات، لكن الهدف كان، بالأحرى، هو تعشيق ونسج البقايا الهيلينية البالية مع ثقافة العصور الحديثة. لكن في حين حقّق مفكرون سابقون مثل غوته وشيلر ووينكلمان مثل هذا النسيج الكلاسيكي المُحدث من خلال تقديم اليونان بوصفها العالم الآخر المثالي الهادئ والرائق والمتناسق على نحو تام والذي يمكن محاكاة طابعه الجوهري إذا ما فهمت الآثار الكلاسيكية، كتب بوركهارت سلسلة من الكتب التي هذّب فيها النزعة التفاؤلية والسطحية والمثالية للعالم الكلاسيكي وللنسخة الأولى المحاكية لهذا العالم، عصر النهضة.

إن نزعة روما المنحطّة المتعطِّشة للدم كانت معروفة سلفًا ولكن بوركهارت، في سلسلة كتبه ومحاضراته حول العالم القديم وعصر النهضة، أثبت أن البربرية المتطرفة لم تكن مجرد شهقة موتٍ ثقافية تطلقها الحضارة في طريقها للانزلاق إلى الدرك الأسفل من الانحطاط، بل كانت جزءًا ضروريًا للنسيج الإبداعي. غالبًا ما يطلق على بوركهارت الأب المؤسس لتأريخ الفن، مع برنارد بيرنسون وكينيث كلارك اللذين يُذكران بصفتهما ولديه البارزَين، ولكن على عكس أتباعه الذين صوروا النهضة الإيطالية وكأنها أركاديا الفكر المثالي(*) ضمنَ بوركهارت في كتابه حضارة عصر النهضة في إيطاليا، حكايات مرعبة للغاية عن محاكم مدينة إيطالية صغيرة، وحكايات عن التعذيب والوحشية تظهر كاليغولا، أو حتى بنات الملك لير، بريئين بالمقارنة مع هذه البربرية. لكن تأريخ بوركهارت لم يشجب الدوافع الديونيسيوسية القاسية والوحشية التي تنشط أسفل البطن والتي تهيج الضرورة المطلقة لخلق نقيضها: الوضوح والجمال والتناسق والنظام والتناسب.

كان بوركهارت رجلًا انطوائيًا على نحو عُصابي بالإضافة إلى كونه رجلًا

(*) أركاديا هي محاكاة ليوتيوبيا (المدينة الفاضلة)، لكن أركاديا تختلف عنها بأنها فكرة مثالية لا يمكن الوصول لها. (المترجم)

متواضعًا على نحو عُصابي، ولهذا خابت آمال نيتشه لفشل نزهاتهما سيرًا على الاقدام ومحادثاتهما الطويلة في أن يتطورا إلى صداقة حميمة ووثيقة كالتي تجمعه بفاغنر. لكن بينما كان فاغنر لا يتقبّل أي علاقة لا تنطوي على أعلى درجات المشاعر العاطفية - سواء كانت إيجابية أو سلبية - كان بوركهارت رافضًا للحميمية على نحو جوهري، لقد كان رجلًا معقّدًا، وكانت مواقفه اللامبالية بالتأثيرات المثيرة للعاطفة والمتحررة منها ضرورية لإدراك أعلى الحقائق الأخلاقية.

قضى نيتشه صيفًا مُسكرًا بين مناقشاته العميقة مع بوركهارت وبين وابل الدعوات التي تطالبه بالمجيء إلى تريبشن، حيث شكّل مع فاغنر وكوزيما مثلثًا متوازنًا رائعًا من الذكاء والجدّية العالية والاعجاب المتبادل.

في «منزل فاغنر، مرّت الأيام عذبةً. عندما تلمس قدمي حديقة المنزل يرحب بوفودي نباح كلب أسود ضخم الجثة، يصاحبه ضحك الأطفال من على السلم، بينما يبرز الموسيقي الشاعر من النافذة هازًا قبعته المخملية في إشارة ترحيب... كلا، لا أستطيع استحضار ذكراه من دون أن أراه جالسًا على البيانو أو الطاولة. آتيًا وغاديًا عبر الغرفة الكبيرة، مُحرِّكًا هذا الكرسي أو ذاك باحثًا في جيوبه عن علبة السعوط أو نظارته (والتي قد تكون معلقة في بعض الأحيان على السواعد المتدلية من الثريا، ولكن لم يحدث أن رأيتها على أنفه مطلقًا)، مُمسكًا بالقبعة المخملية التي تتدلّى على عينه اليسرى وكأنها عِرف ديكٍ أسود، داعكًا إياها بين قبضتيه المحكمتين، ومن ثم يودعها داخل صدريته فقط ليخرجها مرة أخرى ويضعها على رأسه - وطوال كل هذا الوقت يحكي ويحكي ويحكي.. قد يحلق باهتياج عالٍ مطلقًا الاستعارات السامية والتوريات اللفظية وكلمات بربرية - وتيار مستمر من الملاحظات التي تتدفّق في انفجارات وانطلاقات، فخورٌ رقيقٌ وصارمٌ فكاهي بالتناوب. ترتسم الآن ابتسامة عريضة على وجهه، ثم تجتاحه عاطفةٌ قوية تدفعه إلى ذرف الدموع، لينشغل بعدها بنوبة جنونية نبوية، فكل أصناف المواضيع تعثر طريقًا للاندماج في تحليقاته الارتجالية الاستثنائية.. لقد غُمرنا وبهرنا

بكل هذا، ضحكنا وبكينا معه، تشاطرنا نشواته ورأينا رؤاه؛ شعرنا وكأننا سحابة من الغبار أثارتها عاصفة، وتنورنا كذلك بخطابه الاستبدادي، مفزع وممتع في آن واحد»(٧).

لقد كان وسامًا ساميًا هذا الذي حصل نيتشه عليه عندما أخبره فاغنر: «ليس لدي الآن أحدٌ يمكنني التعامل معه بجديةٍ غيرك، باستثناء كوزيما الفريدة»(٨)، وقد كانت إشادة عالية حقًا تلك التي نالها من كوزيما الباردة عندما قالت إنها تعتبره واحدًا من أهم أصدقائها.

كان هذا وقتًا عصيبًا على كوزيما، فزوجها لم يمنحها الطلاق مباشرة، لقد كانت تعيش علنًا في الرذيلة مع طفل لإثبات علاقتها بفاغنر، كانت تمر بحالة مرضية مجهدة. كانت عينا فاغنر تحدِّقان في جوديث غوتييه الجميلة فعلًا، والتي كانت تصغرها بسبع سنوات، فكان بقاء الطفل سيغفريد على قيد الحياة ضروريًا كليًّا لتأمين مكانة كوزيما، كانت أبسط وعكة صحية تصيب الطفل تسبِّب لها نوبات فزعٍ وتغرقها بالتأملات المرضية عن الموت.

خلال هذا الصيف الأول، زار نيتشه تريبشن ست مرات. منحوه غرفته الخاصّة، مكتبًا للدراسة في الطابق العلوي، وعمدوها باسم Denkstube، أي «غرفة التفكير»، وبدأت تنتاب فاغنر نوبات غضبٍ إن لم يأتِ نيتشه لاستخدامها بما يكفي.

ما الذي قد يكون أكثر إلهامًا من الجلوس في مكتبه بينما يستمع لفاغنر مُشتغلًا على الفصل الثالث من سيغفريد؟ يا له من امتياز لا يضاهى في الاستماع للعملية التأليفية الغريبة المتقطعة التي تنساب عبر السلم محمولةً على الهواء العطِر، مع وقع أقدام السيد الهادئة تارة والمهتاجة تارة أخرى وهو يجري في الغرفة، وصوته الخشن يغني مقطعًا قصيرًا يتبعه صمتٌ قصير بينما يتوجه مسرعًا إلى البيانو لتجربة النوطات، ثم الصمت مرة أخرى بعد الانتهاء من كتابة النوطات. لاحقًا في المساء، ستحل لحظة هادئة عندما تجلس كوزيما بقرب مهد الطفل لتسجل حوادث اليوم في مذكَّراتها. خلال النهار، إن لم

يكن لديها عمل تقوم به، تذهب هي ونيتشه في نزهة إلى الغابة مع الأطفال ليستمتعوا بتراقص أشعة الشمس على مياه البحيرة، وكان الاسم الخاص الذي أطلقوه على هذا المشهد هو «رقص النجوم».

غذت تريبشن نيتشه بمباهج منزلية أخرى لم يختبرها سابقًا. في المنزل، كانت والدته وأخته تنتظران قدومه لتخدمانه مثل مخلوق نصفه إنسان ونصفه إله، ولكن فاغنر وكوزيما لم يفكرا بأي عيبٍ في تكليفه بإتمام أمور التسوق العادية بالنيابة عنهما، وقد كان فخورًا بمهماته الصغيرة.

ذات مرة، بعد عودته مباشرة من زيارة الأحد المعتادة إلى تريبشن، سأل أحد تلاميذه بطريقة لا مبالية عن مكان متجر يبيع الحرير الجيد في بازل، في النهاية كان على نيتشه الاعتراف لتلميذه بأنه قد تعهّد بشراء زوج من الملابس الداخلية الحريرية. لأسباب يعرفها أتم المعرفة، كان فاغنر يرتدي ملابس داخلية حريرية مخيطة على يد خياط. ملأ هذا التفويض الهام قلب نيتشه بالقلق، فعند توجهه إلى المتجر المرعب، وازن كتفيه على نحو رجولي، متلفتًا على يمينه ويساره قبل الدخول، مرددًا «بمجرد أن تختار إلهًا، سيكون من الواجب عليك تزيينه»[٩].

تسلّق نيتشه جبل بيلاتوس بمفرده، مصطحبًا معه مقال فاغنر «عن الدولة والدين» لقراءته. يقترح فاغنر في هذا المقال استبدال التعليم الديني بالتعليم الثقافي، وهو مقترح هرطوقي أثار حتى غضب شبح بيلات النادم، لدرجة أن الجبل اهتز جراء عاصفة برقٍ شرسة غير معتادة. كانت ثعابين البرق البيضاء تنطلق عبر السماء بينما هز صوت الرعد الأرض. هز خادمو فاغنر، المؤمنون بالخرافات، رؤوسهم وتساءلوا عما يفعله أستاذ اللغة أو يفكر به هناك في الأعلى ليدفع السماء إلى مثل هذا الغضب الشديد.

عندما صعد نيتشه وفاغنر جبلي ريغي وبيلاتوس سويًا، ناقشا غالبًا تطوّر الموسيقى في الدراما اليونانية. قريبًا، سيكتب نيتشه عن هذا في كتابه الأول مولد التراجيديا، ولكن قبل ذلك سيلقي محاضرتين عن هذا الموضوع

خلال الأشهر الأولى من عام ١٨٧٠. لقد أبلغ فاغنر، مُتعضًا، أن أغلب جمهوره كان من الأمهات متوسطات العمر اللاتي بدا وكأن رغبتهن في توسيع مداركهن قد اضطربت نظرًا لتعقيد موضوع المحاضرة. لم يكن هذا مفاجئًا، نظرًا لأن نيتشه تعمّق في الأفكار التي استغرق فاغنر في تطويرها عشرين عامًا أو نحو ذلك، وهي الفترة الزمنية التي استغرقها في تأليف دائرته الأوبرالية الرباعية «حلقة نيبلونغ».

بدأ فاغنر بتأليف حلقته عندما كان شابًا متّقدًا ثوريًا في منتصف الثلاثينيات من عمره، ولم يكملها إلا عندما بلغ الحادية والستين، وبمرور هذا الوقت أصبح شخصية موقّرة وصديقًا للملوك. لكن المُثل التي تقف خلف «حلقة نيبلونغ» لم تحد أبدًا عن الروح الثورية التي صاحبت ولادتها. في ١٨٤٨، والمعروف بعام الثورات، كان فاغنر ناضجًا ليشهد الحريق الكبير يكتسح القارة متمثلًا بخروج شعوب أوروبا مطالبة بالإصلاح الانتخابي والعدالة الاجتماعية وإسقاط الأنظمة الاستبدادية، ولعب فاغنر دورًا نشطًا في تحصين المتاريس في انتفاضة درسدن، التي قُمعت برمشة عين. صدرت مذكرة اعتقال بحق فاغنر مما اضطره للهرب، متنكّرًا بملابس امرأة كما يُشاع، إلى سويسرا حيث بدأ العمل على حلقته. في ذلك الوقت، لم يتجاوز فاغنر شوبنهاور بعد، كما أنه أيد فلسفة لودفيغ فيورباخ التي ألهمت الشباب الألماني، والتي دعت لتوحيد ألمانيا وإبطال الرقابة والحكم الدستوري وتحرير النساء، وإلى حد ما، تحررهنَّ جنسيًا. في كتابه جوهر المسيحية، يقترح فيورباخ أن الإنسان مقياس كل الأشياء، وأن فكرة الإله محض اختراع إنساني، كذبة خُلدت على يد الطبقات الحاكمة لإخضاع الجماهير عبر التأريخ.

اليوم، من الصعب أن يظن المرء أن فاغنر كان سياسيًا تقدميًا وأن حلقته صممت لتحرير الفنون من قبضة الكنيسة والمحكمة المتشددة وإعادة الأوبرا إلى الناس، ولكن هذا بالضبط ما كان عليه الأمر. يشرح فاغنر الكثير في مقالاته الثلاثة التي كتبها في بداية نفيه السياسي، والتي شهِد خلالها خمس سنوات من الصمت الموسيقي (النسبي) أثناء صياغة أفكاره حول الأعمال

الفنية في المستقبل. كتب أول مقالتين «الفن والثورة» و«العمل الفني في المستقبل» عام ١٨٤٩ بعد فترة وجيزة من نفيه بسبب أنشطته الفنية.

عندما بدأ فاغنر مسيرته الفنية لم يكن معروفًا أبدًا، فقد كتب ذات مرة «كنت أعزف على البيانو مثل جرذ يعزف على الفلوت»، وبالمقابل كان ليزت عازفًا بارعًا للغاية. آنذاك، إن لم يكن الموسيقي معروفًا مثل ليزت فلا سبيل له للنجاح سوى أن يصبح قائد أوركسترا أو فرقة موسيقية في أحد البلاطات التي شكّلت فيما بعد اتحاد ألمانيا. هكذا، أصبح فاغنر قائد الفرقة الموسيقية في بلاط فريدريك أوغست الثاني من ساكسونيا، وهو حاكم متحضّر تمامًا بالمقارنة مع أقرانه من الحكام. لكن طوق الوظيفة البلاطية كان يعني حتمًا الإمساك بتلابيب القائد الموسيقي الشاب. كانت ذائقة امراء البلاطات الألمانية نادرًا ما تتطلّع إلى الجديد وغالبًا ما كانوا يتصرّفون بحسب نزواتهم الخاصة، مثل تقليص عرض موسيقي فقط لأن أميرًا يعاني من ألم في الأسنان.

ما اختبره فاغنر في البلاط أغاظه. أولى الجمهور اهتمامًا بعروضه الموسيقية بنفس القدر الذي أولاه للقعقعة الصاخبة لأصوات السكاكين والشوكات بينما يواصلون الحديث عن مشاريعهم التجارية الواقعية في المساء، يتغازلون ويتبادلون أحاديث النميمة على عشائهم الفاخر، ويتنقلون من قاطع إلى آخر.

يجب الاعتراف بعظمة الموسيقى واستعادة مكانتها، وعلى المسرح أن يكون بؤرة الحياة الاجتماعية كما كان يومًا ما في أثينا وروما. لقد كتب أفلاطون العظيم عن كيفية «عثور الإيقاع والتناغم على سبيلهما الذي يؤدي إلى الأماكن العميقة من الروح، حيث يرتبطان بها بقوة». سيرفع فاغنر الموسيقى إلى شيءٍ أكثر من مجرد غرض يرافق أحاديث القيل والقال والإمساك المتقن بملاعق الطعام.

ستلامس موسيقى فاغنر الجديدة المستقبلية الروح في حين أنها لا تشير بالضرورة إلى وجود كائن أعلى، وتثير الشك حول ماهية الوجود الذي

استحوذ على روح فاغنر. ستعاد موضعة أوبرا المستقبل لتكون ضمن إطار الصورة الثقافية الكبرى؛ لتحتل مكانة مهمة في الحياة العامة. قديمًا، لم يكن مسرح أثينا القديمة مفتوحًا إلا في أيام الاحتفالات الخاصة، عندما كان التلذذ بالفن يعتبر في ذات الوقت احتفالًا دينيًا. كانت العروض المسرحية تُقدَّم أمام حشود غفيرة من سكان المدينة والبلاد الذين كانوا ممتلئين بالتوقّعات العالية عن بهاء الأعمال التي ستؤدي، هكذا سيكون بمقدور ايسخيلوس وسوفكليس إنتاج أعمالٍ أكثر عمقًا من كل القصائد مع يقينهم بالفوز بتقدير الجمهور.

أخذت «حلقة نيبلونغ» شكل الدراما الموسيقية الهيلينية (المتخيّلة)، وهي دورة رباعية تراجيدية تحاكي أوريستيا(*) ولكنها مبنية على الخرافات والاساطير الألمانية على وجه التحديد، وعلى هذا النحو، صممت واقعًا لتمثيل وتجسيد الروح الألمانية الشعبية لمرحلة ما بعد نابليون. عبر شكل عرضه الأوبرالي الجديد، تخيل فاغنر نفسه وهو يطهر الثقافة الألمانية من العناصر الدخيلة الغريبة، وبالتحديد، من أي شي يمت بالصلة إلى الفرنسيين أو اليهود.

كان كل شيء يمت بصلة للفرنسيين غير مرغوب فيه لأن الفرنسيين كانوا تافهين من الأساس لتفضيلهم الأناقة على السمو. بالإضافة إلى ذلك، كانوا بمثابة منبه يذكّرهم في كل حين بالإذلال التي تعرّض له مواطنو ألمانيا على يد نابليون. كما تذكُر الأشياء المرتبطة بفرنسا فاغنر بالإذلال الذي لحق به على المستوى الشخصي عام ١٨٦١، عندما قوبل عرضه الأوبرالي تانهاوزر بطريقة عدائية وعلى نحو مستهتر، ليصبح ناقمًا على كل شيء فرنسي لبقية حياته.

كان لا بد من تنظيف الثقافة الألمانية من كل شيء يمت بصلة لليهود

(*) هي ثلاثية شعرية تراجيدية من تأليف إسخيلوس، وتتكلم عن نهاية لعنة حصان أتريوس، واسمها مشتق من أوريستيس الذي يحاول أن ينتقم لمقتل أبيه. (المترجم)

أيضًا. كانت معاداة السامية موقفًا لا ينفصل عن مشروع فاغنر القومي؛ إن قراءة مقاله «اليهودية والموسيقى» أمر فظيع في هذا الوقت. من خلال اشتغاله على أفكاره المتعلّقة بأصالة الموسيقى الألمانية، كان مُقتنعًا بأن الرأسمالية قد أفسدت وحطّت من قدر الفن والحضارة في القرن التاسع عشر. لقد اختزل مفهوم الرأسمالية بالمصرفيين اليهود والتجار في كل أنحاء أوروبا. حسب ما يلائمه، تغاضى فاغنر عن حقيقة أن اليهود كانوا مجبرين في العمل ضمن القطاع المالي لأنهم كانوا محظورين من التعامل بالقطاعات التجارية والمهن الأخرى بموجب القانون. كان وراء تأجج معاداة فاغنر للسامية، كما معاداته للفرنسية، أسباب شخصية. كان يشعر بالغيرة من المؤلفين اليهود من أمثال مايربير وميندلسون، اللذين لاقيا نجاحًا كبيرًا لم يعرفه.

تتألف «حلقة نيبلونغ» من أربع أوبرات، يتواصل سردها ويستدير على شكل حلقة، مُظهرة العواقب الحتمية المترتبة على الفعل. ترتكز الحبكة على أسطورة نيبلونغ الألمانية، التي تتصرّف الآلهة النوردية فيها بطريقة أشبه بتصرفات إله اغريقي ومختلفة تمامًا عن تصرّفات الإله اليهودي-المسيحي، فقد كانت آلهة متقلبة وظالمة وشهوانية ومخادعة، وبشرية تمامًا، حظيت أساطيرها التي سرد فاغنر قصصها بجاذبية التمثيلية الاجتماعية.

لقد كانت ملحمة نيبلونغ التي تعود إلى حوالى عام ١٢٠٠، تمثل رمزًا للقوة في النضال من أجل الهوية القومية الألمانية في ذلك الحين، وينظر لها بصفتها نصًا يجسّد الـVolksgeist، روح الشعب الألماني. حلقة فاغنر، العمل الفني الذي نُقش على الحجر منذ ١٥٠ عامًا، وطوال هذا الوقت أصبح الحج إلى بايرويت ببدلات السهرة طقسًا مقدسًا ورأسماليًا راسخًا وسياسيًا في بعض الأحيان. لكن يجدر بنا أن نمنح فاغنر الثقة في تصور جبروته على نحو مختلف، فلم يكن الغرض من هذا الجبروت هو أن يصبح عملاقًا بل أن يكون نقطة انطلاق ملهمة للعمل الفني للمستقبل. سيعرض العمل في مهرجان لعامة الناس Volk، بالضبط مثل المهرجانات الأولى في اليونان القديمة. لقد تصور أن حلقة نيبلونغ نفسها عملٌ فني عابر ومؤقت،

وكما عبر عن ذلك «بعد العرض الثالث من الحلقة، سيهدم المسرح وسيحرق دفتر نوطاتي. أما للاشخاص الذين استمتعوا بالعمل، سأقول: اذهبوا الآن وافعلوها بأنفسكم»[١٠]. إنها عبارة تدل على شعور جليل تجاه شيء استنزف عقودًا من حياته وتفكيره ووجوده.

في ارتقاء نيتشه للجبال المحيطة بتريبشن برفقة السيد، خطرت على بالهما فكرة أن يكون المهرجان إحياءً لأنشتريا، المهرجان السنوي الذي كان يقام لثلاثة أيام على شرف ديونيسيوس. كانت تتلألأ أسفلهما مياه بحيرة لوسيرن حيث تسبح كوزيما مع الأطفال وسط البجع. تضمر كوزيما تحت طيات ثيابها البيضاء طلاوة بجعة، على رأي أحد زائري تريبشن المهمين خلال فصل الصيف، الذي أدى طقوس الحج من باريس إلى تريبشن.

في حين أن أوبرا تانهاوزر التي عزفها فاغنر عام ١٨٦١ اخفقت في نيل الشهرة، إلا أنها تركت أثرها على جيل الطليعة الفرنسي. أولت الحركتان الفنيتان، الحركة الرمزية والحركة المُنحطة، عناية فائقة بمقال بودلير «تانهاوزر صنيعة فاغنر في باريس»[١١]، الذي جذب انتباههم إلى التنقيب العميق الذي توفره الأوبرا عن فكرة أن الجنسانية والروحانية تخضع أحدهما للأخرى على الرغم من تناقضهما، وإلى مأثرة فاغنر التقنية الإعجازية فيما يتعلق بمقدرته على بناء معبرٍ جماليٍ للأحاسيس بين الكلمات والموسيقى بطريقته الفنية الجامعة.

وصل ثلاثة باريسيين متحمّسين إلى تريبشن وهم، كاتول مينديز، شاعر من الحركة المنحطّة وكاتب مسرحيات وروائي ومؤسس المجلة الأدبية La revue fantaisiste، وزوجته جوديث غوتييه، وأوغست دو فيليي دو ليل-أدام، مؤسس الحركة البرناسية الأدبية التي هجرت الرومانسية لإحياء الكلاسيكية المُجدّدة. لكن الحركة البرناسية لم تدم طويلًا، كما أنها سُحقت تحت اسم الحركة الرمزية التي لاقت نجاحًا كبيرًا.

كان فيليي دو ليل-أدام رجلًا ليس بالسمين ولا بالطويل، قَدِم إلى

تريبشن مرتديًا سروال «هاملت» المحشو الذي ارتداه لرغبته بالحصول على مظهر بقدمين جميلتين. أما كاتول ميندز فلم يكن بحاجة الملبس ليترك انطباعًا؛ وغالبًا ما كان يعرف بأنه أكثر رجال جيله وسامة. كانت نظراته تقارن بنظرات مسيح أشقر، ولكنه كان ذا شخصية قاسية ومُنحرفة وهدّامة؛ لقد أطلق موبسانت عليه «زنبقة في البول»(١٢).

كانت جوديث غوتييه في العشرينيات من عمرها وابنة الشاعر والناقد ثيوفل غوتييه. بدت عند دخولها تريبشن امرأة برناسية المظهر ذات ذوق متفرد، متخلّصة من مشد الخصر والقرينول مرتدية بدلًا من ذلك تنورة فضفاضة ذات طراز قديم تركتها من دون أية قيود، وقد كانت هي من اقترح زيارة فاغنر. كان زوجها، كاتول، مُدمنًا على الكحول وهذا ما جعله مُعيلًا لا يمكن الاعتماد عليه على نحو متزايد، وقد حولت جوديث طريقها إلى الصحافة وصارت مؤلفة روايات رومانسية ناجحة تجري حوادثها في الشرق الغامض الذي لم تزره أبدًا. كان هدف رحلة تريبشن هو أن تكتب جوديث مقالًا نابضًا بالحيوية عن فاغنر في منزله سيُنشر في فرنسا.

كانت جوديث إلهة الشهوة الغريزية الديونيسيوسية، فقد كانت طويلة القامة ذات شعر غامق اللون، شاحبة ذات مسحة مسرحية على نحو حاد، طافحة «بجسدها الممتلئ ولا مبالاة امرأة شرقية. من اللازم أن يراها المرء مضطجعة على جلد نمر تدخن النارجيلة»، وهذا ما قاله الشاعر البروفنسي ثيودور أوبانيل، الذي رأى في شِعرها «ضبابية شيطانية»، ولكنه رآها شخصية «رائعة» وشكلها الممزوج بمسحة شرقية لا يقاوم البتة. كانت غوتييه متخصصة في حب الرجال الذين يكبرونها سنًا، فقد كانت عشيقة فيكتور هوغو الذي يكبر فاغنر بإحدى عشرة سنة. أدركت جوديث جيدًا جاذبيتها عند خفضها لجفنيها الواهنين ذي الرموش الطويلة، وإطلاقها تنهيدة، بطريقة عاطفية وببطء، مُعطرة هواء تريبشن وعند مُداعبتها لنسيج ثيابها الناعم الحريري التي أحبها فاغنر.

«في أكثر من مناسبة» يذكر كاتول ميندز «وجدناه (فاغنر) في زيارتنا

الصباحية مرتديًا ذلك الزي الغريب الذي غالبًا ما يُنسب له، عباءةً وشبشب من الستان الذهبي، المطرز بأزهار بلون اللؤلؤ» (لأنه يهوى بشغف الأقمشة الزاهرة، التي تضطرم مثل اللهب أو تندلق مثل تموجات باهرة). كان المخمل والحرير مبسوطًا بوفرة في الصالون وفي مكتبه، منثورًا على شكل أكوام منحنية وحواشٍ كثيرة لا علاقة لها بالمفروشات، فقط لمجرد جمالها ولأنها تفتن الموسيقي الشاعر بدفئها البهي»[١٣].

عندما قفلت جوديث عائدة إلى باريس، صار فاغنر يستهل رسائله لها بعبارة «محبوبتي الحنونة»، غالبًا ما كان يرفق الرسائل بقوائم شراء الأقمشة الناعمة والروائح الحادة التي عشقها كلاهما. راسلت جوديث فاغنر بعناوين مختلفة لكي لا تكتشف كوزيما مراسلاتهما. كانت جاذبية فاغنر السحرية وموسيقاه بمثابة ديانة لجوديث، حالة وجدانية من الجمال، كما كان الحال ذاته مع كوزيما. استخدمت كلاهما نفس الدموع المتذللة والتقديرات المغالية في عبادتهما للسيد، مخاطبتين إياه بعبارات مثل «إن الأصوات التي تبدعها هي شمس حياتي!». لكن المرأتان المتولهتان بفاغنر كانتا مختلفتين إلى أبعد حد. كانت كوزيما تتحزّم مشد النساء بإحكامٍ طوال الوقت، وصفها الكونت هاري كيسلر بأنها «شديدة النحافة وقويةً الشكيمة.. وكأنها تمثال يوحنا المعمدان الذي نحته دوناتيلو»، ووصفها طبيب أسنانها على أنها امرأة تزدري العقبات التي تقف بينها وبين هدفها بشكل مذهلٍ للغاية[١٤]. على عكس شهوة جوديث الديونيسيوسية المتدفقة التي تستعبد فاغنر، كانت كوزيما ذات سطوة أبولونية وعقلانية صارمة على فاغنر وغالبًا ما تكون تحذيرية. خلال ذلك الصيف، دونت كوزيما في دفتر مذكراتها برنامج قراءة قاسٍ يتضمن قراءة أغلب مسرحيات شكسبير بصوت مرتفع لبعضهما بعضًا وعزف ثنائياتٍ على البيانو لبيتهوفن وهايدن. لقد كانت عازفة بيانو بارعة وناقدة صارمة، وقد خشي فاغنر توبيخها له مثل طفل، وتحمل العذابات عندما رفضت مضاجعته.

على الرغم من أن فاغنر وجوديث لم يصبحا عشيقين، فإن غرائز كوزيما

لم تدفعها لارتكاب إساءة فعلية. في الوقت نفسه، نمت علاقتها العقلية والعفيفة والمستقيمة تمامًا مع نيتشه. لسوء الحظ، أحرقت كوزيما مراسلاتها مع نيتشه، ولذا يجب علينا الاعتماد على مذكراتها التي لم تكتبها بحميمية لأنها بدت وكأنها وثيقة عامة للمستقبل لتنوير وتوجيه أطفالها والاجيال القادمة. خلال فترة زيارة جوديث غوتييه، وصفت كوزيما نيتشه في مذكراتها بأنه رجل حسن النشأة ومثقف ولطيف، أما جماعة جوديث فقد وصفتهم بـ«جماعة مينديز».

عند عودتها إلى باريس، كتبت جوديث مقالًا عن آل فاغنر وحياتهم اليومية، مقالًا تسبب في ذعر كوزيما جراء انتهاك خصوصيتها وسوقية تصرف جوديث في كشف التفاصيل اليومية، حتى أصغرها، من حياتهم الخاصة.

في أوقات استراحاته من التأليف، كان فاغنر يخرج للتنزه مع كلبه على الجبال، أو إلى متجر الأنتيكات المفضّل عنده في لوسيرن. بينما كان السيد خارج المنزل، سُمح لنيتشه بالعزف على بيانو السيد. لقد عزف نيتشه بشكل جيد، حتى في هذا المقام الجليل، وبحماسة عاطفية أشد من حماسة فاغنر، الذي كان يتعمّق في التفكير فنيًا دائمًا. كان نيتشه يجهد نفسه للوصول إلى حالة شبيهة بالنشوة أثناء العزف، مثيرًا في قلب كوزيما (ابنة ليزت بعد كل شيء) حالة من الثمالة الهذيانية.

كلما عزف لفترة أطول وبطريقة أكثر جنونًا، شعرت بالثمالة تتملكها من خلال الإحساس بالخوف والرعدة، لقد كان عزفه يحرّر الجانب الشيطاني في داخلها. كانت الموسيقى لكوزيما، كما كانت لنيتشه، بمثابة السبيل لبلوغ عالم النشوة الإلهية.وقالت في يوم من الايام إن الحياة لا تُطاق مقارنةً بالموسيقى. عندما يكون فاغنر خارجًا، ينشغل نيتشه وكوزيما بمحاولة استحضار أرواح العالم السفلي عن طريق عزف نيتشه الهستيري على البيانو التي تشبه عزف مقطعٍ افتتاحي موسيقي لاستدعاء قوًى سحرية خفية[١٥].

في عيد الميلاد عام ١٨٦٩، دُعي نيتشه لقضاء العطلة في تريبشن، وقد كان الضيف الوحيد. لم يعرف أبدًا عيد ميلاد مثل هذا من قبل. حرص كُلٌّ من كوزيما وفاغنر على إقامة طقوس عيد الميلاد، على الرغم من اختلافهما من الناحية الدينية، فكانت كوزيما كاثوليكية مخلصة وكان فاغنر ملحدًا، ولكنهما تعاونا سنة بعد سنة من أجل متعة الأطفال. في عشية عيد الميلاد، اتبعا تقاليد القديس نيكولاس الألمانية القديمة وتقليد مُقدم الهدايا وخادم روبريخت necht Ruprecht (*) والذي يكافئ الأطفال المهذبين ويهدد بجلد وخطف الأطفال المشاغبين أو العصاة.

ساعد نيتشه كوزيما في إنشاء المسرح الذي ستقام عليه الطقوس، كما زينا معًا الشجرة، وعندما أصبح كل شيء في مكانه المناسب، هرعت الممرضة هيرمين إلى الأطفال لتخبرهم أنها تسمع زمجرة! ثم ظهر فاغنر، مرتديًا ثياب خادم روبريخت، مزمجرًا بأعلى صوته باسطًا ذعرًا رهيبًا. هدأ الاطفال بعدها عندما أعطتهم كوزيما الجوز الذي قضت شهر كانون الأول تطليه بالألوان.

ظهر المسيح الطفل، صرف انتباه الأطفال عن مكان اختباء والدهم. حلَّ الصمت وأصبح الجو غامضًا عندما أرشدهم المسيح الطفل إلى ممر السلم المظلم الذي يؤدي إلى الصالة، لتتبعه الأسرة بأكملها في موكب صامت. وفي الختام، تجمعوا عند الشجرة التي ألّقتها الشموع المُضاءة. تبادلوا الهدايا بينما ساعدت كوزيما الاطفال في توجيههم للتضرع للرب.

يتضح أن الأسبوع المقبل كان على قدر كبير من السعادة والتقارب بين نيتشه وكوزيما. كانت مذكراتها فارغة من بعد بداية يوم السادس والعشرين من كانون الأول، ولم تستأنف الكتابة في مذكراتها إلا في الثالث من كانون الثاني، مشيرة إلى أنها لم تكتب شيئًا طوال الأسبوع المنصرم قاضية معظم الوقت مع الأستاذ نيتشه، والذي غادرهم بالأمس.

(*) خادم روبريخت: إسطورة ألمانية تتمثّل في الرفيق الشرير للقديس نيكولاس، شخصية شيطانية قد يظهر بهيئة شريرٍ يرتدي الأسود، أو شيطانٍ قبيح الشكل. (المترجم)

في الثامن عشر من تموز عام ١٨٧٠، انتهى زواج كوزيما وفون بولو أخيرًا. دُعي نيتشه ليكون شاهدًا على زواجها من فاغنر في الكنيسة البروتستانتية في لوسيرن في الخامس والعشرين من آب، لكنه لم يكن قادرًا على تلبية الدعوة. وبحلول ذلك الوقت، اندلعت الحرب بين فرنسا وبروسيا كما خشي نيتشه وياكوب بوركهارت.

عندما أعلن ملك فرنسا نابليون الثالث الحرب على بروسيا بسمارك في التاسع عشر من تموز، كان نيتشه في بازل على سريره يعاني من التواء في الكاحل، وكانت شقيقته إليزابيث تعتني به. كان من المفروض أن تعود إليزابيث إلى والدتها في ناومبورغ، لكن هذا لم يكن آمنًا ولا ممكنًا في الفوضى التي أعقبت إعلان الحرب مباشرة.

كتبت إليزابيث «في التاسع عشر من تموز اندلعت الحرب، ومنذ ذلك اليوم فصاعدًا، سادت بازل فوضى لا تصدق، كان المسافرون الفرنسيون والألمانيون يتقاطرون من كل حدب وصوب في طريقهم للانضمام إلى الوحدات القتالية في أوطانهم. طوال الأسبوع، بدا أنه من المستحيل تقريبًا أن تحصل الحشود القادمة على مأوى لليلة واحدة حتى في بازل. كانت محطات السكك الحديدية تغص بالحشود ليلة بعد ليلة، وأولئك الذين لم يتحمّلوا الهواء الخانق في المحطة، سيعانون من الحشرات طوال الليل»[١٦].

اصطحب نيتشه إليزابيث في زيارة مقتضبة إلى تريبشن، قبل أن يتابعا طريقهما إلى جبل أكسنشتاين، حيث استقرا في فندق كبير. بينما كان نيتشه يتأمل مستقبله، كتب مقال الرؤية الدينيسوسية للعالم، رابطًا بين فلسفة شوبنهاور والروح التراجيدية الإغريقية، كما كتب عدة مسودات لرسالة أراد أن يبعثها إلى رئيس مجلس التعليم في بازل:

«على ضوء الوضع الحالي في ألمانيا، فإنك لن تتفاجأ من طلبي بأن يسمح لي بتأدية واجبي تجاه وطني الأم. وبهذا الصدد أناشدك، من خلال وساطتكم الكريمة، مُلتمسًا إجازة للأسابيع الأخيرة من الفصل الصيفي

من المجلس التعليمي المحترم في بازل. لقد تحسنت حالتي الصحية الآن إلى درجة أن تمكنني، ومن دون أي خشية من عواقب موقفي، من مساعدة رفاقي من أبناء وطني على حدٍّ سواء كجندي أو كمسعف... فامام صرخة ألمانيا المهيبة، على كل فرد أن يؤدّي واجبه الألماني، أعترف أنني لا أستطيع الالتزام بواجبي اتجاه جامعة بازل إلا بواسطة الإجبار المؤلم.. وددت أن أرى مواطنًا سويسريًا سيقبل البقاء في منصبه في ظل ظروف مماثلة...». أما الجملة الأخيرة فقد حُذفت من المسودة[١٧].

في التاسع من آب، كتب إلى كوزيما يخبرها عن نيته خوض الحرب. ردت في نفس اليوم بأنها تعتقد بأنه من السابق لأوانه التطوع في الجيش. وعلى أي حال، فإن هديتها المتمثِّلة بمائة سيجار ستكون أكثر فائدة في الجيش من وجود هاوٍ للفن بصحبته. كانت تتحلّى بالخفة التي جعلت منها أنموذجا سماويًا في عيني نيتشه وفاغنر، وصيَّرتهما عاجزين عند قدميها.

أعتقت السلطات الجامعية نيتشه بشرط ينص على أن لا يعود إلى فوجه السابق، لأنه كان مواطنًا سويسريًا من كل النواحي، بل تأدية واجب مساعد مسعف في الحرب وهو دور غير قتالي.

سافر نيتشه إلى مدينة إرلانغن، في الثاني عشر من آب، لتلقي التدريب كممرض عسكري في مستشفى المدينة الكبير. لم يكن قد أكمل أسبوعين من التدريب عندما اضطر للتعامل مع قاطرة مليئة بالمصابين بجروح خطيرة من الأطفال والبالغين الميتين والمحتضرين.

في التاسع والعشرين من آب، وبعد أربعة أيام من زواج كوزيما من فاغنر، قطع نيتشه مسافة ما يعادل إحدى عشرة ساعة من المسير ليعتني بجرحى معركة وورث، حيث حقق الألمان انتصارًا كبيرًا ولكن بتكلفة باهضة تتمثّل في سقوط ما يقارب عشرة آلاف ألماني على أرض المعركة وسط ثمانية آلاف جثة من الجيش الفرنسي.

كتب نيتشه إلى والدته من أرض المعركة المنكوبة بطريقة تثير الهلع

«تتناثر على كل بقعة جثث وأشلاء مفجوعة تفوح منها رائحة كريهة. نحن ذاهبون اليوم إلى هاغانو، وغدًا إلى نانسي، وهكذا قدمًا، متبعين خطى الجيش الجنوبي.. خلال الأسابيع القادمة، لن تصلني رسائلك، لأننا مستمرون في التقدم والبريد يسير ببطء شديد. لا يسمع المرء شيئًا عن التقدّم الجاري هنا الآن ولا تصلنا الصحف. يبدو أن جالية العدو هنا بدأوا يعتادون على تطوّرات الوضع الجديد، ولكنهم مهددون بعقوبة الإعدام على أدنى جريمة... في كل القرى التي مررنا بها كان هناك مستشفًى بعد آخر. سوف تسمعين مني أخبارًا جديدة قريبًا، لا تقلقي عليّ»(١٨).

في الثاني من أيلول، نجد نيتشه يعتني بالجرحى في قطار المشفى المتوجّه من آرس سور موزيل إلى كارلسروه. استغرقت الرحلة ثلاثة أيام وليلتين، حيث وصف ذلك في رسالة بعثها إلى فاغنر في الحادي عشر من أيلول.

عزيزي السيد المبجَّل: إذًا، لقد اكتمل بناء بيتك وتأسَّس على نحو راسخ في خضم العاصفة. على الرغم من بعدي عنكم، إلا أنني بقيت أفكّر بهذا الحدث متمنيًا أن تحل عليكم البركة. يسعدني جدًا أن أرى، من خلال السطور التي كتبتها لي زوجتك التي أحبها كثيرًا، أنكم قد تمكنتم أخيرًا من الاحتفال بهذه المناسبات البهيجة (عقد القران وتعميد سيغفريد) أسرع مما توقعنا عند آخر مرة كنا معًا.

تعرفُ ما التيار الذي جرفني بعيدًا عنك، وجعلني غير قادر على أن أشهد معكم هذه الشعائر المقدسة التي أتوق لحضورها. قارب عملي كمساعد على نهايته بسبب مرضي لسوء الحظ. وضعتني مسؤولياتي وواجباتي قريبًا من ميتز، فيما بعد أصبحت تحت الحصار. في آرس سور موزيل تولينا مسؤولية الاعتناء بمصابين والعودة بهم إلى ألمانيا... كان لدي عربة ماشية بائسة يرقد فيها ستة مصابين ذوو حالات سيئة، اعتنيتُ بهم وضمدتهم وعالجتهم طول الرحلة وحدي. لقد شخّصتُ منهم حالتي غرغرينا... بالكاد سلمتُ عربة نقل الجرحى الخاصة بي إلى مستشفى كارلسروه عندما ظهرت علي علامات مرض خطيرة. بلغتُ إرلانغن بصعوبة لتقديم التقارير المتنوعة إلى

مجموعتي، بعدها رقدت في الفراش وما زلت راقدًا هناك. شخّص طبيب جيّد علّتي على أنها زحار حاد، وخناق بعد ذلك... وهكذا، وبعد جولة قصيرة من أربعة أسابيع، محاولًا العمل في العالم على شساعته، أسقطُ مرة أخرى منتكسًا، يا لها من حالة بائسة!».

طوال الأسبوع الأول الحرج في إرلانغن، كان خطر الموت محدقًا بنيتشه، فقد عولج باستخدام نترات الفضة والأفيون وحقن حامض التَينك، وكانت المداواة بهذه المواد أمرًا طبيعيًا آنذاك، وكان تأثير هذا العلاج هو تلف أمعاء المريض مدى الحياة. بعد مرور أسبوع خرج من دائرة الخطر فأرسلوه إلى والدته وإليزابيث اللتين تعيشان في بيت الطفولة في ناومبورغ. بين ناقوس الآلام الشديدة ومطرقة القيء المزمن، بدأ نيتشه بممارسة عادة يؤسف لها مدى حياته وتتمثّل إدارته الذاتية في تعاطي الأدوية التي تخفف الأعراض المؤلمة مؤقتًا بينما - من ناحية أخرى - تنخر بنيته الجسمانية. يقال إن نيتشه أصيب بالزهري كما الخناق والزحار جراء تطبيبه للمصابين في قطار المشفى؛ وسيبقى السؤال الذي يُطرح حول كيفية إصابة نيتشه بالزهري لا يمكن البت فيه بطريقة أو أخرى.

خلال فترة تشافيه، أغرق نفسه بإعداد المحاضرات للفصل الدراسي القادم والبقاء على اتصال بالاصدقاء عن طريق الرسائل التي لم يشر فيها إلى ذكريات الحرب المروعة التي سكنت أيامه ولياليه. كان نيتشه يعاني من أحشائه المعطوبة ومن اليرقان والأرق والتقيؤ والبواسير، كما من طعم الدم الدائم في فمه، ومن الفظائع النفسية التي رآها في ساحة المعركة والتي شوَّهت دماغه. على عكس فاغنر وكوزيما، اللذين اشتغلا كل صباح على مقاربة أحلامهما قبل أن تدوّنها كوزيما بخشوع في دفتر مذكراتها، لم يوثق نيتشه أي أحلام للأجيال القادمة. ومع ذلك، فقد أجاز لنفسه التعبير عن قرفه الشديد من العسكرة والعوام بشكل عام، ولبروسيا بسمارك بشكل خاص.

«أي أعداء لإيماننا (وثقافتنا) ينمون من التربة الدموية لهذه الحرب!

إنني مُتأهّب للأسوأ، وفي ذات الوقت كلي ثقة من أن زهرة المعرفة الليلية ستورد هنا أو هناك في جسد المعاناة والهلع»[١٩].

لقد كانت «بروسيا الدموية والمناهضة للثقافة» هي المُلام؛ فبسمارك البعيد عن إحياء الروح الإبداعية لليونان القديمة، كان يعمل على تحويلها إلى روما الوحشية والمادية والمليئة بالعوام، فقد صيَّرها إلى أداة ميكانيكية للقتل بالجملة والموت البربري.

كان نيتشه مُغتاظًا بسبب دموية البروسيين ووحشيتهم الكلبية في تجويع الفرنسيين برَويّة في حصار باريس الذي استمر من أيلول، عندما سقط طريح الفراش، ولغاية كانون الثاني التالي.

لم يكن اشمئزازه من البربرية مُقتصرًا على البروسيين، فبعد تشكّل حكومة فرنسية جديدة ثارت كومونة باريس ضدها مباشرة، وقد تعاملت الحكومة مع أبناء شعبها كما فعل البروسيون وبنفس القدر من الوحشية، حيث ارتكبت مجزرة دموية، ومن دون تمييز نالت من رجال الدين والسجناء وعابري السبيل الابرياء. لقد شنت الحرب على الثقافة كذلك، فحُطمت الآثار وأطيح بها. نُهبت وأُحرقت متاحف وقصور في باريس، بما فيها حدائق التويليري، بنوبة هستيرية تدميرية جنونية بدافع العبث والانتقام. كما أفادت تقارير غير صحيحة ظهرت في صحف بازل تفيد بتدمير متحف اللوفر أيضًا. في ظل هذه الانباء المروعة عن الإبادة الثقافية المتعمّدة، خرج كل من بوركهارت ونيتشه إلى الشارع بحثًا عن بعضهما بعضًا، وعندما التقيا، تعانقا مكسوري القلب من دون أن ينطقا بكلمة.

كتب نيتشه يصف ما جرى: «عندما سمعت بخبر النيران التي اندلعت في باريس، شعرت لعدة أيام بأنني قد سُحقت وغمرتني المخاوف والشكوك... لقد بدا أن الوجود الفكري والعلمي والفلسفي وحتى الفني برمته أمرًا عبثيًا إن كان يمكن طمس أكثر الأعمال الفنية المجيدة وحتى حقبًا فنية بأكملها في يومٍ واحدٍ فقط؛ لقد تشبّثتُ، بقناعة مخلصة، بالقيمة الميتافيزيقية للفن،

والتي لا يمكن أن توجد من أجل الكائنات البشرية العاجزة وإنما لإنجاز مهمات أكثر سموًا. لكن حتى في أوج ألمي، لم أستطع إلقاء حجر على هؤلاء المجدّفين الذين لم يكونوا سوى حاملين للذنب العام، وهذا ما يدعونا للتفكر في الأمر»[٢٠].

دُعي مرة أخرى لزيارة تريبشن في عيد الميلاد. لقد ثقُل نيتشه في عيون مضيفيه على نحو بطولي ليصبح المحارب الفيلسوف، ولكن تجربته على أرض المعركة خلّفت صدعًا بينه وبينهم. كان من المؤكّد أن نيتشه مواطن أوروبي ملتزم، بينما كان فاغنر وكوزيما يشتعلان بالقومية الانتقامية الاحتفالية، فكان فاغنر يرفض حتى قراءة الرسائل المكتوبة باللغة الفرنسية.

في صبيحة عيد الميلاد، كان المنزل ينبض بالأصوات الساحرة التي تتخلّل الهواء العبق. هربَ فاغنر هانز ريختر بطريقة سرية مع خمس عشرة آلة أوركسترالية إلى بيت السلم، حيث عزفا لحن سيغفريد، التي كانت بلا اسم في ذلك الوقت، فأطلقن عليها بنات كوزيما اسم «موسيقى بيت السلم».

صرخت كوزيما: «دعني أموت الآن» عند سماعها للموسيقى.

أجابها فاغنر: «أن تموتي لأجلي أسهل من أن تحيي لأجلي»[٢١].

كان تبادل هذه العبارات نموذجًا من المستوى الرفيع الذي تجري على أساسه محادثات آل تريبشن بطريقة مرهقة وقاسية، وغالبًا ما تخلل تنهداتٍ ودموع. استمرت كوزيما على هذا المستوى من الحماسة خلال عيد الميلاد، وقد كتبت أنها شعرت كما لو أن «لحن سيغفريد» قلب حياتها إلى حلم يقظة. لقد شعرت بذوبان حدودها المبهج، وبعدم إدراكها لوجودها الجسدي وبلوغها السعادة الأسمى والنعيم الأعلى، كما لو أنها بلغت القصد الشوبنهاوري الأخير المتمثّل بتلاشي الحدود بين الإرادة والتمثل.

ابتهجت كوزيما بهدية نيتشه في عيد ميلادها، والتي كانت مخطوطة «مولد المفهوم التراجيدي»، وهي مسودة مبكرة من كتاب مولد التراجيديا. في أمسيات تريبشن، قرأ فاغنر مقاطع من الكتاب بصوت مرتفع، فأثنيا، هو

وكوزيما، على الكتاب لكونه ذا قيمة وإتقان بالغين. لم يتبادل فاغنر وكوزيما الهدايا في عيد الميلاد، إجلالًا منهما لأولئك الذي ما زالوا يختبرون ويلات الحرب. لم يُبلغ نيتشه بهذا الأمر، فقد قدم محمَّلًا بمقال لكوزيما وأشياء صغيرة للاطفال، واختار بعد تفكير طويل هديةً لفاغنر؛ نسخة من نقش آلبرخت دورر العظيم «الفارس والموت والشيطان»، التي مثّلت منذ لحظة إبداعها صورة للتآزر الوطني ورمزًا جليلًا للإيمان الألماني والشجاعة الألمانية وقت الشدائد. قبل فاغنر الهدية بسرور بالغ. بالنسبة له، كان الفارس الألماني ذا دلالة رمزية مزدوجة، لأن بطله سيغفريد، في حبكة أوبرا «حلقة نيبلونغ»، يمتطي فرسه من أجل خلاص العالم، كما يرمز لفاغنر شخصيًا، حيث يمتطي فرسه بصفته الفارس المتوّج على الساحة الموسيقية للمستقبل، إنه الفارس الذي سيبث الحياة في الروح الألمانية الثقافية التي اختنقت بنزعات العوام والتعددية الثقافية. ستعود الثقافة يومًا ما، مثل سيغفريد، لتتغلّب على تنانين الثقافة الدخيلة. لقد كانت هدية نيتشه مدروسة بعناية.

أقام نيتشه هذه المرة ثمانية أيام في تريبشن، بصفته الزائر الوحيد للمنزل. في إحدى الأمسيات، قرأ مقاله عن الموقف الديونيسيوسي للحاضرين، والذي ناقشوه فيما بعد. وفي أمسية أخرى، قرأ فاغنر النص الأوبرالي لأوبرا «الأساتذة الموسيقيون» .Die Meistersinger قيدت كوزيما في دفتر مذكراتها أنها استمتعت بصحبة نيتشه عندما عزف هانز ريختر مقطوعة من أوبرا تريستان لهما وحسب. تناقشوا أيضًا حول الشمائل المقارنة التي يتحلّى بها كُلٌّ من هوفمان وإدغار آلان بو، واتفقوا على مدى عمق الفكرة التي ترى العالم الواقعي بوصفه شبحًا، والتي يعتبرها شوبنهاور علامة على الاستيعاب الفلسفي. في أحد الأيام الباردة جدًا، اختبر نيتشه سعادة منزلية لم يألفها مسبقًا، من خلال غزوة حميمية شنها كل أفراد العائلة على غرفة التفكير خاصته Denkstube. لقد كانت غرفته الأكثر دفئًا في المنزل، أدّوا قراءاتهم ومحادثاتهم بصوت خفيض طري لكي لا يزعجوا الأستاذ نيتشه في عمله.

في يوم رأس السنة الجديدة من عام ١٨٧١، غادرهم إلى بازل. عزم

نيتشه أخيرًا على التصرف حيال نفوره من الفيلولوجيا ورغبته المتزايدة في تدريس الفلسفة. في كانون الثاني، كتب رسالة أخرى طويلة لرئيس مجلس الجامعة[٢٢]، واضعًا أمام الرجل اقتراحًا غير تقليدي بأن ينتقل إلى كرسي الفلسفة التدريسي في بازل، والذي كان قد أصبح شاغرًا مؤخرًا، وذهب أبعد من ذلك ليقترح اسم إروين رود، صديقه، ليتولى كرسي الفيلولوجيا بدلًا عنه. درس رود ونيتشه معًا تحت يد ريتشل في بون ولايبزيغ. لكن نيتشه لم يكن يتمتّع بالمؤهّلات الفلسفية لتولي كرسي الفلسفة، ولم يكن رود سوى محاضر زائر في جامعة كيل، ولهذا، وجدت السلطات الجامعية اقتراح نيتشه مفاجئًا.

أصابه التفكير بالعودة لتدريس الفيلولوجيا بخدرٍ روحي. كانت صحته سيئة طيلة كانون الثاني، وأصر الأطباء على أن يحظى بالراحة الكاملة في بيئة دافئة، ولهذا تم إرسال أخته للعناية به. بعد رعايتها الصحية له صار في حالة صحية جيدة نوعًا ما، وحينها شرع كلاهما برحلة نقاهة على جبال الألب الإيطالية.

تكتب إليزابيث «في اليوم الأول، وصلنا إلى فلولن فقط، بسبب توقف سائق عربة الجياد لأن تساقط الثلوج الغزير قطع الطريق لأسبوعين كاملين، وليس بالامكان أن يستأنف الرحلة إلا في صبيحة اليوم التالي. في فندقنا، قابلنا مازيني، واسمه المستعار السيد براون، وكان يرتحل بصحبة رجل يافع». كان جوزيبي مازيني رفيق غاريبالدي. حُكم عليه بالإعدام في بلده، وقضى الكثير من الوقت في منفاه مُخططًا لإقامة جمهورية موحدة في إيطاليا. مثل العديد من الجمهوريين العالميين والفوضويين في ذلك الوقت، وجد مازيني ملجأ في لندن، حيث خطّط من هناك لغزو واحتلال إيطاليا بتجنيده كل المهاجرين السياسيين الذين يعيشون هناك. سارعت جين كارليل، الثورية النزقة، بالاعتذار عن المشاركة لأنها كانت تصاب بدوار البحر، ولكن لم يرفض أحد آخر المشاركة. كان من المفترض أن تنفذ الخطة بواسطة البالونات من إنجلترا، وهي طريقة عملية لتوجيههم كان قد تم اختراعها

توًا. شعر مازيني، وبكل إنصاف، أن حملة مثل تلك كانت ستلقي الرعب في قلوب طغاة بوربون(٢٣).

أكملت إليزابيث قائلة: «هذا الطريد النبيل، تقوّس ظهره مع التقدّم في السن والأسى، لم يكن بامكانه دخول بلده الأم الذي أحبه بعمق إلا باسم مستعار، لقد أدهشني كونه شخصية مثيرة غير عادية. جرت معظم هذه الرحلة عبر معبر سان غوتهارد بواسطة زلاجات صغيرة صممت لتحمل شخصين فقط، شرعنا بالحركة في مثل هذا الطقس الجميل والمشهد الكئيب بالإضافة إلى المناظر الطبيعية الشتوية الملونة بالذهبي والأزرق والأبيض والتي أذهلتنا بجمالها الذي يصعب وصفه. رافقنا السيد مازيني المفكر بلطفٍ في جميع محطات الرحلة، عندما وقع حادث أدخل الروع في قلوبنا بينما كنا نهبط الطريق المتعرّج الذي يبدأ من مرتفعات سان غوتهارد التي تصيبك بالدوار وينحدر حتى وادي تريمولا، فقد هوت زلاجة صغيرة، كما لو كان لها أجنحة، أمامنا مباشرة بركابها وسائسها وخيولها وسقطت على عمق ٢٠٠ قدم، لحسن الحظ لم يصب أحد بأذى، والفضل يعود لطراوة الثلج. أضفت كل هذه الأشياء التي رافقت الرحلة سحرًا عجائبيًا لا يمكن نسيانه. أصبحت العبارة التالية لغوته منذ ذلك الوقت العبارة المفضلة في حياتنا أنا وأخي، وهي: ارفض التنازل وعش بحزم حياتك كلها بتفاصيلها وجمالها، والتي اقتبسها وردّدها مازيني عدة مرات على مسامع مرافقه الشاب. كان وداع مازيني مؤثرًا للغاية، فبعد أن سألني إلى أين ستكون وجهتنا، أجبته: «إلى لوغانو، التي تعتبر جنة على الأرض بكل المقاييس»، ابتسم ثم تنهد قائلًا: «عندما تكون شابًا فالجنة في كل مكان»(٢٤).

في الثاني عشر من شباط، بلغا لوغانو، حيث أسرتهم سكينة المكان وطبيعته الجبلية الخلابة. سجلت إليزابيث كل شاردة وواردة، وكان الأكثر تميزًا في نظرها هو الكونت فون مولتكه، شقيق قائد الجيش. كانت هناك ألعاب تقام في صالة الاستقبال وعروض مسرحية وموسيقية ونزهات قصيرة ممتعة إلى البقعة الآسرة قرب جبل بري. كان الناس هناك يسعون

خلف البروفيسور العازب نيتشه ذي السابعة والعشرين ربيعًا محتفين به. تسلق «جبل بري» بكل أناقة متفوقًا في علوه على الجميع. حاملًا نسخة من «فاوست» من جيبه ليقرأ منها ما يلي: «بينما طافت أعيننا حول المنظر الربيعي المهيب، وثملنا بثراء العالم الطافح. أخيرًا، ترك الكتاب يسقط، وبصوته الرخيم تحدث عما قرأه للتو وعن الأشياء التي حولنا، كما لو أننا قد تخلصنا من تحرجنا الشمالي الفارغ وتفاهتنا، لتنمو بمحلها مشاعر أسمى وأهداف أعلى، وبشجاعة أكبر وبأجنحة أخف، بامكاننا الآن، بكل ما لدينا من قوة، أن نبلغ أعلى قمة للقاء الشمس»[٢٥].

لسوء الحظ، أصيب فون مولتكه بنزلة برد أثناء تنزهه على البحيرة. كتبت إليزابيث: «لقد مات، ليتفشى الفزع في قلوب كل مجموعتنا»، ولكن موت فون مولتكه لم يعكّر مرحها طويلًا، فقد كتبت: «يا لها من أيام سعيدة ورائقة تلك الأسابيع الثلاثة في لوغانو - حيث طوقتنا رائحة البنفسج وأشعة الشمس وهواء الجبال والربيع العليل! - ما زال بمقدوري أن أتذكّر كم مزحنا وضحكنا؛ مع هذه الأرواح اللعوبة تشاطرنا حتى بهجة الكرنفال. في منتصف الصيام الكبير، دعانا رجل إيطالي نبيل إلى بونتي تيريزا. أستذكر كيف رقصنا معًا نحن الألمانيين الذين كنا نقيم في فندق دو بارك[٢٦] ومع الإيطاليين في المساحة المفتوحة هناك، (لا يزال بإمكاني رؤية فريتز بوضوح شديد في عين ذاكرتي، يرقص بمرح الرقصة الدائرية)، إن الأمر برمته يصعقني وكأنه حلم كرنفالي حقيقي».

بينما كانت إليزابيث تكتب عن رقصات الفلاحين المبهجة، كان شقيقها يكتب كتابه الأول، «**مولد التراجيديا من روح الموسيقى**»، يشرح فيه استنتاجاته التي توصل لها خلال سنوات من التفكير، بأسلوب غير فيلولوجي، عن أصل وهدف التراجيديا اليونانية وأهميتها السرمدية لحاضر ومستقبل الثقافة.

(٤) ناكسوس:

١. مذكرات كوزيما فاغنر، ١٧ أيار ١٨٦٩.
٢. هانز فون بولو، استشهد به يواكيم كولر، نيتشه وفاغنر، درس في الموضوعية، مطبعة جامعة ييل، ١٩٩٨، صفحة ٢٨.
٣. ليونيل غوسمان، «بازل في عصر بوركهارت»، مطبعة جامعة شيكاغو، ٢٠٠٠، صفحة ١٥.
٤. جيكوب بوركهارت، «حضارة النهضة في إيطاليا»، بينغوين، ١٩٩٠، صفحة٤.
٥. تأملات في غير أوانها، ريتشارد فاغنر في بايرويت، فصل ٣.
٦. ياكوب بوركهارت، حضارة النهضة في إيطاليا، بينغوين، ١٩٩٠، مقدمة بيتر بيرك، صفحة ٥.
٧. مينديز، «ذكريات شخصية»، بتحرير غري، ريتشارد فاغنر وعالمه، صفحة ٢٣٣-٢٣٤.
٨. من فاغنر إلى نيتشه، ٧ شباط ١٨٧٠.
٩. «حكايتان لنيتشه»، صحيفة فرانكفورتر، ٩ آذار ١٩٠٤، اقتبسه ميلينغتون في ريتشارد فاغنر، صفحة ١٥٣.
١٠. رسالة في ٢٩ أيلول ١٨٥٠، استشهد بها ميلينغتون في كتابه ريتشارد فاغنر، صفحة ٢٢١.
١١. نشر في الأصل في الريفيو الأوروبي، ١ نيسان ١٨٦١.
١٢. جوانا ريتشاردسون، جوديث غوتييه، سيرة ذاتية، الرباعية، ١٩٨٦، صفحة ٣٩.
١٣. مينديز، «ذكريات شخصية»، بتحرير غري، ريتشارد فاغنر وعالمه، صفحة ٢٣١- ٢٣٤.
١٤. نيويل سيل جينكينز، «ذكريات نيويل سيل جينكنز»، طبع بشكل خاص عام ١٩٢٤، بتحرير غراي، ريتشارد فاغنر وعالمه.
١٥. كولر، نيتشه وفاغنر، صفحة ٥٥ -٥٦.
١٦. إليزابيث فورستر نيتشه، حياة نيتشه، المجلد الأول، صفحة ٢٣٠ -٢٣١.
١٧. نيتشه إلى فيلهلم فيشر بيلفينجر، بازل، على الأرجح في كانون الثاني ١٨٧١.
١٨. نيتشه إلى فرانشيسكا نيتشه، متجهًا من سولز بالقرب من فايسنبرغ، بجوار وورث، ٢٩ آب ١٨٧٠.

١٩. نيتشه إلى كارل فون غيرسدورف، بازل، ١٢ كانون الأول ١٨٧٠.
٢٠. نيتشه إلى كارل فون غيرسدورف، ٢١ حزيران ١٨٧١.
٢١. مذكرات كوزيما فاغنر، الأحد ٢٥ كانون الأول ١٨٧٠.
٢٢. فيلهلم فيشر - بيلفنغر (١٨٠٨-١٨٧٤)، عالم الآثار الشهير وأستاذ ومستشار في جامعة بازل.
٢٣. مالويدا فون ميسنبوغ، متمردة ترتدي القرينول، جورج آلان وأونون، ١٩٣٧، صفحة ١٩٤- ١٩٥.
٢٤. إليزابيث فورستر نيتشه، حياة نيتشه، المجلد الأول، صفحة ٢٤٣- ٢٤٤.
٢٥. المصدر السابق نفسه.
٢٦. فندق واسع على ضفاف البحيرة، ويدعى الآن فندق Residenza Grand Palace وينقسم إلى شقق.

٥

مولد التراجيديا

تقريبًا، كلّ ما نطلق عليه «ثقافة عليا» مؤسسٌ على روحانية القسوة وترسيخها. إن القسوة هي التي تشكِّل شهوانية التراجيديا المؤلمة.

ما وراء الخير والشر، فضائلنا

برهن الأثر الذي تركه كتاب نيتشه الأول، مولد التراجيديا من روح الموسيقى، إنه أكبر بكثير من الاعتبارات الضيِّقة والمحددة -بذلك الزمن- التي دفعت نيتشه إلى كتابته. أبصر مولد التراجيديا النور جزئيًا كردٍ هجومي ملتهب لنيتشه اليافع على انحطاط الثقافة لعصره، وجزئيًا أيضًا، كبيانٍ لتجديد الثقافة في ألمانيا الموحدة حديثًا من خلال رؤية ريتشارد فاغنر. لقد خُلد الكتاب بوصفه فهمًا ثوريًا للتسويات المضللة التي تربط بين العقلاني والغريزي، بين الحياة والفن، بين عالم الثقافة والاستجابة الإنسانية لهذا العالم.

تُنبئنا الافتتاحية الشهيرة للكتاب أنه مثلما يعتمد التناسل على ثنائية الأجناس، فإن التطور المستمر للفن والثقافة على مر العصور يعتمد على ثنائية العنصرين الأبولوني والديونيسيوسي اللذين ينخرطان في صراع مستمر لا يقطعه سوى فترات وئام مؤقتة.

يُعرِّف نيتشه العنصر الأبولوني بالفنون التشكيلية، وبالخصوص النحت بالإضافة إلى الرسم والعمارة والأحلام، وهذه الأخيرة كانت قبل حقبة التفسيرات الفرويدية لا تمثل الهيجان المشوّش للعقل الباطن المثقل بالذنب، وإنما بوصفها حاملة للدلالة القديمة على أنها نبوءة وتنوير وإلهام. يمكن تلخيص صفات أبولو بشكل أو بآخر بما هو «ظاهري»، الموصوف في المصطلحات الشوبنهاورية بتطابقه تقريبًا مع «التمثل». يتألف عالم أبولو من أفراد أخلاقيين وعقلانيين، يمثِّلون «الطابع الفردي، الذين تبوح إيماءاتهم ونظراتهم لنا عن بلاغة ومتعة وحكمة وجمال «المظهر»[1].

أما الفنون التابعة لديونيسيوس فهي الموسيقى والتراجيديا. ديونيسيوس، المولود مرتين، هو ابن زيوس، ابن الإله الذي نظرت إليه اليونان القديمة وكأنه مخلوق إنساني وحيواني معًا. لقد مثّل عالم الخبرة الباهرة الفاتن الذي يسمو على الحدود الوجودية. إله النبيذ والثمالة والخمر والمخدرات وطقوس الجنون والنشوة، وإله عالم المسرح الخيالي، وإله القناع والتمثيل والوهم؛ إنه الإله الذي تقلُب فنونه هوية أتباعه الفردية والسويّة، ليتحوَّلوا إلى كائناتٍ أخرى بإرادتهم.

الموسيقى والتراجيديا على حدٍّ سواء قديرتان على محق الروح الفردية ودوافع اليقظة، حيث تتسبب صورها المتصاعدة في انحسار الذات إلى نكران الذات التام، أما الروح فتنتقل باطنيًا إلى حالة متعالية من الطمأنينة أو الرعب، ففي التراجيديا الأثينية، كان أحد أسماء ديونيسيوس هو «آكل اللحم النيء». بروح الموسيقى وحسب، يمكننا أن ندرك النشوة التي ينطوي عليها إفناء الذات. يفكّر المرء برواد مهرجانات موسيقى الروك اليوم، أو في نيتشه عندما يصف شعوره حين سماعه موسيقى تريستان، وكأنه وضع أذنه على قلب الإرادة الكونية وأحس بشهوانية العالم الصاخبة وكأنه سيل جارف مدوٍ. يوضح نيتشه هذا الأمر لمعاصريه من خلال الإشارة إلى حدث قد يكون مألوفًا لهم، وهو طواف الحشود الهائجة المهووسة بالرقص والغناء في ألمانيا العصور الوسطى، والذين عُرفوا براقصي ومغني القديس يوحنا والقديس فيتوس [

وقد أشار لهم فاغنر في أوبرا «الأساتذة الموسيقيون» على نحو غير مباشر]، ورأى نيتشه فيهم الجوقة الباخوسية الاغريقية. بالثمالة والموسيقى وبالرقص والغناء يتلاشى الطابع الفردي، إنه الرد الديونيسيوسي على آلام الحياة.

من أين تولَّد تشاؤم الاغريق وإعجابهم بالأسطورة التراجيدية، إعجابهم بالمُرعب والشر والوحشي وبأكل اللحم النيء والطقوس الماجنة وبالمُبهم والمُدمر؟ إن نبوغ الأغريق، كما يخبرنا نيتشه، جاء من خلال معجزة الإرادة الهيلينية، المتمثلة باقتران العنصرين الأبولوني والديونيسيوسي. إن الكاتب المسرحي اليوناني، قبل سقراط، هو فنان أبولوني حالم وفنان ديونيسيوسي منتشٍ في ذات الوقت، ولا تتحقّق هذه الوحدة إلا من خلال الجوقة الموسيقية.

تمثل الجوقة الموسيقية أصل التراجيديا، وهي تمثيل للحالة الديونيسيوسية، وإن الدخول الافتتاحي للجوقة هو نفي للنزعة الطبيعية. لقد حذر نيتشه من ثقافة عصره قائلًا: «بتبجيلنا الحالي للطبيعي والواقعي، قد بلغنا القطب النقيض لكل ما هو مثالي، وانحدرنا إلى درك التماثيل الشمعية»[٢].

لكي نفهم موت التراجيديا الإغريقية، علينا أن نأخذ بعين الاعتبار الحِكم السقراطية التالية: إن المعرفة فضيلة، وإن كل الآثام تنشأ عن الجهل، ولذلك فإن الرجل السعيد هو الرجل الفاضل. تنطوي هذه الصيغة التفاؤلية والعقلانية الأساسية على علّة اندثار التراجيديا، ففي المرحلة التي تلت سقراط، توجَّب على بطل المسرحيات الفاضل أن يكون جدليًا، كما يجب أن يكون هناك رابط ضروري ومرئي بين الفضيلة والمعرفة وبين الإيمان والأخلاق. لقد حط سقراط من قدر العدالة السامية في مسرحيات إيسيخيلوس إلى «مبدأ تافه ورقيع للعدالة الشعرية».

إن سقراط هو «المعلّم الناشر للعلم» الذي لم تلتمع عيناه يومًا بوهج الجنون. لقد حفّز سقراط «الجشع العالمي اللامعقول للمعرفة، المرض الذي تفشى عبر العالم المتحضّر، والذي قدّم نفسه بصفته مهمة حقيقية لأي فرد

يتمتع بقدرات أعلى من الآخرين. لقد دفع [سقراط] العلم إلى أعالي البحار، ولهذا لم يعد من الممكن أن يقاد العلم مجددًا من ذلك العلو على نحو كامل... للمرة الأولى، وبفضل هذه الشبكة الفكرية العالمية المشتركة، انتشرت الأفكار عبر كل العالم، مع احتمالية أن تشمل حتى قوانين النظام الشمسي بأكمله»[٣].

تشبّث الناس بسرعة بالوهم السقراطي المتمثِّل في إمكانية متعة الفهم مداواة الجرح الأبدي للوجود. «أي فرد اختبر السعادة المكثفة للبصيرة السقراطية، وشعر بأن هذه السعادة تنتشر على شكل دوائر دائمة الاتساع، في الوقت الذي تحاول فيه أن تشمل عالم المظاهر بأكمله، سيشعر إلى الأبد أنه لا يمكن أن يكون هناك مهمازًا أكثر زيفًا من هذه السعادة لنخس الحياة»[٤].

بيد أن هذا الموقف هو بمثابة رفض لحقيقة أن العالم أكثر من مجرد نسخة طبق الأصل للظواهر. هناك أيضًا ما هو ديونيسيوسي، المتمثل في الإرادة. وعليه «في هذه الحقبة الثقافية السقراطية المتأخرة، بقي الإنسان نهمًا سرمديًا». مدفوعًا بالعقلانية، كان الإنسان في حقبة الكسندر «كائنًا كتبيًا ومُدققًا للنصوص القديمة، مُضحيًا بنعمة البصر على نحو بائس من أجل غبار الكتب والأخطاء الطباعية»[٥]

هل من المحتمل أن يكون هروبنا إلى العلم والدليل العلمي ضربًا من ضروب الخوف أو خلاصًا من التشاؤم، أم إنه الملاذ الماكر والأخير بمواجهة الحقيقة؟ وبصيغة أخلاقية نسأل، هل يمثّل هذا الهروب ضربًا من ضروب الجبن والزيف؟

ينبغي التصدّي لإشكالية العلم، لقد كان العلم مشكلة ما بعد سقراطية في اليونان، كما لاحظ نيتشه، بالإضافة إلى أن العلم قد بقي مشكلة ما بعد داروينية. محق العلم الأسطورة من خلال الإيمان بإمكانية تفسير الطبيعة وبأن المعرفة هي الترياق لجميع الأمراض. وكنتيجة «وقعنا في حب أشيب وعقيم للوجود».

لم يأتِ على الحضارة دهرًا كانت فيه أكثر هشاشة. عندما تبدأ الكارثة

الراقدة في رحم الثقافة النظرية تدريجيًا بإثارة رعب الإنسان المعاصر، فإن الخلاص الوحيد للثقافة سيكون في اقتحام البوابة المسحورة المؤدية إلى الجبل السحري الهيليني[٦].

لكن، من يحمل مفتاح الجبل السحري؟ من يمتلك القوة الكافية لاقتلاع البوابة؟ إنه شوبنهاور وفاغنر حتمًا. تقدم الأوبرا، باختصار، الشكل الفني التراجيدي الجديد الذي يدمج الكلمات بالموسيقى، وبهذا القِران توحد العنصرين الديونيسيوسي والأبولوني.

ترتكز موسيقى فاغنر المستقبلية على النهضة الحتمية للأسطورة التراجيدية [الألمانية بدلًا من الإغريقية] وعلى التنافر. تجبيره للتنافر الموسيقي يعكس ويعترف بالتنافر الحاصل في روح الإنسان، وبالتوتر الذي يجري في داخله بين الإرادة والتمثّل، وبين ما هو ديونيسيوسي وأبولوني.

يتساءل نيتشه، من بإمكانه أن يستمع إلى أوبرا فاغنر تريستان وإيزولده، «هذه الرقصة الرعوية الميتافيزيقية» من دون أن يلفظ أنفاسه متشنجًا، باترًا كل ما للروح من أجنحة؟ كيف بإمكانه أن لا «يهوي متهشمًا فور سماعها»؟[٧]، إنها تجربة ديونيسيوسية، في حال كانت هناك أوبرا ألمانية أخرى وألمانية بالكامل تشبهها من الناحية الأسطورية.

لا تزال الروح الألمانية نائمة في هوة سحيقة، يستحيل ولوج غورها حتى اللحظة، حالمة وغير معطوبة وذات عزيمة ديونيسيوسية، مثل فارس استغرق في سنة من النوم؛ ومن هذه الهوة يرتفع الصوت الديونيسيوسي ليبلغ مسامعنا.

في أوبرا تريستان وإيزولده [وهنا تصبح الأمور معقدة] يكون العنصر الديونيسيوسي، في الواقع، خادمًا للعنصر الأبولوني. إن الهدف الأعلى للتراجيديا هو عندما ينطق ديونيسيوس بكلمات أبولو، وأبولو، في النهاية، يتلفظ بكلمات ديونيسيوس. بهذه الطريقة، تحقق الأوبرا، وكل الفنون، هدفها التراجيدي الأسمى.

بعد اقتباسه المطول من مخطوطة أوبرا تريستان المكتوبة، يختتم نيتشه الكتاب بلقاء متخيل يجمع بين إنسان معاصر وآخر من اليونان القديمة، يذهبان معًا لحضور التراجيديا ليضحّيا بما يعبدان. في حين أن «مولد التراجيديا» هو كتاب عن الثقافة أكثر مما هو كتاب كيفية توجيه الناس لحيواتهم، إلا أنه يدخلنا في قلب أفكارٍ سيعود لها نيتشه فيما بعد مع تطور فلسفته. لقد عبر «مولد التراجيديا» عن مفهوم ازدواجية الطبيعة الإنسانية باستخدام العنصرين الأبولوني والديونيسيوسي، وعن الحاجة الجوهرية لمجابهة وهم اليقين الذي يوفّره العلم والذي سيشغل تفكيره لبقية حياته.

عندما أنهى المسودة الأولى من الكتاب، هرب من ذوبان ثلوج لوغانو إلى تريبشن، مفاجئًا كوزيما بظهوره على وجبة الإفطار في الثالث من نيسان. لاحظت أن نيتشه كان منهكًا، فأقنعته بالبقاء لخمسة أيام. قرأ مخطوطة كتابه بصوت عالٍ، وكان عنوانه وقتها «أصل التراجيديا الإغريقية وغايتها». كان فاغنر وكوزيما مبتهجين، لأن أغلب النص كان تجميعًا لأفكارهم التي تبادلوها على مدار العامين الماضيين. علاوة على ذلك، كيف لا يأسرهم كتاب يتضمن اقتراح تجديد الثقافة الوطنية عبر موسيقى فاغنر؟

على حين غرة، أصبح جميع من في تريبشن أما أبولونيًا أو ديونيسيوسيًا. صار لفاغنر اسمٌ محببٌ جديدٌ يطلقه على كوزيما: لقد أصبحت الآن «الروح الأبولونية» خاصته، وكان فاغنر يلعب دور ديونيسيوس، ولكن كتاب نيتشه أضاف فهمًا جديدًا للدور. لقد أدمج فاغنر المصطلحين الأبولوني والديونيسيوسي في خطاب كان يكتبه بعنوان «عن مصير الأوبرا»، وكان من المقرر أن يسلمه في غضون ثلاثة أسابيع إلى أكاديمية العلوم في برلين. بعد ذلك، كان لديه موعد لمحادثة خاصّة مع بسمارك. كان التوجيه الثقافي للرايخ الألماني يسير في طريقه قدمًا.

لكن بينما كان ثناء آل تريبشن مُغريًا بالنسبة لنيتشه، وجد في نفسه ميلًا بوركهارتيًا أوروبيًا أكثر مما هو فاغنري. فلم يستسغ التغاضي عن تهلل فاغنر بمعاناة باريس تحت الحصار البروسي. لقد وصف فاغنر باريس على أنها

«محظية العالم» وفرك يديه بمرح، مُعبِّرًا عن أنها حصلت أخيرًا على الجزاء الذي تستحق لكونها محظية طائشة، ولتفضيلها الأناقة على الجدية و«لثقافتها الفرنسية - اليهودية السطحية».

سجَّلت كوزيما في دفتر مذكراتها: «أراد ريتشارد أن يكاتب بسمارك مطالبًا إياه إسقاط باريس بالكامل»(٨)، بينما كانت لنيتشه وجهة نظر مختلفة، فقد تغلّبت عليه الشفقة حيال أبرياء باريس وسيطر عليه الرعب تجاه بلده للمعاناة التي سيتكبّدها جراء ضريبة الحرب.

بدت موسيقى تريبشن مزعجة لأذني نيتشه، إن لم تكن كريهة بكل ما للكلمة من معنى. كان الأطفال ينشدون كلمات أوبرا «مسيرة القيصر Kaisermarsch» الجذابة التي ألفها فاغنر على شرف الامبراطور الجديد، وكان السيد يقرأ بصوت عال قصيدته الجديدة في مديح الجيش البروسي الذي حاصر باريس. ما اعتبره نيتشه مدًّا بربريًا من المحو الثقافي، اعتبره فاغنر مدًّا من التجديد الثقافي. كانت وجهة نظر فاغنر هي إن لم تكن قادرًا على رسم لوحة مرة أخرى، فأنت لا تستحق امتلاكها. بصرف النظر عن قومية فاغنر القبيحة، كان الرجل صاحب موقف ديونيسيوسي فعلًا، ووجهة نظر أصيلة حقًّا، مقارنة بموقف نيتشه التأريخي وحسب، وميله الأبولوني للحفاظ على الصرح الثقافي فقط.

نعلم أنه بينما كان نيتشه في تريبشن، كان قد أدخل بعض التغييرات على مولد التراجيديا بناء على اقتراح فاغنر، ولكننا لا نعرف بالضبط ما كانت هذه التغييرات. بعد «إدخاله السعادة في قلوب الأطفال بواسطة أفعى خضراء»(٩)، غادر إلى بازل ليشغل نفسه بالنص أكثر، ولتغيير العنوان وكتابة إهداء طويل موجه لفاغنر.

في بازل، لم يكن في انتظاره سوى الأخبار السيئة؛ فقد شغل كرسي الفلسفة، الذي كان شاغرًا، مرشحٌ آخر مناسب لهذا المنصب. وأدرك نيتشه كم كان موقفه ساذجًا وغير لائق عندما قدم اقتراحاته الخاصة بشأن الكراسي التدريسية الموسيقية.

«أي حماقة ارتكبت! وكيف كنت واثقًا من كل مخططاتي! لا يمكنني

الاختباء خلف ستارة سريري التي أستخدمها عندما أمرض؛ من الجلي أنها فكرة خطرت لي بعد ليلة بلا نوم بسبب الحمّى، وفيها أعتقدت أنني قد وجدت علاجًا ناجعًا لاعتلالي وأعصابي»(١٠). بدلًا من ذلك، وجب أن يكون فردًا من عائلة الفيلولوجيين المحدودبة ظهورهم بحثًا عن التفصيلات النحوية في النصوص القديمة من دون مجابهة المشكلات القسرية التي تفرضها الحياة. لقد كانت واجباته الفيلولوجية بمثابة إلهاء فظيع يصرفه عن مهمته العظمى. يجب عليه أن يضع آماله في نشر الكتاب الذي سيمنحه الاعتراف بكونه فيلسوفًا، ومن ثم سيكون بمقدوره تغيير دفة مصيره.

في هذه الأثناء، قررت إدارة جامعة بازل بكل لطف تقليص محاضرات منهجه التدريسي نظرًا لقلقه ووضعه الصحي المضطرب. انتقلت شقيقته إليزابيث إلى بازل للاعتناء به. لم يكن من العسير على إليزابيث مغادرة ناومبورغ، حيث كانت تعيش تحت الإقامة الجبرية كعانس تقطن في منزل والدتها مكرِّسة وقتها للأعمال الصالحة.

مع انقضاء نيسان، بعث نيتشه الجزء الافتتاحي من مولد التراجيديا إلى ناشر في لايبزيغ، مرت شهورٌ من دون حتى إشعار بالاستلام، فتعزّزت شكوكه بقدراته التأليفية بغياب فاغنر وكوزيما. هجر آلهة تريبشن جزيرة المباركين، مسافرين بحثًا عبر ألمانيا عن مكان لبناء مسرحهم المهرجاني المخصص لعرض أوبرا «حلقة نيبلونغ»، وهذا يعني أنه لن تكون هناك رحلة إلى تريبشن لتحصيل الدعم الثقافي. علاوة على ذلك، حتى وإن عثر على فاغنر، فريتشارد لن يكون في موضع يسمح له بتقديم الدعم لأي شخص آخر، فهو أيضًا كان في حالة من التوتر وعدم الاستقرار. فعلى الرغم من جهوده الشاقة التي بذلها لمنع الملك، أنجز الملك لودفيغ تحضيرًا كارثيًا لعرض الراين الذهبي، الأوبرا الأولى من حلقة نيبلونغ. نفد صبر الملك كثيرًا لكي يرى الرباعية معروضة على المسرح، ولهذا فقد دعم إخراجًا مسرحيًا كان سابقًا لأوانه ومُعدًا على نحو سيئ. لقد صدقت أسوأ توقّعات فاغنر، فقد شملت تداعيات فشل الإنتاج غير المناسب خسارة علاقته المباشرة مع

الملك، ولم يعد يعرف ما إذا كان الملك سيواصل تمويله المادي لمشروع أوبرا الحلقة. هذا ما جعل من الأمر مثبطًا للعزيمة إلى حدٍّ استثنائيٍّ. في خلال رحلتهما عبر ألمانيا، حدّد فاغنر وكوزيما بايرويت لتكون المكان الأمثل لبناء دار الأوبرا الخاصة بهما، لو أنهما يملكان المال فقط.

تقع بلدة بايرويت، متوسطة الحجم، شمال بافاريا، وكانت تمر عبرها سكة حديدية وهذا يعني توصيل الجمهور حتى باب الأوبرا. كانت خلفية المكان ألمانية بشكل خرافي فائق الجمال، وكان المكان الذي اختاراه يقع على أعلى نقطة من سهل خصب بالمحاصيل والماشية. إن قصرًا تأريخيًا باروكيًا في فسحة خضراء ذات مناظر طبيعية خلّابة مثّلَ انتصارًا للعقل الأبولوني، بينما ضجَ التل المعشوشب الذي يهيمن على السهل ليتوج بالحضور الديونيسيوسي المتمثّل بدار أوبرا.

في أسبوع العنصرة، عاد فاغنر وكوزيما إلى تريبشن متخمين بالأمل، واستدعيا نيتشه لينضم إليهما. كان اليومُ مشحونًا عاطفيًا بالنسبة لثلاثتهم، ولا يمكن أن يمر على الاطلاق من دون استحضار الذكرى المقدّسة لولادة سيغفريد عام ١٨٦٩، المناسبة التي أوثقت روابط هذه الصداقة الثلاثية الصوفية.

الآن، وبعد مرور سنتين فقط، تلوح في الأفق خسارة ما. إذا نجح المشروع الثقافي، وهذا ما يأمله نيتشه، فإن فاغنر وكوزيما سيغادران تريبشن إلى الأبد راحلين إلى بايرويت. وهذا يعني أن أيامه على جزيرة المباركين كانت معدودة. متى حلّ اليوم الذي حتم على «رقص النجوم» المتلألئة على سطح تلك البحيرة أن ينقضي تاركًا صدى ذكرياتٍ سعيدةٍ فحسب؟ تفاقم ضعفه العاطفي وشعوره بعدم الاستقرار بعد فشل الناشر في تقرير ما إذا سينشر مولد التراجيديا أم لا. في تموز، لم يعد قادرًا على تحمّل التوتّر فطلب استرجاع مخطوطة الكتاب، ودون أن يخبر السيد، أرسلها إلى ناشر فاغنر «إيرنست فيلهلم فريتز».

مع مطلع أيلول، كتبت كوزيما لنيتشه تطلب منه أن يوصي بأحد ما لمرافقة ابن الأميرة هاتزفلت - تراشينبرغ في سفرة فاخرة جدًا إلى إيطاليا واليونان والشرق وأمريكا. كان هناك الكثير من الأسباب التي تدفع نيتشه للتطوع في هذه الرحلة السياحية، التي ستكون فرصة للخلاص من صيف طويل مليء بالتوتر، والتي قد تساعد على تحسين وضعه الصحي [خاصة وأن اطباءه دائمًا ما نصحوه بالبحث عن مناخ أكثر دفئًا]، وستكون بمثابة عملية هروب متقنة من سجن التدريس الفيلولوجي. ستمكّنه أخيرًا من رؤية العالم القديم وروما بعينيه مباشرة، وهذا ما أثار حماسته لدرجة أنه تحدّث مع زملائه الجامعيين حول المشروع قبل أي قرار نهائي في الذهاب من عدمه. بدا أن هذا ما أرادته كوزيما أيضًا، وإلا لماذا ذكرت موضوع الرحلة له؟ لكنه أخطأ في قراءة موقفها للغاية، فكوزيما لم تكن من صنف النساء اللواتي يلمحن بفكرةٍ ما عندما يكنّ في موقع إصدار الأوامر. صُدمت كوزيما بفكرة تخليه عن عمله المحترم كأستاذ للفيلولوجيا ليتقمص دور دليل الأمير السياحي التافه. عندما أبلغته كوزيما بحقيقة الأمر، غمره شعور الخجل لظهوره بمظهر المغفل في عينيها وفي أعين زملائه الجامعيين. لحسن الحظ، رأت الجامعة موقف نيتشه من جانب آخر؛ فعندما أعلن عن نيته بالبقاء، رفعوا راتبه بمبلغ كبير قدره ٥٠٠ فرنك، ليصبح راتبه الكلي ٣٥٠٠ فرنك.

في تشرين الأول، احتفل بعيد ميلاده السابع والعشرين. بعد شهر، كتب نيتشه خطابًا محمومًا لكارل فون غيرسدورف، صديقه القديم من بفورتا، يخبره فيه أن «فريتز الرائع قد قبل كتابي ووعد بنشره خلال فترة أعياد الميلاد». أخبر نيتشه فون غيرسدورف بابتهاج أنه «قد تم الانتهاء من التصميم، وسيكون شكله على غرار كتاب فاغنر مشروع الأوبرا - إبتهج معي! هذا يعني أنه سيكون هناك مكان رائع لزخرفة لطيفة: أخبر صديقك الفنان بهذا، وأوصل تحياتي القلبية له. إحصل على أحد كتب فاغنر وافتح صفحة العنوان واحسب الحجم الذي سنستخدمه:

مولد التراجيديا

من روح الموسيقى

تأليف

الدكتور فريدريك نيتشه

أستاذ الفيلولوجيا الكلاسيكية

جامعة لايبزيغ

كلّي ثقة في هذه اللحظة أن الكتاب سيحقّق مبيعات هائلة، وبإمكان الرجل النبيل الذي سيُصمم زخرفة الكتاب أن يستعد لكي ينال قليلًا من الخلود.

في جعبتي المزيد من الأخبار. تخيّل يا صديقي العزيز، كم كانت غريبة تلك الأيام الدافئة التي جُمع فيها شملنا والتي تزامنت مع عطلتي لتُثمر في داخلي مؤلَّفين موسيقيين طويلين مرة واحدة، يحاكي كل شيء فيهما خريفًا جميلًا ودافئًا بالشمس. ولأنهما يرتبطان بذكرى فتية، أطلقت على القطعة الموسيقية «أصداء عشية رأس السنة الجديدة: مع أنشودة دينية ورقصة فلاح وجرس منتصف الليل». إنه عنوان مُفرح... ستُقدم هذه الموسيقى في عيد الميلاد إلى السيدة حرم فاغنر كمفاجأة... لم أؤلف أي شيء لمدة ست سنوات، ولكن هذا الخريف حفّزني مجددًا على التأليف. إذا عُزفت الموسيقى كما ينبغي، فإن مُدتها ستكون عشرين دقيقة»[11].

لم يدم نشاطه المتّقد طويلًا، فقد أخفق «الفنان الذي كان سيُخلد» في زخرفة الكتاب وكان على نيتشه أن يجد فنانًا آخر. ضبط فريتز الطيب خط الكتاب ليكون أصغر من خط كتاب فاغنر «غاية الأوبرا»، وعليه بدا الكتاب أنحف وأقل أهمية مما كان يأمل نيتشه، فبلغ عدد صفحاته مائة وأربعين صفحة، وكأنه كرّاسة، إضافة إلى غضب فاغنر منه لأنه ذهب إلى ناشره من دون علمه المسبق. لقد بدا الأمر وكأنهما كانا متواطئين، كما لو أن نيتشه كان مجرَّد مروِّج وديع لفاغنر.

رفض نيتشه دعوة من آل تريبشن لقضاء عيد الميلاد معهم، عازيًا سبب عدم قدومه إلى أنه بحاجة الى وقت للتفكير في سلسلة جديدة من المحاضرات عن مستقبل المؤسسات التعليمية، رغم أنه كان باستطاعته أن ينجز هذه المحاضرات في غرفة التفكير خاصته في تريبشن. في الواقع، كما اعترف لإروين رود، كان بحاجة للوقت لكي يستجمع قواه لاستقبال رأي فاغنر بالقطعة الموسيقية التي أرسلها له، «أنا متحمس لما سأسمعه عن عملي الموسيقي»[١٢].

رأى نيتشه نفسه مؤلِّفًا موسيقيًا موهوبًا نوعًا ما وكان يشع حماسًا في ترقب إعجاب فاغنر. جلس أخيرًا هانز ريختر وكوزيما في ثنائي لعزف القطعة لفاغنر المستمع، كان السيد يتململ بعصبية خلال أداء الموسيقى الذي استغرق عشرين دقيقة. كانت القطعة الموسيقية أنموذجًا لمؤلفات نيتشه في البيانو في هذه الفترة، فقد كانت لحنًا خليطًا من موسيقى باخ وشوبرت وليزت وفاغنر. كانت مؤلفاته صغيرة وعاطفية جدًا وينقصها التطوّر. لطالما أثارت مؤلفاته الموسيقية فكرة أن نيتشه كان سيحقق نجاحًا لو عمل كملحن لموسيقى الأفلام الصامتة في السينما لو بقي على قيد الحياة. على الرغم من ضحك فاغنر وكوزيما سرًا، فقد أخفيا رأييهما في هذه القطعة الموسيقية. شكرته على «الرسالة الجميلة» المصاحبة للقطعة الموسيقية، ولكنها لم تأتِ على ذكر الموسيقى أبدًا.

وحيدًا في بازل خلال عيد الميلاد، تلقى نيتشه مساعدة من صباغ مجهول في فتح صندوق كبير وصل من والدته بعد أن أصبحت ثريةً إلى حدٍّ ما، فقد انتفعت من الميراث الذي خلّفه موت عماتها، مما زودها بالموارد المالية لشراء منزل ناومبورغ كاملًا، وتأجير بعض أقسامه للنزلاء.

في هذا الميلاد، وبروح تبشيرية، قررت فرانشيسكا أن ترسل إلى ولدها المتذبذب دينيًا لوحة إيطالية زيتية كبيرة للسيدة العذراء. خلال عزلة الأيام الطويلة لأعياد الميلاد، حظي نيتشه بمتّسع من الوقت لتأليف رسالة شكر تتضمّن وصفًا لكيفية تنسيقه لغرفة معيشته بطريقة تقليدية جدًا، فيكتب:

«ستكون لوحة السيدة العذراء فوق الأريكة بطبيعة الحال، وفوق البيانو ستكون صورة هولباين، إيراسيموس الكبير... والأب ريتشل وشوبنهاور أعلى طاولة الكتب بجانب الموقد. على أي حال... أشكركِ من القلب... يبدو كما لو أن هذه اللوحة تجرني إجباريًا إلى إيطاليا، وعلى ما أعتقد أنكِ أرسلتها لتغريني بالذهاب إلى هناك. إن الجواب الوحيد الذي أستطيع تقديمه لهذا التأثير الأبولوني ينبع من تأثيري الديونيسيوسي - عن طريق موسيقى عشية رأس السنة الجديدة- وبعد ذلك، من خلال التأثير المزدوج للأبولوني والديونيسيوسي لكتابي، الذي سيصدر في رأس السنة».

يتابع في الرسالة شكرها على المشط الجيد وفرشاة الشعر وفرشاة الملابس «باستثناء أنها ناعمة أيضًا نوعًا ما»، وعلى الجوارب اللطيفة والكمية الكبيرة من الزنجبيل اللذيذ المغلف بطريقة مبهرجة[١٣]. في الوقت نفسه كتب رسالة أخرى ذات نبرة عدائية مرحة لصديق طفولته غوستاف كروغ، يخبره فيها أنه يتوقّع صدور مولد التراجيديا في رأس السنة الجديدة ويحذّره منه، بنفس النبرة واللغة التي استخدمها عندما كان بعمر السابعة عشر، عندما أرسل «يوفيريان» إلى أحد أصدقائه مع تحذيرٍ يقول إنها رواية « بذيئة ومهينة. اقرأها سرًّا، واقفل عليها خزانة غرفتك»[١٤].

لم يقرأ أحد رسائله، وقت عيد الميلاد، إلا وشعر بالشفقة على حاله بسبب عدم اليقين الذي يتلبّسه. لم يبيِّن أحد موقفه الصريح. كان الجميع يتصنع، بمن فيهم هو نفسه، مرتدين أقنعة يظهرون وجهًا لأحدهم ووجهًا ثانيًا لأحد آخر. لقد نسي مؤقتًا موعظة بيندار التوجيهية التي تبناها أيام دراسته «اغدُ ما أنت عليه».

صدر الكتاب أخيرًا من الناشر في الثاني من كانون الثاني عام ١٨٧٢، حيث أصبح قادرًا على إرسال نسخة إلى فاغنر مرفقة برسالة تشرح تأخر صدور الكتاب عازيًا السبب إلى «قوى القدر التي لا يمكن تثبيتها بأي آصرة أبدية...».

«ستجد في كل صفحة أنني أحاول شكرك على كل شيء قدّمته لي؛ وحده الشك من يتغلب عليّ عندما أفكر فيما إذا فهمتُ بشكل صحيح ما أهديتَه لي.

مع شكري الخالص لمحبتك، أنا، كما كنت وسأكون،

المخلص لك دومًا، فريدريك نيتشه».

كانت واحدة من أكثر الرسائل الحنونة والمكشوفة والواضحة التي كتبها في حياته. لحسن الحظ، عند استلام الكتاب، كتب فاغنر ردًا على رسالته:

«صديقي العزيز!

لم اقرأ شيئًا أكثر جمالًا من كتابك. كل شيء فيه بديع!.. أخبرت كوزيما أنك الثاني في قلبي بعدها، وبعدكما بمسافة كبيرة يأتي لينباخ، الذي رسم لي لوحة نابضة بالحياة على نحو مدهش! وداعًا! تعال لزيارتنا في أقرب فرصة، وبعد ذلك سيحل المرح الديونيسيوسي!».

ردّت كوزيما برسالة وجدانية تشيد بالكتاب من دون تحفظ. لقد وجدت نصَّ الكتاب عميقًا وشاعريًا وجميلًا، وأخبرته أن النص قدّم لها كل الأجوبة لتساؤلات حياتها الداخلية. كان الرأي الذي أعربت عنه كوزيما صادق المشاعر، ففي مذكراتها الخاصة وصفت الكتاب بأنه «باهر فعلًا» وذكرت كيف أنها وفاغنر كانا قد مزّقا الكتاب إلى جزأين تقريبًا بسبب تنافسهما على امتلاكه.

بعث نيتشه بنسخة إلى ليزت، الذي رد بطريقة لطيفة قائلًا إنه من بين كتب عديدة أخرى لم يجد تعريفًا للفن أفضل من هذا الذي يقدمه كتابه. تكدست خطابات المديح من السيدات والسادة النبلاء، من البارونات رجالًا ونساءً، الذين لم يفهموا الكتاب بالضرورة ولكنهم كتبوا تشكيلة من الأقوال المبتذلة لإظهار أنهم كانوا في معسكر فاغنر والملك لودفيغ ضد العالم. بيد أنه لم يظهر وقتها أي تعليق عن الكتاب من فيلسوف أو فيلولوجي مختص ولم تنشر أي مراجعة في الصحافة. لقد انتظر متوترًا، فقد أطبق على الكتاب صمت ثقيل وقلق، ما دفعه للقول «ينتابني شعور من ارتكب جريمة».

على أية حال، عانى نيتشه من تشتت ذهني واضح في مهمة إلقاء المحاضرات عن التعليم والتي منعته عملية الإعداد لها عن قضاء عطلة أعياد الميلاد في تريبشن. كان لجامعة بازل تقليدًا شهيرًا في تقديم محاضرات عامة، ففي كل فصل شتوي كان هناك برنامج يتكوّن من ثلاثين أو أربعين محاضرة مفتوحة للجمهور من كل الوافدين. جاء حوالى ثلاثمائة شخص للإصغاء لمحاضرة نيتشه الأولى في السادس عشر من كانون الثاني، وقد استمعوا باستحسان كبير وعادوا للمزيد من المحاضرات.

لقد كان موضوع سلسلة محاضرات «حول مستقبل مؤسساتنا التعليمية» هو الوجهة الذي يجب أن يسلكها حقل التعليم الحيوي في الرايخ الذي تأسس حديثًا. جيَّر نيشته معظم مواضيع «مولد التراجيديا» في محاضراته من جديد، وقد اتبع نقده للثقافة العقيمة للعصر باقتراحه استبدال هذه الثقافة بإعادة إحياء «الروح الجرمانية» للماضي.

شكّل نيتشه محاضراته على شاكلة المحاورات الافلاطونية التي تدور بين تلميذ وفيلسوف، وقد عمل على جعلها وثيقة الصلة بالجمهور عبر صياغة وجهات نظر سياسية يتداولونها في الحياة اليومية ومجادلًا النظرية الماركسية ضد عودة الارستقراطية المتطرفة لليونان القديمة.

يجادل الطالب، في محاضرات نيتشه، لغرض التوسع الأكبر الممكن للتعليم، ويجب على الشبكة التعليمية أن تغطي أوسع نطاق ممكن ويجب أن تكون المنفعة هي غاية وهدف التعليم، إن تمكين الانتشار التعليمي الأكبر من شأنه أن يدر بالمكاسب المالية لتوفّر السعادة للجميع.

ويجادل الفيلسوف لصالح إحياء التعليم من أجل التعليم ولغرض التمسّك بأسمى القيم الأخلاقية، فالتعليم الموسع ينتج تعليمًا ضعيفًا. إن معضلة الدولة تكمن في أن الرابط بين الذكاء والتملك يتطلب تعليمًا سريعًا مما قد ينتج كائنًا كاسبًا للمال بأسرع طريقة ممكنة. لا يُسمح للإنسان إلا بالحد الأدنى من الثقافة، الحد الذي يتوافق مع الفوائد الربحية.

لقد قال الفيلسوف ما لا يقال: إن الدولة لا تريد أفرادًا بارعين بل تروسٌ في الآلة، مجموعة من المتخصصين الذين تلقوا من التعليم ما يكفي وحسب، ليشاركوا بطريقة غير نقدية وتذللية في طرح النتيجة التي يصعب تغييرها والمتمثلة بالحفاظ على الوسطية الفكرية. نسمع صدى المحاورات التي صاحبت تجول نيتشه مع بوركهارت في خطبته الصادحة ضد اقتحام الصحيفة لمكمن الثقافة، وفي سخطه من حقيقة أنه حتى أعظم باحث قد يغني نفسه بالاغتراف من الصحف، قائلًا: «إن الصحيفة طبقة غروية من نقل المعلومات التي تعمل على لصق التشققات بين كل أشكال الحياة وكل الطبقات وكل الفنون وكل العلوم وبين ما هو حاسم وموثوق به، ولكأنها سلطة»[١٥].

كان من المقرر أن يلقي ست محاضرات، ولكن مع حلول الوقت الذي ألقى فيه محاضرته الخامسة، تدهورت حالته الصحية. وضعه الصحي السيئ بالإضافة إلى عدم قدرته على إنهاء جدليته عبر الانتقال في المحاضرة الأخيرة من النظرية إلى اقتراحات متماسكة للإصلاح التعليمي، لم يمكِّناه من إنهاء سلسلة المحاضرات أبدًا. لقد سجّلت المحاضرات الخمس شهرةً وحضورًا جيدين، فتلقى عرضًا لتسنّم كرسي الفيلولوجيا الكلاسيكية في مدينة غرايفسفالد الشمالية، بيد أن آخر شيء أراده هو كرسي فيلولوجيا آخر، فما أراده هو الانتقال إلى كرسي الفلسفة.

أساء طلاب بازل تأويل رفض نيتشه لكرسي غرايفسفالد، وفكروا في أن موقفه يدل على ولاء نيتشه الأبدي لبازل، فزاروه مع اقتراح لإقامة موكب على شرفه، لكنه رفض الاقتراح. بعد بضعة أيام، رفعت جامعة بازل راتبه إلى أربعة آلاف فرنك سويسري تقديرًا لخدماته المتميزة.

بعد ثمانية أيام من إلقاء نيتشه محاضرته الأولى، دعاه فاغنر لحل محنة شديدة. تساءل عن الكيفية التي تمكنه من انتشال كتاب نيتشه من براثن الصمت المطبق[١٦]. بيد أنه في أعماقه، كانت مخاوف فاغنر تتعلق به شخصيًا وبعمل حياته الفنية. لقد بدا الأمر وكأن حلمه في النهاية ينهار مرة أخرى.

في البداية، عرض عليه مجلس مدينة بايرويت الموقع الذي سيبنى دار الأوبرا عليه، تبين فيما بعد أن المجلس لا يملك الأرض، وأن مالكها الأصلي رفض بيعها. بعد ذلك، راحت الأمور تتدهور من سيئ إلى أسوأ، فقد دقق سكرتير الملك لودفيغ المبالغ المالية المصروفة على المشروع؛ كان إخفاق فاغنر في الإدارة المالية أسوأ من إخفاقه في الغناء المتناغم، وبطريقة ما ارتفعت تكاليف البناء على نحو مثير للقلق من ثلاثمائة ألف تالر إلى تسعمائة ألف.

فتقرر جمع الأموال المخصصة لبناء دار الأوبرا عبر تشكيل جمعيات تدعم فاغنر، يدفع المعجبون المتحمسون أينما وجدوا رسوم الاشتراك فيها. لقد تشكّلت العديد من الجمعيات عبر ألمانيا وخارجها، إلى الحد الذي بلغت فيه مصر، حيث انتشى الخديوي بفكرة الاندماج مع أوروبا عبر الاشتراك في مثل هذه الجمعيات، خاصة وأنه قد دعا مؤخرًا هنريك آبسن مع آخرين لافتتاح قناة السويس.

تولّى مسؤولية تنسيق أموال الجمعيات الفاغنرية المتعددة شخصان من كبار الشخصيات البارزة وهما البارون لون من فايمار والبارون كوهن من ديساو، ولكنهما تمكّنا من جمع ما بين أثنا عشر ألفًا وعشرين ألفًا على الأقل، هذا ما قد قالاه لبارونات، لكن فاغنر كان مقتنعًا أن البارون كوهن، والذي أطلق عليه لقب «يهودي البلاط»، كان يخرب المشروع لأسباب خسيسة وساميّة.

كان فاغنر في وضع يائس، لقد كان على وشك التخلّي عن المشروع بأكمله، لم يستطع النوم بينما عانى جهازه الهضمي من اضطراباتٍ عديدة. لقد كان مسكونًا بفكرة أن الملك لودفيغ سيموت أو يصاب بالجنون، وبهذا ستنضب الاموال كليًا ومعه سيموت مشروع الأوبرا الرباعية «حلقة نيبلونغ» ومشروع إحياء الثقافة الألمانية. استدعى فاغنر نيتشه لمرافقته في محطته الأولى في جولته الأخيرة اليائسة لجمع التبرعات.

كانت رؤية السيد في مثل هذا الحالة التعيسة سببًا دفع نيتشه للتفكير

بتهورٍ في التخلي عن كل شيء في سبيل التجول عبر أرض ألمانيا الأم، مُلقيًا المحاضرات لجمع التبرعات، ولكن فاغنر نصحه بالعدول عن هذا القرار. كانت مهمة نيتشه هي البقاء في بازل وتعزيز سمعته عبر إنهاء سلسلة المحاضرات، وكان مطمح هذه المحاضرات الحقيقي والمهم هو إحداث تغيير في سياسة بسمارك التعليمية. وعلى خلفية محاضراته الناجحة التي خطط لنشرها في كتاب، كان نيتشه يعدّ سرًا لإرسال مذكرة إلى بسمارك، مُشيرًا إلى تدخلات المستشار القليلة في مجال التعليم ومُقترحًا إصلاحه كنموذجٍ للتجديد الثقافي، و«ليظهر كم هو من الشائن أن تضيع فرصة عظيمة لتأسيسٍ مؤسسة ألمانية حقيقية من شأنها أن تحيي الروح الألمانية...»[١٧]، لكن ما حصل هو أن الكتاب لم يُنشر مطلقًا ولم تُرسل المذكرة مطلقًا. لقد كان مشروعًا قائمًا على تصور خاطئ منذ البداية، فلم يرد بسمارك أبدًا بطريقة إيجابية على صوتٍ رُفع لتوبيخه.

واصل فاغنر طريقه إلى برلين، تاركًا كوزيما وحدها تتسلّى بحوض الكافيار الذي أرسله من لايبزيغ [١٨] وبكتاب نيتشه. لو أن نيتشه تابع اندفاعه المثالي في التخلّي عن الجامعة والطواف في الرايخ من أجل فاغنر، لوجد نفسه مفصولًا عن العمل في غضون شهر. حققت رحلة فاغنر نجاحًا ماليًا ساحقًا، فقد خلق النصر الألماني على فرنسا مزاجًا قوميًا جعلت منه ومن برنامجه جذّابًا للغاية. وعرضت مدينة بايرويت قطعة أرض أفضل من السابقة، بالإضافة إلى مساحة كبيرة قريبة من دار الأوبرا المزمع بنائها، حيث يمكنه وكوزيما بناء فيلا رائعة لتكون منزلهما.

في أواخر آذار، وعند ذوبان الثلوج، عاد فاغنر من جولته المكللة بالنصر ودعا نيتشه لقضاء عطلة عيد الفصح معهم في تريبشن، ومرة أخرى كان نيتشه الضيف الوحيد. وصلهم في يوم خميس العهد(*) مع مبلغ من المال

(*) يومٌ مقدس في الديانة المسيحية يسبق عيد الفصح، وهو ذكرى العشاء الاخير ليسوع المسيح مع تلامذته. (المترجم)

قدره مائة فرنك يثقل جيوبه. لقد كانت هذه النقود خيانةً لكوزيما وفاغنر كخيانة يهوذا الخائن، فقد كانت من فون بولو، خبير التلاعب العاطفي الماكر الذي لن يتوانى أبدًا عن إيجاد طرق متقنة لتعذيب كوزيما وأولئك الذي يحبونها. لقد زار فون بولو نيتشه في بازل قبل حلول عيد الفصح مباشرة، فأثنى على مولد التراجيديا ورفع من شأنه إلى السماء، قبل أن يكلّفه بالمهمة المحرجة بإيصال النقود كهدية الفصح إلى ابنته دانيلا، التي كانت تعيش في تريبشن مع كوزيما وفاغنر.

كان طقس عيد الفصح متقلّبًا ومضطربًا مثل عواطفهم تمامًا، يقفون على شفا حفرة من الانفصال، مغمورين بالندم المتواري خلف الكلمات. كانوا في طور مغادرتهم لجزيرة المباركين. إذا كانت مغادرة تريبشن لا تدل فعليًا على ما يسميه ووتان النهاية أو غسق الآلهة، فلا شك في أنها تمثل نهاية فترة ساحرة من الإبداع المتبادل للوحي الإلهي الذي شهد ولادة طفل وأربعة أعمال فنية: سيغفريد وغسق الآلهة وأنشودة سيغفريد ومولد التراجيديا. لقد عرفوا جميعًا أنهم يشارفون على ختام أنشودتهم.

اصطحب فاغنر نيتشه في نزهة عبر مناظر تريبشن الطبيعية الخلابة، والتي قد تكون النزهة الأخيرة، وفي المساء قرأ نيتشه لهم محاضرته الخامسة. في اليوم التالي وخلال عمل فاغنر، انطلق كلٌّ من نيتشه وكوزيما في نزهة على طول طريق روبرس. في مثل هذه النزهات، اعتادت كوزيما على ارتداء الكشمير الوردي المزين بأناقة بالدانتيل وقبعة توسكانية مزينة بالزهور الوردية لحماية بشرتها الصافية. يعدو خلفها الكلب الضخم «روس» بسواده الفحمي، روس الموقر والثقيل والذي يذكرنا حتمًا بالروح المألوفة لأسطورة فاوست. وبينما اقتفيا أثر الدرب على شاطئ البحيرة الفضية، تكلما عن مأساة حياة الإنسان واليونانيين والألمانيين، وعن الخطط والتطلعات. أشارت الريح الباردة إلى قدوم عاصفة مفاجئة كنستهم إلى البيت، حيث قرأوا حكايات خرافية قرب الموقد.

في عيد الفصح، ساعد نيتشه كوزيما على إخفاء البيض في الحديقة

من أجل أن يجده الأطفال. بدا الأطفال بثيابهم البالية وكأنهم فراخ الإوز تتراكض على الخط الساحلي، باحثين عن البيض المخبأ في مكان ما ومطلقين صيحات صغيرة عند عثورهم عليه. يهز الأطفال البيض المزيَّن بأصابع متشابكة ثم يعيدونه إلى كوزيما.

في فترة ما بعد الظهيرة، شكل كُلٌّ من نيتشه وكوزيما ثنائيًا عند عزفهما على البيانو، بينما ارتسم قوس قزح على صفحة السماء. بصرف النظر عن أن قوس قزح يعتبر علامة كونية على الأمل والطموح المتوهج، فقد كان ذا دلالة أكثر عمقًا على الصعيد الشخصي لكليهما، ففي حلقة نيبلونغ الأوبرالية يستخدم فاغنر قوس قزح كجسر يربط بين عالم البشر/ الفناء ومملكة الآلهة/ الخلود، ولا يمكن الانتقال من عالم إلى آخر إلا بعبور جسر قوس قزح.

في وقت الغداء، تحدّث الثلاثة عن اتصال مختلف بين الآلهة والبشر: التسلية العصرية المستمدة من الإيمان بالروحانية. كانت كوزيما سرًا مؤمنة جدًا بما هو غير طبيعي. تكتب في مذكراتها أنها كانت تسمع طرقًا وصريرًا في البيت القديم عندما تستلقي في فراشها، مؤولة هذه الأصوات على أنها إشارات من عالم الأرواح، رسائل من موتى عرفتهم يومًا ما أو من كلاب نافقة أحبتها ذات يوم. بيد أنها في حضور فاغنر كانت تتظاهر بأنها ذات نزعة شكوكية قوية لكي لا تبدو حمقاء في عينيه. لم يكن فاغنر نفسه مهتمًا بالاشارات المرسلة عبر تمدد وانقباض قطع الخشب، ولكنه أولى عنايته بالعلامات العظيمة التي ترسلها الآلهة لتجذب انتباهه على شكل قوس قزح أو صاعقة رعدية أو في نضال القمر عند بحثه عن الصفاء في سماء ملبدة بالغيوم، أو حتى في الأضواء الشمالية التي تنشر ستائرها المضيئة فوق سماء تريبشن. على الغداء، أعطاهم فاغنر دحضًا عقلانيًا للتجلّيات الروحانية ووافقته كوزيما على أنها مجرد خدع ذهنية. على الرغم من ذلك، مع حلول المساء جلس الجميع على طاولة استحضار الارواح، وكان ذلك إخفاقًا جليًا لبراهينهم العقلانية.

في صبيحة يوم الاثنين، عاد نيتشه إلى مشاغله الجامعية. وبعد أن فارقهما

البروفيسور، تعكر مزاج كُلٍّ من فاغنر وكوزيما ومرضا وتكآبا. حتى فاغنر الذي لا يمكن كبحه عبّر عن نفسه بقبضة من الاشمئزاز والحزن والقلق والخوف من أن لا يكون كفؤًا للمهمة الهائلة المقبلة، أما كوزيما فقد انزوت في فراشها.

قد تكون سلسلة من الالتباسات، أو ربما القدر نفسه هو من دفع نيتشه للعودة إلى تريبشن لتوديع **السيد**، بعد ثلاثة أيام من مغادرته نهائيًا إلى بايرويت. وجد كوزيما في خضم رزمها لأغراض المنزل، المنزل الذي لم يعد المكان الذي غيّر تصوره بالكامل عن الكيفية التي يمكن أن تُعاش بها الحياة. فقدت الغرف سحرها الثقيل، وهواءها الذي كان ذات مرة مُخدرًا أصبح منعشًا بنسيم جبال الألب وخفيفًا قادمًا من مياه البحيرة. لقد تحول الهواء المحمر لعالمهم الخاص إلى هواء وضاء بأشعة الشمس. الفضاءات الفضفاضة، التي كانت مختفية بالضوء الخافت المتسلل عبر الشاش الزهري اللون، فقدت غموضها الناعم وأصبحت قاسيةً مصقولةً وجامدة... أما النوافذ التي ألهمت الناظر بهجة الخيال بستائر محزومة وملفوفة ومثبتة بأيدي ملائكة مُذهبة سمينة، مزينة بالزهور الحريرية وردية اللون والناعمة، فقد نُزعت عنها ستائرها عائدة إلى مجرد مساحات زجاجية مستطيلة مسطحة لا أكثر. لقد حلت صناديق لا تضمر أي غموض على الاطلاق محل الرؤيا التراجيدية لفاغنر التي حوّلت كل تصاميم المنزل الداخلية إلى خشبة مسرح، بينما اكتست الجدران المغطاة بالمخمل البنفسجي والجلد المدموغ بأشكال ملونة بلون الفئران حيث عُلقت أيقونات إيمانهما ذات يوم، وتركت أكاليل الغار أشكالًا ضبابية على هيئة الحرف U على الجدران. كل ما تبقى هي المستطيلات الفارغة التي كانت تحيط بالصور التذكارية للدروع الفالكيرية وصورة للملك لودفيغ يبدو فيها يافعًا ونبيلًا، والتنانين ذات القشور اللولبية، ولوحة الرسّام بونافينتورا جينيلي «ديونيسيوس متباريًا مع الفكر الأبولوني» التي تأملها نيتشه كثيرًا خلال الوقت الذي كانت فيه فكرة مولد التراجيديا تتبلور في عقله.

لم يستطع نيتشه التغلب على مشاعره، فهرب إلى البيانو الكبير، تمامًا كما حصل في المناسبة العارمة عندما وجد نفسه وقد نال منه الرعب والكرب في بيت الدعارة. عزف بطريقة مرتجلة على مفاتيح البيانو، بينما كانت كوزيما تتنقل بهدوء مهيب عبر الغرف، مشرفة على الخدم أثناء تأديتهم للمهمة الكئيبة المتمثلة برزم كنوز تريبشن. مُرتجلًا، سكب نيتشه في عزفه محبته الشجية لها ولزوجها، وللبهاء الذي خلقاه معًا والذي شاركاه إياه على مدى ثلاث سنوات، ومن أجل الذكريات البهيجة وللتوق الأبدي للمستقبل المديد.

لم تكن خسارته تامة بعد ولكن لا شيء يمكن أن يقف مانعًا عن حلولها، قائلًا: «لقد شعرت وكأنني أمشي بين أطلال المستقبل». بينما تكلّمت كوزيما عن أن «اللحظات الأبدية مضت الآن». لقد ذرف جميع الخدم الدموع، بينما تبعت الكلاب البشر وكأنها أرواح ضائعة رافضة الأكل. لم يفارق نيتشه كرسي البيانو إلا عندما ساعد كوزيما في رزم الأشياء الثمينة جدًا التي لم يعهد بها إلى الخدم، مثل الرسائل والكتب والمخطوطات، وفوق كل شيء النوطات الموسيقية.

«كانت العيون مغرورقة بالدموع. آهًا! لقد كانت مدعاة لليأس! هذه السنوات الثلاث التي قضيتها في علاقة وثيقة مع تريبشن، والتي زرتها خلال هذه الفترة ثلاثًا وعشرين مرة، ما الذي تعنيه هذه الزيارات بالنسبة لي! لولا هذه الزيارات ما كنت لأكون ما أنا عليه الآن!»[١٩]، وفي هذا هو الإنسان أضاف: «لا تساوي علاقاتي الشخصية الأخرى الكثير، ولكنني لما كنت أتخلى عن أيام تريبشن مقابل أي ثمن، أيام الثقة تلك والمرح والصدف القدسية واللحظات العميقة... لا أعرف كيف كانت تجربة الناس مع فاغنر، لكن سماءنا لم تكن ملبدة بالغيوم أبدًا».

يقال إن نيتشه بعد هذا الوداع لم يستطع التحدث عن تريبشن من دون أن يتغيّر صوته.

عند عودته إلى بازل، أصيب بمرض القوباء في عنقه فأصبح غير قادر على كتابة المحاضرة السادسة والأخيرة. لم يكن لديه أي كتابٍ ليسلمه لفريتز وما زال ضباب الصمت يلف كتاب مولد التراجيديا.

كتب نيتشه خطابًا إلى أستاذه المحبب الأستاذ ريتشل، الفيلولوجي الكلاسيكي الذي تبعه نيتشه من جامعة بون إلى جامعة لايبزيغ والذي علّق لوحة له فوق طاولة الكتب بجانب الموقد، مخاطبًا إياه «لن يُثار ذهولي وتذمُّري إن لم أسمع كلمة منك عن كتابي المنشور حديثًا»[٢٠]، هكذا بدأ رسالته غير الحكيمة والتي استمرّت بنفس النمط الصبياني.

لم يكتب ريتشل عن الكتاب لأنه لم يجد شيئًا مناسبًا لقوله، وفكر في أن رسالة نيتشه تظهر أنه مصاب بجنون العظمة، كما رأى أن مولد التراجيديا هو هراء إبداعي. لقد أمطر هوامش نسخته من الكتاب بوابل من علامات التعجب والعبارات الصارخة مثل «جنون العظمة!» و«بذيء!» و«فاسق!». لكنه صاغ رده بلباقة لكي لا يشعر نيتشه بالاهانة من تلميحه أن النص لم يكن جديرًا بأكاديمي بقدر كونه بحثًا غير احترافي، ومن ملاحظاته أن نيتشه لم يأخذ بعين الاعتبار تفرد الحياة على أنه نكوص، عندما يبدو أن البديل يتضمن تحويل معنى الذات إلى تناسي الذات.

أما الشخصية الأبوية الأخرى والذي يهمّه رأيه بالكتاب فهو ياكوب بوركهارت، الذي كان بارعًا ومراوغًا في رده، لدرجة أن نيتشه اعتقد أن الكتاب قد فتنه وخلب لبه، لكن في الواقع شعر بوركهارت بالاستياء من إطروحة الكتاب ومن تعصبها ومن حدة صوتها ومن اقتراحه أن الباحث الجاد في مرحلة ما بعد سقراط لا شيء سوى جامع حقائق عشوائي.

وما زال الصمت يخنق الكتاب! «لقد حافظ الناس حتى الآن على صمتهم، لأن الجميع في الواقع يعتقد بأنهم أكبر وأسمى من كتابي ولذلك لا يستحق الحديث عنه»[٢١].

لم يمضِ على مغادرة آل فاغنر سوى شهر قبل أن يستلم دعوتهما لوضع

الحجر الأساس لدار الأوبرا في بايرويت. لقد جرت الأمور بسرعة فائقة. يبدو أن كوزيما وضعت تريبشن خلفها، ففي بايرويت كانت مشرقة الملامح بطريقة لم تحدث من قبل، كتبت «يبدو الأمر كما لو أن معظم حياتنا السابقة كانت مجرد تحضير لهذا الحدث». توج فاغنر مشاعرها الرقيقة بركوعه عند قدميها مانحًا إياها اسمًا جديدًا، وهو «المرغريفة»، وتعني زوجة حاكم بايرويت العسكري Markgräfin.

لطالما كانت كوزيما مختالة مغرورة. كانوا يقطنون في فندق «فانتازي» الذي يملكه ألكسندر دوق فيرتمبيرغ، والذي تحيط بقلعته الأراضي الفاتنة، قلعة الخيال Schloss Fantaisie. تفتتح صفحات يومياتها بطريقة مشابهة لما موجود في Almanach de Gotha (دليل للتعرف على الطبقات الحاكمة الاوربية)، حيث تحتشد الصفحات بالدوقات والأمراء والأميرات. كان الجميع يتزلّفون لنيل محاباتها، من أدنى الارستقراطيين إلى الكونتات والكونتيسات، جميعهم دفعوا أنفسهم أمام ناظرها بأي وسيلة ممكنة. على سبيل المثال، أهدى كونت كراكوف فاغنر فهدًا اصطاده في أفريقيا، وطرزت كونتيسة باسنهايم بلوزات صغيرة للرضيع سيغفريد، وقد قبلت كوزيما كل العطايا متحلّية بلباقة زوجة الحاكم العسكري[٢٢].

أقيم حفل وضع حجر الأساس في الثاني والعشرين من أيار، عيد ميلاد فاغنر التاسع والخمسين. نزل ما يقارب ألفٍ من الموسيقيين والمغنين والضيوف إلى مدينة بايرويت الصغيرة، التي لم تشهد حضورًا غفيرًا بهذا الحجم. نفد الطعام والشراب من الفنادق والحانات والمطاعم، بينما شارفت العربات التي تجرّها الخيول على النفاد تقريبًا، وحتى العربات الفردية التابعة لفرقة الإطفاء والنوادي الرياضية لم تسلم، فقد جُيرت لنقل الضيوف المميزين إلى أعلى التل الأخضر، عندها تلبدت السماء بسحب رمادية واطئة، متسببة بهطول وابل غزير من الأمطار. وبعد فترة وجيزة، خاضت الخيول والسابلة في الطين البني الزيتي حتى ركبهم؛ لقد كان من حسن حظ الملك لودفيغ أنه لم يحضر.

في تلك الأيام، أصبح من النادر رؤية الملك. كان يومه يبدأ بفطور في السابعة مساء في غرفة صغيرة مضاءة بستين شمعة، وبعدها يتجوّل بعربته المنحوتة على شكل بجعة بين حدائقه المغمورة بضوء القمر مُستمعًا لموسيقى فاغنر التي يعزفها موسيقيون مستترون في مكان ما. ما زال يضمد جراح المشاحنة التي وقعت مع فاغنر حول عرض أوبرا الراين الذهبي من دون إذن أو معرفة مؤلفها الموسيقي (فاغنر)، ولكنه بعث برسالة استحسان كريمة إلى بايرويت. وضع فاغنر الرسالة في علبة مجوهرات ثمينة ومن ثم دفنها في أساس البناء وسط مراسم ملائمة بينما عزفت الفرقة مارش الإجلال (Huldigungsmarsch) الذي ألفه فاغنر للملك لودفيغ قبل بضع سنوات.

مثل الإله ووتان الذي سدّد ثلاث ضربات للأرض في أوبرا الحلقة، مُستدعيًا النار وجميع ضروب العواقب المميتة، سدد فاغنر ثلاث ضربات لحجر الأساس بمطرقة. بعد أن أعلن مباركته لحفل الافتتاح، قفل راجعًا وقد تخضَّلت عيناه وشحب وجهه كالموت بحسب نيتشه، والذي نال شرف مرافقته العظيم، عائدًا إلى المدينة في عربته.

كان نيتشه على أحر من الجمر في انتظار حكم فاغنر الفني بخصوص المقطعين الموسيقيين اللذين أرسلهما لكوزيما في عيد الميلاد. لم تنبس كوزيما ولم ينطق فاغنر بكلمة، فقرر على أثرها إرسالهما إلى فون بولو.

في المناسبة التي جمعت نيتشه بفون بولو عندما أعطاه الأخير مائة فرنك ليسلمها لدانييلا، أخبره القائد الاوركسترالي (فون بولو) أنه تأثر بشدة بمولد التراجيديا وأنه حمله معه تقريبًا في كل مكان وأوصى جميع من يعرفهم بقراءته على تنوع توجهاتهم. هل مِن المحتمل أن فون بولو قد طلب إهداء كتابه القادم لنيتشه؟ كيف بإمكان البروفيسور الشاب أن لا يقبل إطراءً مثل هذا؟ بلا شك أن مجاملةً من هذا النوع ربما طمأنته بالحصول على قدر من الثناء من جانب فون بولو عندما أرسل له المقطوعة الموسيقية، المقطوعة التي تم تنظيمها وإخراجها اوركستراليًا وعُنونت بـ«تأمل مانفريد» فيما بعد.

على الأقل، توقّع نيتشه أن فون بولو سيدعمه بالعبارات المبتذلة المتنوعة التي يرددها المختصون على مسامع الهواة الذين يبحثون عن آرائهم. لكن الميل في الشماتة سرت عميقًا وبقوة في أعماق القائد الأوركسترالي، فوجه حكمه الفني بطريقة قاسية تخلو من الشفقة. كتب فون بولو أنه لم يخفِ تحرجه من اضطراره لإصدار حكمه في مقطوعة تأمل مانفريد. لقد صدمته المقطوعة كأنها «الأكثر مبالغة في غلوها الخيالي، وأنها أكثر مقطوعة تخلو من العبرة كما أنها الأقل رقيًا، إنها أكثر مقطوعة صادفتها تعادي الموسيقى منذ وقت طويل بالطريقة التي كتبت فيها النوطات على الورق... كان علي أن أسأل نفسي أكثر من مرة: هل هذه مزحة مروِّعة؟ هل عزمت على محاكاة ما يدعى بموسيقى المستقبل؟ وهل هي نية واعية في أن تعبر عن ازدرائك المتواصل لكل قواعد الوصلة الموسيقية، من أبهى جملة تركيبية إلى تركيب جملة مقبولة اعتيادية؟... لم أتمكن من العثور على أصغر أثر للعنصر الأبولوني؛ أما فيما يخص العنصر الديونيسيوسي، فعليّ أن أقول صراحة أنني لم أتنبه كثيرًا لوجود هذا العنصر بقدر انتباهي إلى آثار اليوم اللاحق لحفلة عربدة، (على سبيل المثال الدوار الذي يخلفه الخمر)»[٢٣].

رأى كُلٌّ من فاغنر وكوزيما أن فون بولو كان قاسيًا دون حاجة ضرورية للرد بهذه الطريقة، لكنهما لم يشعرا بأي ميل لمواساة صديقهما العزيز بكتابة خطاب مقتضب وإرساله، الأمر الذي قد يفنّد إخلاصهم للحقيقة المحضة. عندما أعادت كوزيما قراءة كلمات فون بولو لوالدها ليزت، هز رأسه الأبيض بحزن وقال إن هذا الحكم متطرّف للغاية، لكنه لم يشعر أيضًا بالرغبة في تخفيف أثر اللكمة التي وجهها فون بولو لنيتشه.

استغرق تعافي نيتشه من هذه اللكمة ثلاثة أشهر كاملة. في النهاية تمكن من إرسال خطاب إلى فون بولو «حسنًا، حمدًا للرب، هذا ما كان عليك أن تخبرني به. أعلم جيدًا أن ما أرسلتُه لك تسبب في إزعاجك وللتعويض عن هذا دعني أخبرك بمدى الفائدة التي أنعمت عليّ بها. فكر فقط، بما أن موسيقاي متأتية من تعليم ذاتي، فقد افتقدت تدريجيًا إلى الانضباط

الموسيقي؛ لم أحظَ بأي نقد صادر من موسيقي على موسيقاي؛ ولذلك أنا في غاية السعادة بالطريقة البسيطة التي نوّرتني بها فيما يخص أسلوب تأليفي مؤخرًا».

لقد تغاضى نيتشه عن افتراض فون بولو بدخوله «المنطقة الخطيرة والجنونية» للاضطرابات العاطفية، التي عزاها فون بولو إلى إخلاصه لفاغنر. أجاب نيتشه أيضًا أنه لن يتخلّى عن هذا النوع من «الترفيه المُستهجن الذي أمضي به وقتي»، مع ولهه بموسيقى تريستان. «الأمر برمته، في الحقيقة، هو أنني أعتبرها تجربة تعليمية للغاية... سأستمر فيها بعد على تناول الدواء الموسيقي، وربما سأبقى تحت وصايتك وإرشادك، إذا ما درست سوناتات بيتهوفن في كتابك»[٢٤].

بزغ إخطار مشرق عندما ظهر المقال الأول عن مولد التراجيديا. فقد تمكَّن صديق نيتشه إروين رود من نشر مقال يحابي فيه نيتشه في صحيفة شمال ألمانيا العامة، وبالكاد يمكن أن نسمّي ما كتبه مراجعة. لقد أعاد المقال ببساطة حجة نيتشه فيما يتعلق بموت المقدس والصوفي بواسطة الاتساق الوحشي للفكر السقراطي، وقلقه من التخريب الثقافي المستشري على يد البرابرة الاشتراكيين، وأن تعويذة فاغنر لدرء هذا الخطر يكمن في إعادة إحياء بانثيون الآلهة الجرمانية مما يوفر الأساس الراسخ للنهضة الثقافية للأمة الألمانية.

كان نيتشه مغتبطًا بما فعله رود، «صديقي، صديقي، ما الذي فعلته يا صديقي». لقد طلب خمسين نسخة منشورة من المقال، إلا أن سعادته لم تدم طويلًا. فسرعان ما خبطه أولريش فون ويلامويتز-موليندورف، البفورتي[*] (١٨٤٨-١٩٣١ فيلولوجي ألماني كلاسيكي) العجوز والفيلولوجي، بكتيب هجائي من اثنين وثلاثين صفحة عنونه «فيلولوجيا المستقبل! Zukunftsphilologie!»، ساخرًا من مصطلح فاغنر «موسيقى المستقبل

(*) نسبة إلى مدرسة بفورتا. (المترجم)

Zukunftsmusik». يبتدء الكُتيب باقتباس مؤثر لأريستوفانس يدين ضمنًا مولد التراجيديا وكأنه طعام غُلام شهي، ويمضي الكتيب في شجبه للكتاب بوصفه عملًا فيلولوجيًا سيئًا وعملًا فاغنريًا تافهًا. يطرح ويلامويتز مسألة التأويل الصارم للماضي من خلال الوسائل «العلمية» للفيلولوجيا بدلًا عن منهج نيتشه باعتباره «حكيم عالم بأمور الغيب أو رسول». دعم ويلامويتز النظرة الشائعة عن الأغريق بوصفهم «أطفالًا سرمديين، يستمتعون بالضوء الجميل ببراءة وبجهالة». كانت فكرة أن الإغريق احتاجوا إلى التراجيديا «كومة نفايات! أي عار!.. يعرف نيتشه القليل عن هوميروس أقل من معرفته عن المواطن الصربي والفنلندي»، وكان مفهوم التحالف بين أبولو وديونيسيوس اتحادًا سخيفًا أشبه باتحاد بين نيرو وفيثاغورس. إن العبادة الديونيسيوسية لا تُسقى بالوعي التراجيدي وإنما تُروى «بمحاصيل الخمر وهرس العنب بالاقدام والاستهلاك البهيج للمشروبات المنعشة المهيجة». ويواصل ويلامويتز هجومه حتى يصل إلى مناقشة الموسيقى الإغريقية، وهو موضوع ذو أرضية متزعزعة لا يمكن الوقوف عليها بالنسبة لويلامويتز كما لنيتشه نفسه، فلم يكن لدى أي منهما فكرة عما تبدو عليه الموسيقى الإغريقية. تهاجم حجج ويلامويتز نيتشه بسبب الجهل الفظيع والأخطاء الفاضحة وفقدان الالتزام بالحقيقة؛ وكمحصِّلة يطالب نيتشه بالتنحي عن تدريس الفيلولوجيا.

رفضت كوزيما النزاع بأكمله كونه «غير مناسب للجمهور»، لكن سرعان ما اندفع فاغنر لنصرة نيتشه في رسالة مفتوحة نُشرت في ذات الصحيفة في الثالث والعشرين من حزيران. بثّ الروح في مقاله المتوقع كليًا بملاحظة استثنائية وهي أن ويلامويتز موليندروف كتب ما يشبه «ورقة صحفية عن سوق ويسكونين للأسهم المالية»، وهو تعليق يسلط بالتأكيد ضوءًا مثيرًا للاهتمام على عادات القراءة الخاصة بفاغنر.

كان نيتشه قد تلقى ضربتين مميتتين صوبها له كُلٌّ من فون بولو وويلامويتز، كانتا كافيتين لتهديم آفاقه المستقبلية كمؤلف موسيقي وباحث

كلاسيكي وفيلولوجي، بيد أن المجال التخصّصي الأخير لم يكن ذا أهمية بالمقارنة مع المجالين الأولين. وبما أنه كان يسعى منذ فترة طويلة للخلاص من سجن الفيلولوجيا، فربما، ووفق التأويلات المختلفة التي تدور حول مولد التراجيديا، يمكن قراءة الكتاب على أنه رسالة انتحار كتبها أستاذ فيلولوجي.

في النهاية، أصبح مولد التراجيديا واحدًا من أكثر كتب نيتشه مبيعًا. لكن من ٨٠٠ نسخة طُبعت ونُشرت في عام ١٨٧٢، بيع ٢٦٥ نسخة فقط على مدار السنوات الست المقبلة[٢٥]. في ذلك الوقت، كانت سمعته قد تشوهت؛ فبعد بداية السنة الدراسية، اكتشف نيتشه أن طالبين فقط سجلا لحضور مجموعة محاضراته، وأي منهما لم يكن طالبًا متخصِّصًا في الفيلولوجيا.

(٥) مولد التراجيديا:

١. مولد التراجيديا، الفصل ١.
٢. المصدر السابق، الفصل ٧.
٣. المصدر السابق، الفصل ١٥.
٤. المصدر السابق، الفصل ١٥.
٥. المصدر السابق، الفصل ١٨.
٦. المصدر السابق، الفصل ٢٠.
٧. المصدر السابق، الفصل ٢١.
٨. كوزيما فاغنر، اليوميات، ١٨ آب ١٨٧٠.
٩. المصدر السابق، ٨ نيسان ١٨٧٠.
١٠. نيتشه إلى ايروين رود، ١٨٧١.
١١. نيتشه إلى كارل فون غيرسدورف، ١٨ تشرين الثاني ١٨٧١.
١٢. نيتشه إلى إيروين رود، ١٢ كانون الأول ١٨٧١.
١٣. نيتشه إلى فرانشيسكا وإليزابيث نيتشه، بازل، ٢٧ كانون الأول ١٨٧١.
١٤. نيتشه إلى غوستاف كروغ، بازل، ٣١ كانون الأول ١٨٧١.
١٥. «عن مستقبل مؤسساتنا التعليمية»، المحاضرة الأولى، أُلقيت في ١٦ كانون الثاني ١٨٧٢.
١٦. كوزيما فاغنر، اليوميات، ١٦ كانون الثاني ١٨٧٢.
١٧. نيتشه إلى إيروين رود، بازل، ٢٨ كانون الثاني ١٨٧٢.
١٨. كوزيما فاغنر، اليوميات، ٣١ كانون الأول، ١٨٧٢.
١٩. نيتشه إلى كارل فون غيرسدورف، ١ أيار ١٨٧٢.
٢٠. نيتشه إلى فريدريك ريتشل، بازل، ٣٠ كانون الأول ١٨٧٢.
٢١. نيتشه إلى إيروين رود، ٢٥ تشرين الأول ١٨٧٢.
٢٢. كوزيما فاغنر، اليوميات، ٢٢ أيار ١٨٧٢.
٢٣. ووكر، هانز فون بولو، صفحة ٥.
٢٤. نيتشه إلى هانو فون بولو، مسودة رسالة، من المرجح أن تاريخها يعود إلى ٢٩ تشرين الأول ١٨٧٢.
٢٥. ويليام إتش سشابيرغ، مؤلفات نيتشه الموثوقة، مطبعة جامعة شيكاغو.

٦
كوخ السُّم

منحني المرض الحقَّ في تغيير عاداتي بالكامل؛ كما أباح لي أو ألزمني النسيان... وضعت عيناي حدًّا لعادتي في التهام الكتب، بلغة فيلولوجية واضحة، لقد أُعفيتُ من الكتب... أعظم نعمة منحتها لنفسي! ذاتي العميقة، تلك المدفونة المقموعة المجبرة على الاستماع إلى ذواتي الأخرى باستمرار (وهذا يعني القراءة بالتأكيد!) استيقظت ببطءٍ واستحياءٍ تملأها الشكوك، لكنها نطقت مرة أخرى في نهاية المطاف.

من كتاب «هذا هو الإنسان»

فصل «إنساني مفرط في إنسانيته»، الشذرة الرابعة.

في خريف عام ١٨٧٢، دعا فاغنر نيتشه للمجيء إلى مدينة بايرويت للاحتفال بعيد الميلاد وعيد ميلاد كوزيما، كما عادتهم في مدينة تريبشن، لكن نيتشه رفض هذه الدعوة لشعوره بالعار عندما لم يسجّل أي طالب فيلولوجي للحضور إلى محاضراته. بدلًا من ذلك، ذهب إلى منزله في ناومبورغ لقضاء

عطلة العيد، حيث لم تعد فرانشيسكا وإليزابيث تعتبران مولد التراجيديا فشلًا ذريعًا بقدر تذكيرهما له بعجزه عن تأليف مقطوعة موسيقية لائقة، أو إنهاء سلسلة محاضراته حول التعليم، أو جذب أكثر من مجرد طالبين لحلقاته الدراسية الجامعية في رأس السنة.

هديته لمناسبتي عيد الميلاد وعيد مولد كوزيما كلّفته وقتًا طويلًا وجهدًا كبيرًا، حتى وإن وصلت متأخرة كثيرًا. تنفّست كوزيما الصعداء عندما عرفت أن الهدية ليست مقطوعة موسيقية بل قطعة أدبية وإن كان عنوانها غير واعد؛ «خمس مقدّمات لكتبٍ غير مكتوبة». المقدمة الأولى بعنوان «في رثاء الحقيقة»، اتخذت شكل قصةٍ رمزية؛ نجمٌ تسكنه حيوانات ذكية اكتشفت الحقيقة، وعندما يأفلُ النجم تُفنى الحيوانات معه لاعنةً الحقيقة، لأنها كشفت زيف معرفتهم السابقة، كما سيدرك الإنسان يومًا إن هو اكتشف الحقيقة.

تناولت المقدمة الثانية مستقبل التعليم في ألمانيا، وتمحورت الثالثة حول تأملاتٍ تشاؤميةٍ عميقةٍ بشأن الدولة اليونانية والمشكلة التي أثارتها حقيقة تأسسها على العبودية، وهنا يسأل نيتشه، ألم تُبنى حضارة العصر الحديدي في القرن التاسع عشر على العبودية؟ أيمكن أن تكون الحقيقة الفظيعة المتمثلة في ضرورة وجود طبقة من العبيد هي النسر الذي ينخر كبد مروّجي الثقافة البروميثوسية إلى الأبد؟

دارت المقدمة الرابعة حول أهمية شوبنهاور بالنسبة لثقافة العصر آنذاك، أما المقدمة الخامسة فتعنى بتحقيق أدبي عن الحرب عند هوميروس، وقبع طوال شهر كانون الثاني منتظرًا بعض النقد أو حتى بعض المديح، ولكن عبثًا انتظاره.

إن آذاه صمتُها، فلم يكن لديهِ أي فكرة عن مدى ألم وخيبة فاغنر عندما رفض دعوته واختار قضاء عيد الميلاد في مكان آخر. منذ انتقاله إلى بايرويت، أرسل فاغنر إلى نيتشه رسالتين حميميتين للغاية، واحدة في حزيران والأخرى في تشرين الأول واضعًا إياه في منزلة الابن المقدّسة، فنظرًا لعمر فاغنر الذي

شارف الستين عامًا، كانت علاقته بابنه سيغفريد أقرب إلى أن تكون علاقة جد بحفيده، وهنا اعتبر نيتشه الحلقة الرابطة بين الجيلين، ابنٌ لأحدهما وأبٌ للآخر.

كانت فترة عيد الميلاد مروّعة بدونه بالنسبة لفاغنر وكوزيما، فقد ساءت أحوالهما المادية مرة أخرى وتركا دار الأوبرا المشيّدة جزئيًا يتأرجح على شفا الانهيار. لقد شعرا أن الملك لودفيغ أهملهما عندما اختفى تقريبًا عن أنظار الجميع بعد أن أمر بتجديد قصره بزخارف مكلفة أكثر من أي وقت مضى، وتعامل مع وزرائه بشأن الأعمال الحكومية من خلال السائس المفضّل لديه. شعر فاغنر بأن السائس هو نفسه من يحجب اتصالاته بالملك، وقد فاقم موقف نيتشه شعوره بأن الملك ينزلق من بين يديه، فاعتبر عدم تلبيته للدعوة على أنه هجرٌ وخيانة وتأثر بشدة جرّاء ذلك.

لقد خطط فاغنر أن يُفاتح نيتشه في عيد الميلاد حول مشروعٍ لاستعادة الأموال للمضي بمشروع بايرويت من خلال تأسيس نشرة دورية أو مجلة أو صحيفة إخبارية وتوظيف نيتشه بصفته محررًا ومساهمًا فيها (عندها يمكنه نشر العديد من المقالات بقدر ما يحب، وهذا من شأنه أن يُرضيه بكل تأكيد). كان غرض فاغنر نشر وجمع الأموال لصالح بايرويت، لكن بدلًا من ذلك أرسل البروفيسور نيتشه خمس مقدمات عشوائية وعديمة الجدوى لخمسة كتب لن ترى النور أبدًا ولا تمت لفاغنر أو مشكلاته بأي صلة إطلاقًا. «لم يُراعوا مشاعرنا»، هذا ما كتبته كوزيما بحرقة في مذكراتها التي وثّقت عطلة عيد ميلادٍ حزينة تفيضُ كربًا وقلقًا واعتلالًا صحيًا، حتى وجد الاثنان نفسيهما، ولأول مرة في زواجهما، يتشاجران حول السماح للكلب بالدخول إلى المنزل أم إبقائه خارجًا لقذارته. ليلة بعد ليلة عانى فاغنر من سلسلة كوابيس مرعبة حقًا، وعندما يستيقظ كان يهدئ نفسه بالتفكير في نيتشه، إلا أن الأخير كان يعتقد نفسه تابعًا لا أكثر، فلم يكن لديه أي فهم لحاجة السيد الحقيقية إليه كما لم تكن لديه أي فكرةٍ أن فاغنر وكوزيما اعتبرا غيابه خيانة لهما، وبهذا صُدم عندما أرسلت كوزيما رسالة في الثاني عشر من شباط تشير فيها إلى نكث العهد الذي كان بينهما، بينما لم يشعر هو بأي خطبٍ في تصرفه أبدًا.

كتعويضٍ لهما، بدأ في تأليف كتاب يقدّمه هديةً لفاغنر في عيد ميلاده الستين في شهر أيار، فهذا من شأنه أن يُشفي جُرحه بكل تأكيد، ولكن قبل ذلك دُعي لقضاء عيد الفصح معهما، وهذه المرة لبّى الدعوة بكل ذكاء مصطحبًا معه صديقه إروين رود، الذي أصبح آنذاك أستاذًا في جامعة كيل، ومتأبطًا كتابه الفلسفة في العصر المأساوي الإغريقي.

سرعان ما تلاشى حماس كوزيما في الترفيه عن الأستاذين. فرود، رغم كونه صديقًا جيدًا ومُقربًا من نيتشه، لم يكن شخصيةً مرحةً، ووجوده لم يفعل شيئًا لتخفيف غيمة الكآبة التي تخيم على بايرويت. علاوة على ذلك، أصر نيتشه على قراءة نصهِ بصوت عالٍ في عدة أمسيات، مُخلِّفًا فتراتِ تأملٍ طويلة لمناقشات عميقة. شعر فاغنر بملل قاتل، اجتاحه بعدها غضب عظيمٌ عندما ألهمت عاصفة رعدية نيتشه ليعزف لهما آخر مؤلفاته الموسيقية كبلسم يعوض عن حزنهما. كتبت كوزيما بامتعاض: «تُزعجنا قليلًا هواية صديقنا بتأليف الموسيقى، ويسهب ريتشارد في التحدث عن المسار الذي اتخذته»[1]. من ناحيته لم يُسرّ نيتشه على الإطلاق باقتراح فاغنر بأن يروج هو وورود لصحيفة بايرويت، فنظرًا لمفردات الازدراء التي كتبها مستهجنًا ثقافة الصحف، كان اقتراح فاغنر بمثابة إهانةٍ له.

كانت سنوات تريبشن أجمل فترة في حياة نيتشه بلا أي شك، فالإيقاع الثابت لتلك السنوات الأولى من عمله أستاذًا واعدًا يتنقل بين صفوف جامعة بازل ومعبد السيد، منحه فترةً ذهبيةً من تمام الصحة كما لم يشهد من قبل ولا من بعد، لكن عطلة عيد الفصح الثقيلة التي مر بها هو وورود في بايرويت لم تسترجع ولو قليلًا من أيام المجد تلك، فقد كانت مهزلة جوفاء ومحاكاة تافهة لها.

عند عودته إلى بازل تدهورت صحته، ففي بادئ الأمر حالت آلام عينيه ورأسه دون متابعة عادته المسائية المتمثلة في الجلوس لقراءة وكتابة ملاحظاتٍ حول محاضراته في دفتره المغلف بالجلد الأحمر، ولكن مع كل يوم يمر تزداد شدة الألم، حتى إذا مرّ شهرٌ وجد نفسه غير قادر حتى على محاولة تأدية مثل هذا العمل، فنصحه طبيبه أن يريح عينيه تمامًا.

كان الضوء موجعًا لعينيه، فقضى معظم أوقاته جالسًا في غرفة مظلمة خلف ستائر مُسدلةٍ بإحكام، بيد أنه كان يغامر بالخروج في بعض الأحيان، محصنًا نفسه ضد الضوء بنظارات واقية من الشمس بعدساتٍ سميكةٍ خضراء، وطاقية خضراء شبيهة بالمنقار تتدلى من جبهته. كان زملاؤه في بازل يمرون أمام كهفه كأنهم ظلال أفلاطونية، وقد كان هذا الوضع مريحًا لهم، فبإمكانهم أن يتظاهروا أنهم لم يروا الأستاذ المثير للجدل فيتجاهلوه.

لقد كان عِبئًا مُحرِجًا، وقد اكتسب سمعةً سيئةً لدرجة أنه أصبح مُضرًا بمكانة الجامعة. قال أستاذ في علم الفيلولوجيا بجامعة بون لطلابه إن نيتشه كان عدوًا للثقافة ونصّابًا مخادعًا وأن كتاب مولد التراجيديا هراءٌ بحتٌ وعقيمٌ كليًا.[٢]

كان نيتشه يستأجر غرفًا في منزلٍ في شوتزينغاربين ٤٥، وغُرفُ المنزل الأخرى كانت تُؤجر لفرانز أوفربيك[٣] أستاذ حديث العهد يُدرس مادة «العهد الجديد وتاريخ الكنيسة» في الجامعة، وكان آنذاك يخطُ كتابه الأول «حول ميزة اللاهوت المسيحي في عصرنا هذا»، ولهاينريك روموندت الذي كان يكتب أطروحة الدكتوراه حول «نقد العقل المحض» لكانط. في طريق الجامعة ذهابًا وإيابًا، غالبًا ما كان يتوقف الشبان الطموحون الثلاثة في حانة تُسمى كوخُ السُّم (Poison Cottage)، وسميت بهذا الاسم لحقيقة أنها بنيت على أطلال منجم زرنيخ، وبكل ما لهم من حماس أطلق الثلاثي هذا الاسم الخارج عن المألوف على منزلهم. بيد أن خططهم لإحداث ثورة بالمجتمع يجب أن تؤجل حتى تتعافى صحة نيتشه.

أرسل في طلب أخته إليزابيث لرعايته وتأدية الأعمال المنزلية، ثم وصل صديقه القديم كارل فون غيرسدورف، الذي كان يؤازره أيام بفورتا، ليساعده في الأعمال السكرتارية. جاء فون غيرسدورف إلى بازل من صقلية حيث أصيب بالملاريا، لكن عينيه لم تكن تشكو من شيء فكان يقرأ المادة الخاصة بمحاضرات نيتشه بصوت عالٍ ليحفظ نيتشه بعد ذلك عن ظهر قلب أيَّ الإقتباسات يرغب في استخدامها. سمحت هذه العملية لفون

غيرسدورف بأن يفكر أن تراجع بصر نيتشه منحه مزيدًا من صفاء التركيز الداخلي، فتحسّن اختياره لمواد محاضراته وطريقة تعبيره عنها، الأمر الذي تركه يتحدث بوضوح وبلاغة وتركيز أكبر(٤). كتب نيتشه متفقًا «منحني المرض الحق في تغيير عاداتي بالكامل؛ كما أباح لي أو ألزمني النسيان... وضعت عيناي حدًا لعادتي في التهام الكتب، بلغة فيلولوجية واضحة، لقد أُعفيتُ من الكتب... أعظم نعمة منحتها لنفسي! ذاتي العميقة، تلك المدفونة المقموعة المجبرة على الاستماع إلى ذواتي الأخرى باستمرار (وهذا يعني القراءة بالتأكيد!) استيقظت ببطءٍ واستحياءٍ تملأها الشكوك، لكنها نطقت مرة أخرى في نهاية المطاف»(٥).

نجح هذا النهج، لكنه وقف عاجزًا أمام مسيرة الألم المتزايد. وصف طبيب العيون الخاص به البروفيسور شيس قطرات العين أتروبين المستخرجة من نبات البوم القاتل «deadly nightshade» لإرخاء عضلات العين، فتسببت في مضاعفة حجم بؤبؤ عينيه مما جعل مهمة التركيز لديه مستحيلة، فأصبح العالم يتراقص أمامه بضبابية، وبالتالي ازداد اعتماده على فون غيرسدورف الذي قال إن عينيّ نيتشه أصبحتا أشبه ببركتين سوداوين، وهذا ما جعله يبدو مرعبًا للغاية.

مع تولّي إليزابيث مسؤولية الأعمال المنزلية وفون غيرسدورف مسؤولية الأعمال السكرتارية، تمكن نيتشه من اختبار الحرية الفكرية من دون أن يعانى من الوحدة القاتلة التي يعانيها الناسك في كهف الفكر. مع كل هذه المستجدات أصبح الكتاب الذي نوى إهداءه الى فاغنر في عيد ميلاده شيئًا من الماضي، بعد أن أصبحت عيناه غير قادرتين على التركيز وتجولان آفاقًا أوسع، فقد انغمس في كتابة قوائم، وقرر كتابة سلسلة كاملة من تأملاتٍ في غير أوانها، والتي من شأنها طرح أفكاره حول طبيعة الثقافة في العالم الحديث بشكل عام والرايخ بشكل خاص. إن جملة «في غير أوانها» هي جملة صغيرة يتم التغاضي عنها في اللغات الاخرى، ولكن بالنسبة لنيتشه هي جملة ذات مكانة عظيمة، فهي تعني الوقوف خارج الزمن الآتي والماضي، خارج

النمط الحالي وخارج مرساة التاريخ أيضًا. لقد بيّنها قويةً ومتجذِّرةً في سلطته الخاصة بصفته باحثًا عن الحقيقة ذي نظرةٍ ثابتة تتعدى دائمًا كل ما هو سريع الزوال. لقد وضع نيتشه، السابقُ لأوانه، قائمةً بالمواضيع التي سيكتب عنها، وكان ينوي نشر اثنين من هذه التأملات كل عام حتى يغطي قائمته بأكملها، فكان يُضيف ويحذف المواضيع كما يشاء، ولكن جوهر التأملات الذي بقي ثابتًا تضمّن:

ديفيد شتراوس

التاريخ

القراءة والكتابة

المتطوع لمدة سنة واحدة

فاغنر

المدارس الثانوية والجامعات

النزعة المسيحية

المعلم المطلق

الفيلسوف

الناس والثقافة

الفيلولوجية الكلاسيكية

عبودية الصحيفة

أول «تأمل في غير أوانه» ألفه هو ديفيد شتراوس، المعترف والكاتب. كان ديفيد شتراوس فيلسوفًا لاهوتيًا وكانطيًا حقق نجاحًا هائلًا قبل أربعين عامًا في كتابه المؤلف من مجلدين «حياة يسوع»، وهو تحقيقٌ يُزعم أنه «علميٌّ» في يسوع المسيح باعتباره شخصية تاريخية، فتسبّب الكتاب في فضيحةٍ وضجةٍ كبيرة. تُرجم إلى الإنجليزية على يد جورج إليوت (الذي استمتع نيتشه بتقديمه على أنه نموذجٌ للعرق البريطاني: غريب جنسيًا ومتراخٍ

فكريًا). أدان إيرل شافتسبري هذا الكتاب باعتباره أكثر الكتب التي تقيأها فك الجحيم شرًا على الإطلاق. عندما قرأ نيتشه كتاب شتراوس خلال أيامه في بفورتا راسل أخته قائلًا إنه إذا طُلب منه الإيمان بيسوع باعتباره شخصية تاريخية، فلن يثير الأمر اهتمامه على الإطلاق، ولكن الإيمان به بوصفه معلمًا أخلاقيًا مسألة مختلفة تستحق دراسة عميقة.

كان شتراوس آنذاك يقترب من السبعين عندما نُشر كتابه التالي بعنوان **«الإيمان القديم والجديد»** الذي حقق شهرةً مرة أخرى. لقد ناسب الكتاب الحالة المزاجية لذلك الوقت من خلال كشفه ببهجة جنونية عن امكانية تعايش جيلٍ جديدٍ من المسيحيين العقلانيين في العالم الحديث، وهو تناقضٌ أساسيٌ وفكرةٌ مستحيلةٌ إذا ما قورنت بتعريفات العقلانية أو الإيمان. يقول نيتشه إنه إذا انفصل المرء عن الفكرة الأساسية، وهي الإيمان بالرب، يتحطمُ كل شيء، فالثورة في المعتقد تتطلب ثورة في الأخلاق، وهي نتيجةٌ يبدو أنها استعصت على شتراوس عند كتابة ما وصفه نيتشه، بمتعةٍ واضحة وبشكل ساحق بأنه «كاهنه المحمول للعوام الألمان»(٦).

أرسل نيتشه المسودة للناشر قبل الشروع في الاستمتاع بعطلة صيفية مع روموندت وغيرسدورف، في مدينة تشور في منتجع صغير في جبال الألب، مشهورٍ بمياه بحيرته المنعشة والتي لها فوائد علاجية أخرى. كان الأصدقاء الثلاثة يتجولون لمدة أربع أو خمس ساعات يوميًا، وأثناء التجوال لم يفارق نيتشه نظارته الخضراء وطاقيته الواقية من أشعة الشمس، فقد تميز ذلك المكان بهوائه المنعش البارد الذي يشحذ التفكير. على بعد عدة مئات من الأمتار أسفل فندقهم تلألأت كوماسي Caumasee، وهي بحيرة صغيرة جميلة. كتب غيرسدورف «كنا نلبس ونخلع ملابسنا على نقيق ضفدع ضخم». بعد السباحة يستلقي الثلاثةُ على طحالب مخملية وأغصان شجر الصنوبر، ويبدأ الأثنان بقراءة أجزاء من أعمال بلوتارخ وغوته وفاغنر بصوت عالٍ ليستمع نيتشه.

كان رود وغيرسدورف قد راجعا مسودة تأملاتٍ في غير أوانها بعناية شديدة نيابة عن نيتشه، ولكن عندما استلما النسخ الأولى في أوائل آب إحمرّا

خجلًا عندما اكتشفا أنها تكاد تكون ممتلئة بالأخطاء الإملائية والمطبعية تمامًا مثل أعمال شتراوس التي انتقدها نيتشه لنفس الأخطاء.

ومع ذلك، كان وصول النسخ الأولية من الكتاب مناسبةً تستحق الاحتفال رسميًا، فأخذوا زجاجة من النبيذ إلى شاطئ البحيرة، حيث نقشوا على وجه صخرة مائلة التالي (٨ .U.B.I.F.N/ ٨ ١٨٧)، الاحرف الالمانية الاولى من اسم الكتاب مع اسم نيتشه والتاريخ ('Unzeitgemässe Betrachtung ١. Friedrich Nietzsche ٨ August ١٨٧٣»). خلعوا ملابسهم وسبحوا إلى الجزيرة الصغيرة وسط البحيرة، حيث وجدوا صخرة أخرى حفروا عليها أحرفهم الأولى، ثم سبحوا عائدين وسكبوا خمرًا كقربانٍ على الصخرة الأولى معلنين «وهكذا احتفلنا بمعاداة الشتراوسية، والآن ليتقدم الخصوم، وليذهبوا كلهم إلى الجحيم»[٧].

خط نيتشه في مذكراته أن شتراوس توفِّيَ في شباط التالي. أنّبهُ ضميره بأن هجومه الوحشي سارع بنهاية زميله المؤلف، لكن صديقيه أكدا له أن الكتاب لم يُلقِ بظلاله على الأشهر الأخيرة من حياة شتراوس، فهو لم يعرف بصدوره من الأساس، لكن هذا لم يكن صحيحًا، فقد علم شتراوس بصدور الكتاب مما وضعه في حالة من الارتباك، لكن بعد أن أُسر العالم بكتبه التي حققت أعلى المبيعات، لم يجد أي داعٍ للانزعاج من لسعة ذبابةٍ ماشية لمؤلف مجهولٍ لم يؤخذ بنظر الاعتبار اسمه فريدريك نيتشه.

عندما عاد نيتشه إلى بازل في فصل الخريف، لم يكن هناك أي تحسن في حالته الصحية، فكان لا يزال غير قادر على القراءة أو الكتابة. في منتصف تشرين الأول، أرسل له فاغنر طلبًا لكتابة مناشدة تجمّع للأمة الألمانية لمساندة بايرويت التي كانت بأمس الحاجة إلى المزيد من المال. شعر نيتشه بأنه غير كفؤٍ لتأدية هذه المهمة فأرسل رسالة إلى إروين رود يطلب منه كتابة الدعوة «بأسلوب نابليوني». كانت رسالة نيتشه إلى رود ماكرة وساخرة، فقد سخر من فاغنر الذي قرر آنذاك أنه ضحية مؤامرة شيوعية لتخريب بايرويت وأن خطوة الشيوعيين المبكرة في المؤامرة هي الاستيلاء على دار نشر فريتز لمنعه ونيتشه من الكتابة.

ورد في خطاب نيتشه الى رود «هل ينبض قلبك الرجولي القوي أمام ضلوعك؟ بعد هذه الحوادث لم أعد أجرؤ على وضع اسمي على هذه الرسالة... مُفكرًا بالقنابل والقنابل المضادة لا غير، فإننا نوقع بأسماء مستعارة ونرتدي لحىً مزيفة»(٨).

رفض رود كتابة المناشدة التي ستُنسب إلى فاغنر، لذا اضطر نيتشه إلى تلقينها لشخص ما ليكتبها. كان مصممًا على إنهائها وإرسالها إلى **السيد** قبل مدة من تاريخ ٣١ تشرين الأول الذي يصادف يوم الإصلاح، وهي مناسبةٌ يُحتفل بها في جميع أنحاء ألمانيا اللوثرية بذكرى يوم تعليق مارتن لوثر ٩٥ بيانًا على أبواب الكنيسة عام ١٥١٧. كان من الضروري لفاغنر أن يقدّم مناشدته الثقافية في هذا التاريخ المهم لتصل إلى جميع ممثلي جمعيات فاغنر في جميع أنحاء ألمانيا والعالم بأسره.

أسعدت المناشدة المكتوبة **السيد**، ولكن عندما أرسلها إلى الجمعيات وجد ممثلوها أن الغطرسة والنزعة الهجومية وقلة الذوق تملأ ثناياها لدرجة أنهم رفضوها على الفور وكتبوا واحدةً أخرى بأسلوبهم المعتدل، ولهذا لم ترَ نسخة نيتشه النورَ أبدًا.

شجعت رسالة فاغنر الدافئة نيتشه للقيام بمغامرة صغيرة لوحده. كان لا يزال يتجوّل بحذرٍ شديدٍ ملتفًا بالأخضر ليحتمي من الضوء، لكنه خاطر برحلة قطارٍ لينضم إلى **السيد** في احتفالات يوم الإصلاح.

كما في الأيام الخوالي وعلى مأدبة تخللتها البهجةُ والمرح، أمتعهم نيتشه بسرد القصة الحقيقية للتهديد الشيوعي لدار نشر فريتز؛ فهناك أرملة مجنونة لوثرية تدعى روزالي نيلسن، رفيقة سياسية لمازيني وعلى ما يبدو ذات قبحٍ مرعبٍ، قرأت مولد التراجيديا فاشتعلت شغفًا بالمؤلف، ما دفعها للقدومِ الى بازل بلا أي موعدٍ أو سابق إنذار. ما أثار قلقه الشديد هو أنها قد أعلنت نفسها خادمة للمعتقد الديونيسيوسي، وعندما طلب منها المغادرة هددته. في نهاية المطاف تم إقناعها بالعودة إلى لايبزيغ حيث قررت شراء دار نشر فريتز

ربما بهدف فرض ملكيتها وسيطرتها وتحكمها التام بكتب بطلها، وهي فكرة مخيفة في حد ذاتها ولكنها حقّقت أبعادًا مرعبة عند اكتشاف أن لها علاقات وثيقة مع الأممية الماركسية الذين باتوا يعتبرون نيتشه سياسيًا تابعًا لهم.

ضحك فاغنر لمدة طويلة ضحكة نابعة من أعماقه أكثر مما ضحك على مدى العام بأكلمه، وحتى بعد مرور أيام من إخبار نيتشه القصة، كان يضحك ويهز رأسه كلما تذكَّر.

بالعودة إلى بازل، كتب نيتشه التأمل الثاني بعنوان حول محاسن ومساوئ التاريخ في الحياة، الذي تقرر نشره في العام التالي، ١٨٧٤. تناول العلاقة بين التاريخ وتدوينه في الحياة والثقافة، وأشار إلى أن الهاجس الألماني المرتبط بالماضي يعطل الحياة في الوقت الحاضر.

يفصل المقال بين ثلاثة محاسن للتاريخ: محاسن أثرية تسعى إلى الحفاظ على الماضي ومحاسن تذكارية تسعى إلى مضاهاته ومحاسن نقدية تسعى إلى تحرير الحاضر، حيث يجب تناول الثلاثة في توازن دقيق لتحقيق ما وراء التاريخ؛ توجهٌ نحو أمثلةٍ صالحة للاستخدام وخالدةٍ من الماضي، ونسيان متعمد للماضي لإعلاء الحاضر.

كان نيتشه يتابع دراسة مركّزة لأحدث الكتب عن الموضوعات العلمية مثل طبيعة المذنبات وتاريخ وتطور الكيمياء والفيزياء والنظرية العامة للحركة والطاقة وهيكلة الفضاء[٩]، فأعادته هذه الدراسة إلى هوايته التي كان يمارسها من خلال التأمل السابق حول ديفيد شتراوس؛ التذمر حول المسألة العظمى للعلم والدين، وإثارة علماء اللاهوت المعاصرين له لتقويض الإيمان الخاطئ الذي اعتنقوه، من خلال السعي للتوفّيق بين الاثنين. كانت تلك واحدة من أكبر قضايا العصر، ولم يتنازل عنها أبدًا.

صاغ كلمة جديدة لوصف تأثير العلم: «زلزلة المفاهيم»، «تتداعى الحياة نفسها وتزداد ضعفًا ووجلًا عندما تسلب زلزلة المفاهيم، الناتجة من العلم، الإنسان أساس كل راحته وأمنه وإيمانه بالبقاء والأبدية. هل قُدر

للحياة أن تهيمن على العلم والمعرفة أم للمعرفة أن تهيمن على الحياة؟»[١٠]. ليتأكد الإنسان من كل هذا تسلق أو ظن أنه تسلق أشعة شمس الحقيقة العلمية ليصل الفردوس، لكن الفردوس العلمي كان كذبة حتمية مثل نظيره الفردوس الديني. لا تنتمي الحقيقة الخالدة إلى العلم أكثر من انتمائها إلى الدين، فلكل اكتشافٍ علمي جديد نزعة لوصف الحقائق العلمية الأبدية السابقة على أنها خيال، وبهذا اتخذت الحقيقة شكلًا جديدًا يشبه خيوط شبكة العنكبوت الممتدة والمشوهة ويمكن أن تكون قد تمزقت تمامًا.

ضمت الصفحات القليلة الأخيرة نصيحة للشباب، فلشفائهم من داء التاريخ يدعو نيتشه على نحو غير مفاجئ إلى أن الطريقة الأمثل لفهم جموح الوجود هي النظر إلى الإغريق الذين تعلموا تدريجيًا تنظيم فوضاهم باتباع نصيحة الكاهن الدلفي «اغدُ ما أنت عليه».

بعد انتهائه أرسل النسخ المطبوعة الأولى إلى نقّاده المفضلين، أحدهم هو ياكوب بوركهارت الذي اتبع طريقته المعتادة في النقد المتمثلة في التهرب من أي نقد ذي مغزى بادعائه التواضع، فرأسه المسن المسكين لم يكن قادرًا على التفكر في عمق الأسس المطلقة وأهداف ومتطلبات العلوم التاريخية.

كان نقد إروين رود بنّاءً، فقد أشار إلى أنه رغم روعة الأفكار يجب على نيتشه مراعاة أسلوبه والتخفيف من شدة إصراره وقطعيته، أما حججه فقد أشار رود إلى وجوب تطويرها ودعمها بأمثلة تاريخية، بدلًا من كون كل فكرة مفردة تخبط عقل القارئ وتتركه في حيرة من أمره ليؤدي مهمة ربطها ببعض.

أما فاغنر فقد أعطى المسودة لكوزيما مشيرًا إلى عدم نُضج نيتشه «إنها تفتقر إلى المرونة، فهو لا يستشهد أبدًا بأمثلة تاريخية، إضافة إلى احتوائها الكثير من التكرار المُفتقر إلى مخطط حقيقي لا أعرف شخصًا لأعطيه إياه فيقرأه لأنني لا أعتقد أن بإمكان أحد فهمه»[١١]. لقد ترك مهمة الرد على نيتشه لكوزيما التي خطت ردها دون أي تنازلات وأي اعتبارٍ لمشاعر

المؤلف. أخبرته أن الكتاب لن يروق إلا لجمهورٍ صغير، وانتقدت أسلوبه في الكتابة مشعلةً نار غضبه.

دخل نيتشه صومعة اكتئاب، فقد تلقى تأمله حول شتراوس بضع مراجعات دلت على عكس ما كان يقصده بكتابته جملة «في غير أوانها». لقد تقبله الناس لأنه كان موضوعًا عصريًا، أما موضوع «التاريخ في الحياة» فلم يكن عصريًا، فلم يتوقع أحد أن يُباع الكتاب على نطاق واسع وتعكرت ملامح وجه الناشر حيال فكرة استمرار سلسلة التأملات.

حلَّ عيد ميلاد والدته الثامن والأربعين في شباط ١٨٧٤. لم تكن أمنياته المعتادة لوالدته بكمال الصحة والسعادة تنم عن بهجة. أخبرها ألا تحذو حذو ابنها الموقر الذي بدأ ينخره المرض في وقت مبكر جدًا من حياته واسترسل في حديثه المثير للشفقة مقارنًا حياته بحياة ذبابة «إن الهدف بعيدٌ جدًا، وحتى لو وصله المرء فسيصل مستنزفًا كل قواه في مسعاه وكفاحه المضني. عندما يصل المرء إلى الحرية يكون مرهقًا مثل ذبابة تزول ما إن يحل المساء»[١٢].

قرر فاغنر أن الوقت قد حان حتى يستجمع نيتشه قواه ورباطة جأشه، فقد حان الوقت ليسلك أحد الطريقين، أما أن يتزوج أو أن يؤلف اوبرا. مما لا شك فيه أن تأليف اوبرا سيكون مُرعبًا لدرجة أنها لن تكتمل أبدًا. لكن من يهتم؟ فإذا ما وجد زوجة غنية بما يكفي، سيصبح كل شيء على ما يرام[١٣]. يجب أن يدخل نيتشه العالم من مصراعيه ويجب عليه أن يهجر المحكمة الصغيرة التي شّيدها لنفسه ودائرة الرجال الأذكياء النافعين الخاضعين له وشقيقته المحبة الرفيقة مدبرة منزله التي تأتي لخدمته كلما احتاج إليها، وبالتالي ستتوازن حياته، ومن المؤسف أن فون غيرسدورف رجلٌ وإلا كان نيتشه ليتزوجه. توصل فاغنر وكوزيما إلى استنتاجٍ تخميني بشأن قوة علاقات نيتشه بأصدقائه الذكور. كانا ليبراليين فيما يخصّ مثل هذه الأمور فلم تزعجهما في شيء ولم يجدا في ذلك سببًا يمنعه من الزواج.

«يا إلهي، لمَ كان يجب أن يكون غيرسدورف هو الذكر الوحيد بينكم؟

تزوج من امرأة ثرية! فيمكنك السفر وإثراء نفسك وتأليف أوبرا خاصة بك... أي الشياطين جعلك مجرد معلم!»[١٤].

كان هذا فاغنر في أوج نشاطه يخاطب شخصًا وصف نفسه بأنه ذبابة مرهقة في عشية فنائها. لم يكن نيتشه مستعدًا لتلبية حاجته الغريزية وأخبر فاغنر أنه لن يأتي إلى بايرويت في الصيف فقد خطط لقضائه في الهواء الطلق في الجبال السويسرية الشاهقة والمعزولة ليكمل تأليف «التأمل» المقبل في سلسلته.

اعتقد فاغنر بأن هذه فكرة سيئة وأصر على أهمية وجود نيتشه في بايرويت خلال الصيف، فقد وجد الملك لودفيغ أخيرًا نفسه معذّبًا من الفكرة التي لا تُطاق والمتمثلة في عدم رؤية «الحلقة» التي تخيلها السيد حتى إنه قدَّم قرضًا بمائة ألف تالر، وبذلك سيكون أمام نيتشه الكثير ليفعله.

مثل فالهالا وبوتان، كان دار الأوبرا يُبنى حجرًا بعد حجر. كان من المقرر أن يُخصص الصيف لتدريب المطربين والعازفين وإنشاء مجموعة المشاهد وابتكار آلات. فعلى الفالكيري أن تحلّق وعلى الحوريات أن تسبح بطريقة ما، ويجب على التنين أن ينفث النار من دون أن يحرق المنزل.

كيف لفاغنر أن يفقد إحساسه هكذا لدرجة أن يتصور أن صحة نيتشه الهشة يمكن أن تتحمل صيفًا متعبًا كهذا؟ كيف يمكن لرأسه أن يتحمل تلك الضجة؟ علاوة على ذلك لم يكن يريد لأحد أن ينكِّد عليه بذكر موضوع الزواج الذي نادرًا ما تكف والدته عن ذكره.

(٦) كوخ السم:

١. مذكرات كوزيما فاغنر، ١١ نيسان ١٨٧٣.
٢. البروفيسور هيرمان كارل أوسنر، عالم لاهوت وفيلولوجي كلاسيكي خلف فريدريك ريتشل في جامعة بون.
٣. فرانز أوفربيك (١٨٣٧-١٩٠٥).
٤. كارل فون غيرسدورف إلى إروين رود، ٢٤ أيار ١٨٧٣.
٥. «هذا هو الإنسان»، «إنسان مفرط في إنسانيته»، ٤.
٦. «تأملات في غير أوانها»، «دايفيد شتراوس»، ٨.
٧. كارل فون غيرسدورف إلى إروين رود، ٩ آب ١٨٧٣.
٨. نيتشه إلى إروين رود في بازل، ١٨ تشرين الأول ١٨٧٣.
٩. يوهان كارل فريدريش زولنر «طبيعة المذنبات» ١٨٧٠؛ هيرمان كوب «تاريخ الكيمياء» ١٨٣٤-١٨٣٧، يوهان هينريك مادلر «معجزة بناء الكون» ١٨٦١، أفريكان سبير، «التفكير والواقع» ١٨٧٣.
١٠. «تأملات في غير أوانها»، «حول محاسن ومساوئ تاريخ الحياة»، ١٠.
١١. مذكرات كوزيما فاغنر، ٩ نيسان ١٨٧٤.
١٢. نيتشه إلى فون غيرسدورف، ١ نيسان ١٨٧٤.
١٣. مذكرات كوزيما فاغنر، ٤ نيسان ١٨٧٤.
١٤. ريتشارد فاغنر إلى نيتشه، ٦ نيسان ١٨٧٤.

٧
زلزلة المفاهيم

إنه لأمر عجيب حقًا كيف تعيش روحان بجوار بعضهما بعضًا في هذا الرجل، فهو من ناحية يلتزم بأدق طرق البحث العلمي الأكاديمي، ومن ناحية أخرى، هذه الحماسة العاطفية العظيمة والرائعة للغاية والانغماس الكلي في الفاغنرية والشوبنهاورية العصية على الفهم، في الفن والغموض والدين.

البروفيسور فريدريش ريتشل معلقًا على نيتشه إلى فيلهلم فيشر-بيلفينجر، رئيس مجلس إدارة جامعة بازل، ٢ شباط ١٨٧٣.

سيبلغ نيتشه الثلاثين قريبًا، وهو لا يحمل في جعبته سوى كتاباته التي لا تُلاقي رواجًا بين القرّاء، وسمعته بصفته فيلولوجيًا عبقريًا تتلاشى شيئًا فشيئًا خلف ظهره، فلم يكن مثيرًا للإعجاب عند مقارنته بيسوع المسيح الذي بدأ كِرازته التي زلزلت الأرض في الثلاثين من عمره. توفّى والده في الخامسة والثلاثين من عمره وخلّفت وفاته هاجسًا عنده بأنه سيموت في نفس العمر، لكنه تساءل بعد أن وهن عما إذا كان سيعيش حتى ذلك العمر. كان الموت يقرع جدران قلعته ودفاعاته تنهار، وأزماته الصحية تصل إلى ذروتها وتخفت

مع الأدوية، وكثيرًا ما كان يؤدي كلاهما، هاجس الموت وأزماته الصحية، إلى ردود فعل تشنجية مروعة وقيء من الدم، وخلال عدة نوبات شعر بأن ساعته الأخيرة قد حانت، بل وجد نفسه يتوق إلى الموت في عدة مرات.

كانت النظرية الطبية تتأرجح في ذلك الوقت، مثل النظرية الدينية، بين خرافات طب السحر أو الطب الشعبي والفكر العلمي، فقد شخَّص أطباء نيتشه المرموقون التهابات معوية مزمنة مصحوبةً بكمية غير طبيعية من الدم في الجسم مسببةً تمدد المعدة واحتقان الأوعية الدموية بالدم مما يؤدي إلى عدم تزويد الرأس بالدم بشكل كافٍ. خضع للعديد من أنواع العلاجات مثل العلق الطبي والحجامة والذباب الإسباني إضافة إلى علاجات عصرية غير جديرة بالثقة مثل أملاح كارلسباد والعلاج الكهربائي والعلاج المائي وجرعات كبيرة من الكينين وعقار جديد يُزعم أنه معجزة يسمى «محلول هولنشتاين»، لكنه لم يشعر بأي تحسن على الإطلاق.

انضم، على حدِّ تعبيره، إلى أصحاب داء الاخضرار وضعف الأعصاب من جميع أنحاء العالم وهم يتنقلون من منتجع صحي إلى آخر. قرأ مقالاتٍ طبية وفسيولوجية بشراهة، ومع علمه بأن كل العلاجات العجيبة التي خضع لها لم تفده بشيءٍ أبدًا، فقد كان هذا المجال الوحيد الذي تغاضى فيه عن صرامته التحليلية. كان أشبه بقارئ صحيفة ساذج يؤمن بالأبراج، لكنه كان يعرف في قرارة نفسه أن «أشخاصًا مثلنا.. لا يكتفون بالمعاناة الجسدية فقط، بل تتشابك معاناتهم كلها بعمق مع أزماتٍ روحية، لذلك ليس لدي أي فكرة عن الطريقة التي يمكن فيها للطب أو المطبخ أن يجعلني في تمام صحتي كما كنت من قبل». [1]

من المرجح أن يكون التأثير الأسوأ على صحته هو أخصائي المعدة الأشهر في ذلك الوقت الدكتور جوزيف ويل الذي قرر نيتشه زيارته في عيادته في شتاينباد في صيف عام ١٨٧٥ . كتب له وصفة طبية تتضمن حقنًا شرجية كالعادة إضافة الى العلاج بالعلق الطبي، لكن الاضافة الجديدة هو نظام غذائي شافٍ يتكون من اللحوم فقط لا غير، مقسمة على أربع وجبات في اليوم، حتى إنه أعطاه دروسًا في الطهو ليطبق هذا النظام الغذائي الرتيب.

كان كلما عاد إلى بازل لاستئناف عمله يرسل في طلب إليزابيث لتأتي وتعتني به وفي كل مرة تترك إليزابيث والدتها، تبدأ فرانشيسكا بالاشتكاء بلا ملل أو كلل لكليهما، مما يجعلهما يشعران أنهما ابن وابنة عاقّان، إضافة إلى الشعور بالذنب. في وقت لاحق سيعمَد نيتشه إحساسه بتلك القيود العائلية السقيمة عندما سيشعر أن والدته أو أخته تحاولان جذبه بعنف باستخدام تلك القيود.

كانت فرانشيسكا تغار من هروب إليزابيث من رتابة ناومبورغ إلى جانب أخيها لرعايته والاختلاط بدائرة أصدقائه، ومع ذلك، فصحة ابنها المتدهورة تجبرها على السماح لإليزابيث برعايته لمدة أربعة أشهر في عام ١٨٧٠ ولمدة ستة أشهر في عام ١٨٧١ ولعدة أشهر في كل من عامي ١٨٧٢ و١٨٧٣ وفي صيف عام ١٨٧٤. وأخيرًا، في آب عام ١٨٧٥ أقام الأخ واخته معًا في شقة في سبالينترويغ ٤٨ قرب «كوخ السم» حيث بقي روموندت وأوفربيك على مقربة منه.

غالبًا ما تتضمّن الكتابات حول نيتشه عباراتٍ مثل «كان الأخ واخته مقرّبان جدًا من بعضهما» أو «أحب الشقيق والشقيقة بعضهما كثيرًا» وهي عبارات تشيد بحقيقة أن الخدع الأدبية المثيرة لا تُكشف بسهولة.

في عام ١٩٥١ طُبع كتابٌ زُعم أنه لنيتشه تحت عنوان «أنا واختي»، وفي عام ٢٠٠٠ أي بعد قرن كامل من وفاة نيتشه كان لا يزال يُطبع. أما عبارات الترويج عنه فكانت «الصبي الذي نشأ في بيتٍ ممتلئٍ بنساء بلا أزواج. العلاقة الغريبة بين نيتشه واخته، والتي بقيت خفيةً لمدة خمسين عامًا تنكشف أخيرًا في اعترافات الفيلسوف. قصة أخ ذائع الصيت وشقيقته الشابة الطموحة واللذين ترعرعا ليحبا بعضهما جسديًا واستمرا في حبهما لبعضهما في مرحلة النضج، الى حد استبعاد جميع الرجال والنساء الآخرين من حياتهما. يكفي المرء قراءة بضع صفحات فقط من هذا الكتاب الذي يسلب الأنفاس ليدرك سبب التكتيم عليه طوال هذه السنوات. يروي فيلسوف القرن التاسع عشر الأعظم، بكل بساطة وبجدية مخيفة، كيف سُحب تدريجيًا إلى مصيدة الحب الخطيرة بشكل استثنائي والتي منعته من الزواج وتسببت في انتحار زوج

أخته الوحيد. خُط كتاب «أنا واختي» في مستشفى في فيينا، ومما لا شك فيه أنه انتقام مدروس من عائلته لرفضهم السماح له بنشر اعتراف سابق مُلطف بعنوان هذا هو الإنسان، والذي لم يُنشر إلا بعد عشر سنوات من وفاته. بقي كتاب «أنا واختي» مخبأً أكثر من خمسين عامًا لأنه لم يكن بالإمكان الإعلان عنه إلا بعد وفاة الممثلين في هذه المسرحية الكبرى».

إنها قصة منفرة منذ بدايتها، حيث تسللت إليزابيث إلى سريره «بأصابعها الصغيرة السمينة» لأول مرة في ليلة وفاة شقيقها الصغير جوزيف. بما أن إليزابيث كانت تبلغ من العمر عامين ونيتشه أربعة أعوام آنذاك، فلم يفكرا بعقل ومنطق في بداية الأمر، ولكن بعد ذلك وجد الحس السليم نفسه متأثرًا بالنزعة الحسية بمجرد نشر الفضيحة. حقق الأستاذ الكبير والتر كوفمان في الكتاب فيلولوجيًا بمهارة كبيرة، لكن الأمر استغرق سنوات قبل أن يُكشف زيفُ الكتاب الذي زوره ساموبل روث[٢]. تضمنت كتبه المنشورة، التي دائمًا ما كانت تُنسب لكاتب مجهول أو يختبئ تحت عباءة أسماءٍ مستعارة، «أزواج السيدة تشاترلي» التي نُشرت عام (١٩٣١) و«حياة فرانك هاريس الخاصة» (١٩٣١)، «بوماراب: قصة ذكر بتول» (١٩٤٧) و«كنتُ طبيب هتلر» (١٩٥١) و«انتهاكات الطفلة مارلين مونرو على لسان صديقها الطبيب النفسي» (١٩٦٢).

إضافة الى ذلك، كتب روث مراجعات آيروتيكية بنصوص جنسية واضحة لكتّاب معاصرين من دون أخذ إذنهم، مما قاد كتّاب العصر آنذاك إلى الاستشاطة غضبًا وتقديم شكوى وقعها ١٦٧ منهم، من ضمنهم روبرت بريدجز، ألبرت أينشتاين، تي إس إليوت، هافيلوك إليس، أندريه جيد، كنوت هامسون، إرنست همنغواي، هوجو فون هوفمانستال، جيمس جويس، دي إتش لورنس، توماس مان، أندريه موروا، شون أوكاسي، لويجي بيرانديلو، برتراند راسل، آرثر سايمونز، بول فاليري وويليام بتلر ييتس[٣].

«أنا واختي» لا يزال يُنشر واسم نيتشه لا يزال مخطوطًا على غلاف الكتاب بدون أي ذكر للمؤلف الحقيقي. حتى اليوم، وبعد شراء الكتاب، يتطلب الأمر قدرًا معينًا من التحقيق والتمحيص للوقوف على الحقيقة.

كانت إليزابيث فتاة ذكية ومتّقدة الذهن، ولهذا السبب انتقدت فرانشيسكا ابنتها لكونها ذكية للغاية على شاكلة أخيها، فمأساة إليزابيث تمثلت بجنسها وتنشئتها ووالدتها، لو أنها ولدت فتىً لكانت الأمور اختلفت للغاية. لم يكن هناك مدرسة ثانوية للفتيات حتى نهاية القرن، فبينما أمضى نيتشه سنواته التعليمية في بفورتا محلقًا في سماء الأفكار في بحث صارم عن الحقيقة والذات، كانت مدرسة فراولاين بارسكي للفتيات في ناومبورغ ترسخ العكس تمامًا في إليزابيث. إن مهمة هذه المدرسة إلغاء شخصية الفتاة الحقيقية وإبدالها بشخصية اصطناعية وحفظها في قالب مغلّف بالسكَّر يُعلن عن عذراء مثالية للحياة الزوجية، ورقة بيضاء مهيأة لتحمل بصمة أي زوج يحكم مستقبلها. إن تعريف المرأة في المعجم في ذلك الوقت هو: «المرأة تكمل الرجل؛ توحيد الاثنين هو مثال قاطع على الألوهية في الإنسان، فالرجل شجرة الدردار وهي كرِمة العنب، يسعى هو للأعلى مليئًا بالقوة بينما هي حساسة معطرة ومتوهجة الجوهر وسهلة الانحناء...»[٤].

كان يجب أن تتظاهر عذراء ناومبورغ الذكية بأنها فتاة مشوشة الذهن وضحلة التفكير إن رغبت في إيقاع زوج في حبائلها، ففي ذلك العصر لم يكن يُفضل أن تكون الفتاة ذكيةً جدًا، ونتيجة لذلك تابعت إليزابيث تمثيل دور الساذجة طوال حياتها. في الواقع، لقد ناسبها هذا الدور بشكل رائع، فقد عرض عليها شقيقها الذكي العديد من الفرص للتعليم الذاتي لكنها لم تستغل أيًا منها أبدًا. كان الأمر مزعجًا ومقلقًا للغاية، فحتى عندما بلغت سبعينيات عمرها، وُصفت بأنها «شابة في جوهرها تتحمس بلقاءِ هذا الشخص أو ذاك كأنها في السابعة عشرة من عمرها». لاحظ نيتشه أيضًا أن إليزابيث مصممةٌ تصميمًا قويًا ومدى الحياة على مقاومة المطالب الفكرية، لقد كانت متكبرة ومهتمة بمجاملة أعضاء الطبقة الأرستقراطية. باختصار، كانت «تجسيدًا دقيقًا لكل ما حاربه نيتشه»[٥].

لم تمنح الجدة إيردمث والدتها فرانشيسكا دورًا جادًا ولم تحملها أي مسؤولية ولا أي رغبة لتكون أو تصبح امراة أخرى، فلم يكن أمامها سوى

اتباع عادتها المتمثلة في لعب دور طفلة عاجزةٍ في ما يخص الإرادة الحرة، فكل ما حل، سواء أكان خيرًا أم شرًا، كان إرادة الأب السماوي الأعلى، أما الذكر فكان يأتي في المرتبة الثانية بعد الرب. كانت الأجيال الثلاثة من نساء عائلة نيتشه عنيدات وقويات الشكيمة لكنهن حافظن على طهارة ضمائرهن بأن بقين «طفلات الرب» داخل الكنيسة وتحت سلطة الرجل.

كان نيتشه يعرف أن لاماه أنثى ذكية فعاملها على هذا النحو، وهذا التصرف كان غير مُستساغ في عصره. طوال حياته كان يقدر النساء الذكيات ويوطد علاقات صداقة دائمة معهن، وقد وقع في حب النساء اللبيبات فقط، بدءًا من كوزيما، ومقتَ النساء الجاهلات المتعصبات.

كان يتعامل دائمًا مع إليزابيث كفردٍ مفكرٍ وحاول تشجيع استقلالها الفكري مبتغيًا تحويلها إلى كاتبة نثر. «ليتها تتعلم الكتابة بشكل أفضل! وعندما تروي شيئًا ما يجب أن تترك عادة قولها كلماتٍ مثل: آه وأوه»[٦]، كتب لها قوائم بكتب لتقرأها وشجعها على تحسين فهمها وأوصاها (بلا جدوى) أن تتعلم عدة لغات، وأرادها أن تحضر محاضرات جامعية كمستمعة، وهذه هي الطريقة الوحيدة التي تستطيع بها فتاة الدخول إلى قاعة المحاضرات آنذاك.

عارضت فرانشيسكا كل ذلك بشدة. فإن كانت إليزابيث ستكبر لتصبح مجرد زينة منزلية، فيجب عليها الابتعاد عن أي فكرٍ أو نشاطٍ مستقل؛ يجب عليها تأدية المهمات المنزلية لوالدتها في ناومبورغ وحضور حفلات الشاي وإعطاء دروسٍ كل يوم أحد والعمل بإبرتها للخياطة في مدرسة دارنينغ لأطفال الفقراء.

لو وُهبت إليزابيث فرصة التعليم الجيد ربما لم تكن لتغتنمها، فقد استمتعت طوال حياتها بفكرتها الخاصة عن الأنوثة واعتنقت عن رضىً دور المرأة العاجزة الجاهلة مدركةً كيف يمكن أن يعفيها هذا من تحمل المسؤولية المطلقة عن تصرفاتها ومعتقداتها. عندما كانت تلميذة كاتبها نيتشه من بفورتا معترفًا بشكوكه الدينية وحاثًا إياها للتحقيق في أفكارها الخاصة، فتجنبت مواجهة هذه القضية «بما أنني لا أستطيع التخلي عن اللاما في داخلي، فأنا مرتبكة تمامًا وأُفضِّل عدم التفكير في الأمر لأن ما أتوصل اليه هراء»[٧].

كانت مستعدة لتكرار هذا، مع بعض الاختلافات، كلما طُلب منها أكثر مما كانت على استعداد لتقديمه: التراجع إلى قوقعة الأنوثة بكل ما تتسم به من تفاهة غامضة وغرابة، وغالبًا ما كانت تتمسكن قائلةً إنها «مجرد هاوية»، فلم ترغب أن يخلط أحدٌ بينها وبين النسويات المسميات «نساء جدد»، اللواتي وصفتهن بازدراء «يقاتلن من أجل حقوقهن في ارتداء البناطيل والحقوق السياسية المتمثلة في تصويت الماشية»[٨].

وصف الطالب لودفيغ فون شيفلر الشقة في سبالنترويغ حيث أقام نيتشه وإليزابيث معًا في عام ١٨٧٥. ارتاد هذا الطالب بازل لحضور صفوف ياكوب بوركهارت، لكنه سرعان ما انتقل إلى محاضرات نيتشه الذي «أسره وأربكه» من خلال محاضراته و«عقله الغامض»، فوصف أسلوب حياة الأستاذين بلغ أوج مراحل الاختلاف.

في شقة بوركهارت المتموضعة فوق متجر لبيع الخبز، احتلت الكتب مساحة الأرضية على كل جانب من الأريكة القديمة المتداعية حيث يجلس، فما لم يكن الزائر راضيًا بوقوفه في مكانه، لم يكن لديه خيار سوى بناء كومة مترنحة من الكتب والجلوس عليها.

أما شقة نيتشه فتمتلئ بالكراسي الناعمة الجميلة المحمية بأغطية دانتيل تزين أذرعها ورؤوسها وتترنح الزينة وزهريات الورد على طاولات هشة، ويتخلل المشهد ضوء زهري خفيف يدخل عبر النوافذ المكتومة بدانتيلٍ ملون فغطت ألوان مائية باهتة الجدران الشاحبة. أعطى المشهد فون شيفلرَ الشعور بأنه ضيف في منزل صديقته المرحة وليس أستاذه[٩].

كان الفرق بين الأستاذين كبيرًا في قاعة المحاضرات أيضًا، فدخول بوركهارت غرفة الصف كان أشبه بانفجار قنبلة أو فرقعة جهاز حارق بفعل نار الفكر، وأطلق عليه الطلاب لقب «الرواقي الضاحك». كان جليًّا عدم اهتمامه بمظهره الخارجي، فشعره قصير وبدلاته كان قد عفَّى عليها الزمن وبلا أي تنسيق في الملابس.

أما نيتشه فكان يدخل قاعة المحاضرات بتواضع وهدوء لدرجة أنه لا يمكن ملاحظته أحيانًا. كان وقورًا في كلامه ويمشط شعره وشاربه بعناية

ويرتب ملابسه بأناقة فكان يسهل ملاحظة اهتمامه بالأزياء التي كانت ترجح آنذاك كفة السراويل ذات الألوان الفاتحة والستر القصيرة وربطات العنق ذات اللون الفاتح.

لكن على الرغم من كونه تقليديًا في شكله الخارجي، أوقع نيتشه شيفلر في شباكه، فعندما سمع تفسيره لأفلاطون، كفّ عن إيمانه بأسطورة «اليونان المشمسة البهيجة»؛ كان يعلم أنه يستمع إلى التفسير الحقيقي مما جعله متعطشًا لمعرفة المزيد.

في مواجهة شغف ألمانيا المستشري على نطاق واسع باللغة الهيلينية، كان لدرس نيتشه القاسي حول وحشية كل ما هو عتيق أثرًا مربكًا على غالبية تلاميذه، فرغم أن الدرس شغف فون شيفلر، إلا أنه تسبب بإخلاء القاعة الدراسية من الطلاب. في صيف عام ١٨٧٤، استقطبت محاضرات نيتشه حول مسرحية إسخيلوس «حاملات قربان الخمر» أربعة طلاب فقط ولم يكونوا على درجة عالية من التميز، فقد وصفهم نيتشه بأنهم «معوّقوا الجامعة»، وأحدهم كان منجدًا درس اللغة اليونانية لمدة عام واحد فقط.

ألغيت حلقته الدراسية حول صافو(*) بسبب انعدام المشاركين وألغيت محاضراته حول البلاغة أيضًا، مما أتاح له متسعًا من الوقت لكتابة ثالث تأمل في غير أوانه شوبنهاور مربيًا، وهو مقال في ثمانية أقسام نُشر في عام ١٨٧٤ واشتهر بفضل عنوانه المُضلل، فهو لا يتناول فلسفة شوبنهاور بقدر اهتمامه بالمثال الأخلاقي للفيلسوف الذي يتحمل طوعًا المعاناة التي ينطوي عليها الصدق.

يجب أن يدل المعلم الطالب على الطريق الذي يُفضي الى إدراكه شخصيته، فبيت القصيد من الحياة هي أن لا تكون نسخة عن أحدٍ ما. ومع ذلك، يمكن للطالب، الذي ينخرط في مهمة البحث عن تجلي الروح، الاقتداء بثلاثة أنواع من الرجال؛ «الإنسان الروسوّي»، وهو رجل النار العظمى، شبيه تايفون الأفعى العملاقة التي تعيش تحت جبل إتنا، يولّد

(*) صافو: شاعرة إغريقية ولدت في جزيرة لسبوس في بحر إيجه باليونان بين عامي ٦٣٠ و٦١٢ قبل الميلاد وتوفت عام ٥٧٠ قبل الميلاد. (المترجم)

تاثيرًا ثوريًا مثل الثورة الفرنسية. ثم هناك «الإنسان الغوتوي»(*)، مثال تحتذي به الأقلية، للكائنات المتأملة من طينة الكبار، ويسيء الجميع فهمه. أخيرًا «الإنسان الشوبنهاوري»؛ وهو الإنسان الصادق الذي يعطي أهمية ميتافيزيقية لكل نشاطاته[١٠].

يكتب نيتشه أيضًا بامتنان عن شوبنهاور باعتباره كاتبًا رفيعًا عبّر عن أفكاره الخاصة بصوت عالٍ باستخدام نثر مفهوم، فهو يضع مونتين فقط قبل شوبنهاور في سلم فلاسفته المفضلين، ويفضله فقط من حيث القدرة على التعبير عن الحقيقة بكياسة. من الواضح أن نيتشه أخذ هذه الخصلة على محمل الجد لأن تأمله حول شوبنهاور يُظهر تغييرًا في أسلوبه النثري. لقد انتقد فاغنر وكوزيما وروود أعماله السابقة بسبب أسلوبه التربوي الجاف المفتقر إلى الوضوح وتجاهله المتعجرف للبراهين المتعاقبة، لكن هذا التأمل جمع بين أناقة شوبنهاور وإنسانية مونتين على حد سواء.

إن نصيحته لأولئك الذين يبحثون عن الحقيقة كانت تنتهي حتى ذلك الوقت بكلماتٍ غامضة وأقوالٍ غير مفيدة إلى حد بعيد عن الكاهن الدلفي، تفيدُ بأن الصدق والأصالة لا يمكن أن يتحققا إلا بعد أن يتحولا إلى شيءٍ غامضٍ وضبابيٍ يُعرف باسم الذات. لكنه هجر اليونان الآن وتجرأ أن يستخدم أفكاره وتجربته الخاصة لتقديم توجيه عملي «دع الروح الشابة تنظر إلى الحياة وتتساءل؛ ما الذي أحببتُه حقًا حتى الآن؟ ما الذي حلق بروحك عاليًا؟ ما الذي روض روحك وأسعدها في الوقت نفسه؟ رتب هذه المواضيع المبجلة أمامك فربما ستمنحك طبيعتها وتسلسلها قانونًا، قانونًا أساسيًا لذاتك الحقيقية»[١١].

إن نص شوبنهاور مربيًا أكثر خفةً من نصوصه السابقة أيضًا، حيث يلعب نيتشه بالكلمات على نوتات البهجة مغويًا القارئ بالعديد من الأمثال الصحيحة مثل:

(*) الروسوّي: نسبةً إلى روسو، والغوتوي: نسبة إلى غوته. (المترجم).

«فعلى المرء أن يسلك طريقًا موحشًا ومحفوفًا بالمخاطر في هذا الوجود، خصوصًا أننا سنخسر هذا الطريق لا محالة»(١٢).

«يتحقّق الهدف من جميع الترتيبات الإنسانية من خلال صرف انتباه الفرد عن إدراك الحياة»(١٣).

«يرتبط الفنان بعشاق فنه كما يرتبط المدفع الثقيل بسربٍ من العصافير»(١٤).

«ليس للدولة أي فائدة في تناول الحقيقة كما هي، بل هي مهتمة في الحقيقة التي تنفعها»(١٥).

«تتطلب الدولة رجالًا يقدمون الولاء الأعمى الذي اعتادوا على تقديمه للكنيسة»(١٦).

«تنحسر مياه الدين تاركةً وراءها مستنقعات وبرك مياه آسنة، فتنجرفُ الأمم مرة أخرى بعيدًا عن بعضها بعدائية كبيرة، توّاقةً لتمزيق بعضها بعضًا الى أشلاء. إن العلوم، التي يُسعى إليها دون أي كبح جماح وتحت مبدأ «عدم التدخل»(*) الأعمى، تهُشم وتُذيب الإيمان الراسخ، فيجتاح الاقتصاد المالي الخسيس الدول والطبقات المثقفة»(١٧)، وهي فكرةٌ ترتبط بملاحظاته التي دوَّنها على عجلٍ بخصوص فاغنر أثناء كتابته عن شوبنهاور، خصوصًا أنه كان يراقب القوة الماحقة لماكنة الدعاية لبايرويت تتقدم على عجلاتٍ من ذهب.

بعدما نال منه التعب بسبب الموضوعين قرر قضاء عطلة صغيرة في قرية تشور حيث قابل مجموعة مثقفة ضمت فتاة جميلة من بازل تدعى بيرتا رور. راسل نيتشه إليزابيث مخبرًا إياها أنه قد «قرر تقريبًا» أن يطلب يدها للزواج. يبقى الجدل في ما إذا كان قد «قرر تقريبًا» خطبتها لإرضاء فاغنر أم لا، فهو محل جدلٍ، لكن مسألة الزواج عشعشت في ذهنه. كان صديقا طفولته فيلهلم بيندر وغوستاف كروغ قد خطبا مؤخرًا، أما نيتشه الذي خلفاه وراءهما عازبًا

(*) مبدأ عدم التدخل: نظام اقتصادي يُفيد بعدم تدخل الحكومات بأي شكل من الأشكال بتعاملات المؤسسات الخاصة. (المترجم)

فكان يفكر ويزن مزايا الزواج. لقد عارض في النهاية الانقطاع المحتمل للعمل الذي قد ينجم عن الزواج، لكنه لم تكن لديه ثقة تامة في قراره.

استمر فاغنر في إصراره بأن يزوره نيتشه لقضاء الصيف عنده. في ٥ آب، وصل نيتشه إلى بايرويت وفور وصوله مرض كثيرًا ولجأ إلى سريره في أحد الفنادق. كان فاغنر نفسه مرهقًا ومنهكًا لكنه أتى شخصيًا لنقل نيتشه إلى وانفريد، القصر المكتمل حديثًا والقريب من دار الأوبرا الذي كان من المقرر أن يكون منزل العائلة، وبمجرد وصوله هناك، شعر نيتشه بالتحسن على الفور.

في الأصل، كان فاغنر قد أطلق على البيت اسم «منزل المصاعب» بسبب كل الظروف الصعبة التي تفاقمت خلال بنائه، ولكنه كان اسمًا سيئًا لا يليق بقصرٍ ستتوارثه الأجيال القادمة. في إحدى الليالي كان يقف على الشرفة تحت ضوء القمر الفضي وذراعيه حول خصر كوزيما، وكان الاثنان ينظران إلى الضريح المقبب الواسع في الحديقة حيث خططا لقضاء الأبدية معًا إلى جانب كلابهم الأليفة (كان روس أول من دشن القبر قبل سيده)، عندها قرر إعادة تسمية قصر وانفريد «النجاة من الوهم».

على جانبي بوابة وانفريد الفخمة نُقش باللغة الالمانية «ها أنا ذا أسمي هذا البيت»، وأيضًا «حيثُ وجدت أهوائي الحمقاء الطمأنينة»، بيد أن السلام والتحرر من الوهم كانا أبعد ما يكون عن ما اكتشفه نيتشه في ذلك المكان.

لم يكن هناك تناقض أكبر بين قصر وانفريد والعزلة الرومانسية وحميمية تريبشن على صعيد النمط والطابع، بنى فاغنر وانفريد وبنى ووتان فالهالا بحسب مقاييس إلوهية، فبشكله المربع وهيبته، كان أقرب إلى مجلس بلدية منه إلى منزل. كانت الواجهة القاتمة المكسوة بكتل كبيرة من الحجر خالية من الزخارف تقريبًا، وكل الاهتمام مركز على شرفة نصف دائرية ذات أبعاد بابوية حيث يمكن أن يقف فيها في المناسبات الرسمية مثل العرض الأول لسمفونياته أو عيد ميلاده أو يقف ببساطة ليلوح بفخر للفرق الموسيقية التي تمر أسفل الشرفة تعزف مختارات من أوبراه.

يقول فاغنر «الرجل الذي يُسعد آلاف الناس يجب أن يحظى بالقليل من

السعادة»، وعلى الرغم من جوهره الثوري بنى لنفسه قصرًا بحسب التقاليد الملكية للهندسة المعمارية الترهيبية.

دخل الضيف من باب أمامي مركزي مزين بشعارِ نبالةٍ مصنوع من الزجاج الملون ولوحة مجازية للفن المستقبلي يقف فيها الطفل سيغفريد فاغنر ذو الخمسة أعوام نموذجًا. امتدت قاعة المدخل الواسعة لتصل إلى جميع طوابق المنزل حتى كوة السقف. أضفت الجدران الحمراء خلفية نابضة بالحياة لبانثيون التماثيل الرخامية النصفية وتماثيل الآلهة الحارسة للبيت سواء كانت بشرية أو ميثولوجية؛ تمثلت بسيغفريد وتانهاوزر وتريستان ولوهنغرين وليزت والملك لودفيغ. لقد تسلّق فاغنر وكوزيما قممًا عالية بما يكفي لاحتقار الجميع.

في القاعة التي تتسع لإقامة تجارب أداءٍ وبروفات، تعرف نيتشه على بيانو بيكستين(*) المعدّل خصيصًا، والذي كان هدية من الملك لودفيغ. في تريبشن، كان البيانو يتربع بأبهة في المكتب الأخضر الصغير الذي يُعتبر القلب المفكر للمنزل، أما في وانفريد فقد حجّمه أرغن كبير هدية من الولايات المتحدة الأمريكية. عند الاستمرار بالتقدم عبر الصالة، تفضي أبواب ضخمة إلى غرفة استقبال الضيوف والمكتبة في الآن ذاته والتي تبلغ مساحتها مائة متر مربع، صمم مخططها الزخرفي النحات لورنز غيدون من مدينة ميونخ، أحد أبرز مصممي الملك لودفيغ وهو خبير في المزج بين تصميم العصور الوسطى المجدد مع الطراز الباروكي المجدد. وصلت خزائن الكتب المنحوتة بمهارة إلى ثلثي الجدران نحو السقف المرصوف الذي تتدلّى منه ثريا عملاقة، وعلى امتداد الحافة الخارجية للسقف امتد إفريز مزخرف لشعارات النبالة لكل المدن التي تفاخرت باحتضانها لجمعيات فاغنر. كان هناك شريطٌ عريضٌ مسطحٌ يمتد بين الجزء العلوي من خزانات الكتب وشعارات النبالة المتعددة الألوان، مزخرفٌ بورق حائط زهري يضم صورًا للعائلة وشخصيات بارزة أخرى.

امتدت النهاية القصية للغرفة المقابلة لأبواب المدخل إلى قاعة نصف

(*) بيانو بيكستين: هدية من الملك لودفيغ لريتشارد فاغنر من صنع كارل بيشتاين، متخصص ألماني في صنع آلات البيانو.

دائرية من طابق واحد، حيث تمتد الشرفة الملكية المحببة من سقفها. أما النوافذ فكانت تمتد من السقف حتى الأرضية مغطاة بستائر من الساتان والمخمل وتمتد حول بيانو كبير آخر هدية من شركة Steinway and Sons of New York، ولكن عندما كان فاغنر يجلس ليعزف على هذا البيانو مع عائلته مساءً، لا يُمتع نظره بجبال ريغي وبيلاتوس كما اعتاد أن يفعل في تريبشن، فهنا يمتع نظره بمنظرٍ مختلفٍ تمامًا، حديقة خضراء يتربع فيها قبر ينتظره بأبهة.

في أول أمسية لنيتشه في وانفريد، توجه فاغنر الى البيانو للترفيه عن ضيوفه وعزف موسيقى «عذارى الراين» (Rhinemaidens) من «غسق الآلهة» (Götterdämmerung). ردًا على ذلك، وبسبب جنون العظمة المتمثل في وانفريد، عزف نيتشه موسيقى برامز «أغنية النصر» (Triumphlied) والتي سمعها في الحفل وأعجب بها، وهذا أهان فاغنر كثيرًا. قبل عشر سنوات، تجادل فاغنر وبرامز حول مسودة أوبرا تانهاوزر، حيث أراد فاغنر عزفها، وما إن بدأ مشاجرةً صغيرة حتى عبر حدود العقل. فاغنر الجالس في غرفة ضيوفه الرائعة يستمع إلى الموسيقى التي يعزفها نيتشه، ضحك بصوت عالٍ قائلًا إن برامز لم يفهم «مجموع الأعمال الفنية» (Gesamtkunstwerk)، ففكرة إدخال كلمة «عدالة» إلى الموسيقى سخيفة بحد ذاتها.

صارت مقطوعة (Triumphlied) الموسيقية كأنها كائنٌ بارزٌ مغلولٌ باللون الأحمر. طوال الأسبوع التالي وفي كل مرة يمر فيها فاغنر بجانب البيانو، يرمقه المستطيل الأحمر بنظرة غضبٍ، فيغطيه فاغنر، لكن نيتشه كان يعيده الى ما كان عليه عند عودته. أخيرًا، في يوم السبت، جلس فاغنر إلى البيانو ليعزف، وكلما طال عزفه ازداد غضبه، واصفًا تأليفه للموسيقى بالهزيل، وكأن هاندل ومندلسون وشومان «قد لُفوا في قطعة من الجلد». كتبت كوزيما بجذلٍ أناني في مذكراتها يدفعها غضبها لأجل زوجها أنها سمعت أشياء سيئة عن نيتشه في الجامعة، وأن ثلاثة أو أربعة طلاب فقط حضروا محاضراته وبهذا عُزل عن التعليم[١٨].

كان فاغنر غاضبًا من خيانة نيتشه الموسيقية الملموسة له تمامًا كما كان

نيتشه غاضبًا من مادية فاغنر والتي لم تكن شيئًا جديدًا على الإطلاق. هذا ما جرى، فقد استسلم السيد لاقتصاد المال الحقير الذي انتقده مع نيتشه بشدة من قبل. كانت بايرويت عالمًا بعيدًا عن المهرجان الديمقراطي الحر للتجديد الثقافي الذي تصوراه من خلال المثالية التي تشاركاها.

فُجع كلاهما لفقدان حميمية صداقتهما المعهودة، فلم يعد نيتشه الرفيق الوحيد للسيد بل أصبح مجرد فردٍ بين حشود دولية ضخمة تتدفق دون توقف خلال قاعات وانفريد الشاسعة التي يرتد عنها الصوت في هيئة صدى، وكل ذلك في سبيل تحقيق المشروع. كان مقررًا إقامة المهرجان الأول في العام التالي، وكان الوقتُ قصيرًا جدًا لاستكمال دار الأوبرا والتوزيع الموسيقي النهائي للمقطوعة الموسيقية ناهيك عن إيجاد وتوظيف وتدريب المغنين الذين يتوجب أن يمثلوا ويغنوا بشكل يناسب الملحمة الشعرية، وفي النهاية استغرق الموضوع كله سنة إضافية، فافتُتح في صيف عام ١٨٧٦.

أثناء زيارة نيتشه، كانت وانفريد تصدح بثيماتٍ فاغنريةٍ، فالفالكريون وعذارى الراين والآلهة والبشر يدندنون أو يغنون أو يعزفون أعمال فاغنر بصوت عالٍ، واستقبل القصر العديد من الرجال وأقيمت الولائم التي تنضح مجاملاتٍ وإطراءاتٍ للعديد من الشخصيات البارزة التي اقتيد بعضها في جولاتٍ داخل القصر لرؤية التصاميم. بحلول نهاية الأسبوع، أصبح الجو جليديًا للغاية بين فاغنر ونيتشه المُهمل، حتى وصل به الأمر أن أهان فاغنر عن عمد بتتفيه اللغة الألمانية بقوله إنها لم تمنحه أي متعة وأنه يفضل التحدث باللغة اللاتينية. غادر نيتشه في نهاية الأسبوع محطّمَ الأعصاب ومتوترًا ومصابًا بالأرق. «الطاغية»، كما كتب في دفتر ملاحظاته، «لا يعترف بأي فردانية سوى فردانيته وفردانية أصدقائه الذين يثق بهم. عظيم هو خطر فاغنر»[١٩].

لم يكن لديه الكثير ليتطلع إليه عند عودته إلى بازل حيث طبع الصمت على عيد ميلاده الثلاثين. أفضل هدية عيد ميلاد تلقاها كانت وصول ثلاثين نسخة من كتاب «شوبنهاور مربيًا» المنشور حديثًا، فأرسل نسخة إلى فاغنر

الذي أجاب ببرقية سريعة «عميق وعظيم. جريءٌ وحديثٌ في تقديم كانط. لا يفهمه إلا الذين أصابهم مس شيطاني»[٢٠]. أحب هانز فون بولو الكتاب أيضًا، وأرسل خطاب شكرٍ لنيتشه لردم الصدع إلى حد ما بينهما، والذي نشأ في الأساس بسبب نقده القاسي لنيتشه كمؤلف موسيقي. أشاد فون بولو بروعة الكتاب وعبر عن رأي مفاده أنه على بسمارك اقتباس مقاطع معينة من الكتاب في البرلمان.

شعر نيتشه بالتحسّن على الفور، حتى إنه ذهب لقضاء عيد الميلاد في بيته في ناومبورغ ولم يحزم دفاتر عمله بل مؤلفاته الموسيقية وحسب. قضى عطلة سعيدة بتعزيز إيمانه بموهبته الموسيقية، مُعيدًا تأليف القطع الموسيقية ومُحسنًا مقطوعاته وعزفها أمام فرانشيسكا وإليزابيث اللتين شجعتاه بصفتهما جمهوره الصغير المتحمس. خلال هذه الفترة الموسيقية الهادئة، لم تستطع حتى خطب ناومبورغ الدينية تخريب مزاجه المرح أو زعزعة حالته الصحية، على الرغم من وجود حدث محزن وهو وفاة فيلهلم فيشر بيلفينغر، رئيس مجلس الجامعة.

كان فيشر بيلفينغر هو الذي أوصى أن يصبح نيتشه أحد أساتذة بازل في الأصل. لقد كان بمثابة معلمه وحاميه منذ ذلك الحين. كان غياب نيتشه الطويل عن التدريس بسبب حالته الصحية يعني أن مساهمته الأخيرة في الجامعة كانت محدودة، ولم تكن منشوراته المثيرة للجدل تضيف شيئًا من المجد إلى عراقة المؤسسة، ومع ذلك ظلت معنوياته عالية، وربما كان لهذا علاقة بفكرة طرحها في التأمل الذي يحمل اسم شوبنهاور؛ بأن الحرية وحدها هي التي يمكنها تحرير العبقري، وما غير الفيلسوف اللامنتمي إلى أي مؤسسة يمكنه التفكير بأصالة، وبهذا فإن انفصاله عن بازل يمنحه الحرية.

كتبت كوزيما إلى نيتشه خطابًا مهذّبًا وحاذقًا وضحت فيه أنها وفاغنر سيشرعان برحلة أخرى لجمع التبرعات، وهذه المرة سيتوجهان إلى فيينا، ولم يكن هناك من يسعدهما أن يأتمناها على أطفالهما، أغلى كنوزهما، أكثر من إليزابيث، فهل ستجد في قلبها الصلاح والطيبة لتتحمل عبء الإقامة في وانفريد وتأخذ دور الأم لترعى بناتها وسيغفريد الصغير أثناء سفرهما؟ هل كان فظًا طلب هذه الخدمة من أخت نيتشه؟

تذمرتْ فرانشيسكا بشدة جرّاء هذا الطلب، لكن إليزابيث لم تأخذ بنظر اعتبارها أي عائق، فقد كان هذا بداية تسلّقها السلم الاجتماعي. كما يتضح فيما بعد، حققت إليزابيث نجاحًا مبهرًا في زيارتها لوانفريد، مستخدمة هذه المهمة لوضع حجر الأساس لشغل منصب في إدارة القصر، بأن تكون أكثر من مجرد خادمة وأقل من صديقة، أقرب إلى أن تكون سيدة متوفرة عند الحاجة.

كان شتاء ١٨٧٤-١٨٧٥ باردًا ومثلجًا. ما بين تشرين الثاني وكانون الاول، تأزمت حالة نيتشه الصحية بشدة، ولحسن الحظ لم يكن لديه سوى عملٍ سهلٍ في باداكوديوم، فحول أفكاره نحو تأملٍ جديد يتمحور حول «الفنّ». كان يستند بأفكاره على أساس تجربته مع فاغنر، لكن قبل أن يتمكن من وضع هذه الخطة قيد التنفيذ، صُدم بخبرين «زلزلا أركان الروح» وانتكست صحته لبقية العام.

كان الأول قرار هاينريك روموندت، صديقه المقرب وأمين سره في «كوخ السم» الذي اعتبر أن أفكارهما امتدادًا لبعض تقريبًا؛ قرر أن يصبح كاهنًا في الكنيسة الكاثوليكية الرومانية. عند سماعه الخبر، شعر نيتشه كأن طعنة عميقة أصابته، هل كان روموندت في كامل قواه العقلية؟ هل يمكن شفاؤه بنوع من العلاج الطبي مثل الحمامات الباردة أو ما شابه؟ لماذا اختار روموندت الرومان الكاثوليك من بين جميع الكنائس؟ كانت هذه الطائفة من أكثر الطوائف المسيحية سخفًا بآثارها الخرافية وعظامها وجماجمها المكتسبة من بيع صكوك الغفران، وتعدت منذ خمس سنوات سخافات العصور الوسطى هذه لتصل برفع البابا إلى منزلة العصمة، وبهذا كانت الكنيسة الرومانية بمثابة صوت رنين أجراس مثبتةٍ على قبعة مهرج. هل هكذا يجازي روموندت سنوات من الصداقة الوثيقة والتفكير العقلاني المختلط بالفلسفة الذي كان يغذيهما؟

كانت الأسابيع القليلة التي بقي فيها روموندت في بازل مؤلمة للجميع، فكانت الدموع تنهمر من عينيه من دون أن يتمكّن من التعبير عن سبب قراره أمام نيتشه الذي امتلأ غضبًا ولم يتفهم. في اليوم الذي غادر فيه روموندت إلى معهد تعليم اللاهوت، رافقه نيتشه وأوفربيك إلى محطة القطار، وظلّ يتوسل

إليهما مساحته. بعد أن أغلق الحمالون أبواب القطار، شاهداه يصارع نافذة العربة محاولًا إنزالها ليقول لهما شيئًا بينما كانا يقفان على المنصّة. لم تتزحزح النافذة العنيدة قيد أنملة، فكان آخر ما شاهداه جهده المبذول لإخبارهما شيئًا لم يسمعاه مطلقًا، بينما انسل القطار ببطء جارًا أحماله من المحطة، فاستسلم نيتشه على الفور لصداع دام ثلاثين ساعة مع قيء متكرر.

أما الخبر الثاني الذي زلزل روحه وأساساته فهو يخص شريك سكنه الثاني في «كوخ السم» أوفربيك، الذي تقدم لخطبة فتاةٍ ما ليتزوجها. فرَّقته الخرافات عن روموندت والحب سيبعده عن أوفربيك. هل تبقّى له صديقٌ يعتبره الأقرب له في العالم؟ ليس هناك أحدٌ غير أمه واخته، فكران يؤثران سلبًا على فكره. إلا أن الحب قد يُنقذُ الوحدة، ومع إقبال أوفربيك على الزواج شرع نيتشه يُجدف نحو مغامرة رومانسية صغيرة.

في نيسان ١٨٧٦، سمع أن كونتيسة تدعى ديوداتي تسكن في جنيف ترجمت «مولد التراجيديا» إلى الفرنسية، وهذا جعلها تستحق المطاردة. استقل قطارًا نحو جنيف فاكتشف لدى وصوله أن الكونتيسة أُدخلت الى مستشفى أمراض عقلية. لكن تجديد تواصله مع هوغو فون سينغر، الفاغنري المتحمس وقائد أوركسترا جنيف، قد عوض عن عدم لقائه الكونتيسة. كان سينغر يعطي دروسًا في العزف على البيانو ومن بين طلابه كانت هناك فتاةٌ ليفونية(*) سماوية، ماتيلدا ترامبيدك ذات الثلاثة والعشرين ربيعًا، والتي كان الجميع معجبًا بها لجمالها ورقّتها.

كانت مدة بقاء نيتشه في جنيف أسبوعًا واحدًا فقط. كان على رأس قائمته الحج إلى فيللا ديوداتي حيث كان يعيش بايرون. كانت ماتيلدا واحدةً من المجموعة الذاهبة الى الفيللا، وخلال الرحلة على طول ضفة البحيرة، تحدّث نيتشه عن الفكرة البايرونية المتمثلة بالتحرر من الاضطهاد. قاطعته ماتيلدا بشكل غير متوقع قائلةً إنه من الغريب أن يضيِّع الرجال الكثير من

(*) نسبة إلى ليفونيا، منطقة تقع على الشواطئ الشرقية لبحر البلطيق. (المترجم)

الوقت والطاقة في مسألة رفع القيود الخارجية البحتة في حين أن ما يعوقهم فعليًا هي القيود الداخلية.

كانت حجةً أشعلت روح نيتشه. بعد عودتهم إلى جنيف، عزف أحد ارتجالاته الصاخبة الدرامية على البيانو كنوعٍ من المُلاطفة، وبعد انتهاء الحفلة الموسيقية الفردية، انحنى على يدها ثم رمقها بنظرةٍ ثاقبةٍ اخترقت عينيها، بعدها توجه الى الطابق العلوي لكتابة رسالة يتقدّم فيها لطلب يدها للزواج.

بدأ بكتابة الرسالة «استجمعي كل شجاعة قلبكِ حتى لا تخافي من السؤال الذي سأطرحه عليكِ. هل تقبلين الزواج مني؟ أحبكِ وأشعر أنك تنتمين إلي. ليس هناك ما يُفسر مشاعري الفجائية! لكنها صادقةٌ على الأقل، وبهذا لا أطلب المسامحة على ما أشعر به، ولكني أود أن أعرف ما إذا كنتِ تشعرين كما أشعر، بأننا لم نكن غرباء في يومٍ ما، ولا حتى للحظة واحدة! ألا تظنين أننا بارتباطنا ببعضٍ سنكون بأفضل حال وأكثر حرية مما سنكون عليه إن كنا مفترقين ومتفوقين جدًا؟ هل تجروئين على الأخذ بيدي وأنا أجاهد بكل ما أوتيتُ من قوة لأكون أفضل وأكثر حرية؟...»[٢١].

لم يكن يعرف أن ماتيلدا واقعة سرًّا في غرام معلم البيانو الخاص بها والذي يكبرها سنًا هيوغو فون سينغر، وتبعته بعنادٍ إلى جنيف على أمل أن تصبح زوجته الثالثة، وهو طموح أدركته في النهاية.

(٧) زلزلة المفاهيم:

١. نيتشه إلى مالويدا فون مينسنبوغ، ١١ آب ١٨٧٥.
٢. ساموبل روث (١٨٩٣-١٩٧٤)، مروج وكاتب وناشر أعمال إباحية مدان.
٣. للاطلاع على تقرير والتر كوفمان يرجى مراجعة مقاله بعنوان 'Nietzsche and the Seven Sirens» التي نُشرت في بارتيزان ريفيو في أيار، حزيران، ١٩٥٢.
٤. هيرلوسون«Damen-Conversations-Lexikon» (١٨٣٤-١٨٣٨)، ورد ذكره في كتاب كارول ديثي بعنوان «اخت نيتشه وإرادة القوة»، مطبعة جامعة إيلينويز، ٢٠٠٣، ص ١٧.
٥. يوميات الكونت هاري كيسلر، ٢٣ شباط ١٩١٩، في تشارلز كيسلر (مُحرر ومُترجم)، «برلين تحت الأضواء»، يوميات هاري كيسلر، ١٩١٨-١٩٣٧، مطبعة غروف، نيويورك، ١٩٧١، ص ٧٤.
٦. ديثي، «اخت نيتشه وإرادة القوة»، ص ٢٠.
٧. إليزابيث إلى نيتشه، ٢٦ أيار ١٨٥٦.
٨. «هذا هو الإنسان»، «لم أكتب كتبًا بهذه الجودة»، الجزء الخامس.
٩. غيلمان «محاورات مع نيتشه» ص ٦٩. لودفيغ فون شيفلر، مذكرات بتاريخ صيف عام ١٨٧٦.
١٠. «تأملات في غير أوانها»، «شوبنهاور مربيًا»، الجزء الرابع.
١١. المصدر السابق نفسه، الجزء الأول.
١٢. المصدر السابق نفسه، الجزء الأول.
١٣. المصدر السابق نفسه، الجزء الرابع.
١٤. المصدر السابق نفسه، الجزء السابع.
١٥. المصدر السابق نفسه، الجزء الثامن.
١٦. المصدر السابق نفسه، الجزء الرابع.
١٧. المصدر السابق نفسه، الجزء الرابع.
١٨. مذكرات كوزيما فاغنر، ٨-١٨ آب ١٨٧٤.
١٩. دفتر ملاحظات، ١٨٧٤.
٢٠. تيليغراف، ٢١ تشرين الأول ١٨٧٤.
٢١. نيتشه إلى ماتيلدا ترامبيدك، ١١ نيسان ١٨٧٦.

٨

التابع الأخير والتابع الأول

كلاهما أراد فسخ الصداقة في الوقت نفسه، فقد ظن الأول أنه لم يقدر حق قدره، وظن الآخر أنه فُهم زيادة عن اللزوم - وكلاهما مخدوع - لأن أيًا منهما لم يفهم نفسه جيدًا بما فيه الكفاية.

الفجر، الكتاب الرابع

كانت مهمة نيتشه المُلحة لعامي ١٨٧٥-١٨٧٦ هي إنجاز الجزء القادم من كتاب تأملات في غير أوانها. أراد ناشره الحفاظ على زخم النشر المُمثل بكتاب كل تسعة أشهر. لقد حاول نيتشه الكتابة عن الفيلولوجيا، لكن كتابه «**نحن الفيلولوجيين**» لم يحرز تقدمًا. ما الذي سيقوله أكثر عن المنهج الاختزالي التأريخي وعدم الوعي الناشئ عنه بالقياس إلى المصادر الحقيقية للإلهام الفني؟ وعليه، عاد إلى موضوع الفن.

أراد كتابة تأملٍ في غير أوانه، تأملٍ من نوع جديد مختلف، وكان ينوي الكتابة عن موضوعٍ مثّل وقتها أهميةً عظيمة بالنسبة له، وهو موضوع العبقرية الفردية والتأثير الذي يمكن أن تحدثها في ثقافة العصر. بفضل علاقته الطويلة والوثيقة بفاغنر، لا يمكن لأحدٍ أن يكون مؤهلًا أكثر

منه لتسليط العدسة المكبرة على العبقرية. الجزء الرابع من تأملات ليست في أوانها ستُعنى بـ«ريتشارد فاغنر في بايرويت» وسيضربُ هدفين بحجر واحد، الأول أنه سَيكون التأمّل القادم، والثاني أن التأمل بمثابة صرخة تذكارية مدوية ستسم وتأذن ببداية مهرجان بايرويت الافتتاحي.

بلغ حجم تأمل «ريتشارد فاغنر في بايرويت» حوالى خمسين صفحة فقط، بيد أن كتابة التأمل سلبته أفضل جزء من السنة. على أرجل غير مستوية، سارت الكتابة عرجاء طوال الوقت، ولم يكن سبب هذا التلكؤ يعود إلى علته المتمثلة بصعوبة وضع الأشياء على الورق، التي لطالما عانى منها، فالسبب في ذلك يعود إلى أن التوتر الناشئ بين عقله وقلبه أخذه في رحلة طويلة من الإدراك.

لقد أدرك نيتشه، خلال كتابته احتفاءً بعبقرية الملحن الموسيقي المعروف، ضرورة تحرير نفسه من قيود فاغنر. من الممكن أن يكون التأثير الخطير للملحن الموسيقي المحبوب مبالغًا فيه، فسعادة نيتشه تتطلّب التغلب على فاغنر، وهذا ما أدى إلى نشوب صراع عاطفي عميق في داخله. لطالما أثنى نيتشه على القوة السامية التي تطغى على حواسه عند سماعه لموسيقى فاغنر، لكنه أدرك الآن كيف سلبته هذه القوة إرادته الحرة. ملأه هذا الإدراك امتعاضًا متزايدًا تجاه الاغراء الميتافيزيقي المحموم والضبابي لما كان يبدو ذات مرة الخلاص الحاسم للحياة. اعتبر نيتشه فاغنر الآن خطرًا فظيعًا، وأن أخلاصه له كان يفوح بوهم الهروب العدمي من العالم. لقد انتقد فاغنر لكونه رومانسيًا متصنعًا وطاغية مزيفًا ومحتالًا شهوانيًا، وقد أرهقت موسيقاه أعصابه ودمّرت صحته، فلم يعد فاغنر مجرد مؤلف موسيقي بالنسبة له بل أصبح مرضًا.

لم يكن بمقدوره التعبير عن هذا النمط من الأفكار في كتاب معد للنشر، فأفكار مثل هذه قد تجعل من كتابه المنشور الوحيد مولد التراجيديا باطلًا كليًا. أثناء الكتابة عن عبقرية فاغنر تحول التأمل، كما اعترف لاحقًا، إلى تحليل لعبقريته الخاصة وتأمل في الاستخدام المستقبلي الذي قد يضعه في حيز التطبيق.

كان التأمل السابق عن شوبنهاور قد عرّف العبقرية الروسوية بأنها ذات طبيعة بدائية تمامًا كطبيعة الأفعى تايفون التي تقبع تحت بركان إتنا[١]. كان شوبنهاور قوة حياة هادرة، وهذا ما طمح نيتشه ليكونه، متمردًا نهمًا وغير مبالٍ بسلامته وسلامة العالم، ومولّدًا ثقافيًا سيساهم فكره في زلزلة المفاهيم الكبرى. من المثير التفكير في أن الثورات الرؤيوية لعباقرة من أمثال فاغنر ونيتشه كانت أساسًا لخلاص البشرية من الركود والضحالة رغم الدمار المحتوم الذي أحدثته.

تعيد المقالة الخوض في مواضيع نوقشت سابقًا في مولد التراجيديا. فباسم فاغنر اشتغل على أفكاره الخاصة عن اضمحلال التبجيل الديونيسيوسي عبر فرض النظريات العقلانية للقانون والدولة والثقافة على نحو متواصل، مما أدى لتسيد العوام المتعلمين في زمنه متبخترين بيقينياتهم، وبالتالي جُيرت الروح الثقافية الفعالة لتقوية الدعامات المشتركة للصروح شبه المنفصلة للاقتصاد والسلطة المدعومة بقوة الصحف التي أدانها نيتشه مجددًا بوصفها دعامات بائسة لغرور قارئ الصحيفة تقوِّض روحه. إن الثقافة الحقيقية، كالتي يتحلى بها فاغنر (ويقصد ضمنًا ثقافته الشخصية)، تضمر تيارًا عميقًا من تطهير وتضخيم وتعظيم الروح بالإضافة إلى دورها الحتمي في تحطيم أصنام التقاليد. ينتهي المقال بمقاطع كُتبت في الثناء على فاغنر بطريقة مُبالغ بها للغاية: «نظرة خاطفة منه تطلق شعاعًا شمسيًا يمتص النداوة والضباب المتكثف والسحب الرعدية المبثوثة... لقد باغت الطبيعة التي رآها عارية، ولهذا تبحث الآن عن إخفاء عريها بالهروب إلى نقيضها»[٢]، وعبارات أخرى من هذا النوع، لكنه لم يستطع مقاومة تضمين بعض العبارات الخبيثة عن فاغنر بطريقة خفية. مقارنًا اعتداد فاغنر المذهل بنفسه باعتداد غوته، لا بل «لعله ذو طبيعة متغطرسة أكثر من غوته الذي قال ذات مرة عن نفسه «لطالما آمنت بأن لدي كل شيء، كان بامكانهم وضع تاج على رأسي وكنت سأعتقد بأنني ملائمٌ لهذا الدور»[٣]. ينتهي التأمل بتصريح لا لبس فيه بأن فاغنر لم يكن في الحقيقة «المتنبئ بالمستقبل كما رغب بالظهور أمامنا، ولكنه مُفسر ومُجمّل الماضي»[٤].

كان نيتشه يدخرُ دور المتنبئ بالمستقبل لنفسه.

لم يكن نص «ريتشارد فاغنر في بايرويت» عملًا أدبيًا ناجحًا على الاطلاق، لأنه اتخذ موقفًا معاديًا مشبعًا بضغينة من يتبرأ من والده، ويعود السبب في ذلك إلى الأسلوب الجامد الذي اتبعه في الكتابة موظفًا تحليلات جدية، ومجردًا النص من الدفء والخفة التي أغرقت تأمله السابق عن شوبنهاور. طوال الوقت الذي كان يؤلف فيه الكتاب، كان يعاني من عذاب ووطأة جريمة من قتل أباه، وهذا ما سلبه راحة عقله وعينيه وحتى معدته، مختبرًا في كل يوم شعورًا مقاربًا لدوار البحر. كان يقضي ستًا وثلاثين ساعة كمعدل كل أسبوعين على السرير في ظلام دامس، وغالبًا ما يمنعه عذاب مثل هذا من التفكير. فقدَ وقتها خدمات صديقيه اللذين تكفلا بإخلاص بتأدية مهمة كتابة ما يمليه عليهما، فقد غادر فون غيرسدورف متوجهًا إلى منزله وروموندت إلى الدراسة، بيد أن المنقذ السكرتاري كان قد وصل في نيسان، كان ملحنًا ساكسونيًا يدعى يوهان هاينريش كوسيلتز ويبلغ من العمر اثنتين وعشرين سنة مفعمًا بالحيوية بشعره الجامح، والذي وُهب خط يدٍ واضحًا وجميلًا.

عند دراسته في لايبزيغ لفن الطباق والتأليف الموسيقي، قرأ كوسيلتز مولد التراجيديا مع زميله الطالب «بول هاينريش ويدمان». لقد جعله الكتاب وصديقه «يترنّحان ببهجة». كانا متواضعين بما يكفي للاعتراف بعدم فهمهما الكتاب تمامًا، لكنهما شعرا بقوة بأنهما أمام عقل تكلم بقدرة تأويلية جبارة لم يختبراها مسبقًا على الاطلاق. «عندما قال نيتشه إن القوى الأبولونية والديونيسيوسية دُمرت أخيرًا على يد العقلانية النفعية (على حد تعبير سقراط)، حزرنا لماذا يبدو من المستحيل أن ينمو ويزدهر الفن العظيم تحت حكم ثقافتنا المتأتية من المعرفة والعقل... إن مولد التراجيديا هو صرخة احتجاجية مدوية من رجل فن وشجاعة بوجه عواقب إضعاف الإرادة وقتل الغريزة لثقافتنا الإسكندرية»(٥).

عمّق كتاب «**شوبنهاور مُربيًا**» من حماستهما لنيتشه، «فبينما فهم معاصرونا أن «الحضارة» تعني تقريبًا المثل الأعلى الذي جاء به بينتام لبلوغ الحد الأقصى

من الراحة العامة (وهو المثل الأعلى لشتراوس وجميع الاشتراكيين منذ مور)، ظهر نيتشه فجأة من بينهم كمُشرّع منبثقًا من السحب الرعدية مُبينًا أن الهدف والغاية الأعلى من الحضارة هو إنتاج العبقرية»(٦).

بدأ كوسيلتز بالإشارة لنيتشه بلقب «مجدد القيم العظيم». سافر كوسيلتز بشكل متهور إلى بازل، عازمًا على لقاء نيتشه والدراسة تحت كنفه.

دون أدنى فكرة عن هيئة نيتشه، أجرى اتصالاتٍ مع المكتبات التي يبتاع المرء منها صورًا للمناظر الطبيعة المحلية وللشخصيات المعروفة، وما أحبطه أن الصندوق الزجاجي المخصص لعرض صور أساتذة الجامعة لم يحتوِ على أي صورة تطابق بطله نيتشه. قوبل استفساره عن نيتشه بالأسئلة التالية «أستاذ نيتشه؟ هل هناك أي شخص بهذا الاسم؟»، وهو رد فعل متوقع يعود جزء كبير منه إلى سمعة نيتشه المتواضعة في الجامعة ومشكلاته مع الكاميرا «عندما يحين وقت إعدامي على يد العملاق ذي العين الواحدة(*)... أحاول في كل مرةٍ أن أتجنب الكارثة، لكن لا مهرب من المحتوم، فأظهر كقرصان أو درجة صوتية صادحة أو بويار(**)...»(٧).

كان كوسيلتز فاغنريًا ومتهورًا مرحًا وعندما التقى بطله أخيرًا، أعطاه نيتشه مسودة نص فاغنر غير المكتملة. اقتنع نيتشه بضرورة إكمال التأمل بسبب حماس كوسيلتز العاصف المميز، وبأنه (كوسيلتز) الرجل الذي سيساعدُه في هذه المهمة. بين نهاية نيسان ونهاية حزيران أنهى الفصول الثلاثة الأخيرة، كما أنه كتب نسخة رائعة بخطه الجميل المنمَّق لكل الصفحات وعددها ثمانٍ وتسعين صفحة. عندما عادت المسودات من الناشر، صححها كوسيلتز المثابر مجددًا، وأخيرًا، كان هناك مجلدان رائعان جاهزان لكي يُرسلا إلى فاغنر وكوزيما في نهاية تموز، والتي كانت فترة البروفات الأخيرة قبل الافتتاح الرسمي للمهرجان في الثالث عشر من آب.

في خضم استعدادات اللحظة الاخيرة، لم تتح لفاغنر الفرصة لقراءة

(*) العملاق ذو العين الواحدة: إشارةً إلى الكاميرا. (المترجم)
(**) عضو في الطبقة الأرستقراطية القديمة في روسيا، في المرتبة التالية للأمير. (المترجم)

الكتاب، لكنها كانت هدية رائعة تصل وسط تلك الفوضى. رد فاغنر بسرعة وحماسة عبر برقية «صديقي! إن كتابك أعجوبة! لكن كيف اكتشفت الكثير عني؟ تعال الآن بسرعة وتأقلم مع تأثير «الحلقة» من خلال البروفات»[٨].
أرسل فاغنر النسخة الثانية من الكتاب إلى الملك لودفيغ، الذي اعترف بافتتانه بنص نيتشه.

قبل أن يفكر بالرد على دعوة فاغنر المُلحة لزيارة بايرويت، تلقى نيتشه رسالة من إروين رود يعلن فيها خطبته. إن الصداقة تتبدل بنظرةٍ من العروس، والآن انتقل ثلاثة من اصدقائه المقربين إلى عش الزوجية.

لم تكن مشاعر نيتشه واضحة، كتب رسالة تهنئة حارّة إلى رود تضمنت تخمينه بأنه ربما يكون على خطأ مقارنة مع أصدقائه، ولكن على الزواج أن يغلف التنازل والتسوية المرفوضة والرتابة البشرية وهو أمر لم يكن مستعدًا لفعله. خلال الليلة التي تلت استلامه لخطاب رود، ألف قصيدة تجيش بالعاطفة عنونها «المُتجول»[٩]، تصوِّره متجولًا عبر المناظر الطبيعية الجبلية في الليل يستمع إلى طائر يغني بعذوبة. مثل الطائر الخشبي في أوبرا فاغنر «سيغفريد»، بإمكان طائر القصيدة أن يتكلم، وعند سؤال الطائر عن سبب غنائه يخبره أنه لا يغني له، بل لرفيقته.

في الثاني والعشرين من تموز، انطلق في رحلة مرهقة إلى بايرويت بلغها بعد مضي يومين، ووصل وانفريد في اليوم التالي. بالكاد ذكرت كوزيما قدومه في مذكراتها. لطالما كان التزاحم المسعور للبروفات الختامية فترة مرهقة لأي مسرح، ولكن الوضع في بايرويت كان أسوأ من المعتاد لأن رعاة المهرجان اتخذوا قرارًا مروعًا ببيع التذاكر لمشاهدة البروفات. سلّط القرار المروع عيون العامة على الأخطاء والعيوب التي ظهرت في العرض قبل بدايته، مثلما يظهر تعري الراقصة لوقت طويل عيوبها وتجعداتها في المكانات العامة. غير أن كل يوم يمضي كان يكلفهم ألفي مارك، وكان قرار بيع التذاكر طريقةً لاسترداد بعض الأموال المُنفقة.

«الكثير من الإزعاج»، هكذا كتبت كوزيما في مذكراتها. خاض فاغنر جدالًا جنونيًا على خشبة المسرح مع مصمم الرقصات ومصمم الديكور،

فقد صرف المغنين وسيستبدلون بآخرين، وتساءل إذا ما كان السيد أنغر، الذي يؤدي ويغني بدور سيغفريد، البطل الشاب لحلقة نيبلونغ، ذا صوت أجش فعلًا أم إنه كان مجرد عذر لطرده؟ بينما عُرضت أوبرا فالكيري بصورة «مفرطة في الحماقة والقباحة». كما نسي هيغن الشرير كلماته. كانت الورشة الوحيدة التي بإمكانها جعل التنين قادرًا على نفث النار وتحريك ذيله وتحريك عينيه بطريقة دائرية تقع في إنجلترا. شُحن التنين على ثلاثة اجزاء ليتم تركيبها معًا عند وصولها، بيد أن جزأين فقط قد وصلا، فقد أُرسل عنق التنين إلى بيروت عاصمة لبنان، فالمركب البخاري لم يكن مؤهّلًا للشحن، وانهار ديكور المشهد ليكشف عن عمالٍ ضخام البنية يتسكعون في الخلف بقمصان مطوية الاكمام ينتظرون دورهم لتغيير ديكور المشهد. طلب المغنون أن يتوجهوا للجمهور لتحيتهم بعد البروفة، لكن فاغنر لم يسمح لهم، فبذلك ستنكسر التعويذة السحرية التي تطوّق أعناق الجمهور. وفي لفتة مثيرة للذات بالرغم من أنها لفتة ديمقراطية، منح فاغنر تصريح دخول البروفات مجانًا لفرقة من رجال الإطفاء، متسببًا في استقالة عضو مهم في لجنة الإدارة. كانت أزياء المؤدين عذابًا لا مثيل له، فقد استعان فاغنر برسام تاريخي لتصميمها، فخُيطت بدقةٍ وإتقانٍ لدرجةِ أنها كانت بمثابة حذاء معدني يثبت الحكاية على أرض الواقع في البُعد الشكلي فقط، فيصعب توظيف الخيال والابتعاد عن الواقع المُثبت بمسامير على الأرض، ناهيك عن التحليق. كرهت كوزيما الأزياء: «إنها تذكِّرنا بزعماء الهنود الحمر في كل مكان وتحمل، إلى جانب سخافتها الإثنولوجية علامات على انعدام ذوقٍ ريفي. أشعر بفزع كبير من هذه الملابس»[١٠]. كان فزعها وكرهها للأزياء كبيرًا لدرجة دفعت فاغنر إلى دفع أتعاب المصمم غير المحبب ليخور بعدها مثل ثور.

تضاعفت ويلات كوزيما بقدوم جوديث غوتييه، التي تركزت عليها الانظار عند تجولها في شوارع بايرويت مرتدية آخر صيحات الموضة الباريسية «طقم البحار». شعلة افتتان فاغنر بجوديث التي توقدت في تريبشن لهبت في بايرويت، وهذا ما حاول إخفاءه عن كوزيما بطريقة سيئة. تبقى مسألة منح غوتييه الموافقة النهائية لفاغنر لبدء علاقة غرامية من عدمه محل نقاش،

لكن هذا أمر يكاد أن يكون غير ذي أهمية. قطنت في منزل تردد عليه فاغنر عدة مرات، لقد كان تواصلهما مع بعضهما إيروتيكيًا بشكل واضح، وهذا ما جعل أحاديث النميمة تحلّق عاليًا. قال الجميع إنها عشيقته، وتلك إهانة كبيرة وُجهت إلى البطة القبيحة ابنة ليزت. فقد ذاقت المر لأجل فاغنر، والآن أصبحت امرأة أخرى مصدر وحيه وإلهامه وحبه. في خسارتها لهذه الأشياء شعرت وكأنها مُحيت من الوجود، فكتبت تفيض بمشاعر «من انتفى سبب وجوده» ومن شعر بأنه «ميت». طوال المهرجان ارتقت بنفسها إلى مكانة عالية جديرة بها، رافعة أنفها الكبير بمظهر متعجرف ومصففة شعرها في ضفيرة ذات طابع قروسطي تلائم ملكة حلقة نيبلونغ، ولبست حرير العرائس الأبيض الفضفاض، وفي دورها ملكة لبايرويت لعبت كوزيما دور المضيفة المثالية.

في الحين الذي تفشّت فيه إشاعة غوتييه وفاغنر في المهرجان، فإن المجتمع نفسه الذي كان في يوم من الأيام يكدس عبارات الإذلال والازدراء عن كوزيما بصفتها عشيقة لفاغنر أصبح الآن يتسابق ليحظى بانتباهها، فقد أصبحت بايرويت قبلة الجميع وفاغنر الرجل الذي يود الجميع الجلوس معه. كان كل المجتمع يستعطف على باب وانفريد للدخول، وكانت كوزيما حارسة هذا الباب. متألقة بثوبها القروسطي وممسكة بمروحة كبيرة، وقفت كوزيما منتصبة متجمدة وبهيئة ملوكية مستقبلة مئات الزوار الذين أتوا من كل أصقاع العالم ليروا هذه الأعجوبة وليتباهوا بوجودهم هناك. لقد مثّل موقفها انتقامًا رائعًا من المجتمع الذي ازدراها ذات مرة، وصفعةً للمرأة الفرنسية (جوديث). كانت بايرويت في ذلك الحين لا تزال تحت موجة الحر المعتادة في آب والتي تسببت بحالات إغماء كثيرة في دار الاوبرا.

في اليوم الذي وصل فيه نيتشه، كان واحدًا من خمسمائة زائرٍ تدفقوا داخل وانفريد. حظي نيتشه، الأستاذ البسيط، بمكانٍ واطئٍ ضمن الترتيب الاجتماعي الهرمي، ووحدهم حديثو النعمة من التزم بقواعد الاتيكيت. كانت كوزيما تتعامل مع أربعة حكام ملكيين، بالإضافة إلى العديد من الأمراء

والأميرات والدوقات الكبار والأرشيدوقات والدوقات والإيرلات(*) والكونتات والكونتيسات والرتب الأدنى. ولتجنب فضيحة إهانة أحدهم كان على آل فاغنر أن يستقبلوهم كلهم بحسب الترتيب الصحيح للأولوية. بينما انتظر عامة الشعب في الردهات، متحدّثين بصوت خافت كأنهم في كنيسة.

تمنى الملك لودفيغ حضور المهرجان متنكرًا. خطط ليصل في منتصف ليلة مبهمة، حيث سيقابله فاغنر وينقله بعربة إلى قصر الأرميتاج(**) الباهر في بايرويت، حيث ظن الملك أنه سيبقى هناك «دون أن يلاحظه أحد». تحت الغيوم السيارة والقمر الهائم، جرّد الرجلان روحيهما بينما كانت العربة تمضي على الطريق قُدمًا بين المسارح الخيالية والنافورات والمغارات الموحشة التي تنتشر وتحيط بحدائق القصر المتلألئة بضوء القمر. كانت هذه التجربة واحدة من اللحظات الروحية النقية القليلة للغاية على طول أيام المهرجان بأكمله بالنسبة لفاغنر، كانت لحظة تعويض عن الأشياء المادية والضوضاء، لقد كانت اللحظة التي أعاد فيها اتصاله بالروح الأصيلة والالهام والغرض من وراء عمل حياته الفني.

كانت العلاقات مع الملوك هشّة بشكل علني. أصر الملك لودفيغ على أنه لا يرغب باحتفاء عام خلال إقامته في بايرويت، لكنه في الحقيقة كان متوترًا من أن يؤخذ كلامه على محمل الجد. على أية حال، افتُتح المسرح على يد الملك لودفيغ، حتى قبل الهتاف والتصفيق، وحضر بروفة الراين الذهبي في الثامن والعشرين من تموز. على الرغم من الحفاوة الباردة التي استقبله بها الناس، إلا أن الأذن الملكية وجدت الموسيقى سامية حتمًا. عند عودته إلى قصر الأرميتاج أمر بإضاءة الحديقة بالمشاعل وأن تملأ بموسيقيين غير مرئيين يعزفون موسيقى فاغنر من خلف الأجمات، بينما تراقصت النافورة المضيئة في الوقت المناسب مع الموسيقى.

كما تنبأ نيتشه، كان مهرجان بايرويت الاول بعيدًا كل البعد عن مسرح

(*) إيرلات: جمع إيرل، لقب من أصل أنجلوسكسوني تستخدمه طبقة النبلاء. (المترجم)

(**) قصر الأرميتاج: بناه مارغريف جورج فيلهلم في عام ١٧١٥ قرب مدينة بايرويت. (المترجم)

إيسخيلوس الجديد الذي سيحيي الروح التراجيدية التي من شأنها أن تنقذ الثقافة الأوروبية من الغرق في الجمود والرتابة. لقد تصوّر نيتشه المهرجان في البداية على أنه أكثر من مجرد حدث مادي ملموس، بل استعارة عن الثقافة الألمانية وصورة عن المستقبل ونمطًا حداثيًا، كان على المهرجان، كما استنتج في تأمله، أن يبتعد عن الاستمرارية الوضيعة للنظام القديم وتقديم التنازلات والبهجة للعوام المتعلمين.

لاحظ نيتشه بمرارة أن «رعاع أوروبا المتسكعين» تعاملوا مع مهرجان بايرويت بوصفه مناسبة أخرى تضاف إلى تقويمهم الاجتماعي للجولات السنوية التي تفتقر إلى أي هدف. لقد كان خائبًا أيضًا بسبب تواجد العديد من معاديّ السامية الذين فرحوا برؤية مخطط أوبرا الحلقة الفج، التي تظهر الصراع العنصري بين الأقزام السوداء غريبة الشكل من العالم السفلي وبين نسل ووتان ذوي الشعر الأشقر. أبهجهم انتصار سيغفريد الختامي، كما سيُسعَد هتلر في زيارته الأولى لبايرويت عام ١٩٢٣، ليبدأ بعدها كتابة «كفاحي».

وصل دون بيدرو الثاني إمبراطور البرازيل إلى وانفريد في المساء الذي تلا عرض البروفة، وقد خفف وجوده الإمبراطوري من كآبة طاقم التمثيل بسبب العيوب التي ظهرت على خشبة المسرح وبسبب أزياء العرض المخيبة للآمال. وكان ملك فورتمبرغ في الترتيب الأخير في التسلسل الهرمي للملوك، وعلى الرغم من ذلك فقد كان وجوده مصدر رضا. كما حضر الإمبراطور الألماني، القيصر فيلهلم، بنفسه أول عرضين أوبرالين من حلقة نيبلونغ، وبينما كان يصفق بيديه بعد نهاية الأوبرا الثانية كان ينادي بابتسامة اظهرت اسنانه على مساعديه «مخيف! مخيف!»، ولكن للأسف اكتشف أنه غير قادر على البقاء لرؤية العرضين الأوبراليين الأخيرين.

على الرغم من أن فاغنر كان قد أخبر نيتشه بأنه سيحظى بغرفته الخاصة في وانفريد كالتي حظي بها في تريبشن، إلا أنه لم يستسغ البقاء هناك، وبدلًا من وانفريد، استأجر نيتشه أرخص الغرف المفروشة التي أمكنه العثور عليها وكانت في وسط المدينة تمامًا، فكانت سقوف الغرف واطئة وكان الجو حارًا كأنه فرن.

كانت بايرويت آنذاك بلدة تضم حوالى عشرين ألف نسمة، وتتسع دار

أوبرا فاغنر الجديدة لألف وتسعمائة وخمسة وعشرين شخصًا. كان من المقرر أن تعرض ثلاث دورات أوبرالية منفصلة من دورات الحلقة الأربع، وهذا يعني تدفق خمسة آلاف وسبعمائة وخمسة وسبعين ممن حظتهم الآلهة بتذكرة لدخول الفالهالا، مصطحبين معهم عوائلهم بكاملها وهذا يعني الآلاف من الزوجات والأطفال والخادمات. ثم كان هناك المشتغلون في المسرح من ممثلين ومغنين وموسيقيين وفنيي المسرح ونجارين وخيَّاطات وعاملات غسل الثياب وتجار ومختلف أنواع الخدم، ومن المعلوم أنه لا يكتمل أي حدث عام دون وجود الانتهازيين غير المدعوين من بنات الهوى والمغامرين بشنباتهم الطويلة وبناطيلهم القصيرة، والنشالين والمتسولين الصغار والحشود المتفرجة مع عدد كبير من الفلاحين الذين جاؤوا من مزارعهم وحقولهم لمشاهدة العرض المسرحي الأوبرالي. جميعهم تدافعوا على الأرصفة الجافة الحارة جدًا، فكانت الضجة لا تطاق. لم يستطع نيتشه أن يحظى بمسكن متحضر في غرفته المفروشة، حيث امتزج الحر بالرائحة النتنة مثل هواء مقرف داخل فرن شواء.

بالنسبة لتشايكوفسكي، كما هو الحال بالنسبة للعديد من الضيوف الآخرين، كان شغله الشاغل هو العثور على الطعام، لأن «طاولات الضيافة التي أعدت في الحانات لم تكن كافية لإشباع جميع الجياع» كما عبر عن ذلك، مضيفًا «ليس بإمكان المرء أن يحصل على قطعة خبز أو قدح جعة إلا بصعوبة بالغة وبعد أن يخوض نضالًا مريرًا أو بحيلة ماكرة أو بقدرة حديدية على التحمل، وحتى عندما تجد لنفسك مكانًا متواضعًا على الطاولة فمن اللازم أن تنتظر انتهاء أبديةٍ كاملة قبل أن تُقدم لك الوجبة التي رغبت بها، بينما تسود الفوضى هذه الوجبات. الجميع ينادي ويصرخ، ولن يعير النُّدل المنهكون أهمية لطلبات المرء المشروعة. لن تحصل على فرصة تذوّق الأطباق إلا بالصدفة المحضة... في الواقع، طوال فترة المهرجان بأكملها، شكل الطعام الأهمية العظمى للجمهور، بينما جاءت التمثيليات الفنية في المرتبة الثانية بعد الطعام. لقد نوقشت وجبات الطعام مثل شرائح اللحم والبطاطا المحمصة والعجة بشغف يكبر بكثير النقاش حول موسيقى فاغنر»[١١].

كان المسرح ساطعًا للغاية بالنسبة لعين نيتشه لمشاهدة الأوبرا من

صالة العرض، وبدلًا من ذلك حصل على غرفة مظلمة صغيرة أشبه بخزانة بالقرب من خشبة المسرح حيث الحرارة خانقة. تزامن وصوله مع عرض بروفات الأوبرا الرابعة والأخيرة من دورة الحلقة «غسق الآلهة Götterdämmerung»، حيث تحلّ في هذه الأوبرا نهاية العالم. رسمت مائة آلة أوركسترالية لوحة السقوط التنبوئي للفالهالا وهلاك الآلهة القديمة، مُنتجة طبقة صوتية عالية ربما لم يكن لها مثيل في التأريخ الموسيقي، لكن نيتشه قال: «لم تعجبني على الإطلاق... مما اضطرني للخروج...»، وحتى حِفلات الاستقبال في وانفريد لم تعجبه. حضر احدى هذه الحفلات، حيث بدا شخصًا بائسًا ولم ينبس بكلمة، بعدها، لم يحضر أي حفلة أخرى.

متى ما كان نيتشه في أدنى مستوياته، يبرز مُنقذٌ دائمًا ليأخذه في كنف رعايته التي تطفح بالحب؛ وهذا نموذجٌ متكرر يظهر في حياة نيتشه. وجاء الإنقاذ الآن على هيئة مالويدا فون ميسنبوغ، فوضوية ثرية ومتقدمة بالعمر، أصغر من فاغنر بثلاث سنوات لكنها تنتمي لنفس الجيل الثوري[١٢]. لقد بينت سيرتها الذاتية بعنوان «مذكرات مثالية»[١٣] أهميتها في بايرويت. أُعجبت مالويدا بالمؤلف الموسيقي فاغنر بشكل كبير وقد نسقت شقتها في روما حول تمثاله النصفي الرخامي. كانت ابنة أحد نبلاء بروسيا؛ لكن تمردها حولها من عضو ينتمي إلى المجتمع الراقي إلى عُنصر عازم على تدمير المجتمع، ومثل فاغنر، نُفيت بعد حركات العصيان والتمرد لعامي ١٨٤٨ و١٨٤٩، وكانت تهمتها تهريب رسائل أرسلها لها العديد من الثوريين الذين وقعت في حبهم. نُفيت إلى شمال لندن حيث كانت فردًا ضمن جماعة من الفوضيين الروس، وأصبحت مُربية لابنتي الأرمل ألكسندر هيرزن[١٤]، رغم أنها كانت تُفضل أن تصبح زوجته.

كانت مالويدا تتمتع بسمعة طيبة في عالم الثوريين حتى إن غاريبالدي في زيارته التي حظيت باستقبال شعبي كبير إلى لندن، والتي تمت لترسيخ وتشكيل «جمهورية إنجليزية عائمة [من السفن] مهيأة دائمًا لخوض المعارك أينما حلت لفرض الحرية»[١٥]، دعاها لتناول الفطور معه على ظهر سفينته التي رست على نهر التايمز. عندما وصلت بواسطة قارب تجديف «أنزلوا

كرسيًا بأذرع مغطًى بسجادة جميلة، وما إن جلستُ عليه سُحب إلى الأعلى. استقبلنا غاريبالدي على متن السفينة بملابس فاتنة، بسترة رمادية قصيرة وقبعة حمراء مطرزة بالذهب تعتلي شعره الذهبي وأسلحة تزين حزامه العريض. كما تجمع بحارته ذوو البشرة والعيون البنية الغامقة على السطح بأطقم رائعة أيضًا». قُدم لنا المحار «فانسابت الأحاديث الممتعة والمُبهجة، وبدا وكأن كل البحارة يعبدونه ولا يمكن للمرء أن يقاوم الإحساس بسحر شخصيته الشعري...»[١٦].

الآن، تبدو مالويدا امرأةً صغيرة الحجم ممتلئة ووديعة، بينما ينسدل شعرها الأبيض من تحت خرقة دانتيلا باهظة الثمن. في صميمها، لم تفقد مالويدا أي قدر من روحها الدموية المُتعطشة للعنف في أيام شبابها بصفتها فوضوية، ومع ذلك كانت مسرورة بالمثال الذي ضربته كومونة باريس. كانت ستندلع حرب عالمية لو أنها قابلت بوركهارات في أي وقت. لم تكن مفكرة إنسانوية وإنما صوفية تؤمن بالقوة المبهمة لقيمة الخير خارج نطاق العالم، وهي قوة لا يمكن العثور عليها في أي مختبر ناهيك عن إيجادها في أنبوب الاختبار. تمنح هذه القوة الروح الإنسانية إمكانيات غير محدودة تجعل الرجال والنساء قادرين على تحويل أنفسهم إلى آلهة، ولهذا فهم مجبرون في البحث عن هذه القدرة.

ما زالت مالويدا تتصرّف بحسب الأسلوب الغر والمباشر للثائر العازم، وما زالت عيناها الزرقاوان، اللتان امُتدحتا كثيرًا، تريان ما ترغب هي برؤيته. إن قصر النظر للمبادئ السامية التي تتحلى به عزل هذه الجوانب من السلوك البشري التي لا تتوافق مع مثاليتها. فقد بقيت كل علاقاتها مع الثوريين التي كتبت عنهم في مذكراتها علاقات حب افلاطونية؛ لقد كانت دائمًا ربة منزل تمامًا مثل ميلها لأن تكون عشيقة مؤثرة. من الصعب ألا نراها بوصفها المساعدة العاشقة للرجال الأقوياء، الأكثر إذعانًا مما كانت قد ترغب في تصديقه، لقد كانت «الحمقاء النافعة» الثرية بالمعنى اللينيني. بعد انقضاء أيام الشباب تلك، رأت أن مهمتها تتجسد في دعم «رواد الحرية» الشبان، ولقد اقتنعت بأنها وجدت في نيتشه الرجل القوي القادم.

التقى الاثنان للمرة الأولى في أيار ١٨٧٢ في بايرويت، أثناء وضع حجر الأساس لدار الأوبرا، ومنذ ذلك الوقت تبادلا مراسلات مهذبة. أعجبت هي بكتاباته وأعرب هو عن تعاطفه الحار عند زواج إحدى بنات هيرزن من رجل لم يستحسنه قلب مالويدا الثوري.

رأت مالويدا العذاب الجسدي الذي تعرَّض له نيتشه في مسكنه الجحيمي، فمنحته لجوءًا يوميًا في ظلال حديقتها الباردة. لقد غذّته بتعاطفها اللامحدود وبأقداح الحليب المهدئة الدافئة، وبعدها أخذ يسبح طويلًا في مياه النهر الصغير الذي يتدفق في الحديقة. لقد نفعته هذه النشاطات حتى إنها انعشت افتتانه بالموسيقى التي أنصت لها في المسرح. كان عليه الاعتراف بأنه لم يكن أمام روحه سوى الاستسلام، ومع ذلك فإن الجزء المتبقي من ضجيج بايرويت كان لا يطاق.

في الثالث أو الرابع من آب، هجر نيتشه بايرويت من دون إخطار أي أحد، ولا حتى مالويدا. استقل القطار إلى كلينغنبرن، قرية صغيرة في الغابة البافارية، ومكث هناك بضعة أيام فقط ولكنها كانت ذات تأثير جيد عليه. عاد في الوقت المناسب مع الليلة الافتتاحية في الثالث عشر من آب، متمسكًا بخطة مقابلة اخته في بايرويت مع صديقيه العزيزين رود وفون غيرسدورف، اللذين دفعا مبالغ كبيرة مقابل تذاكرهما وإقامتهما.

غالبًا ما كانت جرعة الحب السحرية التي تحتويها موسيقى فاغنر هي وسيلة ماكرة في أعماله الأوبرالية، ولهذا بدا الآن وكأن الثلاثة قد ثملوا بالموسيقى.

وقع كارل فون غيرسدروف على نحو مخبول وجنوني وبايروني(*) في حب كونتيسة شابة تدعى نيرينا فينوشيتي. طلب يدها للزواج على عجل وأمضى الأشهر اللاحقة في تخليص نفسه من جشع عائلتها، بينما تغزّل إروين رود الخاطب حديثًا بطريقة شنيعة وخرقاء بكل فتاةٍ اعترضت طريقهم، مسببًا حرجًا بالغًا لرفاقه.

(*) بايروني: نسبة إلى اللورد بايرون، شاعر إنجليزي من رواد الشعر الرومانسي. (المترجم)

أصيب نيتشه نفسه بالعجز أمام شقراء جميلة تُدعى لويز أوت. أضفى الحس الموسيقي عليها شيئًا مشتركًا مع حبيباته السابقات، فقد كانت لويز موسيقية رائعة تمتلك لمسةً جيدة على مفاتيح البيانو وصوتًا غنائيًا عذبًا. تحدثا عن كل شيء عند لقائهما، لكنها غفلت عن إخباره بأنها كانت متزوجة، وعندما علم بالأمر فُجعَ قلبه. لم يشارك زوج لويز المصرفي شغفها بفاغنر ولذلك بقي في منزله في باريس، بينما حضرت هي المهرجان بصحبة ابنها اليافع مارسيل، وعلى ما يبدو فإنهما، نيتشه ولويز، وقعا في حب بعضهما من أول نظرة بنفس القوة والشدة.

كتب لها: «لقد غرق كل شيء حولي في مياه العتمة بعد أن غادرتي بايرويت، كما لو أن أحدهم أطفأ النور. كان علي أن أستجمع قواي منذ البدء، ولكنني نجحت في استجماعها الآن فقط، وبإمكانكِ حمل هذه الرسالة بين يديكِ من دون أي خوف، فنحن نريد التمسّك بكل ما أوتينا من قوةٍ بنقاء الروح الذي جمعنا معًا»[١٧].

ردت على رسالته بعد مضي ثلاثة أيام: «كم كان رائعًا أن صداقة نقية وطاهرة تستطيع أن تنشأ بيننا من العدم لنفكر في بعضنا البعض من القلب من دون أن يحرِّم علينا ضميرنا فعل ذلك... ومع ذلك، لا يمكنني نسيان عينيك، وما زلتُ أرى نظرتك المُحبة العميقة مسلطة عليّ كما كانت وقتذاك... لا تذكر الرسائل التي بيننا لأي أحد... فكل ما مررنا به سيبقى بيننا... فهذا ملاذنا الذي يجمعنا وحدنا»[١٨].

بعد مرور سنة، كتب لها رسالة عاطفية يخبرها فيها بأنه شعر بحضورها على نحو جلي للغاية حتى إنه لمح عينيها. كانت لويز حاملًا آنذاك، لكنها ردت على خطابه سريعًا قائلةً إنها لم تتفاجأ بما رواه لها، فبينما كانت تستذكر أوقاتهما القصيرة معًا، «عشتُ من جديد كل شيء ووجدت نفسي غنية، غنية جدًا، لأنك وهبتني قلبك»[١٩].

(٨) التابع الأخير والتابع الأول:

١. شوبنهاور مربيًا، ٤.
٢. ريتشارد فاغنر في بايرويت، ٧.
٣. المصدر السابق، ٨.
٤. المصدر السابق، ١١.
٥. غيلمان، محاورات مع نيتشه، صفحة ٥٥-٥٤.
٦. المصدرالسابق، صفحة ٥٦.
٧. نيتشه إلى مالويدا، ٢٠ كانون الثاني.
٨. ريتشارد فاغنر إلى نيتشه، ١٣ تموز ١٨٧٦.
٩. «Der Wanderer»، ويعرف أيضًا بـ «Es geht ein Wandrer»
١٠. مذكرات كوزيما فاغنر، ٢٨ تموز ١٨٧٦.
١١. مقالة مقدمة إلى روسكي فيدوموستي، نقلها ميلينغتون في كتابه ريتشارد فاغنر، صفحة ٢٣١.
١٢. مالويدا فون ميسنبوغ (١٨١٦ - ١٩٠٣).
١٣. مذكرات امرأة مثالية، نُشر من دون اسم، ١٨٦٩.
١٤. ألكسندر هيزن (١٨١٢- ١٨٧٠)، في بعض الأحيان يطلق «الأب المؤسس للأشتراكية الروسية»، كان يعمل لتحرير الأقنان وعلى الإصلاح الزراعي.
١٥. مالويدا فون ميسنبوغ، متمردة في القرينول، صفحة ١٩٤.
١٦. المصدر السابق، صفحة ١٩٦.
١٧. نيتشه إلى لويز أوت، ٣٠ حزيران ١٨٧٦.
١٨. لويز أوت إلى نيتشه، ٢ أيلول ١٨٧٦.
١٩. لويز أوت إلى نيتشه، ١ أيلول ١٨٧٧.

٩

أرواحٌ حُرَّة وأخرى مغلولة

«ولكن إن مدّنا العلمُ بمتعة تتناقص من حين إلى آخر ليحرمنا من ملذاتٍ أكثر فأكثر من خلال تسليط الشك على عزاء الميتافيزيقيا والدين والفن، فإن المصدر الأعظم الذي تستمد منه البشرية بهجتها سيُستنفد. لهذا السبب، يجب على الحضارة المتطورة أن تعطي الإنسان دماغين، أو بطينين دماغيين، أحدهما لمفاهيم العلم والآخر لكل الأمور التي لا تمت للعلم بصلة، ويكونان بمكان واحد لا يؤثران على بعضهما بعضًا، منفصلان أحدهما عن الآخر ويمكن إغلاقهما، وهذا ضروري لتحقيق السلامة الصحية».

«إنسانيٌ مفرطٌ في إنسانيته»

«صفات الحضارة السامية والحضارة المتدنية»

منحت الجامعة نيتشه إجازة لمدة عام مدفوعة الأجر ابتداءً من خريف عام ١٨٧٦ وأعفته من واجباته التدريسية التي كان يتابعها في باداكوديوم،

وهذا يعني تفرغًا تامًا، وعندما دعته مالويدا فون ميسنبوغ لقضاء فصل الشتاء في سورينتو وقبل دعوتها.

كان ناشره يضغط عليه لإكمال «التأمل» المقبل، فأخبره أنه قد بدأ تأليفه وكل شيء يجري على ما يرام. لم يكن هذا صحيحًا رغم أن أفكار الكتاب كانت تدور في فلك رأسه وتنغزه ليُحبّرها على الورق. كان العنوان المبدئي المؤقت الذي فكر به هو «نصل المحراث»، نظرًا لأن شفرة المحراث الحادة تحرث التربة وتقلّبها فتقطع جذور الحشائش الضارة التي تخنق البراعم المزروعة، وهذا الكتاب سيُخَط ليقطع الأعشاب الضارة التي خنقت فكره الأصولي حتى الآن، وهي أوثانه الغابرة فاغنر وشوبنهاور.

من الواضح أن رحلته الطويلة والمعقدة إلى سورينتو مع تغيير القطارات من مدينة إلى اخرى والاهتمام بالأمتعة ستكون أصعب من أن يتحمل عناءها بمفرده، لذلك طلب من صديقين له مرافقته. كان أحدهما طالبًا يدرس الفيلولوجيا يدعى ألبرت برينر، شاب في الحادية والعشرين من عمره مُصابًا بالتدرن ويميل الى حب الشعر والاكتئاب وله والدان يؤمنان بالخصائص العلاجية لفصل الشتاء في الجنوب، والآخر طالب فلسفة يدعى بول ريه ذا الستة والعشرين ربيعًا والذي قابلته مالويدا في بايرويت.

كان كتاب ريه الأول بعنوان «**ملاحظاتٌ نفسية**» قد اجتذب بعض الاهتمام من هنا وهناك، وكان على وشك نشر كتاب آخر، وبهذا شكّل الرجل إضافة ممتازة لحلقة سورينتو الفكرية التي خططت لها مالويدا لتكون جلسةً فلسفيةً أدبية. كانت تحلم دائمًا بالتواجد بين مجموعة من المثاليين وتتطلع إلى فصل الشتاء لإقامة هذه الحصة المختبرية التي يشكل أركانها أصحاب الفكر الخصب. كانت تخطط لكتابة روايتها الأولى وقد تحولت خطتها إلى حقيقة في ذلك الشتاء، حيث كتبت رواية بعنوان «فايدرا»، وهي عبارة عن ثلاثة مجلدات تحكي علاقات أسرية متشابكة تهدف إلى إلقاء الضوء على السعي إلى الحرية الفردية.

في ١٩ تشرين الأول ١٨٧٦، استقل نيتشه وبرينر قطارًا يمر عبر نفق مونت سينيس، وهو أعجوبة هندسية حديثة، قبل أن يتوجه إلى تورينو. وجدوا أنفسهم يتقاسمون عربة النقل من الدرجة الأولى مع سيدتين أنيقتين ومثقفتين، كلودين فون بريفرن وإيزابيلا فون دي بالين. وقع نيتشه ضحية إحدى اضطراباته الرومانسية حين تحدّث هو وإيزابيلا بانفعال طوال الرحلة، وبعدها تبادلا عناوينهما قبل أن يفترقا في تلك الليلة التي قضياها في نفس الفندق. في الصباح، كانت السيدتان تستعدان لركوب قطار آخر فاستيقظ نيتشه لتوديعهما، بيد أنه ابتُلي فجأةً بصداعٍ شديدٍ وهو في طريقه إلى المحطة لدرجة أن ريه سنده وأعاده الى الفندق.

في بيزا توقف لرؤية البرج الشهير وفي جنوة رأى البحر لأول مرة في حياته، بعدها أصبحت المدينة مرتبطة في ذهنه بكولومبوس ومازيني وباغانيني، فكانت مدينة المستكشفين والمؤسسين والمبتكرين، مهد الأرواح التي ألهبتها شجاعتها الإبحار في بحارٍ مجهولةٍ على أمل اكتشاف عوالم جديدة. مشى نيتشه الهويدة على المرتفعات المحيطة بجنوة، متخيلًا الأفكار التي اجتاحت كولومبوس العظيم الذي زاد في اكتشافه للعالم الجديد قارات الأرض المعروفة في ذلك الحين برمشة عين.

من جنوة استقلوا سفينة بخارية إلى مدينة نابولي، فكانت هذه رحلته الأولى إلى العالم الكلاسيكي. لم يُعط أي وقت للاحتفال بهذه اللحظة الجليلة، وبدلًا من ذلك كان عليه أن يركّز كل انتباهه ووعيه في التغلب على المتشردين الصغار المشاكسين الذين تجمعوا وتصارعوا وحاموا حول أمتعته مثل طيور العقعق السارقة، فلم يحتمل فكرة سرقة أمتعته وافتقاره الى وسائل الراحة الخاصة به في هذا العالم الذي فكر به وتخيله طوال حياته. استطاعت مالويدا أن تعيد إليه حسَّ فكاهته بعد أخذه بجولة مسائية بالعربة على طول خليج نابولي المقوس مرورًا برأس الجبل الناتئ المُطل على البحر والمخضوب بالأشجار في بوسيليبو، وأرته جبل فيزوف ذا البركان الثائر الذي يلوح في الأفق في جزيرة إسكيا التي ترتفع من البحر المتلون بلون النبيذ الغامق.

كتبت مالويدا: «كانت غيومُ عاصفةٍ قد تجمهرت بهيبة فوق جبل فيزوف، وبزغ قوس قزحٍ من صواعق البرق والغيوم الحمراء القاتمة، فلمعت المدينة كأنها مبنية من الذهب الخالص. كان المشهدُ خلابًا، حتى إن السادةَ ثملوا نشوةً من مجردِ النظر إليه. لم أر نيتشه أبدًا بمثل تلك الحيوية في ذلك المساء، فقد علت ضحكته النابعة من بهجةٍ خالصة»(١).

بعد قضاء يومين في نابولي، تابعوا طريقهم إلى سورينتو، فلم يكن من الممكن لشيءٍ أن يُعدّهُ نفسيًا لترحالهِ بين هندسة الجنوب المعمارية. عند وصوله إلى هناك، ألزمته مجموعة الأشباح الشاحبة الشعثاء القديمة التي تسكن الجدران المنهارة ذات اللون البرتقالي المائل إلى الصُفرة وذات الجص المتفتت، التمسك بصرامته وصلابته. كانت الهندسة المعمارية مثيرةً على عكس العمارتين السويسرية والألمانية التي ألفها طوال حياته، بهياكلها المنظمة بصرامة رامزةٍ إلى تجسيد حسن السلوك والفضيلة المدنية المنظمة والمتنقلة من جيل الى جيل.

كانت مالويدا قد استأجرت فيللا روبيناتشي، وهي فيللا مربعة الشكل مبنية من الجص على بُعد مسافة قصيرة من مدينة سورينتو تتوسط مزارع الكروم وبساتين الزيتون. كانت غرف الرجال الثلاث في الطابق الأول تطل على الشرفة، اما مالويدا وخادمتها ترينا فقبعت غرفتاهما في الطابق الثاني مع الصالون الذي كان كبيرًا بما يكفي ليسع الأرواح الحرة ويدور في زوبعةٍ من الإلهام المتزامن.

في ٢٨ تشرين الأول كتب نيتشه رسالته الأولى إلى عائلته مُقصيًا والدته وشقيقته من كل ما رآه عميقًا أو ذا أهمية، فكتب الرسالة بسذاجة تلميذ صغير ولا بد أن فرانشيسكا وإليزابيث قد انزعجتا من عدم وجود أي معلومة مفيدة في طيات الرسالة. ورد في الرسالة: «ها قد وصلنا إلى سورينتو! استغرقت الرحلة بأكملها من بيكس ثمانية أيام. مرضتُ في جنوة. من هناك استغرقت رحلتنا البحرية حوالى ثلاثة أيام، ويا للعجب! لم نُصب بدوار البحر»(٢). لكن طريقة كتابته في مذكراته كانت مختلفة، فقد اعترف بأنه

ارتعش من فكرة أنه ربما يموت من دون رؤية العالم الذي يقبع مشرفًا على البحر المتوسط».

وفي زيارته إلى بيستوم كتب ما يلي: «في حالة كان كل شيء مثاليًّا، لا نسأل كيف حدث كل هذا بل نكتفي بالاحتفال بالمعطى الحالي كما لو أن سحرًا أخرجه من باطن الأرض... في معبد يوناني مثل معبد بيستوم، يتملكنا شعورٌ فحواه أن ربًّا أراد اللعب في أحد الأيام وأنشأ مسكنه المزخرف بالسطوة الهائلة، أو في زمانٍ آخر نفخ قوة سحرية ما الروح في الحجر الذي يحاول الآن التحدث والحكي بكل ما لديه من قوة. يعرف الفنان أن عمله ينتج تأثيرًا كاملًا عندما يثير إيمانًا بالبديهية، إيمانًا بأن العمل أتى إلى الوجود بفجائية اعجازية، وقد يغذي الفنان هذا الوهم ويضمّن عناصر الأرق الحماسي واضطراب التحسس الأعمى للطريق، وعناصر فكرة خيالية لامعة تلخص بداية الخلق في فنه كوسيلة لخداع روح المتفرج أو المدقق بطريقة يعتقد من خلالها أن العمل الكامل قد ظهر بشكل فجائي»[٣].

سقطت الأرواح الحرة في فخ الروتين. كانوا يقضون صباحاتهم بحرية كاملة، فيسبح نيتشه كل يوم في مياه البحر، ثم يذهب في نزهة على الأقدام ويعود ليعمل، وفي منتصف النهار يجتمع الجميع لتناول الطعام. في فترة ما بعد الظهر يذهب الجميع في نزهات عبر بساتين الحمضيات المحيطة، أو قد يركبون الحمير ليذهبوا إلى مناطق بعيدة، وعندها يبدأ الضحك والمزاح مع برينر، الذي تخط ساقاه الطويلتان الأرض مع قوائم الحمار الذي يركبه. في المساء، يتناول الجميع العشاء معًا ليذهبوا بعدها إلى غرفة الجلوس لإثارة الحديث المبني على نهج التباحث المشترك، فتبادل ريه وبرينر الأدوار للقراءة بصوت عالٍ حتى يسمع نيتشه ومالويدا اللذان كانا ضعيفي البصر.

لقد بدأوا مناقشاتهم بمحاضرات بوركهارت عن الثقافة اليونانية القديمة، ثم انتقلوا إلى هيرودوت وثوسيديديس وقوانين أفلاطون، ثم غاصوا في كتاب «الفكر والواقع» لأفريكان سبير، الفيلسوف الميتافيزيقي الروسي-الأوكراني الذي خدم في نفس كتيبة تولستوي خلال حصار

سيباستوبول في ١٨٥٤-١٨٥٥. تعتمد منظومة سبير الفلسفية على الحاجة لليقين المطلق، فما يهم هو اليقين وليس الحقيقة، والافتراض الحقيقي الوحيد غير المشروط هو قانون الهوية: أ = أ. لا شيء في عالم الصيرورة متطابقًا ذاتيًا حقًا، ويجب أن نسلم بالحقيقة النهائية، ورغم أننا لا نستطيع أن نقول شيئًا عنها عدا أنها متطابقة ذاتيًا، إلا أنها يجب أن تستبعد التعددية والتغيير. ادعى سبير أن منظومته قدّمت عرضًا منطقيًا لما توصل إليه أفلاطون وبارامیدس بديهيًا. من الغريب أن سبير ترك تأثيرًا قويًا على نيتشه في ذلك الوقت، لأنه ربوبي موحد وميتافيزيقي على شاكلة شوبنهاور، بينما انصب اهتمام نيتشه على العقلانيين الأخلاقيين الفرنسيين مونتين ولاروش فوكو وفوفينارج ولابروير وستاندال وفولتير.

وصف ريه نفسه بأنه أخلاقي تطوري، ومن المؤكد تقريبًا أنه هو الذي عرّف حلقة القراءة هذه على العقلانيين الفرنسيين. كان فولتير لعنة في أيام نيتشه الشوبنهاوري، لكن التحول الدرامي الذي شهدته أفكاره في ذلك الشتاء كان عجيبًا، حتى إنه عندما أكمل كتابه الجديد في نهاية المطاف أهداه لفولتير. وظف تلاعب الألفاظ لصالحه فأطلق على نهج أفكاره الجديد اسم (Réealism) الريوية(*).

كان بول ريه يصغر نيتشه بخمس سنوات، وكان والده رجل أعمال يهوديًا ثريًّا وبهذا لم يكن بحاجة إلى العمل لكسب رزقه فأصبح طالبًا أبديًا والتحق بعدة جامعات، فدرس القانون وعلم النفس وعلم وظائف الأعضاء، وكان قد حصل على الدكتوراه في الفلسفة في العام السابق. لقد كان طوله مقاربًا لطول فاغنر ونيتشه، وسيمًا بعض الشيء بشعره البني المتموج وخجولًا مع ثقة مزعزعة بالنفس، وهذا ما يفسر تحوله لمخالب قطٍ تخربش بها النساء القويات مثل إليزابيث نيتشه ولو سالومي في المستقبل.

(*) Réealism: تلاعب نيتشه بالألفاظ فدمج بين كلمة «Realism» والتي تعني المذهب الواقعي، وكلمة «Réealism»، إشارة إلى صديقه الفرنسي Rée. (المترجم)

عانى ريه من بعض المشكلات الصحية المزمنة البسيطة وغير المعروفة، لكن معاناته من نقص الحيوية والثقة بالنفس كانت أعظم.

على شاكلة نيتشه، شارك ريه في الحرب الفرنسية - البروسية وأصيب بجروح لكنه لم يعتبر هذه المشكلات حاجزًا أمام التمتع بالثقافة الفرنسية، أما نظرته العالمية فقد اتفقت مع طموح نيتشه بأن يكون مواطنًا أوروبيًا صالحًا وليس مجرد مواطن تحت راية الرايخ. استمرت صداقة نيتشه وريه لحوالى ست سنوات، بين تشرين الاول ١٨٧٦ حتى عام ١٨٨٢، وخلال هذه الفترة أنتجا أعمالًا أدبية أثرا بها على بعضهما بعضًا من حيث الأسلوب والأفكار. أخذ الاثنان الإغريق القدماء كنقطة انطلاق للتفكير في الاهتمامات الفلسفية في وقتهما آنذاك بينما كانا يناضلان للتوصل إلى مصطلحات للمعرفة الإنسانية ما بعد الداروينية.

حدد ريه مبادئه الأساسية في أطروحة الدكتوراه الخاصة به في عام ١٨٧٥:

١. لا تعتمد الأفعال البشرية على الإرادة الحرة.

٢. لا ينبع الضمير من أصل غيبي.

٣. غالبًا ما تكون الوسائل غير الأخلاقية جديرة بالثناء لأنها تهدف إلى تحقيق غاية صالحة.

٤. لا يوجد أي تقدم فيما يخص العلاقات الانسانية.

٥. إن ضرورة كانط الحتمية لا تتناسب مع العقيدة الفعلية للأخلاق[٤].

كانت نية ريه المعلنة هي التعامل مع المشاعر والمفاهيم الأخلاقية كما يتعامل الجيولوجي مع تكوين طبقات الأرض، مع الأخذ بالعقيدة الداروينية المتمثلة بالانتخاب الطبيعي كإطار نظري عام واستبدال الافتراضات الميتافيزيقية بالمذهب الطبيعي العلمي.

مع عدم وجود إيمان بالإرادة الحرة، لا يمكن أن يكون هناك إيمان بالمسؤولية الأخلاقية. كانت فكرة اللوم أو الخطيئة غير صحيحة، لأنها افترضت أن شخصًا ما كان يمكن أن يتصرّف بشكل مختلف.

في التحليل النهائي، أنكرت نظرة ريه المستقلة والساخرة أي نية أو احتمال بأنها قد تنوّر أو تعلّم أو تبرر أو ترفع أو تتجاوز أي شيء. وهكذا، وبسبب كونها منزوعة الميتافيزيقا، كانت أكثر تشاؤمًا من نظرية شوبنهاور، لكن العقيدة الطبيعية التي وضعها ريه لتنظيم هذه الأفكار هي التي أبعدت نيتشه عن الرومانتيكية الميتافيزيقية لشوبنهاور وفاغنر وقادته نحو وجهة نظر علمية إيجابية. تأثر هذا الاتجاه الجديد بسعي ريه إلى شرح المشاعر الأخلاقية من خلال إعادة بناء تطورها التاريخي أو ما قبل التاريخي فيما سماه «أخلاقيات التطور».

كان تفسير ريه للمعنى الأخلاقي هو ما يلي: تمامًا كما يطور الأطفال أفكارهم من خلال التجارب اليومية والقدوة الأبوية والعادات المكتسبة، يطور الجنس البشري بمرور الوقت طبيعة أخلاقية يتم تمريرها للأجيال اللاحقة. تفكير ريه في اكتساب الأخلاق يتبع أخلاقيات داروين التطورية المذكورة في «أصل الإنسان». من الممكن أن يكون نيتشه قد تعلم هذه الأفكار التي تدور حول فلك داروين من ريه[٥]. كانت قدرة نيتشه على القراءة باللغة الإنجليزية مشكوك فيها، ومع ذلك فنحن نعرف أنه كان على دراية تامة بمقال داروين «**المسيرة الحياتية للرضيع**»[٦]، إنها قصة قصيرة تتعلّق بالكشف المبكر عن الحس الأخلاقي. يحكي داروين أنه رأى ابنه ويليام، البالغ من العمر عامين حينها، يخرج من غرفة الطعام وفي عينيه بريق «غير عادي أو طبيعي أو كأن شيئًا ما أثر به». والحقيقة أن الطفل كان قد سرق بعض السكر. خلص داروين إلى أن شعور الطفل بالضيق ينبع من رغبته المحبطة في الإرضاء، حتى عندما اختبر قدرته المكتسبة حديثًا على ربط الحوادث الماضية والمستقبلية. لم يكن شعور الضيق هذا نابعًا من الخوف من العقاب، لأنه «لم يسبق للطفل أن اختبر العقاب بأي شكل من الأشكال». بالنسبةِ إلى ريه، حمل المقال المبدأ الثاني في أطروحته: لا ينبع الضمير من أصل غيبي. سيكتب نيتشه كتابًا كاملًا حول هذا الموضوع، مستكشفًا ما أسماه جينالوجيا الأخلاق. كان ريه يحمل نسخة من كتاب لاروشفوكو «حِكم» في جيبه، فقد كان متمكنًا في مجال الشذرات، كشذرة «التعليم يغير سلوكنا وليس شخصيتنا» وشذرة «ينشأ الدين من الخوف من الطبيعة، أما الأخلاق فتولد من الخوف من البشر»[٧].

ضمت أطروحة دكتوراه ريه بيانًا مفاجئًا ينم عن شجاعةٍ مفاده أن «هناك ثغرات في هذه الأطروحة، لكن هذه الفجوات أفضل من الحلول المؤقتة»، وكان هناك الكثير من الثغرات في الشذرات التي اختارها كوسيلة لإيصال الأفكار. كانت الشذرات تقنية غير علمية وغريبة بالنسبة لمن أطلق على نفسه اسمًا أخلاقيًّا تطوريًّا، لأن ميزة الإثبات العلمي تتمثل في أنه ينقلك بشفافية من الحالة ألف الى الحالة باء، في حين أن الشذرات، كما لاحظ نيتشه، هي منصة الإطلاق الكبرى للتخمين؛ «إن الشذرات المصاغة بشكل صحيح لا يمكن فك شفرتها عند قراءتها ببساطة هكذا، بل يجب على المرء أن يشمر عن ساعديه ليبدأ مهمة التفسير الشاقة»[٨].

ألهم أسلوب ريه الفرنسي الأنيق في استخدام الشذرات نيتشه فقلده. جذبه أسلوب الإيجاز بشكل كبير لأن فترات قراءته وكتابته أصبحت أقصر. «يؤدي هذا الألم العصبي مهمته على أكمل وجه وبأفضل دقة، لدرجة أنه يختبر مدى تحملي له حرفيًا، وكل اختبارٍ يدوم لمدة ثلاثين ساعة»[٩]، وبهذا لم يكن بجانبه مساعدًا أدبيًا دائمًا ليملّيه الكتابة، وبالمقابل لا تستغرق الشذرة المحبوكة كثيرًا من الوقت لتستقر على الورقة.

كانت أول شذرة دوّنها في كتاب ملاحظاته مستوحاة من الشعارات المخطوطة على أوراق داخل كعكات الحظ «تتضح الأمومة في كل أنواع الحب، على عكس الأبوة»، و«حتى ترى شيئًا ما بكل جوانبه، يجب أن تنظر له بعينين، عين مُحبة وأخرى كارهة»[١٠]. حطّ الإحباط بثقله عليه عندما حاول تنقيحها باللغة الألمانية، فهي بمقارنتها مع اللغة الفرنسية، كانت تشبه مخلوق لوياثان ضخمًا. لم تتناسب هيكلة الألمانية الثقيلة مع الإيجاز، وأي شخصٍ يحاول كتابة الشذرات بالألمانية يواجه بعد برهة مشكلة تتمثل بعدم قدرته على قطع العبارات بوضوح وبراعة مثل الفرنسية أو الإنجليزية. تتعثر الأفعال المساعدة المنفصلة أكثر وأكثر حتى تنهار، فيبطل الإيجاز ويأفل المقصد. مع ذلك، فقد استمد متعةً كبيرةً من مثابرته على هدفه، والكتاب الذي كان يعمل عليه إنساني مفرط في إنسانيته، ضم في نهاية المطاف حوالى ١٤٠٠ شذرة أو فقرة.

كانت عائلة فاغنر تقضي فصل الشتاء في سورينتو أيضًا، في فندق فيتوريا بالقرب من فيللا روبيناتشي. كان الاتصال الوحيد بين نيتشه وفاغنر منذ مهرجان بايرويت في شهر أيلول هو رسالة فاغنر المفاجئة التي طلب فيها من نيتشه شراء بعض الملابس الداخلية الحريرية من بازل وإرسالها إليه. كان نيتشه في حينها مريضًا جدًا عندما تلقى الرسالة لدرجة أنه لم يكن قادرًا على تثبيت القلم على الورق، لكنه رتب موضوع شراء الملابس الداخلية ثم طلب إرسالها إلى فاغنر ترافقها رسالة رقيقة طويلة، عبّرت عن سعادته الصادقة لكونه قد لبى طلب فاغنر، فقد أعادت المهمة البسيطة ذكريات رائعة عن الأوقات السعيدة في تريبشن[١١].

بمجرّد وصول مجموعة مالويدا إلى سورينتو، دعت عائلة فاغنر المقيمة في فندق فيتوريا القريب منهم. كان مزاج فاغنر كئيبًا وحزينًا، فقد أضنته الجهود التي بذلها في سبيل إنجاح مهرجان بايرويت ورغم ذلك كانت عيوب وأخطاء المهرجان سيئةً جدًا. كان في حالة من الغضب المستمر، فقد فسد كل شيء، والآن يجب عليه تصحيح العيوب الفنية في مهرجان العام المقبل. لكن السؤال هو هل من الممكن إقامة مهرجان ثانٍ مع كل الديون التي خلفها هذا المهرجان الافتتاحي والتي وصلت الى ١٤٠،٠٠٠ مارك. كان قد كتب إلى الملك لودفيغ يقترح خطة بارعة لنقل الدين إلى الرايخ لكن الملك كان يتبع طريقته المعتادة المتمثّلة في عدم الرد لتجنب أي شي صعب.

قضى الجميع فترة أسبوعين في سورينتو. ما وصلنا من مالويدا يتعلق بالريح في بساتين الزيتون ورحلات مشاهدة المعالم السياحية اليومية وحفلات المساء التي تضيئها الشهب في سماء الليل والموجات الفسفورية التي تحتضن الشاطئ، لكننا لم نعرف شيئًا ذا قيمةٍ عن محادثات نيتشه وفاغنر. ذكرت كوزيما في يومياتها أنها رأت نيتشه لفترة وجيزة في اليوم الأول، حيث بدا مرهقًا وقلقًا على صحته[١٢]. لم تكن كوزيما لطيفة مع ريه فكتبت «لم تثر شخصيته الباردة والنيّقة اهتمامنا، وعند التمعن في الموضوع توصلنا إلى استنتاجِ أنه لا بد أن يكون إسرائيليًا.»[١٣] لم تأتِ على ذكر نيتشه بعد ذلك،

والأرجح أن مرضه منعه من قضاء الوقت معهم، كان شهر تشرين الأول شهرًا سيئًا بالنسبة له. بعد «هجومٍ مستميتٍ للغاية»، سافر نيتشه إلى نابولي لاستشارة الطبيب أوتو فون شرون، أستاذ في علم البصريات، الذي أوصاه بالزواج لإنهاء هذه الأزمة. ربما كان هذا بمثابة تعبير لفظي ملطّف عن الجماع، ويشير ريه إلى أن نيتشه أخذ بالنصيحة ومارس الجماع مع بغايا أثناء وجوده في نابولي وحتى بعد عودته إلى سورينتو، أما مالويدا ففهمت المعنى الظاهري لنصيحة الأستاذ وبدأت بحماسة حملة بحث عن زوجة مناسبة. وضعت هي ونيتشه خطة لخصّها الأخيرُ في رسالة إلى أخته إليزابيث:

«إن الخطة التي تقول السيدة ميسنبوغ أننا يجب أن نضعها نصب أعيننا، والتي أريدكِ أن تشاركي في تنفيذها، هي كالتالي: يجب أن نقتنع بأني لن أستطيع البقاء في جامعة بازل على المدى الطويل، وأن الاستمرار في عملي هناك في أحسن الأحوال سيعني التخلي عن كل مشاريعي المهمة، إضافة إلى التضحية بصحتي». كان المخرج الوحيد من هذا المأزق هو الزواج من امرأة ثرية، «فاضلة لكن غنية» كما قالت السيدة ميسنبوغ، وكلمة «لكن» هذه دفعتنا لأن نضحك بصوت عالٍ... مع هذه الزوجة سأعيش سنواتي القليلة القادمة في روما، وهي مكان يناسبني لعدة أسباب صحية واجتماعية ودراسية. يجب أن ننفذ هذه الخطة في هذا الصيف في سويسرا حتى أعود إلى بازل في الخريف رجلًا متزوجًا. دُعي العديد من الأشخاص للمجيء إلى سويسرا من بينهم... إليز فون بولو من برلين وإلسبيث براندز من هانوفر. قدر تعلق الأمر بالصفات الفكرية، ما زلت أجد ناتالي هيرزن هي الأنسب. لقد أبليتِ حسنًا مع الانسة كونكرت في جنيف! ولك كل المديح والثناء! لكن الأمر مشكوكٌ فيه، وماذا عن المال؟...». (١٤)

ذكر أهم الصفات التي يجب أن تتوفر في المرأة التي سيتزوجها (بعد المال)، وهي أن يتمكن من خوض حواراتٍ فكرية معها في الكِبر، وهنا تأتي ناتالي هيرزن كأبرز مرشحة. كانت ناتالي الفتاة الروسية-اليهودية ابنة الأرمل ألكساندر هيرزن، قد نشأت وتعلّمت على يد مالويدا التي اعتبرتها وأُختيها

بناتها بالتبني. في حين أن ناتالي كانت ذكية بما فيه الكفاية لتعجب نيتشه، إلا أنها لم تكن غنية، وهذا سهّل عليه التهرب من الموضوع، فمن الصعب لأحدٍ أن يتخيله يفكر في الزواج من دون ذعر. في أحد الأيام تلقى رسالة من بطلة المشهد الرومانسي في القطار، إيزابيلا فون دي بالين، تعرب فيها عن أملها في أن يجتمعا في روما، إلا أن المرض تدخَّل فجأة وللمرة الثانية، فخانته قواه في أن يرد على رسالتها مباشرة، لكنها لم تخنه عندما راسل ناشره ليرسل لها نسخة من «**تأملات في غير أوانها**» مرفقة بتحياته.

يبدو أن للقطارات تأثيرًا خاصًا على نيتشه، ففي رحلة القطار التالية سُحر براقصة باليه من مسرح ميلان: «ياللهول، ليتكِ سمعتي لغتي الإيطالية! لو كنت باشًا، كنت أخذتها معي الى فافريس وعندما أواجه عوائق في مهنتي الفكرية كانت لترقص من أجلي. ما زال يراودني الغضب تجاه نفسي بسبب عدم بقائي في ميلان لبضعة أيام أخرى على الأقل من أجلها» [١٥]، ولكنه سرعان ما اعترف: «رغم أن الزواج حالة مرغوبة جدًا، إلا أنه غير محتمل الحدوث، أعرف هذا جيدًا»[١٦].

غادر آل فاغنر سورينتو في ٧ تشرين الثاني، ولكن قبل ذلك، في يوم تذكّر الموتى(*) (All souls day)، الذي يصادف في الثاني من تشرين الثاني، ذهب الجميع في نزهة على الأقدام قبل قضاء المساء برفقة بعضهم بعضًا. في السيرة الذاتية لشقيقها، تُعلن إليزابيث نيتشه (التي لم تكن في سورينتو أبدًا) للعالم أن خلافًا حدث في ذلك اليوم بين شقيقها وفاغنر تسبب في قطع العلاقة بينهما للأبد. لم تدعم كوزيما هذه القصة أبدًا، فرغم أنها كانت هناك إلا أن ما كتبته في مذكراتها عن ذلك اليوم كان مختصرًا وهادئًا. في هذه المرحلة من السرد، لا بد من ذكر هذا المثال على موهبة إليزابيث في اختلاق الحوادث، لأن سيرة أخيها الذاتية هي ميناءٌ لكل باحث، والواقع أن روايتها

(*) يوم تذكار الموتى: عيدٌ تحتفل بعض الطوائف المسيحية بكل الأرواح المسيحية التي غادرت هذا العالم. (المترجم)

غير الصحيحة للحوادث أثّرت على معرفة حياة نيتشه لعدة عقود. تمامًا كما كانت رواية إليزابيث الملفقة عن وفاة والدها مصممة لإبعاد الانتباه عن احتمالية وجود مرض السفلس في العائلة، فإن قصتها عن الخصومة مع فاغنر صُممت لإخفاء السبب الحقيقي وراء انقطاع علاقة الصداقة هذه، والذي تَركَّز حول سرِ طبي وفضيحة جنسية عملت إليزابيث بجهد لإخفائها.

كتبت إليزابيث: «في أمسيتهما الأخيرة معًا (في سورينتو)، ذهب فاغنر وأخي بجولة مذهلة على طول الساحل وصعدا على مرتفعٍ فبان البحر أمامهما عظيمًا مع الخليج وجزيرةٍ في الأفق. قال فاغنر: «إن هذا جو وداع»، ثم بدأ يتحدث عن بارسيفال (الأوبرا الجديدة التي كان يؤلفها والتي تمحورت حول موضوع فرسان الكأس المقدسة المسيحي). كانت هذه هي المرة الأولى التي يتحدث فيها بإسهاب عن هذا العمل، وقد تحدّث بطريقة رائعة معتبرًا إياها تجربة دينية مسيحية وليست مجرد إبداع فني... بدأ يعترف لأخي بمشاعر وتجارب مسيحية مختلفة، مثل التوبة والتكفير عن الذنوب وكل أنواع الميول نحو العقيدة المسيحية... لا يمكن له (نيتشه) أن يعتبر تغير فاغنر المفاجئ إلا محاولةً لفهم القوى الحاكمة في ألمانيا والتي أصبحت متدينة، والتصالح معها، فكان هدفه الوحيد هو النجاح المادي. بينما مضى فاغنر مسترسلًا في حديثه، غاص آخر شعاع للشمس في قلب البحر وتسلل ضباب خفيف تحت ستار الظلام إلى حيث يقفان. كما ظلام الليل، بدأ ظلامٌ في قلب أخي يُسدل ستاره... يا لخيبة الأمل! لم تتذكر مالويدا سوى إحباط أخي طيلة ذلك المساء، ثم تقهقر إلى غرفته في وقت مبكر. كان لديه شعور بأنه وفاغنر لن يجتمعا مرة أخرى»[١٧].

كل هذا اختلاق من أوله حتى آخره، لكنه ظل حقيقةً صدّقها الجميع حتى عام ١٩٨١، عندما حكى الباحث الفاغنري مارتن غريغور ديلن القصة الحقيقية.

عندما وصل نيتشه إلى سورينتو، كان فاغنر مهتمًا بحالته الصحية السيئة، فكاتب صديقه الطبيب أوتو إيزر الذي نصح بدوره بإجراء فحص

سريري لنيتشه. عند عودته من إيطاليا، ذهب نيتشه إلى فرانكفورت ليفحصه إيزر وطبيب عيون يدعى الدكتور أوتو كروغر. كانت هذه هي المرة الأولى التي يُفحص فيها بدقة، حيث استمر الفحص أربعة أيام شخّصا خلالها التغيرات في جزء داخلي من مقلة العين يسمى قاع العين، ويمكن أن تكون هذه التغيرات جرّاء مرض السفلس في الأصل. اكتشفا أيضًا ضررًا شديدًا في كلا الشبكيتين، وقد ساهم ذلك في قسوة الصداع الذي عانى منه والذي لم يحدث بتأثير «نزلة في المعدة» ولكن بتأثير «قابلية تهيج الجهاز المركزي»، الذي تم تشخيص سببه على أنه نشاط عقلي مفرط. هذا يعني أن عليه أن يقلل عمله وأن ينظم برنامج استرخاء للتخلص من تعب العمل وأن يأخذ الكينين ويضع نظارات زرقاء لتخفيف آلام رأسه، واستبعدا احتمالية إصابته بورم خبيث في الدماغ.

كان المعتقد الشائع في ذلك الحين أن الاستمناء يسبب مشكلات حادة في العين مثل تلك التي عانى منها نيتشه، فأرسل فاغنر رسالة حزينة طائشة إلى الدكتور إيزر معربًا عن شكوكه هذه «في تقييمي لحالة نيتشه، تذكرتُ حالات متطابقة أو متشابهة للغاية لشباب يتمتعون بقدرة ذهنية كبيرة وقد لاحظتُ أنهم يعانون من أعراضٍ مماثلة، فاكتشفت بكل تأكيد أن هذه الأعراض كانت ناتجة من الاستمناء. منذ أن بدأت أراقب نيتشه عن كثب، مستعينًا بخبراتي هذه، حوّلت كل صفاته المزاجية وعاداته المميزة خوفي إلى قناعة»[١٨]. وجد فاغنر أدلة إضافية على صحة نظريته في النصيحة التي قدمها الطبيب في نابولي؛ يجب أن يتزوج نيتشه، أي يجب تنظيم حياته الجنسية.

أجابه الدكتور إيزر: «عند مناقشة حالته الجنسية، أكد لي ن.[*]. أنه لم يكن أبدًا مصابًا بمرض السفلس بل أجاب بالنفي عندما سألته عن الإثارة الجنسية القوية والإرضاء الجنسي الخارج عن المعتاد. ومع ذلك، لقد تطرقت لهذه النقطة على عجالة وبالتالي لا يمكنني أن أعول على ملاحظات ن. حول

(*) ن. إشارةً إلى نيتشه. (المترجم)

الموضوع. أجد أنه من البديهي أن يتكلم المريض عن التهابات السيلان التي أصيب بها أثناء أيام دراسته، وأيضًا أنه مارس علاقات جنسية عدة مرات في إيطاليا بناءً على نصيحة طبية. هذه الملاحظات التي لا جدال فيها تثبت على الأقل أن مريضنا لا تنقصه القدرة على تلبية رغبته الجنسية بطريقة طبيعية؛ وهي حالة لا يمكن اعتبارها قاعدة عامة على الرغم من أنها ليست مستحيلة بالنسبة للمستمنين في عمره... أقر بأن اعتراضاتي بعيدة كل البعد عن اليقين وقابلة للنقض من خلال مراقبتك الطويلة والشاملة لصديقنا. لا بد لي من قبول افتراضك بكل سهولة لأن تصرفات وسلوك ن. تدفعني للملاحظة مبالغته في إثبات كلامه أكثر من اللزوم».

تابع إيزر يقول إن هناك حالات تعافٍ لمرضى العصاب والهستيريا الذين أوهنهم الاستمناء، لكن هذا لم يكن ممكنًا بعد هذه المرحلة من الأضرار والتدهور الذي أصاب العينين، فقد تجاوز بصر نيتشه مرحلة الإنقاذ. استبعد إيزر مرض السفلس والتهاب الكلية المزمن (مرض الكلى) كسبب للمشكلة.

أما بالنسبة للصداع، «من المؤكد أن هذا التهيج المرضي للمراكز العصبية يمكن أن يتحول إلى ربط سببي مباشر مع المجال الجنسي، وبالتالي فإن حل مسألة الاستمناء سيكون له هنا علاقة مهمة بالتشخيص، رغم أنني شخصيًا أشك في نجاح أي طريقة من طرق العلاج»، وفي النهاية أسدى لفاغنر نفس النصيحة التي أسداها الدكتور شرون إلى نيتشه: كان هناك أمل في أن تتحسَّن حالة نيتشه العامة -ماعدا نظره- إن تزوج زواجًا سعيدًا[١٩].

لم يكن سبب الخصومة بين الرجلين، اللذين كانا يحبان ويقدران بعضهما بعضًا كثيرًا، النزعة الدينية لاوبرا فاغنر بارسيفال كما قالت إليزابيث، بل اكتشاف نيتشه في نهاية المطاف لهذه المراسلات حسنة النية والمحطمة في ذات الوقت.

(٩) أرواحٌ حرة وأخرى مغلولة:

١. من مالويدا إلى أولغا هيرزن من سورينتو، ٢٨ تشرين الأول ١٨٧٦.
٢. نيتشه إلى إليزابيث من سورينتو، ٢٨ تشرين الأول ١٨٧٦.
٣. «إنساني مفرط في إنسانيته» الجزء الرابع، «من روح الفنانين والكتّاب»، ١٤٥.
٤. بول ريه «Notio in Aristotelis Ethicis Quid Sibi Velit Halle Pormetter، ١٨٧٥، تم ذكره في كتاب روبن سمول «نيتشه وريه، صداقة نجومية»، مطبعة كلارندون، أوكسفورد، ٢٠٠٧، ص ١٥.
٥. عندما كان طالبًا، اكتسب نيتشه معظم معلوماته عن الموضوع من كتاب فريدريك ألبرت لانغ بعنوان «تاريخ المادية والنقد لأهميتها في الوقت الحاضر»، ١٨٧٩. في عام ١٨٨٧ أو ١٨٨٨ حصل نيتشه على نسخة من كتاب كارل فيلهلم فون نجيلي بعنوان «النظرية الميكانيكية الفسيولوجية للتطور» ١٨٨٤، دراسة مفصلة عن الداروينية.
٦. نُشر في «Mind» ١٨٧٧، ص ٢٩١-٢٩٢. لتغطية أشمل، راجع كتاب سمول «نيتشه وريه»، ص ٨٨-٩٠.
٧. من كتاب سمول «نيتشه وريه» ص ٧٢، ٩٨.
٨. «في مقدمة من جينالوجيا الأخلاق»، الجزء الثامن.
٩. نيتشه إلى ريتشارد فاغنر، ٢٧ أيلول ١٨٧٦.
١٠. دفتر ملاحظات ١٨٧٦، مُقتبس في كتاب سمول «نيتشه وريه»، ص ٥٨.
١١. نيتشه إلى ريتشارد فاغنر من بازل، ٢٧ أيلول ١٨٧٦.
١٢. مذكرات كوزيما فاغنر، ٢٧ تشرين الأول ١٨٧٦.
١٣. المصدر السابق، ١ تشرين الثاني ١٨٧٦.
١٤. نيتشه إلى إليزابيث، ٢٥ أبريل ١٨٧٧.
١٥. نيتشه إلى مالويدا، ١٣ أيار ١٨٧٧.
١٦. نيتشه إلى إليزابيث، ٢ حزيران ١٨٧٧.
١٧. من كتاب إليزابيث فورستر نيتشه «حياة نيتشه»، المجلد الثاني، ص١١-١٣.
١٨. ريتشارد فاغنر إلى الدكتور إيزر في ٢٧ تشرين الأول ١٨٧٧. تم اقتباسها في كتاب مارتن غريغور-ديلين «ريتشارد فاغنر، حياته وأعماله وقرنه»، ترجمة ماكسويل برونجون عام ١٩٨٣، ص ٤٥٢-٤٥٣.
١٩. تقرير الدكتور إيزر في ٦ تشرين الاول ١٨٧٧، تم ذكره في كتاب غريغور-ديلين «ريتشارد فاغنر، حياته وأعماله وقرنه»، ص٤٥٣-٤٥٤.

١٠
إنسانيٌّ مفرطٌ في إنسانيّته

إن المفكر - كما الفنان - الذي ضمّنَ أفضل ما عنده في أعماله، يشعر ببهجة خبيثة وهو يراقب الزمن ينخرُ روحه وعقله. يبدو الأمر وكأنه يشاهد من زاوية في غرفته لصًا يحاول فتح خزنته، بينما يعلم أنها فارغة لأن كنوزه موجودة في مكان آخر.

إنساني مفرط في إنسانيته، من روح الفنانين والكتاب.

«إلى مالويدا فون ميسنبوغ»

لوغانو، صبيحة الأحد ١٣ أيار ١٨٧٧

أن يكون الإنسان تعيسًا في رحلة بحرية لهو أمر فظيع، لكنه مع ذلك أمر طريف في الواقع، كيف تنبثق آلام الرأس في بعض الأحيان عندما يكون وضعي الجسدي بحالة ممتازة؟، باختصار، أختبرُ اليوم مرة أخرى مزاج العجز الهامد، حيث لم تفارق الأفكار السوداء ذهني على ظهر القارب. شكوكي الوحيدة عن الانتحار تتعلّق بحيثية أعمق نقطة في البحر، فبهذه

الحالة لن يتم إنقاذك فورًا مجددًا وهذا ما يقود إلى أن تدفع ديون الشكر لمنقذك بِصرّةٍ كبيرة من الذهب... كنت أضع نظارتي الأكثر سُمكًا وأرتابُ من الجميع. جاء مركب الجمارك بعد جهد جهيد، ولكنني نسيت الشيء الأكثر أهمية، وهو أن أسجل حقائبي في رحلة القطار... ثم بدأت رحلتي إلى فندق ناشيونال البديع، يرافقني محتالَان في المقصورة أرادا إجباري على النزول في مطعم بائس. كانت أيادٍ غريبة تحمل أمتعتي طوال الوقت، ودائمًا ما يلهثُ رجل أمامي تحت ثقل حقيبتي... كانت الرحلة فظيعةً، وحاشيةٌ من قطاع الطرق أرادوا أن ندفع لهم المال... عبرت الحدود السويسرية بالتزامن مع هطول مطر غزير، وكانت هناك ومضة برق واحدة أعقبها صوت رعد مزمجر، فاعتبرته فأل خير».

لقد أساء نيتشه قراءة طالعه، فعند عودته إلى سويسرا، لم يجد هناك الكثير لتنشيط حسّه الفكاهي الساخر، وفشل الطقس الإيطالي المعتدل في التأثير السحري المأمول على صحته، وعلى الرغم من أن الجو الاجتماعي في فيللا روباناتشي كان رائقًا ومحفزًا فكريًا إلا أنه لم يتمخض عن أي كتاب يُذكر. مع فشل تأملات في غير أوانها سواء على صعيد إحياء الثقافة الألمانية أو على صعيد بيع الكتاب [كان أكبر عدد قد بيعَ هو ما يقارب التسعين نسخة من «**ريتشارد فاغنر في بايرويت**» للجمهور المأسور في افتتاحية مهرجان بايرويت]، كتب إلى ناشره شمتزنر «ألا يجدر بنا إنهاء سلسلة **تأملات في غير أوانها**؟»[1]، اعترض شمتزنر على ذلك لكن نيتشه كان قد انتقل من قائمة مواضيع التأملات الأصلية، أو الجامدة بالأحرى، إلى التركيز على الكتاب الجديد الذي شرع بالتفكير فيه عندما كان في كلينغنبرن أثناء استراحته الوجيزة من بايرويت. تطورت تدريجيًا عناوين مثل «نصل المحراث» و«الروح الحرة» لتنتهي فيما بعد بـ«إنساني مفرط في إنسانيته»، وعنوانه الفرعي «كتاب للأرواح الحرة»، وقد وصف كتابه هذا بأنه أثر تذكاري لأزمة. كان موضوع الكتاب هو الحالة الإنسانية وكان المنطقُ المنارةَ التي يهتدي بها، أما اللغة فلم تكن شديدة الانفعال أو واعظة أو متبجحة أو حتى غامضة، بل شخصية وصافية وأنيقة. على الأرجح أنه أكثر كتبه جدارة بالإعجاب.

أينما نظر، رأى قصور الأفكار في التنوير والرومانسية تملأ الفجوة التي خلّفها انهيار طرائق التفكير التقليدية. كان بحاجة الى انطلاقة جديدة «متحررًا من الأشباح وظل الناسك». وفي حالته، متحررًا من تمجيد الحنين إلى اليونان القديمة وشوبنهاور وفاغنر ومن تقسيم العالم إلى إرادة وتمثل. قد يكون هذا الكتاب علامة على تطوره من فيلولوجي ومعلق ثقافي إلى مُجادل. لم يكن كتابًا مناسبًا للفلاسفة، بل للأرواح الحائرة التي ترغب في تفحص الأسئلة الثقافية والاجتماعية والسياسية والفنية والدينية والفلسفية والاخلاقية والعلمية، متحررة من الأحكام المُسبقة والافتراضات والحكايات الخيالية الأخرى التي جُيّرت عبر العصور لتقييد حرية الفكر الحقيقية. كان يعاين العالم الفينومينولوجي بأعين فولتيرية، متقبلًا أنه لا يمكن بلوغ عالم المعقول الذي لا يقدم مغزى لحياة الإنسان اليومية. سيكون هو الروح التي غدت حُرة في أن تمتلك ذاتها، وهو نفسه وريث التنوير. أعلن عن نيته في إهداء الكتاب لفولتير على الصفحة الافتتاحية، وقد كان هذا تصرفًا صارخًا يتحدى فيه فاغنر.

قسم الكتاب إلى فصول:

عن الأشياء الأولى والأخيرة

عن تاريخ الأحاسيس الأخلاقية

الحياة الدينية

من روح الفنانين والكُتَّاب

صفات الحضارة السامية والحضارة المتدنية

الإنسان والمجتمع

المرأة والطفل

نظرة على الدولة

إنسانٌ وحيدٌ مع نفسه

بين الأصدقاء: خاتمة شعرية

يتألف كل قسم من شذرات وحِكم مرقمة. يبدأ فصل «الأشياء الأولى والأخيرة» بصرامة من خلال الإشارة إلى العيب الخلقي في التفكير التأسيسي لكل الفلاسفة السابقين الذين رأوا أن الطبيعة الإنسانية هي حقيقة سرمدية. لقد حام الإنسان أمام أنظارهم كشيء ثابت غير قابل للتغير خلال كل الأزمات وأنه المقياس الموثوق للأشياء. بيد أن كل ما أكده الفلاسفة ليس أكثر من تقرير عن الإنسان أُعدّ خلال فترة زمنية محدودة للغاية. [٢] لقد تطوّر الإنسان تدريجيًا، فلا وجود لحقائق أبدية ولا حقائق مطلقة. لقد حدث كل ما هو جوهري للتطور الانساني في العصور البدائية، قبل وقت سحيق من هذه الأربعة آلاف سنة التي نعرف عنها القليل أو الكثير، ومن الممكن أن الإنسان لم يتغير كثيرًا خلال تلك السنوات. لكن الفلاسفة يرون «غرائز» الإنسان المعاصر ويفترضون أنها تنتمي إلى الحقائق الثابتة اللامتغيرة للطبيعة البشرية. وعلى هذا الأساس، يأخذ نيتشه بأيدي الفلاسفة ليزودهم بمفتاح لفهم العالم بشكل عام[٣]، غير أن هذا الفهم لا يمكن الوصول إليه عبر الإيمان بالتجسد الألوهي في الإنسان أو بمركزيته في العالم.

تنتمي الحساسيات الدينية والأخلاقية والأستيطيقية إلى الجانب السطحي من الأشياء فقط، ومع ذلك يميل الانسان الى الاعتقاد بأن هذه الحساسيات تمس جوهر العالم. إن هذه الأشياء هي من تزود حياته بالمعنى، جاعلة منه سعيدًا للغاية أو تعيسًا للغاية، لذلك يخدع نفسه بالوهم التنجيمي، مُعتقدًا أن السماء المرصعة بالنجوم تدور حول قدره[٤].

إن أصل الميتافيزيقيا والحضارة مُضمرٌ في الأحلام، فقد آمن الإنسان البدائي في إمكانية معرفة عالمٍ آخرَ حقيقيٍ في الأحلام، وهذا هو أصل الميتافيزيقيا. ومن دون الأحلامِ، لما عثر الإنسان على أي فرصة لتقسيم العالم. كما أن الفصل بين الجسد والروح يرتبط بهذه المعتقدات العتيقة عن الأحلام، وهكذا فإن افتراض التجلي الروحاني هو أصل الإيمان بالأشباح وربما بالآلهة أيضًا[٥]:

إن الافتراضات الميتافيزيقية هي أخطاء عاطفية لإيهام الذات، ومع

ذلك، فإن نيتشه على استعدادٍ للتنازل والاعتراف بأنه ربما كان هنالك عالم ميتافيزيقي لا يمكن للمرء أن يجادل حول وجوده. لكن حتى لو أُثبت وجود هذا العالم الميتافيزيقي فمن المؤكد أن معرفة كنه هذا العالم ستكون معرفةً عقيمةً من بين كل المعارف؛ معرفة لا طائل منها كمعرفة بحار يواجه خطر تحطم سفينته في عرض البحر لتركيبة الماء الكيميائية[٦].

تُقرأ الفصول المتعلقة بالمنطق والرياضيات على أنها انتقام رجل ليس بعالِم رياضيات، فالمنطق يعتمد على افتراضات لا تمت للعالم الواقعي بأية صلةَ[٧]. وينسحب ذات الشيء على الرياضيات التي لَما كانت ستنشأ من البداية لو عُرف أنه لا يوجد خطٌّ مستقيمٌ تمامًا في الطبيعة ولا دائرة محضة ولا أي بدايةٍ مُطلقة[٨]. نتذكّر تقارير نيتشه في مدرسة بفورتا القديمة التي تخص الرياضيات في الوقت الذي يخبرنا فيه أن قوانين الأرقام قد شُرعت على أساس الخطأ السائد الأولي المتمثل في وجود العديد من الأشياء المتطابقة، ولكن في الواقع لا شيء متطابقًا، تفترض قوانين الأعداد وجود أشياء تحدثُ بشكلٍ متكرر، لكن هذا خطأ، فنحن نخترع كيانات متطابقة ووحدات لا وجودَ لها. في عالم آخر، عالم ليس من تصورنا، ستكون قوانين حساباتنا غير قابلة للتطبيق كليًّا، لأنها صالحة للاستخدام في عالمنا الإنساني هذا وحسب[٩].

ترافق التحذيرات الفصل الذي يحمل عنوانًا: «عن تأريخ الأحاسيس الأخلاقية». يجب أن تكون ملاحظات علم النفس هي الأساس للفكر الحر، فلا يمكن أن تتحاشى البشرية المنظر الرهيب لنفسها وهي مستلقية على طاولة العمليات النفسية بكل سكاكينها وملاقطها الجراحية[١٠]. يعزز نيتشه تحذيره بالإشارة إلى دي لاروش فوكو: إن ما يسميه العالم بالفضيلة هو في العادة ليس سوى شبحٍ شكّلته عواطفنا، نمنحه اسمًا مُشرّفًا لفعل ما نريد مع حصانة الافلات من العقاب[١١]. يرغب الإنسان [Das Über-Tier الحيوان الأعلى] في أن يُكذب عليه، فقد نشأت الغرائز الاجتماعية على الملذات المتقاسمة والنفور المشترك من الخطر، وأن الأخلاق كذبة رسمية قيلت لتبقي الحيوان الأعلى متسيِّدًا على النظام.

يلاحظ نيتشه في فصل «نظرة على الدولة» أن الحكومة تُعرّض الحرية للخطر وتقف على شفا حفرة من الطغيان عبر أوامرها الحاكمة؛ لكن عندما يتعلّق الأمر بالجماهير، فيجب على المرء أن يعوّد نفسه على تقبل هذه الضرورة المؤسفة وكأنها زلزال لا بد منه، وهنا يقتبس من فولتير: «عندما يشرع الرعاع بالتفكير، يفسد كل شيء»(١٢).

لا يمكن انتقاد نيات الاشتراكية ولكن الثقافة القديمة بأكملها تأسست على القوة والعبودية والخداع والخطأ، وبوصفنا منتجات وورثة الناتج الكلي للماضي، فنحن لا نستطيع التبرؤ من ذواتنا، والتي قد لا نرغب في أن نخسر أي جزء من مكوناتها. «ما نحن بحاجة له هو التحول التدريجي للعقل وليس إعادة توزيع قسرية؛ فيجب أن تنمو العدالة بشكل أكبر عند الجميع وتخبو غريزة العنف»(١٣).

كتب نيتشه عن الدين متسلحًا بثقة حديدية بالنفس، فقد خطا في أرض الدين التي عرفها أكثر من معرفته بأمور الدولة أو السياسة أو الرياضيات، فرنّت شذراته الدينية بالإيقاعات الإنجيلية. يأخذ آيات محددة من الأنجيل ويعمل مبتهجًا على هدمها، وعلى سبيل المثال نجد في باب القديس لوقا: ١٨، الآية ١٤، «سيحتقر الجميع من يُمجّد نفسه وسيمجدون المتواضع». لكن نيتشه يكتب «لوقا: ١٨، الآية ١٤، بعد التعديل: ذلك الذي تواضع يرغب في أن يُمجد»(١٤).

إن الدين هو الإيمان «بالخداع الأسمى»، وهذا يتضمن الإيمان بالمَثل الأعلى. إنه مُعرّض لخطر الاستبدال بالإيمان الأعمى للعلم، والذي بدأ يسمو إلى مكانة الدين مُبشرًا بتقديم اليقين. يجب على الإنسان الذي يرغب بلوغ مكانة الروح الحُرة أن يطبق التفسير التحليلي النفسي والنقدي على الدين والعلم والمَثل الأعلى. إن أصحاب الأرواح الحرة من هذه الطينة ليسوا موجودين الآن لكنهم سيوجدون يومًا ما في المستقبل. يصفهم نيتشه، قادمين ببطئ نحوه منبثقين مثل ظلال شبحية تخرج من ضباب المستقبل، هائمين على وجه الأرض، يميزون أنفسهم كمسافرين إلى وجهة أخيرة لا

وجود لها، بيد أن هذا الموقف لا يفسد حياتهم، على العكس، فتحررهم يكمن في الملذات الساحرة التي يوفرها عدم اليقين والتجوال؛ مرحبين بغموض كل فجر جديد من أجل ثورة الفكر التي سيفجرها.

أطلق نيتشه على كتاب إنساني مفرط في إنسانيته أثرًا تذكاريًّا لأزمة، ولا يقصد هنا أزمة الفجوة الايدولوجية بينه وبين فاغنر فقط، بل أزمة القرف من السنوات العشر الماضية لمهنته التدريسية الأكاديمية المغبرة. مُتطلعًا إلى الوراء، شعر بالغضب من زجه مُبكرًا جدًا في وظيفة لم يكن مؤهلًا لشغلها، فقد أكسبه العمل في الفيلولوجيا إحساسًا بالفراغ والجوع الذي لا يستطيع ملئه أو إشباعه إلا بواسطة الرُقية الفاغنرية المُخدرة. بيد أن الحلم الموسيقي الأفيوني لم يكن وسيلة لإشباع شره الواقع، لقد مثل كتاب إنساني مفرط في إنسانيته بداية رحلته الفلسفية في البحث عن الروح الحرة، والإنسان القادر على إشباع جوعه الوجودي رغم غياب المَثل الأعلى أو الإلهي، ورغم تأثره بالسمو الموسيقي.

إن «**إنسانيّ مفرط في إنسانيته**» هو كتاب نيتشه الأول الذي يُكتب بأسلوب الشذرات المرقمة. مدفوعًا للكتابة بهذه الطريقة المتقطعة المتجزئة بسبب وضعه الصحي الفظيع، حوّل نيتشه علته إلى ترياق، وعرف من خلال الكتابة أن الشذرة هي عامل حث ونقطة انطلاق ومحفز للمستقبل والتساؤلات العميقة. لقد وسم الكتاب بداية ظهور نيتشه بصفته مفكرًا وكاتبًا ذا أسلوبٍ رفيع أصيل.

أرسل النص المكتمل من الجزء الأول (وسيكون هناك جزء آخر) إلى ناشره شمتزنر في منتصف كانون الثاني من عام ١٨٧٨، برفقة قائمة من التعليمات التفصيلية. ومنها، يجب أن يُنشر الكتاب بالتزامن مع الذكرى المئوية لوفاة فولتير في الثلاثين من أيار، ولا يجب الإعلان عن الكتاب بأية طريقة، لأنه سينشر باسم مستعار لكي لا تعترض الزُمر التي تقف مع أو ضد نيتشه طريق الكتاب متحيزين له أو رافضين. يجب أن يظهر المؤلف على غلاف الكتاب باسم «برنارد كرون»، وضمن نيتشه الكتاب سيرة ذاتية مزيفة لكرون لتطبع في المادة الدعائية.

«السيد برنارد كرون، كما هو معروف، ألماني من أقاليم البلطيق الروسية، والذي كان في السنوات الأخيرة مسافرًا لا يستقر في مكان. في إيطاليا، كرس نفسه للدراسات الفيلولوجية والأثرية من بين دراسات عدة، بعدها تعرّف على الدكتور بول ريه، وعن طريق هذا الأخير توصل كرون إلى السيد شمتزنر. ولأن عنوانه مُعرض للتغير المستمر، فمن الأجدر إرسال الرسائل على عنوان الناشر. لم يرَ السيد شمتزنر الكاتبَ شخصيًا مطلقًا»(١٥).

رفض شمتزنر هذا الطلب رفضًا قاطعًا؛ فكتاب الشذرات للسيد برنارد كرون لن يجذب أي انتباه على الاطلاق، بينما سيتغير الموقف كليًا لمؤلف «**مولد التراجيديا**». كتب شمتزنر لنيتشه «كل من يتحدث علانية أمام الجمهور مُلزمٌ كذلك بمناقضة نفسه أمام الجمهور أيضًا بمجرد تغير آرائه»(١٦). أمر شمتزنر بطبع الف نسخة من الكتاب، وأهمل الحظر الذي فرضه نيتشه المتمثل في عدم الإعلان عن الكتاب وسعّرهُ بعشرة ماركات، وهذا ما جعله الكتاب الأغلى في قائمة منشوراته، دلالة على توقعاته العالية.

ظهر اسم نيتشه على العنوان دون لقب الأستاذ الذي افتخر به ذات يوم. في آواخر نيسان، أرسل نيتشه ثماني وعشرين نسخة مجانية للأصدقاء. وصلت نسخة بول ريه مع اهداء «كل أصدقائي متفقين على أنك من ألف الكتاب أو أنه أُلف تحت تأثيرك. ولذلك أهنئك على مؤلفك الجديد!.. تحيا الريوية Réealism!».

أُعجب جيكوب بوركهارت بالكتاب وقال عنه إنه الكتاب السيادي الذي من شأنه أن يرفع من قدر الاستقلال التحرري في العالم، لكنه مع بول ريه كانا المتحمسين الوحيدين للكتاب، فأصدقاء نيتشه الآخرين ممن استلموا الكتاب كانوا ممن تبعوه سابقًا إلى قلب المتاهة الفاغنرية الشوبنهاورية. لقد شعروا على اختلافهم بأن نيتشه قد خانهم أو أحبطهم أو رفضهم. سأل رود: «أيمكن للمرء أن يقتلع روحه ويستبدلها بأخرى؟ أبإمكان نيتشه أن يصبح فجأة بول ريه؟». لقد كان سؤالًا حير المُخلصين القلائل الذين دعموا «**مولد التراجيديا**»، إلا أن نيتشه ردّ على شكوكهم بصرامة قائلًا: «لا أريد أتباعًا»(١٧).

بعث مُرسل مجهول لنيتشه تمثالًا نصفيًا لفولتير من باريس مع ملاحظة تقول «إن روح فولتير تبعث بتحياتها إلى فردريك نيتشه»[١٨]. ربما جاءت هذه الهدية من الجميلة لويز أوت التي وقع في حبها خلال مهرجان بايرويت. كانا لا يزالان يتبادلان المراسلات الحزينة بعد عودتها إلى زوجها المصرفي في باريس، أو أن فاغنر هو من خطط لجلب التمثال النصفي من باريس إلى نيتشه، فقد كان مولعًا بالمزاح.

بلغ الكتاب وانفريد في الخامس والعشرين من نيسان، فأثار الإهداء إلى فولتير ذهولهم. بعد نظرة خاطفة عليه، قرر فاغنر أنه ربما سيكون من مصلحة المؤلف أن لا يقرأ الكتاب. إلا أن كوزيما قرأته، لقد لاحظت أن الكتاب يضمر «الكثير من الغيظ والتجهم»، وشيء ما أسوأ حتى من تأثير فولتير، وتعني بذلك الصورة المصغرة للمؤامرة اليهودية للسيطرة على أوروبا، فقد كان بول ريه يهوديًا، وهي حقيقة استشفتها خلال بضع دقائق عند تعرفها عليه في سورينتو. وصفت كوزيما «إنسانيّ مفرط في إنسانيته» «وأخيرًا، تدخل اسرائيل على هيئة الدكتور ريه، العذب جدًا واللطيف جدًا الذي يسيطر عليه نيتشه، على الرغم من أنه يفوق نيتشه دهاء كعلاقة يهودا وألمانيا في المنمنمات»[١٩]، مُلمّحة في حركة درامية إلى إحراق خطاباتها مع نيتشه.

رد فاغنر نفسه علانية على الكتاب في صحيفة بايرويت بلاتر، الصحيفة الدعائية التي نجح في تأسيسها. عندما رفض نيتشه منصب محرر الصحيفة، عين فاغنر هانز فون ولزوغين في مكانه. كان ولزوغين معاديًا للسامية ومثقفًا من الرعيل الثاني، شقّ طريقه إلى وانفريد من خلال بنائه لفيللا مبهرجة قريبة من وانفريد وبإغداق فاغنر بالعبارات المتملّقة. على الرغم من ازدراء نيتشه لثقافة الصحف كما هو معروف ورفضه للمنصب، إلا أنه شعر بالغيرة من رئيس تحرير المجلة فون ولزوغين، فقد كان منصبًا سلطويًا.

كان مقال فاغنر ظاهريًا يقدم دراسة عامة عن علاقة الفن بالجمهور في ألمانيا، لكنه في الواقع قدّم في المقال دفاعًا عن نفسه وعن الشوبنهاورية وعن

مفهوم الميتافيزيقيا، وفوق كل شيء عن فكرة العبقرية الفنية التي اعتبرها مثالًا أوروبيًا رئيسيًا.

أعرب عن أسفه لصعود نموذج المعرفة العلمية بتركيزها المكثف على الكيمياء والمعادلات المبهمة، عازيًا الأمر إلى تفشي العقلانية المتشككة. لقد أدى إنكار الميتافيزيقيا إلى التشكيك بمفهوم كل الأشياء البشرية، بما في ذلك العبقرية، وإنكار ميزة العبقرية في الوصول إلى الجوهر الداخلي للواقع كان محض هراء. لم يكن التفكير العلمي قادرًا على الإطلاق على تحقيق صلة بديهية مماثلة مع الروح الإنسانية[٢٠].

لم يرد نيتشه على فاغنر في الصحافة، ولم يكن على دراية بعد بأمر المراسلات المروعة بين فاغنر وطبيبه، لكنه لاحظ بصورة شخصية فقط أن المقال كان انتقاميًا ومؤذيًا ويفتقر للمنطق، لقد جعله المقال يشعر كأنه غريب كأمتعةٍ أُرسلت إلى العالم من مكانٍ مثالي بعيد. عانى بعدها من وعكة صحية طويلة لما تبقى من العام. وعندما تمكن من ترويض المرض، دوّنَ مادة كتابية تُنكر ما طرحه فاغنر ستظهر في «آراء وحِكم متنوعة» وفي «المتجول وظله»، واللذين سيؤلفان الجزء الثاني من «إنسانيّ مفرط في إنسانيته». كانت الكتابة عملًا محبطًا ومقلقًا بالنسبة له:

«فكّرت في كل مواضيع الكتاب أثناء تجولي، باستثناء بضعة سطور، وكتبتها بقلمِ رصاص في ستة دفاتر صغيرة؛ لقد شعرتُ بالمرض في كل مرة جلست فيها لكتابة النسخة المنقحة من الكتاب. أضطررت لأن أحذف عشرين تسلسلًا فكريًا طويلًا، وللأسف كانت تسلسلات جوهرية إلى حد بعيد، لأنني لم أجد الوقت لانتشالها من فوضى خربشات قلمي الفظيعة... وفي غضون ذلك، كانت الصلات التي تربط أفكاري تفلت من ذاكرتي؛ عليّ أن أسرق الدقائق وأرباع الساعة من «طاقتي الدماغية» كما تسميها، أحملها بعيدًا عن عقلي المُرهق»[٢١].

بعد السنة التي قضاها في إجازة مدفوعة، عاد إلى بازل محاولًا التدريس

مرة أخرى. لقد شعر بأنه لا يستطيع المضي في حياته من دون الشعور بأنه كان يفعل شيئًا يعود بالفائدة على البشرية.

كان هناك طبيبٌ جديد في بازل اسمه رودلف ماسيني. بعد تشاوره مع الدكتور إيزر ارتأى أن لا يستبعد احتمالية إصابة نيتشه بالخرف الشللي، كما تنبأ له بالعمى الكامل، ولذلك حَرّمَ عليه كل ضروب القراءة والكتابة لعدة سنوات؛ وهذا يعني إصدار حكم الإعدام بحق نيتشه. كان من السهل نسبيًا عليه مواصلة التدريس بينما يقرأ ويكتب يوهان كوسيلتز له وتعتني إليزابيث بشؤون المنزل، غير أن كوسيلتز انتقل لمتابعة حياته المهنية كمؤلف موسيقي في فينيسيا ولم تكن إليزابيث على استعداد لترتحل بجانبه.

شعرت إليزابيث بالإهانة من عدائه الصريح للمسيحية في إنساني مفرط في إنسانيته، فقد جلب الكتاب العار للعائلة، بالإضافة إلى حديث شقيقها الآن عن التخلي عن مقعده التدريسي ولقب الأستاذية، وهي خطوة من شأنها أن تجعله فقيرًا وبلا مكانة اجتماعية، وسيخمد على أثرها البريق الساطع من كونه أستاذًا والذي ينعكس عليها وعلى والدتها، وبالتالي سيقوّض موقفه من احتمالات زواجها في مجتمع ناومبورغ القمعي والبطريركي والتقليدي قبل كل شيء.

لقد حان الأوان لتغيير التحالف، وربما ستقتبس البريق من مصدر مختلف، وبالتحديد من فاغنر وكوزيما اللذين كانا نجمين في قمة توهّجهما، فمنذ أن عرّف نيتشه إليزابيث على كوزيما في تريبشن، وهي تحاول أن تكون ذات فائدة بعدة طرق. كانت كلتا المرأتين برجوازيتين ومتدينتين للغاية، وقد نفرتا وجُرحتا بنفس القدر من طرف إنساني مفرط في إنسانيته. كتبت كوزيما إلى إليزابيث تخبرها أنها وجدت الكتاب فقيرًا فكريًا وباعثًا على الأسى أخلاقيًا، وكان أسلوبه مُتعاليًا ومبتذلًا في آن واحد. لقد كانت كوزيما واثقة أن باستطاعتها العثور في كل صفحة تقريبًا على «سفسطة سطحية وصبيانية»، فبالنسبة لها كانت خيانة نيتشه مطلقة، وكان عليه اللجوء إلى «المعسكر المعادي المحصن»، أي المعسكر اليهودي.

دعمت إليزابيث هذا الرأي بكل إخلاص. كانت قد بدأت تراسل أحد الدعاة القياديين لمعاداة السامية الذي التقته في بايرويت سابقًا، واسمه برنهارد فورستر. لقد تطلبت قوميته ومعاداته للسامية أن تكون مثله وتتغلب على أوروبية شقيقها ونزعته الفكرية المتأثرة بريه. لم تمتلك إليزابيث النية لكي تغدو روحًا حرة؛ بل على العكس، تعلّقت بكل الأغلال التي تقيدها بالمجتمع وبالتقاليد. لقد تكونت دائرة أصدقاء شقيقها في بازل من الشباب العزّاب، غير أن هذه الدائرة قد أثبتت عدم جدواها على الصعيد الرومانسي، وقد حان الوقت للعودة والاستقرار في ناومبورغ والتركيز على فرص زواجها.

من دون اعتناء إليزابيث بالمنزل، اختفى نيتشه عن الانظار. باع أثاثه وانتقل إلى غرف مفروشة بسيطة في ضواحي المدينة بالقرب من حديقة الحيوان. أن تسكن في باخ لينشتراسه ١١ يعني مسيرة طويلة إلى الجامعة، ولكنه واصل على نحو جريء شق طريقه إلى هناك للوفاء بالتزاماته التدريسية. وحيدًا يعيش «نصف ميت مع الألم والإنهاك»، احتفظ بملاحظات دقيقة للمصروفات، ووضع جدولًا زمنيًا شبيهًا بذلك الذي وضعه في بفورتا، كان الغرض من ورائه هو الحفاظ على نتاجه الفكري وعلى وضعه المالي بميزانية مُعدة للمائتي أسبوع القادمة.

في ٢ أيار ١٨٧٩، استقال رسميًا من منصبه التدريسي، متعللًا بصحته السيئة. أمل في أن يكون أطباؤه مُحقّين عندما قالوا إن التدريس والكتابة مسؤولان عن صحته المعطوبة. كان يلوم أغاني فاغنر الصادحة؛ «جعلتني كتاباتي وتفكيري الذي ينطوي على مشكلات معقدة حتى الآن عليلًا دومًا؛ طالما كنت باحثًا فعليًا وكانت صحتي على ما يرام، ثم جاءت الموسيقى فيما بعد لتتلف أعصابي مع الفلسفة الميتافيزيقية والقلق حول آلاف الأشياء التي لا تعنيني بالمرة..»[٢٢]. فكر أنه عندما يرمي عن كاهله أعباء الكتابة والتفكير، من المؤكد أنه سيستعيد صحته البدنية.

في الثلاثين من حزيران، قبلت الجامعة استقالته، مانحة إياه معاشًا تقاعديًا قدره ثلاثين ألف مارك سويسري لمدة ست سنوات، ولأنه لم يُقم

بصورة مستمرة في سويسرا على مدار ثماني سنوات، فإنه لم يكن مؤهلًا ليصبح مواطنًا سويسريًا. رحب بوضع اللامنتمي الذي عاشه من دون هوية أحوال مدنية. ومن هذا الموضع بإمكانه فهم الأخلاق العالمية وإعادة تشكيل مفهومي الخير والشر استنادًا إلى تقييم جديدٍ للحياة، متحررًا من أي استعارات تقبلية للآراء الجديدة، ولربما أصبح أخيرًا روحًا حُرة.

مُقلدًا هولدرلين رمز طفولته البطولي، حدد برجًا قديمًا على أسوار ناومبورغ حيث كان سيعيش متقشفًا ويعمل بستانيًا، لكن الأمر استغرق ستة أسابيع فقط ليدرك أن البستاني يحتاجُ ظهرًا قويًا ونظرًا ثاقبًا، وهكذا بدأت سنوات تجوله.

(١٠) إنسانيٌ مفرطٌ في إنسانيته:

١. نيتشه إلى إرنست شمتزنر، ٢ شباط ١٨٧٧.
٢. إنساني مفرط في إنسانيته، «عن الاشياء الأولى والأخيرة»، ٢.
٣. المصدر السابق، ٢.
٤. المصدر السابق، ٤.
٥. المصدر السابق، ٥.
٦. المصدر السابق، ٩.
٧. المصدر السابق، ٦.
٨. المصدر السابق، ١١.
٩. المصدر السابق، ١٩.
١٠. المصدر السابق، «في تأريخ الأحاسيس الأخلاقية»، ٣٧.
١١. لاروشفوكو، وردت الجملة الافتتاحية لـ Sentences et maximes morales في «إنسانيّ مفرط في إنسانيته» «في تأريخ آلأحاسيس الأخلاقية»، الفصل ٣٥.
١٢. المصدر السابق، «نظرة على الدولة»، ٤٣٨.
١٣. المصدر السابق، «نظرة على الدولة، ٤٥٢.
١٤. المصدر السابق، «في تأريخ الأحاسيس الأخلاقية»، ٨٧.
١٥. ويليام إتش سشابيرغ، مؤلفات نيتشه الموثوقة، مطبعة جامعة شيكاغو.
١٦. إرنست شمتزنر إلى نيتشه، ذُكر في كتاب إليزابيث فورستر نيتشه حياة نيتشه، المجلد الثاني، صفحة ٣٢.
١٧. من نيتشه إلى ماتيلدا ماير، ١٥ تموز ١٨٧٨.
١٨. 'L»âme de Voltaire fait ses compliments à Friedrich Nietzsche.»
١٩. كوزيما فاغنر إلى ماري فون شلينتز، حزيران ١٨٧٨.
١٩. نشر فاغنر ثلاث مقالات في Publikum und Popularität in Bayreuther
٢٠. Blätter، آب- أيلول ١٨٧٨.
٢١. من نيتشه إلى يوهان هاينريش كوسيلتز (بيتر غاست)، ٥ تشرين الأول.
٢٢. من نيتشه إلى مالويدا، ١ تموز ١٨٧٧.
٢٣.

١١

المتجوِّل وظلّه

على جبال الألب أكون محصّنًا، وخاصّة عندما أكون وحيدًا وليس بصحبتي عدو سوى نفسي.

رسالة إلى مالويدا فون ميسنبوغ، ٣ أيلول ١٨٧٧

باع نيتشه كل ممتلكاته، باستثناء كتبه وبعض الصور. أناط بعهدة الإدارة المالية لصديقه الموثوق فرانز أوفربيك وعهد بملاحظاته ودفاتره تحت وصاية إليزابيث الأمينة (وكان هذا خطأ فادحًا وقرارًا يفتقر إلى الحكمة). لقد أبقى فقط على حقيبتين مليئتين بالكتب لم يكن بوسعه مفارقتهما، فأخذهما معه في جولاته في منتجعات التشافي في جبال الألب، في دافوس وغريندلفالد وإنترلاكن وروزن لايباد وتشامبفير وسان موريتز. جاب نيتشه المرتفعات مثل بروميثيوس، وغالبًا ما استمرت جولاته لثمانٍ أو عشر ساعات في اليوم، وفكره مثبت على معنى العالم المبهم، مُكتشفًا الصفاء المذهل في تأمل المملكة الشاسعة للفهم الناقص. تسكع بين الدروب الجبلية الصخرية على أعلى ارتفاع تجرأ على بلوغه، ولكن دائمًا ما توقفت مسيرة ارتقائه للمرتفعات قبيل مسافة قصيرة من أعلى القمم، لأن الضوء الساطع للثلوج الأبدية الذي

يغطي القمم يخترق عينيه مثل نصول سيوف خارج أغمادها عندما يحني رأسه لتدوين أفكاره التي سيخطها في الكتاب القادم.

«في هذا الكتاب ستكتشف رجلًا يعمل بجهد، رجلًا قابعًا تحت الأرض، يحفر الأنفاق ويزرع الألغام ويقوِّض الأسس. لو أمكنك النظر في الأعماق، ستراه عنيدًا يمضي قُدمًا ببطء وحذر وتمهل، من دون أن يتذمر من الألم الذي يُسببه حرمانه من الضوء والهواء المنعش؛ ربما ستدعوه بالقانع إن رأيته هناك يعمل في الظلام. ألا يبدو كما لو أن إيمانًا ما يقوده قُدمًا، كما لو أن عزاءً ما يواسيه؟ أو لعله يتوق لهذه الغيبة الكُبرى ويرغب في أن لا تُسبر أغواره وأن يبقى مُستترًا ومبهمًا، لأنه يعرف ما الذي سيحصل عليه بالمقابل: صباحه الخاص وخلاصه الخاص وفجره الخاص... سيخبرك عن أوجه الشبه الواضحة بينه وبين ترفينيوس (ابن أبولو الذي ابتلعته الأرض وعاش هناك في الأسفل قابعًا كإله حكيم) وسيبقى تحت الأرض حتى يغدو إنسانًا مرة أخرى. أن تكون صامتًا هو أمر لن يعرفه امرؤ مثله، عاش لفترة طويلة مثل خُلد منعزل». [١]

كان هذا مقطع من مقدمة كتاب الفجر، وصورة شخصية له في سنوات التجوال في البرية، والتي جاب خلالها الخُلد الفيلولوجي السابق وشبه الأعمى جبال أوروبا وشواطئها، محوّلًا نفسه إلى الرائي الأعمى(*) للأفاق الرحبة والنبوئية.

كان الخُلد الحفار في منزلٍ يختبئ خلف ظل خطٍ من الأشجار، حيث خفف القماش الضوء محولًا إياه إلى أخضر كئيب. والأهم من ذلك، إن هذا الظل يخفيه عن الغيوم المليئة بالطاقة الكهربائية والتي استمرت في اضطهاده من دون رحمة. منذ أن سحب بينجامين فرانكلين الطاقة الكهربائية من الغيوم في تجربة الطائرة الورقية عام ١٧٥٢، لم يكن من الغريب أن يتخيل الفرد نفسه موصلًا كهربائيًا، على الرغم من أن فكرة امتصاص الكهرباء من

(*) شخصية نموذجية تمثل شخصًا فقد نظره واكتسب موهبةً معينة أو حكمةً ما. (المترجم)

الغلاف الجوي تُعد اليوم من الأعراض الوهمية لذوي الأمراض العقلية، وغالبًا ما يرتبط بمرض انفصام الشخصية.

لطالما كان نيتشه عرضة للتأثر بالعواصف الكهربائية بطريقة غريبة، فمنذ أيام المدرسة في بفورتا وصاعدًا، لاحظ معاصروه أن تدفقاته الإبداعية وارتجالاته الموسيقية الأكثر إلهامًا ووجدانًا أنتجها نيتشه خلال العواصف الرعدية. لقد تجلى زيوس، والد ديونيسيوس، على شكل صاعقة، ومع شعور القرابة المتزايد مع ديونيسيوس، اعتقد نيتشه بأنه كان الإنسان الأكثر عرضة لطاقة الكهرباء في السُحب من أي أحد آخر على وجه الأرض، حتى إنه فكر بالذهاب إلى باريس ليعرض نفسه كنموذج في معرض الكهرباء المقام هناك، ورأى أن الكهرباء تُضر بصحته أكثر من موسيقى فاغنر.

كتبَ «إنني إحدى تلك الآلات التي يمكن أن تنفجر... بسبب النمط الكهربائي الموجود في الغطاء السحابي وتأثيرات الريح، اقتنعت بأن ما نسبته ٨٠٪ من معاناتي ناتجة عن هذه التأثيرات»[٢]. في ذلك الوقت، كثيرًا ما كان يقع ضحية لهجماتٍ مرضية تستمر ثلاثة أيام من نوبات الألم العنيف والتقيؤ، ويصاحب هذه الأعراض شعور بأنه يعاني من شلل نصفي مع إحساس بدوار البحر وصعوبة حقيقية عند التحدث. مع ذلك، عندما يكون في الأعالي يستنشق الهواء الجبلي الرقيق يجد نفسه أحيانًا مغمورًا بدفق من السعادة المُفرطة ومن الحماسة الشديدة اللتين لم يسبق له أن اختبرهما. شعر بأنه خفيفٌ للغاية وذابلٌ بطريقة حُلوة، الأمر الذي أشعره بأنه يتنقل بين المناظر الطبيعية وكأنه خربشة عبثية رُسمت على ورقة بيد قوة خارقة ترغب في تجربة قلم جديد، فبدأ بتقييم الجبال بحسب قدرة غاباتها على إخفائه عن عين السماء التي تبصر كل شيء.

إن غابة تويتوبورغ الأسطورية، التي كانت مسرحًا شهد هزيمة الفيالق الرومانية على يد القبائل الجرمانية، تمنح المرء الظلمة الأكثر حلكة مسببةً أكبر قدر من الارتياح. شاقًا طريقه بين الظلال الموحشة، ملأ نيتشه اثني عشر دفترًا من دفاتر ملاحظاته التي تُوضع في الجيب، مدونًا أفكاره بطريقة أطلق

عليها «اسلوب البرقية اللعين»، وهي الطريقة الوحيدة التي يمكنه من خلالها كتابة انفجاراته الفكرية البليغة التي تندفع بين نوبات الصداع، على الرغم من أن ناشره قد كتب يخبره سلفًا أن سوق الكتب قد تشبّع بكتب الشذرات المختصرة وعليه تغيير أسلوبه النثري فعليًا، إن كان يرغب في كسب القراء.

بالرغم من النصيحة، أرسل نيتشه إلى شمتزنر «**آراء وحِكم متنوعة**» و«المتجول وظله»، مجموعتين مؤلفتين من عدة مئات من الشذرات، اللتين لحقتا «إنسانيّ مفرط في إنسانيته»، كما أرسل كتابًا مكتملًا مؤلفًا من ٥٧٥ شذرة أسماه «**الفجر**» (Morgenröte)، وعنوانه الثانوي «**أفكار حول الإجحاف الاخلاقي**». تراوحت الأفكار التي تضمّنها الكتاب من أخلاقيات التربيت على الكلب إلى أكثر التأملات النموذجية عند نيتشه حول فاغنر والإرادة الحرة والحرية الفردية والدين والدولة.

سلك نيتشه في كتاب الفجر طريق المادية إلى أبعد نقطة فيه، فقد كتبه خلال احدى فترات اهتمامه بالتفكير العلمي المعاصر، إلى جانب اكتشافه لفيلسوف القرن السابع عشر اليهودي إسبينوزا. «لقد اصبحت عزلتي الآن عزلة تتسع لشخصين! إنني مندهش فعلًا، ومسرور حقًا! لقد عثرت على النذير المُبشر!». كتب قصيدةً أهداها لإسبينوزا، فقد رأى فيه مرآةً تعكس «إنكاره للإرادة الحرة والغايات والشر والنظام الأخلاقي اللا- أناني العالمي... لا شك في أن الاختلافات هائلة، غير أن أكثر هذه الاختلافات ناتجة عن الاختلاف في الفترة الزمنية والثقافة والحقل المعرفي الذي يشتغلان فيه»[٣]. بالإضافة إلى إسبينوزا، قرأ كتاب روبرت ماير «**ميكانيكا الحرارة**» ونظرية بوسكوفيتش عن الذرّات غير المادية، وكتاب «**القوة والمادة**» (١٨٥٥) للطبيب المادي لودفيغ بوخنر الذي طرح كتابه، الأكثر مبيعًا، «**الإنجيل أرضًا**» من خلال قوله «إن أبحاث واكتشافات العصر الحديث لم تعد تسمح لنا بعد أن نشك في حقيقة أن الإنسان، بما يمتلك ويتملك، سواء عقليًا أو جسديًا، هو منتج طبيعي ككل الكائنات العضوية الأخرى»، بينما أكد كتاب لانغ في «**تأريخ المادية**» (١٨٦٦) على أن الإنسان لم يكن

سوى حالة خاصة في فسيولوجية الكون، وأن الفكر لم يكن سوى سلسلة مميزة في العمليات المادية للحياة. في المستقبل، سيتطلع نيتشه إلى هذا العام وسيكتب عنه في «**هذا هو الإنسان**»، سيرته الذاتية التي كتبها عام ١٨٨٨ عندما كان يترنح بين العقل السليم والجنون، وسيصف كيف أنه كان واقعًا تحت عبودية السحر الملتهب والاستثنائي للفيسيولوجيا والطب والعلوم الطبيعية. إن ما شرع في استكشافه في كتابه «**الفجر**» هو فكرة أن الإنسان مجرد كائن حي مادي يمكن أن نفسر معتقداته وقيمه الروحية والاخلاقية والدينية استنادًا إلى علم الفيسيولوجيا والطب. كان الاهتمام العام في ذلك الوقت يتزايد في فكرة أنه ربما سيتمكّن الإنسان من التحكم في المستقبل من خلال تحكمه بنموه التطوري عبر نظام غذائي. إنه موقف لخصه على نحو معروف الفيلسوف والانثروبولوجي فيورباخ، الذي كان قد توفّى قبل بضع سنوات فقط، قائلًا «إذا كنت راغبًا في تحسين مستوى الناس، فاعطهم طعامًا أفضل بدلًا من إلقاء الخطب عن الخطيئة. إن الإنسان هو ما يأكله»[٤].

ومع ذلك، وفي تناقض مباشر مع المادية، أولج نيتشه الفجر تأملات عن أهمية تمجيد ونشوة الجنون في تأريخ الأخلاق والأخلاقيات. يقترح نيتشه أنه تحت ضغط الأعراف المخيف الذي يعود لآلاف السنين، فإن الطريقة الوحيدة للانفصال عن هذه الأعراف كان «على يد مُرافق رهيب، في كل مكان تقريبًا، كان الجنون من عبَّد الطريق للأفكار الجديدة التي حطّمت الخرافات وعادات التقديس. هل فهمتم لماذا وجب أن يكون الجنون هو من يحقّق كل هذا؟»، لأن الجنون حرية مطلقة؛ لقد كان الجنون بوق الآلهة الناطق، ومن لم ينل من الجنون شيئًا، وجب عليه التظاهر به.

«جميع الرجال المتفوقين الذين انجذبوا بشكل لا يقاوم إلى فكرة التخلص من أغلال أي صنف من الأخلاق وإلى صياغة قوانين جديدة، إن لم يكونوا مجانين بالفعل، فلم يكن أمامهم خيار آخر سوى أن يجعلوا من أنفسهم مجانين أو أن يتصنعوا الجنون... كيف يمكن للمرء أن يجعل نفسه مجنونًا في حين أنه ليس كذلك ولا يجرؤ على أن يبدو هكذا؟... آه، مُنّي علي

بالجنون أيتها القوى السماوية! بالجنون، ربما آمنتُ بنفسي أخيرًا! مُنِّي عليّ بالهذيانات والاضطرابات، الأنوار المباغتة والظلام، أرعبيني بالصقيع والنار كما لم يسبق لفانٍ أن شعر بهذا الرعب أبدًا، بضجيجك الذي يصم وأطيافكِ التي تجوس، اجعليني أعوي وأئنُّ وأزحف مثل حيوان: هكذا ربما سأبلغ الإيمان بنفسي. لقد استنزفني الشك، وقد قتلت القانون، فهو يزعجني كما تزعج الجثة رجلًا على قيد الحياة، إن لم أكن أعلى من القانون فأنا أكثر الرجال دناءة»[٥].

ينتهي الكتاب مع دعوة يوجهها للجميع بصوت مرتفع وواضحٍ متحديًا:

«نحن ملاحي الروح المحلِّقة... إلى أين يأخذنا هذا التوق العظيم، هذا التوق الذي يفوق كل متعة تراودنا؟ لمَ يأخذنا صوب هذا الاتجاه وحسب، إلى حيث أُفلت كل شموس البشرية حتى اليوم. هل من الممكن أن يُقال عنا يومًا ما إننا أيضًا، متوجّهون صوب الغرب، كنا على أمل بلوغ الهند لكن كان قدرنا أن نتحطم أمام الأبدية؟ أو، يا إخوتي. أو؟- قلّة من المؤلفين شجعان كفاية ليُنهوا أحد كُتبهم بـ أو؟».

كانت معاناة نيتشه المرضية بمثابة رحلة آلكسندر لبلوغ الهند ووسيلة لإفناء نفسه أمام الأبدية. لقد اختبر قدرته على الاستسلام أمام كل النوبات المرضية المؤلمة دون مقاومة، ليغدو كل شفاء يتبع هذه النوبات بمثابة ولادة جديدة تؤكد على قيمة المُقاساة وثمن الإلهام الباهظ. إن استعادة حياته من فم الموت (سواء كان مُتخيلًا أو حقيقيًا) ألهمه طاقة خلاقة عالية يومًا بعد يوم، كان وحيدًا يمشي بخطوات بطيئة لبلوغ العمر الذي فارق فيه والده الحياة جراء إصابته بـ«تليُّن الدماغ»، العمر الذي لطالما توقّع فيه أنه سيصاب بما أصاب والده.

إذا تطلعنا إلى الوراء وتحديدًا إلى عام ١٨٧٩، نرى أنه قد سجل ١١٨ يومًا عانى فيها من المرض الشديد الذي يشل حركته. طوال هذا الوقت

الذي أمضاه وجهًا لوجه مع إله الموت ثانتوس، ما الذي حققه نيتشه؟ بعض الكتابات البسيطة وفشل في الاستمرار بمنصبه الجامعي وكتابين: مولد التراجيديا الذي لم يحقق أي تأثير على الثقافة العالمية ما عدا إسعاد فاغنر، الأب الذي تبرأ منه سلفًا، بالإضافة إلى «إنسانيّ مفرط في إنسانيته»، الكتاب الذي كشف عن مطامحه الإيكاروسية التي وجب على الأرواح الحرة أن تحلق لنيلها، مهما كانت تكلفة ذوبان الشمع(*). حصل الكتاب على ثلاثة معجبين ولكن دون مراجعات، وبيعت منه مائة نسخة فقط مما دفع ناشره لتحذيره من مغبة إنتاج المزيد من الكتب بأسلوب الشذرات، وهو الأسلوب الوحيد الذي كان يتناسب مع أمراضه الجسدية.

لقد كان عازمًا على أن تنعكس عزلته الروحية قدر الإمكان على حياته الخارجية بالكامل. لم يرغب بأي صحبة بشرية وإن كان ناسخًا لكتبه، فلا يجب تخفيف كثافة التجربة الذاتية. يجدر بالمرء المخاطرة بدخول مملكة الجنون، إذا كان الجنون هو بوتقة المعرفة.

مع قدوم عيد الميلاد الذي يلوح في الأفق، هذه المناسبة العاطفية المروعة، قرر نيتشه العودة إلى ناومبورغ، مخططًا في أن يحظى بعزلته في برج سور المدينة، بيد أنه كان عليلًا جدًا، فوضعته والدته وشقيقته في سرير بيت الطفولة القديم، المنزل الذي يقع في فينغارتن. ارتفعت روح نيتشه الحرُة فوق جسده المقيد بالفراش لتطوف فوق الطقوس التافهة المزعجة لعيد الميلاد التي كفلت استمرارية النظام القديم من صلوات الكنيسة وإعداد شجرة الميلاد المخضرّة دائمًا والكعك والزيارات الاحتفالية التي يتبادلها الناس بأشيك الثياب ومشاعر الاحتفال الفاترة والإنكار المتعمد للتحليلات العقلانية. من الممكن أن أصول هذا الاحتفال تعود إلى احتفال الثمالة الديونيسيوسي

(*) إيكاروسية: نسبة إلى إيكاروس ابن دايدالوس. في الميثولوجيا اليونانية. تحكي الأسطورة قصة احتجازه مع أبيه في متاهة جزيرة «كريت». للهرب منها، استعان الاثنان بأجنحة ثبّتاها على ظهريهما بالشمع، لكن إيكاروس حلّق قريبًا من الشمس، متجاهلًا نصيحة والده، فهوى صريعًا بعد أن أذابت أشعة الشمس الشمع المثبّت لجناحيه. (المترجم)

المجدد للفكر بعد أن عُدل على يد العقل الأبولوني اللطيف، ولكنه لم يكن في وضع يسمح له باستهجان «هيكل التأريخ البروتستانتي المزيف الذي تعلّمنا الإيمان به»[٦]، أو تبنّي موقفٍ أخلاقي أو إيتيقي على الإطلاق، لأنه انهار في الرابع والعشرين من كانون الأول وبعد ثلاثة أيام فقد وعيه. لم تصنع له خيرًا أسابيع التشافي على يد والدته بسبب تبرّمها منه للحفاظ على لغته اليونانية، وقد بدأ يعترف لأصدقائه بعدم حبه لصوتي والدته وشقيقته اللتين تُثيران أعصابه. لقد كان مريضًا طوال فترة بقائه معهما، لكنه تجنّب الخصام والشجار وشعر بأنه يعرف كيف يتعامل معهما، إلا أنه لم يُوفق في فعل ذلك.

في العاشر من شباط، استعاد عافيته ليفر من منزل العائلة. قفز داخل القطار، مستدعيًا كوسيلتز المساعد المتفاني للقائه في ريفا، على بحيرة غاردا. كان على كوسيلتز أن يخرج بنسخة مرتبة ومنقحة من ملاحظات نيتشه المتلعثمة التي سجَّلها في دفاتره، نسخة بإمكان شمتزنر قراءتها.

أبدى نيتشه شكلًا غريب الأطوار من السطوة التملكية على الملحن قليل الثقة بنفسه، ففي خطوة استثنائية قرر إعادة تسميته، فمنحه اسم «بيتر غاست»، فاعتمد كوسيلتز الاسم مباشرة واحتفظ به طيلة حياته. كان أصل هذا الاسم مُلغزًا، يمثل خلطة لذيذة من ما هو مرح وجدي ورمزي. كان «بيتر»(*) هو اسم كبير حواريي المسيح، القديس بيتر، والذي قال عنه المسيح إنه «الصخرة التي سأبني عليها كنيستي (بيعتي)»[٧]. أما «غاست» فتعني «ضيف»، وعند دمج الكلمتين مع بعض سيكون المعنى «الضيف الحجري»، وهو اسم شخصية القائد الأساسية في أوبرا موزارت دون جوان. إن دور القائد، الضيف الحجري في الأوبرا يجسد آلهة العقاب نمسيس. إن تشبيه نيتشه لنفسه بشخصية دون جوان يُعتبر من المواضيع الثانوية ولكن متكررة، فقد أوضح أنه ليس دون جوان رجل الإغراءات بل «دون جوان، رجل المعرفة»، الرجل المجازف الذي يطارد «شموس المعرفة العالية والنائية»

(*) بيتر: إشارةً إلى القديس بطرس. (المترجم)

لاستكشاف العوالم المُحرّمة، والراغب ببذل روحه الخالدة وتحمّل نار الجحيم إلى الأبد في سبيل أن ينال الإلهام السحري. في أوبرا موزارت، حينما تخطى دون جوان الحدود أخيرًا، كان الضيف الحجري هو من أجبره على الهبوط إلى الجحيم لتسديد الثمن في عالم العذاب الدائم. باعطائه اسم بيتر غاست، كان نيتشه قد منح كوسيلتز دورًا مزدوجًا، فتارة يأخذ دور كبير التابعين وتارة دور نمسيس. هذا الدور الأخير يبدو غير ملائمٍ بالمرة للصديق الوديع الذي جرى وراء نيتشه لسنوات، معتبرًا نفسه سكرتيرِه وأمين سره الذي لا يتقاضى أجرًا على عمله.

لم يبهت إيمان بيتر غاست بكتب نيتشه، ونيتشه بدوره دعم مؤلفات غاست الموسيقية بإخلاص، فلربما كان غاست هو المؤلف الموسيقي الذي رأى فيه نفسه. أثنى على عبقريته امام أصدقائه وطاردهم من أجل جمع المال لدعم أوبرا غاست الهزلية «الزواج السري» Il matrimonio segreto، والتي كانت موسيقاها خالية تمامًا من الضبابية الميتافيزيقية المميتة والشهية في آن واحد. في آذار، غادرا ريفا صوب فينيسيا، حيث اتخذ غاست منزلًا هناك. ظاهريًا، كان نيتشه في فينيسيا لمساعدة غاست في الإسراع على إنهاء عمله الأوبرالي ولكنه في الحقيقة كان مصدر إلهاء لصديقه دافعًا إياه إلى ممارسة ما أسماه غاست «العمل السامري»، ويتضمن هذا العمل القراءة بصوت عالٍ لنيتشه مرتين وإنجاز مهمة الاملاء، وتخليص صديقه مرارًا وتكرارًا من المشكلات الجسدية الثانوية والحوادث المؤسفة.

بذخ نيتشه في صرف الأموال في فينيسيا إلى حدٍّ بعيد، فقد استأجر غرفة باردة جدًا وفسيحة للغاية في قصر بيرليندي، مربوطة بأحد أكثر السلالم الرخامية روعة، بينما تشرف نافذته على منظر أيقوني كان ذا أهمية كبيرة لجيله ولعدة أجيال قادمة، فكتب «استأجرت غرفة مطلة على جزيرة الموتى»[٨].

يجب أن يكون هناك شيء ما يكمن في المنظر الجنائزي الذي يعتبر بمثابة عزاء للجيل الصاعد عن انهيار عالم الأوهام التقليدية. في ذات العام الذي تواجد فيه نيتشه هناك، كان الرسام الرمزي بوكلن يرسم جزيرة الموتى[٩]،

اللوحة التي ستعلّق على جدران لينين وستريندبرغ وفرويد وهتلر، وستعتبر شارة ثقافية تسم جدران جميع المثقفين في برلين من ١٨٨٠ ولغاية ١٩٣٠، كما لاحظ نابوكوف. صُعق فاغنر بقدرة بوكلن في القبض على مزاج اللحظة، الأمر الذي دعاه إلى أن يطلب منه تصميم أطقم أوبراه الجديدة «بارسيفال»، في بايرويت. رفض بوكلن طلب فاغنر وهكذا راحت المأمورية إلى بول فون جوكفسكي بدلًا عنه.

تشرف نافذة نيتشه على منظر بوكلن ذي المياه المصقولة والمضيئة والتي تكسرها حركة القوارب الجنائزية بنقلها الموتى إلى داخل أسوار جزيرة المقبرة. فوق الجدران ارتفعت أشجار السرو الفارعة والقاتمة مُشيرة إلى السموات مثل الأصابع وإلى الغموض الذي يكمن وراء القبر. ألهم المنظر نيتشه ليكتب «أغنية الضريح»، واحدة من أجمل قصائده التي تُصور أضرحة شبابه وآيات حبه الغريبة والرقيقة وعصافير آماله المغردة وسط قبور الجزيرة.

ارتفعت درجات الحرارة في فينيسيا، فهاجت أسراب البعوض. تخلى نيتشه عن مدينة الماء من دون حتى التفاتة واحدة إلى الوراء، ليعود غاست إلى عمله مع شعور بالارتياح.

على مدى عامين، قضى نيتشه وقته متجولًا. في كل مكان جديد، يثب آملًا أنه قد عثر على أركاديا الخاصة به. جعله جمال الاحتمالات المتنوعة يرتعد ويهيم حبًا بالأرض ويبالغ في استمتاعه بأعاجيبها، كما لو أن لا شيء أكثر ملائمة من اختبار الحياة كبطل إغريقي مرتحل يحيا بطريقة بطولية وشاعرية. «لقد بلغتُ أركاديا... هكذا كانت هي الحياة التي عاشها الرجال المتفردون فعلًا، هكذا شعروا دائمًا أنهم موجودون في العالم وأن العالم موجود فيهم...»[١٠].

بيد أنه في كل أركاديا جديدة يكتشف في النهاية خللًا لا يمكن تحمله، أما أن تكون مرتفعة جدًا أو منخفضة جدًا عن مستوى سطح البحر، حارّة جدًا أو رطبة جدًا أو باردة جدًا، أو أنها تقع تحت السحب الكهربائية وتحت

مجهر السماء. لطالما توفرت للمتجول حجة جيدة للمضي قُدمًا.

في موسم الصيف، أقام في أقاليم جبال الألب الباردة ولكن عندما أصبح طقس الجبال باردًا للغاية وهدد بياض الثلوج البراق عينيه مع أول موجة تساقط للثلوج، استقل نيتشه القطار ليخوض رحلات كارثية فقد فيها الحقائب والنظارات وحتى الإحساس بالاتجاه. مسافرًا صوب مناطق أكثر دفئًا في ريفيرا الفرنسية وإيطاليا. وهكذا، في تموز ١٨٨١، اكتشف أركاديا الخاصة به في سيلس ماريا، إحدى القرى الجميلة العديدة التي تنتشر وسط المناظر الطبيعية الخلابة في إنغادين العليا بالقرب من سان موريتز. لقد استحوذت سيلس ماريا على روحه كما لم تفعل فينيسيا أبدًا. «سأضطر إلى الذهاب إلى هضاب المكسيك العالية المطلة على المحيط الهادئ للعثور على أي مكان يشبه سيلس ماريا (أوكساكا على سبيل المثال)، وسيكون الغطاء النباتي هناك استوائيًا بالطبع»[١١]، هكذا كتب إلى بيتر غاست باسلوب جنوني يفتقر للعقل، وواصل نيتشه في نفس الرسالة طمأنة غاست بإمكانية انتهاء واجباته السكرتارية قريبًا بما أنه قد سمع عن آلة كاتبة جديدة اختُرعت على يد دنماركي، وقد بعث بخطابٍ إلى المخترع نفسه يستعلمُ خلاله عن خصائصها.

كان الازدهار السياحي السويسري قد بدأ للتو، كان هناك العديد من الفنادق المتواضعة في سيلس ماريا ولكن على الرغم من ذلك كانت باهظة الثمن ومكتظة للغاية. وبدلًا من ذلك، حصل نيتشه على غرفة رهبانية في الطابق العلوي لبيت بسيط تعود ملكيته إلى جيان دوريش، عمدة القرية، الذي كان محل بقالته في الطابق السفلي في نفس البيت بينما احتفظ بخنازيره ودجاجاته في الحديقة. لقد كلفت الإقامة نيتشه هناك فرنكًا واحدًا في اليوم[١٢]. ارتفعت شجرة صنوبر طويلة بالقرب من النافذة الشرقية لغرفة نومه ومكتبه في الوقت ذاته، مُرشحة الضوء القادم إلى ضوء أخضر خافت، وبهذا أسدت الشجرة معروفًا لعينيه المتعبتين.

لم تجنِّبه سيلس ماريا المرض خلال إقامته هناك، بل على العكس، ففي

تموز وأيلول كان أقرب إلى حافة الهاوية من أي وقت مضى «أنا يائس، الألم يقهر حياتي وإرادتي... استغثت بالموت طبيبًا لخمس مرات»[١٣]. كلما كان للشجرة جذورًا أعمق كانت أعلى وأسمى، هكذا كان نيتشه، فكلما تجذر الألم عميقًا ازداد ارتفاعه وشعر بالقوة، «لقد راودتني أفكار لم تخطر على بالي من قبل أبدًا...». لقد شبّه نفسه بماكينة قابلة للانفجار، ومع حلول آب اختبر بالفعل أولى أفكاره القابلة على الاشتعال منذ الفكرة التي اقترح فيها الانشطار الابولوني/ الديونيسيوسي. واقفٌ امام شاطئ بحيرة سيلفابلانا بجانب جلمود صخري هرمي الشكل، سيطلق عليه فيما بعد «صخرة زرادشت»، خطرت على باله فكرة العود الأبدي:

«ماذا لو أن شيطانًا تسلل ذات يوم أو ذات ليلة إلى عزلتك الأكثر وحدة وقال لك: «إن حياتك التي تعيشها والتي عشتها سابقًا سيتعين عليك أن تعيشها مرة أخرى وستتكرر هذه الحياة مرات لا تحصى؛ ولن يطرأ أي شيء جديد عليها، ولكن كل ألم وكل فرحة وكل فكرة وكل حسرة وكل شاردة صغيرة أو كبيرة في حياتك يجب أن تعود، وسيقع كل ذلك بنفس الترتيب والتعاقب... ستقلب الساعة الرملية الأبدية للوجود مرة تلو مرة، وأنت فيها حبة رمل!»[١٤].

لقد كانت فكرة مرعبة حقًا، وفكرة مهمة دوّنها نيتشه في قصاصة ورقية خطرت على باله على «ارتفاع ٦٠٠٠ قدم فوق مستوى البحر، وأعلى بكثير فوق الأشياء البشرية».

ربما يرتبط مفهوم العود الأبدي بعدد من الكتب العلمية التي كان قد قرأها، وعليها قيّد هذه الملاحظات:

«لا يعاني عالم القوى من التضاؤل، وإلا فأنه في وقتٍ غير محددٍ سيغدو هشًا وينهار. كما أن عالم القوى لا يعرف التوقف، وإلا لكان العالم قد بلغ لحظة التوقف تلك ولتوقفت ساعة الوجود. أيًا كانت الحالة التي يمكن لهذا العالم أن يبلغها، فمن المفروغ منه أن هذا العالم قد بلغها، وليس لمرة

واحدة بل لمرات لا تحصى. خُذ هذه اللحظة على سبيل المثال: لقد حدثت مرة ولعدة مرات سلفًا وستعود لتحدث مرة أخرى بكل قواها الموزعة كما الآن، وعليه فإن هذه اللحظة تتحد من جانب باللحظة التي أنجبتها (أمها) ومن جانب آخر باللحظة التي ستنجبها (طفلتها). يا أيها الإنسان! ستقلب كل حياتك مثل ساعة رملية مرة تلو مرة، وستنفد هذه الحياة مرة تلو مرة، تفصل حيواتك المتكررة دقيقة واحدة وسيعة، ريثما تجتمع كل الظروف التي أنجبتك في عالم المسار الدائري. عندها، ستجد كل ألمٍ وكل صديقٍ وكل أملٍ وكل خطيئة وكل ورقة عشب وكل شعاع من وهجِ الشمس، وكل الارتباطات بين كل الأشياء. تتوهج هذه الحلقة، التي لستَ في داخلها سوى حبة بالغة الصغر، مرارًا وتكرارًا. لطالما كانت هناك ساعة في كل حلقة (دورة) من حلقات الوجود البشري تظهر فيها – في البدء لفرد واحد، ثم للبعض ومن ثم للجميع – الفكرة الأقوى، فكرة العود الأبدي لكل الأشياء: ستكون هذه الفكرة في كل مرة بمثابة ساعة انتصاف النهار للبشرية»[١٥].

ليس من قبيل الصدفة أن يعبر نيتشه عن فكرة حياة الإنسان بوصفها حلقة من الوجود البشري، ففاغنر لم يؤلف أوبرا «حلقة نيوبلونغ» موسيقيًا وحسب، بل شيدها بدقة لتكون حلقةً، عودًا أبديًا، حكايةً دائريةً تنقلبُ ساعتها الرملية مرارًا وتكرارًا.

دوّن نيتشه اسم زرادشت لأول مرة في سيلس ماريا في دفتر ملاحظاته، ولم يُدون غير الاسم، فكلا الفكرتين ستستغرقان بضع سنوات أخرى لتنضجا في رأسه.

بحلول تشرين الأول، أخذت سيلس ماريا تبرد تدريجيًا. «لقد سافرت إلى جنوة مدفوعًا بطاقة رجل مجنون»، حيث أقام في نهاية المطاف في علية؛ «كان علي أن أصعد مائة وأربعًا وستين درجة من السلم داخل المنزل الذي يقع هو الآخر في أعلى شارع شديد الانحدار يضج بالقصور. ولأن الشارع شديد الانحدار فالمرء مجبر على أن يمشي بخطوات عريضة تشبه التحليق، فالشارع هادئ جدًا بينما ينمو العشب بين الحصى. إن وضعي الصحي في

اضطراب رهيب»[١٦]. كان يدخر المال، وهذا يعني أنه عاش لأيام على فواكه مجففة، وفي بعض الأحيان كانت صاحبة المنزل اللطيفة تساعده في طهو الطعام. لم يستطع تحمل تكاليف تدفئة غرفته، ولذلك كان يجلس في المقاهي بحثًا عن الدفء، ولكن مع اللحظة التي تصعد فيها الشمس إلى كبد السماء يذهب للاختلاء بنفسه على جرف مطل على البحر والاضطجاع تحت مظلته الشمسية بلا حراك، مثل سحلية. كان هذا الفعل يساعد رأسه على التخلص من نوبات الصداع.

بشكل عام، لم يكن نيتشه مهتمًا بالانطباع الذي يتركه على الناس. خلال تلك الأيام، تذكَّر الناسُ هدوءه وسلبيته وصوته الناعم وثيابه الزاهدة المُرتبة بدقة، وأخلاقه الحميدة المنضبطة التي عامل بها الجميع، ولا سيما النساء، والغياب الغريب لملامح التعبير بعد أن اختبأ فمه خلف شاربه، وعينيه خلف زجاج العدسات الزرقاء والخضراء، وعلاوة على ذلك بدا وجهه بالكامل مُظللًا بالطاقية الخضراء.

لكنه على الرغم من كل ذلك، لم يكن مجرد ظل ولم يتجاهله أحد أبدًا؛ كان تواجده واضحًا وهو يتنقل بين الناس محاطًا بهالة «لا تلمسني». اكتشف أن «أكثر الرجال دماثة وعقلانية يستطيع، إن كان ذا شارب كبير، أن يجلس محصنًا بظلال شاربه ويشعر بالأمان هناك، وبالنظر إلى الإضافة التي يقدمها الشارب الكبير، فإنه سيترك في أنظار الناس انطباعًا أنه عسكريٌّ غضوبٌ وعنيفٌ في بعض الأحيان، وسيُعامل على هذا الأساس»[١٧].

قدِم بول ريه إلى جنوة في شباط ١٨٨٢، حاملًا معه الآلة الكاتبة. كانت الآلة الكاتبة «مالينغ هينسن رايتنغ بُل» أشبه ما يكون بقنفذ نحاسي، تنتهي كل شوكة في هذا القنفذ بحرف، وعند الضغط بالأصبع تطبع الشوكة الحرف على الورقة. جذبت هذه الماكنة الطباعية الكثير من الأنظار عندما عُرضت في باريس، وكانت آمال نيتشه عالية فربما ستمكنه الآلة من الكتابة عن طريق اللمس، وبهذا سيتجنب التركيز على عينيه. لم تحقق الآلة نجاحًا فوريًا، ووصفها نيتشه «هذه الآلة حساسة مثل كلب صغير وتسبب الكثير من

المتاعب». كانت قد تضررت خلال الشحن ولم تكن تعمل بصورة صحيحة، ولكن حتى بعد تصليحها كان الإمعان في النظر إلى مفاتيح حروف الآلة الكاتبة أكثر صعوبة من استخدام ريشة الكتابة. من حسن حظه أن ريه كان متواجدًا في القرب للمساعدة.

ذهبا إلى المسرح لمشاهدة سارة برنارد تلعب دورًا في غادة الكاميليا La Dame aux camellia [*]، بيد أن سارة المؤلهة لم تلقَ نجاحًا أكبر من الآلة الكاتبة: فقد انهارت مع نهاية الفصل الأول. انتظرها الجمهور ساعة لتعود وعندما عادت، انفجرت غاضبة أمامهم. وعلى الرغم من ذلك، اثار شكلها الشبيه بالتماثيل وتصرفاتها القيادية في نفس نيتشه ذكريات رقيقة عن كوزيما.

في آذار، انتقل ريه إلى روما للانضمام إلى مالويدا فون ميسنبوغ، التي نقلت «أكاديمية الأرواح الحرة» الخاصة بها من سورينتو إلى روما، حيث غيرت اسم الأكاديمية آنذاك إلى «النادي الروماني». برز ريه في احدى الأمسيات متضايقًا ومفلسًا، حيث خسر نقوده في طريقه من المقامرة في مونت كارلو، ويبدو أن نادلًا طيبًا اقرضه النقود ليصل إلى هذا الحد. أسرعت مالويدا في دفع أجرة التاكسي الذي ينتظر في الخارج بينما انضم ريه إلى دائرة أعضاء الأرواح الحرة المجتمعين، فوجد نفسه فورًا مفتونًا بالشخصية المدهشة التي تحظى بها لو سالومي[١٨]، الأنيقة والكوزموبوليتانية ذات الواحد والعشرين ربيعًا، فتاةٌ نصف روسية ذات جاذبية كبيرة وأصالة عريقة وذكاء متقد.

كانت لو تسافر مع والدتها، ظاهريًا من أجل صحتها ولكنها في الواقع تسافر من أجل الاستفادة من الفرص الثقافية الكبيرة التي لا تقدمها روسيا لنسائها. كان والد لو المتوفَّى جنرالًا روسيًا رُفع إلى طبقة النبلاء لدوره في الحروب مع نابليون، وبعد وفاته ارتحلت لو وأمها من سان بطرسبورغ إلى

(*) إحدى روايات ألكسندر دوماس الابن، والتي نشرت لأول مرة عام ١٨٤٨، وتم تحويلها إلى مسرحية فيما بعد. (المترجم)

زيورخ لتتابع سعيها خلف طموحاتها الفكرية. حضرت لو محاضرات في جامعة زيورخ ولكنها صارت تبصق دمًا، وهي إشارة على انتقالها جنوبًا قادمة من الشمال. جلبتها رسالة تعريفية إلى صالون مالويدا الروماني حيث تقمصت دور الأنثى المثقفة بالغة الفتنة، ولن تكون هذه المرة الأولى أو الأخيرة، فقد سحرت لو سالومي مفكرين بارزين خلال حياتها الطويلة، من ضمنهم ريلكه وفرويد.

نطق ريه ومالويدا اسم نيتشه في النادي الروماني وكأنهما ينطقان باسم إله، وبطبيعة الحال أعربت لو عن رغبتها الملحة في مقابلته. بيد أن نيتشه كان لا يزال في جنوة وقتها، فبدأت لو على الفور علاقة وطيدة مع صديقه ريه. عندما يغلق صالون مالويدا الأدبي أبوابه في منتصف الليل، كان ريه يرافق لو إلى منزلها، وسرعان ما أصبحا يتجولان في الشوارع المحيطة بالكولوسيوم كل ليلة بين ساعة منتصف الليل وحتى الثانية صباحًا. إن سلوكًا مثل هذا صدم والدة لو بطبيعة الحال، وحتى النسوية التقدمية مالويدا اعترضت على مثل هذا التصرف. كتبت لو بطريقة ماكرة «هكذا اكتشفت المدى الذي يمكن أن تتقاطع فيه المثالية مع التوق لنيل الحرية الشخصية»[١٩]. لم تكن نافرة على الاطلاق من لعب دور سيرينا المغوية(*)، فقد اعترفت أنها قد صممت مسبقًا على أن تسير دائمًا على الدرب الذي اختارته لنفسها. لقد نظرت إلى قول الحقيقة بوصفه «تضييقًا مفروضًا» ينبغي أن لا يُسمح له أن يتعارض مع الهدف الاساسي. «لقد كنت مدللة إلى أبعد حد في المنزل، ولذلك شعرت بأنني قادرة على فعل كل شيء. من دون صورتي على المرآة لكنت متشردة»، هكذا كتبت في مذكراتها، التي تعتبر مذكرات تسلط الضوء على شخصيتها بينما تهمل باقي الحقائق.

كتب ريه بحماسة إلى نيتشه عن «المفعمة بالحيوية والذكية بطريقة لا

(*) سيرينا: حورية بحر في الأساطير اليونانية القديمة، تغوي الملاحين بغنائها الساحر حتى توردهم التهلكة. (المترجم)

تصدق مع طبيعتها البناتية وحتى الطفولية... الفتاة الروسية التي يجب حتمًا أن تتعرف عليها»[٢٠].

ثم نيتشه في رسالة ريه رائحةَ احدى مخططات مالويدا لتزويجه، فأجاب من جنوة مازحًا أنه لو كان ما يقصده ريه من رسالته هذه هو الزواج، فإنه زواج سيدوم لسنتين فقط ليس إلا. ما لم يعرفه نيتشه هو أن لو كانت نافرة من فكرة الزواج مثل نفوره شخصيًا، وقد فضّلت طوال حياتها العيش مع رجلين في وقت واحد، وقد تزوجت بعد خمس سنوات فقط لأن خاطبها طعن صدره وهدد بإتمام فعلته والانتحار إن هي رفضت الزواج به. بقيا متزوجين لمدة خمسة وأربعين عامًا، وكرسا حياتهما لبعضهما خلال هذه الفترة الطويلة، على الرغم من أن زواجهما لم يشهد علاقة جنسية أبدًا. كانت سعيدة جدًا عندما أصبحت خادمة المنزل عشيقةً لزوجها على المدى الطويل، بينما أقحمت لو معجبينها المخلصين إلى حياتها الزوجية، وكان أولهم بول ريه.

في جنوة، شاهد نيتشه أوبرا «كارمن»(*) للمرة الأولى، ثم عاد لمشاهدتها أكثر من مرة، وقبل وفاته سيكون قد شاهدها عشرين مرة. لقد حلّت أوبرا «كارمن» محل أوبرا تريستان وإيزولده، بموسيقاها التي ألفها بيزيه ونصها الأوبرالي المستند إلى نوفيلا بروسبير ميريميه. على عكس أوبرا فاغنر، لم تكن لأوبرا «كارمن» مزاعم عن بلوغ السمو أو حتى النشوة الاستثنائية، وعلى عكس أوبراه، لا تعرض «كارمن» أي مغامرات روحية، ويُمكن أن تُسمى الأوبرا المادية، كما أنها لا تتطلب آلات أوركسترالية ضخمة، وإيقاعاتها متواضعة جدًا ولا تستغرقُ وقتًا طويلًا وتتجاهل كل ما هو ميتافيزيقي، فلا تدور حول الآلهة والأساطير ولا حول الملوك والملكات حتى. إن «كارمن» تروي حكاية بالغة الإيجاز عن شهوة تضطرم بين صفوف الطبقة الدنيا، ودون خوسيه العريف الصغير من العامة الذي تصطدم حياته المحدودة والمنظمة جيدًا بالعنصر الديونيسيوسي المتجسد في هيئة كارمن،

(*) كارمن: أوبرا من تاليف جورج بيزيه. (المترجم)

الفتاة الشهوانية والمثيرة جنسيًا التي تعمل في معمل للسجائر. كانت كارمن حسناء لعوبًا (مثل لو سالومي) تُقرب الرجال منها وتنبذهم بعيدًا حسب شروطها الخاصة، فثارت مشاعر الرغبة الجنسية والغيرة والتملك في نفس دون خوسيه بطريقة يصعب التحكم بها، مما قاده بشكل حتمي إلى قتلها في نوبة جنون ديونيسيوسية.

قررت لو أن تسافر إلى جنوة للقاء نيتشه، وعندما علمت أنه لن ينتظر قدومها وأنه سيغادر جنوة إلى ميسينا، اشتعلت غضبًا. في ضوء مُعطيات حالته الصحية، كان قراره غير منطقي، فإن أصبح طقس جنوة حارًا جدًا عليه خلال شهر آذار، فهذا يعني أن طقس صقلية سيكون أكثر سخونة. إلا أن فصول الصيف الأخيرة التي قضاها على الجبال جعلته يشعر بأن التصييف على الارتفاعات الشاهقة يقرّبه من الكهرباء الموجودة في السُحب، مما أدى إلى انتكاس وضعه الصحي أكثر، وبدلًا من ذلك، سيحاول قضاء الصيف على أبعد نقطة عن السماء يمكنه بلوغها: أراضٍ في مستوى سطح البحر، وإلى جانب ذلك، أثارت «كارمن» في نفسه توقًا إلى الجنوب.

«إن عنصر الابتذال المتضمن في كل ما يُسعد الناظر في جنوب أوروبا... لا يمكنني تجاهله، بيد أنه لا يزعجني، تمامًا كالابتذال الذي يمكن أن يصادف المرء عند التجول في بومبي [ربما كان يشير إلى الفن الإيروتيكي] وحتى عند قراءة أي كتاب من العصور الغابرة. لماذا؟ أبسبب قلة الحياء وأن كل شيء مبتذل يلعب دوره على نحو يقيني وبثقة عالية بصورة معادلة لكل ما هو نبيل وجميل وعاطفي في نفس النوع من الموسيقى والرواية؟ للحيوان حق مثل ما للكائن البشري؛ دعه يعدو بحرية، وأنت أيضًا يا رفيقي الإنسان العزيز ما زلت حيوانًا، على الرغم من كل شيء»![٢١].

كان فاغنر، هو الآخر، يقضي الشتاء في ميسينا برفقة كوزيما. لم يكن هناك أي تواصل بين نيتشه وفاغنر طوال ثلاث سنوات، ولكن نيتشه حلم به وبكوزيما عدة مرات. كانت أحلامه ودية وإيجابية وخالية من الضغائن، وكان سيحب رؤيتهم مرة أخرى.

•

كتب ثماني قصائد بهيجة قصيرة أسماها «أناشيد ميسينا»، وكانت أغلبها

عن القوارب والماعز والعذارى. صعد على ظهر القارب المتوجه إلى ميسينا بقلب مفعم، ولكنه عانى من دوار بحر فظيع. بحلول الوقت الذي وصل فيه إلى صقلية كان محطمًا جسديًا وقد غادر فاغنر وكوزيما في وقت سابق، فقد عانى فاغنر من تشنجات في الصدر مما اضطره للرحيل إلى المنزل. كانت الرياح الشرقية الجافة تهب من ساحل قرطاجة، وهي ريح معروفة بتعكيرها لصفاء النفوس وبصريرها على السطوح الذي يسبب للرأس صداعًا، وفوق كل هذا، تحمل هذه الرياح ذرات رملية بالغة الصغر لا تطاق. كان عزاء نيتشه الوحيد في هذه الرحلة إلى صقلية هو مشهد بركان سترومبولي، الذي ضمّن أساطيره عن الأشباح الطائرة فيما بعد في «**هكذا تكلّم زرادشت**».

استمرت بطاقات ورسائل ريه لنيتشه بالوصول متغنيًا بذكاء لو سالومي، واستلم رسالة من مالويدا أشبه ما تكون بأمر استدعاء «إنها فتاة مثيرة للانظار (أعتقد أن ريه قد راسلك ليخبرك عنها)... يبدو لي أنها قد توصلت تقريبًا إلى نفس النتائج التي توصلتَ إليها إلى حد الآن في التفكر الفلسفي، كما في المثالية العملية مع نبذ كل افتراض ميتافيزيقي والاهتمام بتوضيح المشكلات الميتافيزيقية. أتفق مع ريه في رغبتنا أن تجتمعا أنت وهذه المخلوقة الاستثنائية...»[٢٢].

عانى من رحلة مريعة أخرى عند عودته من صقلية، وبعد أن استرد عافيته، استقل القطار متوجهًا صوب روما.

(١١) المُتجوِّل وظلّه:

١. الفصل ١ من مقدمة الطبعة الثانية لكتاب الفجر ١٨٨٦.
٢. راجع الرسائل المرسلة إلى بيتر غاست وفرانز أوفربك خلال آب وأيلول ١٨٨١.
٣. نيتشه إلى فرانز أوفربيك، ٣٠ تموز ١٨٨١.
٤. تستذكر إيدا أوفربيك أن نيتشه قد اقتبس من فويرباخ خلال ١٨٨١ و١٨٨٣، راجع كتاب محادثات مع نيتشه الذي حرره غيامان.
٥. الفجر، الكتاب الاول، ١٤.
٦. نيتشه إلى بيتر غاست، ٥ تشرين الأول ١٨٧٩.
٧. متى ١٨:١٦.
٨. نيتشه إلى فرانز أوفربيك، ٢٧ آذار ١٨٨٠.
٩. في الواقع، تصور لوحة بوكلن مقبرة في فلورنسا، كان لا يمكن بلوغها إلا عبر الماء أيضاً، على الرغم من أنه لطالما أفترض ولأسباب مائية، إن المنظر الذي تصوره اللوحة كان في جزيرة سان ميشيل في البندقية.
١٠. إنساني مفرط في إنسانيته، الكتاب الثالث «المتجول وظله» ٢٩٥.
١١. من نيتشه إلى بيتر غاست، ١٤ آب ١٨٨١.
١٢. وفقًا لدليل رواتب المستهلكين من ١٥٠١ إلى ٢٠٠٦، فإن متوسط الأجور لعامل بناء ماهر في ذلك الوقت ٢,٤٥ فرنك في الاسبوع. كانت الأجرة في أدنى مستوياتها.
١٣. من رسائل نيتشه إلى أوفربيك، ١٨ أيلول ١٨٨١.
١٤. العلم المرح، الكتاب الرابع، ٣٤١.
١٥. دفتر ملاحظات، ١٨٨١.
١٦. من نيتشه إلى إليزابيث نيتشه، ٥ كانون الأول ١٨٨٠.
١٧. الفجر، الكتاب الرابع ٣٨١.
١٨. لو سالومي (١٨٦١- ١٩٣٧)، ابنة لواء روسي من أسرة هوجينوت، كانت والدتها ألمانية.
١٩. لو إندرياس سالومي، التطلع إلى الماضي: ذكريات، ترجمة بيرون ميتشل.
٢٠. من بول ريه إلى نيتشه، ٢٠ نيسان ١٨٨٢.
٢١. العلم المرح، الكتاب الرابع، ٧٧.
٢٢. من مالويدا إلى نيتشه، ٢٧ آذار ١٨٨٢.

١٢

الفلسفة وإيروس

«تعرف النساءُ هذا: أسمن قليلًا، أنحفُ قليلًا- آهًا! وكم من مصيرٍ رُهن في هذا القليل»

«هكذا تكلّم زرادشت»، الكتاب الثالث، عن روح الثقل

قبل أن تلتقي نيتشه، كانت لو مصممة على العيش مع ريه في علاقة ثلاثية، متخيلة أن يماثل هذا الثلاثي الثالوث المقدس لفلسفة الأرواح الحرة «الممتلئة حد الانفجار تقريبًا بالروحانية وتبصُّر العقل». خطرت هذه الفكرة على بالها خلال الفترة التي سبقت وصول نيتشه إلى روما، حيث اعتادت أن تتجول في منتصف الليل قرب الكولوسيوم مع ريه الذي يتكلم كما القساوسة عن الفلسفة ويثير إعجابها بحديث لا ينتهي عن صديقه اللامع.

كتبت سالومي: «سأعترف بأمانة أن حلمًا بسيطًا أقنعني بجدوى خطتي التي وقفت بوجه كل التقاليد الاجتماعية. رأيتُ في حلمي مكتبًا مبهجًا مليئًا بالكتب والزهور يتوسط غرفتي نوم، ونحن الثلاثة نسير ذهابًا وإيابًا، زملاء نعمل معًا في رابطة سعيدة ومُجدّة»[1]، ولم توضح كيف وُزعت الغرفتان بين الأشخاص الثلاثة.

لم تخفي لو خطتها غير التقليدية عن مالويدا التي وصفتها بأنها خيال وقح وبدأت تقلق من هذه الفكرة. تحدثت والدة لو الضعيفة التي تُخدع بسهولةٍ عن إخبار إخوانها بهذه الفكرة المشينة، وبهذا عارض الجميع هذه الخطة، حتى ريه «وقف متحيرًا أمام الفكرة» كما قالت لو على الرغم من أنه كان غارقًا في الحب من رأسه حتى أخمص قدميه. خلال الأسابيع الثلاثة الأولى من معرفتها طلب منها أن تتزوجه، مضيفًا شرطًا غريبًا بأن لا يتضمن الزواج ممارسة الجنس لأنه يُشعره بالقرف. كان إحساس لو مماثلًا لإحساسه فيما يخص الجنس بعد حادث سبب لها صدمة نفسية في أواخر سن مراهقتها في سان بطرسبورغ عندما اغتصبها معلمها الخاص الذي وثقت به، وهو قس هولندي مسن متزوج وله بنات في سنها. كانت رغبة ريه بزواج «منقوص» لِتُعجبها لو أنها تهتم لسمعتها، وكان طلبه دليلًا على الاحترام البالغ الذي يكنّه لها لكنها لم تُعر يومًا اهتمامًا يُذكر لسمعتها، فطوال حياتها لم تُولع بشيءٍ أكثر من إغاظة الطبقة البرجوازية.

في ٢٠ نيسان ١٨٨٢، غادر نيتشه ميسينا على متن سفينة شحن، ووصل إلى روما في ٢٣ أو ٢٤ من الشهر نفسه. بعد بضعة أيام من بقائه في فيللا ماتي الفاخرة تحت رعاية مالويدا الأمومية، وبعد أن فكر أنه تعافى بما فيه الكفاية من رحلته البحرية وأنه وقتٌ مناسبٌ للقاء لو، قرروا جميعًا أن يلتقوا بها في كنيسة القديس بطرس وهو خيار غريبٌ لعصبة الأرواح الملحدة الحرة.

كانت المرة الأولى له في روما، لم يستطع بيدكر(*) أو غيره تحضيره للرحلة من فيللا مالويدا بالقرب من الكولوسيوم إلى كنيسة القديس بطرس حيث سيقابل تلك الفتاة الغامضة أخيرًا. على غرار ثيسيوس الذي تبع دليل أريادن ليخرج من متاهة المينوتور، تبع نيتشه خيط الظل الذي رسمته أعمدة برنيني التوسكانية الضخمة، وما إن دخل الكنيسة العابقة بدخان البخور الكئيب،

(*) كارل بيدكر؛ ناشر ألماني نشر كتابًا بعنوان «دليل السفر»، يُسهل على المسافرين الوصول إلى وجهتهم من دون أي عناء. (المترجم)

صعُب على عينيه تبينها. سيزهر جمال لو لاحقًا وتتفجر أنوثتها وتبدأ بارتداء الحرير والفراء والأثواب المزركشة مثل جوديث غوتييه، لكن في هذه المرحلة من كونها فيلسوفة متدربة كان زيّها يشبه زي راهبة في احتشامه؛ فستانٌ طويلٌ غامق اللون بياقة مرتفعة وأكمام طويلة، معززٌ بمشد ضيق نحت جسدها الشبيه بالساعة الرملية. كان شعرها الأشقر الداكن مصففًا بدقةٍ إلى الخلف مبينًا وجهها ذا الملامح الروسية الكلاسيكية الجميلة، عريضًا بعظمتي وجنة عاليتين وعينين زرقاوين ونظرة تدل على ذكاءٍ وحزمٍ وعاطفة؛ كانت تدرك جمالها وتستمتع بسطوته.

أما هي فتقول أن أول ما أعجبها بنيتشه هو قوة عينيه، لقد فُتنت بهما حقًا، فهما تُخفيان أكثر مما تُبديان، ورغم أنه نصف أعمى، لم يكن لعينيه أي ميل للمراقبة أو الإجفال أو التحديق أو التطفل الذي يمتلكه الشخص حسير البصر بالعادة، «بدت عيناه كحارسين يحميان كنوزه وأسراره الصامتة التي لا يجب أن يلمحها غير المرغوب بهم»[٢].

لابد أنها توصلت لهذا الوصف في وقت لاحق، فقد كان يضع نظارته المظللة في الكنيسة ولولاها لم يكن ليرى شيئًا، وهذا يؤكد أن لو لم تستطع رؤية عينيه عبر العدسات السميكة وظلمة الكنيسة.

«تخترق المسافات مباشرة نحو الروح»، هكذا وصفت لو نظراته. قد يكون هذا الوصف مجرد لوحةٍ شخصية تصف نظرتها الخاصة، فغالبًا ما يصف الآخرون عينيها بأنها تمتلك صفة التحرر الغريبة عند تحديقها في الآفاق البعيدة، فتجتاح مُجالسيها رغبة لفرقعة أصابعهم للفت انتباهها وملامسة جوهرها الداخلي النائي لإجبارها على رؤية العالم المادي القابع أمامها. وهبها التناقض بين تهورها العاطفي الطائش ونظرتها القاسية الغريبة موهبةً استثنائية تدفع الناس للاعتراف بها في دواخلهم، فقد كانت تستمع للآخرين مثل مرآة تعكس أفكار المتحدث ليراها أمامه. لم تكن تتحدث كثيرًا أثناء الاستماع ولكن هدوءها يدفع المتكلم إلى التحدث أكثر عن خفاياه، وفي المستقبل سيسمح لها سيغموند فرويد بتحليل ابنته آنا نفسيًا.

عندما التقيا، حياها نيتشه بكلمات حضّرها مسبقًا كما هو واضح؛

«من أي نجوم انحدرنا لنلتقي هنا؟»[٣]؛

فجاء ردها الارتجالي «من زيورخ».

في بادئ الأمر وجد نيتشه صوتها الروسي اللهجة قاسيًا، وشعرت بدورها بخيبة أمل، فقد كانت تتوقع أن تقابل رجلًا يكتسح مثل زوبعة، ثائرًا ملتهبًا كما هي أفكاره، أو على الأقل رجلًا له وجود قيادي، لكن الماثل أمامها رجلٌ عاديٌ جدًا يكادُ لا يُلاحظ ويسهل تجاهله لدرجة أن الأمر كان مثيرًا للضحك. رجلٌ قصيرُ القامة هادئ السلوك بشعر بني ممشط بعناية وملابس مرتبة للغاية؛ يبدو أنه كان يعتزم أن يظهر بمظهر عادي قدر الإمكان. كان كلامه هادئًا بلا أي ضجة تقريبًا وكذلك كانت ضحكته، فأعطى انطباعًا عامًا بأنه شخصٌ عميق التفكير. كان يحني كتفيه للأمام قليلًا عند التحدث كما لو كان يدفع الكلمات من أعماقه إلى الخارج، كل هذا أمدّها بشعورٍ غير مريح أن جزءًا منه كان يقف جانبًا ممتنعًا عن الحديث.

هل يُعقل أن يكون هذا هو محطم الأوثان الدينية الذي قال عنه ريه متباهيًا إنه لم يُضع يومًا من دون أن يحطم أحد أوثان معتقداته على الأقل؟ مثلت هذه العزلة الكتومة تحديًا بالنسبة لها، فأرادت أن تكتشف ما يكمن وراء المسافة التي أحاط بها ذاته الحقيقية بحذرٍ بعيدًا عن العالم، شعرت بأنها مخدوعة بطريقة ما بـ«وضعه اللطيف المدروس».

من الواضح أنه تدرب على وضعه الكيّس المدروس كما تدرب على تحيته، وهذا ما رفعهما بلمح البصر إلى عالم القدر والمصير الأسمى ووضع لقاءهما على عجلة العود الأبدي بالإشارة إلى مقطع من كتابه الثاني من تأملات في غير أوانها، نصه: «...عندما تكرر كوكبة الأجرام السماوية حركاتها، تتكرر الحوادث على الأرض نزولًا إلى أصغر حادث؛ فكلما تصطف النجوم مع بعضها بعضًا بهندسة معينة، يتعاون رواقيٌ مع أبيقوري لقتل قيصر، وعندما تغير اصطفافها لشكل هندسي آخر يكتشف كولومبوس أمريكا مرة أخرى»[٤].

بينما كانت لو تتحدث مع نيتشه في الكنيسة، عثر ريه على موضعٍ لنفسه في الظلام الذي يحجب غرفة الاعتراف. كان الغرض الظاهري من تصرفه هذا هو كتابة بعض الملاحظات التي من المفترض أن تفيده في عمله، ولكن نيته الواضحة كانت التنصت. لمّحت لو بأنها غاصت مع نيتشه في مناقشة خطة عيشهم الثلاثي المستقبلي، وأين من المفترض أن يحدث ذلك، رغم أنها تراجعت لاحقًا مغيرةً موقفها ومناقضةً قصة الحلم الذي راودها عن الثالوث المقدس بقولها إن نيتشه أقحم نفسه في الخطة التي سبق ووضعتها مع ريه بأن يعيش الاثنان معًا في شراكة فكرية.

أيًا كان ما حدث خلال الأسبوع الأول من تعارفهم في روما، فلا شك أن الثلاثي كان يخطط للعيش معًا. تحمَّس نيتشه للمخطط، وفكر أن يدرس مرة أخرى، فأراد حضور محاضرات في جامعة السوربون سعيًا للتأكد من صحة أفكاره علميًا حول العود الأبدي، أما لو وريه فكانا سعيدين بالذهاب إلى باريس، حيث يمكنهما توطيد علاقتهما بإيفان تورغينيف.

أنهك اللقاء في كنيسة القديس بطرس نيتشه لدرجة أن رقد في سريره في فيللا مالويدا، حيث زاره ريه ولو. لقد كان يستمتع بقراءة مقاطع من الكتاب الذي كان يكتبه بعنوان «**العلم المرح**» على مسامعهما والحماسة تتدفق بهجةً لا يمكن كبحها تنبع من وقوفه على شفا مغامرة وشيكة. كتب في مقدمة الكتاب أن عمله هذا ليس سوى تسلية بعد حرمان وعجز طويلين ودفق من الإيمان المتجدد بالغد، معربًا عن إحساسه المفاجئ بالتطلع للآفاق المفتوحة بعد أن كانت مغلقة. كان قد بدأ في كتابة هذا الكتاب في جنوة خلال الوقت الذي أغرته فيه البنية المادية غير المعقدة لـ«كارمن» بالتمثل الأنثوي الأزلي في كارمن نفسها، وبالفكرة المغرية التي تتمثل في وجود فتاة جميلة ومثقفة في روما تدعى لو سالومي تخبر الجميع بأنها مصممة على مقابلته، والآن قد التقيا ومشهد باريس يلوح في الأفق. على الرغم من إخلاصها المعلن، لم تقرأ لو أيًا من كتب نيتشه، لكن ما شأن ذلك وقد تركت شدتها وذكاءها وخطورتها تأثيرًا عميقًا عليه.

نال نيتشه سمعةً بأنه كاره للنساء، وهو يستحقها في الغالب، فقد ناهضت كتاباته النساء في فترات عديدة من حياته شعر خلالها بالارهاق من القيود العائلية السقيمة التي استخدمتها والدته وإليزابيث لإخضاعه، بيد أنه كان متعاطفًا مع النساء وذا بصيرةٍ ثاقبة في علم النفس الخاص بهنَّ خلال هذه الفترة، وبالأخص عندما التقى سالومي، حتى أصبح تصرفه هذا لافتًا للنظر بالنسبة لتلك الحقبة.

إن الشذرات التي تخص النساء في «العلم المرح» إيجابية وعطوفة بشكل ملحوظ. والأهم من ذلك، أنه يعبر عن فكرة ثورية متمثلة في وجود شيء مذهل ووحشي للغاية في التنشئة المتناقضة لنساء الطبقة العليا. لقد نشأن جاهلات قدر الإمكان كل المسائل التي تتعلق بالأمور الجنسية وقيل لهن إن هذه المسائل مُفسدةٌ للنفس وعارٌ لا يُغتفر، ثم تم إلقاؤهن بصاعقة رعدية في شباك الزواج، وأُجبرن على ممارسة واجبهن المرعب المتمثل بالجنس على أيدي الرجال الذين أحببن واحترمن. كيف يمكنهن التعامل مع هذا التقارب غير المتوقع والصادم بين الرب وهذا الوحش؟ وخلص إلى القول «وبهذا، خلق المرء عقدة نفسية قد لا يكون لها مثيلًا»[٥].

قد يكون هذا وصفًا لما حدث بين لو ومعلمها الكبير المحترم وللصدمة المؤلمة التي حلت عليها جرّاء هجومه الشهواني الوحشي.

في الأسبوع التالي للقائهم في الكنيسة، ازداد انبهار لو بنيتشه، فرأته شخصًا يرتدي قناعًا غريبًا ويؤدي دورًا في هذا العالم، وكأنه إلهٌ خرج من البرية أو نزل من عليائه مرتديًا بدلة ليمشي بين البشر، فيجب إخفاء وجه الرب خشية أن يموت البشر أمام نظرته المبهرة. فكرت بأنها لم ترتدي قناعًا أبدًا ولم تشعر أبدًا بحاجتها إلى قناع حتى تُفهم، ففسرت قناعه على أنه استرضائيًا نابعًا من طيبته وشفقته على الآخرين، فاقتبست شذرته «الأشخاص الذين يفكرون بعمق يشعرون بأنهم ممثلون كوميديون في علاقتهم بالآخرين لأن عليهم أولًا محاكاة المظهر الخارجي حتى يُفهموا»[٦].

اقترح عليها أن تفكر في العيش وفقًا للمبادئ التي قرر العيش بها مثل مبدأ (أكتب لنفسي) ومقولة بيندار(*) «اغدُ ما أنت عليه، ما أن تفقه ماهيته»، وبالنتيجة عملت لو بالمبدأين طوال حياتها.

طورت لو تفسيرها الخاص لسيكولوجية نيتشه وكتبت عنها بإسهاب في عدد كبير من المقالات وفي كتاب ألفته عنه[٧]. أولت أهمية كبيرة لمرضه بصفته مصدر إبداعه. لم يكن يحتاج إلى توهج أو أي دليل خارجي على عبقريته طالما كان يعاني من مرضه الذي مكنه من العيش حيواتٍ لا تعد ولا تحصى في حياةٍ واحدة. لاحظت كيف ترتبت حياته في نمط عام، انتكاساته المنتظمة في مرضه تفصل دائمًا فترة من حياته عن الفترة الأخرى. كان كل مرض موتًا وتموضعًا على هاوية هايديس، وكل تعافٍ هو إحياءٌ بهيجٌ وتجديد، فأنعشه هذا الوضع الوجودي. كان يعبر عن هذه الحالة بـ («تذوق جديد»)، خلال كل فترة نقاهة عابرة يُضيء العالم من جديد، وهكذا أصبح كل تعافٍ ولادةً جديدةً له وولادةَ عالم جديد بالكامل، وبالتالي مجموعة جديدة من المشكلات التي تتطلب حلولًا جديدة. كان هذا مثل دورة خصوبة سنوية يحرث خلالها إلهُ الأرض، فمن خلال هذه العملية المؤلمة فقط يمكنه أن يفتح عينه على رؤًى جديدة، وضمن هذه الدورة الكبيرة من التقلبات الهائلة كانت هناك أيضًا دورة يومية أصغر. كان نمطه العقلي هو تلك الموجات التي تتكسر بلا هوادة على الشاطئ، تتقدم وتتقهقر باستمرار، عالقة في الزخم المروع للحركة الأبدية التي لا راحة منها. «السقوط مريضًا من خلال الأفكار والتعافي من خلال الأفكار»؛ لم يكن لدى لو أدنى شك بأنه «هو نفسه سبب مرضه المستحث ذاتيًا»[٨].

منذ البداية أخذ نيتشه التعايش الثلاثي على محمل الجد، وبشقاوة سماه الثالوث المدنس، رغم أنه في الوقت نفسه أخذ الأعراف الاجتماعية على محمل الجد بما يكفي ليشعر بضرورة الدفاع عن سمعة لو من خلال التقدم للزواج

(*). بيندار: شاعر غنائي إغريقي ولد عام ٥١٨ قبل الميلاد، وتوفيَّ عام ٤٣٨ قبل الميلاد. (المترجم)

منها؛ «أعتبر نفسي ملزمًا بحمايتك من ثرثرة الناس، وأعرض عليكِ الزواج»، طالبًا من ريه إيصال الرسالةِ إليها.

لقد كان غريبًا طلب نيتشه من ريه تولي هذه المهمة كونه قد تقدم للزواج من لو قبله وقد ازداد حبه لها. عند تلقي طلب نيتشه، شعرت لو بالقلق من أن التنافس على الزواج منها سيعرّض هذه التجربة الفكرية للخطر. لم يكن هناك أدنى شك في وجوب تدعيم هذه التجربة بقوة الطاقة الايروتيكية، لكن لم يكن من المفترض نقل هذه التدعيم إلى المستوى الجسدي. أبلغت ريه برفضها وطلبت منه أن يشرح لنيتشه أنها لا تحبذ فكرة الزواج في الأساس من حيث المبدأ، وأضافت في ملاحظة صغيرة أنها إن تزوجت فسوف تفقد نفقتها بصفتها ابنة نبيل روسي، وكانت هذه النفقة مصدر دخلها الوحيد.

أصبح جو روما رطبًا وضارًا بصحة نيتشه الذي قضى وقتًا طويلًا في الفراش. إن كان سيتعافى فهو بحاجة إلى هواء بارد ومنعش، فقرر الترحال إلى جبال الألب شمال إيطاليا مع ريه. محمومة للانضمام إليهما، توسلت لو بريه لمساعدته بترتيب الأمور.

أخبر ريه لو «إلى الآنسة لو الآمرة، صباح الغد في حوالى الساعة الحادية عشرة سيذهب نيتشه لزيارة والدتك وسأرافقه للتحدث إليها... لا يستطيع نيتشه التنبؤ بما سيشعر به غدًا لكنه يرغب بتقديم نفسه لأمك والتعرف إليها قبل أن نلتقي مجددًا في البحيرات». حذرت والدة لو نيتشه من ابنتها بعباراتٍ واضحة، فقد كانت لو فتاةً لا يمكن السيطرة عليها وخطيرة وحالمة جامحة، ورغم تلك التحذيرات مضت خطة سفرهم قُدمًا. غادرت لو ووالدتها روما في الثالث من أيار ولحق بهما ريه ونيتشه بعد يوم واحد. في الخامس من أيار، اجتمعوا جميعًا في أورتا، حيث انسل نيتشه ولو في اليوم التالي ليصعدا إلى مونتي ساكرو، وهي قمة تدور حولها الاساطير مثل جبل بيلاتوس.

يصف نيتشه صعوده إلى الجبل مع لو بأنها التجربة الأكثر روعة في حياته.

يرتفع مونت ساكرو بهدوء فوق بحيرة أورتا، وهي بحيرة صغيرةٌ في

المنطقة التي تضم بحيرات كبرى مثل بحيرة ماجوري ولوغانو الأكثر شهرة وإثارة، لكن بحيرة أورتا تمتاز بجمالٍ بلا منازع وأهميةٍ تاريخيةٍ دينيةٍ لا تُضاهى. كانت البحيرة موقع أول عملية حرق مسجلة في التاريخ للساحرات في إيطاليا في العصور الوسطى، وتقول الأسطورة المحلية إن شبح الساحرة ظل يسكن موقع الميتة الشنيعة. في أعقاب مجمع ترينت (١٥٤٥-١٥٦٣)، عندما كانت الكنيسة الكاثوليكية الرومانية تحارب كلًّا من الإصلاح البروتستانتي وصعود المد الإسلامي الذي يبدو أن لا شيء يستطيع إيقافه، تم اعتبار أورتا مونت ساكرو أحد المواقع المقدسة في أوروبا. كانت هذه الأماكن المقدسة الجديدة مواقع بديلة مكرسة للعبادة بعد ردود الفعل الجماعية على الحملات الصليبية التي أغلقت الأراضي المقدسة أمام الحجاج الأتقياء.

في عام ١٥٨٠، تم إعلان مونتي ساكرو «القدس الجديدة»، حيث يُكسب صعود الروح نفس الأجر الذي تكتسبه من الحج إلى مدينة القدس. استقبل هذا الإعلان نفس الحفاوة التي رفع بها الفاتيكان قبة مايكل أنجلو فوق كنيسة القديس بطرس، وتم إكساء الجبل الصغير بمناظر طبيعية باروكية تحيط بطريق الرحلة الذي يُحاكي الطريق إلى الفردوس. طريقٌ متعرجٌ مائع عبر ساكرا أو عبر دولوروسا يلتوي صعودًا على سفح الجبل، زُرع عن قصدٍ ببساتين مقدّسة تكشف تموجاتها الخضراء تارةً وتُخفي تارةً أخرى خيطًا رفيعًا من منظر البحيرة الخلاب أسفل الجبل المتوج بالثلج. بالتقدم إلى الأمام، كان مونتي ساكرو يشبه نسخة في الهواء الطلق من مراحل درب الصليب أو رحلة عبر خرزِ مسبحة. في كل منعطف من خط سير الرحلة المتصاعد، تكشف سحب أوراق الأشجار الخضراء مكانًا جديدًا للتأمل. بُنيت إحدى وعشرون كنيسة صغيرة رائعة من الحجر على طول مسار الحج، وكل كنيسة مزينة بعلامات ورموز روحية: أسماك جميلة وصدفات محار أسقلوب، شموسٌ وأقمارٌ ونجومٌ وزنابق وزهور. كانت التصميمات الداخلية للكنائس جصيةً بالكامل تحوي تماثيل طينية نابضة بالحياة تروي قصصًا مقدسةً عن حياة يسوع والقديسين.

خلال ثلاثمائة عام بين إنشاء هذا المكان وصعود لو ونيتشه إليه، أصبح

مونتي ساكرو مقامًا للجمال المهجور المتفسخ، فقد حاكت خضرة الغابة صورًا ذهنيةً مقصودةً نصف مدمرة. بدا أن الأشجار القديمة التي غاصت في التربة تواكب تفسخ الإيمان المسيحي، وهذا لم يحرك ساكنًا في قلب نيتشه ولو، لكنها تواكب أيضًا انحطاط الروحانية وهذا ما أسفا له.

أثناء صعودهما، دار حديثهما حول صراعهما الفتي مع الرب، وأصبحت مقتنعة أنه تربى تربية ذات طبيعة دينية بالأساس مثلها، فهي فقدت إيمانها المسيحي في سن مبكرة أيضًا وكلاهما وجد نفسه يتحدث عن حاجة دينية عميقة داخل نفسه لم تُلبَّ بأي طريقة من الطرق. لقد جمعتهما هذه الحاجة معًا ضد ربه الذي اتفقا على أنه هجومي في إصراره على ماديته المنزوعة الروح. أخضعها نيتشه لنوع من الاختبار الفلسفي والاستجواب الدقيق ليعرف أفكارها ومعتقداتها، ووجد ردودها حساسةً وذكية للغاية لدرجة أن اعترف أنه أخبرها شيئًا عن فلسفته لم يخبره لأحدٍ آخر قبلها، لكن لم يقل ما هو؛ ربما فسر لها نظريته عن العود الأبدي الذي كانت تنخر ذهنه كثيرًا آنذاك، يُحتمل أنه أخبرها عن زرادشت الذي كانت شخصيته تلمع في أفق تفكيره آنذاك باعتباره لسان حاله في المستقبل، ويُحتمل أنه حدثها عن سره الآخر المتمثل بموت الإله الذي وصفه في الكتاب الذي كان يعده للنشر «العلم المرح».

في وقت لاحق كتب إلى لو: «برجوعنا إلى أورتا، فكرت بخطة تقودك خطوة بخطوة إلى النتيجة النهائية لفلسفتي، فأنتِ أول شخص اعتبرته مؤهلًا لأخبره بذلك»[٩].

صعوده على جبل مونتي ساكرو أقنعه بأنه وجد في لو النصير والمُريد الذي طال بحثه عنه، فهي ستكون كاهنته التي لا تُغلب ومُخلدةُ فكره للأبد.

بعد حديثهما تنبأت لو بأن العالم سيحيا ليرى نيتشه نبيًا لدين جديد، يحوِّل الأبطال الى أتباع. وصف كلاهما كيف تشابهت أفكارهما وأحاسيسهما تجاه أشياء معينة وكيف تعثرت الكلمات بينهما، فكانا يتلقفان الكلمات من فم بعضهما مثل الطعام، وذابت السيطرة الفردية لمّا كمّلا أفكار بعض وأنهيا جمل

بعض. لمّا نزلا من الجبل قال لها بهدوء: «أشكرك على أروع حلم في حياتي».
بعد نزولهما كانا متألقين يشعان بهجةً كما لو أنهما مارسا الحب في أعلى الجبل، وهذا ما أغضب والدة لو وأشعل غيرة ريه، فظل يضايقها بالأسئلة، لكنها سحقت فضوله التافه بردودها الغامضة المنيعة، «كان ضحكه رسالة على ما يشعر به».

على مر السنين التي تلت ذلك اليوم، وبعد كل ما حدث بينهما، لم ينفِ أيٌّ منهما الأهمية العميقة لما تبادلاه فكريًا وروحيًا على مونتي ساكرو، ولم يستطيعا تفسيرها أيضًا. في وقت لاحق من حياتها الطويلة، سُئلت لو مراتٍ عديدةٍ عما إذا كانت هي ونيتشه قد قبلا بعضهما فوق مونتي ساكرو، فكانت تحيد بعينيها بعيدًا في الأفق وتجيب: «هل قبلنا بعضنا فوق مونتي ساكرو؟ لم أعد أتذكر»، ولم يجرؤ أحد على طرح هذا السؤال على نيتشه.

من أورتا توجه مباشرة إلى بازل لزيارة صديقيه العزيزين فرانز وإيدا أوفربيك اللذين قالا إنه بدا قويًا وسعيدًا وقد أصابته لفحة الشمس بالسُمرة. مكث معهما لمدة خمسة أيام لم يعانِ خلالها من أي انتكاسة عصبية على الرغم من أنه خضع لجلستين طويلتين عند طبيب الأسنان. لاحظت إيدا أن معاناته الوحيدة تمثلت في قلة قرّائه وشهرتهِ، فبعد نشر كل عملٍ من أعماله كان ينتظر متأملًا أن يتلقى تقديرًا مشجعًا وأن يستقبله الجمهور كنجمٍ جديد في سماء الفكر ويكون له أتباعٌ ومخلصون، لكن لم يحدث أي من ذلك في تلك الفترة، بيد أنه كان مقتنعًا بأن ذلك اليوم سيأتي، فقد أخبر عائلة أوفربيك أنه وجد في لو قرينه وصديقًا مقربًا، فهما يتشاركان نفس الدماغ، أخبرهما أنه سيغوص أعمق في هذا العالم فيخفف عزلته ويكون أكثر انفتاحًا للتماس مع الأشياء والبشر.

عندما كان يقيم مع عائلة أوفربيك ويتحدث عن مستقبل مشرق، كان يقفز بين الحين والآخر ليعزف شيئًا على البيانو، وفي المساء أدهشهم بسهره على غير عادته، ورؤية السعادة جليّة عليه أفرحتهما، فقد كانت علاقتهم راسخة وثابتة. كان قد عهد بشؤونه المالية إلى فرانز، وأخذت إيدا على عاتقها تهدئة الأجواء حوله وحل مشكلاته قدر الإمكان، وهي خدمة قدّرها نيتشه كثيرًا.

في اليوم الذي وصل فيه إلى عائلة أوفربيك في الثامن من أيار، أرسل إلى ريه ملاحظة سريعة «طريق المستقبل مسدود لكنه ليس مظلمًا، يجب أن أتحدث إلى الآنسة لو مرة أخرى، في لونغارتن ربما؟ صديقك الممتن بلا حدود ن.»

في لونغارتن، في مدينة لوسيرن، هناك منحوتةٌ جميلةٌ للغاية على هيئة أسدٍ يحتضر نُحتت على وجه صخرة، وهي تُحيي بطولة وإخلاص الحراس السويسريين الذين سقطوا خلال اقتحام قصر تويلري خلال الثورة الفرنسية، أما العبارة التي حملها النصب «للولاء والشجاعة» فهناك ما هو خفي بين حروفها يرمز للقاء مع لو.

عندما وصل نيتشه إلى محطة لوسيرن في الثالث عشر من أيار، كانت لو وريه ينتظرانه على المنصة. تهرب الاثنان من ريه ليلتقيا في لونغارتن، حيث تقول لو إن نيتشه طلب يدها مرة أخرى ورفضته للمرة الثانية. كل ما نعرفه من جانب نيتشه عن هذا الموضوع هو رسمة رسمها عندما كان في المستشفى خلال سنوات جنونه، يظهر فيها النصب التذكاري للأسد بوضوح وشخصان يتعانقان تحته.

عندما اجتمعا مع ريه مجددًا، ذهب الثلاثة إلى مصورٍ لالتقاط صورتهم الشهيرة التي ارتبطت، خطأً أم صوابًا، بما قاله نيتشه على لسان امرأة عجوز في «**هكذا تكلّم زرادشت**»: «أذاهبٌ أنت إلى امرأة؟ فلا تنسَ أن تأخذ السوط معك». ربما كانت الصورة الطريفة فكرة لو، وربما فكرة نيتشه، لكنها بالتأكيد لم تكن فكرة ريه لأنه كان يكره الصور، إضافة إلى أنه يبدو غريبًا في هذه الصورة بوقوفه مرتديًا بدلته الأنيقة بجانب نيتشه. بدا الرجلان كأنهما حصانان نشيطان مستعدان للعمل بوقوفهما هكذا أمام عربة مزرعة خشبية، بينما ربضت لو فوق العربة بمرحٍ وعزمٍ وهي تلوح بسوطٍ نحوهما كانت قد زينته بأزهار الليلك. بدا نيتشه سعيدًا بنفسه، يحمل هيبة وحكمة البوم إضافة إلى سحنة شقية، كما لو أنه كان يستمتع بهذه المزحة.

عندما خرجوا من استوديو التصوير، لم يكن أمامه سوى مسيرةٍ قصيرةٍ

للوصول إلى تريبشن. مرة أخرى انفصل الاثنان عن ريه وأخذها نيتشه في جولة حول جزيرته المباركة لسبر أغوارها. قالت لو إن عاطفة عميقة غمرته عندما تحدث عن فاغنر.

في محاولة من نوع ما للتحكم في حياة هذه الفتاة الرائعة التي كان مصيرها، كما اعتقد مرتبطًا ارتباطًا حميميًا بمصيره بلا أدنى شك، مهد نيتشه لها ولوالدتها الانتقال إلى بازل للإقامة مع عائلة أوفربيك. ربما كان يفكر في إمكانية إقناع فرانز وإيدا ضيفتيهما بشخصية نيتشه المثالية وإخلاصه وفضيلته، بيد أن لو لم تكن مهتمةً بهذه الخطة التدجينية، فقضاء بعض الوقت مع عالِمِ اللاهوت وزوجته لم يغرها بقدر التعرف على أشهر باحث في جامعة بازل، ياكوب بوركهارت. بعد أن لاحظت إيدا أوفربيك سلوك لو خلال الزيارة القصيرة، استنتجت أنه حين استسلم نيتشه لأمل العثور على توأم روحه في شخص لو، لم تكن هي مستعدة «لأن تتماهى فيه».

أرسل نسخة من كتابه إنسان مفرط في إنسانيته إلى لو، ثم أرسل قصيدة كتبتها لو بعنوان «إلى الحزن» إلى بيتر غاست في فينيسيا طالبًا منه أن يماهيها في معزوفة موسيقية.

كتب نيتشه رسالة مع القصيدة التي أرسلها إلى غاست، تقول »لهذه القصيدة قوة تسيطر عليّ فلا يمكن لي أن أقرأها من دون أن تدمع عيناي؛ فتبدو كأنها صوتٌ انتظرته طويلًا منذ الطفولة. كتبت صديقتي لو هذه القصيدة، وأنت لم تسمع بلو من قبل، فهي ابنة جنرال روسي في العشرين من عمرها؛ إنها داهيةٌ مثل نسر وشجاعةٌ مثل أسد، ومع ذلك لا تزال طفلة شقية لن تنجو في هذا العالم... بطريقة مثيرة للدهشة استقبلت لو أفكاري وطريقة تفكيري. صديقي العزيز، أرجو أن تشرفنا بأن تبعد عن بالك فكرة أننا في علاقة غرامية، فنحن أصدقاء لا أكثر، وسأحافظ على هذه الفتاة وهذه الثقة مقدسة في نفسي»[١٠].

(١٢) الفلسفة وإيروس:

١. من كتاب لو أندرياس-سالومي بعنوان «الرجوع بالذاكرة»، ص ٤٥.
٢. من كتاب لو سالومي بعنواني «نيتشه»، ترجمة سيغفريد مانديل/ مطبعة جامعة إلينويز، ٢٠٠١، ص ٩ - ١٠.
٣. من كتاب لو أندرياس-سالومي بعنوان «الرجوع بالذاكرة»، ص ٤٧.
٤. تأملات في غير أوانها، «محاسن ومساوئ تاريخ الحياة»، الجزء الثاني.
٥. العلم المرح، الكتاب الثاني، ٧١، بعنوان «عن عفة النساء».
٦. من كتاب لو أندرياس-سالومي، ص ١١. مقتبسةً شذرة رقم ٣٣٨ من «آراء وأحكام....» من كتاب «إنساني مفرط في انسانيته».
٧. لو سالومي «Friedrich Nietzsche in seinen Werken»، ١٨٩٤.
٨. من كتاب لو أندرياس سالومي، «نيتشه»، ١٣٣.
٩. من كتاب جوليا فايكرز «لو فون سالومي، سيرة امرأة ألهمت فرويد، نيتشه وريلكه»، ماكفارلاند، ٢٠٠٨، ص ٤١.
١٠. نيتشه إلى بيتر غاست، ١٣ تموز ١٨٨٢.

١٣
تلميذة الفيلسوف

لا تزال باريس في الطليعة لكني أخشى الضوضاء وأود أن أعرف إن كانت السماء صافية كفاية أم لا.

رسالة إلى فرانز أوفربيك في تشرين الأول عام ١٨٨٢

بينما ذهبت لو مع والدتها إلى منزل عائلة أوفربيك في بازل، انتقل نيتشه مباشرة من لوسيرن إلى ناومبورغ لتقديم «العلم المرح» إلى الناشر. لقد استأجر أحد التجار المفلسين ليكتب ما يمليه عليه بينما شرعت إليزابيث تقرأ أجزاءً من المسودة التي أعلن فيها لأول مرة عن وفاة الإله، فقد كتب ما يلي:

«ألم تسمع بهذا الرجل المجنون الذي أضاء مصباحهُ في الصباح المشرق وركض في السوق يصيح بلا هوادة «أنا أبحث عن الإله! أنا أبحث عن الإله!» ولأن العديد من الواقفين لم يؤمنوا بالإله بدأت ضحكاتهم تعلو أكثر فأكثر. «هل ضاع إذن؟» سأل أحدهم، ليجيبه الأخر «وهل أضاع طريقه كطفل؟، أم هو مختبئ؟ هل هو خائف منا؟ هل ذهب إلى البحر؟ هل هاجر؟»... قفز المجنون وسطهم واخترقهم بنظرات عينيه صارخًا «أين الإله؟ سأخبركم! لقد قتلناه – أنا وأنتم! نحن جميعا قَتلتُه. ولكن كيف فعلنا

هذا؟ كيف استطعنا شرب البحر؟ من أعطانا إسفنجة لمحو الأفق بأكمله؟ ماذا كنا نفعل عندما فصلنا هذه الأرض عن شمسها؟ إلى أين تتجه الأرض الآن؟ إلى أين نتجه نحن بعيدًا عن كل الشموس؟ ألا نزال نسقط؟ ألا يزال هناك صعود وهبوط؟ ألسنا نهيم في العدم اللانهائي رغم كل شيء؟ ألا يزفر الفراغ أنفاسه علينا؟ ألم يزدد الجو بردًا؟... أما زلنا لا نسمع شيئًا من ضوضاء حفّاري القبور وهم يدفنون الإله؟ ألا نشم رائحة التعفن الإلهي؟ فالآلهة تتعفّن أيضًا! الإله قد مات! وسيبقى ميتًا! ونحن الذين قتلناه! كيف يمكننا تعزية أنفسنا ونحن قتلةٌ أسوأ من كل القتلة! فأقدس وأقوى شيءٍ امتلكه العالم قد نزف حتى الموت تحت سكاكيننا؛ من سيمسح هذا الدم عنا؟ أوليست خطورة فعلتنا هذه كبيرة بالنسبة لنا؟ ألا يتحتم علينا أن نصبح آلهة حتى نستحق هذا الصيت بجدارة؟ ليس هناك فعلٌ أخطر، وبسبب هذا الفعل كل من يولد بعدنا سينتمي إلى حقبةٍ أكثر رفعة من زماننا الذي نعيشه حتى الآن».

ينظر الحشد إليه في قلق فيكمل المجنون «هذا الفعل لا يزال أبعد من أبعد النجوم عنهم (ما بعد الربوبيين)، ومع ذلك فقد فعلوه!». يلقي الفانوس الذي يعطي الضوء الجديد على الأرض ويشق طريقه نحو الكنائس التي تقع في مساره تاركًا الحشد خلفه في السوق. في كل كنيسة كان يتلو تراتيل رثاءٍ لروح الإله مستخدمًا كلمات كفرٍ في محاكاة ساخرة لكلمات رثاء الموتى. رغم أن الناس لم يعودوا يؤمنون بالإله، إلا أنهم يشعرون بالإهانة من سلوك المجنون فيطردونه قسرًا من كنائسهم، فيسألهم «ماذا تمثل هذه الكنائس الآن سوى قبور وأضرحة الإله؟»»[1].

في صفحاتٍ لاحقةٍ من نفس الكتاب يتعرّف نيتشه إلى فكرة أخرى سيعمل عليها لاحقًا في فلسفته؛ هذا الذي سيأتي بعد وفاة الإله، سيظل تمثاله معروضًا لقرون في كهف، مُلقيًا ظلًا هائلًا ورهيبًا على جدار الكهف. يقول نيتشه واعظًا؛ الإله ميتٌ نعم، لكن نظرًا لطبيعة البشر وأساليبهم، سيظل

ظل الأخلاق التي منحهم إياها قائمًا لآلاف السنين، ومهمة مغامري الروح الآرغوناتيين(*): «هي قهر ذلك الظل كما قُهر الإله نفسه»(٢).

وضعت كلتا القصتين عبئًا ثقيلًا على عاتق عقلانيي القرن التاسع عشر، مثل ريه، والذين بعد أن قتلوا الإله لم يدركوا نتيجة أنه لا يمكنك الحفاظ على المحتوى الأخلاقي للمسيحية من دون لاهوتها. يجب على المادي العقلاني أن يتعامل أيضًا مع التحول الناتج في القوة الأخلاقية، وهنا تكمن احتمالية العواقب الوخيمة والكارثية على البشرية، فيتنبأ نيتشه في نهاية هذا المقطع ببدءِ وبزوغ المأساة.

كان الحدث الذي يلوح في الأفق في صيف عام ١٨٨٢ هو مهرجان بايرويت. كان العرض الأول لبارسيفال، الأوبرا التي اغتصبت خلالها جوديث غوتييه دور كوزيما بصفتها مصدرًا للإلهام. بصفته عضوًا مؤسسًا في جمعية بايرويت (جمعية الرعاة)، كان لنيتشه الحق في شراء التذاكر، ورغبت لو في الذهاب كثيرًا. أصبحت بايرويت بارناسوس المعاصرة والمكان الرائج لتجمع عظماء ومشاهير أوروبا خلال شهري تموز وآب.

كانت أوبرا بارسيفال إعادة سرد لأسطورة الكأس المقدسة المسيحية، الكأس الذي شرب منه المسيح في العشاء الأخير، حيث تم اختيار الملك أمفورتاس للكشف عن الكأس رغم عدم جدارته لمثل هذه المهمة المقدسة، وكان قد أُصيب بجرح خطير في جنبه بينما كان مشتتًا جنسيًا بتأثير الساحرة كندري. (ذُكر في المسودة الأولى أن أمفورتاس أُصيب بجرحٍ في أعضائه التناسلية ولكن تم تعديلها لاحقًا إلى أسلوب أكثر شبهًا بالمسيحية). نزف

(*) مغامرو الروح الآرغوناتيين: Argonauts؛ مجموعة من أبطال الأساطير اليونانية، عاشوا في السنوات التي سبقت حرب طروادة. سُموا بهذا الاسم نسبةً إلى سفينتهم آرغو، والتي سُميت بدورها تيمنًا باسم صانعها آرغوس. المعنى الحرفي لاسمهم هو «بحارةُ الآرغو». سيستخدم نيتشه هذا الاسم بكثرة دلالةً على الأشخاص الذين يتحلون بروح المغامرة الفكرية لفتح عوالم جديدة، وبهذا سيُعبّدون الطريق الذي كان مليئًا بثغرات الحقائق المزيفة. سنستخدم في بعض الموارد في هذا الكتاب اسم «مغامر الروح» أو «مغامري الروح» دون ذكر الآرغوناتيين، حسبما يقتضيه الأمر. (المترجم)

الجرح بلا توقف، ومَن مِن بين فرسان الكأس مؤهل لحقن هذا الدم المقدس؟ بارسيفال! أحمق صار حكيمًا بتأثير الشفقة المسيحية (حبكة سردية لم يستطع نيتشه، الذي احتقر الحماقة والشفقة معًا، أن يتقبلها). كان نيتشه على دراية مسبقةٍ بالنص الأوبرالي ولم يكن يريد الذهاب إلى بايرويت لسماع الأوبرا.

لنعد بالزمن خمس سنين، حيث يقيم نيتشه مع مالويدا في فيللا روبيناتشي في سورينتو ويقيم فاغنر على مقربة منهم. خلال تلك الفترة، قلقُ فاغنر على صحة نيتشه دفعه لمراسلة طبيبه لاحقًا ليعرف ما إذا كانت ممارسة الاستمناء المفرطة السبب في انتكاساته. لفقت إليزابيث الأسطورة التي تقول إن الخلاف الأخير بينهما حدث خلال وجودهما معًا في سورينتو، لكن ما عدا البرود الذي طغى على خلافاتهما الفكرية لم يكن هناك أي خلاف يُذكر، وبينما ذوى عام ١٨٧٧ مسلّمًا بيرَقهُ إلى العام ١٨٧٨، أرسل نيتشه كتابه المكتمل «إنسانيّ مفرطٌ في إنسانيته» إلى فاغنر الذي أرسل له بالمقابل نص أوبرا بارسيفال المكتمل في الوقت نفسه، فشبّه نيتشه هذا بسيفين يصطدمان في الهواء.

لم يعجب النص الاوبرالي نيتشه لأسباب كثيرة. «النص مكتوبٌ بروح ليزت أكثر من روح فاغنر، روح مكافحة الإصلاح... مسيحي بشكل مبالغ به ومحددٌ زمنيًا... بلا جوهر ويحوي الكثير من الدماء، يبدو النص وكأنه مترجم من لغة أخرى»[٣].

لم يحب فاغنر كتاب نيتشه «إنسانيّ مفرطٌ في إنسانيته»، فبينما ازدادت تقواه زاد تحرر نيتشه من قيود «اولئك الكهنة المتخفين برداء الفلسفة» ولا سيما شوبنهاور، لكن فاغنر ظل شوبنهاوريًا مخلصًا حتى وفاته، وبذلك لم يكن هناك سبيلٌ للمصالحة الفكرية ما بين الاثنين.

خلال الأسابيع السابقة لمهرجان عام ١٨٨٢ الذي كان من المفترض أن تُعرض بارسيفال خلاله، درس نيتشه النوتات الموسيقية للأوبرا ووجدها ساحرة، فساحر بايرويت لم يفقد لمسته. تاق نيتشه لسماع موسيقى الأوبرا

لكن كبرياءه لم يسمح له بالذهاب من دون دعوة شخصية من فاغنر. كان سيوافق على الذهاب فقط في حال دُعي لركوب عربة فاغنر الشخصية لإيصاله الى دار الأوبرا، كما ركبا معًا لحضور مراسيم حفل وضع حجر الأساس لبناء هذه الأوبرا. تأمل وانتظر لكن الدعوة التي طال انتظارها لم تصل على الإطلاق.

في إطار التحضير للمهرجان استطاعت لو في النهاية التخلص من والدتها التي عادت إلى سان بطرسبورغ مع شعور خفيف بالراحة كما قد يتخيل المرء، وقبل مغادرتها أودعت رعاية ابنتها رسميًا إلى والدة ريه. انتقلت السيدة ريه مع لو إلى منزل العائلة الريفي الفاخر في مدينة ستيب، وتبعهما ريه بعد ذلك، ولأنه أراد أن تقضي لو وقتها معه وحده أخبر نيتشه بحزم أن لا مكان له معهم في ذلك البيت الضخم.

في ذلك الوقت كان لو وريه يتبادلان أحاديث طفولية؛ فقد كانت هي «حلزونه الصغير» وهو كان «بيتها الصغير» واحتفظا سويًا بـ«الكتاب العش»، وهو دفتر يومياتٍ مشترك يكتبان فيه يومياتهما في «عشهما» في ستيب. كانت والدة ريه تتحدث عن لو كأنها ابنتها بالتبني، موقفٌ يدعو المرء إلى الصر على أسنانه.

لم يكن نيتشه ليُعطي تذكرتيه لحفل بايرويت إلى لو وريه فيذهبان بدونه، وعوضًا عن ذلك فكر بإعطاء التذكرتين إلى لو وشقيقته إليزابيث، متأملًا أن ترتبط الاثنتان بأخوة روحية يمكن أن تتعمق وتتوطد. واضعًا هذه الخطة نصب عينيه، دعا نيتشه الفتاتين لتنضما إليه بعد المهرجان لقضاء عطلة صغيرة في قرية تاتنبرغ الخلابة بالقرب من دورنبرغ، وريه بالطبع لم يكن مدعوًا.

بينما كان ينتظر تحقيق خطته الرائعة، أرسلت له لو رسائل مغوية من ستيب، ووصفته مادحة إياه وريه بأنهما «نبيا الماضي والمستقبل... فريه استنتج حُكم الآلهة بينما دمرت أنت شفقها». ضمّنت رسالتها إيحاءاتٍ

فكتبت له أن الكتب التي أرسلها لها أمتعتها في السرير أكثر من أي شيءٍ آخر. بدأت رسائله لها تفقد صرامتها وحزمها شيئًا فشيئًا، واعترف أنه عندما يكون لوحده كان يصيح باسمها ليستمتع بوقعه في أذنه.

راسلته لو معلنةً موافقتها على الانضمام له وللإليزابيث في تاتنبرغ فسكب فرحته على الورق:

« تاتنبرغ، ٢ تموز ١٨٨٢

أرى السماء فوقي مشرقة! بالأمس عند الظهر شعرت كما لو كان عيد ميلادي، فقد أرسلتِ إلي تعلمينني بموافقتكِ وهذه أجمل هدية يمكن لأي شخص أن يقدمها لي الآن. أرسلت أختي إلي الكرز وأرسل تويبنر الأوراق الثلاث الأولى مطبوعة من كتاب «العلم المرح»، وإضافة لذلك فقد أكملتُ للتو الجزء الأخير من مسودتي، وبالتالي انتهى عمل ست سنوات (١٨٧٦-١٨٨٢) من «تفكيري الحر»... يا صديقتي العزيزة، عندما أفكر في الأمر أشعر بسعادة غامرة وتأثرٍ ولا أعرف كيف نجحتُ بهذا، فأنا أفيض بالتعاطف مع الذات والشعور بالنصر، لأنه نصر، نصر كامل، حتى صحتي الجسدية قد انتعشت.. يخبرني الجميع أنني أبدو أصغر من أي وقت مضى. لتحفظني السماء من فعل أشياء حمقاء لكن من الآن فصاعدًا! كلما نصحتني بشيءٍ استمع لنُصحكِ ولا داعي لأخاف...

المخلص لكِ كليًا،

ف.ن.»

كان حديثه عن انتعاش صحته أقرب إلى الأمنية منه إلى الحقيقة، وزعمه أن الجميع يظنه أصغر سنًا هو محض تبجحٍ من رجلٍ يبلغ من العمر سبعة وثلاثين ربيعًا لشابةٍ في ربيعها الواحد والعشرين، متفوقًا على ريه في النضال للهيمنة على الثالوث الفلسفي الأيروتيكي.

التقت إليزابيث ولو في لايبزيغ وكل منهن حريصة على ترك انطباعٍ جيد على الأخرى، وعندما وصلتا إلى بايرويت كانتا تتخاطبان مع بعضهما بطريقة

غير رسمية وبلا أي تكلف. حجزت إليزابيث غرفتين في الفندق نفسه، فلم يكن هناك أي مهرب من الحميمية.

كانت هناك حفلات استقبال في وانفريد تتسع لمائتين أو ثلاثمائة شخص كل ليلة وحفلات صغيرة ما بينها. كانت إليزابيث تحب أن تعتبر نفسها صديقةَ كوزيما، لكنها أدركت بألم أن فائدتها المنزلية لم تؤهلها لتسترعِ انتباه كوزيما في هذا الحدث الاجتماعي الجلل، في الواقع لم يهتم أحد هناك بشقيقة نيتشه التي تشيخ شيئًا فشيئًا.

راسلت والدتها متجهمة «لم أقابل أناسًا أعرفهم بعد، لكني قضيتُ وقتًا ممتعًا أثناء العشاء الذي كان مكلفًا للغاية. على سبيل المزاح سنتناول جميعنا طعامًا نباتيًا غدًا»[٤]. على النقيض من ذلك، كان الاهتمام بلو شرسًا، فلو الشابة الجميلة الأرستقراطية المرحة الغنية الأجنبية الواثقة من نفسها والمتحررة، كانت معروفة بأنها واحدة من «الأرواح الحرة المتبحرة» بصحبة مالويدا. كشفت لو بأنها لم تكن مخلصةً وملتزمةً بهذه العقيدة الخطيرة فقط، بل تفكر بأن تعيشها أيضًا. بُهر زائرو بايرويت بكلماتها الصريحة بأنها تنوي قضاء الشتاء القادم من دون أي مرافقة من أحد أفراد عائلتها تدرس وتتفلسف مع ريه ونيتشه. لقد أرت المدعوين صورتها وهي تلوح بالسوط خلف ظهر فيلسوفيها الأليفين، فعجّ المهرجان بالقيل والقال. لكن الفضيحة لم تنته عند هذا الحد، فقد أصبح الموضوع أكثر إثارة عندما عرف الجميع عن مراسلات فاغنر مع طبيب نيتشه، والتي أصبح عمرها خمس سنوات في ذلك الحين. نيتشه المستمني! ربما ذاع صيت هذه الرسائل لأن فاغنر، الرجل المشغول الذي اعتاد على تكليف غيره ممن يثق بهم للقيام بمهامه، استعان بهانز فون ولزوغين، محرر بايرويتر بلاتر، لمساعدته في مراسلة الدكتور إيزر[٥]. لم يكن لدى فون ولزوغين الفاغنري المتطرف والمعادي للسامية وقت لنيتشه الذي كان يعتبره خائنًا للسيد بافتراقه عن أقرانه وتخليه عن المعلم بتخليه عن صرح الفلاسفة (شوبنهاور) والقضية المقدسة (بايرويت)، والذي ربط نفسه بفتاة عديمة المبادئ (لو)، و«إسرائيلي»من جنس مشكوك فيه (ريه). من ناحيته لم يخفِ نيتشه أبدًا أنه يعتبر فون ولزوغين مفكرًا ضحلًا.

لم تكن الأخوة الروحية تتطور بين لو وإليزابيث، فقد كانت لو تلوث اسم عائلتها وأخيها بتلك الصورة السخيفة. كانت لو بذيئة وقحة غازلت كل الرجال الذين قابلتهم، وسبب الحماسة حولها كان بسبب «ثدييها المزيفين» بلا شك. من يدري كم تحيّرت إليزابيث حين تجاهلها أصدقاؤها باشمئزاز أو حرجٍ من الإشاعات حول عادات شقيقها الجنسية. تقول لو التي صالت وجالت في وانفريد أنه عندما ذُكر اسم نيتشه، انفعل فاغنر وغادر الغرفة مطالبًا بعدم ذكر اسمه بحضوره. قد يكون رد فعله هذا ناتجًا من شعوره بالذنب.

مع غرائزها التي لا تُخطئ حول رجل اللحظة، بدأت لو تغازل بحيوية بول فون جوكوفسكي، الفنان المرح البالغ من العمر سبعة وثلاثين عامًا والذي صمم موقع عرض بارسيفال. كان جوكوفسكي مثلها نصف ألماني ونصف روسي ولديهما الكثير من القواسم المشتركة بما في ذلك الاهتمام بالروحانية التي أصبحت أكثر إثارة للاهتمام بفعل قناعة لو بوجود أرواح تتبعها حيثما تذهب وترسل لها رسائل غامضة.

بانَ دورُ فون جوكوفسكي في وانفريد في الصورة السيئة التي رسمها لأطفال فاغنر مُشبهًا إياهم بالعائلة المقدسة في العام الماضي آنذاك. مثّل سيغفريد في اللوحة دور يسوع، ومثلث الفتيات دور مريم والملائكة، والرسام نفسه كان جوزيف. عندما رفض بوكلين طلب فاغنر بتصميم موقع و«زخارف» البارسيفال، وافق فون جوكوفسكي على هذه المهمة، فقد رضي فاغنر بتصاميمه التي تحوي الحرير والساتان وآلاف الزهور وإضاءة وردية والتي حققت نجاحًا هائلًا لدرجة أنها استُخدمت في بايرويت خلال أكثر من مائتي حفل إحياء لهذه الأوبرا، حتى انهارت في عام ١٩٣٤. عرف فون جوكوفسكي سر الرسائل، ولا نعرف إن كان قد أخبر لو أو أنها عرفت بالأمر بطريقة أخرى، ولكن نظرًا للظروف، فإن جهلها بالموضوع أمرٌ غير محتملٍ للغاية.

كان هاينريك فون شتاين، معلم سيغفريد بدل نيتشه، فريسةً من فرائس

لو التي لم تتعب أبدًا في اصطيادها. كان شوبنهاوريًا متحمسًا، اختلف مع لو في البداية حول مسائل الفلسفة، ليتفقا بحرارة بعد ذلك إلى الحد الذي دعاها فيه فون شتاين لزيارته في مدينة هاله.

كان الأسبوع في بايرويت رائعًا بالنسبة للو ومروعًا بالنسبة لإليزابيث، فسكبت غضبها وإحباطها وغيرتها من لو بكتابة روايتها القصيرة الوحيدة(٦) لم يكن عصيًا على الفرد تبين شخصياتها، فقد مثلت شخصية لو فتاة بولندية اسمها فون رامشتاين، بخصرٍ رفيع وصدر عارم يملأه الحشو المزيف، وعينين متألقتين وشعر مجعد وبشرة صفراء وشفتيها المنتفختين البارزتين من فمها الشبيه بشقائق النعمان مفتوحتين طوال الوقت بشكل إيحائي، ورغم كل هذا ينجذب إليها الرجال بشكل خطير، فيقع في شباك قبحها الفائق جورج بطل القصة (الذي يمثل نيتشه بكل وضوح). كونه نبيلًا وبريئًا، صدّق جورج خطب فون رامشتاين اللطيفة عن الحب والفلسفة وحرية الفكر، من دون أن يعلم أن هذه الفتاة المخادعة ألقت الخطب نفسها على مسامع «مدرس قواعد اللغة» (ريه). لحسن الحظ يكتشف جورج الحقيقة في الوقت المناسب ليستقر مع نورا، فتاة طيبة ذات بشرة ساكسونية وشخصية معتدلة ومرحة؛ صورة شخصية ذاتية للمؤلفة نفسها.

لم تكن قصة إليزابيث عملًا أدبيًا رائعًا، ولكن يجب الاعتراف بأن السخط الذي تخلل القصة لم يكن في غير محله تمامًا؛ فطوال الوقت الذي قضته لو في بايرويت كانت تخبر ريه بكل شيء، فاهتاج غضبًا من الغيرة من نيتشه وفون جوكوفسكي. أخبرها أنه ليس لديه أي تردد في التصرف بخبثٍ ضد نيتشه أو أي رجل آخر يريد التقرب منها «سوف تكتشفين أنني أكثر رجل غيور مضحك قابلتِه على الإطلاق»(٧).

لم تكن لو تتأثر بالموسيقى كثيرًا، لكن نيتشه كان حريصًا بشدة على أن تشاركه شغفه، وأصر على أن تحضر العرض الثاني للبارسيفال وأتى إصراره هذا من جانبها، ولكن قبل العرض الثاني لم تعد إليزابيث تتحمل سلوك لو غير المهذب. وكانت القشة التي قصمت ظهر البعير هي عندما أمرت لو فون

جوكوفسكي بالركوع تحت قدميها لتعديل حاشية ثوبها. أرسلت إليزابيث غاضبةً برقية إلى نيتشه قبل أن تغادر إلى تاتنبرغ، فسارع نيتشه لمقابلتها في المحطة على أمل سماع أخبار رائعة عن لو، لكنه لم يسمع سوى التذمر.

كان فون جوكوفسكي وهينريك فون شتاين ضد ذهاب لو إلى تاتنبرغ لقضاء عطلةٍ مع نيتشه وإليزابيث، فحاولا إقناعها بالبقاء في بايرويت وانضمت مالويدا إليهما في إقناعها أيضًا. بما أنها لم تتوقع أي شيء سوى المشكلات من تلك الصحبة الثلاثية، ظلت في بايرويت وأخبرت نيتشه بأنها ترقد في السرير مصابةً بنزلة برد، وردّ عليها متمنيًا شفاءها العاجل. نظرًا لأنه لم يأتِ على ذكر إليزابيث أو أي حدثٍ آخر غير سارٍّ، قررت لو أن تشفى من مرضها المزعوم وأن تكتب له رسالة ساحرةً تعربُ فيها عن امتنانها الخالص لرعاية إليزابيث لها خلال فترة وجودهما معًا في بايرويت. الآن لن يقف شيءٌ في طريق تلمذتها الفلسفية التي دامت ثلاثة أسابيع.

لم يكن أمام إليزابيث خيارٌ آخر سوى الالتزام بالخطة، فإذا انسحبت الآن من دورها كراعية للو، فسوف تسقط آخر ورقةٍ في شجرة السمعة لعائلة نيتشه، تاركة الجذع عاريًا تمامًا. عالقًا في تاتنبرغ، توسل نيتشه بلو ببساطة «تعالي، فأنا أعاني أكثر من اللازم لأني سببت لكِ هذه المعاناة. سنتحملها معًا بشكل أفضل»(٨).

عندما وصلت لو في السادس أو السابع من آب، كانت إليزابيث حاضرةً لمقابلتها. كانت الصدفة أن تشاركت لو عربة القطار الذي أتت به من بايرويت مع برنهارد فورستر، المعلم المدرسي الذي كانت إليزابيث تسعى إليه بشدة وتأمل الزواج منه. إشتدت غيرتها وهي تفكر بمحاولة لو سرقة حبيبها وشقيقها في الوقت نفسه، فحدث بينهما شجارٌ مثير. كيف يمكن للو أن تغازل كل رجل تقابله؟ كيف يمكنها تمريغ اسم نيتشه المحترم في الوحل هكذا؟ أجابت لو وهي «تضحك بشدة»، «من أول من لوث خطط دراستنا بمشاريعه الوضيعة؟ من الذي بدأ معي صداقة فكرية عندما لم يستطع الحصول عليّ بطريقة أخرى؟ من الذي فكر في جعلي محظية؟ أخوكِ

النبيل النقي الذهن! فما يريده الرجال هو شيئًا واحدًا فقط، وهو ليس صداقة فكرية!».

ردت إليزابيث بحزمٍ أن مثل هذه الأشياء قد تكون شائعة بين الروس فقط ولكنها سخيفة عند محاولة ربطها بشقيقها نقي الذهن، وطلبت من لو أن تكف عن هذا الحديث غير اللائق. أخبرتها لو أنها معتادة على التحدث بطريقة غير لائقة أكثر مع ريه، مضيفةً أن نيتشه اقترح أنه إن لم يستطع أن يتزوجها، فمن الأفضل أن يعيشا معًا في «زواج جامح» ولكن إن كانت إليزابيث تظن أن لديها مخططات ماكرة لصالح أخيها فهي مخطئة كثيرًا، فيمكن للو أن تنام طوال الليل في نفس الغرفة معه دون الشعور بأي إثارة. الرعب الذي أصاب إليزابيث بعد سماعها هذه الجملة دفعها إلى التقيؤ، فسارعوا إلى معالجتها بالكمادات[9].

كان نيتشه قد أجرى ترتيباته لتنام المرأتان في منزل الكاهن في توتينبورغ، ثم استأجر غرفة في منزل مزارع قريب لينام فيها. التقى الثلاثة في صباح اليوم التالي لمشاجرة إليزابيث ولو، فواجه نيتشه لو بما أخبرته به إليزابيث عن خيانتها لكنها ببساطة أنكرت كل شيء، فلم يحدث أي مما قالته إليزابيث ولا أساس لاتهاماتها من الصحة. تقول إليزابيث إنه طلب من لو المغادرة لكنها تظاهرت بأنها مريضة وتقاعست في الفراش.

لإثبات تفوقها، قررت إليزابيث رفع روحها المعنوية والذهاب للمشي في الغابة الجميلة حيث ساعدتها «السناجب المحببة والرائعة» على استعادة توازنها. في غضون ذلك، قضى نيتشه وقته في الهرولة صعودًا ونزولًا على نغمات صرير سلم بيت الكاهن الخشبي الذي ظنت لو أن سببه هو الارواح التي تتبعها. لم تسمح له بالدخول إلى غرفتها فكان يمرر الملاحظات أسفل بابها، وفي نهاية المطاف، سُمح له بالدخول لمواساة لو «فتاته المشاغبة» وتقبيل يدها، وسرعان ما تعافت بشكلٍ كافٍ لتنهض من الفراش.

في الأسابيع الثلاثة التالية، تخفّت إليزابيث وعبست وأُعجبت

بالسناجب، واشتكت في مراسلاتها عن تعرضها للسخرية بسبب تضحياتها، وعن استهزاء أخيها بها وعزلها لتحل لو مكانها. أما الاثنان الآخران فذهبا في مسيرات طويلة مبهجة معًا في غابة تاتنبرغ ذات الضوء الخافت، حيث وضع نيتشه نظارته الخضراء المضللة وحمل شمسية واعتمرت هي قبعة ووشاحًا أحمر. عندما كانا يعودان إلى غرفة نيتشه في منزل المزارع، كانت تلف وشاحها حول غطاء المصباح لتخفيف ضوئه حتى يناسب عينيه المسكينتين. كانا يتحدثان حتى منتصف الليل ويتجاوزان هذا الوقت أحيانًا، وقد أغضب ذلك مالك المزرعة لأنه اضطر إلى البقاء مستيقظًا لمرافقتها إلى بيت الكاهن ثم يستيقظ في الفجر لحلب أبقاره.

ذكر كلاهما أحاديثهما التي دامت إحدى المرات لعشر ساعات متواصلة. تزايد اقتناع نيتشه بأنه قد وجد «أناه البديلة» ومن يؤاخي عقله، فقد كان التفاوت الحقيقي الوحيد بينهما هو أسلوبهما في الكتابة؛ لو لا تزال تكتب بطريقة مكثفة تشبه طريقة تلميذة لاهثة، في حين أن أسلوب نيتشه النثري يجمع بين الدقة والإيجاز والحيوية المفاجئة. عن جدارة وأهلية، كان يعتقد أنه أحد أعظم مصممي اللغة الألمانية الثلاثة، والآخران هما لوثر وغوته.

وضع لها دليلًا لتحسين أسلوبها في الكتابة؛ يجب أن يكون الأسلوب حيويًا، يجب أن تعرفي ما تودين قوله قبل أن تبدأي الكتابة؛ وازني بين أسلوبكِ ومستوى المتلقي، الجمل الطويلة هي حذلقة، ويحق فقط للأشخاص الذين لديهم نفس طويل أن يكتبوا جملًا طويلة.

أخيرًا، «ليس من حسن الخلق أو الذكاء حرمان القارئ من الاعتراضات الجلية، بل من الذكاء وحسن التصرف ترك الامر للقارئ ليكشف عن الجوهر الأعمق لحكمتنا»[١٠].

ما استنتجته لو من محادثاتهما خلال الأسابيع الثلاثة التي قضياها في تاتنبرغ هي أنهما في الأساس لم يتحدثا إلا عن الرب، وخلصت إلى أن نيتشه كان متدينًا كثيرًا بالنسبة لشخصٍ بلا إله، وكان الألم الذي يعانيه بسبب هذا

الأمر هو المحرك والدافع لفلسفته، فتنميته الفكرية كلها مستمدة من فقدانه للإيمان ومن عواطفه التي شهدت موت الإله، وأصبح مهووسًا باحتمالية العثور على بديل لهذا الإله.

تحدث عن الداروينية وأوضح أنه في الأوقات السابقة عزا المرء إحساس العظمة في الإنسان إلى أصوله الإلهية، لكن هذا المسار مُغلقٌ الان «لأن قردًا يقف عند مدخله، وسط حيوانات مرعبة أخرى، يصرُّ أسنانه كما لو كان يقول: «لا يمكن التقدم أكثر في هذا الاتجاه»!». وهكذا ذهب الإنسان بلا كلل في مسارات واتجاهات معاكسة ليثبت عظمته من خلالها[١١]. فالمرء يقدّر عظمة الإنسان على أساس إقصاء الحيوانية، فالهدف كان التفكير في أنه لم يعد حيوانًا أو أن يكون حيوانًا متفوقًا على الأقل، كائنًا جدليًا وعاقلًا[١٢].

كان من الممكن أن يُفسد المذهبُ العقلاني المسيطر للمرء قدرته على السعادة وكان من الممكن أن يهلك الجنس البشري جرّاء هذا الشغف بالمعرفة، لكن من ذا الذي لا يفضل سقوط البشرية على انحدار المعرفة؟[١٣].

أوضح لها أنه يرغب في دراسة، وربما تجاهل، مغالطة المركزية البشرية، وأنه يجب عدم النظر إلى الظواهر الطبيعية من منظور إنساني ضيق قصير النظر. تحقيقًا لهذه الغاية، قرر أنه سيستغرق عددًا من السنوات -ربما عشر سنوات- لدراسة العلوم الطبيعية في الجامعة إما في فيينا أو باريس، ومنذ ذلك الوقت فصاعدًا ستعتمد استنتاجاته الفلسفية على الملاحظة والاختبار التجريبي.

كما تحدَّثا عن العود الأبدي، فأخبرها أنه يريد أن يتعلم كيف يرى ما هو ضروري في الأشياء على أنه جميل، «هكذا سأكون واحدًا من أولئك الذين يجعلون الأشياء جميلة، [Amor fati] «أحب مصيرك»، فليكن هذا حبي من الآن فصاعدًا! لا أريد شن حرب ضد القبح، ولا أريد توجيه أصابع اتهام، ولا أريد حتى اتهام المتهم. ليكن النظر بعيدًا هو تعبيري الوحيد عن الرفض! وبشكل عام، أود في يومٍ ما أن لا أجيب بأي شيء آخر سوى القبول!»[١٤].

أن تحب مصيرك وتتقبله وتعتنقه هو أن تحب وتعتنق مبدأ العود الأبدي. لم يكن هذا، حسبما أصر بشقاوة، حثٌ لاعتناق الاستسلام التنجيمي الخرافي أو الإيمان بالقضاء والقدر الشرقي، لكن إذا كان المرء قد عرف نفسه وأصبح هو نفسه، فيجب حينها اعتناق المصير. إن كان للمرء شخصية، فله أيضًا تجربة نموذجية تتكرر، وإن كانت الحياة عبارة عن خط طويل يمتد من الماضي إلى المستقبل ولم يكن المرء سوى نقطة على هذا الخط، فهو في موقعه هذا بناءً على مسؤوليته، وبهذا يكون واجب الروح الواعية مرتبطًا بقول نعم لهذه اللحظة، وأن تستعد هذه الروح لتكون سعيدة لأن هذه اللحظة قد تتكرر مرارًا وتكرارًا في العجلة الزمنية.

يجب أن يكون المرء سريعًا ويجب أن يرقص، فالحياة ليست بسهلة. إن تجرأ المرء يومًا على تشييد بناء يحاكي طبيعة الروح، فسيتعيّن عليه أن يتخذ المتاهة نموذجًا. ليلد المرء نجمًا راقصًا، يجب عليه أولًا أن يمتلك فوضى داخله. الاختلاف وتغيير الرأي والحث على التساؤل، كل هذه واجبات، فالرأي الثابت هو رأي ميت، والقرار الثابت هو قرارٌ ميت لا يساوي حشرة ولا علاج له سوى السحق بالأقدام والتدمير الكامل.

تعتبر ملاحظات لو في تلك الأسابيع الثلاثة قيّمة حتى وإن كُتبت بعد اثني عشر عامًا من الإدراك المتأخر، فَلِمَ يُمضي أي شخص آخر ثلاثة أسابيع يتشرّب من فلسفة نيتشه؟

بعد ثلاثة أسابيع، لم تُطق لو صبرًا على استيعاب كل هذا الضغط، وفي السادس والعشرين من آب رافقها نيتشه إلى المحطة وقبل مغادرته قدمت له قصيدة «صلاة للحياة» (Gebet an das Leben). دمجها في موسيقى آملًا أن يكون هذا طريقًا صغيرًا يمكن من خلاله أن يصلا إلى الأجيال القادمة معًا، وإبقاء المسارات الأخرى مفتوحة أيضًا.

مدفوعًا بالحماسة أكثر من التفكير بمنطقية، كلف نيتشه لويز أوت، المرأة التي كان قد وقع في حبها خلال مهرجان بايرويت الأول، لتجد سكنًا للثلاثي

في باريس، مُتخيلًا وجودهم في باريس مجتمعين حول البيانو يستمعون إلى صوت لويز العذب وهي تغني «صلاة للحياة» مُدمجة مع موسيقاه الخاصة.

غادرت لو من تاوتنبورغ مباشرة إلى ريه وعشهما في ستيب. كانت طوال هذه الوقت تبقيه على اطلاعٍ وتغذي برسائلها «كتاب العش». كان اكتشافها الأخير هو أنها أطلت علىٍ هاوية نيتشه الذاتية، حيث وجدت التصوف الديني المسيحي الذي أعاد تسميته باسم الديونيسيوسية وقناع الشهوة الجسدية. «تمامًا كما يحقق التصوف المسيحي، مثل كل أنواع التصوف، الشهوانية الدينية الخالصة في أعلى درجات النشوة، فإن الشكل الأكثر مثالية للحب يعود دائمًا إلى الشهوانية». تساءلت عما إذا كان هذا نوعًا من انتقام الطبيعة الحيوانية للإنسان من الطبيعية الروحية، وما إذا كان هذا هو ما يجرها بعيدًا عن نيتشه ونحو ريه، الذي لا يشكل لها أي تهديدٍ جنسي.

في يوم الأحد الذي أعقب مغادرة لو، استقل نيتشه قطارًا إلى منزل والدته في ناومبورغ. رفضت إليزابيث مرافقته قائلةً إن عينيها متورمتان من الدموع لدرجة أنها لم تستطع أن تقابل والدتها وهي في هذا الشكل فتقلقها.

في بيت والدته، تقمص فورًا دور الابن المتفاني وكان كل شيء هادئًا حتى وصلت رسالة من إليزابيث تقص على أمها كل شي. اشتعل بينهما شجارٌ كبير اتهمته خلاله فرانشيسكا بأنه كاذب وجبان وبأنه عارٌ على اسم والده وقد أخزاه في قبره. تضمنت كلماتها الرعب الأول للعنة الأم، ولن ينساها أبدًا.

هرب على إثر هذه المشاجرة إلى لايبزيغ، مفكرًا بمرارة أنه ما زال يعاني من ما يسمى «القيود العائلية السقيمة»: وهو ارتباطٌ عاطفي يجرّك إلى الأسفل عندما تكون في طريقك لتحقق ذاتك.

«أولًا، يواجه المرء معضلة تحرير نفسه من القيود؛ وفي النهاية عليه أن يُعتق نفسه من هذا التحرير أيضًا! فكلٌّ منا يعاني من مرض القيود هذا حتى بعد كسر القيد، على الرغم من اختلاف هذه المعاناة»[١٥].

للترحيب بلو وريه في لايبزيغ، نظّم جلسة للاتصال بالأرواح وكان كلاهما يتأثر بمثل هذه الأمور. بعد العرض، خطط لإبهارهما بدحض مؤثرٍ لكل هذا الهراء الروحي، لكن الوسيطة الروحية كانت غير كفوءة فلم يكن لديه شيءٌ ما ليثير حججه التي تدرب عليها جيدًا ضده.

قضى الثلاثي الاسابيع المقبلة بفتور، حضروا بعض الحفلات الموسيقية لكنهم قضوا معظم أوقاتهم جالسين مع بعضهم يؤلفون الشذرات الذكية. واصل نيتشه تصحيح نثر لو وصقله، لكنها لم ولن تكف أبدًا عن ميلها نحو الإفراط المبهم والمبالغة في البهرجة. أصبح يخاطبها من خلال الهوامش التي يكتبها على حواشي أوراقها بجرأة باسم التدليل «Märchen» مارشن، وهو ما يعني «حكاية خرافية» وأيضًا «مؤلفة الخرافات».

كتب الثلاثة شذراتٍ لوصف بعضهم بعضًا. تقول الشذرة التي تصف لو «المرأة لا تموت من الحب، لكنها تذوي بحثًا عنه»، وقد وُصف ريه بشذرة «أعظم ألم هو كره الذات»، أما بالنسبة لنيتشه فوُصف «ضعف نيتشه: إفراطه في الدقة»، أما الثلاثي نفسه فقد وُصف «يمكن التفريق بين صديقين بسهولة بوجود صديق ثالث»[١٦].

كان شوبنهاور قد تحدث عن جمهورية من العباقرة تشكل ما يشبه الجسر فوق التيار المضطرب للصيرورة، لكن لم يستطع أحدٌ منهم العبور على ذلك الجسر. لم يتصرف أحد منهم بصدق أو يتحدث بصراحة، فـ«صيرورة» كل منهم ارتطمت بصخور الاثنين الآخرين وغرقت في تظاهر وزيفٍ عميقين، فالثالوث المقدس تحول إلى مثلث مُدنس، لم يكن في أيٍ من أطرافه روحًا حرة.

في وقت سابق من ذلك العام، كان نيتشه قد أعلن مبتهجًا لأوفربيك أنه سيخوض أكثر في هذا العالم ويعاشر الناس بشكل أكبر، لكن ما اتضح بعد حين أنه حتى وحدة إنسانية صغيرة ومثالية مثل ثالوث الأرواح الحرة المزعوم لم يجدِ نفعًا إلا في أسر المشاركين فيه بقيود جديدة من المشاعر والاستياء والالتزام، فكل ارتباطٍ يستحضرُ معه قيدًا مرضيًا جديدًا.

في الخامس من شهر تشرين الثاني، اختفى لو وريه ببساطة فلم يكن لدى نيتشه أي فكرة عما حدث لهما أو سبب تركهما له. كان يحوم حول صندوق البريد، غير متأكدٍ من مصيره الحالي، ولكن لم تصله أي رسائل. بعد عشرة أيام غادر لايبزيغ نحو بازل حيث وعد بحضور عيد ميلاد صديقه الطبيب فرانز أوفربيك الخامس والاربعين، وهناك أيضًا أصبح صندوق البريد مركز عالمه؛ هل وصلت أي رسائل؟ ظل يسأل إيدا أوفربيك، أيمكن أن تكون قد غيرت المكان الذي تضع فيه الرسائل؟ هل فُقدت أي رسالة؟ هل تخفي إيدا عنه أي شيء؟ عندما حان وقت مغادرته، صُعقت إيدا بالأسى الذي حملته كلماته الوداعية «بذلك سألجأ إلى العزلة المطلقة».

بعد بضعة أسابيع أرسل ريه المخادع إلى نيتشه بطاقة بريدية منافية للمنطق يلومه فيها على تخليه عنهما. متسامحٌ وصفوحٌ كما هو طبعه، ردّ نيتشه برسالة عفوٍ للو؛ «الروح العليا» التي تتعدى تصرفاتها دومًا اللوم والتوبيخ، وتمنى أن تواصل مهمتها المتمثلة في «تنظيف السماوات»، رغم أن سلوكها دفعه إلى الشكّ بسمو مهمته التي بذل حياته لتأديتها.

بين شهري تشرين الثاني وشباط قضى نيتشه قدرًا هائلًا من الوقت في كتابة رسائل لها، فأرسل بعضها وأهمل بعضها الآخر. خطت رسائله على اختلافها مشاعر الحب والكره والتحقير والاتهام والعفو والتوبيخ والإهانة، مُتهمًا لو بأنها تمتلك «شبق الاستمتاع كما القطط» وتكتب رسائل انتقامية بأسلوب تلميذة، وهي أيضًا مسخٌ وعقل وبقايا روح فقط لا غير. بالنظر إلى طاقتها وإرادتها وأصالتها الذهنية، لا يسع المرء إلا أن يفكر بعظمة المصير الذي ينتظرها، لكن بالنظر إلى أخلاقها، يجزم المرء أن مصيرها سيكون السجن أو مستشفى المجانين.

لم ير نيتشه أيًا منهما مرة أخرى، ولم يسافرا إلى باريس كما كان يعتقد، فقد اختبآ منه لبضعة أيام في لايبزيغ قبل أن يتوجها إلى برلين، وهناك أقاما في شقةٍ تشبه بالضبط ما تخيلته لو مكانًا لإقامة الثالوث المقدس؛ غرفتا نومٍ يفصلهُما صالون. تقليدًا لما فعلته مالويدا، أنشأت لو صالونًا أدبيًا لم يتميز عن غيره في

شيءٍ سوى عزفه على التوتر الجنسي. استمر ريه في محاربة إدمانه على المقامرة والشجارات مع شبان الشوارع بعد منتصف الليل. كانت لو تُخاطَب بلفظة «صاحبة السعادة» وريه باسم «وصيف الشرف».

أحضرت لو نسختها من كتاب «إنسانيٌ مفرط في إنسانيته» التي كانت هدية من نيتشه معها إلى برلين، خط فيه نيتشه قصيدة:

عزيزي- قال كولومبوس-
لا تثق أبدًا بجنوي آخر!
يحدق عبر المياه المالحة حتى أبد الدهر
عبر البحور الزرقاء العميقة القصية
يغويه أحباؤه من بعيد
عبر اتساع المسافة والوقت
فوقنا يضيء نجمٌ قرب نجم
ويطوقنا هدير الأبدية.

(١٣) تلميذة الفيلسوف:

١. العلم المرح، الكتاب الثالث، ١٢٥ - المجنون.

٢. المصدر السابق، الكتاب الثالث، ١٠٨ -معارك جديدة.

٣. نيتشه إلى راينهارت فون سيدليتس في ٤ كانون الثاني ١٨٧٨.

٤. إليزابيث نيتشه إلى فرانشيسكا نيتشه في ٢٦ تموز عام ١٨٨٢.

٥. كشف عن القصة لأول مرة مارتن غريغور-ديلن، حيث رواها في كتابه «ريتشارد فاغنر، حياته وعمله وقرنه»، ص١٠٤٥-٧.

٦. رواية قصيرة لإليزابيث نيتشه بعنوان «نميمة عن نورا في حفلة قهوة» على الأرجح عام ١٨٨٢. يمكن قراءتها بالكامل باللغة الإنجليزية في كتاب ديثي «شقيقة نيتشه وإرادة القوة»، ص ٩٣-١٦١.

٧. من كتاب جوليا فايكرز بعنوان «لو فون سالومي»، ص ٤٨.

٨. نيتشه إلى لو سالومي، ٤ آب ١٨٨٢.

٩. عرفنا ما قالته إليزابيث عن هذه المشاجرة من مذكراتها لأخيها ومن رسائلها التي كُتبت في الفترة بين ٢٤ أيلول و٢ تشرين الأول ١٨٨٢، ولا سيما إلى كلارا غيلزر. أما لو، باتباعها مبدأها الصحيح المتمثل في تجاهل الحوادث المزعجة، فلا تشير إلى هذا الخلاف مع إليزابيث في مذكراتها أو في كتابها عن نيتشه، وكما التزمت الصمت الذكي حول مسألة ما إذا كان نيتشه قد قبلها على مونت ساكرو أم لا،، فقد اختارت السكوت مرة أخرى.

١٠. لو أندرياس-سالومي في كتابها بعنوان «نيتشه»، ص ٧٧-٨.

١١. المصدر السابق، ص ٧١.

١٢. المصدر السابق، ص ٧٠.

١٣. المصدر السابق، ص ٧١.

١٤. العلم المرح، الكتاب الرابع، «القديس ياناريوس»، الجزء ٢٧٦.

١٥. نيتشه إلى لو سالومي في نهاية آب ١٨٨٢.

١٦. رودولف بينيون، «الآنسه لو: تلميذة نيتشه صعبة المراس»، مطبعة جامعة برينستون، ١٩٦٨، ص ٩١.

١٧. Freundin – sprach Kolumbus – traue

١٨. Keinem Genuesen mehr!

١٩. Immer starrt er in das Blaue

٢٠. Fernstes zieht ihn allzusehr!

٢١. Wen er liebt den lockt er gerne

٢٢. Weit hinaus in Raum und Zeit –

٢٣. Über uns glänzt Stern bei Sterne

٢٤. Um uns braust die Ewigkeit.

٢٥. ترجمة كورتيس كايت.

١٤

لقد مات أبي فاغنر وُولد ابني زرادشت

ما الذي كان بإمكاننا أن نخلق لو كان هناك آلهة؟

هذا هو الإنسان، «هكذا تكلّم زرادشت»

في تشرين الثاني ١٨٨٢، غادر نيتشه بازل متوجهًا إلى جنوة، مسقط رأس كولومبوس الذي عبر المحيطات المجهولة لاكتشاف عالم جديد. أحد أسباب جاذبية كولومبوس أنه لم تكن لديه فكرة ما إذا كان سيجد يابسة أم لا، كما حال نيتشه الذي تحدّث كثيرًا عن السفر إلى الهند مثل سابقيه من الإكسندر وديونيسيوس. نظرًا لدوار البحر المزمن الذي يعاني منه، فمن الواضح أنه كان يتحدث مجازيًا عن رحلة إلى المناطق المجهولة في أعماق الإنسان.

كان وضعه الصحي العام سيئًا للغاية خلال شتاء ١٨٨٢- ١٨٨٣، وحتى جرعات الأفيون الكبيرة التي تعاطاها لم تساعده في محاولاته العقيمة لاستحضار النوم المتهرب ولكبت الآلام العاطفية المتعلقة بلو سالومي لما وصفه بسكرات الموت الموجعة الأخيرة. في منتصف كانون الأول، كتب

خطابًا إلى لو وريه سويًا، يخبرهما فيه أنه قد تعاطى جرعات كبيرة من الأفيون و«... حتى لو توجب علي أن أنتزع حياتي يومًا ما بسبب عاطفة صغيرة أو غيرها، فلن يكون لدي الكثير لأحزن عليه...»[1]. وهناك رسائل أخرى يذكر فيها جرعات الأفيون المفرطة والانتحار أرسلها إلى أوفربيك وبيتر غاست؛ «إن فوهة المسدس بالنسبة لي في هذه اللحظة مصدر أفكار ممتعة نسبيًا»[2]، وتلميحات أخرى مشابهة. كان أصدقاؤه القدامى يعلمون منذ فترة طويلة أن الانتحار احتمالٌ مطروحٌ دائمًا بالنسبة له، كما يعلمون جيدًا أن لا شيء بإمكانه التأثير على قرار نيتشه إذا ما اتخذه.

عند وصوله إلى جنوة، اكتشف كولومبوس الجديد (نيتشه) أن المنزل الذي أحبه مكتظ بالنزلاء، ولذلك انتقل إلى الساحل ليقيم في فندقٍ صغير جدًا ورخيص في راباللو. لم يكن استبدال المكانات ذا تأثيرٍ خطيرٍ على خياله الإبداعي إطلاقًا، فبحارٌ مغامرٌ مثله باستطاعته أن يكون كولومبوس مرتحلًا إلى أمريكا، أو ديونيسيوس أو إلكسندر مرتحلًا إلى الهند من راباللو التي مثلت في مخيلته جنوة واليونان القديمة معًا.

«تخيَّل إحدى الجزر في الأرخبيل اليوناني، متلفعة بالغابات والهضبات، لسبب ما سبحت يومًا ما قريبًا من البر الرئيسي ولم تعد قادرة على السباحة للعودة مرة أخرى إلى مكانها. على يساري يمتد خليج جنوة إلى المنارة. من المؤكد أن طابعًا يونانيًا يلف هذه الجزيرة... شيئًا متعلقًا بالقراصنة وعنصر المفاجأة والمغامرة... لم أختبر أبدًا لوقت طويل عزلة روبنسون كروزو(*) الحقيقية ولا شعوره بالهجران»[3] كان الفندق نظيفًا ولكن طعم الطبيخ كان شنيعًا، وإلى ذلك الوقت لم تُقدم له أي قطعة لحم لائقة.

كان قد أمضى شهرين في راباللو عندما بعثت له والدته رسالة عيد الميلاد، كانت رسالتها تتسم بطابع الفضيلة المبالغ بها، الأمر الذي شجعه للرد على

(*) روبنسون كروزو: بطل رواية للمؤلف الإنجليزي دانيال ديفو، نشرت للمرة الأولى سنة ١٧١٩، تعد على الأغلب أولى الروايات في الأدب الأنجليزي. تحكي قصة رجلٍ انعزل في جزيرة لمدة طويلة. (المترجم)

رسالتها بأنه سيرجع لها أي رسالة تصل منها في المستقبل دون فتحها. لقد حان وقت التحرر من القيود السقيمة؛ ومن ضمنها إليزابيث. أصدر أوامره إلى أصدقائه بضرورة عدم إعلام عائلته بعنوانه الجديد. «لا أستطيع احتمالهن لمدة أطول. أتمنى لو أنني قد انفصلت عنهن في وقت أبكر!».

كان وحيدًا في عيد الميلاد، وربما كان اليوم الرمزي للولادة والبعث قد ساهم في تنشيطه، فقد كتب رسالته الاستشرافية الأولى والتي عنونها إلى أوفربيك، يعترف فيها «إن افتقاري للثقة أصبح الآن مهولًا... سأضيع ما لم أكتشف الخدعة الخيميائية المتمثلة بتحويل القذارة إلى ذهب. لدي هنا فرصة رائعة لإثبات أن «كل التجارب مفيدة لي، وكل الأيام مقدسة وكل الناس ربانيون»!!!»[٤].

إن الطريقة الوحيدة لتحقيق الخدعة الخيميائية يمكن أن تتأتى على يد البحار المغامر المنعزل (نيتشه) الذي كان مستعدًا للفناء أمام اللانهاية. «للعزلة سبع طبقات جلدية؛ لا شيء بإمكانه أن يتخللها بعد الآن...»[٥]، تمخضت هذه العزلة عن كتاب «**هكذا تكلّم زرادشت**» الذي كان بمثابة رحلة أوديسية روحية وجدانية شعرية نبوية تخوض في بحار العالم الأخلاقي الحديث. لا يختلف هكذا تكلّم زرادشت عن رحلات غوليفر أو رحلات السندباد البحرية أو أوديسيوس، فالكتاب عبارة عن حكاية رمزية مطولة تُعنى بالتفكير بقضايا العصر. ينزل النبي الفارسي القديم زرادشت من الجبل بعد موت مفهوم الإله لكي يُذكّر الناس بأنه لو استطاع الجنس البشري الارتفاع إلى مقام الإله، فربما ستوجد أخلاق في عالم ما بعد الربوبية ما دام هناك صدقٌ واستقامةٌ وشجاعةٌ لحك وتنظيف جدران الكهف التي ما زالت تحمل الكتابة الشبحية للمعتقدات الخارقة للطبيعة.

لم يسجل «**هكذا تكلّم زرادشت**» الظهور الأول للنبي الفارسي في كتابات نيتشه المنشورة. فكتابه السابق، «**العلم المرح**»، انتهى بشذرة طويلة عنونها «تبدأ المأساة Incipit tragoedia»[٦] والتي قدم فيها، بطريقة مذهلة، شخصية تُدعى زرادشت، لم يُذكر اسمه سابقًا في الكتاب مطلقًا. هكذا يبدأ

الفصل الأخير من «**العلم المرح**» «عندما بلغ زرادشت الثلاثين من عمره، غادر وطنه وبحيرة أورمي ومضى إلى باطن الجبال». هل كانت هناك بحيرة تُدعى أورمي؟ أية جبال كانت تلك التي تحدث عنها؟ ومن كان زرادشت؟

يستمر المقطع في «**العلم المرح**» «هناك، تمتع بروحه وبوحدته، ولم يضجر من فعل ذلك على مدار عشر سنوات. لكن قلبه في النهاية تغير، وفي صبيحة أحد الأيام نهض مع إشراقة الفجر، ووثب امام الشمس وتكلم معها هكذا:

«أيها الجرم السماوي العظيم! أيّة سعادات هذه التي ستنالُها إن لم تحظَ بهؤلاء الذين على عالمهم تُشرق! طوال عشر سنوات صعدتَ أعلى كهفي، بدوني وبدون نسري وأفعاي، لكنتَ سئمتَ ضياءكَ وسبيلكَ الذي تسلكه في كل مرة؛ لكننا في انتظاركَ كل صباح، نخفف عنكَ وفرتكَ المفرطة ونباركَكَ على هذه النعمة. أبصر، فقد سئمتُ حكمتي، مثل نحلة جمعت من العسل ما يزيد على حاجتها؛ أرغب بأيادٍ ممدودة؛ أود أن أمنح هذه الحكمة وأوزعها حتى ينعم الحكماء بين الناس بحماقاتهم مرة أخرى والفقراء بغناهم مرة أخرى. وعليه، لزم أن انحدر إلى الأعماق، كما تفعلُ مساءً عندما تذهبُ خلف البحر جالبًا النور حتى للعالم السفلي، يا جُرمًا سماويًا وافر الثراء! مِثلُكَ، عليّ الغروب، كما يسميه البشر الذين أريد أن أنحدر اليهم».

يظهر هذا «الغروب» ليشير إلى «غروب» نيتشه شخصيًا في وقت كتابة «**العلم المرح**»، عندما انحدر مبتهجًا من أعالي وحدته ليشارك وفرة أفكاره الفائضة مع لو، ومن خلالها سيوزع حكمته «العسل». عندما كان في طور كتابة هذا الكتاب، كان لا يزال يعتقد أنه وجد فيها تابعه الأول.

يستمر المقطع من «**العلم المرح**» «باركيني إذًا، أيتها العين المطمئنة التي يمكنها أن تنظر من دون أن تحسد البهجة الكبيرة المفرطة! وباركي الكأس الذي يرغب في أن يفيض لكي يتدفق ماء ذهبيًا منه وينقل إلى كل مكان انعكاس نعمتكِ! ابصري، إن الكأس يريد أن يصبح فارغًا من جديد، ويريد زرادشت أن يصبح إنسانًا مرة أخرى. وهكذا بدأ زرادشت بالانحدار».

هنا ينتهي كتاب العلم المرح كما نُشر عام ١٨٨٢.

يتضمن الكتاب النهائي الذي نعرفه اليوم على تنقيحاته التي وضعها ١٨٨٧ والتي تتضمن مقدمة، وفصلًا خامسًا يحتوي على ثلاثين شذرة وبضع قصائد. في عام ١٨٨٣، وعندما كتب الجزء الأول من «**هكذا تكلّم زرادشت**»، يستكمل الكتاب من النقطة التي انتهى عندها «**العلم المرح**» المنشور عام ١٨٨٢. بين إنجاز الكتابين كان قد خسر لو سالومي التي رأى فيها تابعه المختار، ولعدم وجود بديل أفضل، أخذ زرادشت على عاتقه مسؤولية الحفاظ على إرث نيتشه الهائل بعد أن فشلت لو سالومي في هذه المهمة. في بعض الأحيان، خارج الكتاب، أشار نيتشه إلى زرادشت باعتباره ابنًا له.

لماذا اختار نيتشه زرادشت؟ فزرادشت، ويُسمى أيضًا زوروستر، كان نبيًا فارسيًا عاش على الأرجح في وقتٍ ما بين القرنين الثاني عشر والسادس قبل الميلاد. يخبر كتاب زرادشت المقدس، زند أفيستا(٧)، إن الآلهة التي عبدها الفرس كانت شريرة. هكذا قدم زرادشت مفتاحًا لإشكالية الشر التي لم تتمكن الأديان السماوية اليهودية والمسيحية والإسلام من الاجابة عليها، فجميع أرباب هذه الأديان قديرة وخَيّرة. في الزرادشتية، يسمى إله النور والخير أهورا مازدا (ويعرف أيضًا بِأورموزد) الذي كان في صراع مستمر مع إله الظلام والشر آنغرا ماينيو (أهريمان) وشياطينه. في نهاية الزمان، سيحرز أهورا مازدا نصرًا نهائيًا، ولكن حتى ذلك الحين لن يتحكم بمجرى الحوادث. وبناء على هذا الأساس، فإن الزرادشتية، على عكس الديانات الكتابية الثلاث الكبرى، تفلت من مفارقة الإله القدير الخَيّر المسؤول عن ما يعتبره الكثير من الناس شرًا غير ضروري(٨).

قد تمثلُ عزلة زرادشت ذات السنوات العشر في الجبال بين سن الثلاثين والأربعين، مرحلة ما بعد بازل بالنسبة لنيتشه، العقد الذي قضاه في التفكير المستقل على قمم الجبال العالية. كان زرادشت في الأربعين من عمره، نفس عمر نيتشه، عندما انحدر من الجبل «ليكون بين الناس». يحمل شعلته هابطًا

كما حمل برومثيوس شعلة النار التي تحولت فيما بعد إلى ثقافات وحضارات، وكما حملت الروح القدس ألسنة النار في عيد العنصرة. تُمنح هذه الشعلة للمختارين (الأفراد المتنورين الذي وهبوا المقدرة على «التحدث بألسنة عدة» أي، بكلمات مفهومة عالميًا). إنها نارٌ مرادفة للحكمة والوحي. تحظى نارُ زرادشت بقدرةٍ محددة وهي سَفعُ معنى الحياة باللهب بعد موت الإله لتكون خاوية من المعنى. بفاهِهِ وحدِهِ (من خلال نيتشه) سيكون زرادشت أول من يعالج عدمية وقنوط وانحدار الحياة الاخلاقية التي كانت قد بلغت أوج أزمتها في سياق النزعة المادية للقرن التاسع عشر.

يعظ زرادشت: لقد أُفلتْ كل الأرباب. والآن، ما نريده هو أن يحيا الإنسان الأعلى، سألقنكم من هو الإنسان الأعلى و«الإنسانُ شيءٌ يجب تجاوزه»[٩].

ما هو الإنسان؟ كائن هجين بين نباتٍ وشبح، وما هو الإنسان الأعلى؟ إنه معنى الأرض الذي سيبقى مخلصًا لها، ولا يؤمنُ بأولئك الذين يقدمون آمالًا غير دنيوية: أنهم يزدرون الحياة، أولئك الذين يموتون موبوئين بسمومهم.

يعرف الإنسان الأعلى أن كل ما يبدو وحشيًا وعشوائيًا وكارثيًا ليس عقابًا مُنزلًا من عنكبوت عاقل سرمدي يقبع في الأعلى لعقاب المذنب، فليس هناك وجود لعنكبوت عاقل سرمدي أو لشبكة هذا العنكبوت العاقل السرمدي، وبدلًا من ذلك، فإن الحياة أرضية تتراقص عليها الحوادث السماوية[١٠]. يجب أن يُعثر على المعنى من خلال الإجابة بـ«نعم» للحوادث السماوية على أرضية الرقص.

يعظ زرادشت القرويين قائلًا إن الإنسان جسرٌ، وليس غاية، وهذا هو مجد الإنسان. إن الإنسان كائنٌ بين الحيوان والإنسان الأعلى، حبل معقود فوق هاوية.

بعد سماع الموعظة، برز التابع الأول لزرادشت من بين الحشد ليحاول

عبور الهاوية بالمشي على حبل البهلوان. قفز المهرج وأسقط الماشي على حبل البهلوان أرضًا ومات، فيحمل زرادشت جثمان تابعه الأول، الماشي على حبل البهلوان، لدفنه. هزأ الجمهور المحتشد منه، وبرغم ذلك، عزم على أن يريهم جسر قوس قزح الذي يمتد -ليس إلى الفالهالا موطن الآلهة، حيث يقود جسر فاغنر- بل إلى الحالة الذي يغدو فيها الإنسان إنسانًا أعلى.

هذا ما فعله من خلال إلقاء عظاته على مسامعهم (ثماني عشرة عظة، بينما القى المسيح ثماني عظات). لم تكن وصايا بل كانت عظات صوفية باطنية. العظة الأولى: «أُحب أولئك الذين لا يعرفون كيف يعيشون إلا عبر أفولهم، أولئك الذي يعبرون من جهة إلى أخرى». أما العظة الأخيرة: «أُحب أولئك الذين يتساقطون فرادى مثل قطرات المطر الثقيلة من السحابة القاتمة التي تتدلى فوق البشرية: يتنبأون بالبرق القادم، وكالرُسل يهلكون»[١١].

تنتصب الشمس عالية في منتصف النهار بينما يستمتع زرادشت بوقته برفقة حيواناته. كان نسره «أكثر الحيوانات فخرًا تحت الشمس»، بينما تلتف الأفعى مثل خاتم حول عنق النسر، فالثعبان «أكثر الحيوانات حكمة». غالبًا ما استخدم نيتشه النسر ليمثله شخصيًا بينما تمثل الأفعى لو سالومي (فالأفعى أنثى وقد استخدم نيتشه نفس الكلمة klügste للاشارة إلى حكمة لو وحكمة الأفعى). يحمل كِلا الحيوانين أهمية متزايدة بالنسبة لنيتشه، ويذكران بالعديد من الرموز، من ضمنها نذر الشؤم التي بشرت بسقوط طروادة (وهو سقوط قد يمثل سقوط أي عقيدة أو حضارة) عندما لعن أبولو كاسندرا متجسدًا بهيئة أفعى، كاسندرا التي كانت - مثل نيتشه - تنعم بهبة التنبؤ بالمستقبل. كانت لعنة كاسندرا - مثل نيتشه - أن لا يصدق أحدٌ كلماتها أو نبوءاتها.

عند هذه النقطة يهمل نيتشه إكمال الحكاية ليعطينا بدلًا عنها اثنين وعشرين حديثًا حكيمًا عن موضوعات تتراوح بين فضيلة الفردانية وما يشكل النزعة الإجرامية وصولًا إلى كيفية موت الفرد بطريقة جيدة. تضم القائمة الكاملة للكتاب:

عن التحولات الثلاثة
عن معلمي الفضيلة
عن دعاة الماوراء
عن محتقري الجسد
عن شهوة المتعة والألم
عن المجرم الشاحب
عن القراءة والكتابة
عن الشجرة على الجبل
عن خطباء الموت
عن الحرب والمحاربين
عن الوثن الجديد
عن ذباب السوق
عن العفة
عن الصديق
عن ألف غاية وغاية
عن حب الجار
عن نهج المبدع
عن النساء، في صباهن وشبابهن وشيخوختهن
عن لدغة الحية
عن الطفل والزواج
عن الموت الحر
عن فضيلة المَنح

تعطينا هذه الفصول نظرة على أفكار نيتشه بخصوص هذه المواضيع، التي عبر عنها بلغة نظيره زرداشت القديمة والإنجيلية.

على ضوء التجربة التي مر بها مؤخرًا، ليس مفاجئًا أن يعامل النساء آنذاك بتلك المعاملة الجلفة جدًا، وهذا ما يضعه في تناقض صارخ مع تفهمه الكَيس لهن في العلم المرح، فنرى نيتشه يسأل: أليس من الأفضل أن يقع المرء بين يدي مجرم على أن يسقط فريسة أحلامه بامرأة شهوانية؟ ومن ثم هناك تلك المقولة الشهيرة « أذاهبٌ أنت إلى امرأة؟ فلا تنسَ أن تأخذ السوط معك!»[١٢].

لربما كان الفصل المعنون «عن الموت الحُر» هو أكثر الفصول ثورية في عصره، فقد علمَ المسيح أتباعه أن الانتحار يعتبر الخطيئة الأخيرة في حياة المرء التي لا يمكن اغتفارها. كانت جثامين المنتحرين تدفن في أرض غير مباركة خارج أسوار الكنيسة، وهذا يرمز إلى إقصاء أرواحهم إلى الأبد عن النعيم، غير أن نيتشه يقترح خيار الموت الرحيم الاختياري لاولئك الذين يعانون من آلامٍ لا تطاق، أولئك الذين يعلمون أن حياتهم الجيدة قد اضمحلت، أو أولئك الذين يشعرون ببساطة أنه قد حان وقت المغادرة، ويوصي بالسماح لهم بأن يضعوا حدًا لحياتهم طواعية من دون أن يُجرّموا أو أن تحل عليهم اللعنة الأبدية.

إن كل حديث من هذه الأحاديث الاثنين والعشرين يقود إلى كيفية العيش بشرف وصدق حتى بلوغ مثال الإنسان الأعلى، اللاديني والمستقلِ والمنضبطِ ذاتيًا والخلاق، وينتهي كل حديث بعبارة «هكذا تكلّم زرادشت»، ويختتم الكتاب بملحوظةٍ تفاؤليةٍ ووجدانيةٍ وغامضةٍ على نحو مميز:

«وهذه هي الظهيرة العظمى، حيث تقف البشرية في منتصف مسارها الرابط بين الحيوان والإنسان الأعلى وتُمجّد طريقها إلى المساء بصفته الأمل الأعلى: لأنه الطريق إلى الصباح الجديد».

حينئذٍ سيُبارك نفسه ذلك الذي غرُب، لأنه الواحدُ الذي عبر؛ وستنتصب له شمسُ معرفته في الظهيرة.

موتى هم كلّهم الآلهة: والآن نرغبُ بأن يحيا الإنسان الأعلى. -لتكن هذه إرادتنا الأخيرة في هذه الظهيرة العظمى!-».

كان الكتاب قصيرًا، بالكاد بلغ مائة صفحة، وكانت إيقاعاته متكررة وشعرية ومنومة وموجزة ومفعمة بالحيوية. قال إنه كتب الكتاب، أو أن الكتاب كتبه، في عشرة أيام من الإلهام والوحي الوجداني. في الواقع، استغرقه الأمر فترة أطول، قُرابة شهرٍ.

في الرابع عشر من شباط ١٨٨٣، أرسل الكتاب إلى ناشره شمتزنر، واصفًا إياه على بطاقة الغلاف بـ«الإنجيل الخامس». ذهب من رابالو إلى جنوة ليرسله بالبريد، لربما أراد التمتع بإطلاق الكتاب من المكان المناسب في رحلته الرمزية، أو ربما للاستفادة من الخدمة البريدية السريعة في جنوة، وأثناء تواجده هناك، علم من الصحف أن فاغنر قد توفّي في اليوم السابق. فسَّر الأمر على أنه إشارة أو اتصال من قوة خارقة، أو سيفين يتقاطعان في الهواء. بتحريفه للحقيقة قليلًا، قال نيتشه أنه قد أتم فصل الكتاب الختامي بالتزامن تمامًا مع تلك الساعة المقدسة التي فارق فيها فاغنر الحياة في فينيسيا.

كانت روح فاغنر ماضية في رحلة بحرية للانضمام إلى بحّاري الروح المغامرين. كان فاغنر مغلفًا ذات مرة بعزلة الطبقات السبعة لنبيٍ متبصِّرٍ، والآن بعد أن مات، أصبح من الممكن استصلاح ذاته الأولى النقِّية، وبناء على هذا، وجب على نيتشه أن يُشير إلى «**هكذا تكلّم زرادشت**» بوصفه حلقة جديدة، فقد مات أبوه فاغنر، ووُلد ابنه زرادشت.

كانت علامة على تعقّل نيتشه وكرمه الروحي حتى بعد معرفته بالرسائل الحقيرة التي تبادلها فاغنر مع أطبائه، كما كشف ذلك في رسالة بعثها إلى أوفربيك بعد أسبوع من موت فاغنر. «لقد كان فاغنر إلى حدٍّ بعيد أكثر إنسان كامل عرفته، وفي هذا الصدد علي أن اتجاوز كثيرًا مما حدث على ست سنوات، لكن شيئًا مثل إساءةٍ مميتةٍ حدث بيننا؛ ولو أنه عاش فترة أطول لحدث شيء فظيع»[١٣]. في الحادي والعشرين من نيسان كتب بمزيد من الصراحة إلى الموسيقي بيتر غاست، «إن فاغنر مليءٌ بالأفكار الخبيثة، وإلا

ماذا تقول عن تبادله الرسائل (حتى مع أطبائي) للتعبير عن اعتقاده بأن طريقتي المختلفة بالتفكير كانت نتيجة لافراط غير طبيعي، مع تلميحات عن الشذوذ الجنسي؟». بعد بضعة أشهر، في تموز، ذكر أيضًا لآيدا أوفربيك «خيانة انتقامية سحيقة» تواردت إلى أسماعه في العام السابق.

لقد حدثت خيانةٌ عميقةٌ فعلًا وإذلالٌ علني، لكن ليس عن طريق فاغنر فقط، ولكن على يد لو وريه أيضًا.

فيما يخص زرادشت، لم يعتبر ناشره الكتابَ إنجيلًا خامسًا، وفي الواقع، لم يُظهر الناشر أي علامات على البدء بعملية نشر الكتاب على الإطلاق، وعندما استفسر نيتشه عن الأمر ألقى شمتزنر باللوم على تأخر آلاته الطابعة. رد نيتشه بملاحظة ساخرة قائلًا لو أنك لم تبدد المال على طباعة الكتيبات المعادية للسامية لكنت تمتلك الآن ثمن الآلة الطابعة، لكن هذه الملاحظة لم تحقق النتيجة المرجوة.

كان نيتشه يشعر بخيبة الأمل والارهاق والعزلة، ولربما عانى من سوء تغذيةٍ لأنه كان يبحث عن الوجبات الأرخص في المدينة، ومن المؤكد أنه تعاطى عقاقير طبية زائدة على الحاجة، فقد كان يعالج نفسه مستخدمًا عقاقير خطيرة، يكتب الوصفات الطبية ويوقعها باسم «الدكتور نيتشه»، وقد أعطته الصيدليات الإيطالية كل ما طلب.

شعر باشمئزاز ذاتي حاد «لم أستطع أن أنسى ولو للحظة وصف والدتي لي بأنني عارٌ على والدي المتوفَّى... لقد تهشمت حياتي كلها أمام عيني؛ هذه الحياة الغريبة والسرية المنعزلة عمدًا، حياتي التي تثب خطوة كل ست سنوات، والتي لا تريد سوى هذه الخطوة، بينما علي أن أخوض كل شيء آخر، حتى علاقاتي الإنسانية، متخفيًا بقناع، ويجب أن أكون دائمًا ضحية العيش في حياة مستترة كليًا. لطالما تعرضت لأقسى المصادفات، أو بالأحرى، أنا الذي لطالما حولت المصادفات إلى قسوة... أنا في حالٍ سيئ. يطوقني ظلامُ الليل من كل جانب مجددًا. أشعر كما لو أن البرق قد انفجر غضبًا.. سأتكسر حتمًا إلى قطع، ما لم يحدث شيء ما، وليس لدي فكرة عن ماهيته»[١٤].

لم يرَ غاية في الحياة، لكنه شعر بأنه مجبر على خوض الصراع الذي خاضه لاوكون(*) مع الأفاعي البحرية، لكن هذه المرة على نيتشه أن يهزم تلك الأفاعي. فلو رغب بالحياة، لا يريد أي صلة مع الناس، حتى السكن في فندق صغير أو في كوخ فلاح كان يمثل مكانًا يوفر رفقة مبالغًا بها بالنسبة له. «ليس هناك حدٌ لحاجتي في أن أُحاط بالهدوء والسمو والعزلة حتى أُصغي إلى أصواتي الداخلية. لو أن لدي المال الكافي كنت سأبني مؤسسة مثالية لتربية الكلاب من حولي، وأقصد منزلًا خشبيًا بغرفتين، وسيكون على شبه الجزيرة التي تنتهي ببحيرة سيلس، هناك حيث يقع الحصن الروماني»[١٥].

كان يتعرض لنوبات من التعرق والبرد على التوالي نوبةً بعد أخرى، كما كان محمومًا وخاضعًا للارهاق المزمن المستمر، بينما فقد شهيته وجفّ فمه ودكّت جمجمته نوبات «آلام الرأس القديمة» بين السابعة صباحًا والحادية عشرة مساءً. عاد إلى جنوة بعد أن فشل في العثور على مدفأة لتدفئة غرفته في رابالو. كان يأمل أن يسحبه شخص ما بطريقة غامضة خارج القارة الأوروبية، القارة التي حَمَلَ جغرافيتها ومناخها مسؤولية أمراضه الجسدية والذهنية.

مُعتبرًا نفسه، وكالعادة، «ضحيةً لاضطراباتِ الطبيعة»، ألقى باللائمة على جبل إتنا كمسببٍ للمشكلات التي عزاها سابقًا إلى الطاقة الكهربائية في السحب. كان بركان إتنا ناشطًا يزمجر ويهدد بالثوران، وكانت الطاقة المتدفقة منه هي المسؤولة عن أعراضه المتقلبة[١٦]. وجد نيتشه في هذا التفكير عزاءً مريحًا، فقد وقاه من اتهام الآخرين بأنهم السبب في بؤسه.

في هذه الحالة الذهنية والجسدية الضعيفة، خضع نيتشه لنهج إليزابيث الاسترضائي الأخرق، وسرعان ما وقع في شرك روايتها المتملقة عن الماضي القريب، فقد كان البريء الذي وقع ضحية الأفعى الروسية الخبيثة لو واليهودي ريه. أخبر إليزابيث أنه على استعدادٍ «لإعادة تنظيم علاقاتي

(*) لاوكون: الكاهن الطروادي الذي حذر الطرواديين من إدخال الحصان الخشبي داخل أسوار المدينة، وعندما كان يتمشى قرب الشاطئ هاجمته أفاعٍ بحرية وقتلته، فاعتبر الطرواديون أن هذه إشارة إلى كذب لاوكون وأدخلوا الحصان إلى المدينة. (المترجم)

الإنسانية المضطربةِ بعض الشيء حاليًا، وسأبدأ معكِ. أما فيما يخص الآلة الكاتبة، فهي لا تعمل بصورة صحيحة مثل كل شيء ضعيف يمسكه الإنسان بين يديه لبرهة، إن كانت آلات أو مشكلات أو لو»(١٧).

كان لا يزال ينتظر شمتزنر لنشر زرادشت ولذلك طلب من إليزابيث التدخل، ونجحت هي حيث فشل، ومن المرجح أن نجاحها مع شمتزنر يرجع إلى أنهما رفيقان في مناهضة السامية، وبدورها، أقنعت إليزابيث نيتشه بالانضمام إليها في حملة بغيضة لمخاطبة السلطات لطرد لو خارج ألمانيا وإرسالها إلى روسيا بصفتها فردًا لا أخلاقيًا. في الواقع، تمخضت هذه الحملة عن نتيجةٍ غير متوقعة في تحويل لو إلى كاتبة، فقد أدركت أنها إن وُسمت بصفة الفرد اللاأخلاقي فقد يؤدي هذا إلى قطع المنحة المالية الروسية، مصدر دخلها الوحيد، لذلك عمدت إلى كسب المال عن طريق الكتابة. أصدرت رواية سيرة ذاتية أطلقت عليها Im Kampf um Gott (الكفاح من أجل الرب). تظهر شخصية نيتشه في كتابها بوصفه زاهدًا متولعًا بالعفة والعاهرات. وتظهر لو نفسها على أنها مومس للطبقات الاجتماعية الرفيعة «وأَمَةٌ لطبيعتها المتدنية المستهترة»، أما ريه فهو حاميها، «الكونت»، وينتهي الكتاب بانتحارها بالسم. تخللت الحكاية المفعمة بالحيوية صراعات فلسفية خاضتها شخصيات الرواية للعثور على معنى ديني أو لاديني للعالم. عندما قرأ نيتشه الكتاب بعد عامين، تعرف على «صدى المئات من محاوراتنا في تاوتنبرغ والمخطوطة فيه»(١٨). وقد سمت لو الفتاة في الكتاب «مارشن» (حكاية خرافية)، الاسم الذي كان نيتشه يدعوها به.

فشلت إليزابيث في مساعيها لترحيل لو. غير آبهة بالنتائج، أطلقت حملة أخرى لفصل شقيقها عن الإسرائيلي ريه. في ذلك الوقت، كان نيتشه قد تشافى منذ زمن طويل من نزعة ريه في فلسفته، فقد تعلم فن كتابة الشذرات من ريه ولكنه تجاوز المادية الريوية. في تلك الأيام، بدا ريه وكأنه رجل بلا مُثل عليا ولا غاياتٍ ولا التزاماتٍ ولا غرائز، قانعًا في أن يكون رفيقًا للو، إن لم يكن خادمها.

بدأت إليزابيث تحرّض نيتشه للانفصال عن ريه، فأخبرته أن ريه هو من أخبر لو بأن خطط ثالوثهم ما هي إلا أصداءٌ لهدف نيتشه الدنيء والشهواني لتحقيقِ غايةٍ تتمثل في (زواج جامح). صدقها نيتشه وعذبته فكرة أن ريه قد خان صداقته عبر تسخيف فلسفته أمام لو وقلبها ضده. تصاعدت في داخله مشاعر الشك والشفقة على نفسه، فكتب إلى ريه، يتهمه بكونه رفيقًا حقيرًا وغادرًا وأفّاكًا سافلًا، وأن لو الناطق بأفكاره، وأي ناطق فظيع كانت. أما لو فقد وصفها بالقردة الكريهة القذرة العقيمة بثديين مزيفين تفوح منها رائحة الشر النتنة. (ونلاحظ هنا يد إليزابيث في الاشارة إلى الثديين المزيفين). تمخضت هذه الاتهامات اللاذعة التي وجهها نيتشه لريه عن تهديدٍ بالتشهير من جانب شقيق ريه جورج، الذي تحدى نيتشه في مبارزة بالمسدسات. ولحسن الحظ، لم تحدث هذه المبارزة أبدًا.

كتب نيتشه إلى إليزابيث: «لم أكره أحدًا أبدًا حتى ذلك الحين، حتى فاغنر الذي تجاوز غدره ما فعلته لو بكثير. الآن فقط أشعر بأنني قد تعرضت للاهانة حقًا»[١٩].

(١٤) لقد مات أبي فاغنر وولد ابني زرادشت:

١. من نيتشه إلى بول ريه ولو سالومي، منتصف كانون الأول ١٨٨٢.
٢. من نيتشه إلى أوفربيك، ١١ شباط ١٨٨٣.
٣. هناك وصف لاحق لرابالو في رسالة بعثها نيتشه إلى بيتر غاست في ١٠ تشرين الأول ١٨٨٦.
٤. من نيتشه إلى أوفربيك.
٥. هذا هو الإنسان، «هكذا تكلّم زرادشت»، ٥.
٦. العلم المرح.
٧. لم يكن نيتشه الفيلسوف الأول الذي اهتم بزرادشت. على مدار الخمسين عامًا السابقة، نشرت عشرين دراسة عن «زيندا-افيزتا» وعن مؤلفها زرادشت باللغة الألمانية. راجع «فريدريك نيتشه: هكذا تكلّم زرادشت»، مطبعة اوكسفورد، ٢٠٠٨، مقدمة غراهام باركس.
٨. راجع ماري بويس، زرادشت: المعتقدات والممارسات الدينية، لندن ١٩٧٩، وبتحرير زميل قسم الفلسفة في جامعة اكسفورد تيد هوندريش، مطبعة جامعة أكسفورد، ٢٠٠٥.
٩. هكذا تكلّم زرادشت، ديباجة زرادشت، ٣.
١٠. هكذا تكلّم زرادشت، الكتاب الثالث، «قبل الشروق».
١١. المصدر السابق، ديباجة زرادشت، ٤.
١٢. هكذا تكلّم زرادشت، الجزء الأول، عن النساء في صباهن وشبابهن وشيخوختهن.
١٣. من نيتشه إلى فرانز أوفربيك، ٢٢ شباط ١٨٨٣.
١٤. من نيتشه إلى أوفربيك، أرسلت من رابالو، استلمت في ١١ شباط ١٨٨٣.
١٥. من نيتشه إلى كارل فون غيرسدورف، ٢٨ حزيران ١٨٨٣. يشير هنا إلى شبه جزيرة تشاست.
١٦. من نيتشه إلى بيتر غاست، ١٩ شباط ١٨٨٣.
١٧. من نيتشه إلى إليزابيث نيتشه، نيسان ١٨٨٣، وردت في كتاب بينيون، السيدة لو، صفحة ١٠٤.
١٨. من نيتشه إلى فرانز أوفربيك، ١٧ تشرين الأول ١٨٨٥.
١٩. من نيتشه إلى إليزابيث نيتشه، في أواخر صيف ١٨٨٣.

١٥

حيث القبور يكون النشور

في الكتاب الثاني (من زرادشت) وثبتُ مرحًا وكأنني بهلوان مهرّج. تتضمّن تفاصيل الكتاب قدرًا كبيرًا من التجربة والمكابدة الشخصيتين التي لا يمكن أن يدركهما أحد سواي، بدت لي بعض الصفحات وكأنها تقطر دمًا.

من رسالة إلى بيتر غاست أرسلها نيتشه

من سيلس ماريا أواخر آب ١٨٨٣

على الرغم من أنها كانت مؤسسة صالون الأرواح الحرة، لم تستطع مالويدا أن تغفر لسالومي سلوكها الطائش. وقد وقفت إلى جانب نيتشه ضد من كانت تحت حمايتها سابقًا، ودعت نيتشه إلى أن يزورها في روما ليسترد نشاطه. حشى حقيبته الكبيرة بالكتب، وكان وزنها آنذاك ١٠٤ كغم. وصل في الرابع من أيار ١٨٨٣ للقاء إليزابيث، التي كانت مستمرة في العمل على توطيد علاقتها بشقيقها.

لم تعتبر مالويدا وإليزابيث نفسيهما منافستين لبعضهما لنيل ود نيتشه. فعلى طول الشهر التالي، ساهمت رعايتهما المشتركة في تهدئة نيتشه بما فيه الكفاية ليتوقف

عن تعاطي قطرات هيدرات الكلورال لمعالجة أرقه. تحملت مالويدا تكاليف ذهابهم في رحلاتٍ للتمتع بالطبيعة الربيعية الساحرة حول روما بزهورها البرية ومساكنها الريفية وبقايا الأطلال. عندما حملتهم العربة إلى متحف روما، تأثر نيتشه على نحو كبير بتمثالين نصفيين لبروتوس وأبيقور من بين كل الأعمال الفنية التي رآها، وثلاث لوحات لمناظر طبيعية رسمها كلود لورين[1] تستحضر الحنين إلى العصر الذهبي، مستوحاة من رحلات الفنان الخاصة.

على الرغم من عبثية المؤلف الذي أعلن موت الإله، إلا أنه لم يفقد الإحساس بالامتلاء الروحي داخل معقل الكنيسة الرومانية. لقد أزعج المرأتين بالإشارة إلى نفسه أحيانًا باسم عدو المسيح. لقد سيطر عليه الاشمئزاز من رؤيته الناس يتسلقون سلالم كنيسة القديس بيتر على ركبهم، واستخدم هذا المشهد كرمز للحماقة الدينية في كتابه الثاني من «**هكذا تكلّم زرادشت**»[2].

مع حلول حزيران، رزحت روما تحت رتابة حرارة الطقس المرهقة. فكرَ في التصييف في إيشيا، ولكنه بدلًا من ذلك ذهب برفقة إليزابيث إلى ميلانو حيث افترقا هناك لكي يسافر بعدها إلى سيلس ماريا. كان من حظه أنه قد غيَّر خطته، ففي هذا الشهر، ضرب زلزالٌ إيشيا أسفر عن مقتل أكثر من ألفي شخص.

لطالما كان الهواء الطلق دافعًا لإطلاق أفضل أفكاره، وكان المكان ذا أهمية حيوية بالنسبة له، ففي اليوم الذي بلغ فيه القرية على جبال الألب المحببة على قلبه حيا المكان قائلًا: «هنا يقطن مصدر وحيي... تربطني بهذه المنطقة علاقة دم وقرابة وأكثر من ذلك حتى»[3]. وهذا ما دفعه إلى وصف عملية الإلهام التي كانت لا تنفصل عن الإحساس بالمكان بالنسبة له:

«هل يمتلك أحد ما، مع نهاية القرن التاسع عشر، فكرة واضحة عن ما أسماه شعراء العصور القديرة بالإلهام؟ إن لم يكن هناك أحد، فسأوضحه بنفسي. إذا توفر في داخلك الحد الأدنى من رواسب الإيمان بالقوى الخارقة للطبيعة، فلن ترفض فكرة أن يجسد الرب أحدهم أو أن ينطق باسمه أو

أن يكون وسيطًا للقوى ذات السلطة القاهرة. بمعنى، أن فكرة الوحي: شيء ما يصبح مرئيًا ومسموعًا بيقين ودقة لا يمكن توصيفهما، شيء يرميك أرضًا وفي أعماقك يتركك مهزوزًا، هذا ما يصف حقيقة الأمر ببساطة. إنك تستمع ولا ترى أي شيء، وتأخذ ولا تسأل عن من يعطيك؛ تخطر الفكرة في برهة من الزمن، في وقتها الضروري تمامًا، دون التردد في تقبل الشكل التي ستخطر فيه، ليس لي أن أختار على الاطلاق. إنها بهجة من التوتر المثير التي تفجر أحيانًا سيولًا من الدموع، وفي أحيانٍ أخرى تزيد من سرعة خببك وفي بعض الأحيان تبطئها؛ حالة مثالية لأن تكون خارج نفسك... ويحدث كل هذا بطريقة لا إرادية على أعلى درجة، فالوحي يضرب مثل عاصفة من مشاعر الحرية والمشاعر غير المحدودة المطلقة والقدرة والألوهية... هذه تجربتي مع الإلهام؛ ولا أعتقد أنك بحاجة إلى أن تعود آلافًا من السنين لتجد أحدًا ما قد يقول لك: «وهذه بالضبط تجربتي مع الإلهام»»[٤]..

جاء الكتاب الثاني من «**هكذا تكلّم زرادشت**» في الأيام العشرة المحصورة بين الثامن والعشرين من حزيران والثامن من تموز ١٨٨٣. يقول نيتشه «لقد تخيلت جميع أجزاء الكتاب في مسيرات شاقة على الأقدام؛ كان عندي يقين مطلق، وكأن كل فكرة كانت تُرسل لي وحدي»[٥].

مثل الكتاب الأول، كان الكتاب الثاني مقسمًا إلى أقسام صغيرة ومضغوطة بشكل مكثف، وهذا يعني أنه كان يعد ترتيب كتابه أثناء سيره لأربع أو ست ساعات ومن ثم يحوِّلها إلى دفاتر ملاحظاته من دون أي مساعدة عملية من أحد. أخذ المنظر الطبيعي الذي راوده فيه الإلهام دربًا حول بحيرتي سيلفابلانا وسيلسيري الصغيرتين اللتين شكلت مياههما الفيروزية الكثيفة أرضية متلألئة للجبال المشرفة عليها والشديدة الانحدار والمضيئة بقبعتها الثلجية الأبدية. لقد كان عالمًا مستقلًا كليًا بدأ منه نيتشه متابعة حكايته عن زرادشت الساكن بجانب بحيرة أورمي، وهو من مضى إلى عزلته في الجبال، والذي كان يشير إلى عباراته الحكيمة على أنها مرتفعات أو قمم جبلية.

بالكاد ما خرج نيتشه من صفحات كتاب زرادشت الثاني كما في

النموذج عن مثاله الأعلى «القائل نعم» الذي نبذ الغيرة والانتقام عبر تحويله عبارة «هذا ما حدث» إلى «هذا ما تمنيت أن يحدث». يمتلئ الكتاب الثاني بالتلميحات عن لو وريه، ممطرًا أعداءه بوابل من الانفجارات المفاجئة والمتميزة غيظًا متهمًا إياهم بقتله، ولم يكن لهذه الاشارات أي معنى داخل البنية السردية للكتاب.

في فصل عنوانه «عن العناكب»، يظهر لو وريه بوصفهما عنكوبتين وعلى ظهرهما رمز الثالوث المقدس. يعضّه العنكبوت «بوثوق وجمال قدسي»، لتقبض على روحه وتجعلها محمومة في بحثها عن الانتقام(٦).

يقطع النص ثلاث قصائد. كان قد كتب الأولى «أغنية الليل» في وقت سابق عندما كان في روما راكبًا العربة وهي تقطع طريقها بين المناظر الأركادية، وهذا ما أثار في داخله الحسرة على بعد المسافات التي تفصله عن عصر الأبطال، وتوقه إلى الماضي والحب.

في القصيدة الثانية «أغنية الرقص»، يرى زرادشت صبايا يرقصن في حقل، فيوقظ كيوبد النائم الذي يرقص بدوره معهن. تتكلم الحياة معه عبر كلمات كانت قد استخدمتها لو سالومي سابقًا، تخبره أنها مجرد امرأة وليس هناك أي فضيلة في ذلك، فالمرأة بطبيعتها متقلبة وجامحة ومتغيرة، وبهجة المرأة تكمن في هذه الصفات، لكن الرجال يتوقون إلى إخلاص النساء وغموضهن وعمقهن، وبالتالي فإنهم يضفون هذه المناقب على الجنس الأنثوي ويشتهون فيهن ما قد تخيلوه هم أنفسهم.

عاتبها لأنه منحها سرّه العظيم ولم تقدّر منه هذا الصنيع. «هكذا يتم الأمر بيننا نحن الثلاثة... إنها متقلبة وجامحة؛ كثيرًا ما رأيتها تعض شفتها وتمشط شعرها بطريقة مخالفة للمعتاد. ربما كانت شريرة ومخادعة في كل شيء أنثوي؛ ولكن عندما تتحدث بالسوء عن نفسها؛ عندها تحديدًا تغوي الجميع».

القصيدة الثالثة والأخيرة كانت «أغنية الضريح»، يبدأ مطلعها بمنظر من نافذة فينيسية تطل على جزيرة الأموات. في قبور هذه الجزيرة دُفن شبابه،

إلى جانب «أعاجيب الحب الرقيقة» و«طائر آمالي المغرد».

يلعنُ اعداءه الذين بتروا أبديته وسرقوا منه ليلاته، وحكموا عليه بعذاب أن لا يغمض له جفن.

عندما انتهى الكتاب الثاني من زرادشت، وجد نفسه مندهشًا من شكل النص الذي كان أشبه بسيرته الذاتية. كما أنه صُدم عندما رأى صفحات الكتاب تتقطر دمًا - دمه هو شخصيًا - لكنه كان متيقنًا من أن الكتابة بهذا الشكل هي الطريقة الوحيدة التي تمكنه من رؤية ما حدث[٧]. في كتابه اللاحق سيسعى لإثبات فكرة أن كل الفلسفة (ليست فلسفته فقط) كانت سيرة ذاتية.

رغبت لو بتدبير لقاء مع نيتشه ولكنها لم تجسر على فعلها مباشرة، مع علمها أن نيتشه كان في سيلس ماريا وقتها، وأنهما -هي وريه- يقطنان في قرية سيليرينا الصغيرة والتي كانت قريبة من إقامة نيتشه. كانا يسافران مع أحد معارفهما الجدد نسبيًا، رجل يافع اسمه فرديناند تونيس الذي كان مبهورًا من معاملتهم إياه كفرد ثالث في ثالوثهم المدنس. سيصبح تونيس في النهاية الأب المؤسس لعلم الاجتماع الألماني ولكنه في ذلك الوقت كان شخصًا عاطفيًا قليل الخبرة شعر بالحماسة وبالامتياز لأنه شغل غرفة ثالثة معهم في الفندق.

لم يرَ نيتشه تونيس قط، ولهذا أرسله لو وريه إلى سيلس ماريا حاملًا غصن الزيتون لنيتشه. لكن عندما رأى تونيس نيتشه يستنشق الهواء الطلق، عاصبًا رأسه بدفاعاته الثقيلة المعتادة ضد ضوء الشمس وطاقة السحب الكهربائية، وعلاوة على ذلك ملفوفًا «بعزلتي اللازوردية التي أرسم بها دوائر تحوطني وحدودًا مقدسة»، لم يجسر على الاقتراب منه، وهكذا مر الصيف دون تراضٍ.

كان الوقت يعمل سلفًا على تليين صلادة حقد نيتشه على لو. كان قد فتح بابًا لها، ومد لها حبل البهلوان، وقد امتلكت قدرًا من الشجاعة تقريبًا لاعتلائه. بالرغم من أنها لم ترقَ إلى مستوى التحدي المطلق، إلا أنها كانت

الأقرب على فهمه وظلت أذكى حيوان عرفه. لَو كان نيتشه مخلصًا لفكرة العود الأبدي والتي تقضي بأن يتطلع المرء إلى الماضي وأن يحول كل «هذا ما حدث» إلى «هذا ما أردت أن يحدث»، كان عليه أن يقول «نعم» لالتزام لو سالومي الجزئي والاعتزاز به.

إن كان عليه الارتقاء إلى مثاله الأعلى «قائل النعم» ذلك الذي يتقبل مصيره، فعليه الاعتراف بدوره في الحرب بين إليزابيث ولو. إن الضغينة والحقد التي شعر بهما تجاه لو تحولت الآن إلى كراهية موجهة ضد إليزابيث، وخاصة بعد أن أدرك كيف تلاعبت به. لقد دفعه خبثها وأكاذيبها ومكائدها إلى شن حملة انتقامية شائنة وطويلة ضد لو وريه. كان نجاح إليزابيث في أن تجعله على غير سجيته أمام نفسه أسوأ حتى من تحريضها إياه على كتابة رسائل تافهة وتلفيقاتها التي صدّقها، ومرةً أخرى خضع للقيود السقيمة وللعاطفة والضغينة والإخلاص لماضٍ خادع.

لقد اشمأز نيتشه من الكيفية التي تمكنت من خلالها إليزابيث أن تهيج في داخله ضغينة راسخة، وتحديدًا في الوقت الذي كان عليه أن يوظف قناعته الأكثر رسوخًا لشجب الحسد والغيرة والانتقام والعقاب، كان عليه أن يتقبل ما جرى مع لو وأن يكون ذلك الشخص الذي لا يريد سوى تقبل الأشياء كيفما جرت. لقد تكاثفت ضغينة إليزابيث وغيرتها، التي نفثتها كما ينفث الحبّار حبره، كسحب قاتمة طوقت عقله بـ«مشاعر سوداء شريرة، كان من بين هذه المشاعر كرهي لشقيقتي التي بخداعَها لسنة كاملة حالت بيني وبين أفضل صنائعي المتمثلة في السيطرة على الذات... وهكذا أصبحتُ في النهاية ضحية رغبة عنيدة للانتقام، وبالتحديد في الوقت الذي نبذ فيه تفكيري الداخلي العميق جميع مخططات الانتقام والعقاب. يسحبني هذا الصراع خطوة تلو خطوة إلى الجنون، أشعر بهذا الأمر بأكثر الطرق ترويعًا... ربما كانت مصالحتي لها خطوة مميتة في القضية برمتها. أرى الآن أن هذا الفعل جعلها تعتقد أن من حقها الانتقام لي من الآنسة سالومي، من دون أن تطلب ذلك مني»[8].

أرسلت له إليزابيث خطابًا تبتهج فيه بنصرها، تخبره فيه كم استمتعت

بهذه «الحرب الخاطفة والمرحة». وهذا ما دفعه، متبرمًا، إلى ملاحظة أنه لم يكن عدوًا لأحد، ولا حتى لإليزابيث.

كان قد سبق له أن قطع كل علاقاته بوالدته وشقيقته. وإذا فعل ذلك مرة أخرى، فسيكون هذا فعلًا سلبيًا آخر، وهذا ما يرفض فعله. على العكس، سيبقي على ارتباطٍ حيادي معهما، يبعث بالرسائل ويخبرهما عن احتياجات غسيله ويطلب أشياء صغيرة، كالنقانق على سبيل المثال. هكذا سيكون مثل ذلك الذي يقول «نعم» في «**العلم المرح**». سيحافظ على التمسك بفعل ما هو صائب، بينما يغذي وهم ارتباطه بهما.

لكن سرعان ما ستنقلب هذه التسوية المريحة إلى مصدر إزعاج. ففي أيلول، استلم نيتشه رسالة مستعجلة من فرانشيسكا تستدعيه فيها للعودة إلى المنزل في ناومبورغ. فقد تحدثت إليزابيث، اللاما العنيدة، عن الذهاب إلى باراغواي برفقة المحرّض المناهض للسامية برنارد فورستر.

لا ترغب فرانشيسكا بمفارقة ابنتها مدبرة المنزل، بينما ذُعر نيتشه من فكرة أن تشترك شقيقته في المستقبل مع ديماغوجي متشدق يمقت آراءه الأخلاقية والسياسية. علاوة على ذلك، أفرزت هذه الحادثة طبقة جديدة كليًا من الخداع الذي كانت تمارسه في فترة علاقتهما الودية على مدار العام الفائت، فقد كانت إليزابيث خلال مصالحتها المفترضة مع نيتشه في روما وما بعدها، تراسل خفية العنصري البائس فورستر الذي علمت أن شقيقها يحتقره. «لا أملك حماسه تجاه «الأشياء الألمانية»، وحماسي أقل حتى فيما يخص الحفاظ على هذا العرق «المجيد» نقيًا، بل على العكس تمامًا، على العكس تمامًا»[٩].

كان برنارد يكبر نيتشه بعام، وسيمٌ وألماني وطني متعصب، ذا شعر بني كثيف على نحو ملحوظ، ممشط إلى الخلف ويرتفع من جبهته العالية على شكل الحرف V، بحاجبين بارزين وشارب رائع حافظ على امتداده الأفقي المثالي. من ذقنه تدلّت لحية بنية اللون طويلة ومتموجة تشبه لحية نبي توراتي،

على الرغم من أنه لم يحبذ هذه المقارنة السامية. كانت عيناه غير مستقرتين، وقزحيتهما شبه شفافة بلون المياه المتجلدة. كانت عينا فورستر المثالي مثبتة على الآفاق البعيدة. كان محرضًا متحمسًا على التنزه في الهواء الطلق وعلى الاعتماد على التغذية النباتية والتركيز على الخصال الصحية لرياضة الجمباز ومساندًا لحظر الكحول وتشريح الحيوانات الحية لإجراء التجارب عليها. كان فورستر غير عقلاني وصاحب قناعات قوية، فقد حلم، مثل نيتشه وفاغنر، بإعادة تشكيل ألمانيا، ولكن بينما تصور الاثنان تحقيق هذا الهدف عبر طرائق ثقافية، كان نهج فورستر هو العنصرية. لقد آمن أن العرق اليهودي يشكل كيانًا طفيليًا في جسد الشعب الألماني، وينبغي أن تستعيد ألمانيا دمها النقي.

تعرَّف فورستر وإليزابيث على بعضهما بطريقة غامضة منذ بضع سنوات عن طريق والدتيهما، كانت كلتاهما من أرامل كنيسة ناومبورغ وأهم المصلّين فيها. لم يكن لدى إليزابيث أي دافع لمواصلة التعارف، حتى فشلت في أداء مهمتها كمدبرة لمنزل شقيقها في بازل، فلم يعد بمقدورها الاعتماد على نيتشه لضمان مستقبلها، ولا على زواجها من أي أحد من دائرة أصدقائه المقربين. حمل لها المستقبل أمًّا مسنة تتمطى أمام ناظرها. كانت إليزابيث عانسًا هرمة، وبالرغم من عفتها، ألا أنها لم تحقق سلطةً أو وضعًا اجتماعيًا مرموقًا في ناومبورغ، وبذلك توجب عليها العثور على عريس من دون تأخير.

إلتقت بفورستر في مهرجان بايرويت ١٨٧٦، فأخذت على عاتقها مهمة إبهاره في ناومبورغ. بدأت مراسلته بناء على دعمها الحماسي لقضيته، كتبت له «كل معرفتي ليست سوى انعكاسٍ باهتٍ لعقلك الهائل... مواهبي عملية، ولهذا السبب تثيرني كل خططك وأفكارك الجليلة: فبالإمكان ترجمتها إلى أفعال»[١٠].

عندما شرعت في مراسلاتها، بدأت تغمس رسائلها بحروف فتاة مرحة شجاعة طائشة، مكرسة حياتها طواعية لفورستر وسياساته. بقي فورستر منضبطًا ومتمسكًا بالشكليات وغير مدرك لما يجري. في النهاية، توجب عليها أن تلفت انتباهه عن طريق إرسال الأموال لتمويل قضية مناهضة السامية وكذلك التحدث عن ثروتها، ومع ذلك، استغرقه وقت طويل

ليدرك أن عروسًا تقدمت له لخطبته، وأن مهرها كان كافيًا لتحقيق حلمه.

في آذار من عام ١٨٨٠، أرسل فورستر لها نسخة من عريضة مناهضة السامية التي كان يخطط لتقديمها إلى بسمارك. طلب منها أن تجمع التواقيع للعريضة، وقد جمعت إليزابيث التواقيع بحماسة وطاقة كبيرتين. تلتمس العريضة أن يُجرد اليهود «المدمرون لألمانيا» من حق التصويت، وأن يستبعدوا من المهن الطبية والقانونية، وأن توقف الهجرة اليهودية وأن ينُفى غير المجنسين منهم باسم تنقية العرق الإنساني وإحيائه والحفاظ على الثقافة الإنسانية. جُمع ٢٦٧٠٠٠ توقيع وعُرضت العريضة في شوارع برلين متنقلة بواسطة حصان وعربة، لتقدم إلى بسمارك الذي رفضها. بعد سنة من ذلك، ألقى فورستر الحانق والُمحبط خطبة مسهبة عنيفة عند موقف ترام برلين أدت إلى قتال دموي بالأيدي، متسببًا في خسارته لمهنته التدريسية في المدرسة الثانوية، وعندئذ شارك في تأسيس حزب الشعب الألماني Deutscher Volksverein، حزب العصابات العنصري المنبثق من القومية ومن القراءة الخاطئة لنظرية التطور. كانت التربة الألمانية قد تلوثت على يد أبناء إبراهيم وعبدة العجل الذهبي، وسيؤسس حزب الشعب الألماني ألمانيا جديدة، مستوطنة من الآريين ذوي الدماء النقية على تربة لم تُلوث بأعراق أخرى على الإطلاق. وعليه، قضى فورستر سنتين من التجول في أمريكا الجنوبية، باحثًا عن البقعة المثالية لإقامة هذه المستوطنة.

تراسلت إليزابيث معه بانتظام، وعندما أخبرها أن مبلغ خمسة آلاف مارك قد يشتري قطعة أرض رائعة في باراغواي، عرضت عليه أن ترسل المبلغ، واعتذرت باحتشام خشية أن تتسبب منحتها المالية بإهانته. كانت منزعجة من مشقة حياته في باراغواي، ولذلك عرضت عليه ثمانمائة مارك لتوظيف خادم شخصي. تكتب له «في العصور الوسطى، كان الناس يهبون عُشر ممتلكاتهم للكنيسة علامة على احترامهم لأسمى الُمثل العليا، فلماذا ترفض عرضي؟». وراحت تخبره عن ثروتها التي تتألف من ثمانية وعشرين ألف مارك، وفي حال أنه لم يفهم موقفها جيدًا، فقد وصفت له نفسها على

أنها امرأة عملية للغاية وربة منزل ممتازة، وفي الواقع، إنها من طينة الرفاق المساعدين الذين يحتاج إليهم طليعيٌّ شجاعٌ. لقد حكمت عليه إليزابيث بشكل جيد، مع أن أموالها لم تكن كافية لتمويل المشروع برمته إلا أن المبلغ كان الأكبر بكثيرٍ من بين كل العروض التي قدمها المؤمنون بقضيته.

عاد فورستر إلى ألمانيا ليجند مستوطنين لأرضه الموعودة، وباشر في جولات تطوف حول البلاد، وألقى خطابات كانت نصوصها -مثل نصوص محرضي الغوغاء- تحتوي على «تصفيق» أو «تصفيق حاد»، ترد في مواضع معينة.

رفض فاغنر التوقيع على عريضة فورستر التي قدمها عام ١٨٨٠. على الرغم من أن فاغنر كان مناهضًا متحاملًا للسامية، إلا أنه لم يضمر شيئًا سوى الازدراء لهذا الرجل، حيث اعتبره مضجرًا وغيرَ مثقفٍ وغبيًا. لم يمثل موقف فاغنر الرأي العام في بايرويت، حيث كان عدو نيتشه هانز فون ولزوغين، رئيس تحرير صحيفة بايرويت، فرحًا بمنح فورستر منصةً لنشر مقالاته السخيفة (وأحد هذه المقالات كان عن التعليم، حيث كتب أن الشرطة ستُغلق كل مدارس البنات الموجودة مع أول يوم يتولى فيه حزبه السلطة). فتحت الصحيفة لفورستر سبيلًا لبلوغ الجمعيات الراعية لبايرويت والمتواجدة في شمال وجنوب ألمانيا، وأصبحت هذه الجمعيات شبكته الرئيسية التي تُغدق عليه بالجماهير لخطبه التحريضية.

كان أيلول من عام ١٨٨٣ شهرًا بغيضًا في ناومبورغ. فبينما اتحد نيتشه ووالدته في محاولتهما لثني إليزابيث عن مساندة فورستر والركض خلفه، انضمت والدته إلى إليزابيث في حملتها لجعله يكف عن تفلسفه التجديفي، ويهنئ بحياةٍ محترمةٍ ويعود للتدريس الجامعي، وربما عليه أيضًا أن يكف عن مصاحبة أناس لم يكونوا «لطيفين».

طاردت فرانشيسكا وإليزابيث نيتشه، هذا الأخير الذي لم يترك أدنى أثر على قرار إليزابيث بالزواج من فورستر المروع، وأمضى الشهر بكامله يقاسي

من عنصريتها التي لا تُطاق واستقامتها الاخلاقية ضيقة الأفق. والآن حان وقت الرحيل.

في الخامس من تشرين الأول، رحل إلى بازل، حيث كان بإمكانه دائمًا الاعتماد على مشورة موثوقة فيما يتعلق بإليزابيث وبشأن وضعه المالي من آل أوفربيك.

متعافيًا نوعًا ما، قضى نيتشه شتاءه على البحر، ورغم أنه لا يزال مفتونًا بفكرة الاستكشاف الكولومبوسية لعالم جديد، إلا أنه مر بجنوة عائدًا مرور الكرام قبل المضي قدمًا. وكانت حجته في ذلك (ومن الواضح أنها حجة غير صحيحة) أنه كان معروفًا جدًا في جنوة مما يحرمه الاستمتاع «بعزلته اللازوردية» الضرورية للإبداع.

استقر في نيس، حيث استأجر غرفة صغيرة في بنسيون جنيف المتواضع في شارع سان إيتيان الصغير. أحب التلال خلف نيس بسبب الرياح الشديدة التي تهب منها، وقد أثنى على الرياح بوصفها المُخلِّص من الجاذبية الأرضية. في بعض الأحيان كان يستقل قطارًا أو ترامًا على طول الخط الساحلي من بداية سان جان كاب فيرات وحتى فيلفرانش، متسلقًا المرتفعات الوعرة التي يرى منها، أو تخيل أنه يرى، كورسيكا البقعة الزرقاء الداكنة التي تقطع أفق البحر اللامع الممتد. وضع نيتشه أهمية كبيرة على حقيقة أن نبضه يخفق بنفس معدل نبض نابليون: ستين خفقة بطيئة وعنيدة في الدقيقة. في هذا المشهد المفعم بالحيوية، وفي الوقت الذي استحوذ فيه نابليون على مكان كولومبوس في قلبه بوصفه أحد بحّاري الروح الأرغوناتيين، باغته الإلهام الذي يحلُ بهيئة زوبعة ليمنحه الكتاب الثالث من زرادشت خلال عشرة أيام.

يسافر زرادشت قاطعًا البحر على متن سفينة، منطلقًا من جزيرة المباركين. في النهاية، يصل إلى القرية الأصلية التي زارها في الكتاب الأول، لكنها لم تتقبله أكثر من قبل ولم تكن أرضها خصبةً كفاية لرسالته. يعود لكهفه، حيث يسهب في تأمل فكرة العود الأبدي بوصفها إثبات الحياة

الهائل والذي يكفي لتوليد بهجة طاغية في الحاضر، وبالتالي التغلب على العدمية. ينتهي الكتاب -الذي اعتقد نيتشه أنه سيكون الأخير في «**هكذا تكلّم زرادشت**»- بمحاكاة ساخرة تجديفية للكتاب الأخير من العهد الجديد، رؤيا يوحنا اللاهوتي. أطلق على هذه المحاكاة «الأختام السبعة»، وتتألف من قصيدة وجدانية وصوفية من سبع أبيات شعرية تحتفي بزواجه من الأبدية، الزواج الذي يتكرر مرة تلو مرة. وتنتهي كل من الأبيات السبعة بنفس الكلمات:

«لم أعثر بعد على المرأة التي أرغب في أن أنجب منها أطفالًا، إلا إذا كانت المرأة التي أحبها: فأنا أحبكِ، يا أيتها الأبدية!».

« أنا أحبكِ، يا أيتها الأبدية!».

أتم الكتاب الثالث في الثامن عشر من كانون الثاني. قبل أسبوعين، كان قد زاره الدكتور جوليوس بانيث في بنسيونه، عالم حيوانات يهودي شاب من فيينا. اطّلع بانيث على كتب نيتشه وجاء لزيارته ليظهر إجلاله واحترامه للمؤلف. توقع بانيث أن يرى نبيًا ورائيًا وخطيبًا غاضبًا جدًا. لكنه مثل لو، ذُهل لأنه وجد نيتشه رجلًا دمثًا بشكل غير اعتيادي، ودودًا وغير معقدٍ ظاهريًا، فلم يكن له أي تأثير نبوي. قضيا ست ساعات من الحديث، خلالها كان نيتشه طبيعيًا وهادئًا وودودًا وغير خجول. ومع أنه كان ذا هيئة وقورة وجليلة إلا أنه كان فكاهيًا للغاية، وبدوره كان متجاوبًا مع الفكاهة. بدأ حديثهما بمحادثة عادية عن الطقس ومنازل الألواح الخشبية. وعندما تحوَّل موضوع الحديث عن أفكاره وكتبه فإن سلوك نيتشه لم يتغير، بل بقي مهذبًا جدًا. أخبر بانيث أنه لطالما شعر بأن لديه مهمة، وبأن لديه القدرة على رؤية صور عند إغماض عينيه، صور حية للغاية وتتغير دائمًا. تحوي الصور مسحة روحية ولكن الاضطراب الجسدي، المرض مثالًا، يشوه هذه الصور ويحولها إلى رؤى مخيفة وبغيضة[١١].

بعد شهرين مباشرة من الانتهاء من زرادشت، وطّد نيتشه علاقته

بشخصية جديدة أخرى. أكدت الشخصية النسائية التي تعرّف عليها على أنه كان شخصًا متواضعًا وغير مدع كما اكتشف جوليوس بانيث. كانت ريزا فون شرنهوفر[١٢] امرأة ثرية في التاسعة والعشرين من عمرها، سافرت مباشرة إلى نيس بعد انتهاء فصلها الدراسي الأول في جامعة زيورخ، إحدى أولى الجامعات التي سمحت بقبول الطالبات في صفوفها الدراسية. وفي الوقت المناسب، ستكتبُ ريزا أطروحتها لنيل الدكتوراه مقارنة بين الأنظمة الفلسفية لشيلينغ وإسبينوزا. قدمت إلى نيس بناءً على توصية مالويدا، الأخيرة التي لم تتخلَ كليًا عن فكرة إيجاد عروس لنيتشه.

استقبلت ريزا تقديم مالويدا لنيتشه بمشاعر مختلطة، فقد أعجبت بمولد التراجيديا بيد أنها رأت الصورة الفوتوغرافية سيئة السمعة التي سُرج فيها نيتشه وريه إلى عربة لو. كانت ريزا من بين كثيرين ممن أرتهم لو سالومي الصورة في مهرجان بايرويت عام ١٨٨٢، وقد قادها تحفظها حول الصورة إلى الحرج من مقابلة نيتشه، ولكن كل شكوكها كانت قد تبددت فور رؤيته بسبب «مظهر الأستاذ الجدي» الذي يمتلكه بالاضافة إلى صراحته الصادقة. خلال الأيام العشرة التي قضتها في الريفيرا بين الثالث والثالث عشر من نيسان ١٨٨٤، كانا معًا معظم الوقت.

بحلول هذا الوقت، كان قد انتهى من الكتاب الثالث من زرادشت وأرسله إلى المطبعة. توقع نيتشه أن الحديث مع ريزا سيكون حوله وحول عمله فقط ولكنه بدلًا من ذلك أبدى اهتمامًا كبيرًا ببرنامج القراءة الخاص بها، فأوصاها بقراءة بعض المؤلفين الفرنسيين من أمثال الأخوة غونكور وسان سيمون وكتبه حول التأريخ، تاين وكتابه عن الثورة الفرنسية ورواية الأحمر والأسود لستندال. أخبرها أن ستندال كان قد أعلن «بيقين صاعق» أنه سيغدو مشهورًا بعد أربعين عامًا، وتوقع نيتشه بكل ثقة أنه سيصبح معروفًا بعد مضي فترة زمنية.

برغم المساحة الشاسعة التي تفصل الفيلسوف عن التلميذة، إلا أنها وجدته يسمو فوق نظرائه ببساطته وفكاهته وإنسانيته العالية. فقد كان

شخصًا شديد الحساسية ورقيقًا وكيّسًا. كان مهذبًا للغاية مع جميع من قابلهم، وبالأخص السيدات سواء كُنّ عجائزَ أم شاباتٍ، وهذا ما جعله ضيفًا معروفًا في بنسيون جنيف، حيث أشاروا له بوصفه «الأستاذ العزيز شبه الأعمى» وأسدوا له بعض الجمائل الصغيرة التي قد تساعده في تسهيل أمور معيشته. سرعان ما شعرت ريزا بالحرية معه لدرجة الثرثرة عن أي شيء، وعندما أخبرته بأن أحلامًا مثيرة تراودها في بعض الأحيان، نصحها بجدية أن تحتفظ بورقة وقلم تحت يدها عند النوم، كما فعل هو نفسه. لقد عول نيتشه على أهمية الأحلام ودلالة الأفكار الليلية، «نظرًا إلى أن أفكارًا نادرة قد تخطر لنا ليلًا، أفكارًا يجب أن ندونها على الفور باستيقاظنا ليلًا، ففي الصباح لن نعثر على هذه الأفكار مرة أخرى، فهي ترفرفُ بعيدًا كما عتمة الليل»[١٣].

على الرغم من أن علاقتهما كانت علاقة يملأها الود والحنان، إلا أنها لم تكن أكثر من ذلك، فلم يتأجج شغف نيتشه كما قد تأجج على يد لو. لا يمكن النقاش عن التناظر ما بين نيتشه وريزا، فبالرغم من وجود تبادل للأفكار والمشاعر إلا أنهما ليسا من طينة عقلية واحدة، لكنها أخرجت المعلم الذي في داخله والذي استمتع بإرشاد العقول اليافعة في مدرسة باداكوديوم. تحدث إليها بجدية وبحذرٍ حتى لا يُجهدها، وفي سياق حديثه عن الموضوعية، حذرها أن عليها دائمًا الحذر من آرائها المسبقة، لأنه يستحيل على المرء التجرد منها، فالمرء ينبذ آراءه المسبقة ليقع في شرك آراءٍ مسبقة جديدة.

أعطاها الكتب الثلاثة الأولى من زرادشت هدية، منقوشًا عليها «In nova fert animus (الروح هي من تحمل المرء إلى أشياء جديدة)». إصطحبها في نزهة مشيًا على الأقدام حتى مونت بورون، وقد شهد هذا الطريق نزهاته الملهمة خلال تأليفه للكتاب الثالث من زرادشت. حتى هنا، لم يلعب نيتشه دور الصوفي أو الناصح. عند تنزههما، ارتفعت سُحب من الفراشات من بين زهور الزعتر ذات الرائحة الفواحة عند مرورهما بها، ومن تحتهما، تلألأ خليج نيس الملتوي والمكتظ بالأشجار الخضراء والقوارب البيضاء.

عند بلوغهما القمة تقريبًا، قطع الحرّاس الفرنسيون الطريق عليهما

وأمروهما بالعودة دون مواصلة الطريق، فقد تاها في المنطقة الحرام بين فرنسا وإيطاليا، عندها اقتحما حصن مونت إلبان، الحصن القديم الذي كان شاهدًا عن كثب على النزاعات الإقليمية بين البلدين على مدار الثلاثمائة سنة الأخيرة. كان نيتشه فرحًا برؤية ولقاء هذا الحصن، ارتفع مزاجه الحماسي أكثر عندما بددت ريحٌ شمالية عاتية غيوم السماء وطاقتها الكهربائية، مخلفة سماء زرقاء صافية ومتحررة. أخذها إلى مقهًى صغير في أسفل الطريق، حيث قدم لها خمر الفيرمونت، وبينما كان أنف ريزا يتجعد عند ارتشافها من الكأس علق نيتشه ببيتين مقفيين طريفين عن مغامرتهما في العالم التافه الذي يحيط بهما، التي بدأها من الجبل بحراسته المشددة نزولًا.

دعاها إلى مرافقته لحضور مباراة لمصارعة الثيران في نيس، كانت لديها تحفظاتها حول هذه الرياضة، ولكنه أكد لها أن المصارعة هنا تخضع لقوانين رسمية تحظر استخدام الخيول، أو قتل الثيران. الثيران الستة التي دخلت الحلبة بدت وكأنها تعرف قوانين اللعبة تمامًا مثلما عرفها مصارعو الثيران. سرعان ما بدت المصادمات الوديعة بين الطرفين سخيفة مما أثار ضحك نيتشه وريزا بطريقة تعذرت السيطرة عليه، وعندما عزفت فرقة أوركسترالية بسيطة موسيقى من أوبرا كارمن، كان واضحًا الأثر الذي تركته الموسيقى على نيتشه. بطرفة عين، ارتحل نيتشه عن عالم الضحك الهستيري إلى عالم النشوة. لفت انتباهها إلى إيقاعات نبضاته وفهمت ريزا قوة الموسيقى التي تمارس سلطتها عليه. لقد هيجت الموسيقى دمها هي الأخرى، وكتبت أنها تفاجأت عندما أثارت الموسيقى في داخلها -على الرغم من روحها المحبة للحيوانات- رغبة جامحة في رؤية مصارعة ثيران حقيقية بقسوتها ووحشيتها وتمجيدها الديونيسيوسي للموت البطولي.

ألقى على مسامعها قصيدة «أغنية الضريح» وطلب منها أن تقرأ قصيدة «أغنية الرقص» التي أنشدها زرادشت بينما كان كيوبد والصبية يرقصان على المرج. رأت ريزا في القصيدة «شبكة شفافة منسوجة من خيوط الكآبة، تتأرجح على علو شاهق فوق هاوية اشتهاء الموت المظلمة».

بعدها، بقي نيتشه صامتًا ومكروبًا لفترة طويلة.

كانا قد أمضيا عشرة أيام معًا، وبعد رحيل ريزا بأسبوع إلى نيس، غادر نيتشه إلى فينيسيا. في هذه الأثناء كان السيد هينريش كوسيلتز (الملقب بيتر غاست) يواصل تحفيز موهبته المتواضعة لكتابة أوبرا، مع تشجيع نيتشه غير الحصيف له حول هذا الموضوع. بقراءته للنوطات، انتقد نيتشه عمل غاست بنفس قسوة فون بولو تقريبًا التي انتقد بها محاولات نيتشه الموسيقية، ولكن بيتر غاست تقبل تصريحات نيتشه بروحٍ متواضعة، حتى أنه غيّر عنوان ولغة النص الأوبرالي بناءً على اقتراح نيتشه، فقد غير عنوانه من الإيطالية «الزواج السري Il matrimonio segreto» إلى الألمانية «أسد فينيسيا Der Löwe von Venedig». ربما كان تطويع غاست البائس بهذه القوة غير الضرورية دلالة على انهيار ثقة نيتشه الشخصية بعد طباعته للكتب الثلاثة الأولى من زرادشت.

لم يكن ناشره متحمسًا بخصوص الكتب الثلاثة الأولى من زرادشت، وحتى ياكوب بروكهارت الذي أدرك وقدّر جيدًا قيمة الجزأين الأولين، كان محرجًا من السؤال الذي طرحه عليه نيتشه متحمسًا لرأيه بالكتاب الثالث، فأجاب بطريقة مراوغة متسائلًا عما إذا كان نيتشه يرغب بتجربة كتابة مسرحية؟

تردّى وضع نيتشه الصحي بشكل حاد في الصيف. فقد آلمته عيناه للغاية وعانى من نوبات تقيؤ استمرت لأيام متتالية. لم يكن بحوزة الأطباء أي أجوبة جديدة عن عينيه، أو عن معدته المعطوبة، أو أي احتمالات في أن يحظى نيتشه بنوم هانئ. وهكذا عاد إلى تعاطي الأدوية بطريقة ذاتية، حيث اعتمد بصورة كبيرة على مساحيق هيدرات الكلورال، عقار منوم ومسكن يستخدم في التخفيف من حدة الأرق والتقيؤ والهلوسة والتشوش والتشنجات وعدم انتظام التنفس وضربات القلب. وفي الواقع، كان نيتشه يتعاطى هذا العقار لتهدئة كل هذه الاعراض.

قاده اليأس للعودة إلى مدينته المحبوبة سيلس ماريا، لكي يزينها بورق

الحائط الذي كان متولعًا به، وكان ورقًا مزينًا بأزهار ذات درجات لونية مريحة للعين من الأخضر والبني والأزرق[١٤]. كانت الغرفة صغيرة إلى أبعد حد، بسقف واطئ ونافذة صغيرة وسرير ضيق وطاولة ريفية بسيطة أمام النافذة. كانت الغرفة بالكاد تتسع لحشر كتبه التي يبلغ وزنها ١٠٤ كغم.

تواصلت معه ريزا عندما كان في سيلس ماريا في منتصف آب، فقد انتهى فصلها الدراسي الصيفي في الجامعة وكانت عائدة مع طالب زميل لها من زيورخ إلى فيينا، مسقط رأسها. صُدمت ريزا عند رؤيتها تغييرات مفاجئة طرأت على نيتشه منذ أيامهما معًا في نيس، على الصعيد الجسدي وحتى على صعيد محادثاته.

كان مضطربًا كثيرًا بسبب زيارتها ولكن حلت اللحظة التي كان فيها لائقًا بما يكفي لاصطحابها على الاقدام إلى صخرة زرادشت، التي تقع على بعد خمس وأربعين دقيقة من منزل جيان دوريش. كان نيتشه الحقيقي الذي عرفته قد اختفى، فقد تحدث إليها بطريقة عنيفة ومستعجلة وسكب «أفكاره الغزيرة وصوره على شكل تصريحات جياشة بالعاطفة»، كانت ريزا حريصة في التأكيد على أن نيتشه وبالرغم من أن حديثه قد تغير وأصبح بحالة مروعة، إلا أنه تحدث بطريقة تخلو من مشاعر جنون العظمة أو التبجح. لقد تحدث بطريقة ساذجة وبذهول لا حد له، كما لو أن تدفق كلماته كان شيئًا غامضًا لا يمكنه تفسيره، وهو تأثير خارج عن سيطرته. لقد أخبرها أن هذا التأثير وضع وجوده برمته تحت رحمة اضطراب متذبذب.

عندما مضيا إلى صخرة زرادشت وانعطفا عائدين إلى المنزل عبر الغابات، كان هناك قطيع من الأبقار منحدرًا نحوهم من التل بسرعة. كانت ريزا خائفة من الأبقار فشرعت بالركض. أما نيتشه فقد صوب مرافقه الدائم، **المظلة**، نحو الأبقار ولوحَ بها إلى الخلف وإلى الأمام، فغير وجهة الابقار إلى وجهة أخرى. ضحك نيتشه، بينما شعرت ريزا بالخجل من جبنها، وأوضحت له أن ثورًا هاجمها مع أمها عندما كانت في الخامسة من عمرها وهربتا منه بصعوبة. في هذه اللحظة، أصبح نيتشه متزنًا وشرح

لها عن تأثير الموجة، وهي أنه إن تعرض المرء لصدمة عصبية في مرحلة الطفولة المبكرة، ففي الغالب ينسحب تأثير هذه الصدمة على الحياة برمتها.

لم تره ريزا في اليوم التالي، فقد كان حبيس الفراش مرة أخرى. بعد مضي يوم ونصف، ذهبت إلى منزل جيان دوريش للاستعلام عن وضعه الصحي. أخذوها لتنتظر في غرفة الطعام الصغيرة واطئة السقف والمغلفة بألواح الصنوبر.

فجأة فُتح الباب وطل نيتشه مرهقًا وشاحبًا ومضطربًا. متكئًا على عضادة الباب ليسند جسده، بدأ بالحديث عن وضعه الذي لا يطاق، وتذمر لأنه لم يحظَ بالطمأنينة. عندما أغمض عينيه، تراءت له غابة كثيفة مليئة بأشياء ذات أشكال متغيرة باستمرار، في الغابة تنتشر زهور خيالية وافرة النماء بشكل يثير الغثيان، تلتف وتنجدل باستمرار في حلقة دائرية متسارعة من النمو والاضمحلال المثير للاشمئزاز. كانت ريزا قد قرأت بودلير، مما جعلها تتساءل عما إذا كان نيتشه يتعاطى الأفيون والحشيش؟.

كان لا يزال متكئًا على الباب عندما سألها بصوت خافت وبإلحاح يثير القلق «ألا تعتقدين أن هذا الوضع هو أحد أعراض الجنون الأولية؟ لقد فقد والدي حياته إثر أصابته بمرض في الدماغ».

ارتبكت وتخوفت من الاجابة على سؤاله فورًا. كرر على مسامعها السؤال مُلحًا في حالة من القلق الذي لا يمكن كبح جماحه، فأصابها الخوف بالشلل ولم تجد ما تقوله لمواساته.

(١٥) حيث القبور يكون النشور:

١. كلود غيلي (١٦٠٤-١٦٨٢)، والمعروف باسم كلود لورين، رسام فرنسي يصور في لوحاته المناظر الطبيعية التي تشبه أركاديا التي ترد في الكتاب المقدس وفيرجيل وأوفيد. كانت لوحاته غالبًا ما تكون مرصعة ببقايا بنيات معمارية وشخصيات وحيوانات، والتي كانت مصدر إلهام اساسي لحركة تصوير المناظر الطبيعية الإنجليزية في القرن الثامن عشر.

٢. هكذا تكلّم زرادشت، الكتاب الثاني، ٤.

٣. من نيتشه إلى كارل فون غيرسدورف، ٢٨ حزيران ١٨٨٣.

٤. هذا هو الإنسان، «هكذا تكلّم زرادشت»، ٣.

٥. من نيتشه إلى جورج براندز، ١٠ نيسان ١٨٨٨.

٦. هكذا تكلّم زرادشت، الكتاب الثاني، «عن عناكب الرتيلاء».

٧. من نيتشه إلى بيتر غاست، آواخر آب من عام ١٨٨٣.

٨. من نيتشه إلى فرانز أوفربيك، استلمت في ٢٨ آب ١٨٨٣.

٩. من نيتشه إلى فرانشيسكا نيتشه وإليزابيث نيتشه، ٣١ آذار ١٨٨٥.

١٠. إليزابيث نيتشه إلى برنارد فورستر، كانون الثاني ١٨٨٤.

١١. يصف هنا الدكتور جوليوس بانيث زيارتيه إلى نيتشه في نيس، في ٢٦ كانون الأول ١٨٨٣ و٣ كانون الثاني ١٨٨٤.

١٢. ريزا فون شيرنهوفر (١٨٥٥-١٩٤٨)، ولدت في كريمس، النمسا، مؤلفة كتاب مذكرات مختصرة غير منشورة عن نيتشه، Vom Menschen Nietzsche، ١٩٣٧.

١٣. ريزا فون شرنهوفر، ٣ -١٣ نيسان ١٨٨٤، وردت في الكتاب الذي حرره غيلمان محادثات مع نيتشه، صفحة ١٤٦-٥٨.

١٤. بقى شبح ورق الجدران في غرفة المنزل، وأصبح هذا المنزل متحفًا لنيتشه في سيلس ماريا.

١٦

أوقعني في كمينه!

بالمناسبة، أن جُل ما في زرادشت هو انفجار للقوى التي استفحلت على مدى عقود، وسيكون من السهل على مبدع هذا الانفجار أن يفجِّر نفسه. لطالما تمنيت فعل هذا الشيء.

رسالة من نيتشه إلى فرانز أوفربيك، ٨ شباط ١٨٨٤

كان نيتشه يتحلّى بثقة عالية فيما يخص كتاب زرادشت، على الرغم من أن مبيعات الكتاب كانت تبعث على الغم وأن أغلب مناصريه، من أوفربيك وبيتر غاست، رددوا نصيحة الناشر. فقد اتفق الجميع على أنه كتب ما فيه الكفاية من كتب زرادشت وأنه كتب ما فيه الكفاية باستخدام أسلوب الشذرات، فلم تكن هناك أي رغبة بقراءتها. لكن زرادشت لن يتركه وحيدًا، وبقي نيتشه يسجل ملاحظات أكثر. يبدو أن زيارة وحي زرادشت في فترة أعياد الميلاد والسنة الجديدة أصبح نمطًا تقليديًا. فأنجز الكتاب الرابع من هكذا تكلّم زرادشت بين كانون الأول ١٨٨٤ ونيسان ١٨٨٥، بعد مرور عام بالضبط من الجزء الثالث.

صُدم صدمة كبيرة عندما رفض شمتزنر ببساطة نشر الكتاب، فقد

اتسعت الخلافات السياسية والايديولوجية بين نيتشه وشمتزنر إبان فترة نشر الكتب السابقة، وتراكم تصعيد بطيء لانعدام الثقة بين المؤلف والناشر، مما صعب عملية نشر كل جزء من الأجزاء تدريجيًا.

كان نيتشه مرتاحًا بعض الشي عندما تأجلت طباعة الكتاب الأول من زرادشت حيث علِق الكتاب في طابورٍ طويلٍ خلف نصف مليون نسخة من كراسات ترانيم الكنيسة، لكن الموضوع اختلف عندما عرف أن شمتزنر كان يطبع صحيفة Antisemitische Blätter (صحيفة مناهضة للسامية)، التي تعكس وجهات نظر الناشر السياسية.

كان كتاب زرادشت الثالث هو الكتاب الحادي عشر الذي ينشره شمتزنر لنيتشه، ولم يحقق أي كتاب منها أية عوائد مالية. كانت كل طبعة من الكتب مكونة من ألف نسخة، وقد بيع من كتب زرادشت الثلاثة الأولى أقل من مائة نسخة لكل كتاب، فلا عجب أن شمتزنر رفض مواصلة النشر لنيتشه.

منذ لحظة استقالته من بازل، أصبح نيتشه لا يكترث لأموره المالية، وقد سببت سذاجته المتعمدة في هذا الشأن اضطرابًا في شؤون النشر والطباعة. كان مصدر دخله الرئيسي هو راتبه التقاعدي من جامعة بازل والذي يبلغ ثلاثة آلاف فرنك سويسري (٢٤٠٠ مارك ألماني) في السنة. عام ١٨٧٩، وفي غفلة من أمره وبسبب حماسته، كلف ناشره باستثمار مدخراته من راتبه ومعاشه التقاعدي، وبلغت آنذاك ١٦٠٠ مارك. كما ورث ميراثًا ضئيلًا من جدته إيردمث والعمة روزالي وأخت والده غير الشقيقة. وضعت والدته هذه الأموال في استثمارات طويلة المدى بقيت تحت رقابتها، كما ادخر أوفربيك لنيتشه بعض المال في سويسرا. عندما كان نيتشه يسرف في التبذير، كان يلجأ في بعض الأحيان إلى أوفربيك لطلب بعض النقود بالعملة السويسرية (الفرنك)، وفي بعض الأحيان إلى شمتزنر لطلب النقود بالعملة الألمانية (المارك)، وفي بعض الأحيان كان يطلب من أوفربيك أرسال المال إلى شمتزنر. باعتبار والدته الملاذ الأخير ليس إلا، لجأ إليها مُرغمًا، وصل المال منها مرفوقًا بخطابٍ وعظي عن البذخ وتحذيرات رهيبة من كارثة ستحل على وضعه المالي.

كان شمتزنر رجلًا ذا مصداقية في دفعه لحقوق كتب نيتشه المستحقة، ولكن عندما طُبع الكتاب الثالث من زرادشت، وجد نيتشه أنه بحاجة لخمسمائة فرنك سويسري لتسديد المبلغ الذي يدين به، وبالتحديد، لمكتبة تبيع الكتب المستعملة. وعد شمتزنر أن يدفع له بحلول الأول من نيسان ١٨٨٤ . جاء الموعد وانقضى، وغدا نيتشه قلقًا. في ذلك الوقت تحديدًا، كان شمتزنر يحتفظ بمبلغ يقدر ما بين ٥٠٠٠ أو ٥٦٠٠ مارك، وهو مبلغ ذو أهمية كبيرة لتأمين مستقبل نيتشه. بعلمه أن راتب جامعة بازل التقاعدي يستمر لست سنوات فقط وينتهي بحلول حزيران ١٨٨٥، شعر نيتشه بخوف حقيقي جدًا بسبب حيرته بكيفية قضاء حياته بعد توقف أموال التقاعد. كتب شمتزنر له: «يؤسفني حدوث هذه التعقيدات المالية، وهناك فرقٌ كبير بين شخص أصبح فقيرًا وشخصٍ آخر يملك ثروة ولكنه مُلزمٌ بوضعها تحت تصرف إدارة دور النشر وشؤون الطباعة لبضع سنوات، وهذا يعني أن هذه الأصول المالية ليست سائلة...»[1].

اقترح شمتزنر بما أن نيتشه مستعجل للحصول على النقود، فبإمكانه بيع كتبه بثمن منخفض، وقد قدّر أن يكون رصيد نيتشه عشرين ألف مارك تقريبًا، وسيُدفع لنيتشه بعضًا منها. كان هذا الاقتراح مُفزعًا، فلم يرغب مؤلفٌ في أن تتكدس كتبه.

في هذا الخصوص، لم يكن هناك أحد على استعدادٍ لشراء ٩٧٢٣ كتابٍ من كتب نيتشه المتبقية. انقضت احتفالات السنة الجديدة، وشمتزنر لم يفِ بوعوده بدفع المال. استعان نيتشه بـ«محامٍ ذكي جدًا» لتمثيله، وهو أحد أقاربه البعيدين من جهة والدته يدعى برنهارد ديكسل. لم يكن ديكسل متفائلًا، فقد وعده شمتزنر بتسديد المال في حزيران، ولكنه فشل مجددًا في سداده. في آب، وضع نيتشه في رأسه فكرة إقامة مزادٍ لكتبه، يعرض فيه ما يريد منها، وبهذا يستطيع إعادة طباعتها بتصميم جديد. وقد رغب في عرض إنساني مفرط في إنسانيته، بجزأيه، والأجزاء الثلاثة الأولى من زرادشت.

في وقت لاحق من آب، أصدر تعليماته لمحاميه للمطالبة بإقامة مزاد

جبري على دار النشر التي تعود ملكيتها لشمتزنر، ولأن شمتزنر كان مذعورًا من فكرة أن يجد نفسه خارج دار نشره، فقد كان مضطرًا لدفع مبلغ ٥٦٠٠ مارك لنيتشه في تشرين الأول. وهذا يعني أن شمتزنر لم يكن مضطرًا لبيع دار نشره أو خزينه من كتب نيتشه على حد سواء، وهي نتيجة جيدة لشمتزنر ولكنها سيئة بالنسبة لنيتشه، الأخير الذي رأى كتبه مدفونة إلى الأبد في هذه «الحفرة المعادية للسامية»[٢].

سدد نيتشه ديونه لمكتبة بيع الكتب المستعملة في لايبزيغ، ودلل نفسه في أن يكون راعيًا موسيقيًا عبر تنظيمه عرضًا خاصًا للتمهيد الموسيقي لموسيقى «أسد فينيسيا» التي ألفها ربيبه بيتر غاست، كما أرضى والدته بدفعه ثمن حجر رخامي جديد فاخر لقبر والده. كل ما نعرفه، أن نيتشه كان مسؤولًا عن صياغة العبارة المنحوتة على الحجر. كانت صياغة بحسب الأعراف المسيحية التقليدية «يرقد هنا بين يدي الرب، كارل لودفيغ نيتشه، قس روكن وميشلتز وبوثفيلد، ولد في ١١ تشرين الأول ١٨١٣، وتوفِّي ٣٠ تموز ١٨٤٩ ومن ثم لحق به إلى الخلود ابنه الأصغر لودفيغ جوزيف، ولد في ٢٧ شباط ١٨٤٨، وتوفِّي ٤ كانون الثاني ١٨٥٠. لن يخبو العمل الصالح أبدًا. ١ كورنثوس ١٣. ٨».

كتب إلى كارل فون غيرسدورف، طالبًا منه تمويلًا ماليًا لطبعة صغيرة خاصة مكونة من عشرين نسخة لكتاب زرادشت الرابع[٣]. لم يرد فون غيرسدورف حتى، ولحسن الحظ قررت جامعة بازل أنها ستمدد راتبه التقاعدي لسنة أخرى، فقرر طباعة الكتاب بشكل كامل على نفقته.

يُقرأ كتاب زرادشت الرابع بوصفه سردًا فانتازيًا مطولًا وانتقاميًا موجهًا لكل الذين سببوا له القلق في حياته، من الرب إلى العلقة التي ثبَّتها الأطباء على رأسه لكي تمتص دمه.

يعيش زرادشت مع حيواناته في كهفه، وتشجعه هذه الحيوانات على المضي إلى قمة الجبل. وهنا كانت له محاورة مع «الرجال الراقين» الذين

تزعموا حتى الآن الحضارة، من بينهم ملوكٌ والبابا وشوبنهاور وداروين وفاغنر وحتى نيتشه نفسه.

واحدًا تلو آخر، أرسلهم إلى كهفه حيث سيكتشفون الحكمة. عندما بلغ زرادشت كهفه وجدهم يعبدون حمارًا، ففي غياب الرب ستعبد البشرية أي شيء. قدم لهم زرادشت العشاء الأخير الذي بشّر فيه بالإنسان الأرقى، وهو الإنسان الأعلى. يحذرهم من أن لا يطلبوا ما يفوق طاقتهم، وأن لا يثقوا بقدرته على تقويم ما لم يحسنوا صنعه، وأن لا يهربوا من الصاعقة، ونظّم لهم ترنيمة يوم القيامة، منتصرًا عليهم جميعًا.

فاغنر «الساحر وأصواته الموسيقية الأكثر عذوبة تمثل خطرًا ودمارًا على الغريزة والإيمان الجيد والضمير الخيّر»، يستولي على القيثارة ويحاول أن يفوز بأتباع زرادشت وإبعادهم عنه بأغنية، لكن ظِل المتجول ينتزع القيثارة منه ويرد عليه بأغنية طويلة وغريبة جدًا زاخرة بالصور الوافرة. كانت الأغنية تتكلم عن هرتين تملأ قلبيهما الريبة، وأسودٍ بشرية شقراء وحشية ومخلوقاتٍ غريبة هجينة أخرى وظلال خيالية، وقد لا نجد في الأدب أسلوبًا مشابهًا لهذا سوى ما نجده في أغلب أعمال ساموبل تايلور كولريدج الأدبية الباروكية التي أنجزها تحت تأثير اللودانوم(*). كم يدين هذا المقطع للمساحيق المنومة التي تعاطاها نيتشه، وإلى متى يستمر الجدل بشكل لا نهائي حول رغبته في السخرية من رؤيا يوحنا اللاهوتي. يرى بعضٌ أن هذا النص يشير إلى تجربته في بيت الدعارة في كولونيا.

يُعرف راوي هذه القصيدة بوصفه الصوت الأوروبي الأول الذي يخرج من تحت أشجار النخيل، يزأر وكأنه أسدٌ أخلاقيٌ أمام بنات الصحراء. عند استعراضه للتعقيد المعتاد في تفاعل الغربي مع الشرق، ترك ذاته تغرق في بحر إعجابه بأشجار النخيل التي يتمايل خصرها مع هبوب الريح. محمومًا بتوقه إلى تقليدها، يفقد ساقه، ويتابع طريقه بلا خوفٍ ليشرب أثناء سيره

(*) اللودانوم: نوع من أنواع الأفيون. (المترجم)

على ساقٍ واحدةٍ يشم الهواء النقي بمنخارين متسعين كما الأقداح، ويزأر. في نهاية المطاف، يترك زرادشت كهفه متوهجًا وقويًا «مثل شمس الصباح التي تبزغ من خلف الجبال المظلمة»، وبهذا تنتهي ما أطلق عليها «حكاية البحار الجريئة الجنونية والجَذِلة».

اعتقد نيتشه نفسه أن «**هكذا تكلّم زرادشت**» أهم أعماله، وبرغم، أو ربما بسبب، طابع الكتاب الصوفي المعقد، أصبح زرادشت كتابه الأكثر شهرة، غير أنه لم يجلب لنيتشه الشهرة في حياته. يطور كتاب زرادشت المواضيع المفتاحية في فلسفة نيتشه الناضجة: العود الأبدي والتغلب على الذات وبلوغ الإنسان الأعلى عبر رؤى ملتهبة إن لم تكن مُربكة تتحدانا لنعيد التفكير بذواتنا.

رغم ولائه لمبدئه في النفور من التدخل في حرية تفكيرنا، فإن إحدى أكثر سمات نيتشه المحبطة والمزعجة تتمثل في رفضه أن يعرض لنا المسار الذي يؤدي إلى أن نغدو الإنسان الأعلى، ولا حتى أن يخبرنا بماهية الإنسان الأعلى. نعلمُ أنه يتصور الإنسان الأعلى إنسان المستقبل القوي والترياق الناجع لمعضلة التقزم الأخلاقي والثقافي التي أفرزتها قرونٌ من الانحطاط الأوروبي وهيمنة الكنيسة. إنهُ الشخص الذي لم يخضع للنزعة الشكوكية والعدمية على الرغم من موت الإله؛ إنه الشخص الذي حسّن حياته عبر تحرره من الاعتقادات. إن تحرره من العقيدة الدينية يعادل مقاومته لتحويل تلك العقيدة إلى علم، وإن الإنسان الأعلى ليس بحاجة للعقائد لكي يشعر باستقرار العالم.

كيف بلغ الإنسان الأعلى هذه الحالة؟ لم يخبرنا نيتشه بذلك أبدًا. إن أقرب وصف يقدمه نيتشه هو وصف واسع وتجريدي بشكل يثير الحنق. يصف نيتشه الإنسان الأعلى في كتابه هذا هو الإنسان بأنه كائن مقتطع من شجرة، صلبٌ ورقيق وعبق على حد سواء. يعمل على إصلاح الأعطاب التي تصيبه، ويجير المصائب التي تنزل به لمصلحته ويعرف كيف ينسى. إنه قوي بما فيه الكفاية ليجعل من كل شيء يصب في مصلحته، فما لا يقتله يجعله

أقوى[٤]. في إنساني مفرط في إنسانيته، وصف نيتشه الإنسان الأعلى بأنه مسافر إلى وجهة لا وجود لها. لكن هذا لا يفسد حياته؛ بل على العكس، فإن تحرره يكمن في الاستمتاع باللايقين وبالتنقل. كما أنه يرحِّب بكل فجر جديد وبما سيجلبه من أجل تقدم الفكر. وبالامكان التخفيف عن كربه الوجودي على الرغم من غياب المثالي أو الألوهي[٥].

إجمالًا، يلهمنا نيتشه أشياء سامية في هذه المقاطع من الكتاب، دون العودة إلى قوانين وضعية. نيتشه الذي يحب أن يصف نفسه بمغامر الروح الأرغوناتي وفيلسوف «الريبة»، لم يحدد أي إشكاليات واضحة في الوضع البشري ينبغي حلها، ولكن هذا الوصف الواسع للإنسان الأعلى يشجعنا على إيجاد حلول مستقلة خاصة بنا.

كلفته الطبعات الخاصة من كتاب زرادشت الرابع، التي يبلغ عددها أربعون نسخة، ٢٨٤ ماركًا و٤٠ بفنغًا، وقد طبعها كونستانتن ناومان. عندما أصبح الكتاب جاهزًا أخيرًا في أيار ١٨٨٥، عانق نيتشه الكتاب بنفسه، وأخفاه عن الأعين مخافة أن تكتب مراجعة عنه أو أن يعلن عنه في كل مكان. كان عذره أن كلمتي «إعلان» و«جمهور» تتطابقان عنده مع كلمتي «ماخور» و«مومس»[٦]. أرسل سبع نسخ مجانية فقط، إلى كل من: فون غيرسدورف وأوفربيك وبيتر غاست وباول وايدمانن، الصديق الذي رافق غاست إلى بازل في بداية صداقتهم؛ كما استلم باول لانسكي وهو معجب جديد نسبيًا، نسخة مجانية. عرض لانسكي تأليف كتاب عن نيتشه لكنه أغاظ نيتشه لأنه بدا كإسكافي له عادة التنهد. لم يرسل نسخة إلى بوركهارت. أرسل نسخة إلى إليزابيث وواحدة أخرى، وبشكل مستغرب، إلى برنارد فورستر.

حافظ نيتشه على المسافة البعيدة التي تفصله عن ناومبورغ. كانت إليزابيث على وشك بلوغ التاسعة والثلاثين من عمرها، وعيد ميلادها على الأبواب، فاقترحت على فورستر أن يعود إلى ألمانيا في آذار ١٨٨٥ حتى يتسنى لهما الزواج في الثاني والعشرين من أيار، في ذكرى ولادة فاغنر. لم تمر مجاملة إليزابيث مرور الكرام في بايرويت، حيث تولت كوزيما زمام إقامة الحفل

وإدارة كل متعلقاته. لطالما كانت معاداة كوزيما للسامية أكثر عمقًا من معاداة فاغنر. بترمل كوزيما صار لمعاداتها للسامية مساحة فسيحة لتؤثثها بحسب ما تشاء وعملت شبكة جمعيات فاغنر على نشر صدى التعصب العنصري عبر كل ألمانيا. تلقى نيتشه أخبار استعدادات إليزابيث لحفل زواجها بهدوء وباهتمام بارد. لقد أوضح أنه لن يحضر الحفل وليس لديه أي نية لمقابلة صهره المستقبلي. طلبت إليزابيث منه أن يمنحها لوحة دورر المنقوشة عام ١٥١٣ «الفارس والموت والشيطان» كهدية لزفافها. لقد أحب هذه اللوحة، وكان قد أعطى نسخة منها إلى فاغنر أيام تريبشن، حينما اعتقدا أن الفارس يرمز لهما وهما يمتطيان جواديهما لانقاذ الثقافة الألمانية. لقد كانت نسخته الخاصة من هذه اللوحة المنقوشة من ضمن ممتلكات قليلة جدًا لم يبعها عند مغادرته بازل. كان قد ائتمنها عند أوفربيك خلال سنوات تجوله، وقد كانت رقيقة للغاية وثمينة فلم يحشرها بين كتبه. طلب نيتشه من أوفربيك أن يرسلها إلى إليزابيث في ناومبورغ، حيث وصلت في الوقت المناسب لحفل الزفاف. أسرف الزوجان في شكره حتى اعتقد أنه قد تجاوز حدود الكرم الطبيعية في إرساله هدية كتلك لمناسبة حفل زفاف. أعرب عن أمنيته في أن يحظى الزوجان الجديدان بمستقبل أكثر بهجة من المستقبل الذي يظهر في لوحة دورر المنقوشة.

كانت رسائل نيتشه الموجهة إلى أمه وأخته لبقة وعادية ولكنه لم يستطع كبح نفسه من عدم إغاظة اللاما عبر تفاصيل صغيرة. كان «إيلي» هو الاسم المحبب الذي أطلقه فورستر على إليزابيث. هل أدرك الاثنان أن هذا الاسم في اللغة العبرية يعني «إلهي»؟. تساءل نيتشه، هل بإمكان نباتي مثل فورستر أن ينجح في تأسيس مستوطنة؟ كان الإنجليز هم الأفضل في هذا الصدد -تأسيس المستوطنات- ويبدو أن نجاحهم يعود إلى رباطة جأشهم واعتمادهم على لحم البقر المشوي. لاحظ نيتشه أن الامتناع عن شرب الكحول واتباع حمية نباتية ستقودان إلى القنوط والكآبة، على عكس ما هو مطلوب في مثل هذه المشاريع الاستيطانية. كانت حمية نيتشه الأخيرة تعتمد

بشكل حصري تقريبًا على اللحم وصفار البيض والرز وأوراق الراوند والشاي والكونياك ومشروب روحي يُمزج بالماء. لقد أوصى بهذه الحمية باعتبارها الوسيلة الأنجع لاكتساب فوائد كبيرة من أقل كمية من الغذاء.

بيد أنه، وعلى الرغم من كل الأمور التافهة التي أرسلها ليغيظها، كتب لإليزابيث، بمناسبة زفافها، الرسالة الأكثر جدية منذ الرسالة التي كتبها لها عندما كان تلميذًا في المدرسة عن مسألة الإيمان. وصف الرسالة بأنها «أشبه بتقرير عن حياتي»، أخبرها أن حياته بدت له وكأنها سلسلة من المحاولات المرهقة للتكيف مع الأوساط الاجتماعية المزيفة. « لقد كانت كل علاقاتي الإنسانية تقريبًا نتاج هجمات مشاعر العزلة... إن رأسي مثقل بآلاف الذكريات المخزية التي تعود إلى لحظات الوهن، والتي لم أستطع فيها تحمُّل العزلة بتاتًا... هناك شيء بالغ الصغر وغريب يسكنني ولذلك تتلون كلماتي بألوان أخرى لا تصبغ ذات الكلمات عندما تخرج من أفواه أشخاص آخرين... كل ما كتبته حتى هذه اللحظة هو مقدمة؛ إن الشيء الحقيقي عندي يبدأ بالاندفاعات فقط... أعتبر هذه الاشياء بمثابة وسائل للترويح عن النفس، ولكنها -قبل كل شيء- أماكن خفية، يمكنني أن أجلس خلفها مرة أخرى لفترة من الزمن.

ولذلك لا تظنيني مخبولًا يا لاماي العزيزة، واعذريني لعدم حضوري حفل زفافكِ، إن فيلسوفًا «عليلًا» سيكون اختيارًا سيئًا لكي يهدي العروس لزوجها! مع ألف أمنية طيبة محبة، أخوكِ المخلص ف.». [٧]

قضى نيتشه وقته يوم زفاف إليزابيث على جزيرة ليدو فينيسيا، مستحمًا في البحر مع عائلة من بازل. إن هذه الرسالة التي تعكس عمق تفكيره، وانطواءه على نفسه، إلى جانب الهدوء العاطفي الجلي حيال زفاف إليزابيث، تهدم أسس الأسطورة المستمرّة عن ولع نيتشه المحرَّم بشقيقته إليزابيث.

كان رجاؤه «لا تظنيني مخبولًا» ذا أهمية بالغة. في سيلس ماريا، أظهر نيتشه مخاوفه أمام ريزا من شبح وراثة الجنون. ففي محادثات مع ريزا، لفت نيتشه

انتباهها إلى كتاب **«تساؤلات في ملكة الإنسان العقلية وتطورها» (١٨٨٣)** للكاتب فرانسيس غالتون، ابن عم داروين ومؤسس اليوجينا، علم تحسين النسل. شهدت الخمسينيات من القرن التاسع عشر، وهي سنوات نيتشه الأولى، بزوغ فجر إدراك الإنسان للأمراض الوراثية، وأدى هذا الاكتشاف إلى بروز فكرة الدم «الفاسد» أو «الخبيث» وراثيًا. وبسبب معاناة والده وأفراد بعيدين ينتمون لعائلته من درجات متفاوتة من الجنون، لم يستطع نيتشه إزاحة هذه الفكرة من ذهنه والتي تضمر الميل للانحطاط الأخلاقي، حسب التفكير شبه العلمي آنذاك. تطورت هذه النظرية طوال فترة حياة نيتشه، وبلغت أوجها عند نشر ماكس نورادو لكتابه «الانحطاط» عام ١٨٩٢، الكتاب الأكثر مبيعًا والمؤثر على نحو هائل والمكتوب بطريقة عنصرية مفزعة، والذي يميل لرغبة البشرية باليقين عند تبشيره بمصير الإنسان المحتوم الذي يحدده الدم. لقد تناول نيتشه هذا الموضوع في زرادشت عبر اقتراحه أنه يجب علينا ألا نواجه أشباح الأفكار الميتة والمعتقدات الميتة وحسب، بل حتى ما ورثناه من آبائنا والذي يجري في دمائنا. من خلال هذا الفعل فقط بإمكان أي واحد منا أن يتمم إمكاناته الخاصة، وأن يغدو على ما هو عليه.

في ذات المحادثة مع ريزا، أكد نيتشه على أن الوراثة لم تحدد بالضرورة مصيرًا محتومًا، فربما لعب الاطلاع على ثقافات مغايرة وعملية تفهم «الآخر» دورًا في صيرورة الحياة. عندها، لاحظت ريزا أن شكل نيتشه لا يبدو كما يبدو أي ألماني لا بمظهره الخارجي ولا بجوهره الروحي. ذكرها شكل رأسه بلوحة كانت قد رأتها في معرض فني في فيينا رسمها يان ماتيكو، وهو رسام بولندي اشتهر برسمه للوحات تأريخية بطولية لأبناء قوميته.

اعتنق نيتشه فكرة ريزا بحماسة متقدة. من الآن فصاعدًا سيخبر الناس بحرية أنه لم يكن في الحقيقة ألمانيًا بل بولنديٌّ، وأنه ينحدر من أصول بولندية ارستقراطية واسم عائلته «نيتزكي»، ولأنه كان فيلولوجيًا ذات مرة، فقد كان مبتهجًا للغاية بسبب أصل اسمه المفترض «نيتزكي» والذي يعني بالبولندية **«العدمي»**.

عملت جذوره المفترضة كقناعٍ متقنٍ ارتداه ليتنصل من حاضره الإشكالي، فقد تحول لوهلة إلى إنسان أوروبي صالح بسبب الدم الذي يجري في عروقه وكذلك بسبب النزعة الثقافية في داخله، بالإضافة إلى أن هذه الأصول الافتراضية عملت على توسيع المسافة التي تفصله عن بيئة ناومبورغ الفاضلة والقومية الألمانية التي بشر بها صهره الجديد عبر البلاد طولًا وعرضًا.

لم يذهب المتزوجان حديثًا في رحلتهما إلى باراغواي فور انتهاء حفل زفافهما. كانت فرانشيسكا هي من اقترح هذا، حتى تستقر الأمور، كما يجب على فورستر أن يصبح معلمًا خاصًا لأحفاد إحدى أميرات ألتنبرغ اللواتي درَّسهن والد إليزابيث ونيتشه لفترة قصيرة. كان أكبر أمال فرانشيسكا يعتمد على الأميرة ألكسندرا، والتي كانت في غضون ذلك الوقت دوقة كونستانتين الكبيرة لروسيا. كانت ابنتها هي ملكة اليونان ولديها سبعة أبناء من الواضح أنهم في حاجة لمعلم خاص. حرصًا منها على تحقيق هذا الأمر، أخذت فرانشيسكا على عاتقها مهمة إقناع فورستر، على الرغم من اعترافها بمواجهة بعض العوائق المتمثلة بصعوبة اللغة.

كان اقتراح إليزابيث الأكثر عملية هو أن يبدأ فورستر بجمع التمويل المالي وتجميع المستوطنين من ألمانيا أفضل من تجميعهم في الباراغواي. كان اقتراحًا صائبًا من غير شك، وقد قضى فورستر التسعة أشهر المحصورة بين زواجه وإقلاعه نحو باراغواي في التجول في أصقاع البلاد شمالًا وجنوبًا، ولم يقتصر على توجيه خطابه لجمعيات فاغنر، والتي رأى أعضاؤها أنفسهم رقيقين جدًا ليكونوا في الموجة الأولى من المستوطنين لتكسير الأحجار لغرض إنشاء مستوطنة، وإنما توجه لمنظمات الفلاحين والنجارين وأصحاب الحرف الأخرى الذين لم يشعروا بأنهم في منزلةٍ أعلى من أن يذهبوا ضمن صفوف الطليعة النافعة.

سعى فورستر إلى تجنيد عشرين عائلة، ويجب على كل عائلة أن تضع مبلغًا يتراوح بين الألف والعشرة آلاف مارك. في حين تحقق مجموع رأس المال

المكون من مائة ألف مارك، فإن قطعة الأرض المناسبة ستكون «مضمونة» وستحصل كل عائلة على قطعة الأرض الخاصة بها. بإمكان المستوطنين المهاجرين معه إلى الباراغواي أن يحرثوا أرضهم مثلما يرغبون وأن يورثوها إلى أبنائهم وأحفادهم، ولكنهم غير قادرين على بيعها أو المتاجرة بها؛ لا عجب أن قدم القليل من المتطوعين للمشاركة في رحلة باراغواي. في تلك الحقبة، هاجر الكثير من الحرفيين إلى أمريكا بطريقة أكثر سهولة وتكلفة أقل وشروط أبسط، وهي حقيقة أثارت استهجان فورستر بقوله «عندما يتحول الألماني إلى يانكي، فإن البشرية قد منيت بخسارة».

بينما كان فورستر يثير الضوضاء بخطبه لغرض كسب مستوطنين جدد في رحلته، كانت إليزابيث تستمتع بوقتها في تحويل منزل والدتها في ناومبورغ إلى مركزٍ دعائي للترويج عن مشروع زوجها. لقد حصلت أخيرًا على عمل تسخّر فيه طاقات عقلها الهائل ومواهبها التنظيمية. كانت ترد على الرسالة الواحدة بوابل من الرسائل المحشوة بالمعلومات المتعلقة بالاستثمار الرائع في باراغواي. كما ساعدت في الاستعداد لنشر كتاب زوجها المعنون «المستوطنات الألمانية في أقاليم لا بلاتا العليا مع إيلاء أهمية خاصة للباراغواي: نتائج أبحاث شاملة وجهد ميداني ورحلات من ١٨٨٣ إلى ١٨٨٥». لقد أظهر الكتاب باراغواي بصورة مضللة أشبه ما تكون بجنة الرب على الأرض، المكان الذي كانت تربته، الحمراء والعميقة، الخصبة بأمس الحاجة إلى أن تقلب وتحرث لكي تكتسي بالخضرة وتطفح السلال بالغلات الزراعية. إنها باختصار أرض خصبة على الصعيدين المادي والروحي كما كانت ألمانيا في الأيام الخوالي الجميلة قبل أن يلوث مجيء الأجانب أرض الأسلاف بانحطاطهم، جاعلين من ألمانيا أرض الدخلاء وليس أرض الأسلاف. قد تنهض ألمانيا الأصيلة من جديد على التراب البارغواياني، فقد مُنح مائة مستعمر ينحدر من سلالة نقية لم تلوثها الدماء والأفكار الدخيلة الفرصة لنقل القيم والفضائل الألمانية إلى الأجيال القادمة.

عندما كانت إليزابيث تستعد لنشر كتاب فورستر، تجاوزت حدود

تبعيتها بصفتها زوجة. فقد عدلت على أسلوب النثر المتثاقل لزوجها وأعادت كتابة مقدمته، وهذا ما لم يحبذه فورستر، ولم يحبذ أكثر اتصالها بشقيقها كمستشار لتحرير الكتاب. اختار فورستر صورة جميلة له لتوضع على غلاف الكتاب الأمامي يبدو فيها خشن المظهر ويظهر صدره مطرزًا بالنياشين يقف إلى جانب الشعار الحماسي «في مواجهة كل العوائق، دافع عن أرضك». أخبر نيتشه إليزالبيت بأن الصورة حركةٌ تفيض غرورًا سخيفًا، فاستشاط فورستر غضبًا لأن الصورة كانت أداةً ضرورية لعرض أهليته الرجولية لقيادة الناس إلى مكان يقع في الجهة الأخرى من العالم. تبادل الاثنان رسائل تشع غضبًا، فقد عاتبت إليزابيث فورستر للاستخفاف بحكمها، واتهمها بدوره بخيانته والوقوف بجانب أخيها ضده. كان ذلك شجارهما الأول، وفي النهاية نُشر الكتاب كاملًا مع الصورة والشعار.

كان من المهم بالنسبة لإليزابيث أن يلتقي زوجها وشقيقها قبل مغادرتها إلى الباراغواي. اختار نيتشه يوم عيد ميلاده، الخامس عشر من تشرين الأول ١٨٨٥، ليكون موعدًا للقائهما ولأنه شعر بأن قدومه في هذا اليوم سيدخل البهجة على قلبي والدته وشقيقته. قضى يومين في ناومبورغ، خلالهما التقى الرجلان للمرة الأولى والوحيدة في حياتهما. تصافح الرجلان وشربا ورفعا نخبيهما وتمنيا التوفّيق لبعضهما. إرتاح ذهن نيتشه عندما رأى أن فورستر لم يكن بذاك السوء الذي توقعه، ولم يجد في ذلك الشخص البغيض جدًا. ولمصلحة اللاما، كان من المطمئن أن يتحلى فورستر كما هو واضح بقوة جسدية تمكنه من التخطيط لمغامرته.

بعد مضي يومين على لقائه بفورستر، كتب إلى أوفربيك يخبره أنه شعر باعتلال صحته طوال الوقت الذي قضاه في ناومبورغ، ولكنه كان متحيرًا فيما إذا جاء هذا الشعور من داخله إلى الخارج أم من الخارج إلى داخله. أعرب عن أمنيته في أن يكون احتفال عيد ميلاده الشنيع بمثابة الزيارة الأخيرة إلى ناومبورغ ولكنه علم، حتى عندما كان يسجل تلك السطور، أنها لن تكون الأخيرة. بمجرد أن تسافر إليزابيث إلى خارج البلاد، ستنتقل

قيود ناومبورغ السقيمة كاهله بشكل خاص وهذا ما يجعل وزن القيود أثقل.

أما بالنسبة للقائه بفورستر، فقد أخبر نيتشه أوفربيك أن كتاب صهره قد نُشر في صحيفة التايمز اللندنية وأن شروحه كانت دقيقة للغاية. ذكرت الصحيفة أن فورستر كان «رجلًا يؤمن بفكرة واحدة، مثله مثل الكثير من رجال بلده، وهي فكرة أن ألمانيا للألمانيين وليست لليهود»[٨]. أكد نيتشه على أنه وجد فورستر مصابًا بالهوس الأحادي بتركيزه على فكرة معاداة السامية. لكنه كان على علم مسبق بهذه الصفة عند فورستر؛ ولن يمضي لتغيير أي شيء بهذا الخصوص عبر تحديه في تلك النقطة، وبالتالي قرر أن بإمكانه الحصول على شيء مفيد من لقائه به؛ تقييم لقدرات فورستر العقلية. توصل نيتشه إلى أن فورستر شخص يصعب احترامه، ليس لكونه متعصبًا كما هو معروف وحسب، بل لأنه متهور وضيق الأفق. من جانبه، وجد فورستر أن نيتشه جدير بالازدراء إلى حد كبير، فقد بدا له أستاذًا يحشر رأسه بين الغيوم وشخصًا ضعيفًا جسديًا وبعيدًا كل البعد عن طينة الرجال الذين كان بحاجتهم لتأسيس مستوطنته. كان مرتاحًا عندما عرف أن نيتشه قد رفض دعوة إليزابيث لمرافقتهم في رحلتهم إلى الباراغواي.

(١٦) أوقعني في كمينه:

١. من إرنست شمتزنر إلى نيتشه، ٢ تشرين الأول ١٨٨٤، وردت في كتاب شابيرغ «مؤلفات نيتشه الموثوقة»، صفحة ١١٣.
٢. من نيتشه إلى أوفربيك، اوائل كانون الأول ١٨٨٥، وردت في كتاب شابيرغ «مؤلفات نيتشه الموثوقة»، صفحة ١١٨.
٣. من نيتشه إلى كارل فون غيرسدورف، ١٢ شباط ١٨٨٥.
٤. هذا هو الإنسان، «لِمَ أنا بهذا الذكاء»، ٢.
٥. إنساني مفرط في إنسانيته، الكتاب الأول، ٦٣٨.
٦. من نيتشه إلى كارل فون غيرسدورف، ١٢ شباط ١٨٨٥.
٧. من نيتشه إلى إليزابيث نيتشه، ٢٠ آيلر ١٨٨٥.
٨. The Times، ١٢ شباط ١٨٨٣.

١٧

يخطبُ في الفراغ

«الفلسفة كما فهمتها وعشتها حتى يومي هذا، هي أن تعيش بحريةٍ في الجليد وعلى الجبال الشاهقة، والسعي خلف كل ما هو غريبٌ ومدعاةٌ للشكِّ في الوجود، وكل ما نبذته الأخلاق حتى يومنا هذا»

من كتاب «هذا هو الإنسان»، المقدِّمة

في العامين التاليين، غاص نيتشه في أعماق نفسه وهو يتجول في أجمل المناطق الأوروبية ويعيش في غرف مستأجرة وفنادق رخيصة. لقد كان حضوره هادئًا ومهذبًا بكتفٍ منحنٍ إلى الأمام، وهذا سَهّلَ على زملائه النزلاء تجاهله، فبمجرد أن يحيُّوهُ «صباحٌ سعيدٌ يا أستاذ»، أو «شهيةٌ طيبة»، يمكن بسهولة تجنب إجراء مزيد من المحادثات. في غرف الطعام المشتركة نأى بنفسه عن سرب طيور الأطيش(*) التي تتناول طعامها، مُكتفيًا بوجبات غذائية صغيرة ومتَّبعًا حميات خاصة تعتمد عادة على الشاي والبيض واللحوم، وفي بعض الأحيان يكتفي بتناول الفاكهة وشرب الحليب. كان

(*) طيور الأطيش: نوع من الطيور البحرية. (المترجم)

يأمل أن يُنجيه نكران الذات هذا من الهجمات المعوية التي يشنها عليه جسده، لكن لم يشفع له شيء أمام نوبات التقيؤ والتشنجات والألم الحاد في رأسه والإسهال الذي قد يستمر لسبعة أيام متتالية. طريح الفراش حزينًا في سرير مستأجر، كان مضطرًا إلى الاعتماد كليًا على لطف الغرباء.

على الرغم من انتكاسته الصحية، كان يمشي فوق جبال الألب العالية طوال أشهر الصيف لساعات متتالية مخربشًا في دفاتر ملاحظاته، أما خلال أشهر الشتاء فكان يستقل القطارات للتنقل بين المنتجعات على طول سواحل فرنسا وإيطاليا سعيًا للهواء الجاف وأشعة الشمس التي من المفترضِ أن تُدفئ عظامه من دون أن يُعميه بريقها. أحبّ فلورنسا لفترة وجيزة لـ«هوائها الجاف واللطيف، الذي يفوح ميكافيليةً»، لكنه سرعان ما انزعج من قعقعة حركة المرور فوق أحجار الشارع المرصوفة والشبيهة بصوت آلة صنع القهوة.

كانت أموره على ما يرام حتى ٢٣ شباط من عام ١٨٨٧، عندما بُثت الروح في زجاجة الحبر خاصته وبدأت القفز على مكتبه مثل برغوثٍ راقص، ثم اهتز المنزل كله وارتعش وانهارت منازل من حوله، فبدأ الناس يتدفقون إلى الشوارع المدمرة مرتدين نصف ملابسهم؛ لم يسبق له في حياته أن شهد مثل هذا الذعر المستشري. الروح الوحيدة التي أثبتت مناعتها ضد هذا الرعب المشترك هي سيدة عجوز ورعة جدًا كانت على قناعة بأن الرب الطيب لن يؤذيها. دمر الزلزال الغرفة في البنسيون دو جنيف حيث كتب الجزأين الثالث والرابع من كتابه زرادشت. هذا جعله يشعر بالانزعاج الشديد من سرعة زوال الأشياء التي تضمنت الآن بشكل واضح تاريخه الحديث[1].

جرَدَ ممتلكاته الدنيوية بعد الزلزال ليجد بعض القمصان والبناطيل ومعطفين وأخفافًا وأحذيةً وأدوات كتابة وحلاقة وقدرًا صغيرًا كانت قد أرسلته إليزابيث لكنه لم يستخدمه قط. كان قد نشر خمسة عشر كتابًا حتى تلك اللحظة، وبيع من كتابه الأخير مائة نسخة فقط، وبذلك كان وجوده

يعتمد على معاش يستلمه من جامعة مسيحية، ولكن بعد صدور كتبه المناهضة للدين توقع أن تُلغي الجامعة المعاش في أي لحظة.

بحسب تقديره الخاص، كانت نسبة عماه سبعة أثمان، فقد سببت له الأضواء الساطعة ألمًا مريرًا. الضبابية التي تحكم نظره والبقع التي تتراقص ضمن مجال رؤيته وفرت له التبرير البصري للتمعن والتأمل في طبيعة ما نعتبره حقيقيًا.

من منظور خارجي، تبدو حياة نيتشه في الفترة ما بين عامي ١٨٨٦ و١٨٨٧ هادئة ومسالمة، بيد أنه خلال هذه الفترة كان يدفعه غضبُ نبيٍ مُهملٍ ليبحثَ في أسس تقاليدنا الأخلاقية والفكرية، مُخبئًا مطرقته بين طياتِ كتبٍ فلسفته الناضجة.

أتم نيتشه الجزء الإيجابي من فلسفته. كان زرادشت يُثبّت علاماته على طريق الحياة، موضحًا السبيل أمام المُجيب بالموافقة دومًا، ذلك الرجل ما بعد الديني المستعد لتحمل تناقضات ورعب شكوكه في هذا العالم. لكن لم تكن هناك آذانٌ صاغية لصرخة زرادشت، فكان للكتب الجديدة مهمة «واضحة قدر المستطاع»: توضيح زرادشت وتسليط الضوء عليه.

هذه المرة لن يعرض نيتشه أفكاره في محاكاة ساخرة توراتية، ولن يرتدي زي أسطورة ملحمية لبطلٍ ما، ولن يدفن كتابه الجديد. نظرًا لامتناع الناشرين عن نشر أعماله، قرر أنْ ينشرها بنفسه. كان سيطبعها على نفقته الخاصة في طبعة تتألف من ستمائة نسخة، وإن باع ثلاثمائة نسخة فسيسترد ماله، وهذا لم يكن تعجيزيًا.

«**ما وراء الخير والشر**»، وعنوانه الثانوي «استهلالٌ لفلسفةٍ مستقبلية»، كان كتابًا سميكًا يتألف من مائتي صفحة، ومع ذلك شعر نيتشه بالحاجة إلى تأليف كتابٍ آخر لتوضيح هذا الكتاب الذي كتبه في الأصل لتوضيح زرادشت. وهكذا ألّف الكتاب التالي الذي أعقب كتاب «**ما وراء الخير والشر**» عنوان في «**جينالوجيا الأخلاق**» (١٨٨٧)، وأُلحق بالعنوان الثانوي

«على سبيل الإيضاح والإلحاق بكتابي الأخير».

متقمصًا دور فيلسوف الريبة ومينوتور[*] كهف الضمير، عارض نيتشه بغضب بلادة المجتمع ودماثته ولا مبالاته الأخلاقية في التشبث بشريعة الأخلاق اليهودية المسيحية، وتوقُّف إيمانه بالدين بحد ذاته، مما حوّل العيش إلى ماكنة كذب ونفاق! كأن تعيش أشبه بثلاثة أرباع المسيحيين!

تنبأ نيتشه أنه بعد مائة عام من وفاة الإله سيظل ظله حيًا على جدران الكهف، وسوف يبحث مينوتور الكهف عن الريبة الخطيرة لتنظيف الجدران وإعادة تعريف أفكار الخير والشر، إن وُجد الخير والشر فعلًا. يتطلب مثل هذا البحث نقدًا للحضارة نفسها ولأسس الحداثة والعلوم والفنون والسياسة الحديثة. بهذا، كان عليه رفض ما وصفه بانحطاط الحداثة، وهذا القول لا يمكن أن يصح إلا إذا بدأ بتفحص عن الحقيقة[٢].

يبدأ كتاب ما وراء الخير والشر بجملة «لنفترض أن الحقيقة امرأة، ولِمَ لا؟ ألا يوجد أسباب للاعتقاد بأن جميع الفلاسفة، إلى الحد الذي تصله دوغمائيتهم، لم يفهموا النساء حق الفهم؟».

ماذا نعتبر الحقيقة؟ صروح الفكر الأوروبي الشامخة، لكن هذه الصروح ترتكز على أحجار أساس تتمثل بالدوغمائيين، الذين أسندوا نظرياتهم منذ زمن سحيق على مزيج من الخرافات الشعبية، مثل الخرافات المتداولة عن الأرواح، وبعض الأفكار المعممة الجريئة من تجارب إنسانية مفرطة في إنسانيتها ومحدودة للغاية.

لا يمكن للإنسان أن يعيش من دون هذه الأكاذيب ولا يمكنه تحمل الحياة من دون قياس الواقع من خلال أنظمة مُختلقة خيالية بحتة مثل الفلسفة وعلم التنجيم والدين. لقد جابت هذه الوحوش الثلاثة الأرض عبر العصور، فشكلنا بنية معتقداتنا الخرافية على صورتها. لقد كان الإنسان حرًا

(*) مخلوق من الميثولوجيا الاغريقية، نصفه رجل ونصفه الآخر ثور وهو ابن باسيفاي زوجة مينوس وثور أبيض كالثلج يدعى الثور الكريتي. (المترجم)

في الأصل، لكنه قيّد نفسه في المعتقدات حيث بنى بجنون المعابد الزرادشتية والمعابد اليونانية والرومانية وأهرامات المقابر المصرية والكاتدرائيات المسيحية. لقد اختار الإنسان تشييد صروحٍ تبثُ الخوف والرعدة، وأساس هذه الصروح هو الرعب المتمثل في احتمالية أن لا يؤدي الموت إلا إلى النسيان. لقد حولنا أنفسنا إلى عبيدٍ للكهنة والمنجمين والفلاسفة وتأثيرهم المؤذي والخطير على سيكولوجية الإنسان.

يجب أن نشكك في مفاهيمنا عن الخير والشر كمفاهيم مطلقة أبدية واستيعاب فكرة كونها أعرافًا وقتية، أما مُنطلقنا فيجب أن يكوّن من الرجل الذي غرس خزعبلاته وأفكاره المؤمنة بوجود الحقيقة المطلقة؛ أفلاطون.

أكثر الأفكار الخاطئة التي استمرت طوال الألفي سنة الماضية كانت اختلاق أفلاطون للروح النقية، فبهذا الاختلاق ألقى شبكة من المفاهيم الباهتة والفاترة والرمادية على زوبعة قوس قزح التي تُمثل بالحواس - سوقية الحواس كما سماها[٣] -.

هل كانت طبيعة الحقيقة موجودة فعلًا في كهف أفلاطون الشهير حيث قُيّد الناس بسلاسل على جدران الكهف، غير قادرين على إدارة رؤوسهم وإدراك أن الأشياء التي يرونها على الجدران كانت مجرد ظلال لأشياء حقيقية مُثبتةٍ أمام نار مشتعلة خلفهم؟ اعتبر هؤلاء المخدوعون الظل واقعًا أو «حقيقة»، وهكذا أرهقنا أفلاطون بفكرة الفرق بين المظهر والواقع. افترضت نظرية المُثل لأفلاطون وجود شكلٍ مثاليٍ لكل شيء، من شكل اللون الأحمر إلى شكل العدالة، ويبدو أن هناكَ معيارًا نهائيًا وغير معروف في نهاية المطاف لكل كائن وخاصية. تكلم شوبنهاور عن نظرية المُثل لأفلاطون ضمن نظريته الخاصة بالإرادة والتمثل، وهي نظرية لعالم مُختلق كليًا، دحضها نيتشه بالفعل في «**إنسانيّ مفرطٌ في إنسانيته**» من خلال وقوفه على شعلة العقل المُشرقة لفولتير، وتسليط ضوئها الباهر على جدران الكهف المضللة[٤].

الفلاسفة ليسوا أفضل من المرافعين المخادعين بتحيزاتهم، متحدثين

بألسنة خبيثة عن أفكارهم المُعمّدة على أنها «حقائق»[٥]. الفلاسفة هم باعة أرواحٍ محتالين ترقى عقائدهم إلى فرمانات تفرض طغيانًا ذاتيًا على الطبيعة البشرية. تُصور الفلسفة دائما العالم على شاكلتها؛ وليس لها أن تفعل خلاف ذلك، فالفلسفة هي تمجيدٌ للعولمة، فرضٌ يسعى إلى جعل كل الوجود موجودًا طبق صورتها فقط، وبذلك تكون «محركٌ استبداديٌ والإرادة الروحية الأكبر للسلطة ولـ«خلق العالم» و«للعلة الأولى»[٦].

أما بالنسبة للعلم، فهو ليس أفضل حالٍ من الفلسفة، فلا توفر استنتاجات أصحاب الميكروسكوبات المعرفية حقيقة أكثر مما يوفره الفلاسفة، فدلالة العلم لا تتمثل بالدين ومع ذلك بطريقة ما ناب العلم عن الدين، فالعالم الحديث يخلط بين النظرية العلمية والعقيدة الأخلاقية.

«ربما تبزغ على خمسة أو ستة عقولٍ فكرة أن الفيزياء هي مجرد تأويل وتنظيم للعالم (وفقًا لأنفسنا! إن جاز لي التعبير) وليست شرحًا له، ولكن إلى الحد الذي تعتمد فيه الفيزياء على الإيمان بالحواس، فإنها تُحسب بمثابة شيءٍ أكبر من ذلك، ويجب أن تستمر هكذا لفترة طويلة قادمة، وأعني بالنسبة للشرح. تضمّ أعيننا وأصابعنا حلفاءً إلى صفها إضافة إلى الدليل المرئي والملموس، لهذا تأثير ساحرٌ ومُقنعٌ في عصرٍ ساد فيه الذوق السوقي». لكن ما الذي تم شرحه؟ فقط ما يمكن رؤيته والإحساس به[٧].

يؤدي تأويل العالم على لسان «الداروينيين والمناهضين للغائية» إلى حث نيتشه على التراجع عن إدانته الصريحة السابقة لنظرية أفلاطون حول المثل العليا، موفرًا لنا «نوعًا من المتعة» على الأقل، على عكس العلماء الذين يكدحون ببذل «أكبر قدر من الغباء» و«أقل جهدٍ ممكن» لاستئناف «سباق ثابتٍ ومثابرٍ لميكانيكيي وبناة جسور المستقبل»[٨]

يُشيدُ بالقوانين الطبيعية، إلا أن ما يريدونه حقًا هو عكس نظرية الطبيعة. «الحياة، ألا تُشبه على وجه التحديد الرغبة في أن تكون شيئًا آخر غير هذه الطبيعة؟ أليست الحياة تقييمًا وتفضيلًا، ألا تتضمن أن تكون ظالمًا

ومقيدًا وترغب أن تكون مختلفًا؟»[٩].

بعد أن نثر بذور شكّه المخيف في كل ناحية، يقترح أن يجد فيلسوف الريبة فكرة الكذب تمامًا مثل فكرة الحقيقة، فلم لا نتفقد الحقيقة من وجهات نظر متعددة؟ من وجهة نظر الضفدع مثلًا؟[١٠] بأخذ هذه الحقيقة بنظر الاعتبار، كما أخبرنا سلفًا، نراها غامضة مثل طبيعة المرأة، فيعود إلى نقطة أن «جوهر المرأة الخالد» غير قادر على تحمل الحقيقة فـ«ما أهمية الحقيقة بالنسبة لامرأة؟ لا شيء أغرب على المرأة من الحقيقة، ليس هناك ما هو غير مؤاتٍ ومعادٍ للنساء منذ البداية أكثر من الحقيقة، فأعظم فنونهن الكذب وأخطر ما يشغلهن هو المظهر والجمال»[١١].

ليست كل الحقائق سوى تفسيرات شخصية، فنحن لسنا سوى ذاكرتنا وحالاتنا العقلية الموجودة في المجتمع الذي ننتمي إليه، وهذا بيان تؤكده الجملة الأخيرة في الفقرة أعلاه. أصبحت فلسفته في وقتٍ لاحقٍ معادية للنساء، فسالومي التي رفضت عروض زواجه بحجة أنها روحًا حرةً ولن تتزوج أبدًا، وجهت له مؤخرًا ضربة موجعةً أخرى بإعلان خطوبتها من فريد أندرياس. لم يردّ نيتشه على رسالتها أبدًا، واحتفظ بأفكاره ومشاعره داخله عدا رسالةٍ أرسلها لمالويدا معلقًا خلالها بازدراء «لا يعرف أحدٌ من هو هذا الأندرياس»[١٢].

بعد دراسة طبيعة الحقيقة، يمضي كتابُ «ما وراء الخير والشر» مكملًا فحصه لطبيعة الذات، والذي يؤديه نيتشه من خلال دراسة عواقب قول «أفكر»، في شذرة دقيقة تهز أسس التفكير الغربي من خلال تفكيك جملة ديكارت الشهيرة «أنا أفكر إذًا أنا موجود».

«قال الناس إن «أنا» كانت شرطًا و«أفكر» كان فعلًا مشروطًا، فالتفكير نشاط ويجب اعتبار الفاعل سببًا له». ماذا لو كان العكس صحيحا؟ ماذا لو كان «التفكير» هو الشرط و«أنا» مشروطًا؟ في هذه الحالة «ستكون كلمة «أنا» توليفة لا يمكن تحقيقها إلا من خلال الفكر ذاته»[١٣]. من المستحيل

التأكد من وجود «أنا» لتأدية فعل التفكير، ومن المستحيل معرفة أن يكون هناك شيء يفكر على الإطلاق، وأن التفكير هو نشاط وعملية يؤديها كيان يُعتقد أنه سبب. من المستحيل معرفة أن ما يُسمى «تفكيرًا» قد تم تحديده بالفعل، وأنا أعلم ما هو التفكير. أيحتمل أن لا تكون «أنا» مجرد توليفة تنتج عن التفكير؟.

«من يجرؤ على الإجابة على هذه الأسئلة الميتافيزيقية على الفور مع نوع من المعرفة البديهية، كشخصٍ يقول «أعتقد وأعلم أن هذا الأمر صحيحٌ وحقيقي وأكيد» سيجد فيلسوف اليوم واقفًا أمامه بابتسامة وعلامتي استفهام. من المُحتمل أن يقول له الفيلسوف «سيدي العزيز، من غير المحتمل أن لا تكون مُخطئًا؛ فلماذا تصر على الحقيقة؟»»[١٤].

إن ما نختبره في الأحلام يصبح جزءًا من المؤونة الكلية لأرواحنا، شأنه شأن أي شيء مررنا به بالفعل، فعلم النفس عوضًا عن العقيدة هو المفتاح لفهم العالم[١٥].

بعد أن شكك في طبيعة الذات وأعلن أن الحقيقة الموضوعية مجرد خيالٍ مستحيلٍ، واصل بشيطنةٍ الإشارة إلى أن تأكيد كون الحقيقة الموضوعية محض خيال هو بيان أن الحقيقة الموضوعية يجب أن تكون خيالًا بحد ذاتها.

يدفعنا هذا للتحديق في سلسلة لا تنتهي من المرايا التي تعكس بشكل مذهل، تعكس ماذا؟ حقيقة؟ أم مشهدًا مُدوخًا من ريبةٍ لا تنتهي؟ لقد تُركنا لحل هذه المشكلة بأنفسنا. نيتشه الذي يشك في بُناة النظام جميعهم يرفض بإصرار بناء نظام خاص لنا، فهو يحب مناقضة نفسه في عالم الأفكار مجبرًا إيانا على اتخاذ موقف الأرواح الحرة المستقلة عنه.

لإثبات ما إذا كان المرء مستعدًا للاستقلال أم لا، يجب عليه ألا يتشبث بأي شيء، ولا حتى شعوره الخاص بالانفصال. قليلون من استطاعوا تحقيق هذا الاستقلال، إنها ميزة طبقها البهلوانات الذين يمشون على الحبل، اولئك الذين وصلت جرأتهم حد التهور.

بعد ترك التأمل على الروح الحرة، لجأ نيتشه إلى معالجة الدين من خلال ثغرة قوية وواضحة، مؤكدًا بشيطنة أن حوالى الألفي عام التي مضت حثت على انتحارٍ طويل الأمد للمنطق عبر فرض العقيدة الدينية على العقيدة الفردية. من خلال تجربته الشخصية للصراع بين تحقيق الذات ونكران الذات بالنسبة للعقيدة الدينية، يشعر نيتشه بحقه في استنتاج أن التضحية الإنسانية الأولى للدين هي التضحية بطبيعة الفرد الحقيقية.

كيف تبنينا عن طيب خاطر القيم اليهودية المسيحية التي حولتنا إلى ماشية خاضعة؟ لماذا تبنينا ما يسميه نيتشه أخلاق العبيد؟ يؤخذ هذا المصطلح من حقيقة تاريخية تفيد بأن اليهود والمسيحيين كانوا عبيدًا في بابل أولًا وفي عهد الإمبراطورية الرومانية ثانيًا، وبسبب عجزهم عن فرض إرادتهم على العالم واشتهائهم السلطة والنفوذ، نخرهم استياؤهم وغيظهم من أسيادهم، فلم يكن أمامهم سوى طريقة واحدة للانتقام وهي قلب القيم من خلال دمج تظلّمهم في دين فرض تمجيد وضعهم البائس المكروب(١٦).

كُرهت الشهوانية واشتهاء السلطة، فأصبحت كلمات مثل «غِنى» و«قوة» مرادفات للشر. كانت المسيحية عبارة عن إنكارٍ لإرادة الحياة، وتحول هذا الإنكار إلى دين، فالمسيحية كرهت الحياة وكرهت الطبيعة البشرية وسممت العالم بإنكارها حقائق الطبيعة البشرية، محولة كل شيء إلى صراع بين «طبيعة الشيء» و«ما يجب أن يكونه». الأخلاق التي ولدت في العبودية تُخلد العبودية وتعطي معنىً خالدًا لعدمية المضطهَدين.

يختار نيتشه على وجه التحديد الكلمة الفرنسية «ressentiment» بمعنى «ضغينة» لوصف أساس أخلاقيات العبيد، فهي كلمة ذات معنى أعمق من مجرد الاستياء والغيرة، بل هو اضطراب عصبي وحاجة لإيلام النفس وإيلام الآخر. تشمل كلمة «ressentiment» الفرنسية حالة الأشخاص الحاقدين الذين لا حول لهم ولا قوة ويفتقرون (أو يستمتعون بحاجتهم) إلى وسائل تطهرهم من ضغينتهم من خلال الانتقام. وهكذا دفعت الضغينة العبيد إلى تحويل ضعفهم الى قوة «للانتقام من روما وتسامحها النبيل الطائش» من

خلال قلب أخلاق السلطة والسمو السابقة واستبدالها بالسمو الأخلاقي للضحية وتمجيد المضطهدين.

يقول القديس أوغستين، إن الضغينة هي أن تتجرع سمًا على أمل أن يموت الآخر.

كيف حدث هذا الانقلاب الغريب في القيم؟ كيف انتصر الزهد على القيم المؤكدة للحياة؟.

صحيحٌ أن نيتشه قد طرح هذا السؤال وأجاب عليه جزئيًا في «**ما وراء الخير والشر**»، إلا أنه لم يكمل إجابته بأي حال من الأحوال. في حزيران من عام ١٨٨٧، بدأ بكتابه في «**جينالوجيا الأخلاق**» مانحًا الكتاب عنوانًا يوثق بشكل ملحوظ الانهماك المعاصر ما بعد الدارويني بمسألة الأصل، وكالعادة، كان حثيثًا في تأليفه فلم يستغرقه سوى أربعة أسابيع. يضم الكتاب ثلاثة مقالات طويلة تهدف إلى التنقيب عن جذور شجرة عائلة الأخلاق، مقترحًا العودة في الزمن إلى عصور أقدم من المسيحية-اليهودية، العصر الذي خرج به سلف الإنسان من البحر ليكمل حياته ماشيًا على قدمين.

خمّن نيتشه أنه في وقت ما قبل التاريخ ظهرت بعض الممارسات التي أضرت بالمجتمع وأدت إلى فرض العقاب، فكانت تلك لحظة بزوغ الأخلاق. كان هذا عندما كُبحت غرائزنا للمرة الأولى على يد مجتمع مُعاقِبٍ، وبمرور الوقت أدى فرض العقاب إلى تأمل النفس، والذي أدى بدوره إلى الضمير.

الضمير إذًا هو ثمن البنية الاجتماعية، وهو ضرر أصاب الروح عندما دفن الزُهد اليهودي-المسيحي المتمثل بـ«لا تفعل» غرائزنا الطبيعية تحت عبء الإثم المميت، فالغرائز التي لا تُطرح خارجًا تُكبت وتُدمج داخلنا، فيُثقلنا تأنيب ضميرنا ويقلبنا ضد أنفسنا في بؤسٍ وكرهٍ للذات تؤججه أسطورة الخطيئة الأولى والزهد الذي يفرضه القساوسة. سنعرف مفهوم العُصاب الوجودي لاحقًا، لكن هذا بلا شك ما كان نيتشه يصفه وهو يرسم صورة لرجل عصري «ليس لديه أعداء خارجيين أو عوائق خارجية

ولكنه يمزق نفسه ويضطهدها وينخرها ولا يشعر بأي سلام داخله، إنه يشبه الحيوان الذي يضرب نفسه بقضبان قفصه»[١٧]. كيف يمكن أن نكسر قضبان سجننا المتكونة من تأنيب الضمير والاشمئزاز من الذات في القفص الذي بناه القس الزاهد؟ ترياق أخلاق العبيد هو أخلاق «Übermensch» أو الإنسان الأعلى؛ الروح الحرة والإيجابية والمستقلة. إن قوة حياة هذا الإنسان الأعلى وإرادة القوة التي يتحلى بها هي التي تغذي ميزته الأخلاقية. رغم اعتبار نيتشه للنظرية التطورية على أنها وسيلة تخلو من الأخلاق هدفها الحفاظ على الحياة، فإن «**إرادة القوة**» تعتمد بوضوح على نظرية داروين «البقاء للأصلح»، لكن نيتشه يأخذها إلى أبعد من ذلك، فإن إرادته للاقتدار هي رمز لقوة الإنسان ومثال على أهمية التغلب على الذات.

لا يوجد في الحياة العضوية ما هو ثابت، فمنذ الطفولة فصاعدًا نسعى إلى القوة، والحياة العضوية بمجملها في حالة ديناميكية وفوضوية دائمة من الخلق والتحلل، من السيطرة والتقهقر. جذور الشجرة التي تسحق أحجار الأساس هي «**إرادة القوة**»، الجليد الذي يمتد ليُصدع منحدرًا يطل على شاطئٍ ويعيد رسم الخط الساحلي هو «**إرادة القوة**». إن «**إرادة القوة**» تكمن في بوغ طحالب مجهرية تنمو في بلاط سقفٍ في قصر، تبرعم هذا البوغ إلى ما يُشبه الإسفنجة الخضراء سيؤدي إلى هياج الخدم حاملين دلائهم لتنظيف الأوساخ، أو قد يؤدي حتى إلى انهيار السقف والبناء كله. لن تتوقف «**إرادة القوة**» أبدًا، فهي الديناميكية الدائمة التغير لكل علاقة شخصية وكل العلاقات بين المجموعات وبين البلدان.

يقول نيتشه إن «**إرادة القوة**» هي شعور، شعورُ القيادة، وما يسمى حرية هو إرادة التفوق أساسًا بشيء يتحتم عليك الانصياع له، ولكنه لا يمكن أن يكون خارج أنفسنا. يتحدث أيضًا عن السيطرة على النفس، «الشخص الذي تقوده مشاعر السعادة إضافة إلى مشاعر السرور المستمدة من الأدوات الناجحة التي أتمت مهمة السعادة، والمستمدة أيضًا من «الارادة الباطنية» أو الروح الداخلية، جسمنا هو، بعد كل شيء، مجتمع متأسس على الكثير من

الأرواح لا غير»[١٨].

الرجل الذي يتحكم بذاته قادرٌ على الصمود أمام الإبهام الذي تكتنفه وجهات النظر المتعددة لـ«الريبة»، ومع الشجاعة لإهمال اليقينيات يعفو الزمن على أي فكرة عن «نتيجة» أو «استنتاج». وهكذا فإن «الإنسان الأرقى» أو «الإنسان الأعلى» أو «الروح الحرة» أو«فيلسوف المستقبل» أو «فيلسوف الريبة» أو «مغامر الروح» لكم أن تسموه ما تشاؤون، هو كائنٌ مرح.

لم تعد الحياة محصورة بلوح قوانين، بل أصبحت رقصةً على موسيقى «ماذا لو؟». يعتمد إدراكنا لذواتنا وإدراكنا للعالم من حولنا على مفهوم أننا في نهاية المطاف لن نفهم ذواتنا ولا العالم. من ينظر إلى الهاوية سيجد الهاوية تنظر إليه وتخترقه بنظرتها، وهو وضعٌ غير مريح البتة. لكن الويل لك إن لم تكن شجاعًا لتعيش وفقًا لمبدأ «ماذا لو؟»، لأنك عندها ستكون أحد «آخر الرجال» وثلاثة أرباع المسيحيين الذين يتمتعون بدين الراحة عن طريق التمسك بيقينيات عفّى عليها الزمن.

صحيحٌ أنه لا يوجد شيءٌ اسمه حقيقة، وهذا أيضًا أمر مشكوك فيه.

في جينالوجيا الأخلاق هو الكتاب الذي يتجول فيه الوحش الأشقر«die blonde Bestie» على المسرح. ربما تلوثت سمعة نيتشه جرّاء هذه الكلمات أكثر من غيرها، فقد فُهم أن الوحش الأشقر هو تصنيف عرقي ومخلوق له غرض سياسي: فقد سبقَ إنسان نيتشه الآري الأعلى قوانين هتلر العنصرية لعام ١٩٣٥ الخاصة بالشرف والدم الألماني، بيد أن هذا كان تحريفًا بشعًا، فقد ذُكر الوحش في خمسة مواضع وسماه نيتشه «الوحش الأشقر» في ثلاث فقرات من كتابه، ولم تمتَّ أيًا منها بصلةٍ للتصنيف العرقي، ناهيك عن فكرة العرق المتسيد.

في المقطع الأول، يسبر نيتشه أغوار نشأة مفاهيم الخير والشر والصالح والطالح في الحضارات الغابرة، فيصف كيف بزغ شكل الدولة الأول من

ضباب ما قبل التاريخ، ممتنعًا عن كشف الحقبة التاريخية الذي يتحدث عنها أو حتى الموقع الجغرافي في العالم، بيد أنه لا يترك لنا أدنى شك في أن الوحش الأشقر الذي يقود ويبني الحضارات الأولى هو الجدُّ البري المشترك بين جميع الأعراق:

«وسط كل هذه الأعراق النبيلة لا يمكننا أن نغفل عن الحيوان المفترس والوحش الأشقر المهيب الذي يتجول بطمعٍ يبحث عن غنائم وانتصارات، فهذه الغريزة المخفية تحتاج إلى التحرر من القيود التي تلجمها، فينسل الوحش بين الفينة والأخرى عائدًا إلى الحياة البرية. تتشابه الحضارات الرومانية والعربية والجرمانية والنبالة اليابانية والأبطال الهوميريون والفايكنج الاسكندنافيون في امتلاكها لهذه الغريزة، فالأعراق النبيلة خلّفت مفهوم «البربرية» مطبوعًا في آثار أقدامها أينما ذهبت، حتى أسمى ثقافاتها تكشف وعي وفخر هذه الأعراق بتلك الحقيقة»[١٩].

من المؤكد أن تضمين العرب واليونانيين واليابانيين هنا يبين بأن نيتشه كان متحمسًا بالتناغم الموجود بين كلمتي «أشقر» و«وحش» أكثر من تدقيقه بتصوير الأنواع العرقية. يتابع النص: «في أعقاب هذا الرعب الذي لا يهمد، والذي خيّم على أوروبا بغضب الوحش الجرماني الأشقر لعدة قرون... قد نكون محقّين في خوفنا من الوحش الأشقر الكامن في قلب كل عرق نبيل، وقد نُعذر على حذرنا منه، لكن هذا الذي لا يريد أن يخاف مائة مرة، إذا ما استحسن الأمر، بدلًا من ألّا يخاف لن يستطيع الهروب من المشهد المثير للاشمئزاز لكل من فشل في مساعيه والمتقزم والضائعة روحه والمسموم... المريضين والمتعبين والمرهقين الذين بدأت أوروبا بشم رائحة نتانتهم»[٢٠].

ذكر الوحش الأشقر مرة ثانية في المقالة الثانية من كتاب في جينالوجيا الأخلاق متأملًا تكوين الدول الأولى على الأرض «لقد استخدمتُ كلمة «دولة»، وواضحٌ من أقصد، قطيع من الوحوش الشقراء المفترسة، عرقٌ متسيدٌ غازٍ حُشّد على قدمٍ وساق ليستعد للحرب، متجردًا من ضميره غارسًا مخالبه المرعبة في أحشاء شعبٍ، رغم إيمانه بكثرة عدده لا يزال بلا

هوية وبهذا الطريقة نشأت «الدولة» الأولى على الأرض»[٢١].

لم يكن لهذا الحشد المفترس من الغزاة والسادة أي شعور بالأخلاق أو المسؤولية، فلم يكن للشعور بالذنب تجاه السكان المستهدفين ورعايتهم أي معنىً، كما لم يكن للالتزام بالمواثيق أي ثقل أو اعتبار.

ربما من دون وعي، يعودُ وصف نيتشه لسايكولوجية العالم القديم الذي حكمه وحشٌ أشقرُ شبيهٌ بالأسد، إلى العالم الأسطوري الذي صوره فاغنر في حلقة نيبلونغ وأخلاقياته وسايكولوجية آلهته وأبطاله. تجول آلهة وأبطال فاغنر في غابات قديمة بدائية تمامًا مثل وحوش نيتشه الشقراء، متجاهلين القوانين والمواثيق ويعيثون فسادًا في الأرض، يسلبون وينهبون. حكمت آلهة فاغنر بلا حدود أخلاقية وضمير جمعي أو فردي، ولكن خلال دورة الأعمال الأوبرالية الأربعة، يوضح فاغنر أنه حتى في إطار المصلحة الذاتية الخالصة، فإن حديقة حيواناته القوية المتألفة من الوحوش الشقراء تكتشف حتمية الحقيقة المتمثلة في أن الأفعال تؤدي إلى عواقب، وتبعات العواقب هي القوانين التي تؤدي بدورها إلى العقاب. على الرغم من ذلك، لم يرتقِ فاغنر ولا الآلهة والأبطال في أوبراه إلى حد الالتزام بالمواثيق أو الإنصات إلى صوت الضمير.

إن الموضع الثالث الأخير الذي ذُكر فيه الوحش الأشقر موجودٌ في أحد كتب نيتشه الأخيرة، «**غسق الأوثان**» عام ١٨٨٩. في مقال محتد بعنوان «إصلاح البشرية»، يثور مرة أخرى ضد الكهنة والفلاسفة لملء خطبهم ومواعظهم بحقائق لا وجود لها. إن أخلاقياتهم مناهضة للطبيعة وعقائدهم هي مجرد أدوات لترويض وتدجين الإنسان، الوحش الأشقر البدائي، الذي كلفه التمدن ثمنًا باهظًا.

«أن نسمي عملية تدجين الحيوان «إصلاحًا»، لهي مجرد مزحة بالنسبة لنا. إن من يعرف ما يجري داخل حديقة الحيوانات سيكون على شك بمسألة إصلاح الوحوش التي تُمارس هناك، فهي تُصبح أضعف وأقل إيذاءً وتمرض

بفعل ما تلاقيه من ألم وجروح وجوع، ناهيك عن إحساس الخوف الذي ينتابها. ينطبق الأمر ذاته على الأشخاص المدجَّنين أو الذين تم «إصلاحهم» على أيدي الكهنة. في أوائل العصور الوسطى، عندما كانت الكنيسة حديقة للحيوانات، تم اصطياد عينات مختارة من «الوحش الأشقر» في كل مكان، فتعرض نبلاء تيوتون الجرمانيون إلى مثل هذا «الإصلاح». لكن كيف بدا التيوتوني الذي تم «إصلاحه» بعد أن تم إغراؤه وسحبه إلى الدير؟ لقد بدا وكأنه صورة كاريكاتورية للإنسان، كمن تم إجهاضه؛ لقد تحول إلى «آثم»، عالقٍ في قفص، محبوسٍ داخل سجن الأفكار الرهيبة... هناك استلقى، مريضًا بائسًا مليئًا بالحقد على نفسه كارهًا غرائز الحياة، مرتابًا من كل ما يراه قويًا وسعيدًا. باختصار، أصبح «مسيحيًا»... لقد فهمت الكنيسة ذلك؛ فقد خرّبت الناس وأضعفتهم، لكنها تدّعي أنها أصلحتهم»[٢٢].

هذه هي المواضع التي ذُكر فيها الوحش الأشقر في كتابات نيتشه المنشورة، وهي بعيدة كل البعد عن كونها نداء للوحش الأشقر كرمزٍ للعرق الألماني المتسيد الذي يدفعه سعيه للاقتدار لطحن البشرية تحت جزمته العسكرية الثقيلة. ومع ذلك، ليس هناك شك في أنها تحتوي معاني شنيعة يمكن تحريفها إلى تحريض على العنصرية العرقية والشمولية، وسيكون من السذاجة ببساطة تجاهل كونها نقطة انطلاق لقوة الفكر الرابطة التي ساهمت بتفشّي العدوى.

كتب الناقد الأدبي ومحرر جريدة «Der Bund» جي. في. ويدمان[٢٣] مراجعة تنبوئية لكتاب **«ما وراء الخير والشر»** بعنوان **«كتاب نيتشه الخطير»**:

«مُيزت أكوام الديناميت المستخدمة في بناء نفق غوتارد بعلمٍ أسود، مما يشير إلى خطرٍ مميت، وبهذا المعنى حصريًا نتحدث عن كتاب الفيلسوف نيتشه الجديد باعتباره كتابًا خطيرًا. لا تنطوي هذه التسميةُ على أي لومٍ أو استنكار ضد المؤلف وعمله، تمامًا كما لم يعبر لون العلم الأسود عن أي استنكارٍ ورفضٍ للمتفجرات، ولا أنوي تسليم هذا المفكر الفريد الى سرب الغربان الذي يحوم في قاعة المحاضرات أو الأفّاكين فوق المنابر بإشارتي إلى

خطورة كتابه. يمكن استخدام المتفجرات الفكرية لأغراض مفيدة للغاية؛ فلا يقتصر استخدامها على الأعمال الإجرامية. واحدٌ فقط يُخبرنا بكل وضوحٍ عن مكان تخزين مثل هذه المتفجرات، «ها هنا يوجد ديناميت!». نيتشه هو أول رجل يعثُر على طريقٍ للهروب، ولكنه طريقٌ مرعبٌ ترتعد له أوصال المرء...»[٢٤].

كان اعتباره مُفكرًا قويًا وخطيرًا بعد كل هذا العناء أمرٌ مفرح. في غضون أسبوعٍ نسخ نيتشه المقال وأرسله إلى مالويدا، ولا شك أنه عانى بشقاءٍ عند نسخهً وإرساله نظرًا لما أصاب عينيه. كانت هذه هي المراجعة الأولى لأعماله منذ فترة طويلة، وقد خففت عليه عناء بيع ١١٤ نسخة من كتابه فقط.

(١٧) يخطبُ في الفراغ:

١. نيتشه إلى فرانز أوفربيك، ٢٤ آذار ١٨٨٧.
٢. «هذا هو الإنسان» و«ما وراء الخير والشر»، ٢.
٣. «ما وراء الخير والشر»، « في فضائل الفلاسفة»، ١٤.
٤. «هذا هو الإنسان»، «إنساني مفرطّ في إنسانيته»، ١.
٥. «ما وراء الخير والشر»، «في فضائل الفلاسفة»، ٥.
٦. «ما وراء الخير والشر»، «في فضائل الفلاسفة»، ٩.
٧. المصدر السابق، ١٤.
٨. المصدر السابق، ١٤.
٩. المصدر السابق، ٩.
١٠. «منظور الضفدع» مفهوم بذاته ولكنه نشأ كمصطلح فنان ينظر من الأسفل إلى الأعلى.
١١. «ما وراء الخير والشر»، «فضائلنا»، ٢٣٢.
١٢. نيتشه إلى مالويدا في ١٢ أيار ١٨٨٧.
١٣. «ما وراء الخير والشر»، «الشخصية الدينية» ٥٤.
١٤. المصدر السابق، «في فضائل الفلاسفة» الجزء ١٧.
١٥. المصدر السابق، «في التاريخ الطبيعي للأخلاق»، ١٩٣.
١٦. المصدر السابق، «الشخصية الدينية»، ٤٦.
١٧. «في جينالوجيا الأخلاق»، المقال الثاني، ١٦.
١٨. «ما وراء الخير والشر»، «في فضائل الفلاسفة»، ١٩.
١٩. «في جينالوجيا الأخلاق»، المقال الأول، ١١.
٢٠. «في جينالوجيا الأخلاق، المقال الأول، ١١.
٢١. المصدر السابق، المقال الثاني، ١٧.
٢٢. «غسق الأوثان»، إصلاح البشرية»، ٢.
٢٣. جوزيف فيكتور ويدمان (١٨٤٢-١٩١١)، ناقد أدبي سويسري، كان والده قسًا مثل والد نيتشه.
٢٤. ظهرت المراجعة في جريدة دير بوند في ١٦ و١٧ أيلول ١٨٨٦.

١٨

وطن اللاما

«أختي إوزة حاقدة معادية للسامية»

من رسالة كتبها نيتشه إلى مالويدا فون ميسنبوغ

عام ١٨٨٤

في فبراير من عام ١٨٨٦، أبحرت إليزابيث وبرنهارد فورستر برفقة مجموعتهما الصغيرة المؤلفة من القوميين ذوي الدماء النقية من هامبورغ متجهين إلى باراغواي. كان نيتشه قد رأى زوج أخته وصافح يديه، إلا أنه لم يذهب إلى رصيف الميناء ليودعهما. قبل أن تغادر إليزابيث، أعطت أخاها خاتمًا حُفر عليه الأحرف الأولى من اسمها واسم زوجها، وحثته على الاستثمار في مغامرتها الاستعمارية، وإن نفذ ما تريده فستسمي قطعة أرضٍ تيمنًا به، لكنه أجابها بجفاف بأنه من الأفضل أن تسميها وطن اللاما[1].

لقد اعتبر نيتشه المبادئ التي تأسست عليها جرمانيا الجديدة أساليب تعبيرية معاصرة لعقلية العبيد، فقد غلف حب أرض الأسلاف والقومية المبالغ بها ومعاداة السامية إحساس أولئك العاجزين المليئة بالضغينة والتوق للانتقام. كان من المستغرب كيف أرسل نيتشه كتبه إلى أخته نظرًا لمحتواها.

في ١٥ تشرين الأول ١٨٨٧، في عيد ميلاده الثالث والأربعين، ذهب في رحلة إلى فينيسيا لمدة شهر للاستجمام والاستمتاع بالموسيقى مع صديقه المخلص بيتر غاست. مع تراجع بصر نيتشه، تحوّل خط يده تدريجيًا إلى كتابة هيروغليفية، وكان غاست الشخص الوحيد الذي يمكنه فك شفرته لمن يطبعها على الآلة الطابعة. في المدينة التي توفّي فيها فاغنر بعد خلاف مع كوزيما سببه افتتانه بمغنية سوبرانو شابة إنجليزية، كان نيتشه يدون ملاحظاتٍ حول ديونيسيوس وأريادن، عائدًا بذاكرته إلى أنشودات تريبشن عندما كان يؤلف كتاب «**مولد التراجيديا**»، مفكرًا بتأليف مسرحية هجاء.

مع تركيزه في حاضره، دوّن كذلك ملاحظات حول علم النفس. لقد وضع قائمة بحالات التجلّي التي تؤكد اشتهاءنا للحياة، ترأس القائمة الدافع الجنسي، تلته الثمالة والطعام والربيع. كتب معترفًا في دفتر ملاحظاته أن العدمية موقفٌ طبيعيٌ اعتياديٌ عند إنكار غاية ما (مثل الجنة) وتمريغ أعلى القيم في التراب(٢). كما أشار إلى الكثير من نقاط الشك بشأن أخلاق الأسياد. «إلى العظمة ينتمي الفزع: لا ينخدعن أحدكم بغير هذا». (٣)

التهنئة الوحيدة التي تلقاها في عيد ميلاده كانت من والدته، فكتب لها رسالةً عرف أنها ستسعدها، أخبرها خلالها أنه كان يكتب «رسالة قصيرة إلى لاما أمريكا الجنوبية» بينما وصلته رسالتها. رسمت رسائل إليزابيث التي أرسلتها الى أخيها صورًا لجاليتها المزدهرة شيئًا فشيئًا، ففرح بنجاح أخته رغم أنه لم يتفق مع القيم التي تكمن وراءه(٤).

قبيل انطلاقهم إلى باراغواي، لم يستطع فورستر استقطاب أكثر من أربع عشرة عائلة، معظمهم من ولاية سكسونيا، المقاطعة التي انبثقت منها شرارة شهرة ريتشارد فاغنر وإليزابيث نيتشه. من خلال الجالية العبوسة، بزغ حنين الدماء والتربة إلى أرض الأسلاف، حتى جسّد هؤلاء الأفراد كل ما كتب عنه نيتشه حول الضغينة التي تقود أخلاق العبيد. تألفت مجموعة المنادين بالقومية الصغيرة الغاضبة من فلاحين وحرفيين وتجار صغار غمرهم شعور التهميش وانحدرت حياتهم بفعل التقدم الصناعي والاقتصادي والاجتماعي

والسياسي الذي لا هوادة فيه، ولم يكن ضمنهم أي فنان أو مثقف.

كانت الرحلة البحرية التي استغرقت شهرًا على متن أرخص قارب إلى أمريكا الجنوبية قاسية وبائسة، أعقبتها رحلة نهرية مرعبة إلى باراغواي تحت رحمة طاقم أسمرَ البشرة مُهمِل. لم يستطع المستعمرون الريفيون الألمان البسطاء فهم اللغة التي تنساب إلى آذانهم أو نمط النجوم في السماء أو النمو العجيب لأوراق الأشجار والعشب النابت في الأرض، أو معرفة المخلوقات الغريبة التي تنطلق بسرعة البرق خلال الستار النباتي المبهم أمامهم، مزعزعةً شعورهم بالأمان. أُصيبوا بحمى لم يعرفوا طبيعتها دفعتهم الى الهلوسة، ثم حرقتهم الشمس بحرارتها وتورموا إثر لدغات الحشرات. توفَّت طفلة صغيرة فدفنوها في قبرٍ بنوه على عجلٍ على ضفة النهر وتابعوا طريقهم مسرعين.

في النهاية وصلوا إلى أسونسيون، عاصمة باراغواي. بالنسبة للألمان، توحي عبارة «عاصمة» إلى مركزٍ نظاميٍ للحكم ونظام الحكم مشيد من مبانٍ حجرية، ولكنهم صُدموا بشوارع غير معبدة ومنازل طينية وغفيرٍ من الانتهازيين العدائيين يحملون نفس لون البشرة. سنوات الحرب الطويلة تركت بصماتها بشكل تجاويفَ كبيرةٍ وصدوع عميقةٍ في المباني الحجرية القليلة الموجودة آنذاك، فكان قصر الرئيس ودائرة الجمارك مبنيين فانتازيين؛ فانبثقت أشجار باسقةٌ من أرضيات القاعات والتهمت تفرّعات أغصان الكروم الجص المزخرف.

في عام ١٨٨٦، كانت باراغواي لا تزال منهكةً إثر حرب التحالف الثلاثي الطويلة (١٨٦٤-١٨٧٠) التي خاضتها ببسالة، وتحولت هذه البسالة في النهاية إلى هواء في شبك ضد مثلث القوى المتحدة وأركانه البرازيل والأرجنتين وأوروغواي. وفقا لمصدر معاصر، كان عدد السكان قبل الحرب ١٣٣٧٤٣٩، وتضاءل بعد الحرب حتى وصل إلى ٢٢١٠٧٩[٥].

تولى بطل الحرب برناردينو كاباليرو السلطة قبل ست سنوات من

وصول إليزابيث. مع ديون دولية متراكمة تعادل ما يقرب من ٥ ملايين جنيه إسترليني آنذاك[٦]، كان المستعمرون مصدرًا حيويًا للمال بالنسبة لبلده، ووسيلة فاعلة لإعادة إحياء الأرض الفارغة بتوطين الناس فيها.

في ١٥ آذار ١٨٨٦، نزلت إليزابيث البالغة من العمر تسعة وثلاثين عامًا من القارب ممثلةً فضيلة ناومبورغ تنطلق في نزهة كنسية. رغم حرارة الجو كانت ترتدي ثوبًا أسود طويلًا وقلنسوة فوق شعرها المرفوع عاليًا ونظارات على أنفها. كان الحوَلُ في عيني إليزابيث أكثر وضوحًا من حَوَلِ عيني شقيقها، رغم أنها لم تعانِ من أي ألم. تبعها عاملان يتصبّبان عرقًا يصارعان المسافة لوضع البيانو الخاص بها أسفل لوح النزول من القارب إلى اليابسة. في أعقاب زوجته نزل البطل الفاتح بياقته العالية المنشاة ومعطفه الأسود الذي يصل حد ركبتيه ولحيته البارزة وزخارفه المتلألئة على صدره. كان مظهر فورستر من رأسه حتى أخمص قدميه يوحي بالقيادة، تمامًا مثل الصورة على غلاف كتابه التي استهزأ نيتشه بها باعتبارها غرورًا واضحًا. بعد الزوجين الرائعين والبيانو الخاص بهما جرجرت الجالية الصغيرة المتألفة من محاربين متحضرين متعرقين شاحبين هزيلين صُقلت أمعاؤهم بعد قضاء أشهرٍ على متن سفن متبعين عادات صحية سيئة.

لم يعرف أحد أين تقع بالضبط «جرمانيا الجديدة»، فقد جرجر آل فورستر جاليتهم لاستيطان فكرة لا أرض مادية، مكان لا يوجد إلا في الخيال.

لم يسبق لفورستر ولا إليزابيث عقد صفقة تجارية في حياتهما عندما صادفا شخصية مغامرة تدعى سيريلو سولاليند الذي أخبرهما أنه يمتلك أرضًا بمساحة ٦٠٠ كيلومتر مربع تقريبًا، (حوالى ٢٣١ ميلًا مربعًا)، على بعد حوالى ١٥٠ ميلًا شمال أسونسيون. وفقا لسولاليند، تضم الأرض غابات صالحة وأراضي زراعية خصبة ممتازة، يمكن الوصول إليها بسهولة عن طريق رحلة قارب أخرى من ريو باراغواي. عرض بيعها مقابل ١٧٥٠٠٠ مارك، بيد أن هذا أبعد بكثير من إمكانياتهما، فبدأ سولاليند

التفاوض معهما وترتيب تفاصيل الصفقة، لكنه باع الأرض بزهد للحكومة مقابل ثمانين ألف مارك. عندئذٍ منحت الحكومة فورستر الحق في استيطانها مقابل دفعة مقدمة تبلغ ألفي مارك، فإذا نجح فورستر في توطين ١٤٠ أسرة بحلول نهاية آب ١٨٨٩، فسيحصل على ملكية الأرض، لكن إن لم ينجح في ذلك فستُصادر منه، وبالطبع لم يتم إعلان هذه الشروط. لم تعتبر إليزابيث وفورستر نفسيهما سوى مالكي أو حاكمي جرمانيا الجديدة، فقد قضت إليزابيث عامين في أسونسيون حتى أكمل المستوطنون بناء منزلٍ يليق بها، وأخيرًا في ٥ آذار ١٨٨٨، كان منزلها جاهزًا للسكن.

كتبت إليزابيث رسالة طويلة تسودها روح النصر إلى والدتها تقول فيها: «وصلنا إلى وطننا الجديد ودخلناه كما يدخل الملوك»، ثم أضافت مكملة كيف دخلت كآلهة نوردية على متن عربة تجرها ستة ثيران، وكيف تعالت «صيحات الفرح والتهليل» من المستوطنين الذين ارتدوا أبهى ثيابهم للاحتفال بها ووقفوا أمام أكواخهم الطينية على طول الطريق المؤدي الى بيتها، وكيف أثار منظرها نوبة من الحماسة الوطنية شبه الدينية في نفوس الجميع، فقدموا لها زهورًا وسجائر وحملوا أطفالهم إليها لتباركهم وفجأة من حيث لا تعلم، ظهر ثمانية فرسان رائعين يتقدمون حصان فورستر المفضل المزخرف بأشرطة على كل شكل ورود ملونة بألوان قومية، الأحمر والأبيض والأسود. برشاقة وخفة، وثب فورستر إلى السرج، فتشكلت مسيرة خلف الزوجين الملكيين، إليزابيث في عربتها التي تجرها الثيران وفورستر على جواده المزخرف بألوان وطنية، يهرول خلفهما الفرسان على خيولهم، ثم سار خلفهم «طابورٌ طويلٌ من الناس». في خضم كل هذا التمجيد، أبلغت إليزابيث والدتها بصدقٍ مصحوب بأسفٍ أن دخولهم لم يكن مصحوبًا بأي تحية مدفعية، بيد أنها سمعت العديد من «الطلقات النارية المبهجة». لقد أصبح لديها «عربة صغيرة ساحرة» الآن، مزينة ببذخ بسعف النخيل وداخلها عرش أحمر لتعتليه. كل ذلك كان أشبه بما تم إنتاجه في بايرويت، حيث عُرضت أوبرا فاغنر التي صممها فون جوكوفسكي.

شق الموكب طريقه إلى «فورسترود». كان هذا هو الاسم الذي تقرر إطلاقه على المكان الذي خُطط له أن يكون العاصمة. هنا ألقى كبير المستوطنين، إير إيرك، خطابًا رسميًا ترحيبيًا، ثم انتقلوا بعد ذلك إلى ساحة البلدة المُخطط تشييدها مستقبلًا حيث انتصب قوس النصر. قدمت عذراوات جميلات زهورًا إلى إليزابيث وأُلقيت خطبُ امتنان، بعدها تعالت الأصوات منادية «تحيا أم المستوطنة!». لقد سرّتها شهامة وأدب المستوطنين الذي تمثل في تكريمها قبل فورستر. بعد غناءٍ حماسي تردد فيه «ألمانيا، ألمانيا فوق كل شيء»، مروا تحت قوس نصرٍ ثانٍ شُيد أمام «فورسترهوف»، القصر الفخم الذي ستقيم فيه مع فورستر، ثم انهال مزيدٌ من الخطب والزهور. اعترفت إليزابيث بأن المظهر الخارجي للقصر كان قبيحًا، والصورة توضح ذلك، لكنها أسهبت في وصف روعة التصميم الداخلي: أسقف عالية وأبواب واسعة مغطاة بستائر وكراسٍ ناعمة وأرائك مريحة إضافة إلى البيانو الخاص بها بكل تأكيد. أخبرت والدتها أنها تمتلك «خمس مزارع صغيرة وثلاثة مزارع متوسطة الحجم» ومئات من رؤوس الماشية وثمانية خيول ومتجر يضم سلعًا تقدر بآلاف الماركات الألمانية التجارية وعشرين خادمًا برواتب جيدة، ثم فاضت ورعًا معربةً عن أسفها لامتلاكها الكثيرِ من الممتلكات الدنيوية.

سُعدت فرانشيسكا بهذه الأخبار، فقد تكون كوزيما فاغنر ملكة بايرويت لكن إليزابيث أصبحت ملكة مستوطنة بأكملها!. لكم ناقضت مكانة إليزابيث الراقية في العالم تفاهة مكانة شقيقها! ولكم فاقت لائحة ممتلكاتها الدنيوية لائحته!. جزم ثرثارو ناومبورغ أن فورستر سيصبح رئيس باراغواي القادم.

كانت إليزابيث لا تزال تلاحق نيتشه للاستثمار في مشروعها، فلماذا يتشبث بسنداته المالية الحمقاء المؤمنة في العالم القديم بينما يمكنه كسب عائدات ضخمة من عالمها الجديد؟ نصحه أوفربيك بعدم خوض مغامرة كهذه، مما تسبب في ضغينة أخرى مشابهة لضغينة موقفه وموقف زوجته تجاه لو، ضغينة لن تغفرها له إليزابيث أبدًا. حاول نيتشه أن يخفف من رفضه

من خلال الفكاهة بقوله إنه لا يستطيع أن يدعم «اللاما التي ركضت بعيدًا عنه لتنضم إلى مناهضي السامية»، الأرجح أن قوله هذا لم يعجبها، فحولت استياءها نحو خادمة فرانشيسكا المسنة الوفية وانتزعت منها أموالها، وهي أموال لم ترها العجوز مرة أخرى ولم تتحمل خسارتها من الأصل.

بحلول تموز من عام ١٨٨٨، لم تبق سوى أربعين عائلة في المستوطنة، بعضها قد حزم أمتعته بالفعل وعاد إلى أرض الوطن. كان سحب الأموال يزداد وأسعار الفائدة مثيرة للقلق. أُنفقت الأموال على مهر إليزابيث ودفعات المستوطنين المقدمة، فلم يبق مال للبنى الأساسية وتطوير الطرق والصرف الصحي، أو توفير مياه شرب نظيفة للمستوطنين.

كانت إليزابيث تعرف شروط عقد الإيجار، فمنذ اليوم الذي انتقلت فيه إلى فورسترهوف كان لديها ثمانية عشر شهرًا ليصل عدد المستعمرين إلى مائة وأربعين عائلة. لقد راسلت كل شخص تعرفه ولا تعرفه، ووجهت رسائل ومناشدات إلى مختلف الجمعيات الاستيطانية في ألمانيا التي تأسست لتنظيم ودعم هذه المشاريع. لكن جهدها لم يفضِ إلا لحملة صحافية في بايرويت بلاتر، اكتشفت من خلالها موهبتها كشعبوية وفتحت عينيها على التأثير الهائل للكتابة الشعبية وكيف يمكن للمعلومات المغلوطة بناء أسطورة. بابتداعها أسطورة «جرمانيا الجديدة»، اكتسبت إليزابيث الخبرة الكافية التي ستساعدها في تشييد صرح أسطورة أخيها لاحقًا.

صورت مقالات استغاثة إليزابيث المغوية المكان كأنه أرض النور إلدورادو مزينة بالأراجيح الشبكية الملونة تتدلى من الأشجار. إعترفت بأن الأراجيح مغطاة بناموسيات ضرورية لحماية السكان من الندى الليلي الثقيل أكثر من عضات الحشرات القليلة، القليلة جدًا. يطلق على السكان الأصليين اسم «peons» ومعناها العامل، ولا يمكن للعنصريين أن يخشوهم لأنهم يجيدون عملهم كخدم سعداء مطيعين وحيويين. عندما يصل سيدهم إلى عتبة الباب يتسابقون لتلبية طلباته وأوامره، وهم مثل الأطفال يحبون الهدايا، فبعض الخبز الطازج أو السيجار يحفزهم ليتنافسوا على تحقيق كل رغبات

أسيادهم، فساكنو جرمانيا الجديدة يحيَون حياة آكلي اللوتس(*). عند تناول الإفطار يتلذذون بشرب القهوة وتناول الخبز وعصير الفاكهة الشهي، وبعد ذلك يشرفون على زراعة الفواكه والخضروات التي تقفز خارج الأرض من تلقاء نفسها، بوركت التربة على تلك الخصوبة. كانت «مئات رؤوس الماشية» التي تملكها إليزابيث بقايا قطعان ضخمة قبل الحرب، هربت بعد وفاة أصحابها في «حرب التحالف الثلاثي». أصبحت الأبقار بعد ترويضها تدر الحليب والزبدة والجبن على المستوطنة النباتية، بيد أن الثيران البرية الوحشية تمثل مشكلة مستمرة.

في آذار ١٨٨٨، وصل شخصٌ سيكون خصم إليزابيث العتيد، شخصٌ من العوام يدعى جوليوس كلينغبايل، مؤمنٌ حقيقيٌّ دفع خمسة آلاف مارك ليتبع بطله برنهارد فورستر.

فور وصوله، اكتشف كلينغبايل أن الأمور مختلفة تمامًا عن القصص التي روتها إليزابيث في مقالاتها. كان المناخ قاسيًا والبعوض لا يرحم ولسعات الحشرات الاستوائية تصيب المرء بحمى مخيفة غير معروفة. كانت التربة «المباركة» عقيمة تقصم الظهر عند محاولة زراعتها، وخدم باراغواي خاملين متجهمين متمردين معتادين على التسكع والكسل ومدمنين على شرب شاي يربا ماتي، أما المستوطنون فقد دفعوا نقودًا مقابل رقعة صغيرةٍ تبعد حوالى ميل عن الأخرى فكانوا فريسة للوحدة والملل والاكتئاب والسقم وسوء التغذية، وتبخر المعنى من حياتهم. ثبطت العطالة والرعب عزيمة العديد منهم، حيث حاولوا تأسيس حياتهم الجديدة مع موسيقى تصويرية كما في أفلام الرعب تتألف من الزئير والهدير وصراخ النمر المرقط والفهد والتابير والخنازير البرية والثيران البرية والقرود وغيرها من الحيوانات المجهولة.

(*) آكلو اللوتس: إن آكلي اللوتس في الأساطير اليونانية هم قومٌ يعيشون على جزيرة تمتلئُ بنباتات اللوتس، فكانت غذاءهم الأساسي للجزيرة، لكنها مخدرة تدفعهم إلى النوم والاسترخاء غير مبالين بما حولهم، وعليه، تشير كلمة «آكل اللوتس» إلى الشخص الذي يقضي وقته في الانغماس في المتعة والترف بدلًا من الانشغال بنشاطات الحياة اليومية. (المترجم)

تتدلى أفاعي البوا العاصرة من الأشجار وتتبعها أسراب البعوض الناقمة منجذبة إلى العَرَقِ الذي تفرزه، النهر يعجّ بالتماسيح وأسماك حادة الأسنان غير معروفة، وأسراب كثيفة من البعوض وثعابين ماء يصل طولها إلى ثمانية ياردات بحسب ما يُقال[٧]. يجب حفر آبار لاستخراج مياه نظيفة صالحة للشرب، والتي غالبًا ما تتجمع عميقًا تحت الأرض فتتطلب حفرًا مضنيًا بغية الوصول إليها. حوّلت الأمطار الاستوائية مسارات الغابات إلى مزالق طينية والحقول المحروثة حديثًا إلى بحيرات شوكولاتة.

يتحكّم آل فورستر في كل شيء، فيلتزم كل مستوطنٍ بالتوقيع على تعهدٍ بعدم ممارسة أعمال تجارية خارج المستوطنة، حينها يجب على كل مشروع صغيرٍ مثل بيع الزبدة أو الجبن أو المنحوتات الخشبية الصغيرة التعامل مع متجر آل فورستر، ناهيك عن أنه المكان الوحيد الذي يمكنهم فيه شراء المواد الضرورية والأدوية. لقد هاجر المستوطنون على أساس أنه سيتم تعويض خساراتهم إذا ما رغبوا يومًا بالعودة إلى ألمانيا، لكنه وعدٌ لم يستطع فورستر الوفاء به، فاستمر الزوجان بحكمهما المستبد الفاسد بعد أن عجز المستوطنون عن تحصيل حقوقهم وتحقيق العدالة.

مثل كل المستوطنين الجدد، تم استدعاء كلينغبايل إلى قصر فورسترهوف الفخم لمقابلة الحاكمين اللذين ينويان إقناعه بشراء الأرض بمبلغ الخمسة آلاف مارك الذي يمتلكه. كان كلينغبايل يتوقع لقاء بطلٍ آري ذي وجه صارم وسحنة نبيلة، لكنه التقى بدلًا من ذلك رجلًا ممسوسًا مرتجفًا. لم يستطع فورستر الركود والجلوس في مكانه، بل تململ مجسدًا تأنيب الضمير بحيث لم يستطع النظر في عين أحد[٨]. كان يتجول جيئة وذهابًا، متملصًا من الأجوبة وغير قادرٍ على الاحتفاظ بسلسلة أفكاره. كانت خيبة أمل كلينغبايل فوريةً وتامة، فقد أدرك أن ما قاله المستوطنون الآخرون صحيحًا، فإليزابيث كانت هي المتسيِّدة على عرش المستوطنة.

بفصاحةٍ وثقة بالنفس وفستان أنيق يزينها، تحركت إليزابيث بخفة حول الطاولة وأخرجت خريطة لتريها لكلينغبايل. أظهرت الخريطة جرمانيا

الجديدة مقسمة إلى عدة قطع أراضي، وكل قطعة تحمل اسمًا. أخبرته بدهاء أن جميع الأراضي باستثناء الأرض التي من المقرر أن يشتريها قد بيعت، وإذا قدم سعرًا مناسبًا ليشتريها فمن الممكن أن تصبح ملكه. كان كلينغبايل ذكيًا، فلم يستغرق الأمر وقتًا طويلًا ليكتشف أن آل فورستر يفتقرون إلى سند قانوني يثبت امتلاكهما للأرض التي يبيعانها.

عاد كلينغبايل بأقصى سرعة إلى ألمانيا لفضح أكذوبة الزوجين، وبعد فترة نشر كتابًا من مائتي صفحة بعنوان «الحقيقة وراء مستوطنة الدكتور برنهارد فورستر المسماة جرمانيا الجديدة في باراغواي»[٩]. أظهر الكتاب الزوجين محتالَين وكاذبَين ودجالَين ومستبدَين، وبعبارة لا لبس فيها وصف إليزابيث بأنها الروح المتحركة وراء الزوج الضعيف الشخصية الذي أخضعته لسيطرتها. وصف المستوطنين بأنهم أسوأ حالًا حتى من أفقر العمال الذين يعملون بأجور يومية في الوطن، فقد كدّوا وعانوا بينما جلس الزوجان المتعجرفان على أثاث أوروبي يشربان الكحول ويتناولان اللحم فوق طاولة طعامهما المصقولة رغم المبادئ الأساسية التي تأسست عليها المستوطنة والتي اقتضت باتباع النهج النباتي.

لم تكن إليزابيث خائفة من الصراع إطلاقًا، بل تلذذت به في الواقع. طارت حتى وصلت آلتها الطابعة وبدأت تكتب عن كذب كلينغبايل وخيانته، وأن اليسوعيين زرعوه لإسقاط المستوطنة، وأن زوجها قائد مجيد عبقري مثالي سعى بلا كلل إلى تحقيق حلمه غير الأناني في سبيل قضية الرفاه الأعظم للبشرية، وأنهما معًا يضحيان بكل ما لديهما لمساعدة عمالهما المخلصين الذين لا يعرف الكلل والتعب إليهم طريقًا.

واصلت فون ولزوغين نشر حكاياتها الخيالية الجديدة في صحيفة بايرويت بلاتر الإخبارية، لكن الجرائد الأخرى لم تنشرها. كانت إليزابيث تفقد مصداقيتها شيئًا فشيئًا، حتى توقفت جمعيات دعم الاستيطان الألمانية عن نشر ما تكتبه لدحض ما جاء في كتاب كلينغبايل.

في باراغواي، إنهار فورستر إلى حدٍ ما فأصبح يقضي معظم وقته في أحد فنادق سان بيرناردينو يحتضن زجاجة خمر، تاركًا مستقبل المستوطنة بين يدي زوجته القديرة.

كتب نيتشه إلى فرانز أوفربيك في رسالته بمناسبة عيد الميلاد لعام ١٨٨٨ «الأمور في باراغواي سيئة جدًا، فقد ثار الألمان المخدوعون مطالبين باسترداد أموالهم بيد أنها صُرفت ولم يتبق منها شيء، مما أدى إلى وقوع أعمال عنف، وأخشى أن يحدث الأسوأ»[١٠]. لكن لم يكن هناك أي حدود لموهبة إليزابيث في إيهام الذات، فقد استمرت في إرسال رسائل تسخر خلالها من أخيها، مقارنةً مجدها وشهرتها بالبؤس المحيط به.

لقد أدرك أن تصرفاتها حيال «جرمانيا الجديدة» تشبه تصرفاتها حيال لو.

لم تشك فرانشيسكا بابنتها أبدًا، مما دفع نيتشه إلى اعتبار التغلب على العاطفة صفة نبيلة إلى جانب التغلب على القيود العائلية السقيمة، فأسمى الشفقة العدو الداخلي للإنسان، لكن رغم ذلك، لم يحتمل أن يكون السبب في خيبة أمل والدته، فيضيف في رسالته إلى أوفربيك: «لا تملك والدتي أي فكرة عما يحدث حتى الآن، وهنا تكمن الطرفة». [١١]

(١٨) وطنُ اللاما:

١. نيتشه إلى إليزابيث في شباط ١٨٨٦.

٢. كتاب الملاحظات التاسع، خريف عام ١٨٨٧، الملاحظة رقم ١٠٢.

٣. كتاب الملاحظات التاسع، خريف عام ١٨٨٧، الملاحظة رقم ٩٤.

٤. نيتشه إلى فرانشيسكا، ١٨ تشرين الأول ١٨٨٧.

٥. موسوعة تشامبرز، ١٨٩٥، المجلد الثامن، ص ٧٥٠-٧٥١.

٦. المصدر السابق، ص ٧٥٠-٧٥١.

٧. المصدر السابق، ص ٧٥٠-٧٥١.

٨. اقتبس كلينغبايل من كتاب إتش. أف. بيترز «أخت زرادشت، قضية إليزابيث وفريدريك نيتشه»، ١٩٧٧، ص ١١٠.

٩. يوليوس كلينغبايل، «ما لا تعرفه عن مستوطنة الدكتور برنهارد فورستر («ألمانيا الجديدة» في باراغواي)، بالدموس، لايبزيغ، ١٨٨٩.

١٠. رسالة إلى فرانز أوفربيك في عيد ميلاد عام ١٨٨٨.

١١. المصدر السابق.

١٩

أنا عبوة ديناميت

طموحي هو أن أقول في عشر جُمل ما يقوله الآخرون في كتاب كامل، وما لا يقوله أي أحد آخر في كتاب كامل.

غسق الأوثان

في شتاء ١٨٨٧-١٨٨٨، عاد نيتشه إلى نيس حيث أُعيد ترميم البنسيون بعد الزلزال. لقد اعترته بهجة طفل عندما سمحوا له باختيار ورق الجدران لما أصبح «غرفته» الآن. اختار ورق جدران مخطط ومرقط ذا لون بني محمر، وأعطوه كرسيًا وأريكة وسريرًا. كان يعلم أنهم يتقاضون من «الأستاذ العزيز شبه الأعمى» خمسة فرنكات ونصف يوميًا، بينما يدفع الضيوف الآخرون ما بين ثمانية وعشرة فرنكات. لقد كان «جرحًا لكبريائي»، لكن ما باليد حيلة، فقد كان يناضل بالفعل لدفع الإيجار ويمول نشر كتبه الخاصة ووجد نفسه في كثير من الأحيان يطلب العون من أوفربيك للحصول على سلف يسددها من معاشه واستثماراته.

كان طقس نيس مخيبًا للآمال ذلك الشتاء، فقد هطل المطر بغزارة لمدة عشرة أيام متتالية مع برد قارس. كانت الغرفة المواجهة لجهة الجنوب أكثر دفئًا لكنه لم يستطع تحمل كلفتها. كانت حياته عبارة عن رجفة أصابع زرقاء كما كان

قلقًا من أن تقتصر قراءة ما يكتبه على أولئك الذين يتقنون سبر أغوار أفكاره. جاءت طرود الإنقاذ من فرانشيسكا وغاست، فقد أرسل إليه الأخير روبًا دافئًا وأرجعت فرانشيسكا أصابعه إلى لونها الأصلي بإرسالها موقدًا صغيرًا أسماه وثن النار ودار حوله برقصات وقفزات وثنية لإنعاش دورته الدموية. من الآن فصاعدًا، سينضم الموقد الصغير بثقله ووقوده إليه في رحلاته.

كان قد ألف موسيقى لدمجها مع قصيدة لو «صلاة للحياة»، والتي أعاد تسميتها «ترنيمة للحياة»[1]، ونسقها بيتر غاست لتُعزف في جوقة وأوركسترا. ستكون هذه مقطوعته الموسيقية المنشورة الوحيدة، وقد دفع لفريتز حتى يطبعها بشكل مرتب باستخدام حروف معقوفة وغيرها من الزخارف الجميلة. أرسلها هو وغاست إلى جميع قادة الأوركسترا الذين يعرفونهم من ضمنهم هانز فون بولو، إلا أن أحدًا لم يرضَ عزفها ومع ذلك، كان نيتشه سعيدًا كونها قيد الطباعة. أعرب عن أمله في أن تُعزف في ذكراه في وقت ما من المستقبل، ومن المرجح أنه كان يقصد جنازته، مكررًا فكرة أنه بهذه الطريقة سيتوحد مع لو ليعبرا إلى أجيال المستقبل.

بعد المراجعة التي كتبها جي. في. ويدمان واصفًا «**ما وراء الخير والشر**» بالديناميت، أصبح الآن متفائلًا بأن كتبه ستصل إلى أيدي الأجيال القادمة. يملأه الاندفاع والحماسة، أرسل نيتشه نحو ست وستين نسخة مجانية من الكتاب، وهذا عددٌ هائلٌ مقارنةً بالنسخ السبعة من كتابه السابق «**زرادشت الرابع**» التي أرسلها مصحوبةً بملاحظات خُطت بذعر يأمر من خلالها المستلمين بالحفاظ على سرية الحكمة الواردة في الكتاب لأن أهميتها أكبر من أن تُنشر، أما الآن فقد كانت أكبر أمنياته هي أن تُسمع كلماته.

زادت فرحته عندما أبلغه ويدمان أن الملحن يوهانس برامز كان مُهتمًا كثيرًا بكتابه «**ما وراء الخير والشر**»، وهو يتحضر للغوص في «**العلم المرح**»، عندها أحس نيتشه بأن هذه فُرصة لا تُعوض، فأرسل إليه مقطوعة «ترنيمة للحياة» متمنيًا أن يُلقي نظرة على أوبرا بيتر غاست «أسد فينيسيا»، لكن خبرة برامس بهذه الأمور دفعته إلى أن يكتفي بإرسال إخطارٍ رسميٍ باستلام المقطوعة.

كان جاكوب بوركهارت متوجسًا من قراءة «**ما وراء الخير والشر**»، قد

شعر بالحرج من الجزء الأخير من زرادشت، فما الذي سيكتبه نيتشه في كتابه القادم بحق السماء؟ فالرجل الهادئ الذي كان يعيش فوق متجر الخباز يميل دائمًا إلى الانسحاب الحذر؛ كان من المتوقع تمامًا أن يبدأ رده على الكتاب بقوله إنه لا يعرف إلا القليل عن الفلسفة. هذه المرة، امتدح حجج نيتشه ورؤاه في تدهور المجتمع المعاصر على يد القطيع الذين تشاركوا عقلية العبيد بتأثير القس الزاهد.

لم يكن لدى بوركهارت متسع من الوقت للديمقراطية، فوصف نيتشه للرجل القوي الذي يصوغ المستقبل تماشت بشكل جيد مع الصورة التي رسمها بوركهارت عن أنانية وجشع وعنف وقسوة الأمراء الإيطاليين الذين أُبدلت إرادة اقتدارهم في العصور الوسطى بالنهضة، وبالتالي إحلال خمسمائة سنة أو نحو ذلك من الإنسانية الليبرالية، وهنا تكمن المفارقة.

أرسل نيتشه أيضًا الكتب الحديثة إلى هيبوليت تاين، الناقد الأدبي والمؤرخ الفرنسي الذي كان مهتمًا بتفسير التاريخ من خلال العوامل البيئية. مثل نيتشه وبوركهارت، دان تاين بمرارة الثورة الفرنسية، فكتب له مشجعًا بأنه أبقى زرادشت على منضدة بجانب سريره ليقرأه كل ليلة[٢].

كان العدد الثاني من مجلة غونكور «Journal des Goncourt» قد صدر للتو، ويتحدث العدد عن الحياة المترفة الباريسية للأخوين غونكور والحفلات المنتظمة وولائم العشاء التي التقت فيها «أكثر العقول ذكاءً وتشككًا» في باريس حسب كلمات نيتشه النابعة من غيرته. كان تاين أحد الحضور في ولائم العقول النابغة تلك، مع الناقد سان بوف والروائي فلوبير وتيوفيل غوتييه، وأحيانًا تورغينيف. كان نيتشه يغار من هذا التجمع الراقي حيث «التشاؤم الساخط والسخرية العدمية التي تتناوب مع المرح وحس الفكاهة»[٣]. قال إنه كان سيشعر كما لو أنه في مكانه الصحيح تمامًا. لكن هل يوجد مكان ملائم له حقًا؟.

ولأنه يفتقر إلى دائرة طعام يتجانس حاضروها على الصعيد الروحي

كتلك، ذهب لزيارة إروين رود، صديقه القديم منذ أيام دراسته في لايبزيغ. كان رود قد أصبح أستاذًا للفلسفة وسيصبح نائب رئيس جامعة هايدلبرغ. كان لقاؤهما مخيبًا لآمالهما، فقد اشتكى نيتشه من عدم نطق رود لأي كلمة تنم عن حوارٍ ذكي، وقال رود إنه استشعر في نيتشه غرابةً وغموضًا لا يوصف، كما لو كان قادمًا من بلد لا يعيش فيه أحد. كان رود أول من اكتشف أن هناك خطبًا ما. لم يكن متعاطفًا مع ادعاءات نيتشه الجديدة المتغطرسة بأن مصيرًا عظيمًا ينتظره في المستقبل وأنه أول فيلسوف في زمانه، وأنه «شيء حاسمٌ ومأساوي ينتصبُ بين ألفيتين»[٤]. بدت الكلمات التي سمعها رود أشبه بما يصدر من رجل مصابٍ بجنون العظمة فكان رد فعله هو الانسحاب. توقف عن الرد على رسائل نيتشه وأحجم عن شكره لإرساله جديد إصداراته، فقد وجدها تافهة وغير واقعية، وعلى إثر هذا لم يلتق الرجلان مرة أخرى.

وصلته رسالة سُعد بها كثيرًا، كانت من الدنمارك من المؤلف والناقد جورج براندز.[٥] كان نيتشه قد أرسل له كتاب «**إنساني مفرط في إنسانيته**» وما وراء الخير والشر، وأخيرًا بعد استلام براندز كتاب «**جينالوجيا الأخلاق**» في تشرين الثاني ١٨٨٧، أرسل فورًا رسالة تفيض حماسة.

كان جورج براندز الناقد الأدبي الأول في شمال أوروبا، وبراديكاليته السياسية والدينية، صاغ مصطلح indignations litteratur «أدب السخط» أو «أدب الاحتجاج» قاصدًا الكتب التي أخفاها الأزواج المحترمون في الثمانينات من القرن التاسع عشر عن زوجاتهم وبناتهم والكتب التي خطب وزعق ضدها الأساقفة من فوق عروشهم، الكتب التي غالبًا ما خضعت للرقابة والحظر. ناصر براندز الروح الحرة «الخطرة» مثل كيركيجارد وإبسن وستريندبرغ وكنوت همسون وبلزاك وبودلير وزولا ودوستويفسكي وتولستوي. كانت المؤسسة السياسية الكهنوتية تعتبره صنم التمرد فبدأت تشير إليه باسم «عدو المسيح».

كان براندز صديقًا لجورج برنارد شو وجون ستيوارت مِل في إنجلترا، وكان لترجمته مقال مِل حول «إخضاع المرأة»[٦] إلى الدنماركية تأثير كبير

على الحركة النسوية في الدول الاسكندنافية، والتي انعكست في مسرحيات إبسن، وكانت زوجته سوزان إبسن مناصرة للنسوية. أما في روسيا، كان براندز صديقًا لكروبوتكين الثوري[٧]، وعمل جاهدًا حتى يُعرف بوشكين ودوستويفسكي وتولستوي على صعيد أكبر خارج بلدهم. في نهاية المطاف، أكمل كتابه «التيارات الرئيسية في أدب القرن التاسع عشر» في تسعة مجلدات مكتسبًا إعجابًا وسمعةً دوليةً واسعة، فأصبح يحاضر في البلقان وبولندا وفنلندا. عندما ذهب إلى اليونان استقر في شقة رئيس الوزراء اليوناني، وخلال جولته الناجحة لإعطاء المحاضرات في الولايات المتحدة توج مرارًا وتكرارًا بأكاليل زهور الغار وأغرقه الكتّاب بأعمالهم. كانت تصله في بعض الأحيان ثلاثون أو أربعون رسالة في اليوم. كان حدثًا جللًا أن يلتفت براندز أو يلاحظ مؤلفًا متمردًا غير معروف.

التقى براندز ببول ريه ولو سالومي أثناء إقامته في برلين بين عامي ١٨٧٧ و١٨٨٣، ولا بد أنهم قد تحدثوا عن نيتشه، ولكن براندز لم يكتب أي شيء عنه في ذلك الوقت، فالاتجاه الذي اتخذه نيتشه في كتابه زرادشت لم تجذبه، ولغته القديمة المرتلة وصوفيته الدينية لم تتلاءم مع مبدئه في تبسيط الأدب وتحديثه. ومع ذلك، كان كتابا **«إنساني مفرط في إنسانيته»** وفي **«جينالوجيا الأخلاق»** مختلفين، فكتب إلى نيتشه في ٢٦ تشرين الثاني ليخبره أنه وجد فيه «أنفاس روح جديدة وأصيلة. لم أفهم حتى الآن تمامًا ما قرأته؛ ولم أعرف دائمًا تجاه أي قضية ترنو، ولكنَّ هناك توافقًا كبيرًا مع أفكاري وعواطفي الخاصة كاحتقار مُثل الزُهد العليا والغضب العارم من الاعتدال الديمقراطي والراديكالية الأرستقراطية...».

الراديكالية الأرستقراطية! في ٢ كانون الأول، أجاب نيتشه في خطاب متحمس وفوضوي يُفيد بأن ملاحظاته (براندز) هي أكثر ما قرأ عن نفسه فطنة. كتب يخبر براندز بعزلته واستشهد بكلمات أوفيد التي نقشت على قبر ديكارت: «عاش جيدًا من أتقن فن الإخفاء» مناقضًا على الفور هذا الاستشهاد بقوله إنه يود مقابلة براندز ذات يوم. تحت توقيعه، أضاف مترددًا «ملاحظة: أنا ثلاثة أرباع أعمى»[٨].

توجب على براندز أن يدخل كهف نيتشه! طلب من فريتز أن يرسل له أحدث الطبعات من جميع كتبه، والتي تضمنت الآن مقدمات جديدة، حتى إنه أمر بيتر غاست بأن يرسل له نسخة من طبعة كتاب زرادشت الرابع الصغيرة.

طلب براندز إذنه لإلقاء محاضرات حوله في جامعة كوبنهاغن في الربيع، الأمر الذي بدأ دفقًا من الرسائل لتعريف براندز بالحقائق الكامنة وراء كل كتاب، بعضها كان مفيدًا وبعضها ليس له أي صلة بالموضوع. إنساني مفرط في إنسانيته: «يصور مسيرات شاقة، مثال ينطبق على رجل مُلهَم»، مولد التراجيديا: «انتهيت منه في لوغانو، حيث كنت أعيش مع عائلة فيلد مارشال مولتك»، مُرفقًا سيرة ذاتية غريبة:

ولدتُ في ١٥ أكتوبر ١٨٤٤، قرب ساحة معركة لوتسين. الاسم الأول الذي سمعته كان اسم غوستافوس أدولفوس[٩]. كان أسلافي من النبلاء البولنديين (نيتزكي)... عندما يراني الناس يحسبون أنني بولندي، وفي هذا الشتاء بالذات كتبوا اسمي في قائمة الزوار في نيس كما لو أنني بولندي. قيل لي إن رأسي يصلح ليُرسم في لوحات يان ماتيكو... في شتاء ١٨٦٨-١٨٦٩، عرضت عليّ جامعة بازل منصب بروفيسور ولم أكن قد أصبحت دكتورًا بعد حينها؛.. من عيد الفصح ١٨٦٩ إلى ١٨٧٩ بقيتُ في بازل. كنت مضطرًا للتخلّي عن حقوقي بصفتي مواطنًا ألمانيًا، حيث إنني كنت ضابطًا (مدفعية الخيول) وكان عليّ أن أذهب عندما يستدعونني مرارًا وتكرارًا. مع ذلك، فأنا أتقن استخدام سلاحين، السيف والمدفع.. منذ الأيام الأولى لي في بازل، نشأت علاقة وطيدة لا توصف بيني وبين ريتشارد وكوزيما فاغنر اللذين كانا يعيشان حينذاك في بيتهما في تريبشن بالقرب من لوسيرن، فكنا كمن يعيش في جزيرة معزولة عن كل ما حولها من روابط وعلاقات. لعدة سنوات كنا نتشابه في كل شي، كبيرها وصغيرها، وكانت تجمعنا ثقة ببعضنا لا حدود لها.. نتيجة لهذه العلاقات تعرفت على دائرة كبيرة من الأشخاص رجالًا ونساء، في الواقع، تعرفت تقريبًا على كل ما ينشط بين باريس وبطرسبورغ.

بحلول عام ١٨٧٦ أصبحت حالتي الصحية أسوأ... حتى وصلتُ إلى ذروة المعاناة التي أصبحت فيها بعد روتينية وعلى مدى مائتي يومٍ من كل عام. لا بد أن المشكلة ناجمةٌ عن أسباب موضعية، فأنا لا أعاني من أي اعتلال عصبي، ولم يسبق لي أن عانيت من أعراض اضطراب عقلي؛ ولا حتى من حمى أو إغماء. كان نبضي في ذلك الحين بطيئًا كنبض نابليون الأول.. كُتب تقرير يقول إنني دخلت مستشفى مجانين (وإني مت هناك)، ولا شيء أبعد عن الحقيقة من ذلك التقرير.. بعد كل شيء، أفادني مرضي كثيرًا، فقد حررني وأعاد لي الشجاعة بأن أكون كما أنا.. فأنا حيوانٌ شجاعٌ وعسكريٌ حتى. أنت تسأل إن كنتُ فيلسوفًا، لكن فيمَ يهم ذلك؟[١٠]

استخدم براندز هذه السيرة الذاتية لتقديم نيتشه في بداية محاضرتين ألقاهما في نيسان ١٨٨٨ في جامعة كوبنهاغن حول «فريدريك نيتشه، مناقشة للأرستقراطية الراديكالية». سُمح لعامة الناس حضور تلك المحاضرات، وهنا بانت عظمة براندز وسمعته، فقد أتى أكثر من ثلاثمائة شخص ليسمعوه يتحدث عن فيلسوف مجهول.

أنهى المحاضرة الأخيرة بقوله: «السبب الرئيس في جذب انتباهكم إليه هو أن الأدب الإسكندنافي اقتات لفترة طويلة على الأفكار التي طرحت ونوقشت في العقد الماضي. القليل من الداروينية، قليلٌ من تحرير المرأة، القليل من أخلاقيات السعادة، بعض من التفكير، وقليلٌ من عبادة الديمقراطية، إلخ. إن الفن العظيم يتطلب عقولًا تقف على مستوى واحد مع أكثر الشخصيات الفردانية استثنائية واستقلالًا وتحديًا وتفوقًا ذاتيًا أرستقراطيًا في الفكر المعاصر».

أخبر براندز نيتشه أن القاعة عصفت بالتصفيق، وهذا الهتاف لم يكن له، بل لنيتشه بكل تأكيد. سُرّ نيتشه بهذا للغاية، وبدأ يفكر فيما إذا كان فهم الدنماركيين لفكرة أخلاق الأسياد الرئيسية يعود إلى معرفتهم بالملاحم الأيسلندية.

كتب لجميع أصدقائه يخبرهم بذلك النجاح الباهر، وأخبر إليزابيث

أيضًا، فردت على رسالته من باراغواي بأقصى قدر من الاحتقار والازدراء، قائلة بأنها ظنت أن شقيقها يريد أن يصبح مشهورًا جدًا مثلها، ومن المؤكد أنه أحب تحقيق الشهرة على يد حثالة يهودية مثل جورج براندز، الذي ذهب «ليلعق كل الصحون»[11].

مع أنفها الذي لا يخطئ مثل هذه الأشياء، تشممت إليزابيث حقيقة أن جورج براندز كان يهوديًا، فقد غيرت عائلته اسمها مثل العديد من العوائل الدنماركية من كوهن إلى براندز الذي يبدو أكثر دنماركية مما سهل حياتهم قليلًا في ذلك المجتمع.

ردّ نيتشه على إليزابيث قائلًا إنه بعد قراءة رسالتها عدة مرات، شعر أنه مجبر على تركها للأبد. لقد كانت رسالته مؤلمةً ومعذبةً لكنها لم تكن قاسية، فقد حاول أن يشرح المهمة الشاقة التي يشعر بها، والتي تشبه مصير وحشي ملقىً على كاهله، والموسيقى الصاخبة التي تعزف في أذنيه وتفصله كليًا عن ابتذال المساواة وحلولها الوسطية. لم يكن هذا خياره الشخصي بل مصيره الذي فرض عليه تحدي الإنسانية برمتها متسلحًا باتهاماته المريعة. «يرتبط باسمي دمار يفوق التصور»، وفي نهاية الرسالة توسل إليزابيث أن تستمر في حبها له ثم وقعها باسم «أخاكِ». لم يُرسل هذه الرسالة أبدًا وبقيت ضمن مسوداته[12].

شجعه اهتمام ويدمان وتاين وبوركهارت وبراندز بكتبه لمواصلة الكفاح الذي أشار إليه في رسالته إلى إليزابيث. كان رود على صواب؛ لقد شعر كما لو أن نيتشه جاء من بلد لا يعيش فيه أحد، لكن في ذلك الصيف شعر بشيء غريب في عروقه، فقد ثارت ساعته البيولوجية. عادةً ما كان نيتشه مخلوقًا فولاذي الانضباط فيما يتعلق بنظامه الغذائي وجدوله الزمني، أنظمة صارمة اعتاد على اتباعها للسيطرة على مرضه العنيد، لكنه فجأة وجد نفسه مستيقظًا ومرتديًا ملابسه ومستعدًا للعمل في منتصف الليل. لقد كتب عن تغيير تأريخي حل عليه وهو يستعد للمهمة الضخمة القادمة: لن يرضى عن أقل من إكمال كفاحه السري الذي لا هوادة فيه ضد كل شيء يوقره ويحترمه البشر حتى الآن. كان ينوي كتابة عددٍ من الكتب، ربما أربعة، من شأنها

أن تنهي معًا عملية إعادة تقييم جميع القيم التي بدأها مع «**إنساني مفرط في إنسانيته**» و«**جينالوجيا الأخلاق**». كان يفكر بعنوان: إرادة القوة. محاولة في إعادة تقييم جميع القيم. كان ينوي هذه المرة هدم الصرح كله وليس جزءًا منه فقط؛ فيلسوفًا بعد فيلسوف، معلمًا بعد آخر، ودينًا تلو الآخر.

لكن عليه أن يجد مكانًا له أولًا، فقد وجد نفسه يواجه مشكلته السنوية التي تتعلّق بمكان سكنه في فصل الربيع، عندما أشرقت شمس ساطعة على الريفيرا الفرنسية والإيطالية تاركةً جباله العزيزة على قلبه مجمدة. استشار بيتر غاست في هذا الأمر، وكان غاست لا يزال في البندقية، فاقترح عليه تورينو، وربما كان اقتراح غاست نابعًا من غريزته بحماية نفسه.

كانت رحلة القطار من نيس إلى تورينو سهلة نسبيًا، ولم يكن عليه سوى تغيير القطارات في سافونا، وسيتحتم عليه إيجاد حمالين لمساعدته في نقل أمتعته. بعد إنجاز كل هذا والاطمئنان على أمتعته في القطار الثاني ذهب ليتجول في الأرجاء، لكنه عندما عاد أخطأ في اختيار القطار فصعد إلى قطار آخر غير القطار الذي يحمل حقائبه، منطلقًا نحو جنوة في الاتجاه المعاكس لتورينو. لاستعادة عافيته من هذه الكارثة، رقد في الفراش يومين في أحد الفنادق، مُرسلًا وابلًا من البرقيات. في نهاية المطاف حُلّت المشكلة وفي ٥ نيسان وصل أخيرًا إلى تورينو ولُمّ شمله بأمتعته.

كانت كلمات جورج براندز «راديكالية أرستقراطية» تسبح في ذهنه، فهذا الوصف ينطبق على مدينة تورينو، فكان انطباعه الأول يتمحور حول أناقة وجدارة وأهمية المدينة. كانت تورينو مقر عائلة سافوي الحاكمة، فكانت مدينة رزينة وأنيقة و«أوروبية» بالكامل، وخالية من الخصائص السريعة والعصرية التي تمتاز بها المدن الإيطالية. لقد كانت مدينة أُعدت له لكي يسكنها، مكانًا «في غير أوانه» بكل ما تحمله الكلمة من معنى بحسب تفسيره، مكانًا خارج الزمن. لقد وجد فيها وحدة النبالة والتجريد والسكينة، وأحبّ رقي المدينة وكمالها الذي امتد إلى ألوانها وتصاميمها المعمارية التي جمعت بين الأصفر الزهري المظلل بالتراكوتا ولونه المفضل البني المحمر.

كان يشرف على كل ميدان مهيب ونظيف نافورة أو تمثال برونزي لبطلٍ مخلدٍ بوقار وبنمطٍ كلاسيكي.

إلى الشمال الغربي من المدينة تغطي الأفق قمم الجبال الثلجية البيضاء المحببة لقلبه. لقد كان مقتنعا بأنها تؤثر من بعيد على الهواء فتجعله جافًا كهواء سيلس ماريا ليناسب بنيته الجسدية ويحفز دماغه. كانت سيلس ماريا تمتلئ بالغابات المظللة والهادئة التي تخفف من حدة الضوء على عينيه، أما تورينو فتعج بأروقة بطول ١٠٠٢٠ مترًا كما اعتقد، والتي تخفف الضوء لدرجة مثالية حتى يتمشى تحتها الخلد النصف أعمى في يوم مشمس ليصقل أفكاره ويخربشها في دفاتر ملاحظاته، أما في الأيام الممطرة فقد يمشي تحتها لساعات من دون أن تمس قطرة واحدة أوراقه. أشبعت تورينو توقه للعيش في مكان تتداخل فيه المواسم، فقرر أن تصبح المدينة منزله الثالث في جولته السنوية بين المدن، بما أن نيس وسيلس ماريا هما بيتاه الآخران.

خلال ذلك العام كان مأخوذًا بنوباتٍ من النشوة إثر تعرفه على تورينو، مما حفز داخله حماسة مفرطة. تصف رسالته مرارًا بأن المدينة تمتلك أفضل الأشياء في العالم، من الآيس كريم إلى نقاء الهواء. كانت المقاهي من أجمل ما رأى، والآيس كريم من ألذ ما أكل على الإطلاق، حيث يُهضم الطعام بسهولةٍ بالغة، وكل المطاعم بلا استثناء تقدم أرخص الأكلات وأشهاها في العالم! لم تعانِ أمعاؤه من أي مشكلة في التعامل مع أي طعام في تلك المدينة.

وجد شققًا مفروشة في وسط المدينة في الطابق الثالث من بناية في ساحة كارلو ألبرتو. أطلت نافذته على الواجهة الباروكية ذات اللون الوردي والأبيض لقصر كارينيانو، حيث ولد الملك فيكتور إيمانويل الثاني، وهذه حقيقة استمتع نيتشه بإخبار جميع من راسلهم بها.

بالقرب من شقة نيتشه يقع مبنى غاليريا سوبالبينا (Galleria Subalpina)، مبنىً عملاق من الزجاج والحديد المطاوع بُني قبل نحو عشر سنوات في ذروة الشغف الدولي بإقامة قصور كريستالية. كان المبنى بحجم

محطة قطارات لكن من دون ضوضاء وإزعاجات القطارات. كان المبنى الذي يبلغ طوله خمسين مترًا وارتفاعه ثلاثة طوابق محاولة من تورينو لمنافسة ميدان سان مارك في البندقية ليصبح واحدًا من أكبر المباني العامة في أوروبا. تحت قببه الزجاجية، ضم المبنى كل ما يُعجب البرجوازيين المتسكعين من أشجار نخيل الموضوعة في أُصص وفرق موسيقية ومقاهٍ تقدم للجالس آيس كريم وقدح ماء طوال فترة جلوسه هناك، ومحلات بيع الكتب الأثرية والنادرة حيث يمكنك تصفح الكتاب طالما رغبت. كان أكثر ما سر وأعجب نيتشه هو قاعة الحفلات، فما كان عليه سوى فتح نافذة غرفته لسماع سمفونية حلاق إشبيلية تُحمل على نسمات الهواء وصولًا إلى أذنيه من دون أن يضطر إلى دفع ثمن تذكرة لحضور الحفلة. كان يتمنى أن تحمل نسمات الهواء يومًا أوبرا كارمن إلى مسامعه.

المسرح العام الجاهز الذي كانت عليه تورينو سمح له أن يعيش في عزلة لا تشوبها شائبة، لكن ما كان ينقصه حقًا هو صديقه بيتر غاست المحب لكل خيرٍ يصيبه والذي كان يرفرف فوقه في البندقية، وحشد الناس الطيبين الذين اعتنوا به في سيلس ماريا، فالناس هنا ليسوا طيبين ليتحملوا ضعف بصره أو يتسامحوا معه في دفع أموال الإيجار نظرًا لحالته المادية كما في نيس. في تورينو، يمكنه أن يكون روحًا حرّة لا يقيدها عبء تعاطف الآخرين.

تضايق نيتشه من التناقضات في حياته، فأعرب عن قلقه إلى فرانز أوفيربيك وبيتر غاست من أنه قد أصبح قاسيًا وشديدًا للغاية في حكمه، وأن حالة الضعف المزمن التي تجتاحه كانت تنمّي داخله قسوة وصلابة مفرطة. كان خائفًا من أن تسحبه مشاعره هذه الى حفرة الضغينة، ومع ذلك، لم يكن له أن يتراجع عن القسوة التي يجب أن يلتزم بها في رحلته لإعادة تقييم كل القيم. كما هو الحال في تصوراته السابقة الأقل تأثيرًا والمتمثلة في فكرة إعادة التقييم الأخلاقي نفسها في تأملات في غير أوانها فإن مخططه للعمل الجديد تأرجح ذهابًا وإيابًا مع أفكاره، لكن عملية إعادة التقييم ستتوسع في الأساس لتدور حول الموضوعات المذكورة سلفًا في «ما وراء الخير والشر»

و«**جينالوجيا الأخلاق**». كان الدخول إلى العصر المأساوي الأوروبي فكرة تستحق التركيز الذي صبه في دفتر ملاحظاته، فقد كان يبذل جهدًا لربطه بفكرة العود الأبدي.

لكن عليه أولًا أن يكتب المزيد عن فاغنر. كان قد مضى على وفاة الملحن خمس سنوات لكن نيتشه لم يستطع أن يهدأ بعد وأن يترك الرجل ليرقد بسلام، فقضى أسابيع في كتابة قضية فاغنر: مشكلة موسيقي.

يشكل الكتاب الصغير الذي يتألف من حوالى ثلاثين صفحة، ترسًا في عجلة كفاحه المتواصل واليائس لتحرير نفسه من السحر الذي سحره به فاغنر. حجة الكتاب بالكاد متماسكة، فهو يدور حول استيائه من قدرة موسيقى فاغنر على التلاعب بمشاعره، وحول صراعه لعدم التفريط بإرادته الحرة التي عكفت موسيقى فاغنر على محاولة السيطرة عليها.

يفتتح نيتشه «قضية فاغنر» بالإشادة بأوبرا كارمن باعتبارها تحفة بيزيه، فيُعلن أمام الملأ أنها مثالية ويُقسم أنه في كل مرة يستمع إليها يشعر بأنه أصبح فيلسوفًا أفضل. يقود هذا المديح مباشرة إلى هجوم على الرومانسية الألمانية على وجه العموم وفاغنر على وجه الخصوص.

إن قدرة فاغنر الساحرة بشكل مرعب في التلاعب بجمهوره لإيصاله لمرحلة الانتشاء العاطفي ليست صحية بالمرة، بل هي مفسدة للروح، إفسادٌ شبه ديني كما في أوبرا «بارسيفال»، وإفسادٌ قومي كما في أوبرا «الأساتذة الموسيقيون»، وبذلك يكون فاغنر هو فنان الانحطاط. هل هو إنسان على الإطلاق؟ أليس مرضًا؟ ألم تحوِّل موسيقاه البشر إلى مرضى؟ يدفعُ المرءُ ثمنًا باهظًا ليكون مُريدًا لفاغنر، ويجب على المرء أن يعترف بأن الموسيقى الحديثة ليست سوى مرضٍ، فيتعمق الانحطاط من خلالها أكثر فأكثر[١٣].

أخيرًا، يعترف بأن جميع الموسيقيين المعاصرين لا يُقارنون به[١٤]، رغم أن مسرح بايرويت عبارة عن سوء فهم كبير لمؤسسه، بل هو غباء محض.

هيكل الكتاب غريب، فنيتشه يرفقه بملاحظتين يعترف فيهما بإعجابه

ببارسيفال، فهي أعظم تحف فاغنر، وهو «معجبٌ بهذا العمل، ولكم وددتُ أن أؤلفه بنفسي»[١٥].

في ٥ حزيران، غادر نيتشه تورينو لقضاء أشهر الصيف في سيلس ماريا، حيث سكن في غرفته القديمة في منزل جيان دوريش. كان صيف سويسرا ذلك العام عاصفًا وممطرًا وباردًا، مصحوبًا بتساقط ندف قليلة من الثلج. كان الطقس يتغير كل ثلاث ساعات ومعه يتغير مزاج نيتشه، حتى وصل جيرانه الودودون ومعهم عدد قليل من النساء المثقفات وموسيقيان موهوبان. تناول نيتشه وجباته في فندق ألبينروز الذي يقع في الجهة المقابلة من الجسر قرب مسكنه. في الصباح عندما يصبح الطقس قاسيًا يذهب نيتشه إلى غرفة المعيشة في الفندق للاستماع إلى الموسيقى والتحدث عنها.

في ذلك العام لم تكن ريزا فون شرنهوفر بين الحضور، لكنه استمتع بصحبة ميتا فون ساليس مارشلينز[١٦] التي التقاها قبل أربع سنوات في زيوريخ. كانت ميتا السمراء الجذابة الأرستقراطية آخر فرد في عائلة مارشلينز السويسرية النبيلة الغنية، وقد تجاوز عقلها وعزمها عظمة نسبها النبيل، وهي تصغر نيتشه بعشر سنوات، وواحدة من «النساء الجديدات» النسويات اللواتي يدافعن عن حياة فكرية مستقلة كمالويدا فون ميسنبوغ. درست ميتا القانون والفلسفة في جامعة زيوريخ، وخلال العام السابق أصبحت أول امرأة سويسرية تحصل على الدكتوراه. كانت تكتب الشعر وتطالب بإفساح المجال للنساء، لكن ليس كل النساء، فانتقائيتها النسوية تليق حقًا بالراديكالية الأرستقراطية. لم تكن مهتمة أبدًا بسعادة القطيع، بل بتضمين نساء الطبقة النبيلة ذوات الذكاء الفطري أيًا كانت أصولهن في الحقوق المدنية، فمن شأن هذا أن يجعل العالم أكثر أرستقراطية وليس أكثر ديمقراطية، مطبقةً مبدأها هذا على الرجال كما النساء. في مذكراتها حول نيتشه، صنفته ضمن النخبة؛ أولئك الذين تفوق فكرهم النبيل على أصولهم المتواضعة.

تحدثا عن دوستويفسكي، وتبين أن ميتا قد قرأت أعماله بناءً على توصية من ناتالي هيرزين، تلك الفتاة التي اعتقد نيتشه أنها قد تكون عروسًا مناسبة له

لو أنها امتلكت المال. حكى نيتشه كيف أنه اكتشف دوستويفسكي بالصدفة، عند التقاطه نسخة فرنسية من رواية «رسائل من تحت الأرض» من مكتبة ما. كالصدفة التي جعلته يعرف شوبنهاور عندما كان في الحادية والعشرين من عمره، وستاندال عندما بلغ الخامسة والثلاثين، كانت صدفة تعرفه على دوستويفسكي أشبه بصاعقة رعدية. كانت كلماته «مقطوعة موسيقية، موسيقى أجنبية وليست ألمانية البتة». بنظرة عبقرية ذات بعدٍ سيكولوجي(١٧) دفع الكتاب الأول نيتشه ليبحث عن المزيد، فقرأ «منزل الأموات» النسخة الفرنسية أيضًا. كان لوصف دوستويفسكي المؤثر والقاسي لسنواته الطويلة التي قضاها في السجن والمنفى في سيبيريا تأثيرًا قويًا على نيتشه، فصرخ قائلًا: «ابنِ بيتك قرب فيزوف»، وهذا كان تأثير دوستويفسكي. لقد كان شيطان الحقيقة وشيطان الوضوح، وحشًا كاسرًا ومغامر روح، رجلًا ماثلت معاناته معاناة نيتشه، فالمهانة التي عاشها ديستويفسكي خلال سنواته في السجن شابهت الذل الذي قاساه نيتشه خلال سنوات طويلة من المرض والإهمال الأدبي.

أشترك دوستويفسكي في كل تلك النقاط مع نيتشه، إلى جانب المعرفة الشاملة بالأناجيل المماثلة لمعرفة نيتشه. لقد كان قادرًا على استعراض المسيحية الخام الأصيلة، تلك الحالة الدينية المقدسة قبل انتزاعها من براءتها بكل الإدخالات والتفسيرات اللاحقة. كان دوستويفسكي فوضويًا مقدسًا فهم أن سايكولوجيا المخلّص الحقيقية لا علاقة لها بالكهنة أو دين الدولة أو النظام، ولا ترتبط بنزعة الانتقام التي تتمحور حولها أخلاق العبيد، كانت محاولات تبرير المسيحية «علميًا» لا علاقة لها بتاتًا بموضوع المسيحية. لقد انحرفت المسيحية عن مسارها بتأثير هذه الأمور، فشعر نيتشه بأنهما يتشاركان الرأي بأن المسيحية قد تلوثت بفعل إرثها الذي يسمى «الدين»، فخضعت لمساومة مقابل ضرورة دوامها في هذا العالم، وهي ضرورة لا يمكن إلا أن تحول المخلّص إلى مهرجٍ تقي.

بينما كان نيتشه وميتا فون ساليس مارشلينز يتنزهان مساءً على طول البحيرة باتجاه صخرة زرادشت، قالت إن الدموع ملأت عيني نيتشه وهو

يتحدث عن «منزل الأموات»، فأخبرها أن الرواية دفعته إلى أن يُدين سلسلة كاملة من المشاعر القوية في نفسه، ليس لأنه لم يكن يتملكها، بل لأنه شعر بها تجتاحه بقوة وعمق شديد، عالمًا مدى خطورتها. لم تخبرنا ميتا عن ماهية هذه المشاعر، لكن من المفترض أنه كان يتحدث عن التأثير الخطير والمنهِك للشفقة وعدم جدواها من الناحية العملية. كتب بعد فترة وجيزة أن الشفقة انحطاط وممارسة عدمية تجبُّ الحياة وتدفع الناس إلى ترجيح كفة العدم، رغم أنه لا يُسمى العدم بـ«الماوراء» أو «الإله» أو «الحياة الحقيقية» أو «النيرفانا» أو «الخلاص». أدركَ أرسطو هذا كله وأعلن أنه يعتبر الشفقة مرضًا خطيرًا يجب التطهر منه في النظام من حين إلى حين. كانت التراجيديا الإغريقية هي العلاج لهذا المرض[١٨].

في الصيف الماضي، كانت ميتا قد علّمته التجذيف في البحيرة والخروج في رحلات استكشافية بالقوارب. تحدث نيتشه خلال تلك الرحلات عن طفولته أيام دراسته ووالدته كثيرًا، ووصف نفسه بأنه كان طفلًا غريبًا، وأن عينا والدته جميلة جدًا، بيد أن ميتا أحست بحزنٍ وتعبٍ يتدفق من كلماته لم يكن موجودًا قبل ذلك.

لكن الشيطنة والشقاوة القديمة في داخله لم تنطفئ بالكامل. دائمًا ما ينال ذلك المنتجع الجبلي الباهر الجمال حصته من الفنانين الهواة الذين ينصبون ألواح الرسم على مساندها في الهواء الطلق لتخليد مواهبهم. عندما صادف فتاة إيرلندية شابة تجري دراسات عن الزهور البرية نصحها بوضع شيء قبيح في الصورة، فهذا التناقض سيبين جمال الزهور أكثر. بعد بضعة أيام أمسك ضفدعًا ووضعه في جيب بنطاله وأحضره إلى الفنانة وهو سعيدٌ بنفسه للغاية، فانتقمت لنفسها بالقبض على بعض الجراد ووضعه في علبة حلويات، مع معرفة مسبقة بولعه بالحلويات، وعندما فتح الغطاء قفز الجراد في وجهه. كانت دائرة السياح الصيفيين الحميمة تعتبر هذا تبادلًا مسليًا للمزاح[١٩].

في منتصف تموز أنهى كتابة قضية فاغنر وفي السابع عشر أرسل المخطوطة بالبريد إلى ناومان لطباعته ونشره، لكن ناومان لم يستطع قراءتها من الأساس،

فأعادها إلى نيتشه الذي أرسلها بدوره إلى بيتر غاست. كعادته، ترك غاست أعماله جانبًا وتفرغ لحل مشكلة نيتشه، فطُبع الكتاب ونُشر في أيلول.

قدّر نيتشه أن كلفة إنتاج كل كتاب كانت ألف فرنك، وكان معاشه من بازل ثلاثة آلاف. فهمت ميتا مشكلته فأعطته بلباقة ألف فرنك للمساعدة في نفقات الطباعة. في تموز، تلقى هدية أخرى بقيمة ألفي فرنك لنفس الغرض من بول ديوسن، مع ملاحظة تقول إنه يسلمه هدية مجهولة المصدر من «عدد قليل من الأشخاص الذين يرغبون في التكفير عن خطايا البشرية ضدك». شكّ نيتشه في أن تكون الهدية من ديوسن نفسه أو من ريه الذي كان في برلين آنذاك. بحسب نفقات نشره السنوية فبلغت ٢٨٥ ماركًا في عام ١٨٨٥، و٨٨١ ماركًا في عام ١٨٨٦، و١٢٣٥ ماركًا في عام ١٨٨٧. منحته هدية أصدقائه حرية الاستمرار في طباعة أعماله وتصعيدها دون خوف من الإفلاس.

شرع بكتابة «**غسق الأوثان**»، كان العنوان تحديًا واضحًا لفاغنر الذي عنون أوبراه الرابعة الأخيرة في حلقة نيبلونغ «غسق الآلهة». كان الكتاب ليكون الأول في إعادة تقييم القيم، فقد أشار عنوانه الثانوي «كيف تتفلسف بالمطرقة» إلى عزمه استخدام مطرقة والوقوف على جميع القيم الموجودة، لمعرفة ما إذا كانت صحيحة صلبة أم خاطئة جوفاء. إن كانت صحيحة، فقد تحتمل طرق المطرقة.

لم يكن لمقدمة الكتاب أي علاقة بما تقدّم، فقد غاصت مباشرة في «أمثال وحِكم»، أربع وأربعون شذرة، تتخللها أفضل شذراته المعروفة:

أكان الإنسان خطيئة الإله أم الإله خطيئة الإنسان؟

ما لا يقتلني يجعلني أقوى.

إن امتلكت غاية حياتك، فستجتاز كل صعوبة وكيفية، لا يجاهد المرء من أجل تحصيل السعادة؛ وحده الإنجليزي من يفعل ذلك.

تتذوق المرأة المثالية الأدب كما تقترف خطيئةً صغيرة، كتجربة تمر بها بهدوء وتتلفت حولها لترى إن لاحظها أحدٌ ما.

ليس لدى الأشرار أي أغانٍ، فلمَ يمتلك الروس أغاني؟

عندما تبحثُ عن بداياتٍ تصبح وضيعًا. ينظر المؤرخون إلى الوراء وينتهي بهم الأمر مصدقين للأفكار الرجعية.

يحميك الرضا من نزلات البرد، فهل سمعت يومًا عن امرأة ترتدي فستانًا يرضيها قد أصيبت بنزلة برد؟

كم صغيرة هي الأشياء التي تسعدك، صوت مزمار القربة على سبيل المثال. لولا الموسيقى، لكانت الحياة غلطة. حتى إن الألمان تخيلوا الرب ينشد الأغاني.

أرتاب من كل واضعي الأنظمة واتجنّبهم، فالرغبة في وضع نظامٍ هي انعدام النزاهة.

بعشوائية ظاهرية وبساطة وحتى تفاهة؛ تُهدئ هذا الشذرات الذكية القارئ قبل أن يحمل نيتشه مطرقته ليحطم بها الأصنام التي يستهدفها في الكتاب. يُهاجم نيتشه سقراط وأفلاطون وألمانيا والإرادة الحرة والإنسانية «المستحدثة» بشراسة ويهوي على «نساجي بيت العنكبوت المرضى» من الكهنة والفلاسفة بأعتى ضربات مطرقته المحطمة.

في «غسق الأوثان» يشعر نيتشه أنه قد أغلق حلقته وحصل على دائرة كاملة كما يعترف في آخر جملة في الكتاب:

«وبهذا، أعود إلى المكان الذي انطلقت منه «مولد التراجيديا» كان أول خطوة لي في إعادة تقييم جميع القيم: وها أنا ذا أقف الآن على تلك التربة التي نمت منها رغباتي وقدراتي، أنا آخر تلميذ للفيلسوف ديونيسيوس، أنا معلم العود الأبدي...»(٢٠).

(١٩) أنا عبوة ديناميت:

١. «Hymnus an das Leben für gemischten Chor und Orchester»، نُشر في ٢٠ تشرين الأول عام ١٨٨٧. لتفاصيل أكثر عن تاريخ النشر يرجى مراجعة كتاب شابرغ «شريعة نيتشه»، ص ١٤٠-١٤٩.

٢. أخبر نيتشه ريزا فون شيرنهوفر بهذا، لكن أخبرتها إليزابيث لاحقًا أنه لا وجود لمثل تلك الرسالة.

٣. نيتشه إلى بيتر غاست، ١٠ تشرين الثاني ١٨٨٧.

٤. نيتشه إلى رينهارت فون سيدليتز في ١٢ شباط ١٨٨٨.

٥. جورج براندز (١٨٤٢-١٩٢٧)، ناقد أدبي دنماركي وكاتب سيرة ذاتية.

٦. Qvinnans underordnade ställning، ١٨٦٩.

٧. الأمير بيوتر أليكسيفيتش كروبوتكين (١٨٤٢-١٩٢١).

٨. نيتشه إلى جورج براندز، ٢ كانون الأول ١٨٨٧.

٩. غوستاف أدولف أو غوستافوس أدولفوس، ملك السويد وزعيم البروتستانت الألمان الذي خسر حياته عام ١٦٣٢ في معركة لوتسن التي دامت ثلاثين عامًا ضد القوات الإمبراطورية الكاثوليكية التي هُزمت فيها. هنا أيضًا، في عام ١٨١٣، كان نابليون منتصرًا في المعركة.

١٠. كتاب جورج براندز بعنوان «فريدريك نيتشه، للناشر ويليام هاينمان، ١٩٠٩، ص ٨٠-٨٢.

١١. إليزابيث نيتشه، رسالة اقتبسها نيتشه في رسالته إلى فرانز أوبيك من تورينو في عيد الميلاد عام ١٨٨٨.

١٢. نيتشه إلى إليزابيث نيتشه (مسودة)، كانون الأول ١٨٨٨.

١٣. «قضية فاغنر»، الملحق الأول.

١٤. «قضية فاغنر»، الملحق الثاني.

١٥. المصدر السابق نفسه، الملحق الأول.

١٦. ميتا فون ساليس مارشلينز مؤلفة كتاب «الفيلسوف والنبيل» عام ١٨٩٧، يحكي صداقتها مع نيتشه.

١٧. نيتشه إلى فرانز أوفربيك، ٢٣ شباط ١٨٨٧. وأيضًا نيتشه إلى بيتر غاست، ٧ آذار ١٨٨٧.

١٨. «عدو المسيح»، الجزء ٧.

١٩. كارل بيرنولي، ٦ حزيران-٢٠ أيلول ١٨٨٨، ذُكر في كتاب غيلمان بعنوان «محادثات مع نيتشه»، ص ٢١٣.

٢٠. «غسق الأوثان»، «بم أدين للأقدمين»، ٥.

٢٠

غسق تورينو

يجدر بمن يحارب وحوشًا أن يمعن النظر فيها، لكي لا يصبح هو نفسه وحشًا، وإذا ما حدقت طويلًا في باطن الهاوية، فإن الهاوية ستحدق في باطنك بدورها.

«ما وراء الخير والشر»، «أقوال وفواصل»

في الثاني من أيلول عام ١٨٨٨، أنهى نيتشه كتابه «**غسق الأوثان**»، وكان الكتاب الثاني الذي ألفه ذلك العام، وفي اليوم التالي بدأ كتابًا آخر.

في الآونة الأخيرة، خلال آب، كان يفكر في أن أفضل أعماله سيكون «إرادة القوة»، فقد سجل عددًا هائلًا من الملاحظات حوله خلال الأشهر الماضية، لكن في ٤ أيلول، نفس اليوم الذي بدأ فيه الكتابة، غير رأيه وخطّ بعجلٍ ما أسماه الخطة النهائية لإعادة تقييم جميع القيم وهز أسس الفكر، والتي ستتكون من أربعة كتب:

الكتاب الأول: «عدو المسيح، محاولة في نقد المسيحية».

والكتاب الثاني: «الروح الحرة، نقد الفلسفة كحركة عدمية».

الكتاب الثالث: «اللاأخلاقي، نقد للأخلاق كأخطر أنواع الجهل».

الكتاب الرابع: «ديونيسيوس، فلسفة العود الأبدي».

كان نيتشه آنذاك في حالة مستمرة من التقلب، كان يمتلئ بهجةً وسرورًا بنفسه ويحصنها في الوقت نفسه في وجه العالم الخارجي، حتى أنه تجاهل الظروف الجوية التي كانت تحوم فوقه والتي كانت تزعجه في السابق مثل ديكتاتور أثيري يتحكم بمزاجه وقدراته.

كان الطقس في سيلس ماريا في أواخر صيف عام ١٨٨٨ كارثيًا، فقد سقطت كميات هائلة من الأمطار آنذاك. عندما انتهز بعضًا من وقته المخصص لإنهاء أول كتاب للتواصل مع أصدقائه المعتادين لم يغفل عن ذكر إحصاءات عن كميات الأمطار المتساقطة بفخر أبوي ودقة شديدة. تحولت البحيرات التي توسطت المنظر الطبيعي المألوف لديه طوال السنوات السبع التي أتى خلالها إلى هذا المكان إلى أمبيات متزحلقة. لقد ملأت الأمطار الفضاء مغيِّرة درجة الضوء التي كانت تريح عينيه، وبذلك توقف عن الذهاب في نزهاته المعتادة. كانت أوراق الأشجار تنثر قطرات المطر فوق رأسه، وغاص الطريق تحت قدمه بحزم النباتات المتساقطة والمتكومة التي تشاكس الرجل النصف أعمى في مشيه قدمًا. حتى صخرة زرادشت التي شكلت تحولًا رمزيًا بين عنصرين مهمين، حيث انتصبت إحدى جهاتها على تربة الشاطئ وغاصت الجهة الأخرى في البحيرة، أصبحت محاطة بحلقة مياه، وتحولت شبه جزيرة تشاست التي كان يحلم ببناء كوخه البسيط المعزول فوقها إلى جزيرة تحيطها المياه من كل صوب.

أنهت ميتا فون ساليس مارشلينز زيارتها الصيفية إلى سيلس ماريا، وغادر أيضًا صديقه الموسيقي آبي فون هولتن، وهذا يعني نهاية الحديث حول فاغنر مع آبي اللطيف الذي تحمّل مشقة تعلم مقطوعات بيتر غاست الموسيقية حتى يمنح نيتشه متعة الاستماع إلى أعمال صديقه. لبضعة أسابيع، انشغل نيتشه بهوس ليحدد الفرق بين الإيقاع الموزون القديم للشعر الذي أطلق عليه اسم «إيقاع الوقت» والإيقاع الموزون الذي ظهر في وقت لاحق، وكانت له جذوره في العالم «البربري» والذي سماه «إيقاع العاطفة». لقد طرح

فكرة أن «إيقاع الوقت» للعالم الكلاسيكي القديم كان يُستخدم «للتهدئة»، كوسيلة للسيطرة على المشاعر، كبح جماح العاطفة والقضاء عليها إلى حدٍ ما. كان لـ«إيقاع العاطفة» جذوره في العالم البدائي، ثم روضته موسيقى الكنيسة لتُنتج الإيقاع البربري الجرماني لتستخدمه فيما بعد كوسيلة لتهييج المشاعر[١].

في العشرين من أيلول غادر سيلس ماريا متوجهًا إلى تورينو. تخللت الرحلة عدة حوادث، فقد غمرت المياه الأراضي لأميال حول كومو. عند نقطة ما، كان يجب تسيير القطار على جسر خشبي باستخدام مصباح كهربائي يدوي، وهذا كافٍ بالعادة ليطرح نيتشه المصاب بمرض مزمنٍ في الفراش لعدة أيام متتالية، بيد أنه شعر بقوة الماء تحرر روحه، فقد أطلق العنصر السائل إرادة القوة في داخله.

خلال إقامته السابقة في تورينو، أنعمت عليه المدينة بمشاعر السعادة والحرية والكبرياء؛ محققة تحسنًا إعجازيًا في صحته ووفرة في بديع أفكاره. الآن، عند عودته إلى نفس المدينة، اكتشف أنها أيقظت فيه شيئًا أعظم وأروع من أي وقتٍ مضى، فعند تجوله في الأروقة المخططة بظلال الأعمدة وعلى ضفة النهر الممتلئ، يغمره إحساس الانتشاء ببلوغه أخيرًا الحالة الروحية الإيجابية للإنسان الأعلى.. إذا ما عثرت حياته برمتها على لحظتها في هذه اللحظة الزمنية الآنية «الآن»، فهذا لأن نيتشه كان راضيًا بقول نعم لدورة العود الأبدي برمتها، نعم لكل ما مضى ولكل ما سيأتي. اختزلت تلك اللحظة كل شيء، وكانت جليلة، «أنا الآن الرجل الأكثر امتنانًا في العالم... حان وقت حصادي الكبير... أصبح كل شيء يسيرًا عليّ...»[٢].

تصف رسائله إلى أصدقائه في ذلك الوقت ومن قبل كيف يبدو كل شيء في تورينو أفضل مما هو عليه في أي مكان آخر على الإطلاق، ولكن هذه المرة عظمت سمة النبالة في المدينة بالاحتفال بالزواج بين الأمير أماديو، دوق أوستا وملك إسبانيا السابق، وابنة أخته البالغة من العمر ٢١ عامًا، الأميرة ماريا ليتيشيا، ابنة نابليون جيروم بونابرت وابنة الأخ الكبرى للإمبراطور نابليون. أصبح واقع تورينو اليومي بايرويتيًا، فأعضاء عائلتي بونابرت

وسافوي الملكيتان يتجولون بين قصور المدينة العظيمة، وتكتظ الأرصفة بشخصيات مرموقة وسيدات بملابس من الحرير والساتان الذي ذكره بذوق فاغنر. كانت المدينة قد تحولت إلى مسرحٍ كبير يناسب بشكل لا مثيل له ذلك المنعزِل الذي يضمر إحساسه الذاتي ميلاً إلى جنون العظمة.

مباشرة بعد نشر مقالٍ مبالغ به عن حفل الزفاف الملكي، نشرت إحدى الصحف[٣] في ذلك الوقت مقالًا جادًا بعنوان «الزواج الصحي» والذي أشار إلى أن الولايات المتحدة الأمريكية «تتطور جرّاء اندماج العديد من السلالات لتُنتج عِرقًا جديد كليًّا في العالم، فمهاجرونا الذين تزاوجوا مع من سبقهم أنجبوا أبناءً أسرع وأذكى منهم، كما لاحظ داروين أن أطراف وأجساد هؤلاء المتحدرين أطول بكثير من أسلافهم.. قريبا سنقوم بتطبيق قوانين الاختيار السليم في الزواج... إضافة إلى... قوانين تمنع الشباب والشابات من التزاوج إن كانوا مصابين بمرضٍ أو عجزٍ ما». كان منحى تحسين النسل يلوح في الأفق، ففي غضون سبع سنوات سينشر ألفريد بلويتز عمله الرائد حول «الصحة العرقية» مازجًا بين تفسيره الخاطئ لمفهوم نيتشه عن الإنسان الأعلى وفكرة داروين التي تتمحور حول البقاء للأصلح، ومضفيًا مقوماتٍ زائفة لنظرياته البيولوجية حول الانتقاء[٤].

كان نيتشه قد عاد إلى مكان إقامته السابق في تورينو، في الطابق الثالث من فيا كارلو ألبرتو ٦، مقابل قصر كارينيانو العظيم الذي كان يعج بالناس إثر العرس النبيل. لاحظ نيتشه منتشيًا ببهجته كيف رحب به مالك الغرفة دافيد فينو مع زوجته وأطفاله. كان فينو يدير متجرًا لبيع الصحف والقرطاسية والبطاقات البريدية في الطابق السفلي، ولم يتقاضَ من نيتشه سوى خمسة وعشرين فرنكًا شهريًا لقاء الغرفة، إضافة إلى تنظيف الحذاء والجزمة. كانت هذه الغرفة أرخص بكثير من الغرفة في نيس، حيث كان على نيتشه دفع خمسة فرنكات ونصف في اليوم من ضمنها وجبات الطعام. وجبات الطعام في

مطاعم تورينو الصغيرة لم تكلفه سوى فرانك وخمسة عشر سنتيمًا(*) وكان يشتري كوبًا من القهوة بعشرين سنتيمًا فقط، أفضل كوب قهوة يمكنه تذوقه على الإطلاق! لم يكن أصحاب المقاهي اللطيفون والودودون كالسراق والفاسدين في «نيس» و«فينيسيا»، بل كانوا ينصحونه بأفضل المأكولات والمشروبات التي لديهم، وكان يُسرّ بقبول اقتراحاتهم الحميدة. في تورينو، لم يتوقع أحد الحصول على بقشيش فلما أعطاهم نيتشه بقشيشًا عاملوه كملك.

كان منظر تورينو رائعًا، فالأشجار البهية على طول ضفاف نهر بو المبجلة تلمع كذهبٍ صافٍ تحت السماء اللازوردية. فكر نيتشه في أن ولاءه لنيس كان محض حماقة! كيف استطاع أن يثني على ذلك المنظر الطباشيري الغبي الخالي من الأشجار قرب الريفييرا؟ وهنا في تورينو يعيش المرء إلى الأبد، جسدٌ في غير أوانه يتحرك عبر مشهد من العصور القديمة الكلاسيكية، ساكن أبدي في لوحة أركادية لكلود لورين. وماذا عن الهواء! لم يكن في العالم هواء أنقى من هواء تورينو، وفجرًا بعد فجرٍ يبتهج الجو بشمسٍ يتجاوز كمالها وشدة نورها كل الحدود. (في الواقع، تتمتع تورينو بمناخ سيئ مع معدل سنوي لسقوط الأمطار يبلغ ١١٧ يومًا سنويًا، وتبلغ الأمطار ذروتها في شهري تشرين الأول وتشرين الثاني، الشهرين اللذين صور نيتشه خلالهما لوحة الكمال هذه لمن يراسلهم). وصف في رسائله أيضًا شارع فيا كارلو ألبرتو بأنه شارع كئيب يشبه في رتابته وكآبته إطار عجلة. بالرغم من وصفه البهيج لحياته في تورينو، إلا أنه لم يفقد نفاذ بصيرته، فقد لاحظ وتكلم عن أن تغيرًا استثنائيًا قد طرأ على وضعه فاختفى الصداع والغثيان فجأة، واستعاد شهيته بشكل مذهل فكان بإمكانه هضم أي شيء، وأصبح يغط في نومه كما لم يفعل من قبل. يجدر القول إن هناك نوعًا من المبالغة في كل هذا.

لإشباع رغباته كلها، كان يعزف لساعاتٍ في المساء على بيانو موجود في

(*) السنتيم: هو الوحدة الواحدة من الفرنك الفرنسي والسويسري، فالفرنك مؤلف من ١٠٠ سنتيم. (المترجم)

منزل دافيد فينو. قالت ابنة فينو، التي كان لها اطلاع بالموسيقى، أن الموسيقى التي سمعتها عبر الجدران بدت فاغنرية الطابع.

لم يكن لديه رفاق خلال فترة تواجده في تورينو ولا حتى أي زوار، فدفعه هذا إلى قضاء وقته في العمل بحماسة وعلى وتيرةٍ واحدةٍ على الكتاب الذي بدأ به في سيلس ماريا.

كان كتاب «**عدو المسيح**» بعنوانه الثانوي «لعنة المسيحية» عملًا قصيرًا ولاذعًا يرشق فيه المسيحية بالإساءة، وقد تعني كلمة «عدو المسيح» في الألمانية «نقيض المسيح» أو «نقيض المسيحية». يحافظ نيتشه خلال الكتاب على احترامه لشخص يسوع المسيح، في حين أنه يلعن الدين الذي نشأ باسمه فيما بعد. كثيرٌ من مواضيع الكتاب كان قد ذكرها مسبقًا في «**غسق الأوثان**» و«**جينالوجيا الأخلاق**».

يكرر أفكاره بشأن زيف المسيحية في بخسها لقيمة الحياة على الأرض مقابل الفوز بالحياة الافتراضية القادمة. إن تفضيل المسيحية الخاطئ للخلود فوق سحابة قطنية صوفية على حساب الحياة اليومية الواقعية التي تشبه كومة نفايات، هو الذي غذى شعور الضغينة والعقلية الانتقامية والغيرة والتفوق من الناحية الأخلاقية، التي استخدمها القساوسة لإخضاع كل الشعوب التي سيطروا عليها وتحويلهم إلى شخصيات تفكر كما العبيد.

لقد تجذر العالم الديني الوهمي بكليته في كره الطبيعة وفي القلق العميق من الواقع، وبهذا تبطل مملكة الأخلاقيات التي ظهرت لاحقًا في شتى أنحاء العالم المسيحي، لأن كل شيء احتُسب تحت مفهوم سببٍ ونتيجةٍ وهميين. عداء المسيحية للواقع لا نظير له، فما أن صُنف مفهوم «الطبيعة» على أنه يتعارض مع فكرة الإله، اعتُبر العالم الطبيعي بأسره مستهجنًا، بما في ذلك طبيعة الإنسان التي اعتُبرت ملعونة.

يوضح نيتشه أن أصابع اتهاماته موجهة للكنيسة والكهنة وليس يسوع المسيح مؤسس الدين الذي يحترمه ويكرمه.

في إشارة غير معلنة إلى دوستويفسكي، يُفكر نيتشه أن السيد المسيح الأناركي المقدس، الذي أيقظ الفقراء والمنبوذين والخطائين من غفلتهم ليعارضوا النظام الحاكم، كان سيُنفى إلى سيبيريا لو كان يعيش في عصرنا هذا، فالمسيح مات لأسباب سياسية وليست دينية، والدليل على ذلك هو الكلمات المنقوشة على الصليب «ملك اليهود»، التي تمثل عبوة ديناميت، فاسم «اليهودية» سيكون مهددًا دائمًا طالما لا يمتلك اليهود أرضًا يسمونها أرضهم.

مات المسيح «حامل البشائر» وهو يعطي درسًا كما اعتاد في حياته، لا يتلخص في تخليص البشرية بل كيف للمرء أن يحيا، فالإرث الذي تركه للبشرية هو نهجه الحياتي، وقد تجلى ذلك في صبره أمام القضاة وأمام الحراس، وتحمله شتى أنواع الاستهزاء والافتراء، وأخيرا تحمله الصلب، فالحكمة من كل ذلك هو ألا تقاوم الرجل الظالم أو الوضع الجائر وأن تحبه؛ كان هذا الغياب الأسمى للضغينة، كان هذا تأكيدًا أبديًا لعبارة «أحب مصيرك».

شكل المفسر الفاسد القديس بولس الكنيسة المسيحية اللاحقة، محولًا حياة المسيح النموذجية إلى أسطورة تضحية بأبغض وأقبح أشكالها، تضحيةٌ بدم رجلٍ بريءٍ فداءً لخطايا المذنبين. يا لهذه الوثنية المقيتة! كان بولس هو الذي وجه الكراهية نحو العالم والجسد، وهو الذي اقتنص كل فرصةٍ لنشر الضغينة. لقد عرف كيف يستخدم شمعة حركةٍ طائفيةٍ صغيرةٍ لإشعال نارٍ تلتهم العالم، وعرف كيف يستغل رمز الرب على الصليب للاستيلاء على كل ما تحته، على كل بذرة تمردٍ سري وإرث يتمثل بنشاطات أناركية خفية في الإمبراطورية الرومانية، وتوحيدها تحت خيمة القوة الجبارة التي أصبحت تسمى الكنيسة المسيحية[٥].

كان الكتاب ترجمة للمسيحية بتحويلها إلى سياسة، وكان سيكون على أفضل حال دون القسم الأخير منه حيث تولى نيتشه دور الإله بإصدار حكمه النهائي. كما هو الحال مع الكثير من كتاباته في ذلك الوقت، من المستحيل معرفة إذا ما كان يسخر أو يكتب بجدية، أم هي مجرد ارتفاعٍ مؤقتٍ في رسم

بياني لعقل يضطرب شيئًا فشيئًا.

تبدأ الصفحة بما يلي:

قانون ضد المسيحية

في يوم الخلاص، اليوم الأول من السنة الأولى

(٣٠ أيلول ١٨٨٨ وفقًا للتاريخ الخاطئ)

الحرب حتى الموت ضد الرذيلة، والرذيلة هنا المسيحية.

يجب حبس جميع الكهنة.

المشاركة في قداس الكنيسة هجومٌ على الأخلاق العامة.

المكان الملعون حيث ربضت المسيحية فوق بيوض البازيليسق(*) خاصتها (إسرائيل؟ القدس؟) يجب أن يُسوّى بالأرض، وكونه أكثر بقعة فاسدة على الأرض يجب أن تكون بؤرة الرعب للأجيال القادمة، ويجب أن نجعلها أماكن تفقس فيها بيوض الثعابين السامة وتعيش.

خطيب العفة هو الآثم الحقيقي.

يجب نبذ الكهنة وتجويعهم وإخضاعهم لكل أنواع الإهمال.

ينبغي استخدام عبارة «الإله» و«المنقذ» و«المخلص» كشتائم للدلالة على المجرمين.

الباقي ينبع مما ذكرت.

هكذا كتب في الصفحة الأخيرة من الكتاب ووقعها باسم «عدو المسيح».

اليوم الذي أنهى فيه الكتاب ٣٠ أيلول، كان يوم نصره العظيم ويومه السابع، إشارة إلى الكتاب المقدس حيث خلق الرب العالم في ستة أيام

(*) حيوان أسطوري زاحف شبيه بالأفاعي. (المترجم)

واستراح في اليوم السابع. أمضى اليوم «مثل إله مُترف» يتجول تحت أشجار الحور الملونة بأشعة الشمس الذهبية على طول ضفاف نهر بو المهيب.

وصلت نسخ مطبوعة من قضية فاغنر فأرسلها إلى كل من يعرفه. منذ أن قدم جورج براندز سلسلة محاضرات عنه في كوبنهاغن، تصور نيتشه نفسه شخصيةً دولية فتفاخر أنه مثير للاهتمام في أمريكا. في تلك المرحلة أصبح العالم جمهوره، وبذلك تخلص من الأسئلة التي أحبطته من قبل، حيث اعتاد من قبل أن يسأل نفسه إلى من يود إرسال نسخ كتابه؟ وماذا سيطلب منهم؟.

أرسل نسخةً إلى أرملة بيزيه، التي عُرف عنها أنها تقرأ الألمانية، وأخرى إلى باراغواي، والتي وجهت إهانة كبيرة لزوج أخته، فقد عكف في سفره إلى جرمانيا الجديدة على نشر الأفكار الفاغنرية والطائفة الفاغنرية، وأُهينت إليزابيث على شاكلة زوجها، فلم تكن لتحقق أي شيء دون رعاية كوزيما.

ردّ جورج براندز بحماسة مرفقًا عناوين بعض الراديكاليين النبلاء في سانت بطرسبورغ. في روسيا، حُضرت العديد من كتب نيتشه بما في ذلك «إنساني مفرط في إنسانيته» بجزأيه، في الغالب بسبب مهاجمتها المسيحية (الجدير بالذكر أن الحظر رُفع عن كتبه في عام ١٩٠٦). أوصاه براندز بأن يلجأ إلى الأمير أوروسوف والأميرة آنا دميترينا تينيشيف بوصفهما «رائدين مثقفين» من شأنهما أن يعرّفا مثقفي روسيا الراديكاليين على أعماله، وكانت نصيحته سديدة بالتأكيد، ففي تسعينيات القرن التاسع عشر كان الاهتمام بنيتشه وأعماله في روسيا أكثر من أي بلد أوروبي آخر، استنادًا إلى عدد الطبعات التي نُشرت خلال تلك الفترة[٦].

أرسل نيتشه نسخة إلى ياكوب بوركهارت مع أمنية صادقة تقول «كلمة واحدة منك ستسعدني». كان رأي بوركهارت مهمًا بالنسبة لنيتشه أكثر من رأي نيتشه بالنسبة لبوركهارت. مُستريحًا في حصنه المنعزل داخل حدود جامعة بازل، لم يجد بوركهارت كلمة واحدة حتى للرد على نيتشه، ولذا فضّل البقاء صامتًا.

أرسل نيتشه الكتاب إلى هيبوليت تاين، على أمل أن «يفتح قناة بنها الكبرى أمام فرنسا»(*). كان السبيل الوحيد لنشر الكتاب في فرنسا هو بترجمته إلى الفرنسية، بيد أن نيتشه لم يستطع تحمّل تكاليف الترجمة فطلب من تاين ترجمته وأرسل أيضًا ثلاث نسخ إلى مالويدا فون ميسنبوغ بغية تحقيق الهدف نفسه.

في شقة مالويدا في روما، كان تمثال نصفي لفاغنر ينظر باحتقار إلى جميع الزائرين من فوق قاعدته العالية، لكن لم يسبق لمالويدا أن واجهت مشكلة في دعم نيتشه مع الحفاظ على ولائها للمؤلف الموسيقي، فهي خبيرة بفن المشي على الحبال وتمكنت من العيش لعقود من الزمن في راحة وترف كعضو في المؤسسة، مع الحفاظ على سمعتها بصفتها أناركية. قد يرمز صعودها إلى يخت غاريبالدي إلى حياتها، وبالأخص جلوسها في كرسي مزود بوسائد يمثل رمزًا لغرفة الجلوس البورجوازية. في ميدان معركة نيتشه وفاغنر، تمكنت مالويدا دائمًا من الحفاظ على موضع قدم في كلا المعسكرين، لكن وصول نسخ قضية فاغنر صعّب عليها حتى المحافظة على حياديتها اللبقة. لقد فُقدت رسالتها إلى نيتشه التي أشارت فيها إلى شناعة الهجوم ضد فاغنر، لكنها كتبت عنها بنفسها تقول إنها حاولت أن تكون «مُراعية لمشاعره قدر الإمكان» وهذا أمر يمكن تصديقه نظرًا لعادتها الرقيقة في مخاطبة الأخرين.

أجاب نيتشه بامتعاض: «لن أسمح لأحد بأن يناقضني في هذه الأمور، فأنا.. محكمة الاستئناف العليا على الأرض...»(٧).

طرأت نغمة جديدة على رسائله فأصبحت أكثر عدوانية وهجومية وصرامة، وتلميحات إلى ألوهيته تسللت هنا وهناك. بدأ التحدث بادعاءاتٍ غريبةٍ عن وضعه وسلطته، معتبرًا أن التأريخ لم يحوِ أهم من لحظته هذه أبدًا، وأن البشرية مستهترة ومشتتة وليس لديها فكرة أنه هو وحده من يطرح الأسئلة والمسائل المتعلقة بالقيم وهو فقط من يحلها.

(*) اشارة إلى ترجمة الكتاب إلى الفرنسية، والذي من شأنه أن يفتح آفاقًا جديدة على فرنسا، مثل قناة بنها. (المترجم)

إن إعادة تقييم القيم التي يكتب عنها ستعيد العالم إلى مساره لأول مرة منذ قرون، وقدمت له حالته الجسدية الجيدة دليلًا دامغًا على قدرته للقيام بذلك. عندما نظر إلى نفسه في المرآة رأى شابًا مثاليًا، فلم يشعر بصحة أفضل من تلك اللحظة وغذاؤه كان نموذجيًا. بدا وكأنه أصغر من عمره بعشر سنوات وفي ذروة نشاطه.

كان هذا المشهد قد حصل مرة واحدة من قبل، فقد أخبرته مرآته أنه شابٌ مثاليٌ في أوج حبه للو عندما كان واثقًا أنهما سيتشاركان مستقبلًا واحدًا.

حلّ شهر تشرين الأول من عام ١٨٨٨. كان يتطلع إلى عيد ميلاده ويشعر بتناغمٍ غير مسبوق مع تلك اللحظة بالذات ومع موسم الخريف في أعماقه وحوله في العالم الحقيقي، فتحول العنب الوفير في الحقول التي تحيط بتورينو إلى كرةٍ تنفجرُ حلاوةً ما إن توضع في الفم، فتُغمر كلماته بتلك الحلاوة ويتحول إلى رجلٍ جزْلٍ وناضجٍ كما الفاكهة، حينها يصحُّ كل شيء. في الخامس عشر من تشرين الأول، استقبل عيد ميلاده الرابع والأربعين بكل بهجةٍ واستسلامٍ للقدر.

حان الوقت للبدءِ بكتابٍ آخر بكل تأكيد! ولخدمة العالم، يستحق عيد الميلاد هذا أن يُخلد في سيرة ذاتية، وهذا يعني تأجيل إعادة تقييم القيم مرة أخرى. لم يُبالِ أبدًا، فالوقتُ مديدٌ أمامه، وكان يرغب في نشر قصتهِ بأكملها، كتبه وآرائه والحوادث التي مرّ بها في حياته وحتى سايكولوجيته الخاصة. كان سيسمح للعالم بالاطلاع على تحوله من رجلٍ اعتاد على قول «هذا ما حدث» إلى رجلٍ أصبح يقول «هذا ما رغبتُ أن يحدث»، والبشرية التي لم تعره انتباهًا كانت سترى كم هي محظوظة في كشفه عن نور خياته وأسوأ ما فيها[٨].

منصِّبًا نفسه خليفة للإله الميت، أطلق على سيرته الذاتية «هذا هو الإنسان Ecce Homo». لقد أخذ العنوان من الكتاب المقدس واختار الكلمات المشؤومة التي استخدمت في إنجيل القديس يوحنا في الوقت نفسه الذي حكم فيه بيلاطس البنطي، الحاكم الروماني لمقاطعة يهودا، على المسيح

بالموت[٩]، ويُزعم أنه هرب بعدها ليُغرق نفسه في بحيرة سوداء صغيرة في جبل بيلاتوس بالقرب من تريبشن بدافع الندم. «Ecce homo»، «هذا هو الإنسان»، هذا ما قاله بيلاطس عندما أخرج سجينه يسوع المسيح، مجلودًا نازفًا مقيدًا ومُتوجًا بالأشواك، ليحكم الناس عليه، وكان ما كان، حكم الناس على الإله الذي يمشي بينهم بالموت صلبًا.

في كتابه «**هذا هو الإنسان**»، يُنافس نيتشه المسيح أو ينصب نفسه مسيحًا ثانيًا، إله آخر يمشي بين الناس حُكم عليه بالموت، ليس موتًا فعليًا في حالته، بل موت بسبب عدم فهم أحدٍ له، موت من الإهمال وقلة الاهتمام بأفكاره. يضم الكتاب عددًا هائلًا من الإحالات من الكتاب المقدس إضافة إلى المحاكاة الساخرة بدءًا من الجملة الأولى: « على أمل أن أواجه الإنسانية قريبًا بأصعب مطلب على الإطلاق، يبدو من الضروري أن أقول من أنا»[١٠].

كل ما في الكتاب رقيق وغامض ومحيّر وغير ثابت ومستفز قبل كل شيء، «عندما يكون عليّ حرفيًا أن أعتني بمصير الإنسان، فهذا جزء من تجربتي في القوة لأكون مهرجًا، وشهوانيًا.. إن العقل الأعمق يجب أن يكون طائشًا، وهذه معادلة فلسفتي»[١١].

يُتبع نيتشه الماكر العنوان العميق بعناوين فصول مضحكة: «لِمَ أنا بهذه الحكمة؟»، «لم أنا بهذا الذكاء؟»، «لِمَ أكتب كتبًا بهذه الجودة؟»، «لِمَ أنا قدر؟». وهذه الفصول تتكلم فعلًا عن سبب حكمته وذكائه الخ، كما تسخر من الجنس الأدبي للسيرة الذاتية نفسها أيضًا. يعترف في هذه الفصول أيضًا بأنه مهما حاول المؤلفون تجميل السير الذاتية، تبقى أشنع الأجناس الأدبية وأكثرها غرورًا على الإطلاق. في هذا هو الإنسان يكشف معاهدةً لإخفاء غرور الكتّاب خلف قناع التواضع وإهمال الذات والعذر الذي لا تشوبه شائبة المتمثل بحفظ الحوادث التاريخية. لم لا نعيد تقييم السيرة الذاتية مع كل شيء آخر؟ ولم لا يمكن توظيف السير الذاتية للتفخيم والخداع؟ للمبالغة والاحتفاء بالذات الهوسي المخلوط مع بعض الأمور التي حدثت وبعض الأمور التي لم تحدث من الأساس، مع الكثير من التعدد بوجهات النظر؟ ليس هناك حقائق، بل تأويلات فقط ولا غير.

يبدأ الفصل الأول «لِمَ أنا بهذه الحكمة؟» بلغزٍ مفاده «مثل والدي أنا ميتٌ بالفعل، ومثل والدتي ما زلت على قيد الحياة وأقترب من الشيخوخة» فكان يضع قدمًا في كلا العالمين. من هو؟ ليس قديسًا وليس غولًا بل مجرد تلميذٍ لديونيسيوس. كان يفضِل أن يكون شهوانيًا على أن يكون قديسًا، وأن يكسر الأصنام بدلًا من ترسيخها. آخر ما يدّعيه هو أن يكون «مُصلحًا» للبشرية، بل إنه يدعونا لإلقاء نظرة على ساقيه، مُشيرًا إلى أنها مصنوعة من طين.

يمضي لتأكيد أن صحته على ما يُرام، معتبرًا كل ما مر به محض خيال وفانتازيا طبية. اليوم نحن الذين نعرف قليلًا عن حياته، قد نعتبر أنه قال ذلك لدحض الفكرة الكارثية التي تُخيم على كل رجل يعاني من مشكلات صحية مجهولة الأسباب وتوفَّى والده بسبب «تليُّن الدماغ»، في ذلك العصر الذي امتاز بالرهاب من مرض السفلس. يجهد كثيرًا لإخبارنا كم هو سليمٌ جسديًا، صحيح أنه عانى من مشكلات صحية، لكنها لم تكن أكثر من «انتكاساتٍ بسيطة». هذه الانتكاسات البسيطة هي المسؤولة عن الإرهاق العام والضعف الشديد في جهازه الهضمي الذي يعترف بأنه قد أنهك نظامه البدني والعقلي إلى أقصى حد. نتيجة لذلك، طور مهارة وعلمًا لعكس هذه الحالة، فهو يقارن نفسه بجرّاح جريح يشرح مرضه للآخرين ليعزز صحة المجتمع. هو وحده، الطبيب المثقف الجريح، قادر على إعادة تقييم كل القيم.

نشك بجديته عندما يخبرنا مرة أخرى أن صيغته التي يبتغي منها عظمة البشرية هي «أحب مصيرك»، ألّا يرغب المرء بتغيير أي شيء في الماضي أو المستقبل أو إلى الأبد(١٢). يمضي بالقول إلى أن والدته وأخته هما الوحيدتان اللتان تجعلانه يُحجم عن فكرته «أحب مصيرك» و«العود الأبدي»، فيقول «عندما أبحث عن نقيضي، عن رثاثة الغرائز التي لا حدود لها، أجد أمامي أمي وأختي، فمجرد تفكيري بأني مرتبطٌ بصلة قرابة مع هذا النوع من الرعاع هو تجديفٌ بحق ألوهيتي. الطريقة التي تعاملني بها أمي وأختي حتى هذا اليوم هي مصدرُ رعبٍ لا يمكن وصفه: قنبلة حية... لا أملك

القوة الكافية لمقاومة الحشرات السامة... أعترف أن معارضتي الأكبر للعود الأبدي، فكرتي الجوهرية، هي أمي وأختي.. إن الناس أبعد ما يكونون عن الارتباط بوالديهم؛ بل إن أكثر الدلالات وضوحًا على الابتذال هي ارتباط المرء بأبويه»[١٣].

يمضي ليخبرنا كذبة هائلة تتلخص في كونه رجلًا نبيلًا نقي الدماء من أصل بولندي ولا تجري في عروقه قطرة واحدةً من الدم الألماني «الفاسد». لا يشير نيتشه إلى أن فرانشيسكا وإليزابيث يتشاركان معه دمه البولندي النقي، ومع ذلك يشير إليهما باسم «أمي» و«أختي». ماذا نصدّق الآن وهو الذي يشير إلى نفسه كأصدق مفكر في عصره؟.

في الفصل التالي، «لم أنا بهذا الذكاء؟»، يتحدث عن رئتيه ومعدته كعنصرين أساسيين في ممارساته الفلسفية، ويأخذ دور المعلم الروحي في الحمية والتمارين الرياضية، فيقول إن ترك المرء القهوة وسكن في مكان هواؤه جافّ فستكون صحته كصحتي. غريبٌ كيف يدعو الآخرين لترك القهوة بينما يتغزل ويبتهج بقهوة تورينو الأشهى في العالم. ينصح بالعيش في باريس أو بروفنس أو فلورنسا أو القدس أو أثينا، لكن إياك والعيش في ألمانيا حيث يخرّب المناخ أمعاءك ولن تتمكن من التخلص مما فيها إلا بطريقة بطولية، فالأمعاء القوية الصحية هي الأكثر فائدة للفيلسوف. [١٤]

لا تثق بأي فكرة تطرأ على بالك وانت جالس بين الجدران. حافظ على سطح عقلك خاليًا من أي حقائق ملحة ولا تُحاول سبر أغوار نفسك. على عكس كل ما كان ينصح به حتى الآن، يوصي بجديةٍ أن الشرط المسبق لكي يصبح المرء ما هو عليه هو ألا يكون لديه أي فكرة عن نفسه.

«أولئك الذين كانوا أطفالًا في مستنقع الخمسينيات» هم متشائمون بالضرورة بشأن «الثقافة» الألمانية، فكيف يمكن للفكر المتحضر أن يحيا والمتعصب يمسك بدفة الدولة؟ يؤمن نيتشه بالثقافة الفرنسية فقط. بمجرد أن يتكلم بموضوع الثقافة، لا يستطيع أن يمنع نفسه من التطرق مرة أخرى

إلى موضوع فاغنر، أول نفس عميق أخذه في حياته. يعترف بأنه منذ سماعه تريستان وإيزولده، بدأ يسعى للوصول إلى عمل فني له اللانهاية الحلوة المرتعدة نفسها. أما كوزيما فاغنر فهي تتمتع بأكثر طبيعة نبيلة وأفضل ذوقٍ في ألمانيا كلها. لن ينسى نيتشه أيامه في تريبشن لو دُفع له مال قارون.

يقدم فصل «لِمَ أكتب كتبًا بهذه الجودة؟» تقريرًا عن كل أعماله المنشورة، كما أخبر ناشره أنه قد يكتب ملاحظاته وأراءه الخاصة، وهذا ما لم يفعله أحدٌ قبله.

يبدأ فصل «لِمِ أنا قدر؟» بما يلي:

«أعي قدري، يومًا ما سيقترن اسمي بذكرى حدث مخيف، بكارثة لم تُسبق بمثيلٍ على وجه الأرض، بزلزلة لأعمق نقطة في الضمير، بوقفة حسم ضد كل ماً ظلّ مُعتقدًا وضرورةً ومقدسًا حتى الآن، فأنا لستُ إنسانًا، أنا عبوة ديناميت».

اعتُبرت هذه الكلمات في الغالب بمثابة نبوءة أو حدسٍ مسبق لقدوم الرايخ الثالث، بل حتى قبولًا مُسبقًا بحدوث مثل تلك الأشياء. لكن ما أن تستمر بقراءة الفصل، وهو ليس فصلًا قصيرًا، تعرف تمامًا أنه لا يُشير إلى الدينونة، بل إلى المهمة التي قرر تأديتها، وهي تحدي كل الأخلاقيات السابقة.

ينتهي الكتاب بجملة «هل فهمتموني؟ ديونيسيوس ضد المصلوب...». وينتهي الكتاب بعلامات الحذف، كما حال العديد من كتبه الأخرى.

أنهى كتابه «**هذا هو الإنسان**» في الرابع من تشرين الثاني، ولم يستغرق في كتابته سوى ثلاثة أسابيع أمضاها وحيدًا تماما في مدينة الغرباء. بالكاد لاحظوا هيئته الصغيرة تمشي في الشوارع في معطف خفيف ببطانة زرقاء وقفازات إنجليزية كبيرة في كفيه. كان رأسه ثابتًا بزاوية معينة بينما كان يسير بخطى خفيفة في ظل الأروقة الحجرية الطويلة في تورينو. كان الشتاء يطرق الأبواب عندما أنهى الكتاب، والجبال وراء آفاق المدن البعيدة ارتدت باروكاتها البيضاء تحت سماء باهتة.

لم تكتفِ تورينو من مناسباتها واسعة النطاق بعد، لكن هذه المرة سلّم الزفاف الملكي دفة المدينة لمراسم جنائزية وتقهقر الساتان الأبيض مفسحًا المجالَ للشرائط السوداء، وتحولت الأبهة البهيجة إلى سوداوية المقابر. فاضت تورينو بنفس الطبقة الملكية شرفًا وقوةً، وهذه المرة لتشييع جنازة الكونت روبيلانت المهيبة. حب نيتشه للتعظيم والمبالغة رقّى روبيلانت ليصبح نجل الملك كارلو ألبرتو، رغم أنه لم يكن سوى مساعده الشخصي.

لقد أرسل مسودة «**هذا هو الإنسان**» بالبريد إلى ناومان في السادس من تشرين الثاني. الرسالة المرفقة طمأنت ناومان أن الكتاب مستوحىً من إحساس شعور رائعٍ بالرفاهية الفريدة في حياته، ويجب عليه أن يطبعه على الفور.

لم يكن ناومان قد دخل مجال النشر بعد، ولم تكن مهمته تحرير الكتب بل طباعتها فقط وتسليمها للمؤلف الذي يدفع له بالمقابل. كان نيتشه يلح عليه لطباعة «**هذا هو الإنسان**» قبل «**عدو المسيح**» الذي توجب عليه تأجيله، فقد كان «**هذا هو الإنسان**» كتابًا يحمل في جعبته كل شيء، ومهمته كما يوحنا المعمدان تمهيد الطريق. لم يرغب نيتشه بوجود حدود حول النص وأراد أن تكون خطوط الكتابة أكبر، وعندما اقترح ناومان استخدام ورق أرخص ذُعر نيتشه.

بعد أن أعطى تعليماته إلى ناومان بدأت سلسلة التغييرات. أضاف عدة أجزاء، فأرسل في طلب المسودة واعاد إرسالها بالبريد في كانون الأول عام ١٨٨٨، «جاهزة للطباعة» بحسب ما قال، لكنه أضاف قصائد وغير رأيه، ثم عاد إلى رأيه الأول. كان هناك الكثير من الأشياء التي تدور في خُلده، ولم يكن كتابه العظيم حول إعادة تقييم القيم من ضمنها. جمع تسع قصائد كان قد ألفها بين عامي ١٨٨٣ و١٨٨٨ وقرر نشرها، وبعد تفكيره بعدة عناوين استقر على عنوان (The Dithyrambs of Dionysus) «قصائد ديونيسيوس الحماسية». إن المعنى الأصلي للكلمة «Dithyramb» هي ترنيمة يونانية تُغنى لديونيسيوس، لكن مع مرور الوقت توسع المعنى ليشمل أي ترنيمة أو قصيدة ديونيسيوسية أو أخرى تُغنى في حفل.

في «**مولد التراجيديا**»، استخدم نيتشه «الديونيسيوسي» للدلالة إلى الانصراف عن الإحساس بالنشوة، على عكس الإبداع النقي والمُسيطر عليه للأبولوني. مع ارتقاء تفكيره، أصبح الغموض الديونيسيوسي يدل على الإرادة الأساسية للحياة. «ما الذي كفله الهيلينيون لأنفسهم بكل هذه الأسرار؟ إنها الحياة الأبدية والعود الأبدي للحياة؛ المستقبل الذي وعد به الماضي والماضي المكرس للمستقبل؛ هذا القبول بالحياة المكلل بالنصر الذي يتحدى الموت والتحول؛ الحياة الحقيقية باعتبارها استمرارًا للحياة بشكل عام من خلال الإنجاب، من خلال أسرار الحياة الجنسية»[١٥].

القصيدة التي ترتبط ارتباطًا واضحًا بديونيسيوس هي «شكوى أريادني» والتي تصف ترك ثيسوس لأريادني على جزيرة ناكسوس تندب مصيرها، ثم يزورها الإله ديونيسيوس. كان نيتشه قد طبع قصيدة لأول مرة في الكتاب الرابع من كتاب «**هكذا تكلّم زرادشت**»، في الفصل المسمى «الساحر»، حيث يغلب زرادشت الساحر العجوز فاغنر.

في أيامه في تريبشن، كانت الأسطورة المُسلم بها أن فاغنر هو ديونيسيوس بالنسبة لكوزيما التي تمثل أريادني، أما نيتشه وفون بولو فكانا يمثلان ثيسيوس. لكن نيتشه هيمن على اسم ديونيسيوس بكل حزم وصراحة، وأصبحت كوزيما/ أريادني تظهر في كتاباته بتواتر متزايد.

لم يعد نيتشه الديونيسيوسي الآن هو نيتشه الذي أعلن عن ذاته سجينًا للضوابط التي قيدته في أوائل العشرينات من عمره، فقد أصبح يفيض آيروتيكية. «شكوى أريادني» هي فانتازيا إباحية تبدأ بارتعادٍ وتضرعِ أريادني المثبتة على الأرض بذراعين وساقين مفتوحتين، إلى الإله ديونيسيوس «الصياد وراء الغيوم» الذي يصيبها بصاعقته، فتعترف بإلوهيته وهي ترتجف تحت سهامه الجليدية، تنحني وتلتوي وتتعذب فتخضع فيضربها ذلك الصياد الأبدي والإله المجهول. يضغط عليها ويتسلق إلى فكرها، فتستسلم وتتلوى بنشوة وإلهها الجلاد يعذبها. تصيح عليه «عُد، يا ألمي وسعادتي الأخيرة» فيظهر في ومضة الرعد وتنتهي القصيدة بالبيت «أنا متاهتك». في القصيدة

كلها كان المتحدث واضحًا، فكان يمكن تمييز أي العاشقين يتحدث سواء ديونيسيوس أو أريادني، إلا أنه لم يوضح أيهما يقول البيت الأخير «أنا متاهتك»، فمن المحتمل أن يكونا قد قالاها هما الاثنان.

نادرًا ما كرّس نيتشه كتبه لأي شخص، لكنه كرّس تلك القصائد لـ«شاعر الأيزولاين»، ويقصد به كاتيول منديز، «زنبقة في البول» الكاتب الذي رافق جوديث غوتييه إلى تريبشن.

كتب منديز نصًا أوبراليًا لأندريه ميساجر بعنوان «أيزولاين» والتي تحكي قصة خرافية عن تيتانيا وأوبرين والتنانين، وكان من المفترض عرضها لأول مرة في باريس في كانون الأول ١٨٨٨. يبدو أن التواصل انقطع بين نيتشه ومنديز منذ أيام تريبشن، إذًا هل كان يأمل أن يُداهن منديز بإهدائه كتابه حتى يقبل الأخير ترجمة كتاب نيتشه «**هذا هو الإنسان**» إلى الفرنسية؟ فمالويدا لم تعد على قائمته، وأعلن هيبوليت تاين أن ألمانيته لم تكن جيدة بما فيه الكفاية، موصيًا بجين بوردو الذي تذرع بعدم امتلاكه الوقت الكافي للترجمة، وبذلك أرجئ مشروع فتح قناة بنها أمام فرنسا.

راسل نيتشه الكاتب المسرحي السويدي أوغست ستريندبرغ وشرح له عن قوة علاقته بجورج براندز، طالبًا منه ترجمة «**هذا هو الإنسان**» إلى الفرنسية. قدم نيتشه نفسه إلى ستريندبرغ من خلال خطاب تقليدي يحكي عن أصله البولندي، وصحته الجسدية التي لا تشوبها شائبة، وشهرته العالمية وكماله الذي ضمنته اللغة الألمانية «إنني أتحدث لغة أسياد العالم». حاول إغراء ستريندبرغ أكثر بقوله إن الأمير بسمارك والقيصر الشاب سيتلقيان نسخًا مسبقة من الكتاب، فبواسطة الكتاب والبيان الحربي المكتوب «لن يتمكن رجال الحرب بعد ذلك من الانتقام باتباع إجراءات الشرطة»[١٦]. لم يكن ستريندبرغ نفسه في أحسن حالاته من الاستقرار العقلي في حياته، فلم يكن يملك مالًا وكان زواجه الأول من زوجته التي عبدها ينهار، وكانا يعيشان في جناح من قلعة متداعية تجتاحها الطواويس والكلاب الوحشية وتحكمها كونتيسة أعطت هذا اللقب لنفسها، مع رفيقها المبتز الخيميائي الساحر

اللص. أدت سلسلة الظروف العاصفة تلك إلى تأليف أعظم مسرحياته «الآنسة جولي». ولكن حتى في تلك الهوة الفوضوية، أدرك ستريندبرغ أن نيتشه كان يعاني من خطب ما، فسأل براندز إن كان نيتشه مجنونًا؟.

كان ستريندبرغ سيعيد طرح هذا السؤال عندما تخلل رسائل نيتشه هوس بمجرمين احتلت جرائمهما الرهيبة أعمدة في الكثير من صحف أوروبا التي تنشر مقالات حول الجرائم الجنسية، بما في ذلك تلك التي قرأها نيتشه في تورينو وستريندبرغ في السويد. أُطلق على المجرم الأول لقب «برادو»، وهو إسباني اسمه «لينسكا دي كاستيلون»، فبعد أن استنفد ثروة زوجته الأولى التي يُشاع أنها بلغت ١,٢ مليون فرنك في بيرو، هرب إلى فرنسا حيث ارتكب جرائم سطوٍ وقتل عاهرة.

ثم هناك هنري شامبيج، طالب قانون قتل زوجة إنجليزية لرجلٍ فرنسي يعيش في الجزائر. أصر نيتشه على أن هذا المجرم يمتلك عبقرية إجرامية فذة، فقد «تفوق على قضاته وحتى محاميه في ضبط النفس والذكاء وروحه الجذلة»، وما إلى ذلك. لكن ستريندبرغ الذي كان يعيش تحت رحمة رجلٍ من هذا النوع الإجرامي لم يفهم وجهة نظر نيتشه. بعد شهر، عندما كتب نيتشه رسالة إلى ياكوب بوركهارت، كان قد حجز كلا المجرمين مكانًا بين هوياته المتعددة المتزايدة، فلم يعد يجسد ديونيسيوس وعدو المسيح فحسب، بل هنري شامبيج وبرادو، وحتى والد برادو[١٧].

كان قد بدأ يفقد السيطرة على نفسه، وراسل بيتر غاست يخبره ببهجة عن ذلك، مضيفًا أن الأمر ليس ذا أهميه ولا شيء يدعو للقلق! كان يؤدي الكثير من الحركات الخطيرة والجريئة عندما يكون لوحده، وفي الحفلات الموسيقية كانت الموسيقى تؤثر عليه كثيرًا لدرجة أنه لم يتمكن من التحكم بقسمات وجهه، فيجهش في البكاء غير قادر على كبح دموعه، وإذا ابتسم فابتسامة عريضة غير مسيطرٍ عليها، ففي بعض الأحيان يقف في الشارع العام لمدة نصف ساعة لا يفعل شيئًا سوى الابتسام. لمدة أربعة أيام كاملة، بين ٢١ و٢٥ تشرين الثاني، وجد نفسه غير قادر على أن يضفي على وجهه

تعبيرًا جادًا. استنتج أن الشخص الذي يصل إلى هذه الحالة لهو جاهزٌ ليصبح منقذ العالم، وفي غضون شهرين من ذلك الحين، سيكون اسمه الأول على وجه الأرض. كان أبرز شيء في تورينو هو السحر الذي ألقاه على جميع فئات الناس، فتتغير كل الوجوه ما إن يدخل متجرًا كبيرًا أو مكانًا عامًا. لم يكن يحتاج اسمًا ولا رتبةً ولا مالًا ليلبوا احتياجاته أولًا ودائمًا من دون قيد أو شرط[١٨]. كانوا ينظرون له كأمير، وهناك شيءٌ مميزٌ في الطريقة التي يفتحون له عبرها الأبواب. أما النُدُل المبتهجون والمتأنقون فكانوا يقدمون له الطعام كما لو كان ملكًا جالسًا في مطعمهم. كان يدون ملاحظات في رأسه بجميع الأفراد الذين عرفوا أهميته في تلك الفترة التي لم يكتشفه خلالها أحد، وليس مُستغربًا أن يكون طباخه المستقبلي قد خدمه في تلك الفترة، فلم يظنه أحدٌ ألمانيًا البتة[١٩].

أخبر أوفربيك أن كتب إعادة تقييم القيم الأربع سترى النور قريبًا، فقد حان وقت إخراج سلاحه الفتّاك الذي سيشطر التاريخ الإنساني إلى نصفين كما يفعل الجندي المسؤول عن المدفعية في الجيش. أشار إلى أن هذه الخطة عدائية، مُستخدمًا لفظ (جليدية)، فأحس بفطنته لاستخدام هذا التعبير الدال على الشتاء الذي يقتربُ شيئًا فشيئًا. لكن قبل ذلك، كان يود لو ينتقد فاغنر مرة أخرى قبل ٢٠ تشرين الثاني، موعد مغادرته لنيس أو كورسيكا[٢٠].

أُلغيت خطة ذهابه لنيس أو كورسيكا حال التفكير بها، فلم يكن من داعٍ للذهاب إلى كورسيكا بعد القضاء على كل اللصوص والملوك[٢١].

كما كان يلغي خطط سفره، كان نيتشه يئدُ أفكاره لحظة ولادتها. علت سلسلة الجبال الورقية البيضاء في غرفته شيئًا فشيئًا تُغذيها كتاباته من الماضي والحاضر كما رقاقات ثلجٍ تطفو في الهواء وتتناثر من مكتبه إلى الأرض بينما استمر في كتابة عدد هائلٍ من الرسائل وجمع مقاطع من كتبه السابقة لتأليف كتاب «نيتشه ضد فاغنر»، الكتاب الرابع الذي ألفه في ذلك العام، وهو الخامس إذا حسبنا القصائد الحماسية والكتاب الثاني الذي يحمل عنوانه اسم فاغنر.

وصلت كتبه من نيس أخيرًا، فأصبح بإمكانه قراءة ما خطّته يداه. كانت الكتب مُذهلة، فاجتاحه إعجابٌ عظيم بعبقريته الفذة. كانت سيطرة أفكاره على الحوادث مدهشة فلم يكن هناك أي مجال للصُدفة، ولم يكن أمامه الآن سوى انتظار رسائل تصل عتبة بابه. عندما فكر لوهلة في ما كتبه في الفترة من ٣ أيلول إلى ٤ تشرين الثاني، رجّح حدوث زلزال قريبًا في تورينو.

في ١٥ كانون الأول، أرسل مسودة نيتشه ضد فاغنر الصغيرة إلى ناومان سويًا مع «قصائد ديونيسيوس الحماسية»، وبذلك على الكتب الأخرى ان تُركن على جهة منتظرة إكمال هذين الكتابين. ويجب على ناومان ترك كل شيء والتفرغ لطباعة نيتشه ضد فاغنر. بعد كل هذا ألغى طلبه بعد يومين فقط، فقد استلم ناومان برقية منه تقول «أكمل «هذا هو الإنسان»». إن هذا الكتاب «يتجاوز مفهوم الأدب... فلا يوجد مكافئ له حتى في الطبيعة نفسها؛ فهو ينسف تاريخ البشرية حرفيًا إلى قسمين بما فيه من ديناميكية مفرطة».

حل عيد الميلاد مُعلنًا عن موعد إرسال رسائل المعايدة، فأرسل رسالة لأمه يقول فيها:

«بشكل عام، أصبح مخلوقكِ المسن شخصًا مشهورًا للغاية في كل مكان عدا ألمانيا، لأن الألمان أغبياء ومبتذلون للغاية ولن يرقوا لفهم تفكيري. كل معجبيّ ذوي طبيعة راقية، وكلهم أشخاص بارزون ومؤثرون في المجتمع... بينهم أكثر النساء سحرًا على الإطلاق الأميرة تينيتشيف! هناك عباقرة حقيقيون بين معجبيّ. اليوم ليس هناك اسمٌ يُعامل بهذا القدر من الاحترام والتبجيل سوى اسمي... لحسن الحظ أنا الآن مُستعدٌ لكل ما قد تتطلبه مهمتي مني...

مخلوقكِ المُسن»[٢٢].

أرسل رسالة إلى إليزابيث يقول فيها:

«**إلى إليزابيث،**

«أختي... أنا مجبر على قطع علاقتي بكِ إلى الأبد. الآن بعد أن أصبح قدري مؤكدًا أصبحتُ أشعر بألم كلماتكِ عشرة أضعافه. ليس لديكِ أي

فكرة ماذا يعني أن تكوني قريبة جدًا من الرجل ومن القدر الذي تحددت فيه مسألة طالت آلاف السنين، أنا أمسكُ، حرفيًا، بمستقبل البشرية في راحة يدي...»[٢٣].

إلى بيتر غاست:

«صديقي العزيز، أود استرجاع جميع نسخ كتاب زرادشت الرابع... لأواجه كل احتمالات الحياة والموت. (لقد قرأته في هذه الأيام الأخيرة وكدت أموت من فيض مشاعري). إن الوقت المناسب لنشرها هو بعد عدة عقود من الزمن، بعد سلسلةٍ من الكوارث والحروب.

علامات وعجائب(*)

تحيات طائر العنقاء»[٢٤].

إلى بيتر غاست:

«توفّى الأمير كارينيانو للتو، سنشهد جنازة عظيمة»[٢٥].

إلى كارل فيوكس:

«.. سوف ينقلب العالم رأسًا على عقب خلال السنوات القليلة القادمة: بما أن الإله المُسن قد تنازل عن عرشه، فأنا من سيحكم العالم من الآن فصاعدًا...»[٢٦].

إلى فرانز أوفربيك:

«صديقي العزيز... في غضون شهرين سيكون اسمي أهم اسمٍ على وجه الأرض...

أعمل بنفسي على مذكرة لأقدمها إلى المحاكم الأوروبية... فأنا أنوي أن أقيد الرايخ بقميص حديدي واستفزازه للدخول في حرب يائسة. لن يهدأ لي بال حتى أمسك الإمبراطور الشاب وكل أتباعه في قبضة يدي. معركة بيني

(*) تعبيرٌ يدل على ترقب أمورٍ مفرحة ومعجزاتٍ على وشك الحدوث، تدفع الناس للتساؤل عنها. (المترجم)

وبينه، بيني وبينه فقط! هدوء روحٍ تام! وعشر ساعات من النوم المتواصل.
ن.»(٢٧)

إلى ميتا فون ساليس-مارشلينز:

«سيدتي العزيزة... لا أعتقد أن هنالك بشريًّا قد استلم مثل الرسائل التي استلمتها... من الطبقة الراقية في مجتمع سان بطرسبورغ، والفرنسيين!... إن أكثر ما يلفت النظر هنا في تورينو هو السحر الذي أمارسه على جميع فئات الناس... فكتُبي تُطبع بحماسة مُتقّدة. تُعتبر السيدة كوفلسكا في ستوكهولم (وهي تنحدر من الملك الهنغاري ماثايس كورفين)... العبقرية الوحيدة في مجال الرياضيات على قيد الحياة. المخلص ن.»(٢٨)

إلى بيتر غاست:

«... عندما وصلتني بطاقتك ماذا كنت أفعل؟... كنت على نهر الروبيكون الشهير. لم أعد أعرف عنواني: فلنفترض أنه سيكون قريبًا قصر ديل كويرينال.»(٢٩)

إلى أوغست ستريندبرغ:

«لقد طلبت دعوة الأمراء للاجتماع في روما، أنوي إعدام الأمبراطور الشاب بالرصاص... بشرط... أن يُطلّق زوجته.

القيصر نيتشه»(٣٠).

إلى أوغست ستريندبرغ:

«يا للأسف الشديد... لم يُطلّقها بعد كل هذا؟

المصلوب»(٣١).

إلى بيتر غاست:

«غنِ لي أغنية جديدة: لقد تبدل العالم وابتهجت السماوات.
المصلوب»(٣٢).

إلى جورج براندز:

«بمجرد أن اكتشفتني، أصبح سهلًا عليك إيجادي، وصعبًا جدًا أن تضيِّعني...

المصلوب»(٣٣).

إلى ياكوب بوركهارت:

«أنا أتغاضى عن مللي حين خلقتُ هذا العالم. أنت أعظم معلمينا؛ فأنا مع أريادني نشكل التوازن الذهبي لجميع الأشياء.

ديونيسيوس»(٣٤).

إلى كوزيما فاغنر:

«أريادني، أنا أحبكِ.

ديونيسيوس»(٣٥).

إلى ياكوب بوركهارت:

«أستاذي العزيز، في الواقع، أُفضل أن أكون أستاذًا في بازل أكثر من كوني إلهًا؛ لكنني لم أجرؤ على أن أكون أنانيًا وألغي مهمة خلق العالم بالنيابة عن الإله. كما ترى، يجب على المرء أن يقدم تضحيات كيفما وأينما يعيش، ومع ذلك فقد احتفظت بغرفة دراسة صغيرة لنفسي تقع قبالة قصر كارينيانو (الذي ولدتُ فيه بصفتي فيتوريو إيمانويل(*). في تلك الغرفة أستمع إلى الموسيقى الرائعة التي تنبعث من مبنى غاليريا سوبالبينا. أدفع لقاء تلك الغرفة خمسة وعشرين فرنكًا، مع الخدمة، لكني أصنع الشاي الخاص بي وأذهب إلى التسوق لشراء حاجياتي معانيًا من الأحذية الممزقة... نظرًا لأنني محكوم عليَ بتسلية الأبدية القادمة بنكاتٍ سمجة، فلديّ مهمات أؤديها هنا تتمثل في الكتابة، مما يجعلني لا أرغب بأي شيء على الإطلاق، عملٌ لطيف جدًا وغير شاق على الإطلاق...

(*) الملك فيكتور عمانوئيل الثاني كان ملك سردينيا من ١٨٤٩ حتى ١٧ مارس ١٨٦١، وفي ١٧ مارس ١٨٦١ حمل لقب ملك إيطاليا ليصبح أول ملك لإيطاليا الموحدة منذ القرن السادس. (المترجم)

لا تأخذ قضية برادو على محمل الجد، فأنا برادو، وأنا أيضًا والده، وأجرؤ على القول إنني ليسيبس أيضًا [الدبلوماسي الفرنسي الذي كان له ضلعٌ في بناء قناة بنما]... رغبتُ بتقديم فكرة جديدة لسكان باريس الذين أحبهم كثيرًا، فكرة جديدة تتمثل في وجود مجرمٍ محترم، فأنا أيضًا شامبيج، مجرمٌ محترمٌ...

فيما يتعلق بالأطفال الذين أحضرتهم إلى هذا العالم، إنها مسألة تفكير يملأه الشك فيما إذا كان جميع من يدخلون «مملكة الإله» لا يولدهم الإله أيضًا. هذا الخريف حضرتُ جنازتي مرتين مرتديًا ملابس خفيفة قدر الإمكان، كانت جنازتي الأولى متمثلةً في الكونت روبيلانت (لا، إنه ابني أنا كارلو ألبرتو أدناه) ولكني كنت أنتونيلي أيضًا. أستاذي العزيز، يجب أن ترى هذه الهيكلية نظرًا لعدم امتلاكي الخبرة فيما يخص الأشياء التي أخلقها، فيمكنك أن تكون انتقاديًا قدر ما شئت... أتجول في كل مكانٍ مرتديًا معطف الطالب الذي أمتلكه؛ أربت على كتف شخصٍ أو اثنين وأقول «أنحن سعداء؟ أنا الإله، لقد خلقت هذه المحاكاة الساخرة»... سيأتي غدًا ابني أومبرتو مع مارغريتا الفاتنة التي سأستقبلها هنا أيضًا في أكمام قميصي.

كل ما تبقى عندي هو للسيدة كوزيما... أريادني... نحن نمارس السحر سويًا من وقتٍ لآخر...

لقد وضعتُ الأصفاد حول معصمي قيافا [الكاهن اليهودي الأعلى الذي وافق على صلب يسوع]؛ أنا أيضًا كنتُ مصلوبًا لوقتٍ طويلٍ على يد الأطباء الألمان. فيلهلم بسمارك وجميع معادي السامية قد ذهبوا دونَ رجعة.

يمكنك الاستفادة من هذه الرسالة كيفما رغبت، فهي لا تؤثر على شخصي في أعين من يرتادون بازل.

مع عظيم الحب

المخلص دومًا، نيتشه»[٣٦].

وُضعت الرسالة في البريد في الخامس من كانون الثاني، واستلمها بوركهارت في اليوم التالي. عندما انتهى من قراءتها أخذها إلى أوفربيك في اليوم ذاته، فقرأها وأرسل لنيتشه على الفور يُلح عليه أن يأتي إلى بازل. في اليوم التالي، تلقى أوفربيك خطابًا موقعًا باسم «ديونيسيوس» مكتوبًا فيه «أنا أُطلق النار على جميع معادي السامية...».

سارع أوفربيك إلى عيادة بازل للأمراض النفسية ليري الرسائل لمدير العيادة، البروفيسور فيلهِ، مستفسرًا عما يجب عليه فعله.

(٢٠) غسق تورينو:

١. ملاحظات حول الاختلافات بين إيقاع القياس المتري القديم («إيقاع الوقت») والقياس البربري («إيقاع العاطفة») المنصوص عليه في رسالة إلى كارل فيوكس من سيلس-ماريا، غير مؤرخة لكنها في نهاية آب عام ١٨٨٨.

٢. نيتشه إلى فرانز أوفربيك ١٨ أكتوبر ١٨٨٨.

٣. من صحيفة «The Maitland Mercury and Hunter River General Advertiser»، ٣٠ تشرين الأول ١٨٨٨، كانت الصحيفة تعتمد صحيفة «بوسطن هيرالد» كمصدر رئيسي للمقالات حول «الزواج الصحي».

٤. ألفريد بلويتز «إرهاق عِرقنا وحماية الضعيف: مقال حول التنظيف العرقي وعلاقته بالمُثل الإنسانية وخاصة بالاشتراكية»، ١٨٩٥.

٥. «عدو المسيح»، ٥٨.

٦. هربرت رايكرت وكارل شليكتا «سيرة حياة نيتشه العالمية»، تابل هل، مطبعة جامعة نورث كارولاينا، ١٩٦٠.

٧. نيتشه إلى مالويدا، ١٨ تشرين الأول ١٨٨٨.

٨. نيتشه إلى فرانز أوفربيك، واصفًا «هذا هو الإنسان»، ١٣ تشرين الثاني١٨٨٨، وكان قد أنهى الكتاب قبل تسعة أيام.

٩. يوحنا، ٥:١٩.

١٠. «هذا هو الإنسان»، المقدمة.

١١. نيتشه إلى الشاعر الألماني فيردناند أفيناريوس (١٨٥٦-١٩٢٣)، ونُشرت في مجلة دير كونسوارت، (١٨٨٨-١٨٨٩)، ص ٦.

١٢. «هذا هو الإنسان»، «لِم أنا بهذا الذكاء؟»، ١٠.

١٣. المصدر السابق، «لِم أنا بهذه الحكمة؟»، ٣.

١٤. المصدر السابق، «لِم أنا بهذا الذكاء؟»، ٢.

١٥. «غسق الأوثان»، «بم أدين للأقدمين؟»، ٤.

١٦. نيتشه إلى أوغست ستريندبرغ، ٧ كانون الأول ١٨٨٨.

١٧. نيتشه إلى ياكوب بوركهارت، ٦ كانون الثاني ١٨٨٩.

١٨. نيتشه إلى ميتا فون ساليس مارشلينز، ٢٩ كانون الأول ١٨٨٨.

١٩. نيتشه إلى فرانز أوفربيك، عيد الميلاد ١٨٨٨.

٢٠. نيتشه إلى فرانز أوفربيك، ١٨ تشرين الأول ١٨٨٨.
٢١. نيتشه إلى ميتا فون ساليس مارشلينز، ١٤ تشرين الثاني ١٨٨٨.
٢٢. نيتشه إلى فرانشيسكا نيتشه، ٢١ كانون الأول ١٨٨٨.
٢٣. نيتشه إلى إليزابيث فورستر نيتشه، كانون الأول ١٨٨٨.
٢٤. نيتشه إلى بيتر غاست، ٩ كانون الأول ١٨٨٨.
٢٥. نيتشه إلى بيتر غاست، ١٦ كانون الأول ١٨٨٨.
٢٦. نيتشه إلى كارل فيوكس، ١٨ كانون الأول ١٨٨٨.
٢٧. نيتشه إلى فرانز أوفربيك، عيد الميلاد ١٨٨٨ و٢٨ كانون الأول ١٨٨٨.
٢٨. نيتشه إلى ميتا فون ساليس مارشلينز، ٢٩ كانون الثاني ١٨٨٨.
٢٩. نيتشه إلى بيتر غاست، مختومةً بختم تورينو البريدي، ٤ كانون الثاني ١٨٨٩ و٣١ كانون الأول ١٨٨٨.
٣٠. نيتشه إلى أوغست ستريندبرغ، رسالة لا تحمل تاريخًا.
٣١. نيتشه إلى أوغست ستريندبرغ، رسالة لا تحمل تاريخًا.
٣٢. نيتشه إلى بيتر غاست، رسالة تحمل ختم تورينو البريدي، ٤ كانون الثاني ١٨٨٩.
٣٣. نيتشه إلى جورج براندز، رسالة تحمل ختم تورينو البريدي، ٤ كانون الثاني ١٨٨٩.
٣٤. نيتشه إلى ياكوب بوركهارت، رسالة تحمل ختم تورينو البريدي، ٤ كانون الثاني ١٨٨٩.
٣٥. نيتشه إلى كوزيما فاغنر، مطلع كانون الثاني ١٨٨٩.
٣٦. نيتشه إلى ياكوب بوركهارت بتاريخ ٦ كانون الثاني ١٨٨٩، لكنها تحمل ختم تورينو البريدي بتاريخ ٥ كانون الثاني ١٨٨٩.

٢١
مينوتور الكهف

هل بإمكان الحمار أن يكون تراجيديًا؟ هل من الممكن أن يتحطّم شخص ما يرزح تحت ثقل لا يستطيع حمله ولا يستطيع أن يلقيه أرضًا... إنها حالة الفيلسوف.

غسق الأوثان، (أمثال وحِكم)

ليس واضحًا ما الذي حدث بالضبط في صبيحة الثالث من كانون الثاني ١٨٨٩. كل القصة أنهم رأوه كالعادة مغادرًا منزل ديفيد فينو الذي يقع عند الزاوية والكائن في ساحة كارلو البرتو. كانوا معتادين على رؤيته حزينًا ومنعزلًا في قوقعة أفكاره يمشي في طريقه إلى المكتبة، حيث يجلس هناك لساعات بصحبة كتاب يلتصق بوجهه، يقرأ كثيرًا لكنه لم يشترِ أحدها على الإطلاق. كانت الساحة محتشدة بالخيول كبيرة السن المتعبة والواهنة من أعباء جر عربات الحمل أو عربات الأجرة التي تنتظر راكبًا ما؛ خيول ناتئة الاضلاع من شدة ضعفها تتعرض للتعذيب على يد سائسيها كجزء من عملها. سقط نيتشه مكسور القلب عندما رأى سائسًا يجلد حصانه بلا رحمة. نالت عواطفه منه، كان يذرف الدموع قبالة وجه الحصان، مطوقًا

بيديه رقبته ليحميه، وهنا انهار نيتشه؛ أو هكذا قالوا. هكذا تحل المصائب سريعًا وتنقضي، فيرى كل شاهد عيان حقيقة هذه القصة من وجهة نظره.

شخص ما عرف محل سكناه، فاستدعى ديفيد فينو والشرطة أيضًا. لولا تواجد فينو لكان نيتشه قد ضاع فعلًا وعلى الفور بين أروقة المتاهة المظلمة للمؤسسات الإيطالية للأمراض العقلية، ولكن فينو أعاده إلى البيت.

بمجرد دخوله لغرفته في الطابق الثالث، أغلق على نفسه ولم يسمح لأي أحد بالدخول. بقي لعدة أيام، هناك في الأعلى، يصرخ ويغني بأعلى صوته، ويهذي ويثرثر مع نفسه، وعلى هذه الوتيرة ليلًا ونهارًا. صعدت عائلة فينو السلم وأصغت إلى الجلبة التي يحدثها، واستلموا منه رسائل يريد أن يرسلها بالبريد إلى ملك وملكة إيطاليا، ورسائل وهمية إلى بروكهارت وأوفربيك. صار منفعلًا على نحو غير طبيعي عند جلوسه على البيانو، يعزف موسيقاه الفاغنرية بصخب شديد وبعنف. أحدث ضجة عالية لأنه كان مهشمًا من الداخل. في أحد الأيام، توجسوا صوتًا قادمًا من السقف، لقد كان هذا وقع خطوات نيتشه يزحف ويقفز ويدق بقدميه فوق رؤوسهم. كان يرقص عاريًا ومعربدًا فوقهم وكأنه يمارس طقسًا جنسيًا جنونيًا مقدسًا، الطقس الديونيسيوسي الماجن.

اتصل فينو بالقنصل الألماني؛ كما ذهب إلى مركز شرطة واستشار طبيبًا حول وضع نيتشه، لكن أوفربيك وصل بعد ظهيرة الثامن من كانون الثاني.

«كان وقتًا مروعًا لم أشهد مثله من قبل» هكذا وصف أوفربك الوقت الذي قضاه بصحبته حينها. مع ذلك، تحيّن له أن يمسك بنيتشه الحقيقي في إحدى فترات هدوئه النسبي، لكن في الأيام القادمة سيراه في وضع أسوأ بكثير.

عند دخوله غرفة نيتشه، وجد أوفربيك صديقه منكمشًا على نفسه عند زاوية الأريكة. ظاهريًا، كان يصحح صفحات كتاب «**نيتشه ضد فاغنر**». يمسك بالأوراق المطبوعة ويرفعها على مقربة من وجهه الذاهل، مثل طفل

يتظاهر بالقراءة. كان يعرف الحركات المتوقعة للتظاهر بالقراءة، فعلى الورقة أن تكون على هذه المسافة من أنفه؛ وعليه أن يتفحصها من اليسار إلى اليمين ومن اليسار إلى اليمين مجددًا. لكن من الواضح أن الكلمات على الورقة لم تكن تعني له أي شيء.

عند دخول أوفربيك، اندفع نيتشه صوبه وعانقه بعنف ومن ثم انتابته نوبة بكاء. بعدها، عاد ليغوص في أريكته يرتعش ويئن ويرتعد. كان أوفربيك رجلًا هادئًا وحازمًا لا يظهر تأثره بالحالات العاطفية، بيد أنه عند رؤية صديقه القديم في هذه الحالة مادت الأرض تحت قدميه، ترنح من هول ما رآه وكاد أن ينهار.

بقيت عائلة فينو في الغرفة مع أوفربيك ونيتشه. طبيب الأمراض العقلية، البروفيسور كارلو تورينا، الذي استشاره فينو عن حالة نيتشه، نصح بأن يُعطى المريض قطرات البروميد لتهدئته كلما أفرط في حركته[1]. كان قدح الماء ينتصب مهيأً على الطاولة، من دون ضجة أعطوه القليل من القطرات، وهذا ما روض المخلوق الجامح. بطريقة متعالية، وصف الاستقبال الكبير المعد له ذلك المساء. بيد أن هذه الفترات السعيدة الفاصلة بين نوباته لم تدم طويلًا. فسرعان ما كان يتحدث بكلمات مفككة ومقطعة، كانت الجمل تندفع بينما تتخللها انطلاقات متشنجة مفاجئة من الهزل الماجن والكلمات الفاحشة والهيجان على البيانو والوثب والرقص. لكونه على دراية بعالم أفكار نيتشه، كان أوفربيك قادرًا نسبيًا على فهم الإشارات المبعثرة التي كانت تأتي وتمضي خارجة من فم نيتشه. تحدث نيتشه عن نفسه وكأنه خليفة للإله الميت ولمهرج كل الأبديات وديونيسيوس الممزق إلى أشلاء. جعل جسده يرتعش ويهتز محاولًا إعادة ممارسة الطقس الجنوني الماجن المقدس. لكن على الرغم من سوء حالته طوال الوقت، إلا أن البراءة لم تبارحه. فلم يثر الخوف والهلع في نفوسهم، أو حتى مشاعر النفور منه. لم يثر فيهم سوى مشاعر الشفقة، نيتشه الذي قال أكثر من مرة إن التغلب على الشفقة من قيم النبلاء.

عندما حمل أوفربيك رسائل نيتشه مسرعًا إلى عيادة بازل للأمراض

العقلية، لم يكن لدى الدكتور فيله شك بضرورة إحضار نيتشه إلى المصح العقلي الذي يديره فورًا، إلا أنه حذر أوفربيك بأن أحضاره لن يكون بالأمر الهين. لن يتمكن أوفربيك من تأدية المهمة لوحده، فينبغي عليه العثور على رجل خبير في إقناع وتهدئة المرضى الواهمين، وبذلك تعاقد مع طبيب أسنان ماهرٍ في التعامل مع مثل هذه الحالات.

وضب أوفربيك كتب نيتشه وأوراقه خلال الفترة التي قضاها بجانبه في تورينو قبل مغادرتها إلى بازل، حتى يكون بمقدور فينو أن يرسلها فيما بعد. استلقى نيتشه على السرير، رافضًا النهوض. كانت الطريقة الوحيدة لإقناعه بترك الفراش هي مسايرة وهمه بالعظمة. فقد كان جلالة الملك نيتشه ينتظر! بينما كان التحضير لحفلات استقباله والمواكب والحفلات الموسيقية قائمةً على قدم وساق في المدينة!. انتزع نيتشه قلنسوة النوم الخاصة بديفد فينو، معتمرًا إياها مثل تاج ملكي، وقاتل عندما حاولوا تجريده من تاجه (القلنسوة).

صنعت شوارع تورينو الصاخبة ومحطة القطار بحشودها الغفيرة مجموعة لا بأس بها لتبقي على وهم نيتشه باستقبال ملكي، وهكذا اقتنع بولوج القطار.

واجهتهم المصاعب عند بلوغهم نوفارا، حيث كان عليهم تغيير القطارات والانتظار ثلاث ساعات حتى قدوم القطار التالي. رغب نيتشه بمخاطبة الجماهير ومعانقة رعاياه المخلصين، ولكن طبيب الاسنان الخبير بهذه الحالات أقنعه أن الحفاظ على التخفي عن أنظار المواطنين مناسبٌ جدًا لشخصية عظيمة مثله.

لقد كان منصاعًا مثل طفل طالما سايروا أوهامه الملكية، ولكن فيما بعد سيأخذه عقله المضطرب إلى مكان آخر وستنفجر شظية مسننة في عقله المتشظي. عندما أتيحت لهم فرصة صغيرة لمتابعة خيط تفكيره، ثار غضبًا. اعطوه كلورال لتهدئته طوال الليل. مع اندفاع القطار عبر نفق سان

غوتهارد الذي يمر من تحت جبال الألب، سمع أوفربك صوت نيتشه صافيًا ومتماسكًا يغني «أغنية الجندول»، إحدى قصائده التي ضمنها في كتابيه «هذا هو الإنسان» و«نيتشه ضد فاغنر».

روحي، آلة وترية،
ممسوسة بقوة خفية،
أنشدت لنفسها سرًا أغنية الجندول،
ممتلئة بهجة ومرتعشة.
هل أصغى إليها أحد؟[٢].

في بازل، كانت عربة الأجرة في انتظارهم. عرف نيتشه في أيامه الجيدة التي خلت كلًا من فريدمات، طبيب الامراض الذهنية في عيادة جامعة بازل، ومدير العيادة البروفيسور فيله، لكنه لم يظهر أي علامات على تعرفه عليهما عند دخوله العيادة. لم يعرفه أوفربيك على الرجلين، فقد كان خائفًا من تعرفه على البروفيسور وملجأ الأمراض الذهنية وهذا يعني اكتشاف خيانته. استعلم نيتشه بطريقة ملكية عن سبب عدم تعريفه بهذا الرجل، لم يخطر على بال أوفربيك أن نيتشه سيتصرف بهذا الشكل. بإخباره اسم البروفيسور فيله، رحب به وعامله بكياسة بالغة وترك دوره الملكي التمثيلي الذي كان يتقمصه بسهولة تامة ليدخل في محادثة جرت بينهما قبل سبع سنوات، مستذكرًا تفاصيلها بدقة مدهشة وبصفاء تام، كانت تدور حول موضوع أودلف فيشر- مهووس ديني.

صُرف أوفربيك فيما بعد على يد البروفيسورين، فلم يكن له مكان أثناء إجراء الفحص الطبي والتقييم النفساني.

استهل نيتشه يومه الأول قائلًا «من أجلكم أيها الناس الطيبون، سأمنحكم طقسًا بهيجًا يوم غد».

تناول إفطاره بشراهة، ولاحظوا كم استمتع للغاية عند استحمامه. بقي نيتشه في العيادة ثمانية أيام بينما كانوا يفحصونه ويعدون تقريرًا عنه.

«الجسم صحي ومكتمل النمو وعضلي، عميق النفس وخفيض النبض وطبيعي: ٧٠ نبضة. التفاوت الحدقي: العين اليمنى أكبر من اليسرى، رد فعل بطيء للضوء. اللسان فرائي إلى حد كبير. منعكس رضفي متضخم. البول صاف وحامض لم يحتوِ على سكر أو زلال.

كثيرًا ما يسأل المريض عن النساء. يقول أنه قد كان مريضًا خلال الأسبوع الماضي، كما عانى كثيرًا من صداع شديد. يقول إنه تعرض لبضع نوبات قلبية. شعر بالنشوة وأنه بخير على نحو استثنائي خلال النوبات القلبية. كان يرغب في معانقة وتقبيل الجميع في الشارع. كان يرغب بتسلق الجدران. يصعب تقييد انتباه المريض إلى أي شيء محدد؛ كان يجيب بعبارات متشظية ناقصة، أو لا يجيب بأي شيء على الاطلاق.

لا يعاني من خلل في الحديث ولا من ارتعاش. تدفق الحديث ثابت ومشوش ومن دون رابط منطقي يربط جمله. يستمر بالحديث طوال الليل. كثيرًا ما يعاني من حالة عالية من الاهتياج الهوسي. بقضيب منتصب. تراوده أوهام عن وجود عاهرات في غرفته.

في بعض الأحيان يتحدث بطريقة طبيعية تمامًا، ولكن بعد حين ينقطع الحديث ليتحول إلى إطلاق النكات والرقص والارتباك والتوهم. أحيانًا يتحول إلى الغناء والانتحاب والصراخ.

١١ كانون الثاني ١٨٨٩. لم ينم المريض طوال الليل، تحدث من دون انقطاع ونهض عدة مرات لتنظيف أسنانه وشطف نفسه، الخ... منهكًا في الصباح.. في الظهيرة، يكون في حالة من الإثارة الحركية؛ يرمي بقبعته أرضًا واحيانًا يلقي حتى بنفسه على الأرض. أحاديثه مرتبكة ويوبخ نفسه بين الفينة والأخرى لأنه كان السبب في تخريب حياة عدة أشخاص.

١٢ كانون الثاني ١٨٨٩. بعد أن تم إعطاؤه السلفون-ميثان، نام لأربع ساعات أو خمس وقد تخلل نومه عدة انقطاعات. عندما سُئل عن شعوره أجاب أنه يشعر بتحسن لا يمكن تصديقه لدرجة أنه لا يستطيع التعبير عن شعوره إلا من خلال الموسيقى».

بعد ثمانية أيام، برز نمط جديد من السلوكيات. أصبح أكثر هدوئًا عندما يكون في السرير، وتصبح السلوكيات الجنونية والصاخبة والخطيرة التي تنتابه أسوأ عندما يكون مستيقظًا. حينما يكون في المبنى فإن غضبه العارم يكون صوتيًا. لكن خارج المبنى يأخذ غضبه منحى جسديًا مع ميل لخلع قطعة من ملابسه والاستلقاء على الأرض.

كان البروفيسور فيله رئيس قسم السفلس. كان الكثير من مرضاه في العيادة يعانون من السفلس الدماغي الذي قد يأتي في مرحلة متأخرة من المرض. أظهر التشخيص ندبة صغيرة واضحة على قضيبه، كما أن نيتشه قد أخبرهم أنه قد «أصيب مرتين»، وقد افترضوا أنه كان يشير إلى السفلس. لم يراجعوا فيما بعد سجلاته الطبية، والتي كانت ستخبرهم بأن الدكتور إيزر قد فحص نيتشه عندما كان عقله سليمًا وقد اعترف أنه قد أصيب مرتين بالسيلان.

مع انقضاء الأيام الثمانية، كان فيله واثقًا من تشخيص الشلل فوق النووي التقدمي والشلل الجزئي العام، وسيحدث الانهيار الذهاني في المراحل الأخيرة من السفلس. وقع على عاتق أوفربيك الآن مهمة صعبة تتمثل بإبلاغ والدة نيتشه أن ابنها في ملجأ الأمراض الذهنية.

غادرت فرانشيسكا ناومبورغ إلى بازل فور تلقيها الخبر، لتصل في الثالث عشر من كانون الثاني. قضت ليلتها عند آل أوفربيك ومضت إلى العيادة في الصباح التالي. قبل أن تتمكن من رؤية ابنها، توجب عليها مقابلة الأطباء. كان عليها أن تحكي لهم عن تأريخ نيتشه العائلي والطبي.

نقرأ في التقرير الذي أعده الاطباء بناء على معلومات فرانشيسكا «إن الأم تترك انطباعًا عن محدودية عقلها... أما الأب فهو كاهن ريفي، عانى من مرض في الدماغ جراء سقوطه عن السلم.. أحد أشقاء الأم توفي في مصحة عصبية، وكانت شقيقة الأب غريبة الأطوار وتعاني من الهيستريا، أما الحبل والولادة في العائلة فهو طبيعي تمامًا...»[٣].

مما لا شك فيه أن فرانشيسكا كانت ترغب بالاعتناء بابنها، ولكنهم لم يسمحوا لها. كانت فرانشيسكا نيتشه امرأة قصيرة ونحيلة في الستينيات من عمرها، لم تمنحها حياتها الخاملة اللطيفة قوة جسدية كبيرة. كان ابنها الأطول منها في الرابعة والأربعين من عمره، قوي العظام ويمتلك جسمًا عضليًا جيدًا، دون عقل، لا يمكن التنبؤ بحركاته الجسدية ويبدو عنيفًا في فترات متقطعة.

لا جدال في أن نيتشه كان بحاجة إلى ما هو أكبر من رعاية والدته. لم يكن من السهل على فرانشيسكا أن تعصي نصيحة مهنية قادمة من الجنس الذكوري، لكنها تمكنت من تحقيق نصر صغير حيث نقلت نيتشه إلى مؤسسة للطب النفسي، عيادة في ينا، كانت قريبة جدًا إلى ناومبورغ.

مرة أخرى، كانوا بحاجة مرافق خبير في نقل المرضى النفسيين. وقع الاختيار هذه المرة على الطبيب الشاب إرنست ماهلي. لكنها كانت مهمة تستوجب أكثر من شخص، وعليه سيرافق ماهلي مساعد. كان ماهلي أحد طلبة نيتشه في بازل. كان «بارعًا في كتم الأسرار والصمت، يملأه تبجيل مكتوم للنبي الشيطاني صاحبُ مفهوم إعادة تقييم القيم على أسس مغايرة، مبدع ما وراء الخير والشر»(٤). كما كان يعرف أوتو بنز فانغر، مدير عيادة ينا لرعاية ومعالجة المجانين. من المؤكد أن ماهلي كان وصلة الربط الأمثل في رحلة الاتصال هذه. تطلب الأمر أن يركز ذهنيًا لكي يحظى بأكبر إمكانية لفهم الاحاديث المتشظية غير المترابطة وتجميع بعضها مع بعض لتتحول إلى نوع من الأنماط الذي قد يوفر مفاتيح يقدمها لتساعد البروفيسور بنز فانغر لفهم حالة نيتشه. على هامش هذا الحدث، وضع والد ماهلي اللوم على نيتشه، عندما وضع ماهلي حدًا لحياته منتحرًا، عازيًا الوالد السبب إلى تأثره بنيتشه.

في مساء السابع عشر من كانون الثاني ١٨٨٩، اصطُحب نيتشه في رحلة لمحطة السكك الحديدية للمرة الثانية ليذهب بعدها إلى ملجأ الأمراض الذهنية، بيد أن أوفربيك لم يسافر معه هذه المرة، لكنه رغب مستميتًا بتوديع

صديقه. اختبر أوفربيك لحظة «مرعبة لا تُنسى» ثانية، اللحظة التي كان فيها واقفًا يراقب المجموعة الصغيرة تمشي عبر صفوف حشود المحطة بصمت خشبي لموكب جنائزي. كانت مشية نيتشه جامدة بشكل غير طبيعي، ولكأنه إنسانٌ آلي. كانت الساعة تشير إلى التاسعة مساءً عندما أضفت إضاءة المحطة المزعجة والشديدة على وجوههم ملامح مخيفة، بدت وكأنها أقنعة لوجوه شبحية جوفاء.

عندما تمكن [نيتشه] صاحب الجسد البشري الجامد الغريب من التحكم بخطواته من رصيف المحطة إلى داخل عربة القطار، استقل أوفربيك القطار ودخل مقصورته المحجوزة لتوديعه. عند رؤيته، أطلق نيتشه أنّةً هادرة وقفز ليعانقه بطريقة متشنجة. أخبره نيتشه أنه الرجل الذي أحبه أكثر من كل الآخرين، وبعد لحظات، كان على أوفربيك مغادرة القطار.

بعد ثلاثة أيام من الوداع المؤلم، كتب أوفربيك لبيتر غاست يخبره أنه يتعذب تحت وطأة شعوره بأنه تصرف على نحو خاطئ مع صديقه. لقد كان يعرف بأن أمر نيتشه قد قضي في تورينو، ولهذا لم يكن عليه التحايل ومخادعة صديقه العزيز سرًّا. الآن، يجب عليه أن يرزح في الشقاء بقية حياته تحت العبء الرهيب المتمثل بتسليم نيتشه إلى مستقبلٍ يفيضُ بالمصحات العقلية، فكان الأجدر به أن يسلب حياة نيتشه لحظتها مباشرة، هناك في تورينو.

كان هذا تصريحًا خطيرًا يصدر من أستاذ لاهوتي معتدل، لأن القتل خطيئة لا تغتفر فعلًا بالنسبة له. بيد أن المعضلة التي واجهها أوفربيك تعقدت أكثر عندما خطر على بال الصديقين احتمالية أن نيتشه يدّعي الجنون. لقد عرف كل من غاست وأوفربيك رغبته في التخلي عن التأويلات التقليدية للواقع، ناهيك عن اهتمامه طوال حياته بمفردة الجنون وبممثلها المجنون، بالإضافة إلى انجذابه إلى إله المجون وهيجانه المقدس ديونيسيوس. من إمبيدوقليس إلى هولدرلين وصولًا إلى المجنون، الذي ورد ذكره في «**هكذا تكلّم زرادشت**»، هذا الذي يبحث عن الرب على ضوء الفانوس الذي يحمله، توصل نيتشه في أكثر من مناسبة إلى فكرة مفادها أن قارب

الجنون الهش وحده من يستطيع نقل العقل البشري إلى الضفة الأخرى من نهر الروبيكوني(*) الذي يجب عبوره لبلوغ الإلهام. كان الجنون هو الثمن الذي يجب دفعه لبلوغ تلك المرحلة، فهو القاطرة التي تتحلى بالقوة الكافية والوحيدة لأن تجلب التغيير عبر دروب الأعراف الأخلاقية. إن الجنون هو «التابع المرعب»، كما كان قناع الألوهة وبوقها الذي تتكلم من خلاله. قال افلاطون ما معناه أنه من خلال الجنون وحسب عرفت اليونان أعظم أشيائها الجيدة؛ لكن نيتشه مضى إلى أبعد من ذلك. إن جميع الرجال المتفوقين الذين انجذبوا بشكل لا يقاوم إلى فكرة التخلص من نير عبودية الأخلاق الجاهزة، إن لم يكونوا مجانين حقًا، فلا بديل لديهم سوى التظاهر بالجنون.

«أنا أيضًا حللتُ مرة على العالم السفلي، مثل أوديسيوس، وسأكون على الأغلب هناك مرة أخرى؛ ولن يكون علي التضحية بالكباش وحسب لمخاطبة الموتى، ولكن سيكون علي أن لا أبخل بدمي أيضًا»، كما أنه كتب «آمل أن يسامحني الأحياء إن تجلّوا لي بهيئة أشباح»(٥).

نظرًا إلى صدمتهما بفكرة أن صديقهما قد غاص إلى العالم السفلي وارتدى قناع الجنون ليبلغ الضفة الأخرى، فإن شكوكهما لم تصمد أمام الواقع الذي لاحظاه خلال الأشهر الأربعة عشر المقبلة عندما أصبح نيتشه حبيس عيادة ينا، فلم يكن هذا قناعًا ولا خدعة ديونيسيوسية ولا تمجيدًا لربات الشعر ولا فكرة غامضة قديرة. لقد كانوا يشاهدون خيوط الدخان الأخيرة لعقل نيتشه المتبخر.

كان نيتشه نفسه قد صادف سابقًا عيادة ينا، عندما كان في الخامسة عشرة من عمره. فقد رأى ولاحظ المؤسسة العلاجية الفسيحة خلال رحلة إجازة صيفية في عام ١٨٥٩، عندما كان شكلها الخارجي الحاد والمتجهم سببًا في أن يكتب أفكارًا سوداوية ومخيفة في مذكراته. بينما كانت عيادة بازل تبدو وكأنها فيللا برجوازية ذات مظهرٍ صلب، ليست بعيدة عن الطراز والمستوى

(*) الروبيكوني: نسبة إلى نهر الروبيكون في إيطاليا. (المترجم)

المعماري الخاص بوانفريد، كانت عيادة ينا بناية ضخمة وحصينة، مؤسسة عالية البناء وذات أبراج مشيدة بالقرميد البرتقالي الزاهي والأسود. من الداخل، تعج البناية بالملامح الأمنية الملحوظة كالأقفال والمزاليج، وشبابيك منيعة بقضبان حديدية كثيرة.

أُدْخِل العيادة بصفته مريضًا من «الدرجة الثانية» نظرًا لرسوم العلاج. كانت فرانشيسكا هي من اتخذ هذا القرار اسميًا ولكن مما لا شك فيه أنها استشارت أوفربيك، والذي نصح بأخذ الحيطة والحذر فيما يخص الوضع المالي. كان الراتب التقاعدي من جامعة بازل قد انخفض كثيرًا من ثلاثة آلاف مارك إلى ألفي مارك، ولم تكن لديهم أي فكرة كم سيستمر الراتب حتى يُقطع كليًا. كانت خطوة تسجيل نيتشه في العيادة بوصفه مقيمًا من الدرجة الثانية بالتأكيد تدبيرًا حكيمًا.

درس مدير المؤسسة، البروفيسور أوتو بنز فانغر، علم الأمراض العصبية في فيينا وغوتنغن. في سن مبكرة وعلى غير المعتاد، عُين بنز فانغر مديرًا لمؤسسة ينا عندما كان في الثلاثين من عمره؛ كما أنه شغل منصب أستاذ الطب النفسي في جامعة ينا. كتب العديد من الأوراق البحثية عن سفلس الدماغ والخرف الشللي، فقد كان متعمقًا في الطب النفسي وعلم الأمراض العصبية. كان والده قد شغل قبله منصبًا مماثلًا لمنصبه. لم يكن هناك أي شك في أن نيتشه كان في إحدى المؤسسات الريادية التي تعنى بوضع مماثل لوضعه. لسوء الحظ، لم يفحص بنز فانغر نيتشه عند قدومه للعيادة، فقد اعتمد على التشخيص الذي أُرسل مع المريض من عيادة بازل، وهو: شلل جزئي وخرف شللي وعته وشلل تقدمي نتيجة الاصابة بالسفلس من الدرجة الثالثة.

لم يعد يُعتبر السفلس داءً أرسله الرب عقابًا على العلاقات الجنسية الآثمة، ولم يعد المرض العقلي يرتبط بمستشفى المجانين الوحشي والمكتظ، حيث يُعامل المرضى وكأنهم في كباريه لحديقة حيوانات ترفيهية. لم يركز الطب النفسي في هذه المؤسسة على العقاقير الطبية، بل على المعالجة الإنسانية.

كان علاج بنز فانغر الأساسي هو التهدئة والتهدئة ثم المزيد من التهدئة دائمًا. خلال الأربعة عشر شهرًا التي قضاها في مصحة ينا النفسية، عولج نيتشه بالأدوية المهدئة والتدليك بمراهم الزئبق، وهو علاج قديم جدًا. كانت حالة نيتشه الصحية حالة ميؤوسًا منها، مرض عضال لا يمكن علاجه. لم يتعدَ الموضوع أكثر من انتظار الموت ليحل على المريض (نيتشه)، وهذا ما كان متوقعًا أن يحدث بشكل سريع نسبيًا، خلال عام أو عامين.

في الحقيقة، بقي نيتشه على قيد الحياة لمدة أحد عشر عامًا أخرى، من دون أن تظهر عليه بعض الاعراض المتوقعة لمرض السفلس المتطور من تساقط الشعر والجيوب الأنفية، من المؤسف حقًا أن بنز فانغر لم يفحص نيتشه بنفسه للتأكد من التشخيص(٦).

طوال أشهر طويلة، استمرت معاناة نيتشه من اضطربات ذهنية وتصورات وهمية وحالات اهتياج. كان وجهه مكشرًا دائمًا. يصرخ صرخات متقطعة من دون أي سبب خارجي يدعوه للصراخ. كما استمرت أوهام العظمة تراوده: تكلم عن أعضاء جهات تشريعية ووزراء وخدم، بالإضافة إلى مكابدته من أوهام الاضطهاد. تراءى له أن بندقية موجهة نحوه خلف لوح زجاجي، وعند محاولته الإمساك بها يتحطم الزجاج ليقطع يده. «إنهم» يصبّون اللعنات عليه ليلًا ويجربون على جسده ابتكارات آلية فظيعة، ويشغلون في بعض الأحيان مكائن مرعبة عليه. استمرت الأوهام الآيروتيكية بمراودته، ففي أحد الصباحات ذكر أن أربعة وعشرين عاهرة كنّ بصحبته ليلًا في الغرفة. أصر على أن يطلق على كبير الحراس في المشفى اسم «الأمير بسمارك»، وفي بعض الأحيان كان يطلق على نفسه لقب دوق كمبرلاند، وأحيانًا أخرى القيصر. قال إنه كان فريدريك الرابع «في المرة الأخيرة». أعلمهم بأن زوجته، السيدة كوزيما فاغنر، هي من جلبته إلى هنا. غالبًا ما كان يتضرع للحصول على المساعدة لتخليصه من العذابات الليلية. لم يكن ينام على السرير بل على الأرض، لأن جسده كان يرتعش بقوة فيسقط من على السرير أرضًا. كان يميل برأسه على أحد جانبيه. يأكل الكثير من

الطعام بشراهة، ومع حلول تشرين الأول كان قد ازداد وزنه أربعة عشر باوندًا، وكان قد كسر قدح الماء ليحمي نفسه ممسكًا بكسرات الزجاج. كان مصابًا بسلس البول والغائط، فقد كان يتبول في قدح مائه ويلطخ نفسه ببرازه، وفي بعض الأحيان كان يكرع بوله دون معرفة أحد. يهذي ويصرخ ويئنُّ بطريقة تثير الأعصاب، كان بالإمكان سماعه من مسافة بعيدة خلال الليل. بدا الشعر الأبيض ينمو على الجانب الأيمن من شاربه.

في حصص بنز فانغر الدراسية، كان دور نيتشه هو أن يكون أحد المرضى الذين يُعرضون على الطلبة بصفته أداة تعليمية مساعدة، لأنه لم ير في الأمر أي نوع من الإهانة. في حين أنه لم يكن على دراية بما الذي يفعله هناك، إلا أنه شعر على نحو جلي بكونه شخصية مهمة، فقد تصرف مع الحاضرين من الدارسين في مجال الطب النفسي بكياسة، معربًا عن امتنانه مرارًا وتكرارًا تجاههم، كسيد كريم يشكر خدمه. شكرهم على الاستقبال الرائع الذي أعدوه له، وحاول مصافحة الطبيب أكثر من مرة. ففي مكان ما من ذهنه، كان يعلم أن الطبيب يتمتع بمنزلة إجتماعية رفيعة، كما كان هو شخصيًا.

عندما رغب البروفيسور أن يري الحاضرين اضطرابات المشي عند المريض، تحرك نيتشه ببطء شديد وبخمول لدرجة لم يكن من الممكن ملاحظة الأعراض بمشية مثل هذه. لكن بنز فانغر أنّبه قائلًا: «الآن، أيها الأستاذ، من المؤكد أن جنديًا قديمًا مثلك لا يزال قادرًا على المسير العسكري!»، هكذا، بدأ نيتشه يسير طوال المحاضرة بمشية ثابتة[٧].

تخللت المحاضرات بعض اللحظات المستقطعة الهادئة ذات سحر عاطفي، فذات مرة سأل الطبيب بابتسامة: «هبني ولو القليل من العافية».

لم تكن لديه فكرة عن محل إقامته. في بعض الأحيان كان في ناومبورغ، وفي أخرى في تورينو. لم يتحدّث كثيرًا مع المرضى الآخرين في المصحة، كما أنه سرق كتبًا. كان يضع اسمه على قصاصات ورقية مجعدة، يعرضها ويقرأ اسمه بصوت عالٍ «الأستاذ فريدريك نيتشه» عدة مرات في اليوم.

تمامًا كما فعل عند مغادرته لتورينو، عندما تعلق بقلنسوة ديفيد فينو، أصبح نيتشه مهووسًا بشدة بإحدى قلنسوات المرضين في المصحة. اعتمرها ليلًا ونهارًا، وكان المرضون يخشون انتزاعها منه ظنًا منهم أنها تمثل غطاء رأسه الملكي. يصبح مغتاظًا وثائرًا إذا ما فتشوا جيوبه بعد كل جولة مشي، فقد كان يملأ جيوبه بالحصى وكل أنواع الكنوز الصغيرة الأخرى.

بعد مرور ستة أشهر من العلاج بالمسكنات، صارت سلوكياته تحت السيطرة بما يكفي للسماح لوالدته برؤيته. وصلت فرانشيسكا في التاسع والعشرين من تموز. تقرر أنه من الأفضل أن لا يلتقي الاثنان في غرفته؛ ولا في جناح المجانين حيث كان يجلس عادة خلال النهار، فحدث اللقاء أخيرًا في غرفة الضيوف. أخبرها أن هذا هو المكان الذي ألقى فيه محاضرات أمام جمهور مختار، وكان أمامها قلم رصاص وبضع أوراق، فحشرها في جيبه هامسًا في أذنها بطريقة غامضة ولكن مع مرح واضح «الآن سأفعل شيئًا ما عندما أنسل إلى كهفي»(٨).

مرت ستة أشهر أخرى مع تغيير طفيف. في كانون الأول، اتصل مشعوذ مزعج بفرانشيسكا اسمه يوليوس لانغبن. كان لانغبن واثقًا من قدرته على شفاء ابنها، لكنه يحتاج إلى أن يتحكم به كليًا لتنفيذ علاجه، ولذلك يجب أن يسمح له بشكل قانوني أن يتبنى نيتشه. كان لانغبن مؤلف الكتاب الأكثر مبيعًا الذي يقدم ترياقًا لحالة الانهيار التي تمر بها الثقافة الألمانية. كان عنوان كتابه (رامبرانت مربيًا Rembrandt als Erzieher) يتكئ كثيرًا على عنوان نيتشه (شوبنهاور مربيًا). حلُّ لانغبن الناجع للأزمة الألمانية هو العودة إلى التربة المسيحية المتمثلة بأرواح الفلاحين الخيّرة وغير الفاسدة الذين يصورهم رامبرانت في لوحاته. أما حقيقة أن رامبرانت كان هولنديًا، فمن الظاهر أنها لم تزعجه.

لقد حلل لانغبن مشكلة ألمانيا، وكانت المشكلة تتمثل بالتعليم الزائد على الحاجة. ينبغي التوقف عن تبجيل الأساتذة والعلماء مع كل ما لديهم من معرفة و«خبرة»، بعدها، كما يحل النهار بعد الظلام، ستتحقق النهضة

الألمانية بالاستناد إلى الروح الألمانية الخيّرة. الحكمة -عند لانغبن- مزروعة في التربة وموجودة في الهواء الطلق وتنبض في القلوب الألمانية الطيبة. مضى يتحدث عن استئصال التأثيرات الدخيلة على ألمانيا من دون التلميح إلى اليهود بشكل خاص. لقد أثار كتابه ضجة أدبية عام ١٨٩٠، وأعيدت طباعته تسعًا وعشرين مرة خلال السنة الأولى من نشره، وفي وقت لاحق أضاف فصلين واسعين على الكتاب يتحدثان بثناء عن وحشين ظلاميين يبغضهما نيتشه: معاداة السامية والكاثوليكية الرومانية. كتب لانغبن قصائد أيضًا، وقد رأى أنه يكتب شعرًا أفضل حتى من شعر غوته؛ لقد رأى نفسه «إمبراطورًا متخفيًا» ستجدد قواه العلاجية الإمبراطورية الألمانية روحيًا، كما أن بسمارك استقبله عدة مرات.

ستكون معالجة نيتشه، هذا الذي اعترف شخصيًا بأنه عدو المسيح، بمثابة ريشة ناعمة توضع في قلنسوة لانغبن. كانت وجهة نظره أن «**الملحدين** مثل شيلي[*] **وأعداء المسيح** مثل نيتشه هم ببساطة تلاميذ متهربون يجدر إعادتهم إلى قطيع الخراف»[٩]. أعدّ وثيقة قانونية لتوقعها فرانشيسكا تنص على «أنا، الموقعة أدناه أتعهد بموجب القانون بالوصاية القانونية لابني فريدريك نيتشه...» الخ. كانت خطة لانغبن هي أن يأخذ نيتشه إلى دريسدن، حيث سيشبع تصوراته المرضية والملكية الواهمة ويحيطه بالبلاط والحاشية ويعامل بوصفه ملكًا وطفلًا. آمن لانغبن بأنه قادر على جمع ما يكفي من الأموال لدفع ثمن قصر فخم مناسب، بمفروشات متقنة الصنع وملابس وشعارات ملكية وحاشية أنيقة الملبس مكونة من كادر طبي وخدم للمنزل للحفاظ على التمثيلية المسرحية الملكية، كان لانغبن سيسمح لفرانشيسكا بالتواجد في تمثيليته المُفترضة بصفتها ممرضة لكن على مضض، ووفق شروطه الصارمة.

يظهر أن بنز فانغر كان مبهورًا بالشخصية الشهيرة (لانغبن) اللامعة بين أوساط القوميين كبقية أبناء البلد، ولذلك سمح له بأن يأخذ نيتشه في

(*) بيرسي بيش شيلي: ١٧٩٢-١٨٢٢، شاعر إنجليزي رومانتيكي. (المترجم)

نزهة يومية. إن محاولات لانغبن المستمرة في تبشير المريض بمعتقداته وطرد الأرواح الشريرة التي تسكنه تسببت في النهاية في إثارة حنق المريض لدرجة أنه قلب طاولة عليه ولوح بقبضته مهددًا. على أثر هذه الحادثة، مدفوعة بتحريض أوفربيك، استجمعت فرانشيسكا قواها ورفضت توقيع عقد التبني. كان الحادث بمثابة لحظة واضحة برز فيها تعقل لانغبن في كبح جماح جرأته. انزوى بنفسه بعيدًا عن الجدل إلى دريسدن ليكتب هناك القصائد الإباحية، والتي حوكم بسببها بتهمة الفحش. بيد أن كتابه رامبرانت مربيًا سيبقى واحدًا من اللبنات التأسيسية للمؤسسات الأيديولوجية للرايخ الثالث، حتى إن الكتاب كان موجودًا في مكتبة هتلر الشخصية(١٠).

في شباط عام ١٨٩٠، تحسن وضع نيتشه، فبعد ثورات اهتياجه وصعوبة السيطرة على انفعالاته أصبح خاملًا ومنصاعًا إلى الحد الذي سمح له أن يقضي بضع ساعات مع والدته في أيامه الجيدة. أقامت فرانشيسكا في شقة في ينا. كل صباح، كانت تُدعى لزيارة نيتشه في العيادة عند الساعة التاسعة صباحًا. كانت واثقة من أنها لو تكفلت وحدها برعاية ولدها الطيب العزيز فمن الممكن أن يسترجع عقله السليم. كانت شقتها تتضمن غرفة نوم ثانية في الطابق السفلي حيث كان كل من فرانز أوفربيك وبيتر غاست يتناوبان على شغلها وتقديم المساعدة للوالدة المفجوعة بولدها.

دائمًا ما كان المشي لأربع أو خمس ساعات في اليوم مهمًا لوضع وروتين نيتشه الصحي. في الواقع، كان المشي ذا مردود نافع على هيكله العظمي وقوته العضلية كما لاحظت كلتا العيادتين. لم تكن فرانشيسكا كثيرة المشي أبدًا، ولكن لو كان هذا ثمن شفاء ابنها فلن يكون باهظًا جدًا لدفعه. ستتمشى معه ممسكة بذراعه أو قد يتخلف عنها قليلًا في المشي ليتبعها، في بعض الأحيان يتوقف لرسم بعض الأشكال بعصاه على الأرض، أو لوضع أشياء داخل جيوبه، وفي حين أن والدته كانت فرحة برضوخه، ارتعب صديقاه من هذا الانصياع الطفولي. لطالما تخلل تلك النزه بعض الحوادث، كأن ينفجر نيتشه مفتعلًا جلبة أو يحاول ضرب الكلاب أو حتى الغرباء، وقد يحاول مصافحة أناس غرباء يستغربون تصرفه، وهذا ما كان يثير هلع النساء.

غالبًا ما كانا يتمشيان لغاية منزل عائلة تدعى غيلزر ثورنيزن. عند بلوغهم المنزل، كانت فرانشيسكا تطلب منه أن ينزع قبعته ويدخل المنزل. كان يبقى خجولًا عند عتبة باب صالة الصالون بينما تذهب هي لتجلس على البيانو وتبدأ بالعزف. عندما تنساب الموسيقى إلى أذنيه، يتقرب ببطء من مصدرها ليريح أصابعه بهدوءٍ على مفاتيح البيانو، ويبدأ مداعبتها. في البدء، كان يعزف واقفًا، لكن فرانشيسكا تدفعه للجلوس على مقعد البيانو ليستمر في العزف. كانت تعرف أن بإمكانها تركه هناك بأمان، تائهًا في فردوس الموسيقى، فتتركه ليختلي بنفسه، وطالما أنها تسمع موسيقاه فلا حاجةً لأن تكون معه في الغرفة لتشرف عليه.

في الرابع والعشرين من آذار ١٨٩٠، حصلت فرانشيسكا على الحق في رعاية ابنها. بقيا في شقة ينا لمدة ستة أسابيع، ولكنه في يوم من الأيام هرب منها إلى الشارع ثم خلع ملابسه، من المحتمل أنه كان ينوي الذهاب للسباحة، إلا أن شرطيًا رآه وأعاده إلى أمه. إرتعدت من فكرة أن يُعاد نيتشه إلى مصحة الأمراض العقلية، لذلك اقنعت شابًا من عائلة غيلزر ليساعدها في «تهريب» نيتشه إلى محطة القطار، ليستقلا قطارًا إلى ناومبورغ. هناك في ناومبورغ، استقبلت الخادمة الوفية ألوين **الأستاذ** بفرح، فقد عاد نيتشه إلى فنغارتن ١٨، منزل طفولته.

كان البيت الصغير ذو الطابقين يتلاءم بصورة مثالية لرعاية مريض لا يمكن السيطرة عليه، فالحديقة صغيرة ومسيَّجة وفيها باب، وكانت نوافذ الطابق الأرضي ذات مصاريع سميكة. يطل أحد جوانب البيت على حقل عنب ويواجه الآخر جدار كنيسة القديس جايكوب.

حافظت فرانشيسكا على تفاؤلها بنجاعة علاج المشي، وعادة ما كان نيتشه يتبعها بهدوء. فإذا ما رأت شخصًا غريبًا يقترب، تديره وتأخذه من ذراعه وتشتت انتباهه مشيرةً إلى منظر ما، وإذا ما زال الخطر، تُديره إلى وجهتهما التي يرغبان بالذهاب إليها. إذا قابلت أحد معارفها، تتوقف للتحدث معه وتأمر نيتشه بخلع قبعته، وبينما تتبادل المجاملات مع الآخر

يقف نيتشه بحسب الأصول ممسكًا قبعته بيده، وإذا ما بادر لمخاطبة أحدهم فسيكون كلامه غير مفهومٍ، عندما ينتهي اللقاء، تخبره بأن يعتمر قبعته ليستأنفا مسيرتهما.

افتخر عندما كان صبيًا بسباحته في نهر زاله «مثل حوت». لقد كانت السباحة نشاطًا ترفيهيًا مسليًا لطالما أدخل البهجة على قلبه. ظنت فرانشيسكا أن الذاكرة الجسدية قد تساعد على استعادة صحته ولكن بعد عدة محاولات تخلت عن الفكرة. فقد كان متحمسًا أكثر من اللازم إلى درجة أنه لا يمكن السيطرة عليه.

إذا كان يوم نيتشه «الطفل الحبيب» مزعجًا على غير المعتاد، فربما سيسهل احتواؤه داخل المنزل. لم يكن هناك الكثير من الجيران حتى ينزعجوا من صياحه وصراخه. وعندما يطلق أصواتًا عالية وصاخبة، فإن الوالدة تضع ببساطة شيئًا حلو المذاق في فمه، مثل قطعة صغيرة من الفاكهة. وخلال وقت مضغه وابتلاعه للفاكهة، يتشتت انتباهه فيخمد صوته العنيف إلى دمدمة مقبولة. كان يأكل بشراهة، قالت والدته بإنها لم تعطه الكلورال ولا العقاقير المسكنة. إذا كان هذا الأمر صحيحًا، فإنها نهاية نيتشه وعلامة على فنائه الذهني، بينما استعادت الأم السيطرة الكاملة على طفلها المحبوب والمطيع والعاجز عن التحكم ببوله وبرازه.

(٢١) مينوتور الكهف:

١. شين، أسطورة سفلس نيتشه، صفحة ٤٤.

٢. Verse of 'An der Brücke stand» ('I Stood on the Bridge»):

Meine seele ein Saitenspiel
Sang sich unsichtbar berührt
Heimlich ein Gondellied dazu
Zitternd vor bunter Seligkeit.
– Hörte jemand ihr zu

٣. «بيان الأم»، جزء من التقرير الصحي من العيادة، كانون الأول ١٨٨٩.

٤. كارل بيرنولي.

٥. إنساني مفرط في إنسانيته، ٤٠٨.

٦. اكتشف الدكتور ستوتز، مدير عيادة جامعة بازل في العشرينيات، أن هناك الكثير من الحالات التي شخّصت في السجل على أنها مصابة بالشلل التقدمي كانت في الواقع شيزوفرينيا.

٧. بناء على استذكار طالب الطب وقتها ساشا سمشوتز، ورد في كتاب «الأوروبي الخيّر» لكيرب وبيتس، صفحة ١٩٥.

٨. بوداخ، جنون نيتشه، صفحة ١٩٥.

٩. من لانغبن إلى كيلر، خريف ١٩٠٠، بعد معرفة لانغبن بموت نيتشه.

١٠. تيموثي ريباك، مكتبة هتلر الشخصية، الكتب التي شكلت حياته، فنتج، ٢٠١٠، ٢١٠-٢١١.

٢٢

وانطفأت شعلة ساكن الغرف المفروشة

يعتريني خوف رهيب من أن يرافق لفظ اسمي مفردة «المقدَّس» يومًا ما. لا أريد أن أكون قديسًا بقدر رغبتي في أن أكون مهرِّجًا.. ربما أنا مهرج.

هذا هو الإنسان، «لِمَ أنا قدر؟»

في باراغواي، تلقّت إليزابيث خبر انهيار شقيقها في وقت مبكر من عام ١٨٨٩، في ذات الوقت تمامًا الذي نشر فيه المستوطن الناقم كلينغبايل كتابه الذي يُدين فيه الزوجين المحتالين (فورستر وإليزابيث) ويشجب مستوطنتهما المزيفة[1]. لم تكن تفكر في العودة إلى ألمانيا، فقد كانت تقاتل وحدها من أجل قضية المستوطنة، وقد دحضت اتهامات كلينغبايل في مقالاتها التي نُشرت في صحيفة بايرويت.

أصبح زواجهما ساحة معركة، فقد قضى فورستر وقته في مطاردة أثر النقود من مكان إلى آخر، من سان بيدرو إلى سان برناردينو إلى أسونسيون، في محاولة منه لجمع القروض مقابل قروض سابقة، بمعدلات فائدة مرعبة، لدرء خطر الإفلاس الذي لا مفر منه، وبينما كان فورستر متورطًا بتفاصيل مواردهم المالية إلى أبعد حد، بقيت هي في جرمانيا الجديدة يملؤها

الامتعاض من عدم أهلية زوجها، في الحين الذي كانت تستهلك فيه قدراتها الكبيرة على تجنيد المزيد من المستوطنين من ألمانيا. كان يجب أن يتم شغر الحصة المقررة من المستوطنة التي حصلوا عليها بالاتفاق مع الحكومة الباراغوانية بحلول آب ذلك العام، وإن لم يفعلوا فسيخسرونها.

عند تلقيها خبر انهيار نيتشه، رثت لحالها أكثر من رثائها لحاله. بلى، لقد أهملت مهمتها من أجل شقيقها، ذلك الحمل المسكين! كانت تفكر في أنه سيكون في حالة أفضل لو أنها بقيت في ألمانيا، لكنها تود أن تخبر والدتها، من دون تباهٍ، أن عملية تأسيس المستوطنة برمتها ستكون مسألة مشكوكًا فيها وواهنة من دون وجودها. لقد كانت زوجة ممتازة، بينما كان برنارد متبجحًا فظيعًا، يلقي كل العمل على عاتقها من دون أن يظهر أي تعاطف مع شقائها[٢].

تمكنت اتهامات كلينغبايل من السيطرة على ذهن فورستر، فقد كان يتجول يوميًا على حافة الهاوية المالية، مكثرًا من احتساء الخمر. وأخيرًا، في الثالث من حزيران، تخلى فورستر عن الكفاح ليقتل نفسه في غرفة فندق في سان برناردينو، مبتلعًا مزيجًا من الاستركنين والمورفين.

كانت الصحف قد نقلت في ذلك الحين خبر وفاته على أنه انتحار نتيجة لتسممه بالاستركنين عندما وصلت إليزابيث إلى سان برناردينو. كان هدفها الأهم هو إنكار الانتحار، ولم يكن لديها أي فكرة عن أن فورستر قد بعث بخطاب يرقى إلى أن يكون رسالة انتحار إلى ماكس شوبرت، مدير جمعية شيمنيتز الاستيطانية، «... هذا طلبي الأخير: أرجوك واظب على أن تضع مواهبك القديرة وقوتك وحماستك الشبابية في خدمة المشروع القيّم الذي بدأته، فربما سيزدهر أكثر من دون تواجدي»[٣].

تمامًا كما لفقت إليزابيث قصة عن موت والدها، حيث قالت أنه قد لقي حتفه أثر موقفه البطولي في إخماد حريق اندلع في القرية، سخّرت الآن قواها الكبيرة في إقناع الطبيب المحلي لتغيير سبب الوفاة من الانتحار إلى السكتة القلبية، نتيجة الاتهامات المزيفة التي وجهت ضده ومكائد أعدائه.

خلال الشهر راسلت والدتها أنه من المؤسف أنها لم تكن مع زوجها الحبيب في ذلك الوقت، وإلا «كان بإمكاني أن أمنع حدوث السكتة القلبية التي أصابته باستخدام الكمادات وغسل القدمين كما اعتدنا أن نفعل»[٤]. من الصعب تصور أنه حتى إليزابيث صدّقت أن بإمكان المرء تجنب نوبة قلبية بوسائل مثل هذه.

بسرعة شديدة، بنت أسطورة لتفسير جنون شقيقها، مدعية أن جلطة دماغية قد أصابته بسبب عقار جاوي لا اسم له وغامض. تقول:

«في عام ١٨٨٤ على ما أذكر، تعرف [نيتشه] على هولندي أوصاه بمخدر جاوي المسكن، وقدم له زجاجة كبيرة إلى حد ما من هذه المادة المعينة. كان مذاق المادة المسكنة يشبه مذاق الكحول الحاد إلى حد ما وكانت المادة ذات رائحة غريبة واسم غريب أيضًا، لم يعد يمكنني تذكره لأننا دائمًا ما كنا نطلق عليه «المخدر الجاوي». ألزمنا الهولندي بحقيقة أنه يجب سكب بضعة قطرات وحسب مرة واحدة في قدح من الماء... فيما بعد، في خريف ١٨٨٥، اعترف [نيتشه] أنه قد سكب في إحدى المرات بضع قطرات أكثر من اللازم، ونتيجة لذلك سقط فجأة على الأرض في نوبة من الضحك الهستيري.. في إحدى رسائله إلى غاست تحدث عن «تكشيراته»، النابعة من ضحكه الزائف بلا شك، والناجم بدوره عن تعاطيه المخدر الجاوي. وأخيرًا، أعطى شقيقي تلميحًا يدعم هذه الفرضية، فخلال الأيام الأولى من جنونه، اعتاد على أن يقول لوالدتنا أنه «أخذ أكثر من عشرين قطرة» (ولم يذكر من ماذا) ولهذا خرج دماغه فيما بعد «عن مساره». ربما سكب من القطرات أكثر من اللازم بسبب قصر نظره، وهذا ما قد يفسر إصابته بالجلطة الدماغية المروعة»[٥].

سددت إليزابيث الفاتورة الأخيرة لزوجها في فندق سان برناردينو بصك يتضمن أرضًا لم تكن تمتلكها، وبدأت بتنظيم جنازة من شأنها أن تنصف المحارب البطل في طريقه إلى الفالهالا. تستذكر إليزابيث في رسالتها، التي بعثتها لوالدتها، والتي تصف فيها مراسم دفن فورستر، الصورة التي

وصفتها في رسالتها الأولى لدخولها المبتهج بالنصر إلى المستوطنة «تبع نعشه ستون من الفرسان وأطلقوا النار تكريمًا له فوق قبره»[٦]، أما خبر انتحاره فهو خبرٌ كاذبٌ نقلته الصحافة اليهودية.

بقيت إليزابيث في باراغواي، تحاول جاهدة جمع الأموال للحفاظ على سيطرتها على المستوطنة حتى النهاية. في آب ١٨٩٠، خسرت المعركة. ذهبت عائدية المستوطنة إلى «جمعية جرمانيا الجديدة الاستيطانية في باراغواي». في تشرين الأول عادت إلى ناومبورغ لحشد الدعم لكي تسترد سيطرتها على المستوطنة، بيد أن فرانشيسكا اعتقدت أن ابنتها قد عادت من أجل الاعتناء بشقيقها.

وصلت إليزابيث قبيل عيد الميلاد. جلبت والدتها شقيقها للقائها في المحطة، كانت فرانشيسكا تقود نيتشه من ذراعه مثل طفل. مشى متصلبًا مثل جندي بروسي في استعراض عسكري، ممسكًا بحفنة من الورود الحمراء، كان على فرانشيسكا أن تذكره بإعطائها لإليزابيث. عندما أعطاها الورود، تذكر من تكون فدعاها «اللاما». في تلك الليلة، بعد وضعه في الفراش، جلست الأم وابنتها للتحدث معًا. صُدمت إليزابيث لسماعها عواءً حيوانيًا عاليًا قادمًا من غرفة نيتشه في الأعلى.

بقيت إليزابيث في منزل العائلة، وكتبت رسائل لا حصر لها، وقدمت التماسات إلى الجمعيات الاستعمارية والمسؤولين الحكوميين ووبخت المنظمات المعادية للسامية بسبب افتقارها إلى الدعم. بحلول ذلك الوقت، غيّرت الاسم الذي استخدمته للتوقيع على مقالاتها من «إيلي فورستر» إلى «السيدة الدكتورة فورستر». نشرت كتابها الأول «مستوطنة جرمانيا الجديدة لمؤسسها دكتور برنهارد فورستر في الباراغواي»[٧]. يدحض الكتاب اتهامات كلينغبايل، وتطلب فيه نصرة رفقائها من أبناء وطنها للأرملة الضعيفة مكسورة القلب عن طريق تأسيس شركة لإعادة شراء الأسهم من الأجنبي الكريه. عندما نُشر الكتاب في آواخر خريف ١٨٩١، كان المستوطنون الحاليون في جرمانيا الجديدة ساخطين عليها خاصة وأنها كررت ادعاءات زوجها الأولى المعروفة بزيفها فيما يخص الخصوبة اللامعقولة للتربة وغزارة المياه النظيفة الإعجازية.

خلال الأشهر الستة التي استغرقتها إليزابيث في كتابة كتابها، بدأ السؤال عن كتب شقيقها غير المنشورة، آخر أعماله كان قد كُتب على عجالة في تورينو. مع أواخر آذار، كان الكتاب الرابع من زرادشت مكتوبًا ومطبوعًا وجاهزًا ليعرض في المكتبات على يد الناشر ناومان. أُرسلت نسخة من الكتاب إلى فرانشيسكا، التي تولت وشقيقها إدموند أوهلر، وهو كاهن غير معروف، الوصاية القانونية على نيتشه، ولكنها لم تمتلك أي معرفة بالأدب، فتركت الأمر لغاست وأوفربيك لإدارة شؤون النشر على أساس غير رسمي.

اقتنع كل من غاست وأوفربيك بأهمية المخطوطات غير المنشورة، وشجعوا ناومان على طباعتها، لكن عندما أُرسلت نسخة من كتاب زرادشت الرابع أصيبت فرانشيسكا وإليزابيث بالصدمة والذعر من المقتطفات التجديفية الواضحة التي يتضمنها الكتاب. أرعبت إليزابيث والدتها بعد أن أخبرتها أنها ستفتح باب التهم الجنائية على نفسها إذا ما نشر الكتاب، فرفض كل من إليزابيث وأوهلر إعطاء الإذن بنشر الكتاب. تسبب رفضهما بإثارة غضب ناومان، فقد كانت هناك روحٌ جديدة خارج البلاد، وطليعة جديدة مهتمة بشدة بكتابات نيتشه كانت تنشط حينها.

عام ١٨٨٨، توفِّي أخيرًا القيصر فيلهلم الأول عن عمر يناهز التسعين. قبل سبعة عشر عامًا، كان قد قبل تسلم التاج الألماني وتوج في قاعة المرايا في فرساي، مما أثار قلق نيتشه الشديد وخوفه من عدم توازن القوى في أوروبا. خلال تلك الأعوام السبعة عشر، صاغ القيصر ومستشاره الحديدي بسمارك قوس الرايخ الثاني المحافظ والقمعي على أسس التصنيع والرأسمالية والتجرد من المبادئ والنزعة التوسعية والكنيسة البروتستانتية والمحافظة الفنية والرقابة. تخثرت كل هذه المبادئ في عروق قوة عالمية هائلة محتقنة ومتصلبة وقومية وقمعية واستبدادية كما خشي نيتشه، ومع أن حواف عقل نيتشه كانت متآكلة، إلا أنه لم يتخل عن فزعه من الرايخ الثاني. كانت هذياناته الأخيرة في تورينو المتسمة بجنون العظمة مسكونة بقواه المتخيلة في أن يجمع القيصر وبسمارك وكل المعادين للسامية ويطلق عليهم النار.

كان من المفترض أن يكون العقد الأخير من القرن عقدًا يعمه التفاؤل، عصر التجديد الفني، كما كان الحال في فرنسا، لكن فجر الإمبراطور الجديد فيلهلم الثاني أخفق في إضاءة الأفق الألماني، وحتى ضباط جيشه، الذين تبعوه عام ١٩١٤ إلى الحرب العالمية الأولى، كانوا يصفون القيصر الجديد سرًا على أنه «متقلب جدًا تتغير مواقفه بسهولة وخاصة بما يتعلق بالأشياء الصغيرة، ويصدر الكثير من الملاحظات المتعجلة... لا يبدو أنه يعرف ما يريد، وهناك شائعات تدور حول اضطرابه النفسي»[٨].

كان عدم اليقين السياسي المتناغم مع القيم الروحية سريعة الاهتياج تتماشى مع نهاية القرن التي تلوح في الأفق. سأل الكونت هاري كيسلر، الطالب في جامعة لايبزيغ في ذلك الوقت، أين محطم المعتقدات الثوري؟ «إيمانٌ سريٌ بقيام المخلص نما في داخلنا. كانت الصحراء التي يحتاجها كل مخلص موجودة في أفئدتنا، وعلى حين غرة يخطف فوق هذه الصحراء نيتشه، مثل شهاب»[٩]. وللطالب كيسلر، كشف العسكريون القدامى عن خيبة أملهم المتمثلة في عدم ثقتهم بالصفات الذهنية للقيصر الجديد وطباعه.

تنقّل هاري كيسلر بين أعلى الدوائر الاجتماعية والسياسية والعسكرية في جميع أنحاء أوروبا. ينحدر كيسلر من عائلة غنية، وكانت والدته جميلة للغاية. زُعم على نحو واسع أن والده كان القيصر فيلهلم الأول، وهذا افتراض غير دقيق (لأنه لا يطابق التوقيت) ولم يسبب له هذا الادعاء أي أذى على الصعيد النفسي. عامله كل من بسمارك والقيصر على أنه أمل الشبيبة المُختار. سيصبح هاري كيسلر عميلًا سريًا في الحرب العالمية الأولى وسفير ألمانيا في وارسو عام ١٩١٨ وناشطًا فنيًا وراعيًا فنيًا ومنسقَ متاحف، وسيُصاحب نغينسكاي في سيارة أجرة في الليلة الأولى من افتتاح «طقوس الربيع»(*)، وهو من سيغلق عيني نيتشه عندما فتُحتا مرة أخرى في تابوته.

(*) فاسلاف نغينسكاي: (١٨٨٩-١٩٥٠) راقص باليه ومنظم حركات رقص روسي. (المترجم).. «طقوس الربيع»: عمل أوركسترالي راقص من تأليف إيغور سترافينسكي عام ١٩١٣، يحكي قصة مبتكرة حول عشق الأرض والتضحية في سبيل قدوم الربيع. (المترجم)

كان كيسلر كوزموبوليتانيًا متكاملًا. لو أن نيتشه كان قادرًا على الإدراك لوافق على أن يكون هاري الوصي المؤسس لأرشيفه.

كان كيسلر شابًا ممشوقًا وأنيقًا كأنه كلب صيد، يجيد الحديث بعدة لغات وواسع المعرفة والاطلاع وعنده روابط جيدة مع جهات عليا لكنه لم يكن يومًا إقطاعيًا كبيرًا. في عام ١٨٩١، الطالب كيسلر ذو الثلاثة والعشرين ربيعًا استشم الهواء ليكتشف المستقبل النيتشوي. طوال الأربعين عامًا التالية، إشتغل على الترويج للرؤية النيتشوية الجديدة عبر المسارح ودور النشر واستوديوات الفنانين وغرف الرسم الخاصة بالدوقات في أوروبا حتى عام ١٩٣٣، عندما فرَّ بعدها من ألمانيا حينما تولى النازيون زمام السلطة، ليأخذ التاريخ منحىً آخر.

لكونه طالبًا جامعيًا في نهاية عقد الثمانينيات وبداية التسعينيات من القرن التاسع عشر، كان هاري كيسلر فردًا من «جيل راسكولنيكوف»: أولئك الذي تركت رواية دويستوفسكي «الجريمة والعقاب» أثرًا عميقًا في أنفسهم. قدم كيسلر شهادته في محاكمة زميل له من الطبقة الراقية، والذي قتل حبيبته من الطبقة العاملة، ثم فشل في قتل نفسه لأنه لم يصوب سلاحه إلى صدره بطريقة محكمة[١٠]. لقد كان عملًا عدميًا تم استلهامه من رواية دويستوفسكي التي تركت دمغة هائلة على جيل اليأس الأول بعد المسيحية. حدثت موجة من الجرائم المماثلة بين صفوف الطلبة ارتبطت بما يعرف بـ«الغثيان العظيم»، إرادة العدم، التي أصبحت تُعرف بـ«التأثير الراسكولنيكوفي» على أثر بطل رواية دويستوفسكي الذي لا يتحلّى بصفات البطولة التقليدية[١١].

مع هذا المزاج العدمي المصاحب لنهاية القرن الذي يصدر عن التشاؤمية الشوبنهاورية واليأس الأخلاقي والتساؤل حول إذا ما كان أي شيء يستحق النضال من أجله؟ يصف كيسلر أنه وجد في نيتشه تأثيرًا عميقًا وواسعًا كالذي تركه بايرون على الجيل السابق.

لأنهم كانوا أرواحًا غارقة في سفينة محطمة تبحث عن النجاة بين عذابات الشكوكية والتوق إلى الطمأنينة، تعلّق الجيل بإزاحة نيتشه للمعنى من موقعه الوهمي خارج الحياة، ليعيد المعنى إلى داخل الحياة نفسها. لقد بجلوا نيتشه بوصفه روحًا حرة حقًا وصوتًا منفردًا يمجد الفردانية، ويقدم بديلًا لفقدان الإيمان والاعتداء الصريح للعلم على الغرور المتجسد للأنا البشرية. لقد عَرّفَهم نيتشه بإمكانية الحصول على معنًى شخصي كليًا بدلًا من أن يكون «قطعة منزلية جامدة يمكن للمرء أن يزيحها جانبًا أو أن يلتقطها إذا ما رغب بذلك»، كما يقول يوهان فيشت. إذا مات الإيمان، فإن الفلسفة تبقى جديرة بالاهتمام في قدرتها على تعديل الروح الخاصة بالفرد الذي يتبناها ويكيّفها.

كان الكتاب الأكثر تأثيرًا في كيسلر هو «**ما وراء الخير والشر**»، بروحه الارغونية التي تبحر في البحار المجهولة بحثًا عن سبيل جديدٍ لتفسير العالم، وقيم أخلاقية جديدة تتناسب مع الظروف الحديثة. اقتُل الإله، بلى، لا ضير في ذلك، لكن نصّب الإنسان الأعلى في مكانه. إن الإنسان الأعلى ناتج عن الصراع الميتافيزيقي الشخصي عبر إرادة القوة الموجودة في كل شخص وكل شيء، رغم أن الصراع لا يمثل بالضرورة صراعًا ضد الآخرين بل ضد المشاعر الحقيرة في داخل المرء، مثل الحسد والضغينة.

كان الإنسان الأعلى، بدلًا عن إرادة القوة، هو من جعل «**هكذا تكلّم زرادشت**» نصًا دينيًا مع نهاية القرن. لقد كان زرادشت كتابًا رائدًا للطليعة في ذلك الوقت، فقد عبَّد طريقًا للنجاة من الطرق المسدودة والانحطاط، وقد قدس الكتاب الأرض دون الحاجة إلى مسوغ من خلال الجنة والنار. لقد عرض نيتشه في كتابه رقصة مرحة للآلهة الهيلينية قبالة الخضوع للكنيسة، الخضوع الذي تسبب في انحطاط وتصغير الإنسان المسيحي الأوروبي إلى حيوان قطيع مثالي. لقد مد مفهومه، Amor fàti «أحب مصيرك»، الحبل فوق الهاوية العدمية وفوق قرون من الحسد والضغينة التي انحدرت بالفرد إلى مرحلة الإنسان الأدنى Untermensch.

كتب هاري كيسلر «يتوجب علينا أن لا نسعى خلف رفيق الشفقة بل خلف رفيق المرح، إنه السمو الأعظم من السعادة التي يمكن بلوغها، ومن ثم قوة الحياة التي يمكن أن نحظى بها في العالم... إن الفكر أساسًا هو جوهر فلسفة نيتشه»[١٢] بعد ثلاث سنوات من مغادرته للجامعة، شعر كيسلر بأنه قادر على الكتابة، «لا أعتقد أن هناك شابًا على قدر جيد من التعليم ويتراوح عمره بين العشرين والثلاثين عامًا في ألمانيا لا يدين لنيتشه بجزء من نظرته للعالم، أو أن لا يكون متأثرًا به على نحو عميق أو سطحي»[١٣].

عاقدًا العزم على الاستفادة من هذه الفرصة المناسبة المتمثلة بالانتباه لنيتشه واستثمارها في بيع كتبه، أصدر نومان عام ١٨٩١ طبعة ثانية من **«ما وراء الخير والشر»** و**«قضية فاغنر»** و**«في جينيالوجيا الأخلاق»**، إلا أن إليزابيث لجأت إلى القانون للتعامل مع ناومان. كانت لا تزال في ناومبورغ، تساعد والدتها في الاعتناء بنيتشه في المنزل، وأرجأت عودتها إلى الباراغواي حتى وافق ناومان على إبرام عقد مرضٍ ينص على أن يدفع لها ٣٥٠٠ مارك لنشر أعمال نيتشه المتبقية، وإدراكًا منها أن بيتر غاست هو الشخص الوحيد القادر فعليًا على قراءة وفهم المخطوطات التي كان من المفترض تحويلها إلى كتب، عينته إليزابيث محررًا واتخذت الترتيبات الأولية لنشر طبعةٍ رخيصة من الأعمال المختارة قبل مغادرتها إلى باراغواي في تموز ١٨٩٢ لتسوية شؤونها.

لقد أثارت عودتها إلى المستوطنة سخط المستوطنين، إلى جانب الادعاءات الشائنة التي عرضتها في كتابها الجديد، لدرجة أنهم راسلوا ماكس شوبرت، مدير جمعية شيمنيتز الاستيطانية والرجل الذي كتب له فورستر ما كان بمثابة رسالة انتحار عشية وفاته. أعلم المستوطنون شوبرت بلهجة شديدة أن عودة إليزابيث إلى الوطن الأم لم تساعدها في التخلص من جنون العظمة. على العكس من ذلك، وجدوا إنها أكثر غرورًا واستبدادًا من أي وقت مضى.

خيمت الأزمة فوق جرمانيا الجديدة. بقيت إليزابيث في ضيعة فورستر بصحبة طباخيها وخدمها، تتبادل الرسائل اللاذعة مع المستوطنين

من خلال جهات ثلاث وأعمدة صحافية حتى حلول نيسان التالي، حينما نجحت في بيع القصر إلى البارون فون فراكنبيرغ لوتوز. وهكذا، تمكنت من استرداد بعض نقود مهرها التي غرقت في مستنقع المشروع الباراغواياني. لقد تم استرداد الأموال، هذا ما أرسلته ببرقيةٍ موجزة إلى فرانشيسكا والتي أرسلت لها برقية بدورها تخبرها أنها بأشد الحاجة إليها في المنزل للاعتناء بشقيقها العليل.

نشرت صحيفة كولونيال نيوز ما كان بمثابة إشعار بالطرد: «إن الشرط الأول لأي تحسن فعلي يخص شؤون جرمانيا الجديدة هو إزاحة السيدة الدكتورة فورستر». وبحلول الوقت الذي نشرت في الصحيفة، وبفضل برقية والدتها، كانت إليزابيث قد غادرت المستوطنة مسبقًا لإنجاز مأموريتها الأخوية الرحيمة.

في أيلول ١٨٩٣، عادت من باراغواي إلى ناومبورغ، وغيرت اسمها من الدكتورة إليزابيث فورستر إلى إليزابيث فورستر- نيتشه.

كان هذا العام ذا أهمية بالغة، اشتعلت خلاله أعمال نيتشه مثل النار في الهشيم بين صفوف الطليعة الفنية في برلين وباريس لتحدث تأثيرًا واسعًا تجلى عبر الرسم وكتابة المسرحيات والشعر والموسيقى. كان الاسكندنافيون هم من أضرم نار نيتشه في أوروبا؛ فقد أشعل الناقد الأدبي الدنماركي جورج براندز الشرارة بمحاضراته التحذيرية للعالم، مُعرّفًا كاتب المسرحيات السويدي أوغست ستريندبرغ بنيتشه عام ١٨٨٨، وكنتيجة مباشرة، وقبل أن ينقضي العام، كتب ستريندبرغ مسرحية «الآنسة جولي»، والتي حلت محل مسرحية هنريك آبسن «أشباح» بوصفها المسرحية الأكثر حظرًا في أوروبا والولايات المتحدة الامريكية، حيث حكمت الرقابة على المسرحية أن تُعرض فقط على خشبة مسرح تجريبي ومسارح النوادي الخاصة. بينما كانت «أشباح» آبسن تطرح موضوع مرض السفلس على خشبة المسرح، فإن «الآنسة جولي» كانت أكثر إزعاجًا إلى أبعد حد، تدور حول قصة فتاة أرستقراطية وخادمة والدها. لم تطرح «الآنسة جولي» أي أزمة جسدية،

كالإصابة بالسفلس، بل مواضيع درامية- سايكولوجية نيتشوية، حيث تقتفي، بطريقة جدلية، أثر نطاق مجالات قوة الخضوع والسيطرة التي تثيرها الضغينة المتبادلة وإرادة القوة بين الإنسان الأعلى Übermensch والإنسان الأدنى Untermensch، والتي يحفزها الدافع الديونيسيوسي الجنسي.

في الفترة المحصورة بين عامي ١٨٩٢ و١٨٩٣، كان ستريندبرغ يعيش في برلين ويعمل على تعريف اسم نيتشه بين افراد دائرة بوهيمية كوزموبوليتانية صاخبة عُرفت بـ Zum Schwarzen Ferkel أي «الخنزير الأسود الصغير»، تيمنًا باسم حانة شراب كانت المفضلة لديهم. كان الفنان النرويجي إدوارد مونش عضوًا في الدائرة، وقد عَرّفهُ ستريندبرغ على كتابات نيتشه تاركًا تأثيرًا عميقًا في داخله، لدرجة أن مونش رسم لوحة «الصرخة». لقد قبضت «الصرخة» على روح العصر كما لم يفعل أيُّ شي آخر: لقد أنتج مونش أيقونة الذعر الوجودي في تأمل عواقب موت الإله، والمسؤولية اللاحقة التي ألقيت على كاهل الإنسان في إيجاد مغزى ومعنى للحياة. استنسخت اللوحة سريعًا عبر طبعها واكتسحت صالات العرض والمجلات في ألمانيا وباريس.

كانت لو سالومي الشخص الرابع الذي ساهم في زيادة شهرة نيتشه، ففي عام ١٨٨٩، افتتح أوتو براهم مسرحه التجريبي، المسرح الحر، في برلين، وأسس بعدها بسنة صحيفته (المسرح الحر للحياة المعاصرة)(١٤) كانت لو سالومي، والتي أصبحت الآن مشهورة، تسكن بجوار براهم، وقد كتبت مقالات غزيرة عن نيتشه كانت غالبًا ما تظهر أولًا في صحيفته. وسّعت مقالاتها الاهتمام بكتابات نيتشه، وفي عام ١٨٩٤ نشرت واحدة من أولى دراساتها الرئيسية عن حياته وأعماله، (Friedrich Nietzsche in seinen Werken فريدريك نيتشه في أعماله).

كان للشكل الذي اتبعه نيتشه في كتاباته تأثيرٌ كبيرٌ وفوري على فنون التسعينيات من القرن التاسع عشر، فالشكل الأدبي الذي فُرض على نيتشه بسبب مرضه المزمن ووضعه الصحي -المتمثل بعباراته القصيرة وشذراته

التي غالبًا ما كانت انفجارات ذهنية غير متسلسلة والتي تبدو للوهلة الأولى أنها غير منظمة وغير مكتملة- أصبح هو الشكل الذي تبناه الفنانون كوسيلة مباشرة وعصرية للتواصل. اشتهرت مسرحيات ستريندبرغ بنبذها لوحدات الزمن والمكان والحركة الكلاسيكية، ولأن نصوصه المسرحية تبدو غامضة على الورق لأنها لا تتبع تقدمًا منطقيًا، ولكنها تبدو مهيجة للعاطفة عند أدائها على المسرح لنفس السبب. لم ينظف مونش أعماله من قطرات وبقع الأصباغ التي كان يرسم ويلون بها لنفس السبب، فقد كان يترك مناطق كاملة من قماش اللوحة عارية وغير ملونة. كانت المساحة العارية معادلًا صوريًا للتأثر القوي الذي تخلفه الشذرة بأسلوبها الخاطف وبخاصيتها الإيحائية، الذي استغله نيتشه لأول مرة في سورينتو، وعلى هذا الشكل الأدبي أسس نيتشه استراتيجية «فيلسوف الريبة» القوية والحديثة بصورة ملحوظة، وهو موضع منحه القوة لإنهاء شذرته أو تسلسل افكاره أو حتى كتاب كامل يكتبه بطريقة مُقطَّعة، ملقيًا على كاهل القارئ عبء مسؤولية الاستنتاج، وفي الوقت نفسه، يعترف بأن الحقيقة الموضوعية مجرد وهم ولا يمكن تصورها حتى، وأن السعي خلفها مجرد وهمٍ لا أكثر.

في ١٨٩٣، وصلت إليزابيث إلى ناومبورغ لتصغي عن كثب إلى صخب الاهتمام العالمي غير العادي بأعمال شقيقها.

كانت مهمتها الأولى هي ترتيب كمية كبيرة من أوراق نيتشه، فقد حافظت فرانشيسكا بأمانة على رسائل وكتابات ابنها من دون التلاعب بها، إضافةً إلى كل الكتابات التي نظمها أوفربيك بشكل دقيق للغاية ليسلمها إلى فرانشيسكا عندما أعاد نيتشه من تورينو. لقد نما أرشيف الوالدة العاطفي والقديم إلى أكوام من الأوراق التي كانت جزءًا من أمتعة نيتشه لسنوات أينما حل وارتحل، مكونًة من: دفاتر وملاحظات مستفيضة ومسودات ممسوحة غير منظمة ورسائل مستلمة ومسودات رسائل مرسلة ومسودات رسائل لم ترسل أبدًا.

هدمت إليزابيث حائطًا يقع في الطابق الأرضي لمنزل والدتها لتوسعة المكان، وزينت الغرفة الموسعة بنقوش حيوانات زرادشت: الأفعى والأسد

والنسر، وكان النسر يشبه نسر الإمبراطورية الألمانية. أطلقت على الغرفة اسم أرشيف نيتشه، وبدأت تشمّر عن ساعديها لبناء أسطورة جديدة، حتى إن مغالاتها في تصوير فورستر بهيئة نبي للرجولة البطولية كانت مجرد بروفة مقتضبة بالمقارنة مع ما ستفعله.

كتبت إلى كل من راسلوا نيتشه تطالبهم بإرسال كل رسائله ونصوصه المكتوبة الأخرى، محذرةً إياهم بأن حقوق النشر تعود إلى أرشيف نيتشه. امتثل الجميع لأوامرها إلا كوزيما فاغنر وفرانز أوفربيك. كانت لدى كوزيما فكرةً جيدةً عن مواهب وميول إليزابيث، وكانت تعرف أن قصة إليزابيث عن حقيقة العلاقة التي جمعت نيتشه بفاغنر لن تكون على قدرٍ من المصداقية كما قصتها، وعليه، لم يحصل أرشيفُ نيتشه على أي إمداداتٍ منها. فسرت إليزابيث موقف كوزيما على أنه انتقام أنثوي وتنافس أرشيفي، وهذا صحيح، فكوزيما كانت تعمل على بناء أرشيف فاغنري ناجح للغاية في بايرويت.

أما فيما يخص رفض أوفربيك بتسليمه الأوراق التي بحوزته فيعود إلى أنه لا يمتلك أي سبب يدعوه للتعاون، ولأنه كان يستلم رسائل نيتشه منذ زمنٍ طويل، فإنه يعرف ثقل القيود العائلية السقيمة على نيتشه، إضافة إلى كراهيته واحتقاره لشقيقته. لقد عمّق رفض أوفربيك من حقد إليزابيث الذي نشأ منذ حين ضده، والذي بدأ من تخاذله عن نصرتها في قضية لو سالومي، وتفاقم هذا الحقد عندما نصح نيتشه بعدم الاستثمار في جرمانيا الجديدة. لقد أصبح أوفربيك عدوها اللدود وأنه «يهوديٌ على الأرجح». ألقت إليزابيث اللوم عليه وعلى فرانشيسكا في التسبب بوضع نيتشه الحالي. لم يكن لدى إليزابيث سوى الانتقادات للطريقة التي اتبعاها عندما سقط نيتشه مريضًا أول مرة، فكان يجدر بهما أن يأخذاه إلى المستشفى بدلًا من المصحة، كما أن طبيب الأسنان الذي جلبه أوفربيك لمرافقة نيتشه في محطة القطار من تورينو إلى بازل كان يهوديًا ومحتالًا (وقد كان نصف يهودي فعلًا). تراسلت إليزابيث مع يوليوس لانغبن ووقفت إلى جانبه ضد والدتها. كان

ينبغي بأوفربيك وفرانشيسكا دفع تكاليف نيتشه ليكون مريضًا من الدرجة الأولى، ولكان اختلف وضعه تمامًا.

كان بيتر غاست ذا معرفة قديمة وشاملة بماضي نيتشه. بحماقة، تعهد لإليزابيث أن يكتب سيرة حياة نيتشه، لكنها أخبرته بصراحة أن لا أحد مؤهل لإنجاز هذه المهمة سواها، وطردته من موقعه كمحرر لأرشيف نيتشه لتعين مكانه فريتز كوغل[١٥]، الفيلولوجي والموسيقي الذي كان يصغرها بأربعة عشر عامًا، والذي قضت معه أمسية حافلة بالمغازلات.

كان كوغل وسيمًا وساحرًا وذا إغواء رومانسي في الصالونات الأدبية بتسريحة شعر غير مرتبة جامحة. لم يكن قادرًا على قراءة خط يد نيتشه، لكنه غض الطرف عن هذه الحقيقة. على مدار العامين الأولين، أصبحت غرفة الأرشيف صالونًا أدبيًا بكل المقاييس حيث استقبلت فيه إليزابيث الضيوف، بينما كان رئيس التحرير كوغل يتملقها ويتغزل بها ويغني بطريقة مبهجة على البيانو لتسلية الضيوف. فوق البيانو علقت ثلاث صور: صورة لنيتشه وفارس فان دايك ومنحوتة دورر الفارس والموت والشيطان. في ذلك الوقت، ومن حين لآخر، كان الحيوان النيتشوي يزأر من الطابق العلوي ليعكر صفو أجواء الكياسة المهذبة في الأسفل.

مع تفشي الشلل التقدمي في دماغه وجسده، أصبحت نوبات هيجانه عنيفة للغاية ويصعب التنبؤ بحدوثها بالنسبة لفرانشيسكا حتى تتابع برنامجه العلاجي من خلال المشي في الهواء الطلق. نيتشه الذي أحب التجول على الجبال العالية، كان حبيس غرفتين في الطابق الثاني من المنزل وشرفة صغيرة مسيجة. غالبًا ما كانت فرانشيسكا أو إليزابيث تقودانه خلال المسافة الصغيرة التي تفصل غرفته عن الشرفة؛ فلطالما اقتيد إلى الشرفة لأنه لم يستطع العثور عليها بمفرده. كان هذا التمرين اليومي أشبه بتمرين حيوان محبوس في قفص، فكان يُراوح إلى الخلف وإلى الأمام على طول المسافة إلى الشرفة، التي كانت عن قصد مكسوة بالنباتات حتى لا يراه أحد من العالم الخارجي. فقد كانت فرانشيسكا فزعة من إمكانية أن تكتشف السلطات ابنها العزيز المجنون وتنتزعه من حضنها.

كان ينام معظم الصباح، وعندما يدخلونه إلى الحمام ليغتسل ويلبسونه ثيابه يفضّل أن يقضي بقية اليوم في الغرفة الأخرى، يجلس هناك لساعاتٍ يخيم عليه هدوء رخيم. يلعب في بعض الأحيان بالدمى وألعاب أخرى، وكانت والدته تقرأ له بصوت عالٍ قدر ما يقوى صوتها، ولم يكن يفهم الكلمات لكنه أحب الاصغاء لوقع صدى تلك الكلمات في أذنيه. لم يحب الزوار، وكان يعترض بعنف على زيارة الحلاق الذي يأتي لحلاقة لحيته وشاربه الكثيفين، وحتى على زيارة المدلك الذي يأتي لتحريك الدورة الدموية في عضلاته الضامرة. على الرغم من أنهما كانا زائرين منتظمين إلا أنه كان مقتنعًا من أنهم قد أتوا لإيذائه. ولإتمام الأمر، كانت فرانشيسكا تعتني به وتطمئنه وتضع في فمه فتات طعام حلو المذاق، وفي بعض الأحيان كانت تنشد له بعض أغاني الأطفال، وأحيانًا ما كان يتذكر اجزاء غريبة من هذه الأناشيد وينخرط بغنائها معها. تخاف فرانشيسكا ومدبرة منزلها المخلصة إلوين عندما يصبح عنيفًا ويصرخ بصوت عالٍ، ولكن خوفهما يزول ما إن تواجها الكرب المتمثل بنضالهما الجسدي في السيطرة عليه.

كانت فرانشيسكا تدون بشكل دوري «أقوال ابني الطيب العليل». في عام ١٨٩١، كان لا يزال يتذكر البستان القريب من بيت طفولته في روكن، وبإمكانه تسمية الأنواع المختلفة لأشجار الفاكهة، كما تذكر المكتبة هناك، الكائنة في نهاية الرواق وانفجار البارود الذي حدث مرةً وفجر جميع النوافذ. باستذكاره هذه الصور من الطفولة، يضحك كثيرًا، وبعدها يقول بطريقة جدية «حسنًا ليزا الصغيرة، فتاكِ الذي يسبح، محبوبكِ، لقد أُنقذ. إنه عندي في جيب سروالي»، لكن بعد هذا، يُظهر سجل فرانشيسكا المتقطع أن خيط ذاكرة نيتشه الهزيل قد تآكل وانحل مع مرور الأعوام. في عام ١٨٩٥، وبعد أربع سنوات من تسميته لأشجار الفاكهة، لم يعد قادرًا على التفاخر باستذكار أيٍ من أيام طفولته. لقد انهار عقله الذي كان يومًا ما سريع الاستجابة. دونت والدته حادثة نموذجية وقعت عندما سألته عما إذا كان يرغب بتناول وجبته، فأجاب: «هل عندي فم لهذه الوجبة؟ هل علي أن آكل

ذلك؟ قلت فمي، أريد أن آكل... ما هذا الذي هنا؟ إنها أذن، ما هذا الذي هنا؟ إنه أنف، ما هذا الذي هنا؟ إنها يداي التي لا أحب»، لكن ظلالًا باهتةً أو استذكارًا طفيفًا لما كان عليه يومًا ما، قبع في مكان ما في عقله الذي يشبه متاهة؛ فإذا ما فرحَ بشيءٍ ما أو وجده جميلًا، يُطلق عليه اسم كتاب وكان مسكونًا بسؤالٍ واحد؛ هل أنا غبي؟ فأردُ عليه: «كلا، بني الحبيب، أنت لست غبيًا، فكتبك تهز العالم الآن»»، ليُجيبها «كلا، أنا غبي».

لحسن الحظ، لقد كان هذا التلميح أقرب ما يكون إلى الاعتراف بالعظمة التي تلبسته ذات مرةٍ، والتي تلاشت الآن هاربة منه.

صادف في الخامس عشر من تشرين الأول ١٨٩٤ عيد ميلاده الخمسين. وضع ناومان أربعة عشر ألف مارك في حسابه. أخيرًا رأت كتبه النور، ولم يكن لديه أدنى فكرة عن ذلك.

جاء أصدقاؤه القدامى لزيارته ليتمنون له عيد ميلاد سعيد لكنه لم يعرفهم. في تلك الأيام لم يتعرف سوى على والدته وشقيقته وإلوين الطيبة. وصفه أوفربيك بأنه لم يكن سعيدًا أو حزينًا، ولكن يبدو، وبطريقة مرعبة، إنه موجود في مكان ما يقبع خلف كل شيء. أحضر له بول ديوسن باقة ورد. لوهلة استحوذت الأزهار على انتباهه لكنه نسيها بعدها. أخبره ديوسن أنه كان في الخمسين وأن هذا لا يعني شيئًا بالنسبة له. لم يكن منتبهًا لوجودهم، ولكن كعكة الميلاد وحدها من جذبت انتباهه.

تميزت السنة التالية بنوبات من الاهتياج المروع والزئير والصراخ بالتناوب مع فترات من الانهيار الجسدي والعقلي التام. تزامنت إحدى زيارات أوفربيك مع إحدى هذه النوبات، فعندما دخل على نيتشه وجده في نفس الوضع الجسدي الذي وجده عليه في تورينو، منكمشًا عند زاوية الأريكة وشعلة الحياة قد خمدت في عينيه، ذكرت رؤيته أوفربيك بحيوان مثخن بالجروح القاتلة، يلتجئ إلى إحدى الزوايا تائقًا للموت والخلاص.

لم ير أوفربيك نيتشه بعد تلك الزيارة مطلقًا، فقد اتهمته إليزابيث

بسرقة جزء من أعمال نيتشه غير المنشورة، ولكن السبب الحقيقي هو رفضه تسليمها الرسائل التي عرفت أنها تتضمن إشارات قاسية عنها، ولن تؤيد بالضرورة روايتها عن الحوادث التي اختلقتها. نُشرت الرسائل في النهاية عامي ١٩٠٧-١٩٠٨ بعد أن قدمت إليزابيث القضية للمحكمة، وفازت بحكم ينص على استبدال الفقرات المتنازع عليها بفراغات، وهذا ما أفقد سمعتها المصداقية.

أصبحت الأمور لا تطاق بين الأم وابنتها. كان هناك تناقض واضح داخل المنزل، فبينما كانت فرانشيسكا وإلوين تعتنيان بنيتشه الهامد في الطابق العلوي، كانت إليزابيث مُنكبةً على صالونها النابض بالحيوية في الطابق السفلي، وهذا الاختلاف الصارخ بالاهتمامات لم يكن يمكن احتماله أكثر.

كتبت إليزابيث خطابًا من عشر صفحات تدين فيه فرانشيسكا، قائلةً بأنها غير صالحة لرعاية نيتشه. لقد رغبت في أن تصبح وصية عليه لتنقله إلى غرفة الأرشيف الجديدة وتعرضه إلى جانب أعماله، ولكن طبيب العائلة رفض دعم ادعاء إليزابيث ضد والدتها.

كان غضبُ فرانشيسكا مُسوغًا، وقد انزعجت أكثر عندما نوت إليزابيث إصدار الجزء الأول من سيرة حياة شقيقها في ١٨٩٥، (حياة فريدريك نيتشه Das Leben Friedrich Nietzsches). أربك الكتاب فرانشيسكا، وتذمرت من قلة المعلومات الحقيقة المذكورة فيه، ولأن فرانشيسكا لم تكن حاصلةً على قدرٍ كبيرٍ من التعليم (كما لاحظ بنز فانغر في عيادة ينا)، فإنها لم تلجأ إلى خيار الطباعة لتنشر كتابًا يفند قصة ابنتها، كما أنها (فرانشيسكا) لم تكن تحظى بعلاقاتٍ ثقافية مؤثرة قد تثب إلى مساعدتها. كان أوفربيك قد ساندها لكنه انزوى تمامًا عن هذا النزاع البغيض، متبرعًا بالرسائل التي رغبت إليزابيث بالحصول عليها إلى جامعة بازل. على نحو مميز، ترك أوفربيك الأمر للأجيال القادمة لتحكم.

في كانون الأول ١٨٩٥، وضعت إليزابيث عقدًا لتنال منفردةً حقوق

الطبع والنشر لمخطوطات وأوراق نيتشه. عرضت على والدتها ثلاثين ألف مارك لتستولي على جميع الحقوق والمستحقات المالية لأعماله. تنازلت لها فرانشيسكا مكرهة، فلم تكن ترغب بمنح ابنتها السلطة الكاملة على ملكيته الأدبية، ولكنها من ناحية أخرى تحتاج المال لضمان وتأمين مستقبلها ومستقبل ابنها. لم يكن مبلغًا كبيرًا بالمقارنة مع الدخل الذي تحققه مبيعات كتب نيتشه، فقد حققت المبيعات نصف هذا المبلغ في السنة السابقة فقط. ازدادت شهرة أعمال نيتشه ومعجبيه أكثر فأكثر إلى درجة أن إليزابيث لم تواجه أي صعوبةٍ في جمع المال. كان المبلغ الذي أعطته لوالدتها مقدمًا من ثلاثة من المعجبين الأثرياء بنيتشه، وهم: صديقة نيتشه القديمة ميتا فون ساليس مارشلينز، ومصرفي يهودي يدعى روبرت فون مندلسون، (وهنا نلاحظ أن معاداة إليزابيث للسامية لا تصل حد الامتناع عن أخذ النقود)، والكونت هاري كيسلر.

منذ ذلك الحين وحتى وفاتها عام ١٩٣٥، استحوذت إليزابيث على جميع حقوق أعمال نيتشه الخاصة بالنشر والطباعة والتحرير، وحتى على رسائلهِ التي كتبها أو كُتبت له. لقد تموضعت في مكان مكّنها من أن تمارس الدور الرقابي الذي ترغب به، والذي تستطيع من خلاله أن ترتب كتابات أخيها وقصة حياته، وأن تقبض على عائدات حقوق النشر المالية لكل ما سمحت بنشره من أعمال.

في نيسان من عام ١٨٩٧، خمدت أخيرًا العاصفة والضغوط بين الأم وابنتها. توفَّت فرانشيسكا المرهقة والحزينة عن عمر يناهز الواحد والسبعين عامًا، ومن المحتمل أن يكون سبب الوفاة سرطان الرحم. وهكذا، حصلت إليزابيث على السيطرة التامة على جسد نيتشه وكتبه.

كان الشيء الأول الذي توجب عليها فعله هو نقل نيتشه وأرشيفه إلى موقع أكثر ملاءمة. كانت ناومبورغ في حالة ركود، فبرزت مدينة فايمار كمكان مناسب للغاية، فهنا بإمكان نيتشه أن يحتل مكانه في بانثيون الثقافة الألمانية.

أصبحت فايمار مقام ربات الشعر والإلهام في ألمانيا عند زيارة غوته لها في ١٧٧٥. لقد كانت فايمار مركز التحول الثقافي إلى «أثينا الألمانية» على يد الرجال العظماء في الأدب في العصر الذهبي: فيشته وهيردر وفون هامبولت وشيلينغ وشيلِر وفيلاند. في عام ١٨٤٨، ارتدى ليزت العباءة الثقافية، مؤسسًا العصر الفضي بتشكيله جمعية ثقافية «رابطة فايمار الجديدة» وتوجيه النتاجات المبكرة الأوبرالية لفاغنر إلى مسرح البلاط.

تقع أرشيفات كلٍّ من غوته وشيلِر في فايمار، وفكرت إليزابيث بأن مشاركة أرشيف نيتشه في هذا المكان مع هذه الأسماء المجيدة قد يكسبه نفس أهمية أرشيف فاغنر الذي أعدته كوزيما في بايرويت، والذي تطلعت إليه إليزابيث بإعجاب حاقد.

أن تبيع منزل ناومبورغ وتشتري منزلًا كبيرًا في فايمار هو أمر يتطلب مبلغًا كبيرًا، لكن ميتا فون ساليس كانت سعيدة بأن تدفع لإليزابيث، فلن تكون هناك طريقة أفضل لكي ترد جميل نيتشه بمرافقته إياها في العطل الصيفية التي قضياها في سيلس ماريا، ففي حين أن ميتا لم تعلِّم نيتشه سوى التجذيف بقارب في بحيرة سيلفابلانا وحسب، علّمها هو في المقابل أن المرأة يمكن أن تصبح إنسانًا أعلى أيضًا.

عثرت ميتا على فيللا حديثة البناء تدعى سيلبربلك[١٦]، أو بالأحرى «القصر القبيح ذو القرميد المربع» الواقعة في الضواحي الجنوبية لفايمار. كانت أصغر من وانفريد، ولكن مع انتفاء الحاجة لوجود قاعة لإقامة حفلات موسيقية، فقد كانت الفيللا كبيرة بما فيه الكفاية. كان مجد فيللا سيلبربلك يكمن في موقعها، وقد سميت بهذا الاسم بسبب منظرها الفضي. لقد كانت، وما زالت، الفيللا تقع على قمة شارع همبولت الذي يرتفع شيئًا فشيئًا، مطلةً على أجمل منظر في البلدة وواحدٍ من أجمل المناظر الطبيعية في أوروبا الكلاسيكية الحديثة التي وصفها غوته في طريق عودته من رحلته الإيطالية. غوته، مثل نيتشه، وقع في حب الريف الذي يحيط بروما، وبلوحات كلود لورين التي تصور هذا الريف. عند عودته إلى الوطن، شرع

غوته بتمجيد المنحنيات المتموجة من سهل فايمار، محولًا إياها إلى نسخة مصغرة من أركاديا، فقد حول مروج فايمار إلى حقولٍ سماوية، وطوى المعابد والكهوف عند جنبات نهر إيلم المتعرج. بالنظر من نوافذ فيللا سيلبربلك، تمتد مناظرُ طبيعيةٌ إلى حوالى عشرة أميال، شبيهةً بتلك التي ألهمت نيتشه، الملتاع بحب لو سالومي، أن يؤلف «أغنية الليل».

كانت شرفة فيللا سيلبربلك، المكونة من طابقين، هي المكان الذي جلس فيه نيتشه يوميًا طيلة ثلاث سنوات، الفترة التي تبقت من حياته. إن كانت عيناه قادرتين على الرؤية، وهو أمر يُستبعد حصوله، فإن المنظر سيذكره بالريف المحيط بروما والمنظر الطبيعي المحيط بجبل مونت ساكرو حيث تنزه مع لو سالومي نزهةً غيرت حياته، ذلك المنظر الذي يرتبط بسهل تورنيغن والذي تترامى حوافه بعيدًا حتى الحدود السوداء البارزة المتلاطمة بالأشجار لغابة إتيرسبيرغ.

رأت ميتا في الفيللا المكان الأنسب لصديقها العزيز. فاشترت الفيللا بمبلغ تسعة وثلاثين ألف مارك. من دون إخبار ميتا، باشرت إليزابيث ببرنامج ترميم باهظ، فقد قررت هدم حمامٍ هنا وشرفة هناك، وأرسلت فاتورة البناء إلى ميتا، التي غضبت لأنها من ستدفع ثمن ترميمات تجميلية غير ضرورية. لكن ما رأت أنه الأسوأ بإليزابيث هو هوسها بالدعاية. فقد قرأت ميتا مقالًا لأحد الصحافيين يصف كيف تم عرض نيتشه أمامه: في البدء كان نائمًا، ثم مستيقظًا، ثم ربض على كرسي ليطعموه قطعًا من الكعك. لم تحتمل هذا أبدًا، وعليه قطعت اتصالها بإليزابيث[١٧].

في تموز ١٨٩٧، مع انتهاء الترميمات، نظمت إليزابيث رحلة ليلية دعائية سرية. نُقل الفيلسوف على كرسي متحرك بالقطار من ناومبروغ إلى فايمار، وقدموا من مدخل خاص بالمحطة، مخصص لدوق ساكس- فايمار الكبير، لكنه فُتح تكريمًا لهم. منذ لحظة وصول إليزابيث، لم يرها أحدٌ من البلدة تمشي على قدميها أبدًا، فلم تكن تتجول سوى بعربة يصاحبها حوذي وأجير يجلس على الصندوق[١٨].

كان الكونت هاري كيسلر من أوائل زوار نيتشه. وصل في آب، وقد ذُهل عندما استقبله خادم في المحطة مرتديًا بذلة أنيقة منقوشًا على أزراره المذهبة تويج النبلاء ذو الرؤوس الخمسة المستدقة[١٩]. جاء كيسلر للحديث عن «**هكذا تكلّم زرادشت**»، وكيف أن ريتشارد شتراوس ألف موسيقى تحمل نفس الاسم، عرضت في العام السابق، مُثيرًا ضجة كبيرة.

إقترح كيسلر إصدار طبعة فاخرة لمحبي الكتب من «**هكذا تكلّم زرادشت**»، كما رغب أيضًا بالاسراع بنشر قصائد نيتشه المتأخرة، وكذلك كتاب هذا هو الإنسان الذي لم يكن قد نُشر بعد. لم تكن إليزابيث متجاوبة مع اقتراحاته، إلى جانب تفكيرها في حذف المقاطع التي تحط من سمعتها والواردة في «**هذا هو الإنسان**»، بل من الأفضل لها أن تنشر مقاطع صغيرة وشحيحة من الكتاب في مقالات السيرة الذاتية التي ستكتبها عن أخيها. سيساهم هذا في الحفاظ على مكانتها الوجيهة بوصفها حارس بوابة نيتشه، والشخص الوحيد الذي يمتلك إمكانية الوصول إلى سيرة ذاتية قَيّمة، وهذا سلاح فتاك ستستخدمه في إسكات أي شخص متأثر بما قد حصل بينها وبين كلينغبايل، يتساءل عن مدى موثوقية ما يعرضه الأرشيف النيتشوي. لقد تشبثت بنص «**هذا هو الإنسان**» لأحد عشر عامًا آخر قبل أن تسمح بنشره. مع ذلك، سمحت لكيسلر فقط بنشر الكتاب بما يُعرف بـ «طبعة مدير البنك»، وهي طبعة محدودة فاخرة صممها فان دي فيلدي، مَطبوعة بالحبر الأسود والذهبي، وهذا ما أكسبها ٢٩٥٠٠ مارك.

كانت إليزابيث، خلال زيارة هاري كيسلر الأولى لفيللا سيلبربلك، أكثر اهتمامًا بمناقشة ترتيباب جنازة نيتشه الذي كان يجلس بعيدًا عن الموت في الطابق العلوي. كانت قد قررت سلفًا أنه ينبغي دفن شقيقها في أراضي فيللا سيلبربلك، كما تم دفن فاغنر في وانفريد، ولكن سلطات المدينة كانت صعبة المراس بهذا الشأن. شعر هاري كيسلر بأن شبه جزيرة تشاست في سيلس ماريا ستكون مكانًا أكثر ملائمة لدفن نيتشه، ولكن اقتراحه لم يقابل أي حماسة من إليزابيث. عرضت عليه منصب رئيس تحرير أرشيف

نيتشه، لكنه رفض عرضها، رغم الطريقة الساحرة والفاتنة التي استخدمتها إليزابيث البالغة من العمر واحدًا وخمسين عامًا في عرض هذه المهمة على كيسلر ذي التسعة والعشرين عامًا.

كانت إليزابيث تهوى مغازلة الشبان الوسماء الذين يبلغون من العمر نصف عمرها. كانت قد طردت محرر الأرشيف الأول، فريتز كوغل، عندما وقع في حب فتاة من عمره وخطبها. عينت إليزابيث فيما بعد الشاب رودلف شتاينر، والذي ارتبط لاحقًا بالطائفة الدينية الثيوصوفية التي أسستها مدام بلافتسكي، ليؤسس ما يعرف بعلم طبائع البشر، وهو خليط علمي روحاني غير متجانس، مبني على الرؤى التي اختبرها في شبابه. إلى جانب عمل شتاينر التحريري على أعمال نيتشه، عينته إليزابيث لتثقيفها بفلسفة أخيها، لكنها كانت مهمة خيالية، ففشل الشاب في تثقيف اللاما العنيدة وتخلى عن هذه المهمة، قائلًا إنها كانت غير قادرة على الاستماع لتعليماته أو فهم فلسفة نيتشه. ربما كان كلا الأمرين صحيحًا.

ترك رفض كيسلر تولي مهمة تحرير الأرشيف هذه الوظيفة شاغرة، خاصة بعد وصول طوفان من الأوراق القادمة من سيلس ماريا، فعندما غادر نيتشه سيلس كان ينوي العودة إليها، لكن تبين فيما بعد أنها كانت زيارته الأخيرة لها. احتوت غرفته في منزل جيان دوريش على جميع أنواع المسودات والملاحظات التي كُتبت على عجل. أخبر نيتشه دوريش أن هذه الأوراق ليست أكثر من قمامة وعليه أن يحرقها. وضع دوريش الأوراق في خزانة وقبل أن يضرم النار بها، وصل الحجاج للمشي على جبال زرادشت والتمسح بصخرته. لقد استولوا على أي أثر نيتشوي مقدس، حتى ولو كانت مجرد قصاصة كتب عليها «لقد نسيت مظلتي»[٢٠]، أو تأمله بالمعاني المتشضية من صلب عيسى المسيح أو تمزيق ديونيسيوس إلى أشلاء. عندما تبادر إلى مسامع إليزابيث نبأ هذه الأوراق، طلبت أن تُرسل كلها إلى فايمار، حيث انضمت إلى كدس الأوراق الذي يشبه ثلوجًا كدستها الريح، جبلُ تركة نيتشه الأدبية.

في النهاية، كان على إليزابيث أن تبتلع كبرياءها وتعيد تنصيب بيتر غاست محررًا لأعمال نيتشه، فقد كان بالفعل الشخص الوحيد الذي يستطيع قراءة الكتابات الأخيرة بخط يد نيتشه، وكان هذا أمرًا جوهريًا لطموح إليزابيث في تشكيل تركته الأدبية الفوضوية وتحويلها إلى كتاب من صنعها الخاص ونشره باسم نيتشه. خططت أن تطلق عليه عنوان «إرادة القوة» مقدمة إياه بوصفه عمله التأليفي الأعظم، كتابه الثوري على كل القيم. لم يكن لديها أدنى شكٍ بقدرتها على تجميع قصاصاتٍ من تركة أخيها الأدبية، وتكوين كتابٍ تحدث نيتشه عن رغبته في تأليفه خلال السنة الأخيرة قبل أن يمرض، أو أنه كتبه بالفعل، أو لم يكن بحاجةٍ إلى تأليفه بعد الانتهاء من «عدو المسيح».

لم يكن نيتشه ثريًا قط، كانت عنده عادة الرجل الفقير المُقتر الذي يستخدم ذات الكراس مرارًا وتكرارًا حتى يمتلئ على آخره. ما لم يكن هناك تدهورٌ ملحوظٌ في خط اليد، فغالبًا لا يوجد هناك أي دليلٍ على التسلسل الزمني أو تسلسل الأفكار، فتارةً كان يكتب من الأمام إلى الخلف، وتارة أخرى من الخلف إلى الأمام، وكان يشطب صفحات ومقاطع أو يكتب فوقها جملًا وعباراتٍ ومقاطع جديدة، وفي بعض الصفحات تشاركت أفكاره العميقة الصفحة مع قائمةِ تسوق كان قد دونها على عجلة من أمره.

بينما كان غاست يعمل بعيدًا على تحرير تركة نيتشه، أصبحت فيللا سيلبربلك قبلة للحج، حيث عُرضت نصوص نيتشه وكتبه المطبوعة الأولى وصوره الفوتوغرافية إلى جانب أوشحة مخرمة مؤطرة وأدوات باراغوانية فولكلورية وتمثال نصفي للرائد الدكتور فورستر، بطل القضايا النبيلة الآرية ومشاريع الأستيطان والمعادية للسامية. كانت إليزابيث تستقبل الضيوف في الصالون كل سبت وتقيم حفلات كثيرة بين سبت وآخر. كان الزوار مدركين أن فوقهم، وكما لاحظ أحدهم، يستلقي المعبود نيتشه-زرادشت وأن ما «يفصلهم عنه طبقة من العوارض الخشبية». سُمح للزوار المميزين بإلقاء نظرة خاطفة بعيدة على نيتشه في الطابق العلوي، وكان يرتدي في

ذلك الوقت رداءً طويل الأكمام تلمس حوافه الأرضية، مصنوعًا من الكتان الأبيض والمستعار من صور القديسين الدينية.

وجد الزائر الحساس وسريع التأثر أنه من السهل تخيل نيتشه بوصفه كائنًا مؤلهًا، وبدأ بعضهم يكتبُ ويطبع عنه قصصًا شبه دينية، وغالبًا ما كانت هذه القصص تركز على عينيه. كان لأمير الفكر السامي عينان لهما قدرة صوفية في التحديق عميقًا في هاوية الضمير الإنساني، التحليق عاليًا لرؤية القمم الجليدية، عينان لا يمتلكهما أي شخص على قيد الحياة. لقد قورنت عينا نيتشه الضعيفة وشبه العمياء بنجمين توأمين وأجرام سماوية وحتى بمجرات. كتب رودلف شتاينر «كل من رأى نيتشه في هذا الوقت، متكئًا بردائهِ الأبيض المطوي مع مسحة من النبل تغمر وجهه المُحيّر والمستطلع، والحمولة الأسدية السحرية التي يحملها رأسه المفكر. انتابه شعور بأن هذا الرجل لا يمكن أنْ يموت، بل إن عينيه ستبقيان معلقتين إلى الأبد فوق البشرية وعالم التمثل بأسره بهذه الغبطة التي لا يُسبر غورها»(٢١). قال المعماري فريتز شوماخر الذي دعته إليزابيث لتصميم نصب تذكاري لأخيها، «من يراه لا يُصدق أنه جسدٌ هجره العقل، فمن ينظر إليه مجبرٌ على التصديق بأنه ينظر إلى إنسانٍ سما فوق كل الاشياء الصغيرة واليومية»(٢٢).

أحبت إليزابيث أن تعرُض نيتشه بعد وجبة العشاء، فغالبًا ما رتبت أن يُلمح جانب نصفي من نيتشه من وراء ستارة ضبابية، وكأنه روح في جلسة لتحضير الأرواح(٢٣). قلة هم من كانوا يتحلون ببصر حاد مثل هاري كيسلر، الذي لربما رآه كثيرًا في فيللا سيلبربلك، عندما يقضي الليلة في الفيللا لمتابعة مناقشات الاعمال مع إليزابيث. لربما وجد نفسه مستيقظًا في السرير عندما يصدر نيتشه «أصوات أنينٍ طويلة وصافية، ليصرخ بعدها بكل قوته مخترقًا ركود الليل، ومن ثم يعود كل شيء إلى سكونه»(٢٤).

لم يرَ كيسلر في نيتشه رجلًا عليلًا أو نبيًا أو حتى مجنونًا، بل مغلف فارغ أو جثة على قيد الحياة. كانت يداه المكشوفتان شمعيتين، منتفختين بأوردتها الخضراء والبنفسجية الجارية، وكأنها يَدَا جثة. كان النمو المفرط للشارب

مدروسًا ليخفي تعابير البلاهة التي لا يُمكن إخفاؤها على الفم. على عكس الحجاج الذين يزورونه، لم يرَ كيسلر أي شيء في عيني نيتشه، لا شيء جنونيًّا أو مرعبًا أو روحانيًّا. «كنت سأفضل أن أصف النظرة بأنها مطيعة وغير مفهومةٍ في نفس الوقت، وكأنها نظرة بحثٍ ذهني غير مثمر، كالتي يمكن أن تراها في عيني كلبٍ كبيرٍ نبيل»(٢٥).

عانى نيتشه من أول جلطة دماغية في صيف ١٨٩٨، وضربته الثانية في العام التالي. في آب من عام ١٩٠٠، أصيب بنزلة برد تفاقمت إلى صعوبات في التنفس. الشاهد الذي فضّل عدم الكشف عن هويته، ربما خشية أن يطاله ظل إليزابيث الطويل والحاقد، قدم تقريرًا عن نهاية نيتشه، ويبدو الوصف كما لو أنه قد كُتب بيد ممرض اعتنى بمريضه لعدة سنوات.

أشار كاتب التقرير، رجلًا كان أو امرأة، إلى أنه بعد نقل نيتشه إلى فايمار، كان عاجزًا عن القراءة أو الفهم أو الحديث الواضح، ومع ذلك جرت مقابلات ليست قليلة مع التعيس المسكين. نادرًا ما رأى الزائرون نيتشه وجهًا لوجه، فالتواصلُ لا يتم إلا عبر إليزابيث، التي سردت كل القصص بينما يرقد نيتشه مشلولًا على أحد جنبيه، لا حول له ولا قوة مستلقيًا في «قبره السريري» كما أطلق عليه الشاهد، مطوقًا بالأثاث المدفوع صوبه لمنع هروبه. عملت وظائفه الجسدية بصعوبة، لأسباب أقلها أنه حينما يرى شيئًا لامعًا يحاول أن يضعه في فمه، لكن بغض النظر عن هذه التصرفات، كان مريضًا طيبًا ومطيعًا، وكان وضعه بائسًا وميؤوسًا منه لكنه نادرًا ما عانى من ألم جسدي.

أكد هاري كيسلر هذا الوصف، ولكن تقرير إليزابيث حكى قصة مغايرة، قائلة إن نيتشه كان يجد متعة كبيرة بقراءته لأعمال كاتبه المفضل كما يبدو غي دي موباسان. وفقًا لها، إن نيتشه احتفظ بقدرته على الكلام حتى النهاية، «كم مرةً أثنى فيها على ما صنعته، وكم مرةً واساني فيها عندما أكون حزينة. كان عرفانه بالجميل مؤثرًا، فيقول لي: «لماذا تبكين، ليزبيث»، ويرد علي قائلًا: «نحن سعداء للغاية»»(٢٦).

كانت روايتا موته تختلفان أيضًا. كان صراعه مع الموت شاقًا، لكنه لم يدم طويلًا جدًا، كما كتب الشاهد المجهول الذي كان من الواضح أنه من ذوي الخبرة في مراقبة ساعات الاحتضار الأخيرة، والذي تابع تعليقه قائلًا أنه لولا البنية الجسدية المثيرة للأعجاب لنيتشه، و«التي كانت مهيبة حتى في النعش، لكان صراعه مع الموت أطول، لقد كانت الإرادة حاضرة هناك»[٢٧]

روت إليزابيث قصة موت نيتشه بطريقة مختلفة. بحسب قولها، ذات يوم، بينما كانت جالسة قبالته، كانت عاصفة رهيبة تختمر في كبد السماء، فتغير سيماء وجهه كليًا وسقط مغشيًا عليه بسبب جلطة دماغية. لقد كانت إليزابيث مولعة بالجلطات على ما يبدو. «بدا الأمر وكأن هذا العقل الجبار في طريقه إلى أن يفنى وسط الرعد والبرق ولكنه تعافى في المساء وحاول التكلم... عندما ناولته كوبًا من الشراب المنعش كانت الساعة تشير إلى الثانية صباحًا، فدفع عاكس الضوء حتى يتمكن من رؤيتي... فتح عينيه الرائعتين، حدق في عيني للمرة الأخيرة وصرخ فرحًا: إليزابيث!. ثم هز رأسه مباشرة، وأغلق عينيه بإرادته ومات... وهذا ما جرى عند فناء زرادشت»[٢٨].

فارق نيتشه الحياة في الخامس والعشرين من آب ١٩٠٠.

أرسلت إليزابيث في طلب هاري كيسلر. قطع كيسلر زيارته إلى المعرض العالمي في باريس، حيث كان العالم يستقبل قدوم القرن الجديد بإضاءة برج إيفل ويحتفل بقدرة الكهرباء العجيبة. وصل كيسلر إلى فايمار لرؤية نيتشه موضوعًا في تابوته في غرفة الأرشيف، محاطًا بأصص تحمل أشجار النخيل الظلية والزهور.

عادة ما كان قناع الموت يُعمل على يد نحاتين. طلبت إليزابيث من ماكس كلينغر وإرنست كيغر إنجاز هذه المهمة، لكنهما كانا مشغولين جدًا، وبالتالي وقعت مهمة القناع على كاهل هاري كيسلر. بدأ بمهمته على الفور، مستعينًا بشابٍ كان يتدرب ويساعد هناك على إنجاز ديكور الجنازة. كان

رأس نيتشه مائلًا على أحد جانبيه، فتوجب عليهم أن يرفعوه قليلًا ليقوِّموه. شعروا بالراحة بعد إكمال المهمة. صنعت إليزابيث نسخًا من قناع الموت الخاص بنيتشه ووزعته كتذكار. لكن لم يمضِ وقت طويل قبل أن تقرر أن قناع الموت هذا لم يكن مثيرًا للاعجاب بما فيه الكفاية، فصنعت قناعًا ثانيًا، نسخة محسنة من القناع الأول أُعطيت للأشخاص المميزين والمفضلين. في النسخة الثانية المحسنة من القناع، تم رفع جبين نيتشه لينافس جبين سقراط، وازداد شعر نيتشه ذي الستة والخمسين عامًا كثافة ليشابه خصلات شعر أبولو اليافع المتسمة بالترف.

لقد بين نيتشه أكثر من مرة أنه يرغب بالنزول إلى قبره مثل وثني مُخلص، وفيما يخص الموسيقى، فقد رغب أن تُعزف موسيقى «ترنيمة للحياة»، التي تم تأليفها بإلهام قصيدة لو سالومي، وأن تتم جنازته بلا أيّ طقوس مسيحية، وقبل كل شيء، بلا كهنة.

على عكس رغبته، وعلى مقربة من نعشه، أقيمت صلاة كنسية حول تابوته في غرفة الأرشيف. بينما كانت الموسيقى المعزوفة في حفل تأبينه من تأليف برامز وبالسترينا. ألقى مؤرخ فني، يدعى كورت بريسغ، كلمة تأبين طويلة مليئة بحذلقة مشابهة لحذلقة بولونيوس(*). قال بعضهم عند سماعهم لكلمة التأبين، إن نيتشه لو سمع هذه الكلمة لألقى ببريسغ من النافذة ومن بعده سيلقي بمجموعة المصلين على نعشه(٢٩).

في اليوم التالي، انتقل كل شيء إلى روكن، حيث توسط التابوت، المزين بصليب فضي، صفًّا من قبور العائلة التي تضم والده ووالدته وشقيقه الصغير جوزيف. كان لدى إليزابيث أفكار أخرى حول هذا الأمر، كما فعلت بشأن قناع الموت. فقد نقلت تابوت نيتشه لاحقًا من موضعه الذي يتوسط القبور إلى نهاية صف القبور. فقد كانت ترغب، عندما يحين الوقت، بقضاء الأبدية في الوسط، محاطةً بالأموات.

(*) بولونيوس: شخصية في مسرحية هاملت. (المترجم)

ورثت إليزابيث ستة وثلاثين ألف مارك من نيتشه بعد موته. عُيّن هاري كيسلر بصفة أحد القائمين على أرشيف نيتشه، مما أضفى طابعًا رسميًا عليه، وتولى منصب مدير متحف الدوقي الكبير للفنون والحرف في فايمار، وشرع في الاعداد لعصر فايمار الثقافي القادم بوصفه مكانًا تُجمع فيه كل الأعمال الفنية لتتمركز حول نيتشه، كما تمركزت الأعمال الفنية في عصرها الذهبي الأول حول غوته. لقد كانت محاولة أخرى لتحقيق الحلم الذي تشاركه نيتشه وفاغنر ذات مرة، والمتمثل بتأسيس هوية ثقافية ألمانية جديدة متماسكة تنطوي على جميع الفنون في رؤية واحدة موحدة.

أحضر كيسلر هنري فان دي فيلدي ليترأس كلية الفنون والحرف في فايمار، وطلب منه تغيير التصميم الداخلي لفيللا سيلبربلك، التي باتت تعرف الآن بـ(Das Nietzsche-Archiv أي أرشيف نيتشه). كان فان دي فيلدي بلجيكيًا لامعًا ومناصرًا لأحدث الأساليب الفنية التي تسمى في ألمانيا Jugendstil (الفن الحديث)، وفي فرنسا art nouveau. قبل أن يحضر فان دي فيلدي إلى فايمار، كان قد تولى تصميم الفضاء الداخلي لبيت الفن الحديث لتاجر الفن الشهير صامويل سيغفريد بينغ.

كان تركيز الفن الحديث على الأشكال الطبيعية والأعمال الحرفية اليدوية ينسجم مع الأفكار النيتشوية المتمثلة بسطوة قدرة القوى غير المنطقية واللاعقلانية للعالم الطبيعي على عالم الآلات. قال القيصر أن منحنيات التصاميم الداخلية لفان دي فيلدي التي تشبه الأمواج جعلته يشعر بدوار البحر، لكن إليزابيث كانت سعيدة بالتغيير الذي طرأ على غرفة الأرشيف على يد فيلدي لتصبح الأيقونة الحداثية والذي حولها إلى أيقونة معاصرة يأتيه الزائرون من كل حدب وصوب. كان الحرف «N» الأول من اسم نيتشه منقوشًا بخطوط وترية الشكل على كل شيء من تلبيسة الجدران الخشبية إلى مقابض الأبواب.

كان يجب أن تتموضع نصوص نيتشه المنشورة في مركز جميع الأعمال الفنية، وأن تكون قلبها النابض. كلف كيسلر فان دي فيلدي بتصميم حرف

طباعي جديد لتحرير كلمات نيتشه المُحلقة من قفص التشابك القوطي القديم لخط بلاكليتر (Blackletter) الطباعي الألماني التقليدي.

بينما تولى فان دي فيلدي رعاية الفنون الزخرفية، تولى كيسلر الفنون الجميلة. كان كيسلر على معرفة بتجار الفن الباريسيين الأسطوريين أمثال أمبرواز فولارد وبول دوراند رويل. لقد أصبح متحف فايمار في عهدته النقطة المركزية لانطلاق الطليعة الفنية الباريسية، حيث عُرضت فيه لوحات الانطباعيين وما بعد الانطباعيين والتعبيريين. لقد عرف الكثير من الفنانين شخصيًا، بمن فيهم مونيه ورينوار وديغا وبونارد وريدون وفويلارد، وكذلك النحات مايلول الذي رغب في تكليفه لنحت تمثال عارٍ عملاق يرمز إلى الإنسان الأعلى كجزء من خطة عام ١٩١١ لبناء نصب كبير لنيتشه. أوضحت اللجنة التي طرحت اقتراح هذا النصب انتشار الاهتمام الواسع بنيتشه مع بداية القرن العشرين، لكن خطة بناء النصب تعثرت عند اندلاع الحرب العالمية الأولى. كان كيسلر على علاقة بجورج برنارد شو وجورج مور ودبليو بي ييتس وجيلبرت موراي وويليام روثين ستاين وهارلي غرانفيل- باركر وإريك غيل وأوغست رودان وموريس دينيس وأناتول فرانس وهنري بيرغسون وتشارلز موريس وموريس باريز.

في عام ١٩٠٦ استُدعي إدوارد مونش إلى فايمار ليرسم لوحة تمثل نيتشه بعد موته أطلق عليها «لوحة الأفكار». يعكس حجم اللوحة، على الأغلب، رأي مونش بموضوع لوحته، وقد كانت «لوحة الأفكار» لنيتشه إحدى أكبر لوحاته. مثل الشخصية في لوحة الصرخة، يقف نيتشه متكئًا على درابزين يمتد قطريًا عبر قماش اللوحة إلى ما لا نهاية[٣٠]. بينما يمتد درابزين الصرخة من أسفل اليمين إلى أعلى اليسار، يمتد درابزين نيتشه من أسفل اليسار إلى أسفل اليمين، وهو تعبير مثير للاهتمام حول كيفية نظر مونش إلى الرحلة العقلية المختلفة لكل شخصية في لوحاته. إن الشكل النيتشوي العملاق في اللوحة يقزم كنيسة صغيرة تقع على المنظر الطبيعي؛ فمونش، مثل نيتشه، كان ابنًا لأسرةٍ شديدة التدين أنشأته ليصبح فردًا كهنوتيًا، ومثل نيتشه، سلك طريقًا مختلفًا تمامًا.

لم تلتقِ إليزابيث بمونش، ومع ذلك طلبت منه أن يرسم صورتها. مختارًا قماشًا غير ملائم، اثار مونش ضجة كبيرة برسمها بثوب مُكشكش ووجه جلاد قاسٍ لا يعرف الصفح[٣١].

فوق تلها المخضوضر، شعرت إليزابيث بأنها حصلت على مركز يساويها مع كوزيما. توفَّت كوزيما عام ١٩٣٠ وتوفَّت إليزابيث ١٩٣٥، وخلال فترة مسؤوليتها عن كتب نيتشه أنتجت إليزابيث ضعف ما أنتجه نيتشه خلال الستة عشر عامًا التي تفصل بين كتابه الأول «**مولد التراجيديا**» وآخر نص له «**هذا هو الإنسان**». خلال تلك السنوات كانت إليزابيث مثل العنكبوت في وسط أرشيف نيتشه، تنسج كلمات شقيقها بشبكتها العنكبوتية الشخصية وتضخم سمعتها الخاصة عبر تقديم شقيقها كنبي صوفي لقناعاتها الخاصة.

لم تفهم إليزابيث أبدًا منهج زلزلة المفاهيم المزروع في القاعدة الفكرية الأساسية لشقيقها. لم تفهم أبدًا رفضه لجميع الأنظمة ولجميع الفلسفات التي حولت العالم إلى نظام أحادي. كانت المعارضة الثورية لليقين، التي قادته ليصف نفسه بأنه فيلسوف «الريبة»، تقعُ خارج نطاق فهمها. تجاهلت أيضًا فكرته التي يصف فيها نفسه على أنه ساخر فعلي، فهو الفيلسوف الذي فضل أن يكون مهرجًا على أن يكون قديسًا، وتجاهلت فكرته عن أنه ليس للحقيقة تعريفٌ واحدٌ، الحقيقة لا تملك تعريفًا واحدًا ولكن يمكن تفحصها بشكلٍ مثمرٍ كمسألة وجهة نظر. تجاهلت كذلك فكرته أنه لا وجود لعنكبوتٍ أبدي، بل هي مجرد مصادفات تجري على حلبة رقص الحياة، وإن معنى الوجود ليس أقل من هذه المصادفات. على الرغم من هيمنتها المطلقة على أعماله، لم تفهم إليزابيث حتى الغرض من استكشافه الفكري الرئيسي: كيف نعثر على القيمة والمعنى في عالم غير يقيني لا يوجد فيه مثل أعلى أو كائن إلهي.

في عام ١٩٠١، بعد مضي عام واحد فقط على رحيل نيتشه، نشرت إليزابيث كتاب «إرادة القوة Der Wille zur Macht» بوصفه المجلد الخامس عشر من أعمال نيتشه. يتألف الكتاب من ٤٨٣ شذرة مجموعة

من تركة نيتشه الأدبية من الملاحظات والمسودات التي لم يكن ليرغب بأن يقرأها أحد سواه، ناهيك عن نشرها. لطالما كان نيتشه دقيقًا بشكل عصبي بخصوص ما كان ينشره في النهاية، وهذا ما يراه المرء في مراسلاته مع غاست وناشره. ما نشرته إليزابيث في «إرادة القوة» لا يمثل وجهات نظره النهائية حول أي شيء. مع إعادة طبع الكتاب في ١٩٠٦، أخرجت إليزابيث الكتاب ثلاثة أضعاف حجمه الأول: فقد تضخمت الأقوال والحكم والشذرات من ٤٨٣ إلى ١٠٦٧. كانت إليزابيث تستمتع بهيمنتها التحريرية على نتاجه الأدبي بعد وفاته.

كانت الصورة عنصرًا مهمًا في أسطورة نيتشه، لقد أوصت بنحت تماثيل متينة البنية ورسم لوحات متوهجة وصور فوتوغرافية مضاءة. لقد صُوِّر نيتشه حتى وكأنه المسيح على رأسه تاج من الأشواك. لقد أدارت نتاجه الأدبي، لتطبع كتبًا ومقالاتٍ ومقتطفاتٍ مختارة من كتاباته، ومع عدم وجود أحد ينفي روايتها للحوادث، كتبت إليزابيث مجلدًا ثانيًا متخيلًا من سيرته الذاتية، وأطلقت على هذا الجزء «نيتشه الوحيد»، وخلقت كتابًا لا يتحلى بأي مصداقية عن مراسلات نيتشه وفاغنر بعنوان «مراسلات نيتشه وفاغنر»، وأصدرت كتابًا آخر بعنوان «نيتشه والمرأة» صبت فيه جام حقدها على لو سالومي. بعد نسختها الضخمة من «إرادة القوة»، رُشحت إليزابيث لنيل جائزة نوبل للأدب عام ١٩٠٨، ورُشحت بعدها ثلاث مرات أخرى لكتاباتها عن شقيقها[٣٢]. منحتها جامعة ينا درجة الدكتوراه الفخرية، وبعدها استقر رأيها على شكل توقيعها النهائي « السيدة Dr. Phil. H. C. إليزابيث فورستر- نيتشه».

في السنوات التي سبقت الحرب العالمية الأولى، وبينما كان هاري كيسلر لا يزال يبذل جهدًا في أرشيف نيتشه، أصبح الاهتمام بالأرشيف عالميًا وفكريًا، فقد جذب أرشيفه نقادًا وكتابًا وفنانين مبدعين أكثر من الفلاسفة، ومن النيتشويين المخلصين: هيوغو فون هوفمانستال وستيفان جورج وريتشارد ديهميل وريتشارد شتراوس وتوماس مان وهاينريش مان

ومارتن بوبر وكارل غوستاف يونغ وهيرمان هيسه وبول هايسه ورايز ماريا ريلكه وماكس برود وألبرت شفايتزر وأندريه جيد، والراقصان فاسلاف نغينسكاي وإيزادورا دنكان والطيار غراف زيبلين. وكان من المتحمسين الأوائل لنيتشه جورج برنارد شو ودبليو بي ييتس وإتش جي ويلز وجيمس جويس ويندهام لويس وهربرت ريد وتي أس إليوت، وربما كان إتس أيل مِنكن من أوائل المتحمسين الأمريكيين، تلاه ثيودور دريزر ويوجين أونيل وعزرا باوند وجاك لندن. أما في فرنسا، هيبوليت تاين وجان بوردو وأندريه جيد وبول فاليري وألفريد جاري ويوجين دو روبرتي، وفي إيطاليا، غابرييل دانونزيو وبينيتو موسوليني.

لكان هذا الإعجاب الكبير سيثير ذهول نيتشه بما فيه الكفاية، فقد أعرب أكثر من مرة عن رعبه من فكرة أن يكون لديه تابعون، ولكن المضمون السياسي للعبادة النيتشوية سيثير فزعه إلى أبعد حد. أعطى النهج الذي سلكته الحرب العالمية الأولى زخمًا دافعًا لنموذج نيتشوي مولع بالحروب، والذي اتخذ من إرادة القوة مذهبًا أخلاقيًا يجيز استخدام العنف والقسوة، وحوّل الإنسان الأعلى إلى كائنٍ وحشي أعظم، والإنسان الوحشي الاشقر بوصفه دافعًا لنهج التنشئة العنصرية. شجعت مقالات إليزابيث في الصحف على هذه التأويلات الملتوية، والتي وصفت فيها شقيقها على أنه صديقٌ للحرب.

طبعت مائة وخمسين ألف نسخة من «**هكذا تكلّم زرادشت**» في طبعة جيب خاصة للجنود الألمان في الحرب العالمية الأولى، لتصاحبهم في المعركة، إلى جانب «فاوستس» لغوته والعهد الجديد. يتساءل المرء عن جدوى استخدام هذه النصوص على أرض المعركة! كما يتساءل المرء عن ماهية ما كان سيفعله نيتشه حيال هذا التطور، وهو المعادي للنزعة العسكرية الألمانية.

كتب نيتشه في أحد دفاتر ملاحظاته المتأخرة «إذا ما استطعنا العدول عن الحروب، وهو الشيء الأفضل... لوجدت طريقة أفضل للاستفادة

من الاثني عشر مليارًا التي تكلف أوروبا سنويا للحفاظ على سلامها المدعوم بالقوة المسلحة؛ فلا يقتصر الاحتفاء بالفسيولوجيا على مستشفيات الجيش.. أن تأخذ مجموعة من الشبان الممتلئين طاقة وقوة ومن ثم ترميهم في وجه المدافع، فهذا جنون»[٣٣].

كان موسوليني هو أول شخصية سياسية كبيرة تدرك كيف يمكن ملاءمة الفلسفة النيتشوية مع أفكاره الخاصة عن القومية واستخدام العنف. عندما كان شابًا، وقبل تسلقه سُلم السلطة، كان من الجيل الطامح الذي عثر على أمله في نيتشه[٣٤]. في عام ١٩٣١، وبعد أن أصبح الأرشيف النيتشوي مليئًا بالمفاهيم النازية، وموسوليني دكتاتورًا إيطاليًا فاشيًا متأثرًا بهتلر جدًا، بعث (موسوليني) ببرقية لتهنئة إليزابيث بعيد ميلادها الخامس والثمانين. أعجبت إليزابيث بموسوليني كثيرًا، وشرعت بإقناع مسرح فايمار الوطني لعرض مسرحيةٍ شارك بتأليفها بعنوان «كامبو دي ماجيو»[٣٥]. عندما عُرضت المسرحية في شباط من ١٩٣٢، حضر هتلر إلى المسرح مصحوبًا بقوات العاصفة(*) وأهدى إليزابيث باقة كبيرة من الورود الحمراء. التقيا مرة أخرى بعد سنة في عرض لأوبرا تريستان تكريمًا لفاغنر في ذكرى رحيله الخمسين، بحلول ذلك الوقت كان هتلر مستشارًا لألمانيا.

«نحن ثملون بالحماسة، لأنه على رأس حكومتنا يقف شخص رائع واستثنائيٌ بالفعل، مثل مستشارنا المهيب أدولف هتلر»، هكذا تكلمت إليزابيث بحماسة مضيفة «الشعب، الرايخ، القائد»[٣٦].

بدأ انحدار الأرشيف النيتشوي إلى ساحة المعسكر النازي خلال فترة الحرب الداخلية لجمهورية فايمار(**) (١٩١٨-١٩٣٣)، عندما تعكرت ألمانيا جراء الاستياء من هزيمتها المهينة في الحرب العالمية الأولى ومعاناتها

(*) قوات العاصفة: القوات الخاصة الألمانية في الحرب العالمية الأولى. (المترجم)

(**) جمهورية فايمار: الجمهورية نشأت في ألمانيا في الفترة نتيجة الحرب العالمية الأولى وخسارة ألمانيا الحرب. سميت الجمهورية بهذا الاسم نسبةً إلى مدينة فايمار وسط ألمانيا والتي اجتمع بها ممثلو الشعب الألماني لصياغة الدستور الجديد. (المترجم)

من أزمات مروعة مثل الكساد الكبير والتضخم وبطالة ستة ملايين ألماني، مما أدى إلى ظهور قوى سياسية متطرفة مثل الشيوعية والقومية الاشتراكية.

إبان قيام جمهورية فايمار، تموضع الأرشيف النيتشوي في وسط القوى السياسية، حيث رحبت إليزابيث بالقومية الاشتراكية (النازيين)، التي تناغمت نزعتها القومية العدوانية ومعاداتها للسامية مع ميولها الخاصة. عينت إليزابيث ابن عمها ماكس أولر أمينًا للأرشيف النيتشوي. كان أولر جنديًا ذا خبرة، عاد من الحرب العالمية الأولى مُلتاعًا من الهزيمة الألمانية لينضم إلى الحزب القومي الاشتراكي، وسيشغل أولر منصب أمين الأرشيف حتى سقوط هتلر.

عملت إليزابيث مع أولر على أن تكتظ صالة الأرشيف بالقوميين الاشتراكيين الذين سيكتبون فلسفة حزبهم باسم نيتشه، أصبحت فيلا سيلبربلك وكرًا لعناكب الرُتيلاء الحاقدة النزّاعة إلى الانتقام التي تنبأ بها نيتشه وحذر منها:

«يا أصدقائي، لا أرغب في أن يختلط اسمي مع الآخرين الذين يسيئون فهمي. هناك من يُبشر بعقيدتي للحياة، وهم في الوقت نفسه... عناكب الرتيلاء... «لقد أصبح العالم مليئًا بعواصف ثأرنا الرعدية، وهذا ما نعتبره عدالة»، وهكذا يتكلمون مع بعضهم بعضًا... إنهم يشبهون المُلهَمين، لكن ما يُلهمهم ليس القلب، بل الثأر. عندما يكونون مُهذبين وباردين، فليست الروح من صيّرتهم هكذا، بل الحسد، حتى إن الغيرة هي ما قادهم إلى درب المفكرين؛ وهذه علامة على غيرتهم... من آهاتهم يتردد صوت الثأر، ومن ثنائهم ينضحُ البلاء، وعندما ينصّبون أنفسهم قُضاةً، فتلك هي سعادتهم. وهنا أنصحكم يا أصدقائي، لا تثقوا بكل من يثور داخله دافعُ العقاب! فهؤلاء هم أرذل الناس، ترتسم على وجوههم ملامحُ الجلادِ وكلب الصيد...»[٣٧].

عُين عناكب الرتيلاء، وجميعهم ذوو مكانة عالية، كمحررين أو أعضاء في لجنة الأرشيف النيتشوي. كان من بينهم كارل أوغست إيمج،

أستاذ الفلسفة القانونية في جامعة ينا، والوزير النازي المرتقب للحكومة التورينغينية وأحد الموقعين المهمين على ميثاق وقعه ثلاثمائة محاضر جامعي يدعمون فيه هتلر في آذار ١٩٣٣. كان هناك محرر آخر وهو الفيلسوف أوزوالد شبنغلر، الذي كان لإيمانه بالداروينية الاجتماعية تأثيرًا سامًا في التلاعب بأفكار نيتشه، فالتحريف الذي طرأ على نظرية داروين للانتقاء التطوري عبر صراع وبقاء الأقوى تُرجم إلى التفوق العرقي الألماني، مُبررًا علم تحسين النسل، ومسوغًا في النهاية عملية الحل الأخير(*). كانت المصطلحات النيتشوية «الإنسان الأعلى» و«أخلاق السادة» بمثابة عطايا قدمت لشبنغلر. استشاط هاري كيسلر غضبًا وازدراءً لتواجد شبنغلر البائس كليًا في لجنة الأرشيف ومن قدرته الأبدية على إطلاق الشعارات المبتذلة والتافهة.

أعد ألفريد بوملر، أستاذ الفلسفة في دريسدن وبرلين، طبعات جديدة من نصوص نيتشه، بما فيها طبعة أخرى من كتاب «إرادة القوة» الذي أعطى انطباعًا أن النص قد ألفه نيتشه نفسه. ترأس بوملر شعبة العلوم والمعرفة في قسم ألفريد روزنبيرغ، المسؤول عن الإشراف على كل أقسام التعليم الفكري والأيديولوجي[٣٨]، القسم الذي أصدر كتبًا مدرسية لأطفال المدارس تدرسهم نظريات العرق والدم على أنها حقائق. وُصف بوملر على أنه الشخص المسؤول عن تأسيس رابط بين نيتشه وهتلر[٣٩].

أشرف بوملر على إعداد محرقة للكتب سيئة السمعة في برلين. قبلها بأيام قليلة، انضم الفيلسوف مارتن هايدغر إلى الحزب النازي في احتفال عام طافح برمز الصليب المعقوف. ظهر على المنصات داعمًا لإضفاء النزعة النازية على الجامعات ودعا إلى إحراق المزيد من الكتب في كل البلاد[٤٠] انضم هايدغر إلى بوملر كمحرر لأرشيف نيتشه، حيث خرجا بفكرة

(*) عملية الحل الأخير أو «الحل النهائي للقضية اليهودية» هي الخطة النازية لترحيل اليهود قسرًا إلى المعسكرات لغرض الإبادة الجماعية خلال الحرب العالمية الثانية. (المترجم)

عجيبة مفادها أن أعمال نيتشه المنشورة بالكاد يمكن أن تكون ذات قيمة لأن فلسفته الحقيقية تكمن في تركته الأدبية التي تركها بعد مماته، ويقصدان الملكية الأدبية التي تلاعبت بها إليزابيث سلفًا لتناسب أغراضها الخاصة. كان الإعلاء من شأن التركة الأدبية إلى درجة الكتاب المقدس بمثابة مفتاح للفلاسفة والمحررين لأرشيف نيتشه ليقتطعوا ويلصقوا الشذرات المجزئة ويعيدوا جمعها لنقل أفكارهم الخاصة.

راقب هاري كيسلر ما يحدث بفزع، قائلًا: «داخل الأرشيف الكل نازيون، من حارس الباب إلى المدير... وهذا كفيل بأن يدفع المرء ليذرف الدموع... بانت من خلال فتحة الباب الأريكة حيث جلس نيتشه كأنه نسرٌ معتل في آخر مرة رأيته فيها... إنها ألمانيا الغامضة والمبهمة»(٤١).

هرب كيسلر إلى المنفى، تاركًا ألمانيا الحبيبة وفيلسوفه الحبيب، الذي تحولت رقصته الديونيسيوسية المؤيدة للحياة إلى رقصة للموت على يد أسياد ألمانيا الجدد.

بعد لقائه بإليزابيث، زار هتلر الأرشيف في الثاني من تشرين الثاني ١٩٣٣. وصل مستشار ألمانيا مع فريق حمايته الكامل، حاملًا سوطه المألوف. بقي في صالة الأرشيف ساعة ونصفًا، وعندما خرج منه كان السوطُ قد اختفى من يده، وحلّت محله عصا نيتشه، مقدمة كهدية له من إليزابيث(٤٢)، كما قدمت له نسخة من عريضة ١٨٨٠ الرافضة لليهود والتي قدمها برنارد فورستر إلى بسمارك. بعث هتلر بكمية مرزومة من تراب ألمانيا الأم إلى الباراغواي، لتنثر فوق قبر فورستر هناك.

كان هتلر مفتونًا بفكرة أنه الزعيم-الفيلسوف، وكان متيمًا بإسقاط الأسماء الكبيرة على نفسه. من المستحيل إثبات ما إذا كان هتلر قد درس نيتشه، ويُعتقد على نطاق واسع أنه لم يفعل. لم تكن كتب نيتشه من ضمن الكتب التي شملتها مكتبة هتلر إبان الفترة التي قضاها في السجن عام ١٩٢٤، عندما كتب «كفاحي»(٤٣). لكن من الممكن بالطبع أن يكون قد

احتفظ بها كجزءٍ من مجموعة كتبه آنذاك، والتي فُقدت فيما بعد، لكن مجموعته الأخيرة لم تحتوِ أي نسخةٍ جيدة. في تجمع نورمبيرغ(*) لعام ١٩٣٤، أخرج الحزب النازي فيلم «انتصار الإرادة» سيئ السمعة وهو عنوانٌ نيتشوي، وعندما سألت المخرجة ليني ريفنستال(**) هتلر عما إذا أحب قراءة نيتشه، أجاب: «كلا، لا يمكنني فعل الكثير مع نيتشه... إنه ليس معلمي»[٤٤].

لم تكن الأفكار المعقدة الواردة في كتب نيتشه ذات قيمة بالنسبة له، ولكن الشعارات والعبارات من قبيل «**الإنسان الأعلى**» و«**إرادة القوة**» و«**أخلاق السادة**» و«**الوحش الأشقر**» و«**ما وراء الخير والشر**» يمكن أن يستخدمها بطريقة سيئة لا محدودة. عازف البيانو الخاص بهتلر، إرنست هانفشتنغل الذي رافقه في زيارة على الأقل إلى الأرشيف، وصف الفوهرر على أنه مثل «ساقي» في حانة العبقرية يمزج بين كل ما قد يساعده في إعداد كوكتيل الإبادة الجماعية السام[٤٥]. يتبين من هذا الوصف أن نيتشه لم يكن الفيلسوف الوحيد الذي جُيرت أفكاره انتقائيًا وبطريقة سيئة. لقد انتُقيت الاقتباسات مثلما يُنتقى الكرز من كانط والمفكرين الآخرين الداعمين لمعاداة السامية والقومية واستثنائية العرق الألماني المتسيِّد. «إن المقصلة المحرَّفة لتعاليم جان جاك روسو على يد روبسبيير أعيد استخدامها بواسطة هتلر والغيستابو بتبسيطها السياسي لآراء نيتشه المتناقضة»[٤٦].

لكن حتى عندما قام مُعدو البروباغندا والمُطبلون النازيون، العاملون في لجنة الأرشيف النيتشوي، باغتصاب سلطة كلمات ومعاني نيتشه، فإن بينهم من أدرك عبثية استيلاء حزبهم على اسم نيتشه. علق إرنست كريك، المنظّر الأيديولوجي النازي البارز، بطريقة ساخرة قائلًا ما معناه إنه بصرف النظر عن أن نيتشه لم يكن اشتراكيًا ولا قوميًا، وهو معارضٌ للتفكير العنصري، إلا أنه كان ليكون مفكرًا رائدًا للقومية الاشتراكية![٤٧].

(*) تجمع نورمبيرغ أو رالي نورمبيرغ: التجمع السنوي للحزب النازي في ألمانيا، الذي أُقيم في الفترة من ١٩٢٣ إلى ١٩٣٨. (المترجم)

(**) ليني ريفنستال: مخرجة ألمانية (١٩٠٢-٢٠٠٣). (المترجم)

في عام ١٩٣٤، زار هتلر فيللا سيلبربلك مصطحبًا معه ألبرت شبير، المهندس المعماري الذي فضله لتصميم الشكل المعماري المتعالي والمتغطرس للرايخ الثالث. كان من المفرح لإليزابيث أن يصمم شبير نصبًا تذكاريًا لنيتشه، وساهم موسوليني بإرساله تمثالًا يونانيًا وحشيًا ضخمًا لديونيسيوس.

بلغت إليزابيث التسعين من عمرها عام ١٩٣٥. وقضت معظم أوقات ذلك العام في السرير، وكتاب «كفاحي» يُقرأ بصوتٍ عالٍ على مسامعها. كتبت إلى هتلر قبل تسعة أيام من وفاتها «لا يسع للمرء إلا أن يحب هذا الرجل العظيم والمهيب إذا ما عرفه جيدًا كما أعرفه أنا»[٤٨].

كان الموت لطيفًا مع إليزابيث. أصيبت بالإنفلونزا وتوفَّت بعد بضعة أيام، من دون ألم وبسلام، في الثامن من تشرين الثاني ١٩٣٥.

لقد ماتت كما عاشت، يخلو بالها من الشك بقدراتها الذاتية. لم تحظَ بأي مشكلات بإقناع نفسها بما أرادت تصديقه، وماتت سعيدةً مُتيقنةً من أنها كانت أكثر شخصٍ أحبه شقيقها، كما كانت تؤمن إيمانًا صادقًا أنه من خلال عظمتها تأكد خلود اسم نيتشه. فقد كانت هي، وليس شقيقها، من بنى وكوَّن الأرشيف، كانت هي، وليس شقيقها، من ترشّح إلى جائزة نوبل. كانت هي، وليس شقيقها، من كُرم بدكتوراه فخرية من جامعة ينا القديمة، كانت هي، وليس شقيقها، من أشرف على المبيعات الهائلة للكتب. كانت هي، وليس شقيقها، من تمتع بصداقة الرجل الأعلى مكانة في البلد، هتلر مستشار ألمانيا بجلده ولحمه.

جلس هتلر في الصف الأول في غرفة الأرشيف بينما كانت إليزابيث مستلقيةً في نعشها بأبهة. وضع متباهيًا أكليلًا ضخمًا إلى جانب نعشها، وأصغى بجدية إلى كلمة التأبين المغالية التي أثنت على إليزابيث بوصفها إحدى كاهنتي ألمانيا الخالدة، وقد كانت الكاهنة الأخرى كوزيما فاغنر. لكم كانت ستُسعدُ إليزابيث بهذا الإطراء. لم يسمح هتلر لنفسه بأن تُلتقط له صورٌ عندما يكون حزينًا، ولكنه ظهر في هذه المناسبة حزينًا.

كتب نيتشه: «أنا مرتعب... من فكرة أن يستولي أشخاصٌ غير مؤهلين وغير مناسبين على أفكاري يومًا ما، ومع ذلك، إنه عذاب كل معلم عظيم للبشرية: فهو يعلم أنه، وعلى ضوء الظروف والمصادفات، يمكن أن يكون مصيبة تنزل بالبشرية أو نعمة تحل عليها»[٤٩].

لم تكن غاية نيتشه أن تصبح فلسفته مصدرًا للنظريات السياسية على الاطلاق. تكمن مفارقة الاستيلاء على فلسفته في أن نيتشه كان مهتمًا فقط بالإنسان بوصفه فردًا، وليس الإنسان بوصفه حيوانًا في قطيع، سواء كان هذا القطيع سياسيًا أو دينيًا.

وصف نيتشه الإنسان بأنه «حيوانٌ مريض» لأن لديه كلّ شيءٍ ومع ذلك فهو مُصابٌ بمرضِ الحاجة الماسة إلى الميتافيزيقيا، والتي لا يمكن إشباعها. في محاولة لتحقيق هذه الحاجة الأبدية والراسخة، تحول الكثيرون من معاصري نيتشه إلى العلم والداروينية ولكن، كما أشار نيتشه، فإن المعنى العلمي ليس دينًا وأن التطور بعيدٌ عن الدرب الأخلاقي. إن قيمتي «الجيد» و«السيئ» من الناحية التطورية تعنيان «أكثر منفعة» و«أقل منفعة»، وهذا لا علاقة له بالأخلاق والأخلاقيات.

العبارة النيتشوية «مات الإله» قالت ما لا يجدر قوله لعصرٍ غير راغبٍ بالمضي قُدمًا للاعتراف بما هو واضح وجلي: وهو أنه دون الإيمان بإله سماوي لن تكون هناك أي سلطة أخلاقية للقوانين التي طُبقت طوال الألفي عام الأخيرة التي بُنيت فيها الحضارة.

ماذا يحدث عندما يشطب الإنسان القانون الأخلاقي الذي ُبني على أساسه صرح حضارته؟ ماذا يعني أن يكون الإنسان متحررًا من قيود الغايات الميتافيزيقية المركزية؟ هل سيحدث خُواء في المعنى حينها؟ وإذا حدث، فما الذي سيملىء هذا الخواء؟ إذا ألغينا الحياة القادمة، فإن المعنى المطلق يكمن هنا والآن. بعد أن أُعطي الإنسان القوة لكي يحيا حياةً متحررةً من الدين، عليه أن يتحمل مسؤولية أفعاله. ومع ذلك، رأى نيتشه

أن معاصريه قد قنِعوا بحياةٍ تقدم حلولًا وسطية كسولة، رافضين تفحص عالمهم المزيف: رافضين توجيه المطرقة على أصنامِ أفكارهم لمعرفة إذا ما كانت حقيقية صلبة أم العكس.

يبقى هذا الموضوع تحديًا حديثًا تمامًا. ربما يعود السبب في ديمومة جاذبية نيتشه إلى رغبته في أن لا يمدنا بأي إجابة، لنبقى وحدنا المعنيين بإيجاد المعنى والإجابة، إن وجدا، لأنفسنا وحياتنا: وهذا هو الإنجاز الحقيقي للإنسان الأعلى.

قد يرفض أحدهم العلم بوصفه إيمانًا بديلًا للدين؛ وقد يرفض أحدهم الإيمان الديني نفسه ولكنه يحتفظ بالقيم الأخلاقية. أولًا، على الإنسان أن يغدو ما هو عليه. ثانيًا، على الإنسان أن يتقبل قدره amor fati، وعليه أن يتقبل ما تقدمه له الحياة، أن يتجنب السير في الأزقة الظلامية لمحتقري الذات ومضمري الضغينة. هكذا سيتمكن الإنسان من التغلب على نفسه والعثور على السعادة الحقيقية كما وجدها الإنسان الأعلى، حيث يبدو الإنسان متصالحًا مع نفسه، عاثرًا على الفرح في تحقيق غايته الأرضية، ومبتهجًا بعظمة الوجود الكلية وراضيًا بمحدوديته الناتجة عن فنائه.

لسوء حظ نيتشه، أصبحت الرغبة في التغلب على أنفسنا مشوهةً بشكل سافر لتكون الرغبة في التغلب على الآخرين، إلى درجة أن هذه الرغبة تميل لتلقي بظلالها على قدرته في طرح الأسئلة الأبدية بطريقته الاستفزازية المجيدة. وبالمثل، أتاح اشتغاله المتفاني في تفحص كل جانب من جوانب الحقيقة وعدم تقديمه لأي إجابة غير «ربما...»، إمكانات غير محدودة للتأويل.

لو أنك زرت فيللا سيلبربلك اليوم، سترى أن الأشجار قد نمت في الحديقة، مخفية المنظر الرائع الذي سميت الفيللا عليه، لكنك لو مضيت وراء الأشجار إلى الحقل بجانب الحديقة، فبإمكانك الاستمتاع بالمنظر الذي أمكن رؤيته ذات مرة من شرفة نيتشه. بينما تطوف عيناك على مناظر غوته

التنويرية الفاتنة لعصر الكمال الكلاسيكي، ستغمرك البهجة وأنت مندهشٌ من قدرة الإنسان على استخدام أبسط مواد الطبيعة من تراب وحصى وماء ونباتات، وتحويلها إلى رؤية رمزية لقدرة الأرض على تحقيق الكمال من خلال مُثله العليا. سيكون أمامنا منظر ذو سمو ورفعة يمتد لعشرة أميال بهية قبل أن تختفي الجداول الجميلة والمروج المزدانة بقطعان الأغنام داخل العُباب الحبري لأشجار غابة إيتيرسبيرغ، وهنا يرتفعُ مَعلمٌ جديدٌ قبالة الأشجار في الأفق: المدخنة الطويلة الملوحة بالدخان لمحرقة معسكر بوخنفالد(*).

مثلما ترتسم ظلال تلك المداخن الفظيعة فوق المناظر الطبيعية، والتي تدل على مطامح الإنسان الثقافية العليا، فإن عبارات نيتشه النبوئية ستظل هي الأخرى مظللة بالدلالات البغيضة.

كتب نيتشه: «أعي قدري، يومًا ما سيقترن اسمي بذكرى حدث مخيف، بكارثة لم تُسبق بمثيلٍ على وجه الأرض، بزلزلة لأعمق نقطة في الضمير، بوقفة حسم ضد كل ما ظلّ مُعتقدًا وضرورةً ومقدسًا حتى الآن، فأنا لستُ إنسانًا، أنا عبوة ديناميت»(٥٠).

يغرق الفكر الذي شكله التاريخ في بحر النبوة. بيد أن السؤال الذي يتبادر لذهننا الذي خيم عليه الظل الطويل للإدراك المتأخر؛ أهذه صرخةُ رجلٍ يريد إطلاق عنان الشر على العالم؟ بل هي صيحةُ رجلٍ مبتهجٍ بالنصر، فجرٍ الأنفاق التي تمتد تحت أقدام أبناء عصره الخاملين اللامبالينّ بعواقب موت الإله، فاتحًا الطريق لمغامري الروح الارغونيين الجريئين ليبلغوا عوالم جديدة.

(*) معسكر بوخنفالد: معسكر اعتقال نازي بالقرب من فايمار في ألمانيا، في تموز ١٩٣٧.

(٢٢) وانطفأت شعلة ساكن الغرف المفروشة:

١. Klingbeil Enthüllungen über die Dr Bernhard Förstersche Ansiedlung Neu-Germanien in Paraguay.

٢. من إليزابيث فورستر نيتشه إلى فرانشيسكا نيتشه، أرسلت من جرمانيا الجديدة في الباراغواي.

٣. من برنارد فورستر نيتشه إلى ماكس شوبرت، ٢ حزيران ١٨٨٩.

٤. من إليزابيث فورستر إلى فرانشيسكا نيتشه.

٥. إليزابيث فورستر نيتشه، حياة نيتشه، المجلد الثاني، صفحة ٤٠٠.

٦. من إليزابيث فورستر نيتشه إلى فرانشيسكا نيتشه، ٢ تموز ١٨٨٩.

٧. إليزابيث نيتشه، تكتب بالألمانية «Eli Förster Dr Bernhard Förster's Kolonie».

٨. هاري كيسلر، اليوميات، ٢٣ تموز ١٨٩١.

٩. وردت في كتاب ليرد إيستون «الكونت الأحمر: حياة وأوقات هاري كيسلر»، مطبعة جامعة كاليفورنيا، ٢٠٠٢، صفحة ٤١.

١٠. في ٢٠ آب من عام ١٨٩١، أطلق البارون زيدلتز نيومان النار على ماري إليزابيث ميزنير وحاول بعدها إطلاق النار على نفسه. أصبح فيما بعد صحفيًا.

١١. للاطلاع على الظاهرة المماثلة في النرويج، راجع كتاب سو بردو «إدوارد مونش: ما وراء الصرخة»، مطبعة جامعة يال، ٢٠٠٥، صفحة ٧٢-٧٤.

١٢. هاري كيسلر، اليوميات، ٢٢ حزيران ١٨٩٦.

١٣. ١٣. هاري كيسلر، اليوميات، ٢٨ كانون الثاني ١٨٩٥.

١٤. أسس مسرح Die Freie Bühne في عام ١٨٨٩، والمجلة في عام ١٨٩٠. في عام ١٨٩٣، تغير العنوان إلى Neue Deutsche Rundschau.

١٥. فرتز كوغل (١٨٦٠-١٩٠٤) فيلولوجي وملحن موسيقي وكاتب.

١٦. بنيت في ١٨٨٩-١٨٩٠. من تصميم تيودور راينهارد ويونغانز.

١٧. من ميتا فون مارشلينز إلى الدكتور أولر، ١٤ تموز ١٨٩٨.

١٨. من بيتر غاست إلى فرانز أوفربك، ٤ آب ١٩٠٠.

١٩. هاري كيسلر، اليوميات، ٧ آب ١٨٩٧.

٢٠. Ich habe meinen Regenschirm vergessen».

٢١. هولنغدل، نيتشه: الإنسان وفلسفته، صفحة ٢٥٣.

٢٢. فرتز شوماخر، إستذكارات من عام ١٨٨٩، وردت في كتاب «محادثات مع نيتشه» بتحرير غيلمان، صفحة ٢٤٦-٢٤٧.

٢٣. Karl Böttcher Auf Studienpfaden: Gefängnisstudien Landstreicherstudien Trinkstudien Irrenhausstudien Leipzig ١٩٠٠ and Walter Benjamin 'Nietzsche und das Archiv seiner Schwester» ١٩٣٢ cited in Paul Bishop (ed.) A Companion to Friedrich Nietzsche Camden House NY ٢٠١٢ p. ٤٠٢.

٢٤. هاري كيسلر، اليوميات، ٢ تشرين الأول ١٨٩٧.

٢٥. هاري كيسلر، اليوميات، ٣ تشرين الأول ١٨٩٧.

٢٦. إليزابيث فورستر نيتشه، حياة نيتشه، الملجد الثاني، صفحة ٤٠٧.

٢٧. مصدر مجهول، ذكر في كتاب «محادثات مع نيتشه» بتحرير غيلمان.

٢٨. إليزابيث فورستر نيتشه، حياة نيتشه، المجلد الثاني، صفحة ٤١٠.

٢٩. ألقى خطاب التأبين المؤرخ الفني كورت بريسينغ (١٨٦٦-١٩٤٠). وصدر التعليق على خطاب التأبين من المهندس المعماري فرتز شوماخر. في عام ١٩٢٣، رشح بريسينغ إليزابيث لجائزة نوبل للآداب.

٣٠. إدوارد مونش، فريدريك نيتشه زيت على كانفاس، CM ٢٠١x١٦٠، ١٩٠٦، معرض تيل في ستوكهولم.

٣١. ٣١. إدوارد مونش، إليزابيث فورستر نيتشه، ١٩٠٦، زيت على كانفاس، CM ١١٥x٨٠، معرض تيل في ستوكهولم.

٣٢. جاءت ترشيحات إليزابيث نيتشه لنيل جائزة النوبل كالتالي: رشحها الفيلسوف الألماني هانز فايينغر عام ١٩٠٨. رشحها هانز فايينغر وهارلج هيرين عام ١٩١٦. رشحها هانز فايينغر عام ١٩١٧. رشحها الفيلولوجي جورج غويتز ١٩٢٣. رشحها كورت بريسينغ الذي ألقى خطابًا طويلًا جدًا في مأتم نيتشه. رشحها هانز فايينغر (مجددًا) عام ١٩٢٣.

٣٣. دفتر ملاحظات، W ١٣ ٦٤٦ W ١٣ ٦٤٥، ورد في كتاب «الأوروبي الخيّر»، صفحة ٢١٣.

٣٤. مع بداية عام ١٩١٢، كتب موسليني مقالًا كسيرة ذاتية عن نيتشه، La vita di Federico Nietzsche، نشرت في مجلة Avanti.

٣٥. ومع هذا فهي ليست الترجمة المباشرة لعبارة Campo di Maggio والتي لطالما ترجمت في الإنجليزية The Hundred Days.

٣٦. إليزابيث فورستر نيتشه، رسالة غير منشورة، فايمار، ١٢ يبار ١٩٣٣.

٣٧. هكذا تكلّم زرادشت، فصل ٢٩ «عن العناكب».

٣٨. ألفريد روزنبرغ، مفوض الرقابة على التعليم الايدولوجي والفكري للـ NSDAP، ١٩٤٣- ١٩٤٥.

٣٩. يوفونا شيرات، فلاسفة هتلر، مطبعة جامعة يال، ٢٠١٣، صفحة ٧٠.

٤٠. Breisgauer Zeitung، ١٨ أيار ١٩٣٣، صفحة ٣.

٤١. هاري كيسلر «داخل الأرشيف...»، ٧ آب ١٩٣٢، في كتاب «الكونت هاري كيسلر: يوميات كوزموبولتاني»، تحرير وترجمة شارلز كيسلر، مطبعة فونيكس، ٢٠٠٠، صفحة ٢٤٦- ٢٤٧.

٤٢. إن قصة شاهد العيان كتبها إرنست هانفشتنغل، عازف البيانو الخاص بهتلر، في كتابه عن ذكرياته، هتلر اللامعروف، جيبسون سكوير بوكس، ٢٠٠٥، صفحة ٢٣٣.

٤٣. راجع ريباك، مكتبة هتلر الشخصية، صفحة ٦٧- ٦٨.

٤٤. المصدر السابق، صفحة ١٢٩.

٤٥. هانفشتنغل، هتلر اللامعروف، صفحة ٢٢٤.

٤٦. المصدر السابق، صفحة ٢٢٤.

٤٧. إرنست كريك، أستاذ علم أصول التدريس بجامعة هايدلبرغ، مقتبس من ستيفن آشهايم، تركة نيتشه في ألمانيا، مطبعة جامعة كاليفورنيا، ١٩٩٢، صفحة ٢٥٣.

٤٨. من إليزابيث فورستر نيتشه إلى إرنست تيل، ٣١ تشرين الأول ١٩٣٥.

٤٩. رسالة إلى إليزابيث فورستر نيتشه من البندقية، منتصف حزيران ١٨٨٤.

٥٠. هذا هو الإنسان، «لِمَ أنا قدر»، ١.

شذرات نيتشوية

إن أسوأ القرّاء هم أولئك الذين يتصرفون مثل قوات ناهبة: يسلبون بعض الأشياء التي يمكنهم استخدامها، ويلوثون ويبعثرون الاشياء المتبقية، مطلقين الشتائم على الجميع.

إنساني مفرط في إنسانيته، الكتاب الثاني، شذرة ١٣٧.

منذ مائة عام والناس يتعرفون على أنفسهم في شذرات نيتشه وأمثاله وحكمه. يوجد أدناه اختيار شخصي لبعض هذه الشذرات التي يبدو أنها تتحلى بصدى معاصر قوي. غالبًا ما تتناقض هذه العبارات مع بعضها بعضًا، مذكرة إيانا كيف أحب نيتشه الاستفزاز، واصفًا نفسه بفيلسوف الـ«ربما..» أو الريبة. إن إيجاز هذه العبارات إلى جانب قدرتها على أن تعني ما يراه القارئ فيها (مثل قصائد بوب ديلان إلى حد ما) ساعدت على أن تنتشر أقواله في الثقافة الشعبية. وبما أن أفكاره قد تخللت روح العصر عبر مجموعة متنوعة من الترجمات المختلفة، فإن مصدر هذه الشذرات سيكون مكتوبًا في الأسفل، ولكن هذه النصوص اختيرت انتقائيًا من الترجمات الأكثر شيوعًا.

الهاوية:

إن الإنسان حبل معقود بين الحيوان والإنسان الأعلى، حبل يمتد فوق هاوية.

هكذا تكلّم زرادشت، «ديباجة زرادشت» الجزء الأول، القسم الرابع.

يجدر بمن يحارب وحوشًا أن يمعن النظر فيها لكي لا يصبح هو نفسه وحشًا، وإذا ما حدقت طويلًا في باطن الهاوية، فإن الهاوية ستحدق في باطنك بدورها.

ما وراء الخير والشر، «أقوال وفواصل» ١٤٦ .

الفن

إن الفن هو الاشتغال الأسمى، إنه بحق النشاط الميتافيزيقي في هذه الحياة.

مولد التراجيديا، مقدمة لـ«ريتشارد فاغنر».

الضجر

حتى الآلهة لا يستطيعون الفرار من الضجر.

عدو المسيح، قسم ٤٨ .

أليست الحياة أقصر بمائة مرة من أن نضجر فيها؟ .

ما وراء الخير والشر، «فضائلنا» ٢٢٧ .

يتحقق الهدف من جميع الترتيبات الإنسانية من خلال صرف انتباه الفرد عن إدراك الحياة.

شوبنهاور مربيًا، الفصل ٤ .

إن العجلة شأن عالمي لأن الجميع يفر من نفسه.

شوبنهاور مربيًا، الفصل ٥ .

المسيحية

إن المسيحية هي وسواس رومانسي لأولئك المتزعزعة أقدامهم.

دفتر ملاحظات ١٠، خريف ١٨٨٧، ١٢٧.

إن مملكة السماء شرطٌ يحققه القلب، وليس شيئًا يقع «على الأرض» أو «بعد الموت».

عدو المسيح، ٣٤.

إن كلمة «مسيحية» نفسها ناتجة عن قصور في الفهم، ففي الحقيقة، كان هناك مسيحي واحد فقط، وقد مات على الصليب.

عدو المسيح، ٣٩.

القديس لوقا ١٨ الآية ١٤ معدلة- من تواضع رغب في إعلاء مكانته.

إنساني مفرط في إنسانيته، في تأريخ الأحاسيس الأخلاقية ٨٧.

ساخط على عائلته

تجمع الناس علاقة في حدها الأدنى بالوالدين، سيكون أمرًا مبتذلًا للغاية لو أن علاقة ربطتكم بوالديكم.

هذا هو الإنسان، «لما أنا بهذه الحكمة» ٣

الشهرة

يتوجب على المرء أن يدفع ثمنًا باهضًا من أجل امتلاك الخلود؛ على المرء أن يموت عدة مرات بينما لا يزال على قيد الحياة.

هذا هو الإنسان، فصل «هكذا تكلّم زرادشت»، القسم ٥.

لست إنسانًا، أنا عبوة ديناميت.

هذا هو الإنسان، «لم أنا قدر»، القسم ١

صيغة لبلوغ العظمة

صيغتي لبلوغ العظمة البشرية هي: itaf roma، أحب قدرك. لا تطالب بشيء غير اعتيادي، لا في ما مضى ولا فيما سيأتي إلى أبد الآبدين. عليه أن لا يتحمل هذه الضروة وحسب، بل أن يحبها.

هذا هو الإنسان، لِمَ أنا بهذا الذكاء»، قسم ١٠.

الإله

لقد مات الإله، ولكن بالنظر إلى الطريقة التي يتعامل بها النوع الإنساني، قد تظل هناك كهوف سيظهر فيها ظله لآلاف السنين. -أما نحن- لا يزال يتعين علينا أيضًا أن نقهر ظله.

العلم المرح، الكتاب الثالث، ١٠٨.

الإله قد مات! وسيبقى ميتًا! ونحن الذين قتلناه! كيف يمكننا تعزية أنفسنا ونحن قتلةٌ أسوء من كل القتلة! فأقدس وأقوى شيءٍ امتلكه العالم قد نزف حتى الموت تحت سكاكيننا؛ من سيمسح هذا الدم عنا؟ أوليست خطورةَ فعلتنا هذه كبيرة بالنسبة لنا؟ ألا يتحتم علينا أن نصبح آلهة حتى نستحق هذا الصيت بجدارة؟.

العلم المرح، الكتاب الثالث، ١٢٥.

أكان الإنسان خطيئة الإله، أم أن الإله خطيئة الإنسان؟

غسق الأوثان، «أمثال وحكم ساخرة» ٧.

الحياة

أغدُ ما أنت عليه.

العلم المرح، الكتاب الثالث، ٢٧٠.

إن الإنسان جسر وليس غاية.

هكذا تكلّم زرادشت، ديباجة زرادشت، الجزء الأول ٤.

لا أحد باستطاعته أن يشيد لك الجسر الذي تعبر عليه فوق جدول الحياة الجاري، لا أحد سواك.

شوبنهاور مربيًا، الفصل ١ .

إن الحياة نفسها هي إرادة للاقتدار.

ما وراء الخير والشر، في تحكيمات الفلاسفة، ١٣ .

إحيوا بخطر! ابنوا مدنكم على سفوح جبل فيزوف!

العلم المرح، الكتاب الرابع، ٢٨٣ .

لكي يلد المرء نجمًا راقصًا، فعلى الفوضى أن تعمَّ في داخله.

هكذا تلكم زرادشت، ديباجة زرادشت»، الجزء الأول ٥ .

نريد أن نكون شعراء في حياتنا، في أشيائنا الصغيرة واليومية أولًا وقبل كل شيء.

العلم المرح، الكتاب الرابع، ٢٩٩ .

ما لا يقتلني يجعلني أقوى.

غسق الاوثان، أمثال وحكم ساخرة، ٨.

هذا الذي يمتلك الـ لماذا، باستطاعته في الحياة أن يحتمل تقريبًا أي كيف.

غسق الأوثان، أمثال وحكم ساخرة، ١٢ .

لا يجاهد المرء من أجل تحصيل السعادة؛ وحده الإنجليزي من يفعل ذلك.

غسق الأوثان، أمثال وحكم ساخرة، ١٢ .

فعلى المرء أن يسلك طريقًا موحشًا ومحفوفًا بالمخاطر في هذا الوجود، خصوصًا أننا سنخسر هذا الطريق لا محالة.

شوربنهاور مربيًا، الجزء الأول.

كيف يمكن للإنسان أن يعرف ذاته؟ وهو الكائن المبهم والملثم؛ وإذا كان للأرنب البري سبع طبقات جلدية، فبإمكان الإنسان يسلخ الطبقات الجلدية السبعة سبعين مرة دون أن يكون قادرًا على أن يصرح «هذه ذاتي الحقيقية، ولم تعد قشرة خارجية».

شوبنهاور مربيًا، الفصل الأول.

ما من منتصر يؤمن بالفرصة.

العلم المرح، الكتاب الثالث، ٢٥٨.

إن حسنة ذاكرة المرء السيئة أنه يستمتع بتجربة الأشياء الجيدة في كل مرة كما لو كانت المرة الأولى.

إنساني مفرط في إنسانيته، «الإنسان وحيدٌ مع نفسه»، ٥٨٠.

لم تعد الفضيلة تجتمع مع أي معتقد؛ فقد تلاشت جاذبيتها. على أحدهم أن يفكر في طريقة ما لإعادة تسويقها كرّة أخرى، ربما كأنموذج استثنائي من المغامرة والانغماس.

دفتر الملاحظات التاسع، خريف ١٨٨٧، ١٥٥.

الزواج

تنهد بعض الرجال على اختطاف زوجاتهم، لكن الأكثرية تنهدوا على حقيقة أن لا أحد أراد اختطافهن.

إنساني مفرط في إنسانيته، «المرأة والطفل»، ٣٨٨.

الرياضيات

تفترض قوانين الأعداد وجود أشياء مطابقة، لكن في الواقع لا وجود لشي مطابق لشيء آخر.

إنساني مفرط في إنسانيته، «عن الأشياء الأولى والأخيرة»، ١٩.

لم تكن الرياضيات لتوجد لو أن الإنسان عرف منذ البداية أنه لا يوجد في الطبيعة شيء مثل خط مستقيم أو دائرة مثالية أو لقياس مطلق.

إنساني مفرط في إنسانيته، «عن الأشياء الأولى والأخيرة»، ١١ .

الميتافيزيقيا

لكن حتى لو أُثبت وجود هذا العالم الميتافيزيقي فمن المؤكد أن معرفة كنه هذا العالم ستكون تقريبًا معرفة عقيمة من بين كل المعارف؛ معرفة لا طائل منها كمعرفة بحار لتركيبة الماء الكيميائية تحطمت سفينته في عرض البحر!.

إنساني مفرط في نسانيته، «عن الأشياء الأولى والأخيرة»، ٩ .

وحوش

إلى العظمة ينتمي الفزع، لا ينخدعن أحدكم بهذا.

دفتر ملاحظات ٩، خريف ١٨٨٧، ٩٤ .

الشاربان

أكثر الرجال دماثة وعقلانية يستطيع، إذا كان ذا شارب كبير، أن يجلس محصنًا بظلال شاربه ويشعر بالأمان هناك -وبالنظر إلى الإضافة التي يقدمها الشارب الكبير، فإنه سيترك في أنظار الناس انطباع من كان عسكريًا وغضوبًا وفي بعض الأحيان عنيفًا- وعلى هذا النحو سيعامله الناس.

الفجر، الكتاب الرابع، ٣٨١.

الموسيقى

لولا الموسيقى، لكانت الحياة غلطة. حتى أن الألمان تخيلوا الرب ينشد الأغاني.

غسق الأوثان، «أمثال وأحكام ساخرة»، ٣٣.

هل فاغنر كائن إنساني أصلًا؟ أم أنه بالأحرى مرضٌ؟ بلمسته يتلوث كل

شيء، لقد أصاب الموسيقى بالمرض.

قضية فاغنر، الفصل ٥ .

الموسيقى والمخدرات

أنت بحاجة للحشيش للتخلص من ضغط عصبي لا يحتمل. حسنًا عندها، أنا بحاجة إلى فاغنر. إنه الترياق لكل شيء ألماني.

هذا هو الإنسان، «لِمَ أنا بهذا الذكاء»، ٦ .

القومية

«ألمانيا، ألمانيا فوق كل شيء»، أخشى أن تكون هذه نهاية الفلسفة الألمانية.

غسق الأوثان، «ما يفتقر له الألمان»، ١ .

حتى لو كنت ألمانيًا خبيثًا، فأنا في كل الأحوال أوروبي خيّر.

من رسالة إلى والدته، آب ١٨٨٦ .

الفلسفة

يقول أرسطو، على الكائن أن يكون حيوانًا أو إلهًا كي يعيش وحيدًا. لكن بإمكانك أن تكون كليهما- فيلسوفًا.

غسق الأوثان، «أمثال وحكم ساخرة»، ٣.

أفلاطون ممل.

غسق الأوثان، «بم أدينُ للأقدمين»، ٢ .

ما كانت هناك فلسفة أفلاطونية لولا وجود شبان يافعون جميلون في أثينا. تعرف الفلسفة الأفلاطونية على أنها أكثر فلسفة تشبه منافسة إيروتيكية.

غسق الأوثان، «مناوشات رجل في غير آوانه»، ٢٣ .

يرغب فلاسفة اليوم أن يتمتعوا بالمبدأ الرباني في أن يكونوا غير مفهومين.

الفجر، الكتاب الخامس، ٥٤٤.

تعتبر التفسيرات الصوفية عميقة، لكنها في الحقيقة ليست حتى سطحية.

العلم المرح، الكتاب الثالث، ١٢٦.

أن نعثر على العمق في كل شيء، هي فضيلة غير مريحة. إنها تجهد عين المرء طوال الوقت، وفي النهاية يعثر على أكثر مما كان يرغب.

العلم المرح، الكتاب الثالث، ١٥٨.

توفر الفلسفة للمرء ملاذًا لا تطأه قدم الطغيان، كهف داخلي ومتاهة قلب؛ وهذا ما يزعج الطغاة.

شوبنهاور مربيًا، ٣.

إن الأفكار ظلال لمشاعرنا؛ دائمًا ما تكون أكثر قتامة وأكثر خواء وأبسط.

العلم المرح، الكتاب الثالث، ١٧٩.

إن المعادلة السقراطية: السبب= الفضيلة= السعادة، تعارض جميع غرائز الأغريق القدماء.

غسق الأوثان، «مشكلة سقراط»، ٤.

الفلسفة والتعليم

إنها لطريقة بائسة يرد بها المرء فضل معلمه اذا ما بقي مجرد تلميذ.

هذا هو الإنسان، مقدمة، ٤.

كيف تفسد شابًا: أرشده بأن يحمل تقديرًا عاليًا فقط لأولئك الذين يفكرون مثله.

الفجر، الكتاب الرابع، ٢٩٧.

التصوير

في كل مرة يلتقط فيها العملاق بعينه الأحادية(*) صورة لي، أحاول أن اتجنب الظهور بشكل كارثي، ولكنني أظهر في كل مرة مخلدًا من جديد كقرصان أو درجة صوتية صادحة أو بويار(**).

من رسالة إلى مالويدا، ٢٠ كانون الأول ١٨٧٢ .

السياسة

الأخلاق غريزة القطيع المزروعة في الفرد.

العلم المرح، الكتاب الثالث، ١١٦ .

كل من شيد «جنة جديدة» على الأرض في يومٍ من الأيام، حشّد القوة التي احتاجها في عمله عبر جحيمه الخاص.

في جينالوجيا الأخلاق، المقالة الثالثة، قسم ١٠ .

من يفكر كثيرًا لن يكون عضوًا مناسبًا للحزب، لأنه يعتقد أن تفكيره سينفتح عبر الحزب على الجانب الآخر في أقرب فرصة.

إنساني مفرط في إنسانيته، «الإنسان وحيدًا مع نفسه»، ٥٩٧ .

ذلك الذي يتكلم بانفعالٍ عن حقوقه، يشك بامتلاكه لأية حقوق من الأساس.

إنساني مفرط في إنسانيته، «الإنسان وحيدًا مع نفسه»، ٥٩٧ .

(*) Cyclops: عملاق في الميثولوجيا الإغريقية بعين واحدة. في الرسالة يشبه نيتشه الكاميرا بعملاق ذي عين واحدة. (المترجم)

(**) Boyar: بويار، هو فرد من الطبقة الارستقراطية الروسية، يأتي بعد مرتبة الأمير مباشرة. (المترجم)

التملك

يحط التملك في العادة من قيمة الامتلاك.

العلم المرح، الكتاب الأول، ١٤.

يتملك المرء آراءه بذات الطريقة التي يتملك بها أسماكًا، إلى الدرجة التي يتملك فيها المرء بركة للأسماك الحية. على المرء أن يذهب إلى صيد السمك وأن يكون محظوظًا، عندها سيحظى بأسماكه الخاصة، وأقصد: آرائه الخاصة. وأنا أتكلم هنا عن أسماك حية/ آراء حية. يرضى البعض بأسماك محنطة، وفي رأسها قناعات.

إنساني مفرط في إنسانيته، «المتجول وظله»، ٣١٧.

ما بعد الحقيقة

إن القناعات أخطر الأعداء على الحقيقة إلى حد بعيد من الكذب.

إنساني مفرط في إنسانيته، الإنسان وحيدًا مع نفسه»، ٤٨٣.

إن الناس في عصور الفساد شديدي الذكاء ومفترون، يعرفون أن هناك طرقًا أخرى للقتل غير تلك التي تتم بواسطة خنجر أو الاعتداء الجسدي؛ ويعرفون أيضًا أن ما يقال بطريقة حسنة سيتم تصديقه.

العلم المرح، الكتاب الأول، ٢٣.

إن أكثر الطرق غدرًا للإضرار بقضية ما تتمثل عبر تعمد الدفاع عنها باستخدام حجج ضعيفة.

العلم المرح، الكتاب الثالث، ١٩١.

تلفزيون الواقع

دون الوحشية لما أقيم مهرجان، هذا ما يعلمنا إياه الجزء الأعمق والأقدم من تأريخ الإنسان، وفي العقاب هناك قدرٌ كبير مما هو احتفالي!.

في جينالوجيا الأخلاق، المقال الثاني، ٦.

البطل الرومانسي

إن التميز الذي يكمن في كون المرء تعيسًا هو شعور عظيم (كما لو أن السعادة كانت علامة على الضحالة والتكاسل والعمومية)، حتى أننا نحتج في العادة لو أخبرنا أحدهم «لكن، كم أنت سعيد؟».

إنساني مفرط في إنسانيته، «إنسان وحيدًا مع نفسه»، ٥٣٤.

لا توجد طريقة عزاء مؤثرة، لأولئك الذين في حاجة للعزاء، مثل التوكيد على أن لا عزاء محتمل في حالة مثل حالتهم: وهذا ما يلمح إلى درجة عالية من التميز التي يحظون بها لدرجة أنهم يرفعون رؤوسهم مرة أخرى فور سماعهم ذلك.

الفجر، الكتاب الرابع، ٣٨٠.

حقيقة

لا توجد ظواهر أخلاقية، بل تأويلات أخلاقية للظواهر.

ما وراء الخير والشر، أقوال وفواصل، ١٠٨.

إن الحقيقة المتمثلة بأن حدثًا ما يقع بشكل منتظم ومتوقع لا يعني أن يقع بالضرورة.

دفتر ملاحظات ٩، خريف ١٨٨٧، ٩١.

إنَّ لاعقلانية شيء ما ليست حجة ضده، بل بالأحرى هي شرط وجوده.

إنساني مفرط في إنسانيته، «الإنسان وحيدًا مع نفسه»، ٥١٥.

لا وجود لحقائق، إنها مجرد تأويلات فحسب.

دفاتر ملاحظات صيف ١٨٨٦ وخريف ١٨٨٧، ٩١.

الجنس

الغريزة الجنسية: إنها أشواكٌ وخوازيقٌ لأولئك الذي يحتقرون الجسد، لأنها

تسخر وتستهزئ بكل المعلمين...

الغريزة الجنسية: إنها النار الخفيفة التي يطهى عليها الرعاع بالشهوة..

الغريزة الجنسية: بريئة وحُرة لذوي القلوب الحُرة..

الغريزة الجنسية: سأحيط أفكاري وقلبي بسياج كي لا يخترقها الخنازير والمتسللين..

هكذا تكلّم زرادشت، عن الشرور الثلاثة، ٢.

الدولة

تتطلب الدولة رجالًا يقدمون الولاء الأعمى الذي اعتادوا على تقديمه للكنيسة.

شوبنهاور مربيًا، ٤.

كذبٌ كل ما تقوله الدولة، ومسروقٌ كل ما بحوزتها.

هكذا تكلّم زرادشت، الكتاب الأول، «عن الصنم الجديد».

الدولة هي اسم لأقسى الغيلان ذوي القلوب القاسية. تكذبُ بدم بارد؛ وتنزلق الكذبة من فمها: أنا الدولة، أنا الشعب.

هكذا تكلّم زرادشت، الكتاب الأول، «عن الصنم الجديد».

مكمل السفر

الفلسفة كما فهمتها وعشتها حتى يومي هذا، هي أن تعيش بحرية في الجليد وعلى الجبال الشاهقة.

هذا هو الإنسان، مقدم، ٣.

إن أجمل منظر لن يضمن محبتنا بعد أن عشنا فيه لثلاثة أشهر، بينما يجذب ساحل قصي جشعنا.

العلم المرح، الكتاب الأول، ١٤.

لا تثق بأي فكرة تطرأ على بالك وانت جالس بين الجدران

هذا هو الإنسان، «لِمَ أنا بهذا الذكاء»، ١ .

عبيد الأجرة

إرهاق وفضول وشفقة- إنها رذائلنا الحديثة.

دفتر ملاحظات ٩، خريف ١٨٨٧، ٤١ .

من سوء حظ الرجال الفعالين أن نشاطهم لطالما كان غير عقلاني قليلًا. على سبيل المثال، لا يحق لنا أن نستعلم عن غاية نشاط المصرفي الذي لا يكل ولا يمل من جمع المال، لأنه شأن غير عقلاني. إن العاملون يتدحرجون كما تتدحرج الحجارة، بما يتلائم مع حماقة الآلة.

إنساني مفرط في إنسانيته،
«صفات الحضارة السامية والحضارة المتدنية»، ٢٨٣ .

ينقسم البشر، اليوم، كما هو الحال دائمًا، إلى مجموعتين: عبيد وأحرار. كل من لا يملك ثلثي يومه لنفسه ما هو إلا عبد، وأي كان منصبه: رجل دولة أو تاجر أو موظف أو عالم.

إنساني مفرط في إنسانيته،
« صفات الحضارة السامية والحضارة المتدنية»، ٢٨٣ .

حرب

كل من يحيا من أجل القتال لديه مصلحة في أن يبقى عدوه على قيد الحياة.

إنساني مفرط في إنسانيته، «الإنسان وحيدًا مع نفسه»، ٥٣١ .

تنحسر مياه الدين تاركةً وراءها مستنقعات وبرك مياه آسنة، فتنجرفُ الأمم مرة أخرى بعيدًا عن بعضها بعدائية كبيرة، توّاقةً لتمزيق بعضها بعضًا الى أشلاء

شوبنهاور مربيًا، ٤ .

المرأة

لقد خلق الإله المرأة. وبالفعل، تبخر الضجر منذ تلك اللحظة، لكن أشياء أخرى تبخرت أيضًا! فقد كانت المرأة خطيئةُ الإله الثانية.

عدو المسيح، ٤٨.

إن الرجل الحقيقي بحاجة إلى أمرين: الخطر واللعب. ولهذا السبب يرغب الرجل بالمرأة- الألعوبة الأكثر خطورة.

هكذا تكلّم زرادشت، الكتاب الأول،
«عن النساء، في صباهن وشبابهن وشيخوختهن».

تعرف النساء هذا: أسمن قليلًا، أنحف قليلًا، آهٍ! كم من مصير رهُن في هذا القليل!.

هكذا تكلّم زرادشت، الكتاب الثالث، «عن روح الثقل»،
٢.

أذاهبٌ أنت إلى امرأة؟ فلا تنسَ أن تأخذ السوط معك

هكذا تكلّم زرادشت، الكتاب الأول
عن النساء، في صباهن وشبابهن وشيخوختهن».

الكُتّاب

هناك شيء فكاهي في رؤية الكتّاب الذين يستمتعون بحفيف ثنيات ثوبهم المصنوع من الجمل الطويلة المتشابكة؛ وكأنهم يحاولون إخفاء أقدامهم.

العلم المرح، الكتاب الرابع، ٢٨٢.

لا يمتلك الحق في كتابة جمل طويلة إلا من كانت له رئتين كبيرتين جدًا.

قواعد الكتابة إلى لو سالومي

الأفكار في الشعر

يقدم الشاعر أفكاره على نحو احتفالي على عربة الإيقاع: لأن الأفكار في

العادة لا تستطيع السير على الأقدام.

إنساني مفرط في إنسانيته، «من أرواح الفنانين والكتاب»، ١٨٩.

إذا كان صحيحًا أن الغابات في طريقها إلى التقلص، فهل سيأتي الوقت عندما يصبح لزامًا استخدام المكتبات كحطب للنار؟ طالما أن الكتب ولدت من دخان وبخار الدماغ، فربما ينبغي أن تعود الكتب إلى تلك الحالة. فإن لم تتضمن النار بين صفحاتها، وجب أن تلتهمها النيران عقابًا لها.

شوبنهاور مربيًا، ٤.

إنني الألماني الأول الذي برع في كتابة الشذرة، والشذرات صيغة للأبدية. طموحي هو أن أقول في عشر جُمل ما يقوله الآخرون في كتاب كامل، وما لا يقوله أي أحد آخر في كتاب كامل.

غسق الأوثان، «مناوشات رجل في غير آوانه»، ٥١.

ملحق صور



والدة نيتشه فرانشيسكا أولر
١٨٢٦ - ١٨٩٧



والد نيتشه القس كارل لودفيغ نيتشه
١٨١٣ - ١٨٤٩



شقيقة نيتشه إليزابيث في عمر السابعة عشرة. عندها لم تعرف الشك ولن تعرفه على الإطلاق



فريدريك نيتشه بعمر السابعة عشرة. عندها بدأت رحلته في الشك



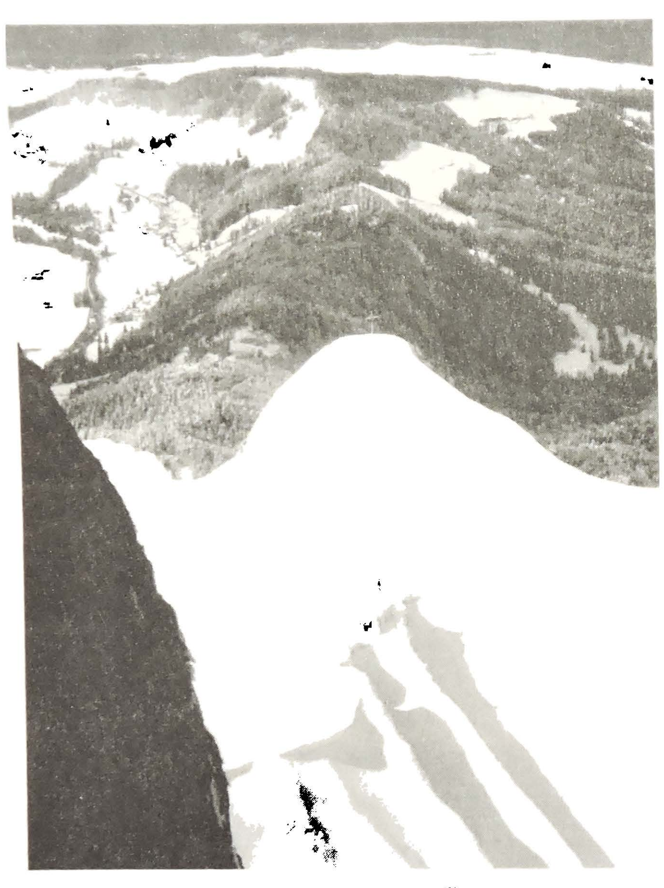
كوزيما فاغنر عام ١٨٧٠
في بداية علاقتها بنيتشه



ريتشارد وكوزيما فاغنر عام ١٨٧٥،
عندما كان نيتشه مهووسًا بهما



تريبشن، منزل فاغنر. ويظهر جبل بيلاتوس في الخلفية



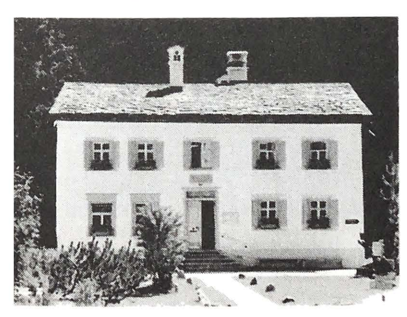
الكنيسة على جبل بيلاتوس



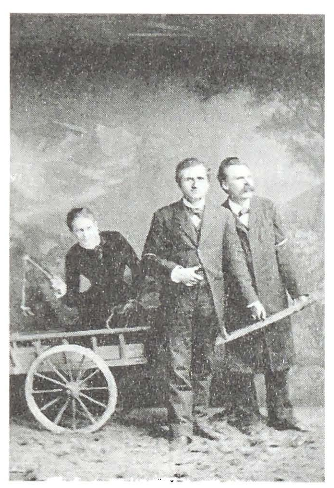


سيلس ماريا المحببة على
قلب نيتشه، تحيا الفلسفة
على الجبال الشاهقة

سيلس ماريا، مؤلفة الكتاب
بجانب صخرة زرادشت حيث
هبط وحي زرادشت على نيتشه



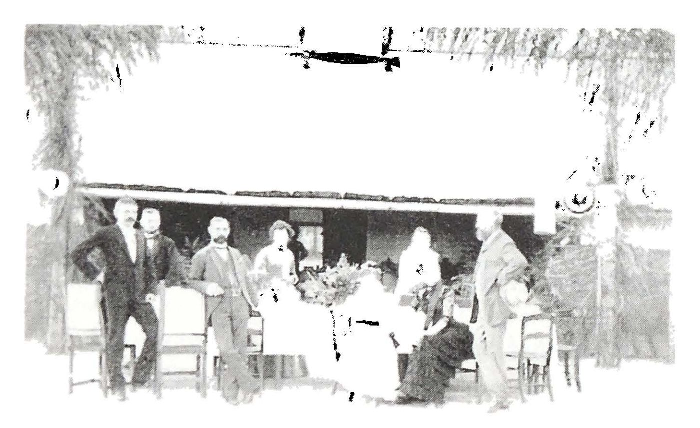
منزل جيان دوريش في سيلس
ماريا. غرفة نيتشه في الجانب
العلوي الأيمن



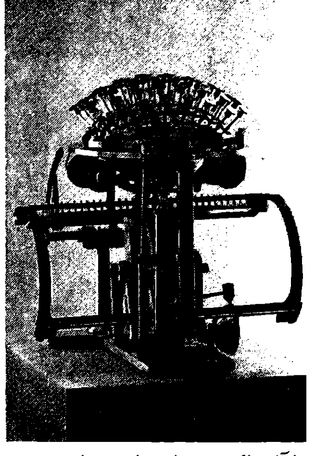
«عندما تذهب إلى النساء لا تنس أن تأخذ السوط معك» لو سالومي، تلوّح بالسوط على نيتشه وبول ريه



لو سالومي، ذات الجمال المغري الذي فتنت بواسطته نيتشه، ريلكه، وفرويد



قصر فورسترهوف. بارغواي، حيث حكمت منه إليزابيث نيتشه مستوطنتها المعادية للسامية



الآلة الكاتبة، التي لم يستطع نيتشه العمل عليها أبدًا



نيتشه في العام ١٨٨٢ في قمة عطائه

Also sprach Zarathustra.

Ein Buch für Alle und Keinen.

von

F. N.

Mit diesem Buche bin ich in einen neuen „Ring" eingetreten – von jetzt ab werde ich wohl in Deutschland unter die Verrückten gerechnet werden. Es ist eine wunderliche Art von „Moral-Predigten"

أعلن نيتشه عن كتابه هكذا تكلم زرادشت في شباط ١٨٨٣



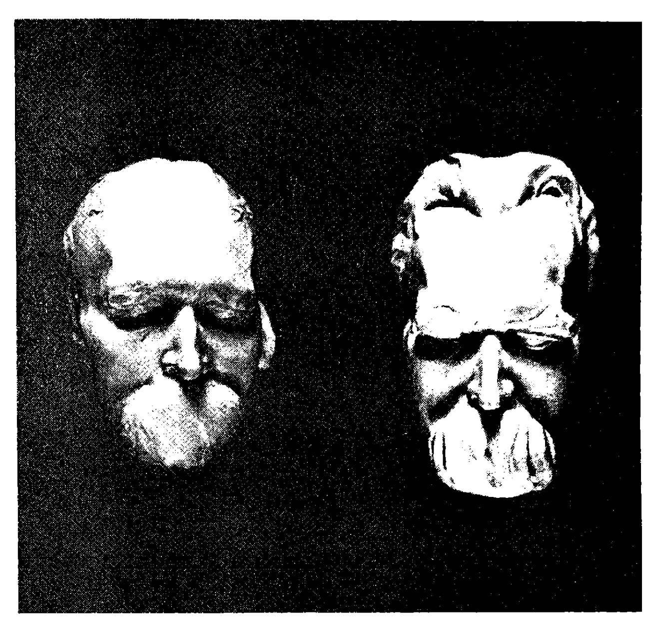
تتموضع إليزابيث بجانب أخيها نيتشه، متحكمة به ومرتدية قناع المحبة



نيتشه تحت رعاية والدته في العام ١٨٩٠ بعد أن فقد عقله



هتلر يظهر حزينًا في جنازة إليزابيث



قناعا الموت لنيتشه. على اليسار هو الأصلي، وعلى اليمين، القناع الذي عدّلته شقيقته إليزابيث

نبذة عن المؤلفة

سو بريدو: روائية إنجليزية وكاتبة سيرٍ ذاتية. إحدى أشهر السير الذاتية التي كتبتها هي سيرة الرسّام إدوارد مونش بعنوان «إدوارد مونش، ما وراء الصرخة»، والذي رسم جدتها في وقتٍ سابق. قبل أن تمتهن الكتابة، تدربت لتكون مؤرخةَ فنون في فلورنسا وباريس ولندن.

الجوائز والترشيحات:

• فازت بجائزة جايمس تايت بلاك ميموريال، وهي جائزة تأسست عام ١٩١٩، وتُعتبر أقدم جوائز بريطانيا الأدبية، وذلك عن سيرة مونش الذاتية.

• ترشحت في القائمة القصيرة لجائزة ساموبل جونسون، جائزة بريطانية أصبح اسمها في عام ٢٠١٥ جائزة بايلي جيفورد للإعمال اللاقصصية، وكان ترشحها عن كتابة سيرة حياة ستريندبرغ.

• فازت بجائزة داف كوبر، وهي جائزة بريطانية سنوية تُمنح للمؤلفات الانجليزية والفرنسية، عن كتابة سيرة حياة ستريندبرغ.

• فازت بجائزة هاثورندن عن سيرة حياة نيتشه.

أعمالها:

• الميكانيكي الفظ، (١٩٩٧).

• الشمال المغناطيسي، (١٩٩٨).

• إدوارد مونش، ما وراء الصرخة، (٢٠٠٥).

• ثور هيرامب، (٢٠٠٦).

• حياة ستريندبرغ، (٢٠١٢).

نبذة عن المُترجمَين:

• أحمد عزيز سامي، من مواليد ١٩٨٥/ بغداد، تخرج في الجامعة المستنصرية/ كلية الآداب- قسم اللغة الانجليزية وآدابها. ترجم كتاب «كونديرا، كتاب الضحك الشيطاني»، عن دار نابو ٢٠١٨ و«رسائل جورج أورويل» عن دار الرافدين ٢٠١٩ و«أنا عبوة ديناميت، سيرة حياة نيتشه» عن دار نابو ٢٠٢٠.

• سارة أزهر الجوهر، من مواليد ١٩٩٠/ بغداد، تخرجت في الجامعة المستنصرية/ كلية الآداب- قسم الترجمة. ترجمت كتاب «كونديرا، كتاب الضحك الشيطاني»، عن دار نابو ٢٠١٨ و«رسائل جورج أورويل» عن دار الرافدين ٢٠١٩ و«أنا عبوة ديناميت، سيرة حياة نيتشه» عن دار نابو ٢٠٢٠.

الفهرس

يسلط هذا الكتاب الضوء
على رمز فلسفي أسيء
فهمه لزمن طويل
New York Times»
نيو يورك تايمز»

أنا عبوة ديناميت!
حياة فريدريك نيتشه

لم تبخل المكتبة العربية على نيتشه بمكان بين أرففها، كيف لا وهو محطم الأصنام وصانع الإنسان الأعلى الذي لم يكن له معلّم ولا تلميذ...

قد نعتقد بأننا نعرف كل شيء عن هذا الفيلسوف، فجميع أعماله مترجمة إلى اللغة العربية وقصته مع النساء معروفة، وكذلك شارباه اللذان قد يكونان أشهر شاربين. إلّا أنّ «سو بريدو» ستفاجئ القارئ، الذي لطالما انتابه الفضول حول هذا الفيلسوف الإشكالي، بتفاصيل جديدة عن حياته من طفولته حتى وفاته، وذلك بأسلوب أدبي ساحر وممتع.

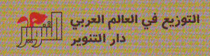
يصلح هذا الكتاب لأن يكون وسيلة للمترددين والحيارى لمعرفة كيفية البدء مع أفكار هذا الفيلسوف الكبير والمثير للجدل.

الناشر

نيتشه كما لم نعرفه
من قبل
The Guardian»
الغارديان»

أن تبدأ.. هذا كل ما لديك


ISBN: 978-614-472-103-2


التوزيع في العالم العربي
دار التنوير

